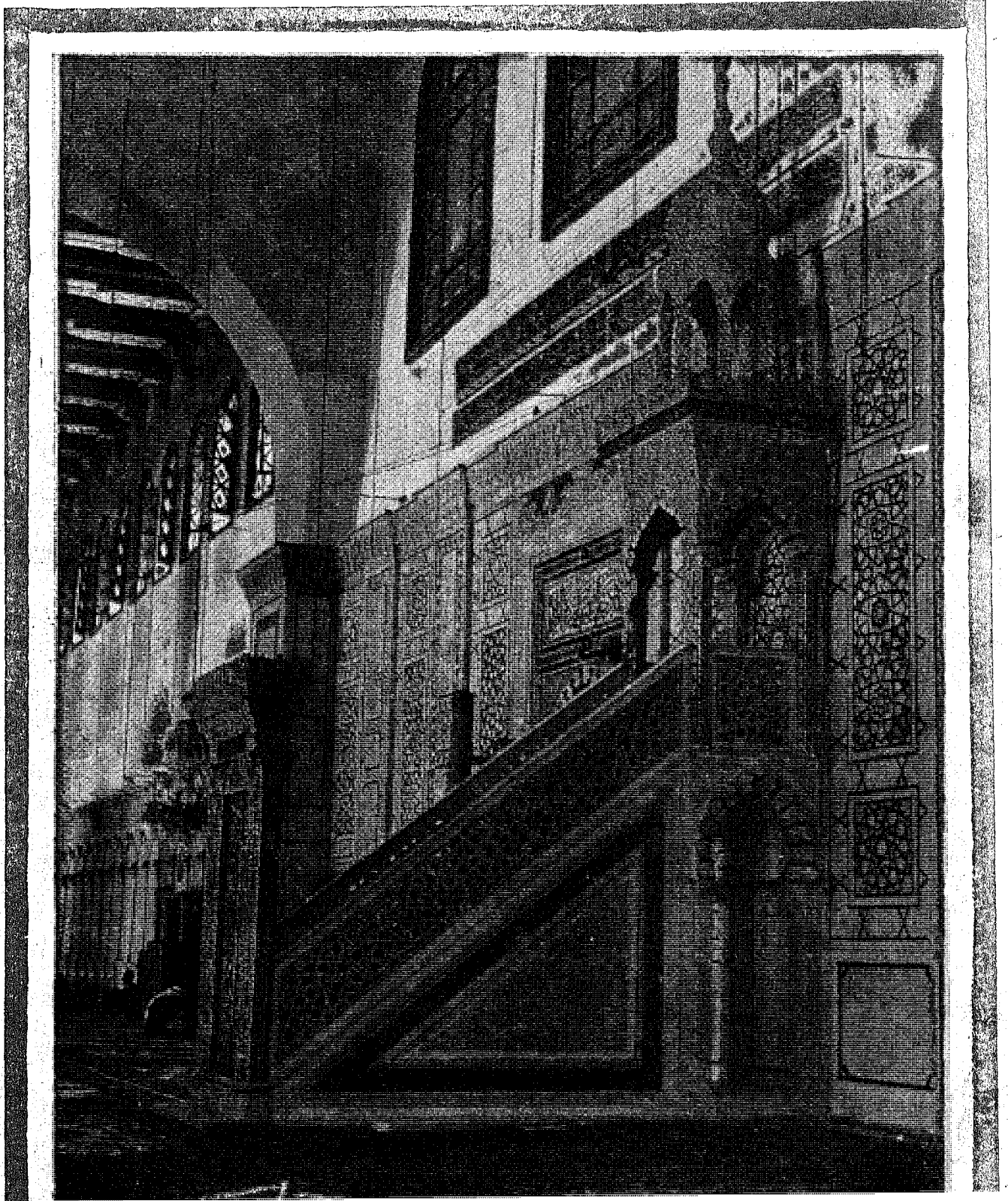


بَدَائِعُ الزُّهُورِ
فِي وَقَائِعِ الدُّهُورِ



ولما بلغ الملك الظاهر ذلك تنفح لحيته بيده
ورسم لحاجب الحجاب وقراجا الوالى بأن يدرکوا
رد الناس عن النهب ، فنزلوا من القلعة على حمية
فلم يردوا من النهب الا بعض شيء ، وراحت على
من راح . فقبض الوالى على جماعة كثيرة من
العوام وضربهم بالمقارع ، وشيء قطع أيديهم ،
وكادت القاهرة أن تخرب فى ذلك اليوم لهذه
الواقعة . ثم ان الملك الظاهر بعث بعذر الى
القاصد مما جرى وأن ذلك من غير علمه ، ثم أرسل
الى القاصد عشرة آلاف دينار أكثر مما فهب له ،
وصار القاصد كلما شق من القاهرة بسبه جماعة
من العوام ويهدلونه ، وما قاسى خيرا من أهل
مصر .

وفى يوم السبت ثالث عشره فيه وقعت حادثة
غريبة ، وهى أن شخصا يهوديا يقال له خضير ، وكان
بالصلبية ، وهو يدعى الطب ، فتوجه الى عليل من
أولاد الناس فوصف له حقنة ، فلما احتقن مات
عقيب الحقنة بيومين . فقبضوا على ذلك اليهودى
وتوجهوا به الى شاد الشراب خاناه ، فقيل انه من
خوفه قصد أن يسلم ، ثم رجع الى دينه ، ولم يثبت
عليه قتل ذلك العليل وادعى أن العليل كان قد
ضربه الخمر على قلبه فمات عقيب الحقنة بأجله ،
فلم يثبت على اليهودى قتله ، وقيل ان اليهودى
غرم مبلغا له صورة ، وأدبوه ثم خلص من القتل
وراح القتل فى كيس العليل . وقد قيل فى المعنى :

ليت شعرى وللزمان خطوب

وبلاء يختص بالأحرار

هل لميت قضى عليه طيب

من كميل أو أخذ بالشار

وفى يوم الأحد رابع عشره أرسل السلطان النفقة
الى الأمراء الطبلخانات والأمراء العشراوات المعينين
الى التجريدة ، وذلك على جارى العادة .

وفى يوم الجمعة ثانى عشره جاءت الأخبار بأن
ابن عثمان أرسل قاصدا آخر مطرا على جرائد
الخييل ، فلما وصل الى الصالحية بات بها تلك الليلة
فسرق له من تحت رأسه بقجة فيها نماش القاصد
وبعض مبلغ ، ومن جملة ذلك مطالعة ابن عثمان الى
السلطان . فلما بلغ السلطان ذلك تنكد الى الغاية ،
وقيل انه قبض على لحيته من شدة غضبه ، وعين
فى الوقت والساعة بابا الى شيخ العرب أحمد بن
بقر وعلى يده مراسيم بأن يفحص على من أخذ
بقجة هذا القاصد من العربان ، وان ضاعت مطالعة
ابن عثمان التى فى البقجة كانت روحه قبالة ذلك .
فتوجه اليه البابا ، وأشيع فيما بعد بأن شيخ العرب
قبض على من أخذ بقجة القاصد وأعيد اليه ما سرق
له بالتمام من يومه . وقيل ان السلطان حلف بحياة
رأسه ان لم يحضر شيخ العرب أحمد بن بقر بهذه
البقجة بجميع ما فيها والا بوسط الأمير أحمد فى
ثيابه ... واستمر الأمر على ذلك حتى يظهر أمر
البقجة .

ويقرب من هذه الواقعة ما اتفق فى دولة الملك
الظاهر جقمق رحمة الله عليه . وذلك أن فى سنة ثمان
وأربعين وثمانمائة حضر الى الأبواب الشريفة قاصد
من عند شاه روخ بن تمرلنك ، فلما حضر أنزله
فى مكان بالقرب من بين القصرين . وكان شاه روخ
أرسل الى الملك الظاهر على يد هذا القاصد مقدمة
حافلة ، فلما طاع القاصد الى القلعة أدخله السلطان
الى البحرة ، فأبطأ عند السلطان ، فأشيع فى القلعة
أن السلطان قد قبض على القاصد ، فنزلت المماليك
الجلبان من الطباق وتوجهوا الى المكان الذى نزل
به القاصد فنهبوا كل ما كان فيه . والتف عليهم
السواد الأعظم من العوام فلم بقوا للقاصد شيئا ،
وأخذوا المقدمة التى كانت للسلطان حتى أخذوا
خيوله .

وفي يوم الأحد المذكور كانت وفاة القطب العارف بالله تعالى الوالي الزاهد المجذوب الشيخ محمد بن زرعة الأحمدي البدرشيني رضي الله عنه . وكان من أعيان الأولياء ، وله كرامات خارقة ومكاشفات صادقة ، ومات وهو في عشر السبعين ، وكانت جنازته مشهودة وصلى عليه في جامع الشيخ سلطان شاه ودفن في زاويته التي بالقرب من قنطرة قديدار ، وكان معتقدا بالصلاح رضي الله عنه . وفي يوم الأربعاء سابع عشره جلس السلطان بالميدان وعرض العسكر المعين للتجريدة ، فأنفق عليهم جامكية جمادى الآخرة توسعة عليهم خارجا عما أفنقه لهم من الأربعة أشهر المعجلة كما تقدم ذكر ذلك ، وأنفق عليهم عقيق ذلك الشهر ، وفرق عليهم الخيول التي كانت لهم في الديوان ... فجماعة من المماليك أخذوا لهم خيولا شيء فرس وشيء فرسين ، وجماعة منهم أخذوا لهم ثمن فرس خمسة آلاف درهم ، وقد بالغ السلطان في الاحسان اليهم وما أبقى في ذلك ممكنا ووعدهم بأن يصرف لهم ثمن اللحم أيضا عقيب ذلك ، فارتفعت له الأصوات بالدعاء من العسكر .

وفي يوم الخميس ثامن عشره أشيع موت شمس الدين بن عوض أستادار الذخيرة الشريفة وغير ذلك من الوظائف السنية . وهو محمد بن أحمد بن عوض ، وأصلهم فلاحون من منية مسير . وكان شمس الدين هذا في مبتدأ أمره فقيرا جدا فباشر ديوان جماعة من الأمراء المقدمين ، منهم الأمين أزيك الخازندار والأمير أزدمر الدوادر وغير ذلك من الأمراء ، ثم راح أمره في دولة الأشرف قانصوه الغوري وباشر ديوان السلطان ، وصار أستادار الذخيرة ، وابنه شرف الدين مستوفى على الخزائن الشريفة ، وابنه فخر الدين مباشر عند الأمير طومان باي الدوادر ، فتلاعبت به الدنيا لكثرة

هجرته وركب فيها في غير سرجه ، فأخذ في أسباب المرافعات في المباشرين وأعيان الناس حتى ضجعت منه الأفلاك والأملاك . وكان انفراد بالسلطان وعول عليه ، فأخذ الله تعالى من العجائب الذي كان يآمن اليه ، فتغير خاطر السلطان عليه وقبض عليه كما تقدم ذكر ذلك ، فتسلمه الزينى بركات بن موسى على مائة وخمسين ألف دينار غير ستين ألف أردب شعير . فلما تسلمه شرع يعذبه بأنواع العذاب من ضرب مقارع وعصره في آكعابه وأصداغه هو وورلده شرف الدين ، وصار ابن عوض يقاسي ذلك العذاب الأليم ولم يرد من المال الذي قرر عليه سوى قدر عديم ، فاستمر تحت العقوبة الى أن مات وولي عمره وفات . فمات وهو في بيت الوالي على حصير والحديد في عنقه ، فما فكوه من عنقه حتى مات شرموتة « وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون » فلما مات في بيت الوالي حمل الى داره ففصل وكفن ولم يش له أحد في جنازة ، وفي ذلك عبرة لمن يعتل ، وقد قيل في المعنى :

آلا انما الدنيا كمثل أراكمة

إذا اخضر منها جانب جف جانب

هي الدار ما الآمال الا فجائع

عليها ولا اللذات الا مصائب

فكم سحت بالأمس عين قريرة

وقرت عيون دمعها اليوم ساكب

فلا تكتحل عينك فيها بعبرة

على ذاهب منها فانك ذاهب

وكان سبب نكبة ابن عوض قيل وقع بينه وبين الأمير خاير بيك كاشف الغريبة من أجل ابن جميل أحد مشايخ الغريبة ، فقطع خاير بيك وشكا ابن عوض الى السلطان ، وبالنسبة في شكواه حتى غير خاطر السلطان عليه . وقيل ان خاير بيك قال :

أنا أثبت في جهة ابن عوض مائة وخمسين ألف دينار .

وفي يوم الخميس المقدم ذكره صنع السلطان وليمة حافلة بالمقياس . واجتمع بها القضاة الأربعة وأعيان الناس من العلماء وغير ذلك ، ومد هناك الأسطة الحافلة ، واجتمع هناك قراء البلد قاطبة والوعاظ وكانت ليلة حافلة . والسلطان كل سنة يصنع مثل ذلك بالمقياس قرب وفاء النيل .

وفي سنة عشر وتسعمائة صنع وليمة بالمقياس مثل هذه فزاد الله تعالى في النيل المبارك تلك الليلة خمسين أصبعا دفعة واحدة ، فعد ذلك من النواذر .

وفي يوم الاثنين ثاني عشرينه حضر الى الأبواب الشريفة الأمير طومان باي الدوادر ، وكان له مدة وهو مسافر في الصعيد بسبب المغل .

فلما كان يوم الأحد بلغ السلطان وصوله الى الجزيرة فنزل الى المقياس ولافاه من هناك ، وكذلك قاصد ابن عثمان . فلما طلع الى القلعة يوم الاثنين المذكور خلع عليه السلطان خلع حافلة ، ونزل من القلعة في موكب مشهود ، وصحبته سائر الأمراء المقدمين والمباشرين وأعيان الناس ، واستمر على ذلك حتى دخل الى داره . وخلع عليه السلطان في ذلك اليوم فوقاني أخضر بطرز يلبغاوى عريض . ومشت الأفيال وهي مزينة قدامه في ذلك الموكب وشق من الصليبة .

وفي يوم الثلاثاء ثالث عشرينه توفي الأمير ماماي جوشن أحد الأمراء المقدمين الألوف ، وكان رئيسا حشما جميل الهيئة قلب الأذى بين الأمراء ، ومات وهو في عشر الستين ، وقيل أصله من ممالك الظاهر خشقدم من كتابيته ، واشتراه الأشرف قايتباي من بيت المال وأعتقه فهو من جملة معاتيق الأشرف قايتباي ومن مملكته ، فلما بلغ السلطان

وفاته نزل وصلى عليه ، وكانت جنازته مشهودة رحمه الله تعالى عليه

وفي يوم الثلاثاء المذكور كان وفاء النيل المبارك ، أوفى بعد الطهر ، وعلق الستر على شبك القصر الذي أنشأه السلطان على بسطة المقياس ، وقد أوفى الله الست عشرة ذراعا وأصعب من سبع عشرة ، ووافق ذلك ثاني عشرين مسرى ، وقد أبطأ هذا النيل عن نيل السنة الماضية بسبعة أيام ، وكانت الناس بسببه في غاية الاضطراب .

وفي يوم الأربعاء رابع عشرينه ، الموافق لثالث عشرين مسرى ، فتح السد وكان يوما مشهودا قل أن يقع مثله في الفتك والفرجة ، ورسم السلطان للأتابكي سودون العجمي بأن يتوجه ويفتح السد على العادة ، فكان له في ذلك موكب حافل ، وخلع عليه السلطان فوقاني أخضر بطرز يلبغاوى عريض ، وحصل للناس غالة الجبر بكسر السد في ذلك اليوم . وقد قيل في المعنى :

كسر الخليج وكان ذلك نعمة
سرت قلوب العالمين لبشره
ومن العجائب والغرائب أنه
جبرت قلوب المسلمين لكسره
وقبل في المعنى أيضا :

أرى نيل مصر قد غدا يوم كسره
إذا رام جريا في الخليج تقنطرا
ولكن بعد الكسر زاد تجبرا
وأفرط هجما في الصرى وتجبرا

ووافق أن النيل زاد بعد فتح السد بيومين عشر أصابع في دفعة واحدة ، ثم في اليوم الثالث من فتح السد زاد الله في النيل المبارك إحدى عشرة أصبعا في دفعة واحدة ، ثم في اليوم الخامس من

فتح السد زاد سبع أصابع فزاد ست عشرة أصبعا من ثمانى عشرة ذراعا وذلك فى أواخر مسرى بعد الوفاء بخمسة أيام ، فعد ذلك من النوادر .

وفى يوم الاثنين ثامن عشرينه خرج جماعة كثيرة من المماليك السلطانية المعينين الى التجريدة ، وقد رسم لهم السلطان بأن كل من انتهى شغله يخرج ويسافر قبل الباش ، فخرجوا أفواجا أفواجا واستمروا على ذلك فى كل يوم تخرج منهم جماعة بعد جماعة .

وفى رجب كان مستهل الشهر يوم الثلاثاء ، فجلس السلطان فى الميدان ، وطلع اليه الخليفة والقضاة الأربعة يهنونه بالشهر .

وفى يوم الخميس ثالثه خلع السلطان على يوسف البدرى الوزير كاملية مخمل أحمر بسمور ، وخلق على القاضى شرف الدين الصغير ناظر الدولة ، وعلى مقدم الدولة ، خلع الاستمرار ، ونزلوا من القلعة فى موكب حفل ، حتى رجت لهم القاهرة فى ذلك اليوم .

وفى يوم الخميس المذكور أشيع أن السلطان قبض على جاني بيك الاستادار الذى كان دودار الأمير طراباى ، وكان السلطان ندبه بأن يتكلم فى الاستادارية نيابة عن الأمير طومان باى الدودار ، فخلع عنه ، فلما تكلم فى الاستادارية أظهر الظلم والجور ، وصار لا يراعى من الأنام خليلا ، فعادى سائر الأمراء والعسكر قاطبة بسبب الحمایات وأمور البلاد . فكان يرسم على الأمراء الطبلخانات والعشراوات بسبب الحماية ، ويرسل الرسل الغلاظ الشداد الى بيوت الأمراء المقدمين ويطالبهم بالحماية الطلب العسف ، حتى ضج منه الأمراء والعسكر . فكان يأخذ حماية سنة معجلا قبل أن يطلع النيل

وكذلك الشياخة ، وكان السلطان قربه أولا وصار لا يقبل فيه شكوى ، وكان ذلك من أكبر أسباب الفساد فى حقه ، فلا زال بعض أعدائه يتكلمون فى حقه عند السلطان حتى غيروا خاطره عليه بالكلية ، فانقلب عليه كأنه ما يعرفه قط . فلما رسم عليه اتسبب الى حسابه نور الدين على البرماوى البرردار بالخدم الشريفة وجماعة من المباشرين ، فدققوا عليه الحساب وحاسبوه على الفئيل والنقير والقطمير والقليل والكثير ، حتى قيل حاسبوه على ما كان يدخل اليه من الضيافات والتقادم وغير ذلك ، فقيل بقوا عليه ثلاثة وثلاثين ألف دينار على ما قيل ، واستمر فى الترسيم حتى يكون من أمره ما يكون .

وفى يوم الأحد سادسه جلس السلطان بالميدان وحضر عنده قاصد ابن عثمان وسائر الأمراء المقدمين ، فجلس قاصد ابن عثمان فوق أمير كبير سودون العجمى بإذن السلطان له ، عند السلطان فى المقعد ، وساق قدامه الرماحة وهم لابسون الأحمر كما يفعلون فى لعب الرمح عند دوران المحمل فى رجب ، وكان لهم مدة طويلة وهم يدمنون فى لعب الرمح كما جرت به العادة القديمة ، فكان المعلم تمر الحسنى أحد المقدمين الأولف ، ويعرف بالزردكاش أيضا ، وأما الباشات الأربعة وهم الأمير كرتباى بن قصره والى القاهرة والأمير أذربك بن دولاتبای والأمير اينال الأشقر الأشرفى والأمير مصرباى الأبو بكرى ، فأظهروا فى لعب الرمح الفنون الغريبة حتى تحير القاصد من ذلك وتعجب غاية العجب ، ثم فى أواخر السوق نزل المعلم والباشات الأربعة والأربعون فارسا وباسوا الأرض للسلطان ، وقد أحدث ذلك الأشرف قايتباى لما كان يسوق فى دوران المحمل فكان

ينزل عن فرسه ويبوس الأرض للسلطان خشققدم في وسط الرمله ، وكان السلطان قصد سوق الرماحة قدام القاصد عددا حتى يريه فروسية عسكر مصر ، وكان ذلك عين الصواب ، فاجتمع في الميدان في ذلك اليوم الجهم الغفير من الخلائق ، وكان يوما مشهودا ، فساق الرماحة في ذلك اليوم مرتين ، ثم لعب بعد ذلك جماعة من المماليك خصمانية في الرمح ، والقاصد ينظر اليهم ويتعجب من ذلك ، فلما اقتضى أمر سوق الرماحة قام السلطان ودخل الى البحرة التي أنشأها في الميدان ، وأضاف القاصد هناك هو والأمراء ومد لهم أسطة حافلة وأظهر أنواع العظمة في ذلك اليوم الى الغاية ، ثم خلع على قاصد ابن عثمان خلعة سنية وأذن له في السفر صحبة العسكر ، ثم بدا للسلطان بأن يعوق قاصد ابن عثمان الى أن يحضر اينال باى دوا دار سكين ، فلم يخرج صحبة العسكر كما أشيع قبل ذلك أمر سفره مع الأمراء ، ثم خلع السلطان في ذلك اليوم على الأمير تر المعلم وأركبوه فرسا بسرج ذهب وكنبوش ، وخلع على الباشات الأربعة كما جرت به العادة القديمة ، وقد جدد السلطان ذلك بعد ما كان قد نسي أمره من أيام الأشرف قايتباى ، فعد ذلك من محاسن السلطان .

وفي يوم الاثنين سابعه خرج الأمراء المعينون للتجريدة وهم الأمير قانى باى قرا أمير آخور كبير باش العسكر المنصور والأمير سودون الدوادارى رأس نوبة النوب والأمير أرزمك الناشف أحد الأمراء المقدمين والأمير أبرك مملوك السلطان أحد الأمراء المقدمين وغير ذلك من الأمراء الطبلخانات والعشراوات ، فكان لهم يوم مشهود . واستمرت الأطلاب تنسحب من اشراق الشمس الى قريب الظهر ، فأظهروا غاية العظمة في ذلك اليوم في

تزخرف الأطلاب ، حتى ارتجت لهم القاهرة في ذلك اليوم ، واصطفت لهم الناس على الدكاكين بسبب الفرجة ، وكان ذلك اليوم مشهودا ، وكان طلب أمير آخور كبير غاية في الحسن ما أبقى فيه ممكنا ، وكذلك بقبة الأمراء ، ثم ان السلطان خلع على أمير آخور خلعة السفر ونزل من القلعة في موكب حفل وصحبته الأتابكى سودون العجمى وسائر الأمراء المقدمين ، فاستسروا صحبته حتى نزل في الوطاق بالريدانية .

وفي يوم الثلاثاء ثامنه كان أول يوم النوروز ، وهو أول السنة القبطية ، سنة عشرين وتسعمائة الخراجية وكان هذا اليوم عند الأقباط له شأن عظيم وكان يقع لهم فيه أخبار غريبة . وهو أول الأيام من توت من أول الشهور القبطية .

وفي يوم الأربعاء تاسعه أشيع بين الناس أن السلطان رسم بتسليم جاني بيك الأستادار الى الزينى بركات بن موسى ليعاقبه حتى يستخلص منه الأموال التي قررت عليه . وكان السلطان قرر عليه ثلاثة وثلاثين ألف دينار فامتنع جاني بيك من ذلك وتكلم بكلام يابس . فلما بلغ السلطان ذلك حنق منه ورسم بتسليمه الى الزينى بركات بن موسى . وفي يوم الخميس عاشره أشيع بين الناس أن سليم شاه بن عثمان ملك الروم قد اتصر على الصفوى وملك منه أرزنكان وتبريز ، فلم يثق السلطان بهذا الخبر وثبتت حتى ترد عليه الأخبار الصحيحة فيدق الكوسات ، ولكن سر السلطان بهذه الاشاعة وأمر بأن تقرأ عدة ختمات في أماكن من الجوامع ، فقرىء في مقام الامام الشافعى رضى الله عنه سبعون ختمة بالجبرتية ، وقرىء في مقام الامام الليث بن سعد رضى الله عنه عدة ختمات ، وكذلك في جامع عمرو بن العاص رضى الله عنه ، وفي جامع أحمد بن طولون ، وفي الجامع الأزهر

وغير ذلك من الجوامع التي بالقاهرة ، ورسلا لكل جامع من الجوامع مبلغا بسبب القراء ، وعمل أسمطة للفقراء فعد ذلك من محاسن السلطان .

وفي يوم الاثنين رابع عشره نزل الزينى بركات ابن موسى من القلعة وقدامه عبد من عبيد ابن عوض وقد رسم السلطان بتوسيطه ، وسبب ذلك أنه قيل عنه كان يعرف ذخائر أستاذه شمس الدين ابن عوض ولم يقر بمكان فيه المال ، وعاقبه ابن موسى وسجنه في المقشرة مدة ولم يقر بشيء من المال ، فحنق منه الزينى بركات فشاور عليه السلطان فرسم بتوسيطه ، فوسطه عند قنطرة الحاجب ولم يقر بشيء من المال الذى كان يعلم به . فراح ظلما أن علم بالمال أو لم يعلم .

وفي يوم الثلاثاء خامس عشره نزل السلطان من القلعة وتوجه الى نحو مصر العتيقة بعد أن صلى صلاة الفجر ، فلما وصل الى فم السد نزل من هناك فى مراكب قدمت اليه ، وكان صحبته جماعة من الأمراء منهم الأتابكى سودون العجمى والأمير أركماس أمير مجلس والأمير طومان باى الدوادار والأمير أنص باى حاجب الحجاب ، والأمير تمر أحد المقدمين والأمير علان الدوادار الثانى أحد المقدمين ، وغير ذلك من الأمراء المقدمين والطبلخانات والعشراوات ، وجماعة كثيرة من خاصكية ، فتوجه الى بر الجزيرة واستمر حادرا من هناك الى بولاق فطلع الى البرابجية ، وكان القاضى كاتب السر محمود بن أجا عزم عليه هناك ، فلما استقر هناك هو والأمراء أحضر كاتب السر بين يدى السلطان مدة عظيمة ما أبقى فيها ممكنا وأتبعها بطوارى حفلة ما بين حلوى وفاكهة ومخبوز وغير ذلك من الماكل الفاخرة ، فبات السلطان عنده تلك الليلة فى البرابجية ، فكان سماط العشاء أعظم من سماط الغداء ، وقيل أحضر فى الطارى

بعد الظهر أربعين خروفا شوى وقيل ثلاثين وخمسين جضه فيها جذابة ، ثم مد له فى اليوم الثانى سماطا للغداء فقيل ان القاضى كاتب السر صرف على تلك المدات فوق الألف دينار ، فد تغدى السلطان عنده نزل هو والأمراء فى المراكب وتوجه الى المقياس فأقام به انى أواخر النهار . ثم عدى من هناك وطلع الى القلعة ، فلما طلع أرسل اليه القاضى كاتب السر مقدمة حفلة ما بين سمور ووشق وسنجاب وصوف وجوخ وبعلبكى وغير ذلك ، وقيل أرسل اليه ذهب عين ما علم قدره ، ومملوكا جركسيا مليحا . قلت والقاضى كاتب السر هذا هو آخر رؤساء مصر من المباشرين .

وفي يوم الجمعة ثامن عشره وقعت نادرة غريبة وهى أن قاصد ابن عثمان الثانى الذى جاء وزعم أن العرب سرقوا بقجته من تحت رأسه وفيها مطالعة ابن عثمان وتكسد السلطان بسبب ذلك ، فلما حضر بين يدى السلطان صار يعتذر له مما سرق له ، فأقام فى مصر أياما فأرسله السلطان الى القاصد الذى جاء فى الأول فأنكر أمره وقال ان ابن عثمان لم يرسله وأن هذا القاصد لم يكن من جماعة ابن عثمان ، فاستمر بمصر الى أن طلب الاذن من السلطان فى العود الى بلاده فأذن له فى ذلك وأنعم عليه بمال له صورة ، فلما خرج وسافر وقع بينه وبين رفيقه بسبب المبلغ الذى حصل له فلم يعط رفيقه منه شيئا ، فلما وقع بينهما رجوع رفيقه ونم عليه عند السلطان بأن هذا داسوس من عند حسن بن أحمد بيك بن عثمان الذى حضر أبوه الى مصر ومات بها بالطاعون كما تقدم ذكر ذلك ، وهو الآن عند الصفوى مقيم وأرسل هو القاصد ليستفهم الأخبار بما جرى فى مصر . وهذا القاصد نصب على اللواب وأخذ منهم مبلغا له صورة ، فلما تحقق السلطان ذلك رسم

القاصد من الطريق ، فلما حضر بين يدي السلطان قصد أن يشنقه ثم سلمه الى الوالى فشكه في الحديد ونزل به ماشيا على أقدامه والمشاعلية تنادى عليه هذا جزاء من يكذب على الملوك ، ثم توجه به الى المقشرة فسجن بها ، وقيل رسم السلطان الموالى بأن يعاقبه ويستخلص منه ما كان أخذه من النواب من المبلغ والتقدم التى دخلت عليه .

وفى يوم السبت تاسع عشره نزل السلطان الى قبة يشبك التى بالمطرية وبات بها ، وأقام هناك الى يوم الأحد أواخر النهار وانشرح الى الغاية .

وفى يوم الاثنين حادى عشرينه أذن السلطان الى فاصد ابن عثمان بالسفر ، وهو الذى حضر أولا ، وكان من أمرائه المقدمين قيل انه أمير آخور كبير عند ابن عثمان ، فلما طلع رسم السلطان بأن يزين باب الزردخاذه بالسلاح والصناجق ، وكذلك باب القلعة وباب سلم المدرج ، فلما طلع القاصد عمل السلطان الموكب بالحوش وحضر الأتابكى سودون العجمى وسائر الأمراء ، وكان الموكب حافلا ، ثم خلع السلطان على القاصد خلعة معظمة وهى كاملة جرد ذهب شغل القاعدة بسمور عال ، وفوقها فوقانى حرير أخضر بطرز يلبغاوى عريض ، قيل فيه خمسمائة مثقال ذهب ، وخلع على من معه من جماعة ابن عثمان سلاريات صوف بسمور عال ، ونزل القاصد من القلعة فى موكب حافل وصحبته الرعوس النوب ، ثم أخذ فى أسباب الخروج الى السفر .

وفى ذلك اليوم المقدم ذكره حضر إلى الأبواب الشريفة الأمير اينال باى دودار سككين الذى كان توجه الى سليم شاه ابن عثمان ملك الروم ،

وقد توجه اليه بعد مجيء أقبای الطويل ، فلما قابل ابن عثمان أكرمه وأقبل عليه وميزه على أقبای واستحسن كلامه فى رد الجواب وشكره على أقبای ، فلما فصد التوجه الى مصر خلع عليه خلعة سنية وأنعم عليه بمال له مسورة ، وكتب معه مطالعة للسلطان ونعته فيها بأنواع عظيمة وبالغ فى تعظيمه ، وقيل ان ابن عثمان أظهر فى مكاتبتة بعض نواظم بكثرة عساكره وشدة بأسه ، فلم يلتفت السلطان الى شىء من ذلك .

وفى شعبان كان مستهل الشهر يوم الأربعاء ، فطلع الخليفة والقضاة الأربعة للتهنئة بالشهر ، فسلموا على السلطان وعادوا الى بيوتهم .

وفى يوم السبت رابعه أشيع بين الناس أن قد حضر ساع ، وأخبر بأن سليم شاه ابن عثمان قد انتصر على الصفوى وملك بعض ضياع بديار بكر وأشيع أنه ملك تبريز أيضا ، فعند ذلك تشبت السلطان ولم يدق الكوسات حتى ترد عليه الأخبار الصحيحة فى ذلك ، وفى هذه الأيام كثر القيل والقال بين الناس بأن ابن عثمان قد أسر الصفوى ووضع فى حديد وطاق ، به فى البلاد ، ولم تصح هذه الأخبار بل اشاعات بين الناس .

وفى يوم الاثنين سادسه حضر سيف جاز ن طرابلس ، وكان أصله من مماليك الأشرف وبيباى وكان لا بأس به .

وفى يوم الجمعة عاشر شعبان رسم السلطان بفتح سد خليج أبى المنجا ، ووافق ذلك ثانى بابه وقد تأخر فتحه عن العادة الى اليوم وفات أوان ميعاد فتحه . وكان النيل يومئذ فى خمس عشرة أصبعا من عشرين ذراعا وقد حصل به غاية المنافع وعم البلاد قاطبة ، واستمر النيل فى ثبات

على ما ذكرناه الى أواخر بابه لم يتهبط منه شيء .
وفي ذلك اليوم وقعت حادثة مهولة ، وذلك أن
في يوم فتح سد أبي المنجا توجه الأمير كرتباي
والى القاهرة الى فتحه ، فلما توجه الى هناك
أوسق مركبين فيهما مطابق فيها أكل حلوى وفاكهة
وكان في المركبين شيء من الفرش والقماش
والأواني ، فلما وصلا الى قناطر أبي المنجا قوى
عليهما تيار الماء ، فانقلب هذان المركبان بما
فيهما مما ذكرناه فغرقا بكل ما كان فيهما جميعا
وغرق للوالى مملوك من مماليكه الخاص وبعض
غلمان ، وكان ذلك اليوم مهولا وما جرى على
الوالى في ذلك اليوم خير .

وفي يوم الأربعاء خامس عشر شعبان ، الموافق
لسابع بابه ، فيه ثبت النيل المبارك على خمس عشرة
أصبعا من عشرين ذراعا ، وكان هذا النيل المبارك
أزيد من نيل السنة الخالية باحدى عشرة أصبعا .

وفي أثناء هذا الشهر نزل السلطان الى قبة يشبك
التي بالمطرية وبات بها ، وكانت ليلة مقمرة ، فمد
له الزينى بركات بن موسى هناك مدات حافلة ،
وما أبقى في ذلك ممكنا من أطعمة فاخرة وحلوى
وفاكهة وسمك وخرقان شوى وغير ذلك . وحضر
عند السلطان مغانى وأرباب آلات وانشرح هناك
الى الغاية ، وأقام في القبة يومين ، وكانت الملقاة
معمرة بلماء وهى في غاية البهجة ، ثم طلع الى القلعة
بعد العصر .

وفي هذا الشهر كان الأمير خاير بيك الخازندار
مريضا على خطة وأشيع موته غير ما مرة ، واستمر
على ذلك وهو مريض ملازم للفراش والاشاعات
قائمة بموته في كل يوم .

وفي يوم الخميس كان مستهل شهر رمضان

فطلع الخليفة والقضاة الأربعة للتهنئة بالشهر ،
فجلس السلطان بالميدان ، وطلع الوزير يوسف
البدرى والزينى بركات بن موسى المحتسب ،
وعرضا اللحم والدقيق والخبز والغنم والبقر على
السلطان كما جرت به العادة وهو مزفوف على
رؤوس الجمالين ، فخلع السلطان عليهما وخلع
على القاضى شرف الدين الصغير ناظر الدولة الخلع
السنية ، وكان ذلك اليوم مشهودا .

وأما في ليلة رؤية الهلال فحضر القضاة الأربعة
بالمدرسة المنصورية ، وحضر الزينى بركات بن
موسى المحتسب ، فلما ثبتت رؤية الهلال وانقض
المجلس ، ركب الزينى بركات بن موسى من هناك
قتلاقيه الفوانيس الأكرة والمجانيق والمشاعل
والشموع الموقودة ، فلم يحص ذلك لكثرتة ،
ووقدوا له الشموع على الدكاكين . وعلموا له
التنانير والأحمال الموقودة بالقناديل من الأمشاطيين
الى سوق مرجوش الى الخشابين الى سويقة اللبن
الى عند بيته ، فارتجت له القاهرة في تلك الليلة ،
وكانت من الليالى المشهودة ، وأطلقوا له مجامر
بالبحور بطول الطريق ، وكان ذلك يعادل المواكب
السلطانية ، وكان الزينى بركات بن موسى محببا
لناس قاطبة فارتفعت له الأصوات بالدعاء ، وكان
له سعد خارق لم يقع لغيره من الناس الا القليل ،
ولا سيما ما اجتمع فيه من الوظائف السنية ما لا
اجتمع في أحد من الأعيان قبله منها الحسبة الشريفة
واستادارية الذخيرة وغير ذلك من الوظائف
والتحدث على الجهات من البلاد السلطانية .

وفي يوم السبت ثالثه جاءت الأخبار من بلاد
الشرق صعبة الساعة من بعض النواب بأن سليم
شاه ابن عثمان سلطان الروم وقع بينه وبين شاه
اسماعيل الصفوى وقعة مهولة تشيب منها النواصي ،

بقي خازندارا كبيرا عوضا عن عبد اللطيف الزمام بحكم وفاته ، ثم صار أمين السلطان على خزائن الأموال وغيرها ، وصار لا يقضى أمر من أمور المملكة دون علمه ، ثم أنعم عليه السلطان بتقدمة ألف فتزايدت عظمته وتضاعفت حرمة ، ونال من العز والعظمة ما لا ناله أقاته الأمير خاير بيك الخازندار مملوك الظاهر خشقدم في دولة أستاذه في أيام خازنداريتها . ولكن كان خاير بيك هذا عنده رهج وخفة وبادة بسفاهة مع حدة زائدة ، وكان اذا رسم السلطان بأمر لا يراجع فيه الا الأمير خاير بيك ولا يكون الا ما يقوله الأمير خاير بيك ، وكان له محاسن ومساوىء ، وكان له الادلال الزائد على السلطان ، وكان عنده من المقربين . وتوفي الأمير خاير بيك وله من العمر نحو ثمانين سنة ، ولما مات ظهر له من الموجود أشياء كثيرة ما بين مال وقماش وبرك وسلاح وتحف وحيول وبغال وجمال وغير ذلك من الموجود الحافل ، وقد تكلموا على موجوده بأشياء كثيرة لكنني لم أقف على صحتها فلم أوردتها هنا خوفا الاعتراض على في ذلك ، وهذا القدر كاف هنا .

وفي يوم الثلاثاء ثالث عشره نزل السلطان الى مدرسته ، وعرض الأيتام والصوفية الذين بها ، ورسم للأيتام بكسوة ، وأقام هناك الى قريب الظهر ، ثم طلع الى القلعة .

وفي يوم الخميس خامس عشره حضر الى الأبواب الشريفة ماماي السلحدار أحد الأمراء العشراوات ، الذي كان توجه للشام بسبب تزويج ابن السلطان بنت سيماي نائب الشام ، فتوجه الى الشام بالمهر وعقد العقد لابن السلطان فتعل نائب الشام وقال أنا ابنتي صغيرة عمرها ست سنين لم تستحق للزواج ، وكان له ابنة أكبر من هذه

وقتل من عسكر ابن عثمان نحو من ثلاثين ألفا ، وقيل نحو ستين ألفا ، وقتل مثل ذلك من عسكر الصفوى ، فكان بينهما من الحروب المهولة ما يطول ترحه ، وكان ذلك في سادس رجب سنة عشرين ، وقيل قتل من أمراء ابن عثمان اثنا عشر أميرا مقدم ألف ، وقتل من عسكر الصفوى أضعاف ذلك ، وقيل كانت هذه الواقعة بالقرب من تبريز العجم ، وكانت الكسرة أولا على ابن عثمان وآخر الأمر أن الصفوى انكسر كسرة قوية ، وقتل غالب عسكره وانهمز الباكون ولم ينج منهم الا القليل ، وأشيع أن الصفوى قد قتل في المعركة ووجد تاجه مرميا على الأرض ، وقد تواترت الأخبار بذلك وقويت الاشاعات بقتله والله أعلم بحقيقة ذلك .

وأشيع أنه واصل عقيب ذلك عدة رعوس ممن قتل من عسكر الصفوى من أعيان أمرائه وعسكره وقد ملك ابن عثمان غالب بلاد الصفوى من ممالك الشرق ، فلم يرسم السلطان بدق الكوسات لهذا الخبر ، وكذلك الأمراء أخذوا حذرهم من ابن عثمان ، وخشوا من سطوته وشدة بأسه لما يحدث منه بعد ذلك الى جهة بلاد السلطان .

وفي يوم الجمعة تاسع شهر رمضان كانت وفاة الأمير خاير بيك الخازندار الكبير ، أحد الأمراء المقدمين وصهر السلطان زوج أخته فديما ، فأخرجت جنازته من بيته الذي عند جامع الأزهر ، وتوجهوا بنعشه الى سبيل المؤمنين فنزل السلطان له وحضر الخليفة وصلى عليه . وكانت جنازته حافلة ومشت فيها قضاة القضاة والأمراء المقدمون وأعيان المباشرين وغير ذلك من الأعيان ، ودفن في تربته التي أنشأها بالصحراء ، وكان أصله من ممالك الظاهر خشقدم ، وكان متزوجا بأخت السلطان قانصوه الغورى من حين كان جمدارا ، فلما تسلطن الغورى أنعم عليه بامره عشرة ، ثم

السُلطان الذين هناك ، فان الأحوال مضطربة
والأمور غير سالحة

وأما ما أشيع من الأخبار صحة هذا القفل الذي
خضر من حلب مما كان بين ابن عثمان وبين
الصفوى من أمر هذه النصره على الصفوى ، قيل
ان في سادس رجب من هذه السنة وقع بين ابن
عثمان وبين الصفوى وقعة مهولة بالقرب من تبريز ،
فكسر الصفوى ابن عثمان أولا كسرة فوية وقتل
من أمرائه الأعيان اثنا عشر أميرا مقدم ألف غير
الأمرء الذين دونهم ، وقتل من عسكره نحو من
ثلاثين ألفا وفيل أكثر من ذلك ، وكانت الكسرة
على ابن عثمان أولا . ثم ان ابن عثمان أحضر
اثني عشر ألف رام بالبندق الرصاص وتلاقى مع
الصفوى فكسر الصفوى كسره فوية ، وقيل انه
جرح وولى مهزوما فلم يعلم له خبر ، وقيل ان ابن
عثمان أسر أمرء الصفوى وحز رقابهم وأرسلهم
الى بلاد الروم ، فزينت له المدائن بالروم ، مدينة
اسطنبول وغيرها من المدائن . وقيل قتل من عسكر
الصفوى ما لا يحصى عددهم ، ثم ان ابن عثمان
ملك تبريز بالأمان ، وكذلك قاشان وسيواس وغير
ذلك من البلاد مما كان بيد الصفوى ، وخطب له
باسمه بها على المنابر . وكانت هذه النصره لسليمان
شاه ابن عثمان على غير القياس ولم يقع لأحد من
أجداده مثل هذه النصره قط . والكلام في ذلك كثير
ان صحت هذه الأخبار من أمر هذه النصره .

وفي أثناء هذا الشهر توفي القاضي بدر الدين
ابن الانبأى كاتب جيش الشام رحمة الله عليه ،
وقرر في وظيفته الشرفى يونس النابلسى الأستاذار
كان ، وكان بدر الدين لا بأس به .

وفي يوم الجمعة سادس عشر شهر رمضان قلع
السُلطان البياض ولبس الصفوف ، ووافق ذلك

توفيت في السنة الخالية لما وقع الطعن بالشام
وكانت هى المنصودة للزواج ، فلما ماتت قصد
السُلطان أن يعقد لابنه على :ينت الصفوى فلم
يوافق نائب الشام على ذلك وتعلل بأنواع العلل ،
فلما طلع الأمير مامى الى بين يدى السُلطان خلع
عليه وعلى الخوجا يونس العادلى ونزلا من القلعة
في موكب حافل .

وفي ذلك اليوم أنفق السُلطان الكسوة على
العسكر مع الجامكية . ولما حضر الأمير مامى الى
القاهرة حضر صحبته من الناس ما لا يحصى من
أهل حلب وغير ذلك من الناس ، فكان في هذا
القفل من أهل حلب عدد كبير ، وسبب ذلك أن
العسكر لما دخل الى حلب جرى على أهل حلب من
ممالك اسلطان الجلبان ما لا خير فيه ، نزلوا في
بيوتهم ، ونهبوا أمتعتهم ، وفسفوا في حريمهم
وأولادهم وعيالهم ولم يسمعوا للباش ولا نائب
حلب ، فوقع بين ممالك السُلطان الجلبان وبين
ممالك نائب حلب فتنة مهولة وكادت حلب أن
تخرب عن آخرها وهم أهلها بالجللاء منها ، وغضب
نائب حلب ، وخرج من حلب الى الفضاء وأقام به
بسبب ممالك السُلطان الجلبان فلم يسمعوا من
كبير ولا صغير ، وأشيع بين الناس بأن قرقماس
المقرى قد قتل في هذه المعركة ، وقيل ان ممالك
الأتابكى دولات باى هم الذين قتلوه ، فانه كان
اتهم يقتل أستاذهم دولات باى بأنه قد أشغله ،
والله أعلم بحقيقة ذلك ان كان قتل أم الا .

فلما جرى ذلك يحلب خشى غالب أهلها على
عيالهم وأولادهم فأرسلوهم الى مصر صحة ذلك
القفل المقدم ذكره . واستمر أهل حلب مع
الممالك الجلبان في اضطراب زائد ، وربما يقع
بسبب ذلك فتنة كبيرة بين الأمرء وبين ممالك

سابع هاتور القبطى ، وهى العادة القديمة فى لبس الصوف .

وفى يوم الأحد ثامن عشره توفى الناصرى محمد ابن قبحق نديم السلطان ، وكان علامة فى ضرب الطنبورة عارفا بصنعة الأنغام ، وكان لطيف الذات عشير الناس ، فكانت جنازته حافلة ومشى فيها أعيان الناس ، حتى أعيان مغايبى البلد والآلاتية قاطبة فانه كان شيخهم ، وكان من المقربين عند السلطان .

وفى يوم الاثنين سادس عشرين شهر رمضان جاءت الأخبار من حلب بأن المماليك السلطانية أثاروا بحلب فتنة مهولة وركبوا هناك على الأمراء وطردوهم عن حلب وقالوا لهم : أرسلوا قولوا للسلطان ينفق علينا لكل مملوك خمسين ديناراً كما أنفق على مماليكه الجلبان قبل ذلك ، وأشاعوا عنهم أخباراً شنيعة الى الغاية ، وأن الأحوال مضطربة بحلب والأمور غير صالحة . فتأكد السلطان لهذا الخبر الى الغاية ، وضرب مشورة هو والأمراء بسبب هذه الحادثة .

وقيل انه عين الأمير اينال باى دوا دار سكين بأن يتوجه الى حلب ، ويكشف عن صحة هذه الأخبار الشنيعة ويطلع السلطان بذلك . وقد كثر القيل وقال بين الناس بسبب ذلك

وفى يوم الأربعاء ثامن عشرينه ختم صحيح البخارى بالقلعة ، وفرقت الخلع ، الصر على القضاة ومشايخ العلم ، وكان ختما حافلا بالمقعد الذى بالحوش السلطانى .

وفى أثناء هذا الشهر جاءت الأخبار من المدينة الشريفة بوفاة الأمير شاهين الجمالى شيخ الحرم النبوى ، وكان أصله من مماليك الجمالى يوسف ناظر الخاص ، وكان لا بأس به .

وفى يوم الخميس تاسع عشرينه عرض ناظر الخاص علاء الدين بن الامام خلع العيسد على السلطان وهى مزفوفة على رءوس الجمالين ، وكان ذلك اليوم مشهودا .

وفى يوم الخميس المذكور حضر قاصد من عند السلطان سليم شاه ابن عثمان ملك الروم وعلى يده مطالعة للسلطان تتضمن أخبار هذه النصره التى وقعت له على اسماعيل شاه الصفوى . وذلك أن فى يوم الأربعاء سادس رجب الفرد سنة عشرين وتسعمائة تلاقى عسكر سليم شاه ابن عثمان مع عسكر اسماعيل شاه الصفوى على مكان بالقرب من تبريز يقال له اسكندران ، فكان بينهما هناك وقعة مهولة تشيب منها النواصى ، وتذهل العقول عند سماعها من كل دان وقاص ، فصيرت الرءوس عن الأجساد طائرة ، وطفشت العساكر بالخيول الغائرة ، ووقع القتل بالسيف حتى أجرى الدماء منهم كالسيل ، واستمر الحرب ثائراً حتى حال بينهما الليل ، فسك القوم من خمر ذلك الحرب ، وتراقصت الخيول على وقع السيوف الداخلة فى الضرب ، فقتل من العسكرين ما لا يحصى عدداً ، وانهمز الباقون وتبدد شملهم بدداً ، فبالها من ساعه مهولة ، لا ترضى الله ولا رسوله ، فوقعت الكسرة على عساكر ابن عثمان أولاً وقتل من عسكره ما لا يحصى عددهم ، حتى قيل قتل من أمرائه سبعة عشر أميراً أصحاب صنالحق ، وقتل من عسكره نحو النصف ، فلما عين ابن عثمان ما وقع له من هذه الكسرة كادت روحه أن تزهب من شدة فبهه ، ثم قام على عسكره وحضهم على القتال فموى عزم عساكر الروم على القتال وأنوا بالصارم البتار ، وقال لسان حالهم الموت فى طلب الثأر ، خير من الحياة فى العار ، فوثبوا على عساكر الصفوى وثوب الليث الهمام ، وبايعوا أنفسهم فى

فلما وقع لسليم شاه ذلك رجع الى بلاده ليشتى بها ، وبعد الشتاء ما يعلم ما يكون بينه وبين الصفوى من الحروب المهولة . فلما رحل ابن عثمان جعل على تبريز نائباً من أمرائه وكذلك على البلاد التى ملكها من أبدى الصفوى ، فاستتاب له بها نواباً من أمرائه ثم رحل عن بلاد الصفوى .

فلما حضر قاصد سليم شاه ابن عثمان بين يدى السلطان ، وقرئت مكاتبته بحضرة الأمراء ، خلع على القاصد الذى حضر بأخبار هذه النصره كامليه مخمل أحمر كفقوى بسمور عال من ملايسه ، ثم نزل القاصد من القلعة ولم يرسم السلطان بدق الكوسات بالقلعة ، ولم يناد فى القاهرة بالزينة لأجل هذه النصره ، ولم يعلم ما سبب ذلك . وأشيع عن قرقماس المقرى بأنه فى قيد الحياة ، ولم يثبت موته كما أشاعوا عنه بما تقدم من الاشاعات الفاسدة .

وفى شوال كان مستهل الشهر يوم السبت ، وكان ذلك اليوم عيد الفطر فخرج السلطان الى صلاة العيد ، فصلى ثم خلع على الأمراء ومن له عادة بالخلع السنيه ، وكان موكب العيسد حافلاً كما جرت به العادة .

وفى يوم الاثنين عاشره خلع السلطان على الأمير اينال باى دوادار سكين ، وأذن له بأن يتوجه الى حلب بسبب رد الجواب على الأمراء والعسكر السلطانى فيما أرسلوا يسألون فيه من أمر النفقة ، وهى الخمسون ديناراً التى أثاروا الفتنة بحلب بسببها ، وبهدلوا الباش قانى باى قرا أمير آخور كبير ، وعين له القتل المماليك القرانصة والجلبان ، وقالوا : « أنفق فى السنة الخالية على مماليكه الجلبان لكل واحد منهم خمسون ديناراً ولم يعط

بلوغ المرام ، وقيل ان ابن عثمان كان فى جاليش عسكره انما عسر ألف رام بالبندق الرصاص ، فلما زحموا على عسكر الصفوى عمهم الدهوة ، ولم يحملوا معهم غلوة ، فانكسر الصفوى وولى مهزوماً وقتل من عسكره أضعاف ما قتل من عساكر الروم ، فيقال ان الصفوى جرح وهرب فى نفر قليل من عسكره ولم يثبت أنه قد قتل فى المعركة كما أشيع عنه فيما تقدم ، وقيل قتل من أمرائه جماعة كثيرة منهم صاحب ديار بكر ويسمى سيحلى محمد وأولاده ، وغير ذلك من أعيان عسكره وأمرائه ما لا يحصى عددهم ، وكانت النصره لسليم شاه ابن عثمان على الصفوى من النوادر الغريبه ، كما يقال :

فيوم علينا ويوم لنا ويوم نساء ويوم نسر
نم ان ابن عثمان حز رقاب من قتل من أمراء
الصفوى وأرسلها الى بلاده ، فطافوا بها هناك
وعلفت على أبواب مدائن الروم . ولم تقع مثل
هذه النصره لأحد من أجداد سليم شاه ابن عثمان ،
ولا لوالده السلطان أبى يزيد المعروف بيلدرم ابن
أورخان ، لما زحف تمرلك كسره وأسره ووضع
فى قفص من الحديد وصار يدخل به البلاد ويعجب
عليه ، فما طاق يلدريم ذلك فبلغ له فصا من الماس
فمات وهو فى القفص الحديد وأمره مشهور .

ووقع لوالده السلطان أبى يزيد لما زحف على
البلاد السلطانية فى أيام الأشرف قايتباى ، فكسر
الأشرف قايتباى عسكره ثلاث مرات ، وقتل من
عسكره ما لا يحصى عددهم ، ودخل بجماعة من
عسكره أسرى الى مصر فى الحديد وصنأجق أمرائه
منكوسة ، وحصل على عساكر الروم ما لا خير فيه .
فكان لسليم شاه سعد خارق بهذه النصره على
الصفوى ووقع له ما لا وقع لأبيه ولا لأجداده وهذا
أمر الهى .

المماليك القرانصة شيئاً ، فمثل ما أنفق على مماليكه ينفق علينا نحن أيضاً والا نتهب أسواق حلب ! فأرسل لهم السلطان الجواب عن ذلك بما تقتضيه الآراء الشريفة ، فتوجه اينال باى بمراسيم شريفة تقرأ على الأمراء والعسكر بحلب عن الجواب فى ذلك .

ثم ان السلطان بعد أن خلع على الأمير اينال باى ورسم له بالسفر فعوقه عن السفر من بعد ذلك أياماً لأمر أوجب ذلك مما عن له ، ثم سافر بعد ذلك فى العشرين من هذا الشهر ، وكذلك قاصد ابن عثمان المقدم ذكره .

وفى اليوم المذكور خلع السلطان على قاصد ابن عثمان الذى حضر بأخبار النصره على الصفوى فخلع عليه وأذن له بالعود الى بلاده وكتب له الجواب بالتهنئة عن أمر هذه النصره التى تمت . ومن الحوادث أن السلطان أنشأ سوقاً بالقرب من خان الخليلى يباع فيه الرقيق ، وأبطل السوق القديم الذى كان يباع فيه الرقيق ، وصار العمل على هذا السوق من يومئذ .

ومن النوادر الغريبة أن الأمير خاير بيك الخازندار لما توفى رسم السلطان للأمير طومان باى الدوادار والزينى بركات بن موسى المحتسب ، بأن يتوليا ضبط موجود الأمير خاير بيك الخازندار ، فلما شرعا فى ذلك ظهر له موجود يقرب من موجود سلار الناصرى نائب السلطنة كان ، ففتهر له فى أول يوم من الذهب العين ثلاثة وثمانون ألف دينار ، وزعم السلطان أنه لما حصل له التوعك فى عينه أودع عنده خمسمائة ألف دينار فلم يظهر للسلطان منها شيء وخفيت تحت الأرض ولم يعلم مكانها ، ومات خاير بيك عن غير وصية ولم يخلص ذمته فيما عليه من حقوق الناس الذين كان يقطع

مصانعتهم ويأكل حقوقهم ، فلما ضاعت على السلطان تلك الوديعة صار يفل الرحمة على الأمير خاير بيك ولم يقرأ له ختمة على قبره ولا صنع له مأتماً ولا تصدى عليه برغيف خبز ، ثم ظهر له من بعد ذلك من المعادن والجواهر والفصوص الماس والياقوت الأحمر واللؤلؤ الكبار والتحف الفاخرة ما قوم بمائة ألف دينار ، ثم ظهر له ألف ثوب بعلبكي ومن الأثواب الصوف والأبدان السمور والوشق والسنجاب والقطع الجوخ وثياب البدن من سلاريات وجينيئات جوخ وغير ذلك ما قوم بخمسين ألف دينار ، وظهر عنده بشاخين زركش وأشياء من ثياب النساء تركة وحليهن ما لا يحصى ، وسبب ذلك أنه استولى على ست عشرة من تركات الخوندات والستات وأعيان الرؤساء من الملوك وغير ذلك ممن توفى فى دولة السلطان قانصوه الغورى ، وظهر له من الخيول والبغال والجمال ما لا يحصى ... فدخل ذلك الى الحواصل السلطانية ، وظهر له من الرزق والأملاك والبيوت والربوع والحوانيت وغير ذلك ما عنهم من الخراج وكراً أماكن فى كل سنة فوق العشرة آلاف دينار ، واستمر الحال على ذلك الى يوم تاريخه يظهر له فى كل يوم من الموجود أشياء جديدة ولم ينته ضبطه الى الآن وضاع له تحت الأرض وعند الناس أضعاف ذلك ، فكان موجوده اذا قوم جميعه يقارب أربعمائة ألف دينار ... ومع هذا المال الجزيل لم يلهم الله تعالى الأمير خاير بيك عند موته أن يير ابن استاذه الظاهر خشقدم بشيء من المال فى الباطن حتى يستعين بذلك على فقره ووفاء دينه ، فعد ذلك من مساوىء خاير بيك ولم يشن عليه أحد بعد موته بخير قط ، فذهبت عنه الدنيا وفاتته الآخرة ، فلا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم .

الشافعي والقاضي شمس الدين السمديسي الحنفي والقاضي جلال الدين ابن قاسم المالكي والقاضي شهاب الدين الفتوحى الحنبلى ، وحضر سائر الأمراء من الأكابر والأصاغر وحضر القاضي كاتب السر محمود بن آجا وأعيان المباشرين قاطبة . فلما فرغ السلطان من صلاة الجمعة فرشت له مرتبة على باب المقصورة فجلس عليها ، وجلست الأمراء حوله بالنشاش والقماش والقضاة الأربعة ، وجلس نواب القضاة عند المحراب ، ثم خطب قاضى القضاة الشافعى خطبة النكاح ، وطاقوا على الحاضرين من الأعيان بنحو عشرين سلطانية صينية فيها سكر ، ثم ان السلطان خلع على القضاة الأربعة كوامل صوف أبيض بسمور ، وخلع على الأتابكى سودون العجمى والأمير طومان باى الدوادار كوامل مخمل أحمر بسمور ، كونهما وكيلين فى العقد ، وخلع على محب الدين الحلبي امام السلطان كاملية صوف بسمور ، ثم قام السلطان وانقض المجلس فى نحو خمس درج ، وقد قال القائل فى المعنى :

على أيمن الساعات عقد مبارك
بهى كما شاء الاله وأظهرا
سنى المعالى يسرت حركاته
إذا الله سنى أمر عقد تيسرا

ولم يقع فى هذا العقد ما هو كبير أمر من الأفعال الملوكية ، وآين هذا مما وقع للخليفة المأمون بن هرون الرشيد لما أن عقد له على بوران بنت الحسن بن سهل وزيره ، قال صاحب كتاب « الاكتفاء فى تواريخ الخلفاء » : « ان الحسن بن سهل الوزير لما عقد المأمون على ابنته بوران ببعداد اجتمع أعيان بغداد من العلماء والأمراء والحجباب بالجامع الكبير ، فلما انقض ذلك الجمع تشر الوزير

ولما توفى الأمير خاير بيك أشيع أن السلطان عين تقدمه الأمير خاير بيك الى أفباى الطويل امير آخور نانى ، وأنعم على ولده الممر الناصرى محمد بامرة طبلخاناه ، وقرره فى الخازندارية الكبرى عوضا عن خاير بيك بحكم وفاته ، فتزادت عظمة سيدى ابن السلطان وكان له من العمر يومئذ نحو ثلاث عشرة سنة . وقد تقدم القول على أن السلطان أرسل يخطب بنت ملك الأمراء سيباى نائب الشام الى ولده المذكور ، فتعل نائب الشام على أن ابنته صغيرة ، وكان اسمها فاطمة وتدعى أيضا شقرا ، وفيل انها جميلة عمرها سمانى سنين ولم تستحق للزواج ، فأرسل السلطان يقول له : لا بد من ذلك وأرسل له عشرة آلاف دينار مهرها . فلما رأى السلطان قد صمم على ذلك قبل المهر وأجاب بالسمع والطاعة وأذن فى تزويج ابنته الى ابن السلطان . وسيأتى الكلام على ذلك فى موضعه .

وفى يوم الأربعاء ثانى عشره جلس السلطان على المصطبة التى بالحوش وفرق على الممالك الذين أخرج لهم الحيل والقماش ، وفرق عليهم فى ذلك اليوم السيوف والزرديات والتراكيش ، وكانوا نحو مائة وستين مملوكا من جلبانه .

وفى يوم الجمعة رابع عشر شوال فيه كان عقد المقر الناصرى محمد بن السلطان على ابنة ملك الأمراء سيباى نائب الشام ، فكان الوكيل عن ابن السلطان الأتابكى سودون العجمى ، والوكيل عن سيباى نائب الشام الأمير طومان باى الدوادار الكبير ، وكان جملة الصداق نحو عشرين ألف دينار : من ذلك عشرة آلاف دينار معجلا وعشرة آلاف دينار حال . وكان العقد بجامع القلعة وحضر القضاة الأربعة وهم : علاء الدين الاخيمى

نابلس ما تقدم القول عليه من المال ، ومشايخ جبل نابلس يفردون ما قرر عليهم من المال على عربان جهة نابلس ، ولم يقادروا على بعض ذلك ، وسرفه ، يخلون أهل جبل نابلس منه عن قريب .

وقرر على أهل الشام مال له صورة بسبب المشاة ، وكذلك أهل غزة ، وكذلك على أهل صفد وطرابلس ، وكتب بمعنى ذلك مراسيم على يد أمير آخور باش العسكر بأن يفره على أهل حلب مال بسبب المشاة ، وكذلك على أهل حماة ، فقبل قرر على كل انسان من هذه الجهات عشرون دينارا بسبب المشاة ، وهذا كله يؤول أمره الى خراب البلاد وفساد الأحوال وضعف أحوال الجند وعدم عمارة البلاد ... والأمر في ذلك الى الله تعالى ما شاء يفعل ، فأطلق النار في تلك البلاد بسبب أمر المشاة .

وفي يوم السبت خامس عشره خرجت المدورة الى بركة الحجاج .

وفي ذلك اليوم نزل السلطان الى قبة شبك التي بالمطرية وبات بها ، ثم ركب يوم الأحد وتوجه الى بركة الحجاج ، ورتب كيف ينصب الوطاق للأمرء الحاج . وكان ممن حج في هذه السنة من الأعيان وهم المقر الناصري محمد ابن السلطان ، وخوند زوجة السلطان ، والقاضي كاتب السر محمود بن أجا والأمير نائق الخازن ، وكان هو المتسفر على السنيح وكان من أخصاء السلطان .

أما أمراء الحاج الأمير طقطباي نائب القلعة أحد المقدمين أمير ركب المحمل ، والركنى سيدي عمر ابن الملك المنصور ابن الملك الظاهر جتقمق أمير الركب الأول ، والأمير جاني بيك قرا أحد الأمراء الطبلخاناه باش المجاورين . فجعل السلطان وطاق ابنه بين وطاق كاتب السر وبين وطاق طقطباي أمير

الحسن بن سهل على رؤوس الأعيان من الناس رقاعا مكتوب فيها أسماء ضياع وأملاك ، فمن وقعت بيده رقعة مكتوب فيها اسم ضيعة أو ملك بعث الى صاحب الرقعة بتسليم ما في الرقعة من ضيعة أو ملك . وهذا من غرائب الأخبار ، وكان ذلك في سنة عشر ومائتين من الهجرة .

ومما يحكى أن الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري زوج ابنه الملك السعيد بينت الأتابكي قلاوون الألفي ، وكان الملك الظاهر يظن أنه اذا زوج ابنه بينت الأتابكي قلاوون يكون له من بعده عونا لولده على قلب الزمان ، فجاء الأمر بخلاف ذلك وأخذ قلاوون الملك من أولاده ونفاهم الى الكرك ولم يفده من تلك المصاهرة شيء ولا راعاهم من بعده . وكان ذلك في سنة ثلاث وسبعين وستمائة ، فكان كما يقال في المعنى :

ربما يرجو الفتى نفع فتى

خوفه أولى به من أمله

رب من ترجو به دفع الأذى

سوف يأتيك الأذى من قبله

وفي ذلك اليوم سافر ماماي الغوري الخاصكي ، الذي عينه السلطان للتوجه الى جبل نابلس وغيرها من الجهات ، بسبب أمر المشاة الذين أفرد السلطان الأموال على البلاد بسببهم لأجل التجربة المقدم ذكرها ... فخرج ماماي هذا ليحجي الأموال التي قررت على البلاد ، حتى قيل قرر على أهل جبل نابلس من الأموال مائة ألف دينار وأربعة وعشرين ألف دينار بسبب المشاة ، ولم ينفق قط هذا لأهل جبل نابلس بل كان الأشرف قايتباي في التجاريد التي كان يرسلها ينفق على الرجال المشاة من حاصله لكل واحد منهم قدرا معلوما ، فلم يوافق السلطان على شيء من ذلك وأفرد على مشايخ جبل

ركب المحمل ، ثم ان السلطان عاد الى القلعة من يومه .

وفي يوم الاثنين سابع عشر شوال فيه خرج المحمل الشريف ، وكان لخروجه يوم متسهود لم يقع قط مثله فيما تقدم من السنين الماضية وذلك قد انسحب فيه أربعة أطلاب حافلة : طلب جاني بيك قرا باش المجاورين وكان حافلا ، ثم انسحب طلب سيدي عمر بن المنصور أمير الركب الأول وكان حافلا ، وظهر له من السنيح العظيم أشياء كثيرة يعجز عنها الأمراء المقدمون . ثم انسحب طلب المقر الناصري سيدي ابن السلطان فخرج بطلب حربى وقدامه طبلان وزمران وصناجق سلطانية ، وفيه نوبتان هجن بأكوار زركش من ذهب بنادقة وبقية الأكوار مخمل ملون ، وانسحب في طلبه عدة خيول بكنايش زركش بغواشى حرير أصفر ، وعدة خيول نحو طوالتين ملبسة ببركستوانات فولاذ مكفتة ، وانسحب في طلبه نحو عشرين جملا مزينة بألات الشراب خاناه من الأواني الصينى واللازورد والزجاج البلورى وغير ذلك ، وأيضا أحمال مزينة بألات الطشتخاناه من الأباريق الكفت والطسوت الكفت والشماعد وغير ذلك مما يحير الأبصار ، ومحفة جوخ أصفر مزهر فى آخر الطلب ، ثم بعد ذلك انسحبت محفة خوند زوجة السلطان فكانت غاية فى الحسن منتهى ما يعمل من المحفات ، فكانت محمل أحمر كقوى وهى مرقومة بالذهب ، طرازها وأرضية الثوب عروق لاعبة زركش من الذهب الخالص البنادقة ، وفوقها خمس رصافيات لؤلؤ وفيها رصعات ذهب بفصوص بلخش وفيروز ، وحول نوب المحفة بهرجان ذهب وفضة شقائق ، وقدام المحفة أربعة مشاعل بفوط زركش بشراريب مثلث ، وقيل

صنعوا لخوند حماما من نحاس صفايح وداخلها أحواس نحاس وعلايات يصب منها الماء ساخنا ، فعد ذلك من النواذر ... قيل ان مصروف هذه المحفة فوق العشرين ألف دينار . وأما الرصافيات اللؤلؤ زعموا أنها رصافيات خوند زوجة الأشرف قايتباى صنعنها لما حجت فوجدت فى تركتها ، وكان خلف المحفة أربعة جمال غير الذى تحت المحفة ، وعلها كنايش زركش على مخمل أحمر ، وحولها مرتعش ذهب وفضة وقدام المحفة حاديان ، ونحو عشرين نفرا من الخدام حول المحفة ، ثم بعد المحفة انسحب نحو عشرين محارة مخمل ملون برسم عيال خوند وغيرها ممن يلود بها ، فلما شقت من الرملة ارتجت لها ، ولا سيما اجتمع بالرملة اللحم الغفير من الأمراء والعسكر والخلائق الذين لا يحصون لكثرتهم ، ثم طلعت المحفة من الصوة ونزلت من على باب الوزير وشقت من القاهرة ، فارتجت لها القاهرة فى ذلك اليوم رجا .. ولم يكن من العادة القديمة أن محفة حريم السلطان تشق من القاهرة .

وقد تقدم أن خوند زينب زوجة الأشرف اينال لما حجت لم تشق محفتها من القاهرة ، بل طلعت من بين الترب ، وكذلك خوند الأحمدية زوجة الظاهر خشقدم لم تشق محفتها من القاهرة ، ولا خوند زوجة الأشرف قايتباى لما حجت لم تشق محفتها من القاهرة ، ولكن أشيع أن خوند زوجة السلطان لم تخرج فى ذلك اليوم ولم تنزل من القلعة وشقوا بالمحفة من القاهرة ثم أعادوها من بين الترب الى القلعة حتى تنزل خوند . ويأتى الكلام على ذلك فى موضعه ، ثم انسحب سنيح خوند وابن السلطان فكان فيه ألف جمل ما بين زاد وقرب ماء وغير ذلك من اليرق الحافل . ثم انسحب طلب الأمير طقطباى أمير ركب المحمل فكان غاية

الستار ، ثم نزلوا بها من دار البقر الى خلف القلعة وقدامها المشاعل والفوانيس ، وركب فدامها سائر المباشرين ومقدم الممالك وسائر الخدام من الطواشية ، وركب خلف محفتها من الخواندان والستات نحو ألف مكارى ، فاستمرت في هذا الموكب الحافل الى بركة الحجاج .

وفي ذلك اليوم خرج القاضى كاتب السر محمود ابن آجا في محفة على بغال وتوجه الى بركة الحجاج وكان عيلا وله مدة على ذلك ، وكان الحاج في هذه السنة لا يحصون عددا لكثرتهم ، وكان في الركبن فوق العشر محفات للأعيان والأمراء والستات .

وفي يوم الخميس عشرينه أشاعوا أن اينال باى دوادار سكين فد خرج وسافر الى حلب بسبب ما تقدم ذكره من أمر النفقة التى أرسل بطلبها العسكر ، فمضى اليهم الجواب عن ذلك .

وفي يوم الجمعة حادى عشرينه رحل أمير أول من بركة الحجاج . وكذلك باش المجاورين . تم في ليلة السبت طلوع القمر رحل ابن السلطان وخوند زوجة السلطان والقاضى كاتب السر ، ونادوا في البركة أن أحدا من الحجاج لا يسافر صحبة خوند في ركبها .

ثم في يوم السبت ثانى عشرينه رحل المحمل من البركة ، وقد ضج الناس من كثرة الحجاج في هذه السنة . وربما يحشى عليهم من موت الجمال وشدة البرد .

وفي يوم الثلاثاء خامس عشرينه جلس السلطان بالميدان وعرض مماليكه الجلبان وهم باللبس الكامل من آلة السلاح الآدمية والحيول ، فعرض في ذلك اليوم اربع طباق فعين منهم نحو مائة وخمسين مملوكا . وسبب ذلك أن السلطان كان له مدة طويله وهو يلهج بالسفر الى الاسكندرية

في الحسن ، وهو منتهى ما يعمل في الأطلاب الملوكة ، فانسحب فيه نحو مائتى فرس ما بين حيول ملبسه بركستوانات فولاذ مكفت ، وغير ذلك من المحمل الملون ، وحيول بكنايش زركس ، وغير ذلك من المحفات والأحمال المزينة ، فارتجت لهذه الأطلاب الرملة . ثم اسحب المحمل وقدامه ابن السلطان والأمراء الحاج والحاصكيه المسافرين الى الحجاز فطلعوا . وكان السلطان في ذلك اليوم في شباك القصر ينظر البهيم من القلعة ، فخلع السلطان على ولده متمره وقوقانى حرير أخضر بطرز يلعاوى عريض ، وخلع على امراء الحاج مشرات ، وخلع على باش المجاورين كامليه صوف بسمور ، وكان بالقاهرة شحص من قضاة مكة فألبسه السلطان تشريفا وطرحاه هو وقاضى المحمل ، ثم نزل ابن السلطان من القلعة وأمراء الحاج وصحبتهم الأتباكى سودون العجمى وبضبة الأمراء المقدمين وسائر أعيان المباشرين . وكان قاصد ابن عثمان حاضرا لهذا الموكب العظيم ، فشقوا من القاهرة في موكب حفل لم يقع مثله في خروج الحجاج فيما تقدم من المواكب ، فلهج الناس بأن ذلك نهاية سعد السلطان مما وقع له من الأمور الخوارق فيما تقدم ذكره .

وفي ذلك اليوم أشيع بأن قاصدا ثانيا واصلا من عند ابن عثمان ملك الروم ، فلما سمع السلطان بمجيء القاصد عوق اينال باى دوادار سكين عن السفر الى حلب حتى يسمع ما جاء فيه القاصد من الأخبار ، وقد تقدم القول على أنه خلع على اينال باى وأذن له بالسفر ثم عوقه عن السفر لأمر بدا له في ذلك .

وفي يوم الثلاثاء ثامن عشره نزلت خوند من القلعة بعد صلاة الفجر فجلست في المحفة من باب

فقوى نزمه في هذه السنة على السفر الى نجر الاسكندرية كما فعل الأشرف قايتباى .

ثم في ذلك اليوم عرض آلة الطلب وهى الخيول الملبسة بالجواغب الفولاذ المكفت ، و عرض خيول النوبة وهى بالكنايش الزركش والسروج والأرقاب الزركش الذهب والغواشى الذهب ، و عرض التخنين وهما بغواشى حرير أصفر ، ثم طلع الى الدهيشة و عرض الصناجق السلطانية والقبة والطيور . وقد غير الطير الذهب الذى كان فوق القبة وجعل مكانه هلالا ذهبيا مخرما ، و عرض ست خزائن التى تكون فى الطلب بالأغشية الحرير الأصفر ، و عرض الجوشنين وهما من آلة الطلب ، و عرض محفة على بغال وهى بعشاء من حرير أصفر .

ثم فى يوم الأربعاء سادس عشرينه ركب السلطان ونزل الى الميدان ليعرض مماليكه الخاصكية الذين يسافرون صحبته ، فوجد الميدان فيه وحل من المطر ، فخرج الى الرملة ووقف على باب الميدان وهو راكب و عرض مماليكه الجلبان من الخاصكية فعين منهم فى ذلك اليوم مائة وعشرة من الخاصكية ممن يسافر معه الى الاسكندرية ، فصار كاتب الممالك ماشيا على أقدامه فى وسط الرملة وهو يستدعى أسماء الممالك ، فرجت الرملة فى ذلك اليوم وتحقق سفر السلطان ، واضطربت أحوال العسكر بسبب سفر السلطان فى قلب الشتاء وشدة البرد ، فلما طلع السلطان الى القلعة فتح حواصل الذخيرة وأخرج منها زرديات وخودا وأتراسا ورمحا بسن فولاذ وسيوفا وجواغب ، ففرق منها على خاصكته أشياء كثيرة مما يحتاجون اليه من آلة السلاح .

وفى يوم السبت تاسع عشرينه نزل السلطان الى الميدان و عرض جماعة من مماليكه الخاصكية وهم

باللبس الكامل من آلة السلاح ، فعين منهم جماعة يسافرون معه الى الاسكندرية . وقد أشيع بأنه يعين معه نحو خمسمائة خاصكى من مماليكه ، وفى ذلك اليوم برز السلطان خامه وتوجه به الى بولاق ثم عدوا به الى بر انبابة ، و رسم بأن ينصب فى المنصورية ذلك الوطاق .

وفى ذى القعدة كان مستهل الشهر يوم الاثنين فطلع الخليفة والقضاة الأربعة للتهنئة بالشهر على العادة ، فجلس السلطان بالميدان وكان فى همة الخروج الى سقر الاسكندرية . فلما قام الخليفة والقضاة الأربعة طلب العلامة وعلهم على بعض مراسمهم ، ثم ركب من الميدان وانسحب قدامه الطلب فكان طلبا حريبا فيه طبلان وزمران والنفير اليرغشى ، ثم انسحب فيه خمس وأربعون فرسا عليها أجلال شعر وفى رقابها مقاوذ ، ثم انسحب فيه ثلاثا عشرة نوبة هجن بأكوار زركش ومخمل ملون ، ثم انسحب فيه نحو خمسين فرسا بسروج ذهب وكنايش وغواشى حرير أصفر وتخنين يعواشى حرير أصفر ، فكان عدة الخيول به نحو مائة وعشرين فرسا ، ثم تقدمت الخاصكية وبعدهم المباشرون قاطبة ، وبعدهم الأمراء المقدمون وهم : أمير كبير سودون العجمى والأمير أركماس أمير مجلس والأمير الدوادار الكبير والأمير أنص باى حاجب الحجاب وبقية الأمراء المقدمين ، ثم جاء من بعدهم السلطان وهو راكب على فرس بوز ، وعليه سلارى جوخ بنفسجى مفرى وشق ، وعلى رأسه تخفيفة صغيرة مدورة بغير قرون ، فشق من الصليبية فى ذلك الموكب الحفصل ، فارتفعت له الأصوات بالدعاء من الناس ، فقبل انه توجه فى ذلك اليوم الى المقياس هو والأمراء ومد لهم هناك

مدة حافلة وأقام بالمقياس ذلك اليوم ، وأشيع غير ذلك أن السلطان لما نزل من القلعة توجه الى بولاق ونزل في مكان يسمى السبكية فبات بها ، وقيل بل بات في المنية بإزاء انبابة ، والأقويل في ذلك مختلفة ، وكان بها الوطاق .

ثم إن السلطان رسم للأمير طومان باي الدوادر بأن يكون نائب النية عنه الى أن يحضر من السفر ، فتحول من سومه وطلع الى باب السلسلة وأقام به الى أن يعود السلطان الى القلعة .

وفي يوم السبت سادسه رحل السلطان من الوطاق الذي ببر انبابة وقصد التوجه الى نغر الاسكندرية ، ورجع جماعة كثيرة من هناك من الأمراء والعسكر ، وليم يسافر مع السلطان الا جماعة من الأمراء المقدمين والأمراء الطبلخانات والأمراء العشراوات ، فمن الأمراء المقدمين : الأتابكي سودون العجمي والأمير أركماس بن ولي الدين أمير مجلس والأمير أنص باي بن مصطفى حاجب الحجاب ، والأمير تمر الحسنى المعروف بالزردكاش أحد المقدمين والأمير قانصوه ابن سلطان جركس ، والأمير خاير بيك كاشف الغريبة أحد المقدمين والأمير علان بن قراجا أحد المقدمين دوادر ثاني والأمير يخشباي أحد المقدمين والأمير أقباي الطويل أمير آخور ثاني أحد المقدمين ، وقد قرر في مقدمة الأمير خاير بيك الخازندار عن قريب ، فكان عدة الأمراء المقدمين الذين توجهوا مع السلطان الى نغر الاسكندرية عشرة من المقدمين . وأما من توجه معه من الأمراء الطبلخانات فجماعة كثيرة منهم : الأمير قنبيك الشريفي رأس نوبة ثاني والأمير مغلباي الشريفي الزردكاش ، وآخرون منهم ما يحضرنى أسماؤهم . وأما من توجه صحبته من الأمراء العشراوات فجماعة كثيرة نحو عشرين

أميرا ، وقيل كان مع السلطان من خاصكته نحو خمسمائة خاصكي وقيل أكثر من ذلك ، وأما من توجه معه من المباشرين فالقاضي محيي الدين عبيد القادر القصري ناظر الجيش والقاضي شهاب الدين ابن الجيمان نائب كاتب السر وأخوه كريم الدين كاتب الخزائن الشريفة والقاضي شرف الدين الصغير كاتب المماليك وأولاد الملك وأبو البقا ناظر الاصلطبل ، والقاضي علاء الدين ناظر النخاص ، وجماعة من كتاب المماليك ، وآخرون من أعبان جماعة المباشرين ، وكان صحبته الشرفي يونس نقيب الجيوش المنصورة ، وغير هؤلاء جماعة كثيرة من الأعيان ما يحضرنى أسماؤهم الآن .

وقيل كان صحبة السلطان جماعة من المغاني وأرباب الآلات من دواخل البلد في الغناء ، وخرج السلطان بسنيح عظيم وبرك حافل في أرغد عيش من التنزه والفرجة حتى رحل ، فنصب له الوطاق بالمنصورة وتوجه اليها على ما نقل من أخباره الصحيحة عن ذلك .

وأشيع أن السلطان أقام في الوطاق الذي بالمنية ستة أيام . وسبب ذلك أنه كان ينتظر كتب العقبة حتى يعلم أخبار ولده الذي توجه الى الحجاز وأخبار زوجته خوند ، فلما ورد عليه كتب العقبة بالأمن والسلامة سر لذلك وانشرح ، ورحل من المنية ، وتوجه الى المنصورة ، ونصب بها المخيم الشريف ونزل هناك ، ثم يتوجه من بعد ذلك من مرحلة الى مرحلة حتى يدخل الى نغر الاسكندرية .

وفي يوم الاثنين ثامنه رسم الأمير طومان باي الدوادر نائب النية بأن يتأدى في القاهرة بالأمان والاطمئنان والبيع والشراء ، وأن يعلقوا على كل دكان قنديلا من المغرب وأن لا يملوكا ولا غلاما ولا عبدا بخرج من بعد العشاء ومعه سلاح ،

وأز، لا مماو كما بقطي وجهه اذا خرج الى السوق
ومن فعل ذلك شق من غير معاودة ، فضج الناس
له بالدعاء .

وفي يوم الثلاثاء تاسعه توفي الحاج ياقوت
فراشي الجزانة ، وكان أصله من عبيد المقر السيفي
برقوق نائب الشام وأعتقه ، وساعدته الأقدار حتى
صار في سعة من المال وصار أمين السلطان على
الخزائن الشريفة . فلما مات في غيبة السلطان جاء
الزيني بركات بن موسى وختم على حواصله ورسم
على ولده وعلى عياله الى أن يحضر السلطان ،
وكان ياقوت متهما بالمال الجزيل ، وكان هو
والأمير خاير بيك الخازندار يتصرفان في الخزائن
الشريفة كيف شاءا منها ، فكان كما يقال في
المعنى :

وقائلة أرى الأيام تعطى

لثام الناس من رزق خبيث

تمنع من له شرف وفضل

قللت لها خذى أصل الحديث

رأت حل المكاسب من حرام

فجادت بالخبيث على الخبيث

وفي يوم الخميس حادى عشره وسط الوالى
شخصا من الغلمان قيل عنه انه كان يخطف العمائم
في الأسواق بعد العشاء ، فلما قبضوا عليه وسطوه
في وسط الصليبة قدام حمام شيخو ، وقيل
وسطوا آخر من الغلمان عند الكبش ، وفي هذه
الأيام كثر هجم المناسر في الحارات والأماكن من
القاهرة وغيرها حتى ضج الناس من ذلك ، ولا
سيما كان السلطان غائبا في السفر الى الاسكندرية
فماجت القاهرة لذلك .

وفي يوم الاثنين خامس عشره فرقت الجامكية
في غيبة السلطان ، وحضر تفرقتها القاضي جلال

الدين نائب كاتب الماليك ، وحضر الأمير سنبل
مقدم الماليك ونائبه والزيني بركات بن موسى
المحتسب وغير هؤلاء ، وفرقت الجامكية عند
سلم المدرج ، وكانت في غاية الانشحات .
وفي يوم الجمعة سادس عشرينه نودى في
القاهرة بالزينة بسبب عود السلطان من نعر
الاسكندرية .

وفي يوم السبت سابع عشرينه سبق المخيم
الشريف ونصب الوطاق في الريدانية الى أن يحضر
السلطان . ثم ان السلطان عدى من بر ابابة باكر
النهار ، وطلع الى المكان المسمى بالسبكية ببولاق
فتعدى هناك وأقام الى الظهر ، ثم ركب من هناك
وشق من بين الفيضان وطلع من على قنطرة الفخر ،
وطلع من هناك من على كوم الريش حتى وصل
الى قناطر الأوز ، فطلع من عليها الى أن خرج الى
الوطاق بالريدانية فأقام به . فلما تسامح به الأمراء
أتوا اليه وسلموا عليه ، ثم جاء اليه الخليفة
المتوكل على الله والقضاة الأربعة فسلموا عليه ثم
عادوا الى دورهم ، وكان السلطان أرسل بأن
ينادى في القاهرة بأن لا أحد من الأمراء والعسكر
يلاقى السلطان الا من الوطاق الذى بالريدانية
فامتثلوا لذلك .

وفي يوم الأحد ثامن عشرينه نادى الأمير
الدوادار في القاهرة بأن يقبوا الزينة ، فزيت
القاهرة زينة حافلة ، حتى زينوا داخل الأسواق
مثل سوق الشرب والجميلون والجواهره وسوق
الوراقين والباسطية وسوق الحاجب وخان الخليلي
وسوق جامع ابن طولون ومرجوش وغير ذلك من
أسواق القاهرة ، حتى مصر العنيقة وبولاق وغير
ذلك من الأماكن .

وفي يوم الاثنين سلخ ذى القعدة رسم السلطان

بعمل احراقه نطف تحرق في الوطاق فحرقت ليلة الثلاثاء بالوطاق ، فحصل للناس في تلك الليلة غاية الضرر وسرق من الوطاق في تلك الليلة من عدة خيام ، وأخذ منها بعض قماش وسيوف وبقج ، حتى أشيع بين الناس أن الرصافيات الأربعة التي في محفة السلطان قد سرقت تلك الليلة لكثرة الهجج والاضطراب .

وفي يوم الثلاثاء كان مستهل ذى الحجة الحرام فتوجه الخليفة المتوكل على الله والقضاة الأربعة للتهنئة بالشهر ، وكان السلطان قد أخذ في أسباب الدخول الى القاهرة وصار يرتب الطلب بنفسه وهو راكب على فرسه ، فكان من ملخص أخبار الطلب أنه جر به نحو من مائة وثمانين فرسا ، منها بيركستوانات مخمل ملون وجواغين فولاذ مكفت بذهب وفضة نحو ستين فرسا ، ومنها خيول بسروج ذهب وكناييش نحو عشرين فرسا ، وكان من جملة السروج ما هو بلور مزيك بذهب وسروج عقيق مزيك بذهب وسروج مرصعة بفصوص مشنة وطبول بازات فضة مينة وثنىء بلور ، ومنها خيول بعراقي وسروج بغواشى حرير أصفر وطبول بازات نحو خمسين فرسا ، وجوشنان أحدهما حرير أصفر والآخر مخمل مزهر ، وتختنان بأغشية حرير أصفر ، وست خزائن بأغشية حرير أحمر وأصفر ومحفة بغشى حرير أصفر وهي على بفلين ، وكان به حجورة بسروج بداوى وركب بداوى بعراقي نسيج مغربى نحو عشرين حجورة . وكان قدام الطلب ست عشرة نوبة هجن ، منها ثمانى نوب هجن بأكوار زركش وكناييش زركش ، والبقية بأكوار مخمل ملون ، وكان قدام الطلب أربعة طبول وأربعة زمور ووراء الطلب اثنا عشر

حمل كوسات ، وكان به الأفيال الكبار وهي مزينة بالصناجق والبركستوانات الحرير الأحمر ، وكان مع الكوسات العصائب السلطانية ، وكان قدام السلطان أربع أرؤس خيل بسروج ذهب وكناييش ذهب وريش وعليها رقاب ذهب وريش وفوقها غواشى ذهب بطيور ذهب عليها .

فلما انتهى ترتيب الطلب ركب السلطان من الوطاق الذى بالريدانية ، فركب على فرس بوز قرطاسى ، وكان عليه الشاش والقماش وكاملية مخمل أحمر بسمور ، وركب ، وسرج ذهب وكنبوش ذهب وريش ، وعلى القرس رقبة زركش ، فلما تسامعت الأمراء بركوب السلطان ركبوا وهم بالشاش والقماش ، وجميع الأمراء المقدمين والأربعينات والعشراوات ، والرءوس الثوب بالعصى ، ثم ان الأتابكى سودون العجى تسلم القبة والجلالة ورفعها على رأس السلطان ، ومشى عن يساره ، وركب الخليفة محمد المتوكل على الله عن يمينه وهو لابس العمامة البغدادية وعليه قباء صوف أبيض بمقلب صوف أخضر ، وركب قدامه القضاة الأربعة وهم : علاء الدين الاخميمى الشافعى وشمس الدين السمديسى الحنفى وجلال الدين بن قاسم المالكى وشهاب الدين الفتوحى الحنبلى ، وقد تقدم القول على أنهم أتوا يهنون السلطان بالشهر وهو فى الوطاق فصادف ذلك اليوم طلوع السلطان الى القلعة فركبوا صحبته ، ولم يكن يحزر ركوب الخليفة والقضاة الأربعة مع السلطان حين جاء من هذه السفرة ، ولكن قصدوا التوجه الى السلطان ليحفظوا عنده بذلك ، وقد اتفق أن الأشرف قايتباى توجه الى ثغر الاسكندرية مرتين ، فكان يجىء من السفر ويطلع الصبح الى القلعة من بين الترب ولم يشعر به أحد من الناس ، ولكن كل أحد له اختيار بذاته .

الاسكندرية وشق من سوقها سقط الطائر الذهب الذى على القبة الى الأرض ، فبادر الأمير يشبك الدوادر الكبير ونزل عن فرسه وركب الطائر على القبة وثبته عليها بيده وأعاده كما كان ، ثم ركب على فرسه ومشى السلطان الى أن خرج من باب البحر ، فتنفأل الناس بزوال السلطان بعد ذلك ، فلم يؤثر فيه هذا التطير ومكث من بعد ذلك دهرا طويلا . ثم ان السلطان لما جرى ذلك كظم فى الباطن وعاب على الأتابكى سودون العجمى حمل القبة والطيور ، وقد حملها على رأس السلطان بغير معرفة وكان لهما طريقة فى حملها غير ذلك ، فاستمر السلطان فى هذا الموكب على ما ذكرناه أولا ، فكان التطير السلطاني المسمى بالبرغشى قدام الطلب ووراءه الطبول والزهور ، ثم انسحبت النوب الهجن وانسحب بعدها الجنائب الملبسة بالبركستوانات المخمل الملون ثم انسحب من بعد ذلك الخيول التى بالكنايش والسروج الذهب والبلور والعقيق المزيكة بالذهب ، وكان فى السروج ما هو مرصع بالنصوص المثمنة ، وكان على الخيول طبول بازات بلور مزيك بذهب وشيء فضة مينة ، فكان من هذه الأصناف نحو عشرة طبول ، ثم انسحب جوشنان حرير ملون وخزائن المال وعدتهم ست بأغشية حرير أصفر وأحمر ، ثم انسحب المحفة بغشى حرير أصفر مزهر عليه بالنقاصيص الحرير ملون ، ثم وراء ذلك جاء المباشرون ثم الأمراء الطبليخانات والعشراوات ، ثم جاء الأمراء المقدمون وهم بالشاش والقماش ، ثم جاء القضاة الأربعة ، ثم مشى الشعراء والشبابة السلطانية ، ثم مشى من بعد ذلك الأمراء الرؤوس النوب وبأيديهم العصى . وكان الأمير كرتباى الوالى ماشيا بالشاش والقماش ، وتقيب الجيش

فلما ركب السلطان من الريداية رسم للخادمكية الذين كانوا معه فى نجر الاسكندرية بأن يدخلوا الى القاهرة وهم لابسون آلة السلاح كما دخلوا بنجر الاسكندرية وهم لابسون ، فلبسوا آلة السلاح الزرديات والخوذ ، وألبسوا الخيول البركستوانات المخمل ، وأخذوا الرماح بالشطفات بأيديهم وركبوا وراء السلطان فى الطلب ، وكانوا نحو أربعمائة خاصكى من جلبان السلطان من أعيانهم فعد ذلك من النوادر ، وركب مع السلطان سائر المباشرين من أرباب الوظائف من المتولين والمنفصلين ، فلما تكامل الموكب مشى السلطان وكان الصنجق السلطاني فى كيس حرير أصفر فلم ينشر على رأس السلطان ، فلما وصل الى قبة الأمير يشبك التى فى رأس الحسينية لاقاه الشعراء بالشبابة السلطانية والمزاهر ، ولاقاه الطبردارية وفى أيديهم الأطيار فمشوا قدامه ، ثم لاقاه طائفة اليهود والنصارى وفى أيديهم الشموع موقودة .

ومن الحوادث فى ذلك اليوم أن السلطان لما وصل الى رأس سوق الدريس فكان هناك حمل معلق فيه قناديل معمرة بالزيت ، فصدم به الأتابكى سودون العجمى هلال القبة الذى هو عوض عن الطير الذهب ، فسقطت تلك القناديل على القبة وكلفتة السلطان والكاملية المخمل الأحمر التى عليه فانطرطشوا بالزيت الطيب تطرطشا فاحشا ، فلم يتفأل الناس بذلك على السلطان ، ووقع له أنه لما دخل لمدينة الاسكندرية سقط هلال القبة الذى على رأسه الى الأرض وانكسر نصفين فى وسط سوق الاسكندرية ، وكذلك رصافية المحفة سقطت الى الأرض فبادروا اليها ووضعوها على المحفة ، فلم يتفأل الناس بهذا أيضا على السلطان . لكن وقع للأشرف قايتباى أنه لما دخل الى نجر

وغير ذلك من الخاصكية ، ثم جاء السلطان وعلبه الشاش والقماش وقد تقدم القول على ترتيب الطلب في الريدانية أولا .

وهذا كان صفته لما شق من القاهرة بالموكب السلطاني وهو لابس كاملة محمل أحمر بسمور ، والخليفة عن يمينه وهو بالعمامة البغدادية وعليه قباء صوف أبيض ، وكان أمير كبير سودون العجمي عن يساره رافعا القبة على رأسه والجهم الغفير من الخاصكية خلفه وهم بالخوذ والزرديات وبأيديهم الرماح بالمشطفات الحرير الملون ، وكان الصنجق السلطاني مطويا في كيس حرير أصفر ، فلما شق من القاهرة كانت مزينة بالزينة الحافلة ، واصطفت له الناس على الدكاكين بسبب الفرجة ، وتركزت له الطبول والزمور على الدكاكين من باب النصر الى رأس الرمل ، فرجت له القاهرة في ذلك اليوم رجا وابتهجت الناس أى بهجة ، ثم ارتفعت له الأصوات بالدعاء من الخاص والعام .

وكان هذا الموكب من الوقائع الغريبة في هذا العام ، وكان من الموكب المعدودة والأيام المشهودة ، قل أن بقى يقع لأحد من ملوك مصر مثل هذا الموكب فيما يأتى من الزمان ، ولم يقع للأشرف الغورى من حين تسلطن والى اليوم أنه أوكب وشق من القاهرة هو والأمراء بالشاش والقماش غير هذا الموكب ، فاستمر في هذا الموكب حتى طلع من على جامع المارديني ، من على مدرسة السلطان حسن فشق من الرمل ، وقد ماجت له الرمل في ذلك اليوم من العسكر وكثرة الخلائق ، فاستمر على ذلك حتى دخل من باب الميدان ، فوقف له الخليفة هناك والقضاة الأربعة ، فطوبوا له ورجعوا الى دورهم ، ودخل السلطان الى الميدان هو والأمراء .

وكان الأمير طومان باى الدوادار الكبير نصب له بالميدان الخيمة الكبيرة التي تنصب في المولد ، ومد بها مدة حافلة قيل كان مصروفه تلك المدة فوق الألف دينار ، وفرش تحت حافر فرس السلطان الشقق الحرير من باب الميدان الى الخيمة ، وقيل نثر على رأسه خفاف الذهب والفضة .

ثم ان السلطان جلس في الخيمة وأكل من المدة هو والأمراء ، فلما انقضى أمر المدة أحضر كوامل مخمل أحمر بسمور فخلعها على الأمراء العشرة الذين كانوا صحبتة بغير الاسكندرية ، وخلع على الأتابكي سودون العجمي كاملة مخمل أخضر بسمور ، وقيل خلع عليهم الكوامل بالريدانية ، وخلع على الأمير طومان باى الدوادار كاملة مخمل أحمر بسمور بسبب تلك المدة التي مداها ، وخلع على بعض خاصكية من السقاة من أرباب الوظائف . ثم ان الأمراء نزلوا من الصليبية في موكب حافل وتوجهوا الى بيوتهم ، وانقضى ذلك اليوم على خير ، وهذه الواقعة من معظم وقائع سنة عشرين وتسعمائة قل أن يقع في التواريخ مثلها من الوقائع الغريبة في أخبار السلاطين ، وقد نظمت في ذلك هذه القصيدة التي لم ينسج مثلها على منوال ، وهى هذه :

سر الأنام لمقدم السلطان
وتباشروا منه بكل أمان
وتفردت أضياف أزهار الربا
فوق الغصون بأطيب الألحان
والروض أضجى زهره متبسما
كتبسما الحسناء بضوء جمان
وتهللت من مصر دوحه روصها
عند القدوم تهلل الفرحان

والآل والأصحاب ما طرد الدجا
ضوء الصباح وعم للأكوان

وأما ما كان من ملخص أخباره عند توجهه الى
نجر الاسكندرية ، فانه نزل من القلعة وسافر في
يوم الاثنين مستهل ذى القعدة ، فنزل أولا في المكان
المسمى بالسبكية في بولاق ، فتعدى هناك ثم عدى
الى بر انبابة ونزل بالوطاق الذى بالمنية ، فأقام به
خمسة أيام ، قيل انه كان منتظرا لكتب العقبة
حتى يعلم أخبار ولده وزوجته خوند ، فلما ورد
عليه كتب العقبة اطمأن ورحل من المنية ، وقد
قاسى العسكر فى التعدي ما لا خير فيه ، وجرح
شخص من الخاصكية بالسيف فى وجهه من جماعة
من المماليك عند التعدي بسبب ازدحام العسكر .
ثم ان السلطان توجه من المنية الى المنصورية
وأقام بها يوما وليلة ، ثم توجه من هناك الى
البحيرة فأقام بها يوما وليلة ، واستمر يرحل من
مكان الى مكان الى أن نزل بالنجيلة فأقام بها
يومين وليتين ، وأحضر له الصيادون هناك تمساحا
فأمر بتوسيطه بين يديه .

فلما كان يوم السبت ثالث عشره دخل السلطان
نجر رشيد فأقام به الى يوم الأحد .

ثم أوكب من هناك ودخل الى مدينة الاسكندرية
فى يوم الاثنين خامس عشره ، فدخل العسكر وهو
لابس آلة الحرب باللبس الكامل ، وانسحب
الطلب والجنايب كما تقدم القول على ذلك ، ثم
دخلت الأمراء وهم بالشماش والقماش ، ولم يلبس
السلطان الكلفتة بل لبس تخفيقة صغيرة مدورة ،
وعليه كاملية محمل أحمر بسمور ، وحمل الأتابكى
سودون العجمى القبة والجلالة على رأسه ، وكان
السلطان اقترح على القبة هيئة جلالة ذهب عوضا
عن الطير الذى كان يعمل على القبة ، فشق من

وتضاحك الميدان منذ غنت به
أطياره سحرا على العيدان
عايته لما بدا فى موكب
يزهو على كسرى أنوشروان
لما ارتقى عند الصعود لقلعة
رفعت عليه قبة السلطان
طلع الخليفة والقضاة أمامه
فى الموكب المحفوفه بالفرسان
قالت مراتب عزه لما أتى
لا تعجبوا فالسر فى السكان
لسكندرية كان يوم دخوله
قد عد ذلك اليوم بالسلطان
ما زال أهل النجر من فرح به
بتباشر فى السر والاعلان
لو كان ذو القرنين حيا فى الورى
لاقاه بالاكرام والاحسان
واختاره ملكا يلى من بعده
فى سائر الأقطار والبلدان
فاق الملوك بمصر ممن قد مضى
أخباره فى سالف الأزمان
قد عاد للأوطان فى بشر وفى
نصر وتأيد وصفو زمان
فالله يكفيه مؤنة حاسد
ويطيل أياما له بتهان
ما ماس غصن فى الرياض وكللت
أيدى الغمام شقائق النعمان
قد ضاء لابن اياس شعر قاله
فى الأشرف الغورى العظيم الشأن
ثم الصلاة على النبى المصطفى
خير البرية من بنى عدنان

المدينة في موكب حافل ، فنشر بعض تجار الفرنج البنادقة على رأسه بعض ذهب وفضة ، فلما شق من المدينة زينت له زيتة فشروية ، وكان ثغر الاسكندرية يومئذ في غاية الترحل والخراب .

ومن الحوادث أنه لما شق من المدينة صدم الأتابكي سودون بالجلالة التي على القبة بعض السقائف التي هناك ، فانكسرت تلك الجلالة نصفين وسقطت الى الأرض ، وكذلك لما مرت المحفة من هناك انكسرت الرصافية التي كانت عليها ، ثم ان السلطان خرج من باب البحر الملح وجلس بالمخيم الشريف ، فأرسل اليه مملوكه خدا بردى نائب الاسكندرية تقدمه حافلة ما بين ذهب عين ومماليك وقماش على حمالين وخيول وغير ذلك ، ثم قدم اليه الخواجا ابن أبي بكر تاجر السلطان تقدمه حافلة ، ولم يكن بثغر الاسكندرية يومئذ أحد من أعيان التجار لا من المسلمين ولا من الفرنج ، وكانت المدينة في غاية الخراب بسبب ظلم النائب وجور القباض ، فانهم صاروا يأخذون من التجار العشر عشرة أمثال ، فامتنع تجار الفرنج والمغاربة من الدخول الى الثغر ، فتلاشى أمر المدينة وآل أمرها الى الخراب ، حتى قيل طلب الخبز بها فلم يوجد ولا الأكل ، ووجد بها بعض دكاكين مفتحة والبقية خراب لم تفتح .

وكانت الاسكندرية من أجل مدائن الدنيا حتى قيل كان بها لما فتحها عمرو بن العاص رضى الله عنه أربعة آلاف دار محكمة البناء مفروشة بالرخام الملون ، وفي كل دار منها حمام تحتص بها ، وكان بها اثنا عشر ألف بقال يبيعون البقوليات من بعد العصر الى العشاء ، وكان بها أربعون ألف يهودى ممن وجب عليه الجزية ، وكان بها من الروم والقبط ستمائة ألف انسان ، وكان بها مائة ألف

مركب من مراكب الروم الكبار ، وشتان ما بين هذه الأخبار من هذه الأخبار التي هى بها الآن .

ثم ان السلطان ألبس الأتابكي سودون العجمي الكاملة المخمل الأحمر التي كانت عليه ، وخام على نائب الاسكندرية والخواجا ابن أبي بكر . وفي ذلك اليوم ثارت مماليك السلطان الخاصكة

على خدا بردى نائب الاسكندرية ، وقالوا له : أنفق علينا لكل مملوك عشرين أشرفيا كما فعل قجماس نائب الاسكندرية لما دخل الأشرف قايتباى الى الاسكندرية ، فلم يعطهم شيئا فكادوا أن يخرقوا به وما سلم من القتل الا بعد جهد كبير .

ثم حضرت التقادم الحافلة للسلطان من الكشاف ومشايخ العربان بالغربية وهى ما بين ذهب عين وخيول وأبقار وأغنام وغير ذلك ، ففرق منها على الأمراء ممن كان صحبته أشياء كثيرة من الخيول والأبقار والأغنام ، فلما بات بالمخيم تلك الليلة وقدوا له مآذن المدينة ، وعلقوا على شراريف الصور كل واحدة قنديل ، فلما أصبح السلطان ركب وضرب الكرة على ساحل البحر الملح هو والأمراء الذين كانوا صحبته ، ثم توجه وزار الصالحين الذين هناك ، ثم توجه الى البرج الذى أنشأه الأشرف قايتباى فطلع فى البرج هو والأمراء ورموا قدامه فى ذلك اليوم بالمكاحل والمنجنيق ، ثم توجه من هناك وكشف على الأبراج التى بثغر الاسكندرية وعرض ما فيها من السلاح والمكاحل . وفي ذلك اليوم أنعم السلطان على مملوكه يوسف الزردكاش الثانى بامرة طبلخاناه .

ثم فى ليلة الأربعاء سابع عشره أحرق السلطان فى الوطاق احراقة نفظ حافلة على شاطئ البحر الملح .

ثم فى يوم الأربعاء سابع عشره رحل السلطان

عن ثغر الاسكندرية فكان مدة اقامته بها يومين وليلتين .

ففى ذلك اليوم الذى رحل فيه أرسل محمد ميثار الطشتخاناه الى الظاهر قانصوه الذى فى البرج والى قيت الرحبى الذى فى البرج ورسم له بأن يكسر قيودهما ، وأرسل على يده لكل واحد منهما ألف دينار وبندين سمور وبندين سنجاب وثوبين بعلبكى وغير ذلك من القماش الفاخر ، وأرسل يقول لهما : « لا تجتمعوا على أحد من خلق الله ولا تكاتبوا أحدا من الأمراء فما يحصل لكما من السلطان خير » . فباسوا له الأرض فى البرج وأجابوا بالسمع والطاعة واستمروا فى البرج بغير قيود . ثم رحل السلطان عن ثغر الاسكندرية بعد اقامته فيها يومين وليلتين ، ثم توجه الى دمنهور فأقام بها يوما وليلة ، ثم توجه من بعد ذلك الى النجيلة عند عوده أيضا .

ومن الحوادث أنه لما أقام فى النجيلة غرق بها شخص من الخاصكية فى البحر فمات هناك .

ثم توجه منها الى الطرانة فأقام بها يوما وليلة ، ثم نزل بالمنصورية وأرسل يقول للأمير طومان باى الدوادار بأن ينادى فى القاهرة بأن لا أحد من العسكر بلاقى السلطان الا اذا نزل بالريدانية فى الوطاق ، فامثلوا ذلك ، ثم ان السلطان رحل من المنصورية الى المنية وعدى من هناك وحضر الى الوطاق بالريدانية ، وهذا ما كان من ملخص أخباره فى هذه السرحة .

وكان أول من دخل الى ثغر الاسكندرية من السلاطين الأشرف شعبان بن حسين بن محمد ابن قلاوون وذلك فى سنة سبع وستين وسبعمائة وكان سبب دخوله الى ثغر الاسكندرية أن الفرنج طوقوا الثغر على حين غفلة وملكوا المدينة ... فلما

جاءت الأخبار بذلك خرج السلطان على جرائد الخيل وصحبته الأتابكى يلبغا العمري وجماعة من الأمراء ، فلما بلغ الفرنج مجيء السلطان رحلوا عن الثغر بعد ما نهبوا المدينة وقتلوا من أهلها ما لا يحصى ، فدخل السلطان ورد الناس الى المدينة وطمئنه ورجع بسرعة الى مصر .

ثم دخلها ثانيا مرة فى سنة احدى وسبعين وسبعمائة ... ففى هذه المرة أوكب بها وحملت القبة والطير على رأسه ، وكان خليل بن عرام نائب الاسكندرية ففرش له الشقق الحرير من باب رشيد الى باب البحر الملح ، ونثر على رأسه خنائف الذهب والفضة وكان له يوم مشهود بالاسكندرية .

ثم دخلها من بعد ذلك الملك الناصر فرج بن الملك الظاهر برقوق فى سنة أربع عشرة وثمانمائة ، فأوكب بها موكبا حافلا وحملت القبة والطير على رأسه . ومما وقع له أنه لما شق من مدينة الاسكندرية وقف له بعض تجار المغاربة بقصة يشكون فيها من جور القباض ، فلما قرأ تلك القصة ، رسم بإبطال ما كان يؤخذ منهم من المكوس المحدثه وكتب لهم بذلك مرسوما شريفا فارتفعت له الأصوات بالدعاء .

ثم دخلها من بعد ذلك الأشرف قايتباى فى سنة اثنتين وثمانين وثمانمائة ، وأوكب بها وحملت القبة والطير على رأسه . فلما شق المدينة نثر عليه بعض تجار الفرنج البنادقة ألف بندقى ذهب فتزاحمت الناس عليه يلتقطون الذهب ، فكاد السلطان أن يسقط من على ظهر الفرس حتى أدركه تراز الشمسى رأس نوبة النوب فضرب الناس حتى أفسحوا للسلطان ومشى .

ثم دخلها مرة أخرى فى جمادى الأولى سنة أربع

وثمانين وثمانمائة ، فلم يوكب بها مثل المرة الأولى . وكان سبب دخوله هذه المرة لأجل انتهاء عمارة البرج الذى أنشأه هناك فكشف عليه لما كملت عمارته ورجع بسرعة ، وسافر هذه المرة من البحر وكان أيام النيل والأراضى مغمورة بالمياه فأقام بـشـغـر الاسكندرية ثلاثة أيام ، وكذلك فى المرة الأولى . ثم دخلها من بعد ذلك الملك الأشرف قانصوره الفورى فى سنة عشرين وتسعمائة كما تقدم القول على ذلك .

وفى يوم الأربعاء ثانى الشهر ، نزل السلطان صبيحة يوم طلوعه وشق من الصليبية وهى مزينة ، ثم توجه الى بولاق وكشف على عمارته التى هناك ، ثم رجع من على باب البحر ودخل من باب القنطرة وتوجه الى البندقانيين وكشف على عمارته التى هناك وكان فى نفر قليل من المماليك . وأشيع عنه أنه قال للعوام : قووا الزينة ولا تفكوها لبعد مضى عشرة أيام ، وجعل يقول لهم ذلك بنفسه ، فعاب عليه الناس ذلك .

وفى يوم الخميس ثالثه ، ثارت المماليك الجلبان على السلطان بالقلعة ورجموا الأمراء من الطباقي ، وقصدوا نزولون لنهب الزينة ، فأغلق عليهم السلطان أبواب القلعة وباب السلسلة وباب الميدان ، فلما بلغ الناس ذلك ارتجت القاهرة وفكوا الزينة فى لمح البصر ، ووزع الناس الأمتعة فى الحواصل ، وكثر القال والقييل بين الناس ، وقعد الأمراء المقدمون فى بيوتهم وأغلقوا أبوابهم . وكان الأتابكى سودون العجمى مسافرا نحو بلاده وقد سافر بعد حضوره مع السلطان . فلما جرى ذلك تنكد السلطان لهذه الواقعة ، وبلغه أن المماليك يرومون منه نفقة لكل واحد منهم مائة دينار حلوة السلامة . وشرع المماليك القرائنة يورون المماليك الجلبان على ذلك ، وكان العسكر

جميعه غير راض عن السلطان بسبب تعطل اللحم ، فان العسكر قاطبة من نحو سبعة أشهر لم يصرف لهم فيها زبديـة لحم ، وحصل لهم بسبب ذلك الضرر الشامل . وكانت الدواوين فى غاية الانشحات لكثرة العسكر فى هذه الأيام ، ولا سيما ما جده السلطان من العسكر فى الطبقة الخامسة . وكانت الاقطاعات خرابا والبلاد معطلة من جور الكشاف ومشايخ العربان وهجاج فلاحي المقطعين عن البلاد ، فصارت المماليك القرائنة ينتظرون حركة مثل هذه الحركة فما صدقوا بهذه الحركة

وفى بقية ذلك اليوم غلقت الأسواق والدكاكين وارتفعت البضائع منها ، ثم فى بقية ذلك اليوم — قرب المغرب — نزل طائفة من المماليك الى الصليبية ونهبوا بعض بضائع من الدكاكين ، ثم ان المماليك قبضوا على شخص من العوام وقالوا له : نادى عن لسان السلطان أن النفقة مع الجامكية لكل مملوك من المماليك السلطانية مائة دينار . فما وسع ذلك الرجل الا أنه نادى لهم كما قالوا له ، ولم تكن هذه المناذاة من قبل السلطان .

وفى يوم الجمعة رابعه أشيع أن شخصا من مماليك السلطان يسمى وردبش ، وهو أمير عشرة ندلى بجبل من طبقه الميدان لما ثارت المماليك فانقطع به الجبل ، فسقط الى الأرض فمات من يومه . وقد صارت المماليك فرقتين ، فرقة مع السلطان وفرقة عليه ، فلما كان وقت صلاة الجمعة لم يخرج السلطان ولم يصل صلاة الجمعة ، ولم يطلع من الأمراء غير ثلاثة أمراء مقدمين ، وقد اضطربت أحوال السلطان من بعد مجيئه من هذه السفرة وتكدر عيشه ، وطرقته عين عقيب ذلك الموكب العظيم الذى طلع فيه ، فكان كما يقال فى

أمثال الصادح والباغم :

لا تغتسرر بالحفظ والسلامه

فانما الحياه كالمدمه

والعمر مثل الكاس والدهر القدر

والصفو لا بد له من الكدر

ومن أمثاله أيضا

في لمحة العين بكاء وضحك

وناجذ باد ودمع منسفاك

وفي يوم السبت خامسه ابتداء فيه السلطان

بتفرقة الأضحية على العسكر ومن له عادة .

وفي يوم الاثنين سابعه أشيع أن السلطان رسم

للوالى بأن يتسلم جاني بيك الأستاذار ويعاقبه على

بقية المال الذي قرر عليه ، فانه كان قرر عليه

ثلاثة وثلاثين ألف دينار أورد منها ستة عشر ألف

دينار ، فباع بيته وخبوله وقماشه ولم يغلق ذلك

القدر الذي قرر عليه ، فأظهر العجز فلم يقبل له

السلطان عذرا في ذلك وسلمه للوالى ، فأشيع

أنه قد عصر في أكابه وضرب كسارات على ركه ،

واستمر تحت العقوبة الى الآن . وكان جاني بيك

هذا من الظلمة الكبار اذا ظفر بأحد من الناس

لا يرحمه - ولا سيما ما فعله في ولايته

للأستاداربه ، وما جرى على العسكر بسبب

الحمايات وغيرها - فلما جرى له ذلك لم يرث له

أحد من خلق الله تعالى .

وفيه توفي يونس سر آخورى السلطان ، وكان

قبل ذلك في خدمة الأتابكى تمرار الشمسى ، وكان

حسن السيرة لا بأس به

وفي يوم الثلاثاء ثامنه جلس السلطان بالميدان

وفرق بقية الأضحية ، لكنه شح في هذه السنة

وضاقت عينه ، فقطع ضحايا الزوايا والمزارات التي

بالقرافة وغيرها من زوايا الأعاجم ، فحصل لهم

كسر خاطر بسبب ذلك .

ثم انه رسم لبعض زوايا بالقرافة بصرر فيها

دراهم يسيرة مثل مقام الامام الشافعى والامام

الليث رضى الله عنهما وبعض مزارات بالقرافة ،

وتوقف في البقية ، ثم قطع ضحايا الفقهاء والمباشرين

الذين لهم ضحايا في الديوان والذخيرة فقطع

أضحية الذخيرة وأبقى الذي في الديوان . وكانت

الأضحية في هذه السنة في غاية الغلو في السعر

وهى مشحوتة لم يظهر منها شىء بسبب تشويش

المماليك على الفلاحين ، فقل الجالب بسبب ذلك

وكانت الأحوال في هذه السنة غير صالحة .

وفي يوم الخميس عاشره كان عيد النحر ، وكان

السلطان في غاية النكد من مماليكه ، وكان

الأتابكى سودون مسافرا في اقطاعه وقد هرب من

تفرقة الأضحية ، وكذلك الأمير تمر الزردكاش ،

فخرج السلطان وصلى صلاة العيد في الجامع ، ثم

ركب من هناك ودخل الحوش ولم يضح في الايوان

على العادة القديمة . فلما دخل الحوش لم يذبح

بيده شيئا في ذلك اليوم ، ورسم للأمير مغلباى

الزردكاش وبوسف الزردكاش الثانى بأن يذبحا

عنه ، ثم جلس في الحوش ساعة سيرة وقام ودخل

الدهيشة وانحجب عن الناس

وفي يوم الاثنين خامسه¹ أشيع بين الناس بأن

الأمير طومان باى الدوادار ضمن للمماليك الجلبان

بأن السلطان ينفق عليهم في شهر صفر لكل مملوك

مائة دينار ، فرضوا بذلك وخمدت الفتنة قليلا .

ثم ان السلطان نادى للناس في ذلك اليوم بالأمان

والاطمئنان والبيع والشراء ، وأن أحدا لا يكتر

كلاما فيما لا يعنيه ، وأن الأسواق تفتح على العادة

وأن لا أحد يشوش على أحد من المتسبين ،

وكانت الأسواق جميعها مقفلة من حين وقعت هذه

الحركة بسبب المماليك ، فلما أشهر المناداة بذلك

(1) حاسه يوم سبت .

ارتفعت له الأصوات بالدعاء من الناس وخمدت تلك الاشاعات بالركوب على السلطان .

وفي يوم الأربعاء سادس عشره نزل السلطان الى الميدان وجلس به وأنفق على المماليك الكتانية جامكية هذا الشهر ، ثم أحضر أغصوات الطبايق الأعيان ووبحهم بالكلام وقال لهم : « ان كان لكم قصد أن تسلطنوا أحدا غيرى فأنا أنزل له عن الملك وأرسلونى فى أى مكان تختارونه » . فباسوا له الأرض وقالوا : ما لنا أستاذ الا أنت وما نموت الا تحت رجلك وما لنا حاجة بنفقة من السلطان وقد رضىنا بلا نفقة ان شئت تعطى أو لا تعطى . فقال السلطان : « خلى المشاعلى ينادى بأن النفقة بطالة » . فلم يطلع الوالى ولا المشاعلى فى ذلك اليوم ، فقام الزينى بركات بن موسى المحتسب ونادى بنفسه فى الميدان بين العسكر بأن معاشر الأمراء والعسكر المنصور حسبما رسم المقام الشريف بأن النفقة على العسكر بطالة . ثم بعد ذلك طلع المشاعلى فقال له السلطان : « نادى فى القاهرة بأن النفقة بطالة » . فنزل الزينى بركات بن موسى والمشاعلى قدامه ينادى للعسكر بأن النفقة بطالة ، وقد طمعت آمال المماليك بالنفقة وما يعلم ما وراء ذلك الا الله .

وفي يوم الخميس سابع عشره ، جلس السلطان فى الحوش على المصطبة وأنفق الجامكية على العسكر ، وأشيع أن فى تلك الليلة ثارت المماليك بالقلعة بعد العشاء ، فثار المماليك الذين فى طبقة الطازية على المماليك الذين فى طبقة الزمامية حتى اتقوا بالدبابيس وقالوا : « اتتو عملتوا لكم وجه عند السلطان وقتلوا ما لنا حاجة بنفقة فتصيروا اتتو أحبابه ونحن نصير أعاديه ، فأحق ما نكون ونحن واتتوا على كلمة واحدة ، وما نرجع عن

طلب النفقة لكل مملوك مائة دينار » . وصموا على ذلك ، وصار طائفة من المماليك مع السلطان وطائفة عليه .

فلما سمع الناس ذلك شرعوا يوزعون قماشهم وأمتعتهم فى الحواصل ، وكذلك السوق وزعوا ما فى دكاكينهم من البضائع ، ولهج الناس باقامة فتنة كبيرة ، والأمر فى ذلك لله تعالى .

وفي يوم الجمعة ثامن عشره ، ثارت المماليك الجلبان بالقلعة بعد صلاة الجمعة ونزل طائفة منهم الى الصليية فنهبوا ما وجدوه ، واستمروا على ذلك مهما لاح لهم يخطفوه ، فبانوا على أن يصبحوا ينهبوا المدينة وبيوت الأمراء ، وكان أكثر الأمراء وزع قماشهم .

فلما أصبحوا يوم السبت أشيع بأن النفقة عمالة لكل مملوك خمسون دينارا ، وأن القرائصة ما يعطيهم شيئا ، فمن المماليك الجلبان ما رضى بالخمسين دينارا ومنهم من قال : ما نأخذ الا مائة دينار ، وأشيع بأن المماليك القرائصة والسيفية لم ينفق عليهم شىء ، واستمر القيل والقال عمالا بين الناس وقد لهجوا باقامة فتنة كبيرة .

وفي يوم الأحد عشرينه نزل السلطان وسير فحون المطرية ، ثم عاد من يومه الى القلعة ، وشق من القاهرة فى ذلك اليوم ، وسكن أمر حركة المماليك قليلا من حين نادى لهم بأن النفقة فى شهر صفر مع الجامكية لكل مملوك خمسون دينارا .

وفي يوم الاثنين حادى عشرينه رسم السلطان بسجن جاني بيك الأستاذار الذى كان دودار طراباى ، فتوجهوا به الى المقشرة وهو راكب على بغلة فبات بالمقشرة ليلة واحدة ثم أعادوه الى بيت

(1) فى الاصل : الاثنين ثانى عشرينه . وفى أيام هذا الشهر اضطراب فى الاصل صححناه فى طبعتنا .

شيئا بل أفسدوا ما أسلحوا وما حصل برواحهم
نضع قط

وفي يوم الحيس رابع عشرينه حضر مبشر
الحاج ، وقد جد في السير فكانت مسافته في
الطريق اتى عشر يوما ، فأخبر بالامن والسلامة ،
وأن ابن السلطان طيب وكذلك خوند وبقيّة
الحجاج طيبون ، وكذلك القاضى كاتب السر محمود
ابن أجا طيب في خير وسلامة ، وكان أشيع موته
فما صح ذلك ، ففرح أكثر الناس بسلامته . وكان
محبيا للناس قاطبة ، وأخبر المبشر بأن عيد النحر
كان هناك يوم الجمعة . ثم ان المبشر طاف على
الأمراء والمبائرين وأعيان الناس وأخبرهم بسلامة
ابن السلطان فأقيضت عليه الخلع السنية من الأمراء
وأعيان الناس قاطبة .

ومما أشيع من الأخبار في كتب الحجاج أن ابن
السلطان لما دخل الى مكة لاقاه السيد الشريف
بركات أمير مكة ، فلما وصل ابن السلطان الى باب
المعلة دخل مكة في موكب حافل ، وأشيع أن
الشريف بركات نزل عن فرسه ومسك بأزقة لجام
ابن السلطان ومشى عن يمينه ، ومشى الأمير
لقطباى امير ركب المحمل عن يساره وهو ماسك
بأزقة اللجام ، ومشى أمير ركب الأول ، ثم لاقاه
قضاة مكة وأعيان التجار فمشوا قدامه حتى وصل
الى باب السلام ، فعد ذلك من النوادر .

ثم ان الشريف بركات أرسل الى ابن السلطان
تقادم حافلة ما بين ذهب عين وقماش ورفيق وغير
ذلك ، وأرسل لخوند زوجة السلطان أضعاف
ذلك ، ثم قدم اليه قضاة مكة وأعيان التجار الذين
بها التقادم الحافلة ، وكذلك الأمير حسين نائب
جدة ، فدخل على ابن السلطان وخوند من التقادم
الحافلة ما لا يحصى ، وأشيع أن الشريف بركات
واصل صحبة ابن السلطان بركب المحمل ، وقيل

الوالى ثانيا ليعاقبه على المال الذى تأخر عليه . وكان
صحبه لما أدخلوه المقشرة ابن شمس الدين بن
عوض ، وقد تقدم القول على أن والده ابن عوض
مات وهو تحت العقوبة ، وصار ابنه هذا تحت
العقوبة حتى يقر بالمال الذى قرر على أبيه ،
وكان صحبتهما شخص من أولاد ابن عمر مشايخ
عربان الصعيد ، فباتوا جميعا بالمقشرة ليلة واحدة
ثم عادوا بهم الى بيت الوالى ليعاقبهم على المال
الذى تأخر عليهم .

وفي يوم الثلاثاء ثانى عشرينه نزل السلطان
وسير الى نحو بولاق وكشف على العمارة التى
هناك ، ثم عاد الى القلعة من يومه وشق من الصليبة
ذهابا وايابا .

وفي يوم الأربعاء ثالث عشرينه دخل جماعة
من العسكر من المماليك السلطانية ممن كان مسافرا
يحب في التجريدة ، وقد أرسل لهم السلطان
مراسيم بالمجيء فما صدقوا بذلك ، وقد قاسوا في
هذه السفرة ما لا خير فيه من الغلاء الذى وقع
يحب ، فباعوا خيولهم وسلاحهم وقماشهم حتى
أكلوا بهم ، وما قاسى منهم أهل حلب خيرا... نزلوا
في دورهم ونهبوا قماشهم وفسقوا في حريمهم ،
وشوشوا على سوقة حلب وأخذوا بضائعهم منهم
غصبا ، حتى قيل ان بعض المماليك الجلبان أزال
بكاره بنت صغيرة عمرها نحو ثلاث سنين ، وأشيع
أنها ماتت ولم يصح موتها ، وقيل كانوا يهجمون
على النساء في الحمامات ويخطفونهن منها غير
ما مرة ، وفعلوا أشياء فاحشة من هذا النمط
ما فعلها من تقدمهم من المماليك السلطانية ، وثاروا
على الباش قايى باى أمير آخور كبير وبهدلوه ،
وأخرقوا به عدة مرار وما سلم من القتل الا سلامة ،
وخرّبوا حلب عن آخرها من الظلم والجور ، وكان
ترك رواحهم الى حلب أصوب وما أفاد من رواحهم

ان خوند زوجة السلطان لما دخلت الى مكة حملت محفتها على أكتاف جماعة الشريف يركات من باب المعلة الى باب السلام ، هكذا أشيع فعد ذلك من جملة سعد السلطان . وأشيع في كتب الحجاج بأن الغلاء بمكة في سائر البضائع ، وأن الشاشات والأزر لم يوجدوا بمكة لعدمها جدا .

وفي يوم الجمعة خامس عشرينه توجه الأمير طومان باي الدوادار الى الخانكاه وقد بلغه أن ممالك جراكسة وصلوا صحبة الففل ، وأن له أقارب جراكسه صحبه المماليك ، وأشيع أن السلطان واصل له أخ جركسي صحبة القفل ، فخرج الأمير الدوادار بسبب ذلك .

انتهى ما أوردناه من أخبار سنة عشرين وتسعمائة ، وقد خرجت هذه السنة عن الناس على خير وسلامة ، وكانت سنة مباركة هادئة من القتن ، وأخصب فيها الزرع ووقع فيها الرخاء في سائر الغلال والبضائع ، ولم يقع فيها الطاعون بمصر ولا أعمالها ، وحصل فيها نصره عظيمه لابن عثمان ملك الروم على اسمعيل الصفوي ملك العراقين ، وخرجت من مصر تجريدة بسبب حفظ مدينة حلب ورجع العسكر وهم سالمون من تلك الفتنة .

سنة احدى وعشرين وتسعمائة (١٥١٥م) :

فيها في المحرم ، افتتاح العام كان يوم الخميس المبارك ، وكان خليفة الوقت يومئذ المتوكل على الله محمد بن المستمسك بالله يعقوب ، والسلطان يومئذ الملك الأشرف قانصوه الغوري عز نصره . وأما القضاة الأربعة فكان يومئذ القاضي علاء الدين الأحميمي الشافعي والقاضي شمس الدين السمديسي الحنفي والقاضي جلال الدين بن قاسم المالكي والقاضي شهاب الدين الفتوحى الحنبلي . وأما الأمراء المقدمون فكان عدتهم يومئذ سبعة

وعشرون أميراً مقدم ألف وهم : الأتابكي سودون العجمي أمير كبير ، وكانت امرية السلاح شاغرة ، والأمير أركساس بن طراباي أمير مجلس ، والأمير قاني باي قرا أمير آخور كبير ، والأمير سودون الدواداري رأس نوبة كبير ، والأمير طومان باي دوادار كبير ابن أخي السلطان ، والأمير أنص باي ابن مصطفى حاجب كبير ، وأما بقية الأمراء المقدمين غير أرباب الوظائف فالأمير قانصوه بن سلطان جركس ، والأمير تمر الزردكاش ، والأمير أزمك الناشف والأمير طقطبای نائب القلعة ، والأمير قانصوه الفاجر ، والأمير أربك المكحل والأمير تاني بيك النجمي ، والأمير تاني بيك الخازندار ، والأمير نوروز آخور يشبك الدوادار ، والأمير جان بلاط الموتر ، والأمير علان الدوادار الثاني ، والأمير خاير بيك كاشف الغريبة ، والأمير بيبرس قريب السلطان ، والأمير يخشباي والأمير قانصوه روح لو نائب قطيا ، والأمير قانصوه أبو سنة الذي كان والي القاهرة ، والأمير أربك مملوك السلطان ، والأمير خدا بردي نائب الاسكندرية مملوك السلطان ، والأمير خاير بيك العلائي الشهير بالمعمار وهو آخر من قرر من المقدمين ، والأمير أقبای الطويل أمير آخور ثاني .

وأما الأمراء الطبليخانات والأمراء العشراوات فازداد منهم جماعة وانتقص منهم جماعة ما يحضرني اسماؤهم الآن .

وأما أرباب الوظائف من المباشرين فالقاضي كاتب السر محمود بن أجا صاحب ديوان الانشاء الشريف ، ونائبه الشهابي أحمد بن الجيعان ، والقاضي محيي الدين عبد القادر القسروي ناظر الجيوش المنصورة ، وعلاء الدين بن الامام ناظر

الخواص الشريفة ، والجمالى يوسف البدرى وزير
الديار المصرية ، وشرف الدين الصغير ناظر الدولة
الشريفة وكاتب الممالك أيضا ، والأمير طومان
باى الدوادار متكلما فى الأستادارية وغير ذلك
من الوظائف ، والقاضى أبو البقا بن المستوفى ناظر
الاسطبل الشريف ، وبقية المبشائرين على حكم
السنة الخالية ، وكانت وظيفة الزمامية شاغرة من
حين توفى الأمير عبد اللطيف الزمام ، وبقية أرباب
الوظائف على حكم السنة الخالية .

فكان مستهل السنة يوم الخميس المبارك ، فطلع
الخليفة والقضاة الأربعة للتهنئة بالعام الجديد ،
وكان السلطان فى الميدان ، وكان قبل ذلك بأيام
نادى للعسكر أصحاب الطبقة الخامسة بالعرض ،
وقد أشيع أنه يرسل تجريدة الى بلاد الهند بسبب
تعثت الفرنج فى بحر الهند ، فلما طلع العسكر
وعرضهم فى ذلك اليوم فلم يقع فيه كتابة ولا تعيين
بل قال لهم : اطلعوا يوم الأحد أيضا .

وفى ذلك اليوم حضر قاصد من عند سليمان شاه
ابن عثمان ملك الروم وعلى يده مكاتبة من سليمان
شاه للسلطان ، فكان من مضمون تلك المكاتبة
أن شخصا من أولاد شاه سوار بن ذالغادر حصل
بينه وبين عمه على دولات تشاجر بسبب بلاد أبيه
فحنق منه وتوجه الى ابن عثمان ، فتعصب له
سليمان شاه وأرسل يسأل السلطان فى أن يعطى
ابن سوار بلاد أبيه التى بيد على دولات ، فلم
يوافق السلطان على ذلك ، وتنكد لهذا الخبر فى
ذلك اليوم الى الغاية ، واشتور مع الأمراء فى هذا
الأمر ، وربما تنسح هذه الفتنة بين ابن عثمان
والسلطان ، والأمر فى ذلك الى الله تعالى .

وفى ذلك اليوم أشيع من الأخبار بأن ابن عثمان
أمد ابن سوار بعساكر وتوجه على حين غفلة
وكبس على عمه على دولات وحصل بينهم مقتلة

مهولة قتل فيها ابن على دولات وابن ابنه وقتل
جماعة كثيرة من عسكره فى المعركة ، وأن على
دولات اختفى فى قلعة زمنطوا ، وأن ابن عثمان
ما هو راجع عن على دولات ، فشق على السلطان
هذه الأخبار ، وأشيع أن ابن عثمان أظهر فى
مكاتبته التى أرسلها للسلطان غاية العظمة وقال
فيها : ان مقامنا الشريف ، وقال فى حق السلطان :
مقامكم العالى ، وهذا من نوع الاستخفاف
بالسلطان ، وكان سليمان شاه بن عثمان هذا عنده
جهل زائد ويجب اقامة الفتن ، وكان سفاكا للدماء
فقتل اخوته وأولادهم وكان فيهم من هو مرضع ،
عما قيل من جهله .

فلما كان يوم الجمعة ثانى الشهر ، صلى السلطان
صلاة الجمعة ، تم حلا هو والأمراء وضيروا
مشورة فى أمر ابن عثمان وعلى دولات ، وأشيع
أن السلطان عين فى ذلك اليوم أربعة من الأمراء
المقدمين يتوجهون الى حلب ، وأشيع أن السلطان
أرسل يقول للأمراء الذين فى حلب : لا تجوا حتى
ننظر ماذا يكون من أمر ابن عثمان وعلى دولات .
ولكن غالب العسكر من الممالك السلطانية دخل
الى مصر ، وكان السلطان قبل ذلك بعث اليهم
مراسيم بالمجىء الى مصر لما قلقوا من أمر الغلاء
الذى بحلب ، ثم بعد ذلك طرقة هذه الأخبار فندم
على حضور العسكر ، وكثر فى ذلك القيل والقال
بين الناس عن أمر مجىء العسكر حتى أشيع عودهم
الى حلب والأحوال غير صالحة .

وفى يوم السبت ثالثه أنفق السلطان على جماعة
الأمراء الذين لهم مرتبات على الذخيرة ، وكان لهم
من حين توفى الأمير خاير بيك الخازندار لم
يصرف لهم شىء ، فغلق لهم فى ذلك اليوم ما كان
منكسرا لهم من المرتبات .

وكان أصله من مماليك الأشرف قايتباي ، وقيل كان أصله من مماليك يشبك بن حيدر .

وحضر عقيب ذلك قاصد من عند على دولات وعلى يده مكاتبة للسلطان يذكر فيها ما وقع له مع ابن أخيه سوار ، وأن ابن عثمان منعصب له وقائم معه ، والأمر على ما يراه السلطان . وكان سبب حضور نائب صفد قيل انه وقع بينه وبين أمير كبير حتى يرى الظالم من المظلوم فيحكم بينهم بما تقتضيه الآراء الشريفة في ذلك .

وأشيع أن الشهابي أحمد بن الجيعان لما خرج الى ملاقاته ابن السلطان من العقبة أرسل صحبته السلطان خاعة سنية الى السيد بركات أمير مكة ، وقد بلغ السلطان حضوره صحبة المحمل مع ابن السلطان وقد تقدم القول على ذلك .

وفي يوم السبت عاشره طلع قاصد على دولات وقابل السلطان ، فلما قرأ مكاتبته جمع الأمراء المقدمين قاطبة والأمراء الطبلحانات والأمراء العشاوات وقرأ عليهم مكاتبة على دولات ، ولم ينشر السلطان في ذلك اليوم ولا الأمراء لهذه الأخبار التي وردت عليه من على دولات بسبب ابن عثمان ، وأنه ما هو راجع عن على دولات وأظهر التعصب لابن سوار ، فأقام الأمراء عند السلطان الى قريب الظهر وهم في ضرب مشورة بسبب ابن عثمان وعلى دولات . وأشيع أن السلطان عين أربعة من الأمراء المقدمين يتوجهون الى حلب وبقيمون بها زيادة على ما هناك من الأمراء المقدم ذكرهم ، حتى يروا ما يكون من أمر ابن عثمان .

وفي هذا الشهر كانت وفاة صاحبنا كمال الدين ابن قوسان ، وكان عشير الناس بشوشا مستغرقا

وفي يوم الأحد رابعه نزل السلطان الى الميدان وعرض عسكر الطبقة الخامسة وقال لهم : اعملوا يرفقكم الى السفر في أول ربيع الأول ، وسافروا الى الهند بسبب تعبت الفرنج في بحر الهند .

وقيل انه وعد الذي له جامكية ألف وخمسمائة درهم بأن يكملها له ألفى درهم اذا ببيضوا وجوههم في هذه السفرة وتصير جامكية الكل ألفى درهم ، فارتفعت الأصوات له بالدعاء في ذلك اليوم ، وقيل انه كتب عسكر الطبقة الخامسة جميعها وهم ما بين أولاد ناس ومماليك وتراكمة وغير ذلك .

وفي ذلك اليوم خرج القاضي شهاب الدين بن الجيعان وتوجه الى العقبة لأجل ملاقاته ابن السلطان وخوند والقاضي كاتب السر ، فخرج وصحبته جماعة من المماليك السلطانية وغير ذلك من الأعيان ، وكان صحبته أشياء حافلة من مأكلى ومشرب يرسم المدات التي تعمل هناك ، وحلوى وفاكهة وبطيخ صيفى وغير ذلك من الأشياء الملوكية .

وفي يوم الاثنين خامسه جلس السلطان بالميدان ونادى للعسكر الذى جاء من حلب بأن يطلع الى القلعة ويقابل السلطان وعليه أمان الله تعالى ، وكان العسكر من حين حضر من حلب وهو مختف فى البيوت لم يظهر منهم أحد .

وفيه حضر للسلطان شخص من بلاد جركس زعموا أنه ابن أخيه ، فطلع فى ذلك اليوم وقابل السلطان وكان رجلا كاملا شابا مستدير اللحية ، وكان يقرب للأمير الدوادار أيضا .

وفي يوم الخميس ثامنسه حضر الى الأبواب الشريفة طراباي نائب صفد بطلب من السلطان ،

وكان بينه وبين وفاة أخيه شمس الدين دون
السنة ، وكان لا بأس به .

وفي يوم الأربعاء حادى عشرينه نزل الحاج
بالبركة ، فنزل سيدى عمر بن الملك المنصور أمير
ركب الأول ، ونزل الأمير طقطبى أمير ركب
المحمل ، ونزل سيدى ابن السلطان وخوند زوجة
السلطان ، وحضر صحبة ابن السلطان السيد
الشريف بركات أمير مكة وولده وصهره عرعر ،
وحضر القاضى كاتب السر محمود بن أجا ، وحضر
شيخ العرب عبد الدائم بن بقر وأخوه بيبرس ،
وغير ذلك من أعيان الحجاج ، فخرجت الأمراء
قاطبة الى تلقيهم وأعيان الناس ، فكان لدخولهم
الى بركة الحاج يوم مشهود ، ولاقاهم القضاة
الأربعة فأقام ابن السلطان فى بركة الحاج الى بعد
العصر وركب من هناك ودخل الى القاهرة فنزل
فى مدرسة أبيه وبات بها ، وكذلك أمراء الحاج .
وأما خوند زوجة السلطان فانها طلعت الى
القلعة فى المحفة تحت الليل وحولها المشاعل
والفوانيس ، فطلعت من باب الدرقيل ولم يشعر
بها أحد من الناس ، ودخل القاضى كاتب السر الى
بيته تحت الليل ، وكان عليلا ، فدخل فى محفة الى
داره .

فلما كان يوم الخميس ثانى عشرين المحرم جلس
السلطان بالحوش وعمل الموكب بالشاش والقماش
وحضر الأتابكى سودون العجمى أمير كبير وسائر
الأمراء المقدمين غيرهم وأرباب الدولة قاطبة . ثم
ان ابن السلطان ركب من مدرسة أبيه التى
بالشرابشيين وركب قدامه الشريف بركات أمير
مكة وولده وصهره وهم بكوامل مخمل أحمر
بسبور ، وكان السلطان أرسل تلك الكوامل الى
الشريف صحبة الشهابى أحمد بن الجيعان الى

فى ملاذ نفسه ، وكان لا بأس به ، فمات وقد قارب
السبعين سنة من العمر .

وفى يوم الأحد حادى عشره نزل السلطان
وعدى الى المقياس وبات به تلك الليلة وانشرح
هناك ، وقيل انه لم يبت بل أقام به الى بعد العصر
وهو فى أرغد عيش من مأكلى ومشرب ، ثم عاد
الى القلعة من يومه .

وفى يوم الاثنين ، ثانى عشره ، عين السلطان
خاصكيا يقال له جانم ، وأصله من مماليك
الأشرف قايتباى ، وكان من ذوى العقول ، بأن
يتوجه قاصدا الى ابن عثمان ، وكتب على يده
مطالعة الى ابن عثمان بالجواب عن مطالعته بما
تقتضيه الآراء الشريفة فى أمر على دولات وابن
أخيه سوار ، وقرر معه اذا سافر يخرج على
جرائد الخيل حتى يعود بسرعة الجواب عن ذلك .

وفى يوم الثلاثاء ثالث عشره أشيع وصول
ابراهيم بن السكر والليمون الى بندر الطور ،
وكان قد تغير خاطر السلطان عليه فنفاه الى مكة
فأقام هناك نحو ثلاث عشرة سنة ، فلما حصل
للسلطان ذلك التوعك فى عينه كما تقدم ورسم
باطلاق سن فى السجون فتكلم بعض المباشرين مع
السلطان وشفع فى عود ابراهيم هذا الى الديار
المصرية ، فأجاب السلطان الى ذلك ، وكتب له
مراسيم بالحضور الى مصر ، فلم يحضر الا بعد
أشهر ، وقد جاء من البحر الملح فوصل الى الطور
على ما قيل ، وقد قاسى شدائد ومحنا عند عوده
وأشيع أن أولاده وعياله وجميع ما يملكه غرقوا
فى البحر ، وأمره الى الله تعالى .

وفى يوم الثلاثاء عشرينه توفى القاضى ابن يريم
أحد نواب الحنابلة ، وهو أحمد بن على يريم ،

وباس الأرض لأبيه ، فأحضر لهم الخسلع : على الشريف بركات مشمر وأطلسين ، وخلع على ابن الشريف بركات وصهره كوامل مخمل أحمر بسمور ، وخلع على أميري الحج لكل واحد منهما مشمر وأطلسين لكون أن سيدي عشر ابن السلطان ثم أحضروا لابن السلطان فوقاني حرير أخضر بطرز يلبغاوى عريض فوق الكاملية المخمل التي بالسمر ، ثم نزل الشريف بركات وولده وصهره من القلعة ، ودخل ابن السلطان الى دور الحرم ، وانفض ذلك الموكب على خير .

فلما نزل الشريف بركات وأمراء الحاج من القلعة نزل صحبتهم الأتابكي سودون المعجمي وجماعة من الأمراء المقدمين ، فشقوا من القاهرة وكان لهم يوم مشهود . فأوصلوا الشريف بركات الى المكان الذي أنزله فيه السلطان ، قبل أنزله السلطان في بيت الأمير جانم مصبغة الذي بالقرب من مدرسة السلطان ، فأوصل الأمراء الشريف بركات الى ذلك المكان ورجعوا الى بيوتهم ، وكذلك أمراء الحاج ، وأما القاضى كاتب السر محمود بن أجا فانه لما رجع من الحجاز كان متوعكا في جسده فلم يطلع الى القلعة ولا قابل السلطان ، وقد هنيته عند عوده من الحجاز بهذين البيتين وهما :

عن كاتب السر شاع فضل

يستوجب الشكر والمحامد

قد عم من بره البرايا

وحج في الناس وهو قاعد

فكان لهذين البيتين موقع لما عرضا عليه وقرأهما ، فلما رجع الحجاج الى القاهرة أتوا بكل خير على سيدي عمر بن المملك المنصور أمير ركب الأول وشالوا له الرايات البيض في وسط الرملة ، بخلاف الأمير طقطبى أمير ركب المحمل .

العقبة لما خرج الى ملاقة سيدي ابن السلطان ، فلبس الشريف بركات وولده وصهره تلك الكوامل عند طلوعهم الى الناعة ، ولبس سيدي ابن السلطان كاملية تماسيح على أحمر ، فلاقاهم رهوس النوب وهم بالشاش والقماش ، واستمروا على ذلك حتى وصلوا الى سلم المدرج ، وكان قدامه الشريف بركات وأمراء الحاج ، فلما وصلوا الى سلم المدرج نزل ابن السلطان من على الفرس ، وكان تحته فرس بوز بسرج وكنبوش ، وكذلك الشريف بركات وأمراء الحاج ، من عند المكان الذي تنزل عنده الأمراء المقدمون ، ثم طلعا بالفرس ثانيا الى عند المصطبة التي يجلس عليها نائب القلعة ، فركب ابن السلطان من هناك ثانيا ، ومشى قدامه الشريف بركات ومسك بأزكة لجامه من على الميمنة ومسك بأزكة اللجام من على الميسرة الأمير طقطبى أمير ركب المحمل ، وكان الأمير طقطبى بومئذ مقدم ألف نائب القلعة ، ومشى قدامه الجهم الغفير من الرهوس النوب والخاصكية وهم بالشاش والقماش ، ومنى قدامه الشباية السلطانية والشعراء والشاوشية ، واستمر في هذا الموكب الحافل حتى وصل الى باب الحوش ، فنزل على مصطبة مشد الحوش ودخل من باب الحوش والموكب عمال . وكان ابن السلطان عمره يومئذ نحو عشر سنين .

ولقد أدركت الملك المؤيد أحمد ابن الأشرف أينال لما أن حج — وكان اذ ذاك أتابك العساكر — فلما حضر من الحجاز وطلع الى القلعة ما وقع له مثل ما وقع لابن الأشرف الغورى هذا من الموابك الحافلة بالحوش ... فلما وصل الى المصطبة التي جالس عليها السلطان تقدم الشريف بركات الى عند السلطان فقام له نصف قومة ، وباس أمراء الحج له الأرض ، ثم تقدم ابن السلطان

في استيفاء جيش الشام عوضا عن بدر الدين بن
الانباي بحكم وفاته ، فنزل من القلعة في موكب
حافل .

وفي يوم الأحد تاسعه نزل السلطان الى المقياس
وعزم على الشريف بركات هناك ، وجلس معه
في القصر الذي أنشأه على بسطة المقياس ، وأقام
هنالك الى أواخر النهار ، ومد له أسمطة حافلة ،
ثم نزل في مركب وتمتق من على الروضة وانطلقت
له النساء من الطيقان بالزغاريت ، واستمر في
المركب حتى طلع من بولاق ثم توجه الى القلعة
من هناك .

وفي الاثنين عاشره أشيع بأن في تلك الليلة سرق
من دار الضرب التي هي بالقلعة داخل الحوش
السلطاني نمابية آلاف دينار وكسور من الذهب
الجديد الذي ضربه السلطان بسبب النفقة ،
فذهبت ولا يعلم من فعل تلك الفعلة ، فلما بلغ
السلطان ذلك ألزم المعلمين الذين في دار الضرب بما
سرق من ذلك القدر ، فمضت ولم ينتطح في ذلك
شأتان .

وفي يوم ثالث عشره صمم المماليك على استعجال
النفقة ، فأخرج السلطان من حواصل الذخيرة
أشياء كثيرة من الأمتعة التي كانت في الحواصل
من ترك الخوندات والستات اللاتي متن واحتوى
السلطان على موجودهن ، ما بين قماش وبشاختين
زرکش وعنبر وأواني بلور وصيني وكفت وغير
ذلك ، وأخرج أشياء كثيرة من شاشات وأزر
وأثواب بلبكي وأثواب صوف قبرسى وغير ذلك
فقوم ذلك بنحو خمسين ألف دينار ، فطلب التجار
ورمى عليهم تلك الأصناف بأغلى الأثمان فأطلق
في التجار النار ، وكان المتكلم في ذلك محمد
مهتار الطشتخاناه وقد جعله السلطان متكلماً
على حواصل الذخيرة من حين توفي الحاج يافوت

وأما خوند زوجة السلطان وولده فلم يشن
عليها أحد بحير ولا ظهر لخوند في المناهل مكارم
أخلاق كما كانت تفعل خوند الخاصكية زوجة
الأشرف قايتباي لما حجت ، فلم ير لهم أحد من
الحجاج رأس سكر ولا مجمع حلوى ، وكل من
كان معهم رد يشكو من الجوع ، فكان كما يقال
في المعنى :

وكم لله من رجل سمين
كثير المال مهزول البذل
كذلك الطبل يسمع من بعيد
وداخله من الخيرات خال

وكان سبب ذلك أن السلطان هذا أخس خلق
الله وأبخلهم على الإطلاق ، فلم يمكن أحدا من
الناس في شيء من أمر السنيح ، وكان ابن السلطان
صغيرا لا يحكم على شيء من أمور السنيح ، حتى
فيل ردوا بالأكل الذي في السنيح لم ينقص منه
الا القليل ، فكان كما يقال :

لا تعجبوا ان سمى كريم
لحاجة في يدى بخيل
فانه كالخلاء حتما
لا بد فيه من الدخول

وفي صفر طلع الخليفة والقضاة الأربعة للتهنئة
بالشهر ، وكان مستهل الشهر يوم السبت .

وفي يوم الأربعاء خامسه جلس السلطان في
القصر الكبير المطل على الرملة ، وعزم هناك على
الشريف بركات أمير مكة ومد له أسمطة حافلة ،
وأقام عنده الى أواخر النهار ، وقدم له السلطان
تقدمة حافلة ما بين خيول وجمال وغير ذلك .

وفي يوم الخميس سادسه خلع السلطان على
الشرقي يونس النابلسي الذي كان أستاذارا وقرره

العسكر بها وجرى بسببها ما تقدم ذكره ، فلم تكن هذه النفقة عامة على العسكر بل كانت لجماعة مخصوصة من المماليك ، فأعطى للمالكة الجلبان لكل واحد منهم خمسين دينارا ، وأعطى مثل ذلك للمماليك الأشرفية القاييتية الشباب أصحاب الدقون السود دون الشيوخ ، ولم يعط المماليك القرانصة الشيوخ شيئا ، ولا المماليك السيفية شيئا ، ولا أولاد الناس شيئا ، ولأصحاب الطبقة الخامسة التي تجددت ، فحصل للعسكر في ذلك اليوم كسر خاطر الى الغاية ، وقيل ان بعض المماليك وقف اليه بسبب النفقة وأغاظ عليه في الكلام ، فرسم بقطع جامكته في ذلك اليوم ولو زاد عليه لرسم بنفيه أيضا ، فلما جرى ذلك اعتبر بقية المماليك عن طلب النفقة .

وفي ذلك اليوم نادى السلطان في القاهرة بأن لا مملوكا يركب في سرج بداوى ولا ركب بداوى ولا يتخلل باحرام صوف أبيض ولا نطلى وجهه اذا ركب ، ولا مملوك ولا غلام ولا عبد يخرج من بعد العشاء ، وصار يكرر هذه المنادة يومين موالية ، فشق على المماليك هذه المنادة وكانوا قد زادوا في الضرر للناس .

ثم ان جماعة من المماليك توجهوا الى الأمير طومان باى الدوادار ليكلم السلطان في أمر النفقة على بقية المماليك ، فلما كلمه لم يفد من كلامه شيئا ، واستمر السلطان باقيا على عدم النفقة على المماليك الشيوخ والعواجز ، فما وسعهم الا الصبر والسكوت عن ذلك ، فكان كما يقال في المعنى :

أنفقت عمرى وصحتى شغفا

عليك والصبر آخر النفقة

وفي أثناء هذا الشهر حضر الأمير اينال باى دوادار سكين وكان توجه الى حلب بسبب مجيء

فراش الخزانة ، فشدد محمد المهتار على التجار في جبي الأموال فجيبت منهم في مدة يسيرة لأجل النفقة ، وحصل على التجار الضرر الشامل وقد خسروا في الأثواب الصوف النصف فانها كانت معنوته ، كذلك خسروا في البعلبكي والأزر والشاشات والأنطاع والمحابس اليسنى وغير ذلك .

ثم ان السلطان أطلق في المباشرين النار وضيق عليهم بسبب بواقى فضلات الأموال التي قررت عليهم من فضلات بواقى الحسابات ، فكتبوا له قوائم بما تأخر على المباشرين والعمال والمدركين وأرباب المصادرات فكان ذلك القدر نحو مائة ألف دينار ، فظهر على علاء الدين ناظر الخاص ثلاثة وثلاثون ألف دينار ، وعلى الزينى بركات بن موسى المحتسب خمسة عشر ألف دينار ، وعلى القاصى شرف الدين الصغير خمسة آلاف دينار ، وغير ذلك من العمال ومن بواقى المصادرات ، فأطلقوا فيهم النار بسبب النفقة على المماليك ، وما قاسى أحد من أرباب الدولة بسبب هذه النفقة خيرا ، وقد استحثهم السلطان في سرعة ورود المال على النفقة .

وفي يوم الاثنين سابع عشره حضر الى الأبواب الشريفة الأمير أبرك أحد الأمراء المتقدمين ، وأصله من مماليك السلطان ، وكان خرج الى حلب صحبة التجريدة وقد جعله السلطان باشا على المماليك الجلبان ، فلما رسم لهم السلطان بالعود الى مصر حضر الأمير أبرك قبل مجيء الأمراء فدخل الى مصر وسبق الباش ، ودخل صحبته جماعة كثيرة من الأمراء الطبلخانات والعشراوات ممن كان التجريدة ، فلما طلع وقابل السلطان خلع عليه ونزل الى داره في موكب حافل .

وفي ذلك اليوم أنفق السلطان الجامكية على العسكر ، وأنفق عليهم النفقة التي كان وعد

وكان ابن النقيب أرسل قليل الحظه غير محجب للناس .

وفي يوم الاثنين رابع عشرينه كان أول يوم من الخماسين ، وهو يوم فطر النصارى وعيدهم ، ومن جملة لطف الله تعالى لهم يبع في هذه السنة طاعون بمصر .

وفي يوم الثلاثاء خامس عشرينه نزل السلطان الى الميدان وساق فداهه الرماحة كما يسوفون عند دوران المحسل في رجب ، وكان الشريف بركات أمير مكة حاضرا عند السلطان ، فلما مضى أمر الرماحة دخل السلطان هو والشريف بركات الى البستان الذى بالميدان ومد له أسطة حافلة .

وفيه عين السلطان شحصا من الحاصكية يقال له جانم بأن يتوجه الى سليم شاه بن عثمان ملك الروم ويكشف عن أخباره هل هو يقصد أن يمشى على بلاد السلطان أم على بلاد الصفوى ، فان الاشاعات كانت كثرت بمتى ابن عثمان على بلاد السلطان ، فخرج جانم هذا بسبب ذلك ، وقيل لأجل أقارب السلطان الذين أتوا من بلاد جركس وأسرهم بعض ملوك التتر ، فتوجه جانم ليشتريهم من ملك التتر بمبلغ له صورة .

وفي يوم الخميس سابع عشرينه فيه أكمل السلطان أمر النفقة ، واستمر مصمما على عدم اعطاء النفقة للماليك القرائنة والسيفية وأولاد الناس ، ثم في أثناء ذلك اليوم نادى السلطان فى القاهرة بأن الماليك الذين آخذوا النفقة يعملون يرقهم ويكونون على يقظة فان التجريدة عمالة الى حلب ، فلما سمع العسكر ذلك اضطربت أحوالهم .

وفي ذلك اليوم رسم السلطان بشنق شخص من أولاد الناس كان عاقبا مجرما وله عدة قتلاء ، فشنق على باب الدرب الذى فى السبع سقايات .

العسكر وغير ذلك من الأشغال السلطانية ، وحضر الأمير خاير بيك المعمور ، وكان توجه الى العقبة بسبب اصلاح العراقيب التى بطريق العقبة لأجل خوند وابن السلطان قبل أن يجوا الى العقبة .

وفي هذا الشهر كثر الدعاء من الماليك القرائنة على السلطان بسبب منعه لهم من النفقة .

وفي يوم الأربعاء تاسع عشره أرسل السلطان خلف قاضى القضاة الشافعى محبى الدين بن النقيب المنفصل ، فتوجه اليه بعض مهاترة الطشتخاناه ، فلما طلع به أرسل السلطان يقول له : « أورد ثلاثة آلاف دينار وتول وظيفتك على العادة » . فأرسل يقول للسلطان : « ما معى حاصرا غير ألف وخمسمائة دينار فولونى وقسطوا الباقى على كل شهر مائتا دينار » . فما رضى السلطان بذلك وانفصل المجلس مانعا ، فلما نزل ابن النقيب من عند السلطان أتى اليه الزينى بركات بن موسى ، فأخذه من المدرسة الناصرية ، وأركبه على حمار وتوجه به الى داره ورسم عليه حتى يرد ثلاثة آلاف دينار ان ولى أو لا يلى ، فأقام عنده فى الترسيم أياما ثم توجهوا به الى بيت القاضى كاتب السر وأحضروا له شرف الدين بن الأسيوطى الوكيل ، والقاضى شمس الدين بن وحيش ، ويقصدون أن يدعوا عليه بأن تحت يده ثلاثة آلاف دينار ثمن بدل عن وقف ابتاعه وأن ذلك القدر تحت يده ، فاعترف ابن النقيب بذلك وقال : « قد دفعت من ذلك القدر ألفين ومائتى دينار للسلطان » . وأظهر رجعة ذلك ، وذكر أن باقى ذلك المبلغ فقد من حاصله ، فانصرف فى الترسيم الى بيت ابن موسى يرد ثلاثة آلاف دينار فقاسى من البهدة ما لا خير فيه واستمر فى الترسيم مدة حتى يرد ذلك القدر ، ثم أشيع ولايته الى القضاء أياما وخمدت هذه الاشاعة كأنها لم تكن ،

وفي يوم الأحد سلخ هذا الشهر نزل السلطان وتوجه الى نجر فبه يشبك الدوادر التي بالمطرية وأقام بها الى أواخر النهار ثم عاد الى القلعة من يومه .

وفي ربيع الأول طلع الخليفة والقضاة الأربعة وهنوا السلطان بالشهر ، ثم عادوا الى بيوتهم .

وفي يوم الاربعاء ناكه ورد على السلطان أخبار غير صالحة بأن سليم شاه ابن عثمان قد جهز عساكر عظيمة ورمى عنده مراكب في البحر ، وأنه زاحف على على دولات بنفسه ، فتأكد السلطان لهذا الخبر ورسم لتقيب الجيش بأن يدور على الأمراء المقدمين ويقول لهم . اطلعوا الى عند السلطان حتى يهرا عليكم الكتب التي وردت عليه عن أخبار ابن عثمان . فطلعوا الى عند السلطان في ذلك اليوم ، فلما اجتمعوا فرأ عليهم ما ورد عليه من المطالعات عن أخبار ابن عثمان ، فأقام الأمراء عنده الى بعد العصر وهم في ضرب مشورة بسبب على دولات وابن عثمان ، ثم بعد أيام خمدت تلك الاشاعات واستمر الأمر مبني على السكون .

وفي يوم الأربعاء عاشره نزل السلطان الى الميدان وساقوا قدامه الرماحة وهم لابسون الأحمر والخوذ كما يفعلون عند دوران المحمل في رجب ، واجتمع في الميدان الجهم الغفير من الناس بسبب الفرجة ، وكان الشريف بركات حاضرا مع الأمراء ، وكان يوما مشهودا .

وفي ذلك اليوم توفي الأمير أسنباي الأصم أحد الأمراء الطبليخانات ، وكان من أعيان مماليك الأشرف قايتباي ، وكان علامة في لعب الرمح وقد فاتته التقدمة من قبل ذلك ، وكان لابأس به ، وقد مات فجأة على حين عفلة .

وفي يوم الخميس حادي عشره عمل السلطان المولد الشريف النبوي ونصبه الخيصة الكبيرة المدورة بالحوش ، قيل ان مصروف تلك الخيصة على الأشرف فايتباي ستة وثلاثون ألف دينار ، فحضر القضاة الأربعة والشريف ، بركات ، أمير مكة ، قيل أجلسه ، السلطان فوق الإتابكي سودون العجمي ، واجتمع سائر الأمراء المقدمين وأرباب الوظائف ومشايخ العلم ، وكان يوما مشهودا على المادة .

وفي يوم السبت ثالث عشره أشيع أن اقطاع أسنباي الأصم أنهم به السلطان على الأمير قايتباي الذي كان نائب الكرك ، فصار من جلة الأمراء الطبليخانات

وفيه حضر الأمير ألماس دوادر سكين الذي كان توجه الى طرابلس بسبب ضبط موجود جانم نائب طرابلس الذي توفي ، وقرر عوصه تمرار مملوك السلطان الذي كان نائب قلعة حلب ، وقرر في نيابة قلعة حلب قانصوه الساقى عوضا عن تمرار الأشرفي بحكم انتقاله الى نيابة طرابلس ، وتوجه ألماس أيضا بسبب تقليد تمرار المذكور لما ولي نيابة طرابلس ، وبسبب جبي الأموال التي قررت على عربان جبل ناباس ، وغير ذلك من البلاد بسبب المشاة ، فأهلك الحرث والنسل .

وفي يوم الاثنين خامس عشره حضر الى الأبواب الشريفة الأمير قاي باي قرا أمير آخور كبير باش العسكر الذي كان توجه الى حلب ، وحضر الأمير سودون الدواذاري رأس بوبة النوب ، وحضر الأمير أوزمك الناشف أحد الأمراء المقدمين ، وكانوا توجهوا في هذه التجريدة صحبة أمير آخور ، فلما دخلوا الى القاهرة باتوا في مدرسة السلطان ، ثم طلوعوا الى القلعة وقاتلوا في ذلك اليوم السلطان ، فحلح عليهم كوامل بسور ونزلوا

والأملاك بسبب ذلك ، وكان المحرك لذلك يوسف
ابن أبي أصبح .

وفي يوم الثلاثاء سادس عشره نزل السلطان الى
الميدان وأرسل خلفه، الشريف بركات أمير مكة ،
وحضر أمير كبير وجماعة من الأمراء المقدمين ، ثم
أحضر مماليك يرمون بالنشاب على الخيل وهم
باللبس الكامل فأظهروا أشياء عربية في فنون
الرماية ، وأحرق السلطان احراقة نقط بالنهار في
الميدان ، وأحضر الأفيال الكبار فتصارعت قدامه ،
وكذلك السبع والهزبر ، فانشرح السلطان في ذلك
اليوم وكان يوما مشهودا فأقام في الميدان الى
قريب الظهر

وفي يوم الجمعة تاسع عشره الموافق لسابع
بشنس القبطى ، فيه قلع السلطان الصوف ولبس
البياض ، وكان الوقت يومئذ رطباً .

وفي يوم السبت عشرينه نزل السلطان انى
الميدان وبات به ليلة الأحد ، فدخل الى البستان
الذى أنشأه به فأطلق ماء البحرة وثر فيها الورد
والياسمين ، وفرش حولها الفرش الفاخرة ، وعلق
بين الأشجار أحمال قناديل وتعاليق كثيرة ما بين
تنانير وأمشاط وغير ذلك حتى أضاء البستان
بالنور ، ثم أرسل خلف الشريف بركات وبات
عنده تلك الليلة ، ومد له أسمطة حافلة وطوارى
فاخرة ما بين حلوى وفاكهة وغير ذلك ، ثم أحضر
اليه مغانى البلد وأرباب الآلات الدواخل ، فكانت
ليلة حافلة من اللىالى الملوكية ، كما قال فيها
الشاعر :

ومجلس راق من غير واش يكدره

ومن رقيب له فى اللوم ايلام

ما فيه ساع سوى الساقى وليس به

على الندامى سوى الريحان نام

الى دورهم في، موكب حافل ، فكانت مدة غيبة
الأمراء فى هذه السفرة نحو تسعة أشهر ورجعوا
وهم سالمون لم يفقد منهم أحد ، ولا وقع بينهم
قتال بسبب ابن عثمان والصفوى ، لكن قاسى
العسكر فى هذه السفرة مشقة زائدة بسبب الغلاء
الذى وقع بحلب وقلعة العليق على الخيول ، فباعوا
خيولهم وسلاحهم وقماشهم ، فدخلوا الى مصر
وهم فى غاية التعفيش ومنهم من دخل وهو راكب
على حمار .

وفي ذلك اليوم أكمل السلطان على العسكر
النفقة المقدم ذكرها على حكم ما شرح فيه ولم يعط
المماليك القرائنة العواجز ولا أولاد الناس شيئاً ،
وصار الذى يأخذ النفقة يكتبه كاتب المماليك
طائفة الى جهة الشرقية وطائفة الى جهة الغربية ،
وطائفة الى منفلوط وطائفة لحفظ الجسور ، فصار
بعض المماليك يقول : « ما لنا حاجة بنفقة على هذا
الوجه » .

فلما أقام قانى باى أمير آخور فى المدينة ثلاثة
أيام أهدى الى السلطان مقدمة حافلة على ما قيل ،
فكان من جملتها ذهب عين عشرة آلاف دينار
 وخمسة وعشرون مملوكاً جراكسة وخيول خاصات
أربع طوابل وأربعمائة رأس غنم وأثواب بعلبكي
وأثواب صوف وغير ذلك أشياء فاخرة ، وقيل
أحضر الى السلطان ثمانين ألف دينار وذلك مما
جباه من أمر المشاة الذين أفردهم السلطان على
الشام وحلب وحماه وغير ذلك من البلاد بسبب
المشاة التى تخرج قدام العسكر فى التجريدة ،
فحصل على أهل تلك البلاد منه الضرر الشامل
وأخذ أموالهم بالظلم والعسف ، وقرر على جهات
البلاد الشامية من الاقطاعات والرزق على كل
رأس من الفلاحين قدرا معلوما ، كما فعل بعربان
جبل نابلس وغيره من البلاد ، فضج منه الأفلاك

جاني بيك من المال ، فما طاق خشقدم ذلك وحمل
على نفسه فهرب نحو بلاد ابن عثمان ، فكان
كما يقال في المعنى :

لعمرك ما ضاقت بلاد بأهلها

ولكن أخلاق الرجال تضيق

فلما أشيع نوجه خشقدم الى بلاد ابن عثمان
كثر القتال والقتيل بين الناس بسبب ذلك ، وقيل
ان أخا خشقدم هذا كان مقيما عند ابن عثمان
سليم شاه وهو من أخصائه ، فختنى بعض
العقلاء أن خشقدم يحسن لابن عثمان أن يمضى
على بلاد السلطان ويهون عليه ذلك الأمر ، والله
غالب على أمره .

وفي يوم الجمعة سادس عشرين هذا الشهر
كانت وفاة الأمير قاني باى قرا أمير آخور كبير
الذى كان باش العسكر المتوجه الى حلب ، وكان
موته بغتة على حين غفلة ، وكانت مدة توعكه
خمس أيام حتى أشيع أنه مات مسموما من بعض
أخصائه ، والعلم عند الله تعالى ، وكان أصل
الأمير قاني باى هذا من مماليك الملك الأشرف
قايتباى من مشترياته ، فأعنته وأخرج له خيلا
وقماشاً وصار من جملة المماليك الجمدارية ، ثم
بقى سلحدارا ، ثم أنعم عليه بامرية عشرة في سنة
ثمان وتسعين وثمانمائة ، فأقام على ذلك مدة
يسيرة ، وقرره في نيابة صهيون ، وقيل سعى فيها
بمال له صورة فأقام بصهيون مدة ، وكان الساعى
له في نيابة صهيون الأمير أربك الخازندار ، وقيل
قرر في امرية الكبرى بحلب مدة يسيرة ، ثم عاد
الى مصر وبقى مقدم ألف في دولة الملك الناصر
محمد بن الأشرف قايتباى ، ثم بقى أمير آخور
كبير — بعد وقعة الأمير أقبردى الدوادار — لما
قتل الأمير كرتباى ابن عمه الأشرف قايتباى في

فلما أصبح صباح يوم الأحد خرج السلطان
وجلس في الميدان وأحضر جماعة من المماليك
يرمون بالنشاب على القيق ، فأقام في الميدان
يومين وليلة ثم طلع الى القلعة ، وقد بالغ في اكرام
الشريف بركات بأشياء لم تقع لأحد من أجداده
ولا أقاربه .

وفي يوم الاثنين ثانى عشره ، فيه خلع
السلطان على أمراء الحاج فقرر الأمير علان أحد
المقدمين ودوادار ثانى أيضا أمير ركب المحمل ،
وقرر الجناب العلاء على بن المؤيد أحمد بن
الأشرف اينال أمير ركب الأول ، فكان لهما
موكب حافل .

وفي ذلك اليوم أشيع أن خشقدم شاد
الشون قد هرب وصحبته جماعة من المماليك
السلطانية فهيا له مركبا بسنة عشر مقدافا ، وقيل
انه أخذ معه نحو عشرة مماليك ، وخرج من مصر
على حمية ، فأشيع أنه قد توجه الى عند سلبم
شاه ابن عثمان ملك الروم ، وقيل ان له أخا عند
ابن عثمان أمير من أمرائه فتوجه اليه ، وأصل
خشقدم هذا من مماليك السلطان قانصوه
الأشرف الغورى من مشترياته ، وكان أنعم عليه
بامرية عشرة وجعله رأس نوبة عصاة بم فرره في
شادية الشون ، وكان قبل ذلك تكلم في نيابة جدة
نيابة عن الأمير حسين نائب جدة فاستمر على ذلك
مدة ، ثم ان السلطان صادره وأخذ منه نحو
خمس آلاف دينار ، وكان خشقدم هذا متزوجا
ببنت جاني بيك دوادار طراباى الذى كان ناظر
الديوان المفرد ، فلما قبض السلطان على جاني
بيك أمر خشقدم بطلاق بنت جاني بيك غصبا
وقيل كان له منها أولاد وربما ألزمه بما تأخر على

مدرسة السلطان حسن ، فقرر الملك الناصر في امرية آخورية الكبرى عوضا عن الأمير كرتباى بحكم فعله ، وذلك في المحرم سنة ثلاث وتسعمائة فأنام في امرة آخورية الكبرى نحو من ثمانى عشرة سنة وثلاثة أشهر .

وكان أميرا جليلا مبجلا معظما ، في سعة من المال والسلاح والبرك والحيول والبعال والجمال والمساليك ، وكان في ملاءة من كل شيء ، وهو الذى أنشأ الجامع الذى عند المصنع بجاه سوق الحيل ، وانجامه الذى بالقرب من ميدان المهارة الذى بجوار البركة الناصرية ، وكان له من العمر لما مات نحو ستين سنة .

وكانت صفتة طويل القامة ملء الجسد أسمر اللون جدا كما وكزه الشيب ، وكان مشهورا بالنجاعة والفروسية ولعب الرمح بحيث كان يدعى بقانى باى الرماح ، لكنه كان عنده الطمع الزائد والظلم والعسف ، وكانت معاملته أنحس المعاملات يأكل أموال الناس بغير حق ، وان وضع يده على وقف أو تركة أكلها عن آخرها ، وان اشترى من أحد شيئا أكل ثمنه عليه ، وان استعمل صنایعا أو مسببا قطع مصانعة فى أجرته ، ويحرج من يابه غير راض عنه .

وكان السلطان قرره باش العسكر على التجريدة التى توجهت الى حلب ، فأظهر فى البلاد الشامية والحلية غاية الظلم ، وأفرد الأموال الجزيلة على جهات البلاد الشامية والحلية بسبب المشاة الذين يكونون أمام العسكر ، فجار على الناس وأخذ جملة من الأغنام لأهل الضياع من الفلاحين نحو ثلاثين ألف رأس غنم ، وقيل أكثر من ذلك .

وكان السلطان فى وقت عينه بأن يتوجه الى جهات الشرقية بسبب فساد العربان ، فكان اذا ظفر

بأحد من الفلاحين الضعفاء بوسطه أو سلخه من رأسه الى قدميه ، وربما صنع ذلك بجماعة من الأشراف وزعم أنهم من العربان المصاة على ما قيل عنه ، وكانت مساوئه أكثر من محاسنه ، وكان شديد القسوة كثير الجهل ، وقد أراح الله تعالى الناس منه . فلما مات لم يثن علمه أحد من الناس بحير قط ، وقد قلت فى ذلك مداعبة لطيفة :

جهنم منذ قالت

لقانى باى خذ حذارك

قد زاد نيران وجدى

من كثرنى لا تتشارك

وأنا أستغفر الله العظيم وأتوب اليه من ذلك ، ولكن أحببت أن أذكر هنا شيئا من مساوئه حتى يعتبر من بضى لعل أن تحسن أخبارهم من بعدهم . وكان السلطان متأثرا من الأمير قانى باى هذا فى الباطن ، وقد عين له امرة السلاح غير ما مرة ويترك امرية آخورية الكبرى فيأبى من ذلك ، وكان السلطان له قصد أن بقرر أحدا من أخصائه فى امرية آخورية الكبرى فبعارضه فى ذلك ، فلما مرض الأمير قانى باى استمر مقبما بباب السلسلة فى مدة انقطاعه نحو خمسة أيام ، فمات بسباب السلسلة ليلة الجمعة بعد العشاء ، فرسم السلطان أن ينزل الى داره وهو ميت فنزلوا به فى تابوت الى بيته الذى عند حدره البقر .

وكان متزوجا بنت الأمير يشبك بن مهدى أمير دوادار كبير فأقامت له نعيًا بالطارات ، واستمرت تدق عليه بالطارات ثلاثة أيام متوالية فعز ذلك على السلطان فى الباطن ، وأشيع بين عياله أنه قد مات مسموما ، فحقد ذلك على بنت الأمير يشبك فيما بعد وقرر عليها فوق الثلاثين ألف دينار وزعم أن

قانى باى أمير آخور أودع عندها مالا فشرعت في بيع جهازها حتى ترد ما قرر عليها من المال .

فلما كان يوم الجمعة حضر القضاة الأربعة والأتابكي سودون العجمي وسائر الأمراء المقدمين وأرباب الوظائف من المباشرين ، وأخرجت جنازته من بيته وقدامه كفارة ، فطلعوا به من على حدره البقر ، فلما وصل الى الرملة نهب العوام تلك الكفارة ، فلما وصل الى سبيل المؤمنين خرج السلطان من الميدان وصلى عليه وكانت جنازته حافلة ، ثم رجعوا به من الصلاة ودفنوه في مدرسته التي تجاه سوق الخيل ، وخلقى بعمله وانقضى أمره .
وفي يوم السبت سابع عشرينه فيه ابتداء السلطان بضرب الكرة في الميدان على العادة .

وفي يوم الاثنين تاسع عشرينه وقف الأتابكي سودون العجمي وبقية الأمراء المقدمين قاطبة وباسوا الأرض للسلطان وسألوا بأن يكون سيدي ابن السلطان أمير آخور كبير عوضا عن الأمير قانى باى قرا بحكم وفاته ، فأعجب السلطان ذلك في الباطن وقد مشت الأمراء في غرض السلطان لما رأوا له قصدا في ذلك ، فأنعم على ولده المقر الناصري محمد في ذلك اليوم بامرية آخورية الكبرى عوضا عن الأمير قانى قرا ، فحضر ابن السلطان وباس الأرض على ذلك الانعام له .

وفي ربيع الآخر كان مستهل الشهر يوم الثلاثاء فطلع الخليفة والقضاة الأربعة والسيد الشريف بركات أمير مكة فهنوا السلطان بالشهر وعادوا الى دورهم ، وقد بالغ السلطان في اكرام السيد الشريف بركات وقام اليه وعظمه تعظيما بالغا .
وفي يوم الخميس تانى الشهر أكسل السلطان النفقة على جماعة من المماليك القراصة ، وكان عول قبل ذلك أن لا ينفق عليهم شيئا ، ثم أنفق

عليهم ، ولكن أعطاهم السم في الدسم فكتب منهم جماعة الى الشرقية وجماعة الى العربية وجماعة الى العقبة والأزلم والى منفلوط ثم صرح لهم جبارا وقال : « الذى يطلب يخرج وسافر من يومه والذى ما يطلب نفقة يقعد ويستريح في بيته » .
فرجع غالب المماليك عن طلب النفقة والذى أخذ النفقة خرج الى السفر من يومه .

وفي يوم الاثنين سادس هذا الشهر عمل السلطان الموكب بالقصر الكبير ، ودار نقيب الجيش على الأمراء المقدمين وأعلمهم أن الموكب بالقصر الكبير ، وهو بالتشاش والقماش ، فلما تكامل الموكب وحضر الأمراء المقدمون طلب السلطان ولده المقر الناصري محمد وخلع عليه وقرره في امرية آخورية الكبرى عوضا عن الأمير قانى باى قرا بحكم وفاته . فلما خلع عليه نزل وصحبته الأتابكي سودون العجمي وسائر الأمراء المقدمين وأرباب الوظائف من المباشرين ، فنزل من سلم المدرج ونوجه الى باب السلسلة وقدامه الأمراء قاطبة بالشاش ، ومشيت قدامه الشعراء والشبابة السلطانية ، فدخل الى باب السلسلة ونزل على سلم الحرافة وطوب للأمراء وانفض ذلك الموكب الحافل ، وكان سن ابن السلطان يومئذ احدى عشرة سنة .

ولم يسمع فيما مضى من الأخبار المتقدمة أن ابن سلطان ولي أمير آخور كبير سوى هذا ، ولكن الملك الظاهر خشفدم فرر ربيبه الشهابي أحمد بن العيني أمير آخور كبير ولم يكن ابن سلطان ، فعاد ذلك من النوادر الغربية ، ولم يسمع فيما مضى من الأخبار أن ابن سلطان ولي الأتابكية في حياة والده وتسلطن منها سوى الملك المؤيد أحمد بن الأشرف اينال .

وفي يوم الأربعاء ثامن نزل السلطان الى باب السلسلة وجلس في الحرافة ومد بها سباط الغداء ،

ثم عرض مماليك الأمير قانى باى أمير آخور
وعرض البوتات التى كانت للأمير آخور ورسم
بجميع ذلك الى ولده .

وفى يوم الخميس تاسعه رسم السلطان لولده
أن يركب ويتوجه الى بيت أمير كبير سودون
العجمى ويتشكر منه الذى تعصب له فى أن يلى
أمير آخور كبير ، فنزل وصحبه الأمير طومان باى
أمير دودار كبير وجماعة من الأمراء العشراوات
والجهم الغفير من المماليك والخاصكية ، فشق من
الصليبية وتوجه الى بيت أمير كبير فقام اليه ولاقاه
من الحوش ، ثم ألبسه كاملية مخمل أحمر بسمور
وفوقانى حرير أخضر بطرز يلبغاوى عريض وأركبه
فرسا بسرج ذهب وكنبوش ، ثم شق من الصليبية
ثانيا فى موكب حافل فطلع وهو لابس الفوقافى
الكاملية ، فباس الأرض للسلطان ثم رجع الى باب
السلسلة .

وفى يوم السبت ثامن عشره فيه توفى الأمير ناىق
الغورى الخازن أحد الأمراء الطبلخانات ، وكان
عند السلطان من المقربين ، فكان موته فجأة على
حين غفلة ، وكان متهورا بالشح الزائد والبخل
وكان غير مشكور فى أفعاله .

وفى يوم الخميس ثالث عشرينه خلع السلطان
على شخص من الأمراء العشراوات يقال له بيبردى
ابن كسباى وقرره باش المجاورين بمكة عوضا
عن جانى بيك قرا الذى كان بها فى السنة الخالية ،
وخلع على شخص من الأمراء العشراوات الرءوس
النواب يقال له قراىز الجكمى وقرره فى نظر
الحسبة الشريفة بمكة ، وكانت الحسبة مضافة
لباشية مكة ففصلها السلطان منها وقرر بها قراىز
هذا .

وفى يوم السبت خامس عشرينه كان ختام
ضرب الكرة ، فلعب السلطان الكرة فى الميدان ،

ثم طلع الى القلعة وعزم على الأمراء وجلس فى
المقعد الذى أنشأه بالحوش ومد لهم هناك
أسمطة حافلة وطوارى فاخرة ، فأقام الأمراء عنده
الى بعد العصر ، وكان السيد الشريف بركات أمير
مكة حاضرا ذلك المجلس فبالغ السلطان فى اكرامه
وتعظيمه الى الناية وأجلسه فوق أمير كبير ، ثم
أحضر السلطان ثيرانا وكباشا تتناطح قدامه فى
الحوش ، فلما دخل وقت الظهر أحضر جماعة
من المماليك لعبوا خصمانية فى الرمح واستمروا
على ذلك الى بعد العصر ، تم انقض ذلك الجمع
ونزل الأمراء الى بيوتهم .

وفى يوم الاثنين سابع عشرينه حضر الى الأبواب
الشريفة الأمير أقبابى الذى كان كاشف الشرقية
وكان قد توجه الى نحو طرابلس فى أشغال
السلطان ، فلما طلع الى القلعة كان عليه كاملية
بسمور من عند نائب طرابلس انعاما .

وفى جمادى الأولى كان مستهل الشهر يوم
الحميس فطلع الخليفة والقضاة الأربعة والسيد
الشريف بركات أمير مكة فهنوا السلطان بالشهر ،
ثم ان السلطان خلع فى ذلك اليوم على السيد
الشريف بركات خلع السفر وأذن له بالعود الى
مكة ، فخلع عليه أطلسين وفوقانى حرير أخضر
بطرز يلبغاوى عريض مثل خلعة الأتابكة ، وخلع
على ولد الشريف كاملية مخمل أحمر بسمور ،
وخلع على عرعر صهر الشريف بركات كاملية صوف
بسمور ، وخلع على شخص من أولاد دراج أمير
الينبع وقرره فى امرة الينبع ، وجعل للشريف بركات
التحدث على بندر الينبع يولى به من يشاء من
تحت يده ويعزل من يشاء .

وفى ذلك اليوم خلع السلطان على ولده المقر
الناصرى محمد أمير آخور كبير خلعة الانظار ،

المماليك الذين معه ، وقد أهدق عليه بكثرة الانعام له حتى أدهننه بالعلايا فوق ما أهدى البه السيد الشريف بركات بأضعاف ، فلما وصلت هذه التقدمة الى الشريف بركات خلع على غلمان السلطان والمهتار محمد مهتار الطشتخاناه الخلع السنية وفرق عليهم الدنانير والدراهم ، ولم يقع لأحد من أجداده ولا أقاربه ما وقع له مع الملك الأشرف قانصوه الغورى ، وقد بالغ فى اكرامه وتعظيمه جدا .

وفى يوم الأربعاء سابع هذا الشهر طلع ابن أبى الرداد ببشارة النيل المبارك ، وأخذ قاع النيل فجاءت القاعدة سبع أذرع وأربع أصابع ، أرجح من نيل السنة الخالية بعشرين أصبعا كما قيل .

وفى يوم الأربعاء المذكور توجه القاضى كاتب السر محمود بن أجا ونائبه الشهابى أحمد بن الجيعان ، فتوجها الى السيد الشريف بركات أمير مكة وعلى أيديهما تقييد بولاية امرة مكة ، وقد بالغوا فى نعته وترجمته الى النماية ، ثم أحضروا له مصحفا شريفا وسيفا وحلفه عليهما أنه لا يخون السلطان ولا يعطى عليه ولا يخرج عن طاعته على ممر الليالى والأيام ولا ... فلما حلف كتبوا صورة هذا الحلف فى ورقة وأشهدوا عليه وكتب خط يده على تلك الورقة ، ثم عادوا الى القلعة وعرضوا ذلك الحلف على السلطان ، وكل ذلك وقع والشريف بركات فى تربة الظاهر برقوق ، فألبس الشريف بركات القاضى كاتب السر كاملية مخمل بسمور وكذلك الشهابى أحمد بن الجيعان .

وفى يوم الجمعة تاسعه نزل الأمير طومان باى الدوادار من عند السلطان الى المقر الناصرى محمد ابن السلطان وعلى يده منشور باقطاع

فألبسه أطلسين وفوقانى حرير أخضر بطرز يلبغوى عريض مثل خلع الأتابكية ، فخرج من الميدان وقدامه السيد الشريف بركات أمير مكة والأتابكى سودون العجمى وجماعة من الأمراء المقدمين وأرباب الوظائف من المباشرين ، فشقوا من القاهرة فى موكب حافل وكان لهم يوم من الأيام المشهودة ، فتوجه ابن السلطان الى المدرسة البرقوقية على جارى العادة ، وتوجه السيد الشريف بركات الى تربة الملك الظاهر برقوق فأقام بها الى حين يرحل .

وفى يوم الجمعة ثابى هذا الشهر أرسل السلطان الى السيد الشريف بركات مقدمة حافلة وهو فى تربة الظاهر برقوق ، فكان من جملتها ذهب عين أربعة آلاف دينار ، وأربعة ممالك فرسان وهم باللبس الكامل ، وكان الشريف بركات اشترى من مصر ممالك ، وأهدى اليه الأمراء عدة ممالك ، فكان معه نحو خمسين مملوكا مكلمة بالسلاح ، وأرسل اليه السلطان ست بقق ضمنها صوف وسمور ووشق وسنجاب وبعلبكى وتفاصيل حرير سكندرى وأبراد منزلاوى وشقق برق بجر ذهب وأثواب مخمل ملون وأثواب برساوى مزهر بقبص ، فأرسل اليه من كل صنف من هذه الأصناف عشر قطع ، وأرسل اليه نمچاه زعموا أنها نمچاه بعض الصحابة ، فكتب السلطان اسم الشريف بركات عليها وسقطها بالذهب ، وأرسل اليه أربعة أسياف خاص وهى مسقطة بالذهب ، وأرسل اليه أربع زرديات وهى مسقطة بالذهب ، وأرسل اليه صنجقين سلطانى بطلعتين فولاذ ، أحدهما حرير أصفر مرقوم بالذهب وآخر حرير أصفر برسم الأسفار ، وأرسل اليه محفة بغشى جوخ أصفر ، وكان قبل ذلك أرسل اليه عدة خيول وهجن وجمال بخاتى وبغال وسلاح برسم

أنه في ذلك اليوم حضر هجان من البلاد الحلبية وأخبر أن سليم شاه بن عثمان ملك الروم مشى على شاه اسمعيل الصفوى ملك العراقين ، فلما بلغ على دولات أن طائفة من عسكر ابن عثمان قد قريت من بلاده خرج اليها وتحارب معها فانكسرت تلك الطائفة اليسيرة التي من عسكر ابن عثمان وقتل منها جماعة ونهب على دولات ما معهم ، فعند ذلك طمع على دولات في عسكر ابن عثمان ، فلما بلغ سليم شاه بن عثمان ذلك أرسل الى على دولات عسكرا ثقيلًا نحو ثلاثين ألف مقاتل على ما قيل ، ومعهم من الأمراء نحو سبعة أمراء من أمرائه ، ومعهم سبعة صنّاجق فتحاربوا مع على دولات وكسروه ونهبوا عسكره ، وقتل على دولات في المعركة هو وولده ، وحزوا رءوسهما على ما قيل وأشيع ، ووقعت الكسرة على على دولات وقد قويت الاشاعات بقتله والعلم عند الله تعالى .

فلما سمع السلطان هذا الخبر تنكد له الى الغاية ، ثم أرسل خلف الأمراء في ذلك اليوم وأطلعهم على ما بلغه من هذه الأخبار وضربوا مشورة فيما يكون من أمر هذه الواقعة ، والأمر لله في ذلك ، فكان حال على دولات مع ابن عثمان كما يقال في المعنى :

لا تأمنن عدوا وان دنا للمنيه
فحية السم تدعى بعد المنية حيه

وقد تقدم القول على أن ابن عثمان كان متعصبا لابن شاه سوار بأن يرد اليه بلاد أبيه سوار من يد عمه على دولات ويوليّه مكان أبيه ، فكان يخشى من السلطان . وقد تقدم القول على أنه كان أرسل يسأل فصل السلطان في ذلك ، وكان الأمر مبنيًا على السكون فما يعلم الآن ما يصير من بعد ذلك .

الامرية بالتقدمة ، فلما نزل الأمير طومان باى الى عند ابن السلطان بالمشور ألبسه أطلسين وفوقاني حرير أخضر بطرز يلبغاوى عريض وأركبوه فرسا بسرج ذهب وكنبوش ، فلما وصل الأمير الدوادار الى بيته أرسل اليه ابن السلطان على يد لالاته سنبل الطواشى خمسمائة دينار وقيل ألف دينار ، فألبسه الأمير الدوادار كاملية مخمل أحمر بسمور ودفع اليه خمسين دينارًا ، وقد تعانظ أمر ابن السلطان في امرية آخورية الكبرى وصار في كل ليلة يوقد على باب السلسلة فانوسين آكرة وكذلك على باب الميدان وقد عظم أمره جدا ، ورسم السلطان أن أحدا لا يقول له سيدى بل يقولون له أمير آخور كبير .

وفي يوم الاثنين ثاني عشره جلس السلطان في الميدان وعرض العسكر أصحاب الطبقة الخامسة ، فكتب منهم جماعة نحو ستمائة مملوك ، وقيل أكثر من ذلك ، وعينهم الى جهة الهند ، وكان فيهم جماعة من ممالك السلطان الجلبان وجماعة من الممالك القرانصة وأولاد الناس وغير ذلك ، وكان السلطان من حين بلغه أن الفرنج تزيد عشهم في البحر الملح وطفشت به مراكب الفرنج ، فاهتم بعمارة مراكب في السويس نحو عشرين مركبا وأوسقهم بالسلاح والمكاحل والمدافع وغير ذلك من آلة الحرب ، وجعل سلمان العثماني رئيسا لتلك المراكب ، وتحت يده جماعة كثيرة من العثمانية والمغاربة البحارة نحو ألفى انسان ، وقيل أكثر من ذلك ، فلما عين السلطان العسكر في ذلك اليوم استحثهم على الخروج بسرعة ، ورسم أن النفقة تكون يوم الثلاثاء بعد النصف ، فانفصل المجلس على ذلك . وفي يوم الأربعاء رابع عشره أشيع بين الناس

بعضهم بعضا ، فحصل له توعك في جسده واستمر
عليلا الى أن مات .

وفي جمادى الآخرة كان مستهل الشهر بوم
الجمعة ، فطلع الخليفة والقضاة الأربعة وهنوا
السلطان بالشهر .

وفي يوم الثلاثاء خامسه أنفق السلطان على
العسكر المعين للهند جامكية أربعة أشهر معجلا ،
ومنهم من تشكى بأن به العجة الا فرنجى وما يقدر
يسافر فأعفاه السلطان من السفر وقال له : « أعد
النفقة التى أخذتها ولا تسافر » . وربما رسم على
بعض أولاد الناس حتى يعيد الخمسين أشرفيا التى
أخذها نفقة وقال لهم : الذى ما يقدر على السفر
وهو ضعيف يعيد النفقة ولا يسافر ، وكان مجموع
هذا العسكر الذى كتب للهند نحو خمسمائة
انسان ، غير التراكمة البحارة من جماعة الرئيس
سلمان .

وفي يوم الأربعاء سادسه عزل السلطان قاضى
القضاة الشافعى علاء الدين الاخمىمى ، فكانت
مدته فى هذه الولاية سنة وسبعة أشهر الا يومين ،
وكان ماشيا فى منصب القضاة على الأوضاع كما
ينبغى ، ومباشرا هذه الوظيفة بعفة زائدة وحسن
تصرف ، وجاء فى منصب القضاة كفوًا لذلك ،
وعزل من هذه الوظيفة والناس عنه راضية وحاز
الثناء الجميل من الدين والخير ومنع الرشوة ،
وكان فى مدة ولايته لا يتعاطى شيئا من معلوم
الأبصار بل كان ينعم بذلك على طلبة العلم والفقهاء
وغير ذلك .

فلما عزل خلع السلطان فى يوم الأربعاء المذكور
على قاضى القضاة محبى الدين عبد القادر بن
النقيب وولاه القضاء ، وهذه سادس ولاية وقعت

وفى يوم الخميس خامس عشره حضر الى
الأبواب الشريفه السيفى جانم الخاصكى الذى
كان توجه الى ابن عثمان ، فلما حضر أخبر أن ابن
عثمان أكرمه غاية الاكرام وخلع عليه عند عوده
الى مصر خلعة تماسيح بسمور ، ولكن هذا الأمر
حدث من بعد مجىء جانم من عند ابن عثمان ،
والحركات والسكون بيد الله تعالى .

وفى ذلك اليوم خرج نائب بهنسا الذى قرره
السلطان بها وهو شخص من الخاصكة خادم
السجادة يقال له قانصوه العجمى ، وأصله من
ممالك السلطان العورى ، وقد سعى فى هذه
النيابة بمال له صورة حتى وليها .

وفى يوم الخميس المذكور رحل السيد الشريف
بركات من تربة الظاهر برقوق وتوجه الى بركة
الحاج وعزم على السفر الى مكة ، فخرج معه
جماعة كثيرة من الناس يرومون الحج ، فخرجوا
صحبتة الى مكة .

وفى يوم الثلاثاء عشرينه أنفق السلطان على
العسكر المعين للهند نفقة السفر ، فأعطى لكل
مملوك خمسين دينارا ، ووعدهم أن بنفق عليهم
جامكية ستة أشهر معجلا قبل أن يسافروا ، وقيل
أعفى منهم جماعة من أولاد الناس ممن شكوا
ضعفا فى جسده أو من به حب أفرنجى ، وصار
يصرح لهم جهارا ويقول : « الذى ما يطيق سفر
البحر الملح يعلمنى بذلك فأعفيه من السفر » ... فعد
ذلك له من محاسنه .

وفى أثناء هذا الشهر جاءت الأخبار من بلاد
الغرب بأن الشيخ يحيى صاحب جربة قد توفى الى
رحمة الله تعالى ، وكان لا بأس به ، وقيل انه مات
قهرًا من أولاده وقد افتتنوا فى بعضهم وقتل

(1) هو مرض الزهري .

اطفيح وأرسلهم الى السلطان ، فقررهم فاعترفوا بقتله وأنهم ألقوه في المستراح ، ثم سم السلطان للوالى بأن يفحص عن أمره ، فتوجه وكشف المستراح فوجده فيه وقد تقدد جلده فأخرجه من المستراح ، فلما عرضه على السلطان رسم بدفنه وأخرج اقطاعه لبعض الممالك ، ثم رسم بشنق هؤلاء الذين فعلوا ذلك ، فلما توجهوا بهم الى الشنق ارتجت لهم القاهرة في ذلك اليوم ، ثم توجهوا بهم الى المكان الذى قتلوا فيه أستاذهم ، وهو مكان بالقرب من باب سعادة ، فشنقوا هناك الأربع أنفس ومضى أمرهم .

وفي يوم الخميس رابع عشره خلع السلطان على الأمير يوسف الذى كان نائب القدس وقرره في نيابة صغد عوضا عن طراباى الذى كان بها ، وكان عادة نيابة صغد ما يليها الا مقدم ألف ، وآخر من وليها من الأمراء المقدمين الأمير أزدمر المرطن وأقام بها الى أن مات . فلما وليها الأمير يوسف عز ذلك على الأمراء كونه سيفيا ، وكان يعرف بيوسف بن سيباى ، ولكن سعى في نيابة صغد مال له صورة حتى وليها ، وما زال الدهر كثير الغلطات .

وفي ذلك اليوم خلع السلطان على شخص من مماليكه يقال له قانصوه الساقى ، وقرره في وظيفة الأمير نائق الخازن على الحواصل السلطانية .

وفي ذلك اليوم خلع السلطان على الأمير قانصوه حباية ، ورسم له بأن يتوجه الى طرابلس في بعض المهمات الشريفة .

وفي يوم الاثنين ثامن عشر جمادى الآخرة كان وفاء النيل المبارك ، وقد أوفى يوم الأحد خامس مسرى ، وفتح السد في يوم الاثنين سادس مسرى ، وكان نيلا مباركا قوى العزم ، فلما أوفى رسم السلطان للأتابكى سودون العجمى بأن يتوجه

له بالديار المصرية ، منها خمس ولايات في دولة الأشرف الغورى والولاية الأولى في دولة الأشرف جان بلاط ، فلما لبس التشريف بالتمعد الذى بالحوش نزل من القلعة في موكب حافل وقدامه القضاة الثلاثة وسائر نواب الشافعية وناظر الجيش وناظر الخاص وغير ذلك من الأعيان ، فتوجه الى المدرسة الصالحية على جارى العادة ، ولكن سعى في هذه الولاية بثلاثة آلاف دينار غير خدمة للأمير الدوادار الكبير والدوادار الثانى والقاضى كاتب السر . فقيل نقد منه في هذه الست ولايات فوق الثلاثين ألف دينار ، وولى هذه الولاية في يوم الأربعاء وهو يوم نحس مستمر ، فتفائل له الناس بعدم اقامته في هذه الولاية لكونه ولى في يوم الأربعاء ، فذهب منه هذا المال العظيم ، وياليت لو شبع من ماله بنصف رطل سكر أو طير دجاج بر به نفسه ، وأخباره في الشح والبخل الزائد مشهورة بين الناس فما يحتاج لشرح ذلك ، فكان كما يقال في المعنى :

ويحبس روثه في البطن شهرا

مخافة أن يجوع اذا خريه

ويبكي بالدموع لهضم أكل

كما يبكى اليتيم على أبيه

وفي يوم السبت تاسعه رسم السلطان بشنق أربعة أنفار منهم جارية بيضاء رومية وجارية حبشية وصبى ابن ناس لفاف وشخص قواس . وسبب ذلك أن ابن الناس هذا والقواس أفسدا هاتين الجاريتين وحسنا لهما بأن تقتلا أستاذهما ، وكان أستاذهما شخصا من أولاد الناس مقطع ، فقتلوه ثم ألقوه في المستراح وأخذوا كل ما في بيته وسافروا الى نحو اطفيح ، ومضى على هذا الأمر نحو خمسة أشهر ثم فشا من بعد ذلك أمرهم ونمت عليهم جارية صغيرة ، فقبض عليهم بعض مشايخ

ويفتح السد ، فتوجه الى المقياس وخلق العبود ونزل في الحرافة وفتح السد على العادة ، وكان ذلك اليوم مشهودا ، ووقع فيه محاسن كثيرة على العادة ، فلما فتح السد ومضى طلع الى القلعة فخلع عليه السلطان خلعة سنوية ونزل الى داره ، وللناس مدة طويلة لم يروا النيل أوفى في خامس مسرى ، وقد قيل في المعنى :

وعى الله مصر كم بها من مسرة
ومنز أنس لاح بالطالع السعد

رويت الوفا عن سدها يوم كسره

فها أنا مهما عشت أروى عن السد

وفي يوم الاثنين خامس عشرينه حضر قاصد

ملك الروم سليم شاه ، فلما حضر طلع الى القلعة ،

فجلس السلطان في الحوش على المصطبة ، فلما

مثل بين يديه أحضر صحبته رأس على دولات

وراس ولده ورأس وزيره وهى فى علبه ، فلما

أحصروا تلك الرؤوس بين يدي السلطان شق عليه

ذلك وقال : ايش أرسللى هذه الرؤوس ؟ هى رؤوس

ملوك الفرنج انتصر عليهم حتى أرسلهم لى ؟ ثم

رسم للوالى بأن يأخذ تلك الرؤوس ويدفنها على

شاه سوار عند الكوم الذى بالقرب من زاوية

الشيخ كهنبوش ، فانفض الموكب فى ذلك اليوم

والسلطان والأمراء فى غاية الاضطراب ، وكثر

القال والقييل فى ذلك أن قلعة زمنطو وبلاد على

دولت جميعها ملكها ابن عثمان واستناب فيها

ابن سوار ، وقد خرجت بلاد على دولت من يدي

السلطان ولم تنتطح فى ذاك شاتان ، وابن عثمان

يقصد فى الباطن اثاره فتنة كبيرة بينه وبين السلطان

وأظهر التحرش بالسلطان وفتح باب الشر ، فتأكد

السلطان فى ذلك اليوم الى الغاية .

وفى يوم الثلاثاء سادس عشرينه لم يخرج

ومن الحوادث قد أشيع بين الناس أن سنبل

الطواشى لالا سيدى ابن السلطان وقع بينه وبين

جماعة من المماليك الجلبان بسبب مملوك كان

ساقيا عند ابن السلطان ، فضربه سنبل ضربا مبرحا

بسبب فشروى فأقام أياما ومات ، فتعصب له جماعة

من المماليك الجلبان وأعدوا سنبل بالقتل فى ذلك

اليوم ، وكثر القيل والقال فى ذلك وأشيع اقامة

فتنة كبيرة بين المماليك والسلطان لأجل سنبل

بسبب ذلك .

وفى يوم الخميس ثامن عشرين هذا الشهر خلع

السلطان على الأمير طراباى بن يشبك الذى كان

نائب صفد وعزل عنها فاستقر به حاجب الحجاب

بدمشق ، وهذه درجة من حيدر لأسفل ، وقيل انه

سعى فى ذلك بمبلغ له صورة .

وفى يوم الجمعة تاسع عشرينه قويت الاشاعات

بوقوع فتنة كبيرة من المماليك الجلبان بسبب

سنبل الطواشى لالا سيدى ابن السلطان ، وقد تقدم سبب ذلك من أجل المملوك الذى قتله ، فلم يطلع من الأمراء فى ذلك اليوم الا القليل ، وقبل ان السلطان لم يخرج ولم يصل الجمعة وكان فى غاية النكد ، وأرسل قبض على سنبل الطواشى وأودعه فى الترسيب واحتاط على موجوده ورسم عليه بالدهيشة أربعة من الخاصكية ، ومن حين وقعت هذه الحادثة رسم السلطان لولده بأن يقيم فوق القلعة ولا ينزل لباب السلسلة ، خوفاً عليه من المماليك حتى تخدم هذه الفتنة ويكون من أمرها ما يكون .

وفى رجب ، كان مستهل الشهر يوم السبت ، فطلع الخليفة والقضاة الأربعة وهنوا السلطان بالشهر ، وكان بالميدان فسلموا عليه ونزلوا الى دورهم .

ومما وقع فى ذلك اليوم من الحوادث المبهولة أن المماليك الجلبان لما أصبحوا فى ذلك اليوم استمروا على اثاره الفتنة المقدم ذكرها ، فلبسوا كباشيات مقلوبة ووقفوا على باب سلم المدرج ومنعوا الناس من الطلوع الى القلعة ، وخاف مقدم المماليك وغيب من باب القلعة ، وقصد المماليك أن ينهبوا الدكاكين التى فى خرائب التتار ، وقصدوا أن ينزلوا الى المدينة وينهبوا الأسواق ، فمنعهم من ذلك الأمير طقطباى نائب القلعة من النزول الى المدينة ، فلما طلع السلطان من الميدان ودخل الى الدهيشة بلغه أمر هذه الفتنة ، ثم اتسع الكلام بين المماليك وبين السلطان بسبب سنبل الطواشى الذى قتل المملوك ، وقد تقدم القول على ذلك ، فأرسلت المماليك تقول للسلطان : « ان لم تسلمنا سنبل الطواشى أو تنفق علينا لكل مملوك منا مائة

دينار وتقييم حرمتنا فإن السوق صارت تمسك لجام المماليك فى الأسواق ونبهدهم وما صار لنا حرمة بين الناس على أيامك » . فلما بردت الرسل بين المماليك وبين السلطان بسبب ذلك ، وقد رأى السلطان عين الغدر من المماليك ، رسم للوالى بأن يقبض على سنبل ويخرج به الى المماليك ، وكان سنبل من حين جرى منه ما جرى بسبب المملوك الذى قتله وهو فى الترسيب عند السلطان فى الدهيشة ، فأخذة الوالى وخرج به وهو ماشى وعلى رأسه زمط وعليه ملوطة بيضاء وهو مفكك الأطواق ، فلما خرج الى باب القلعة أحاط به المماليك وقصدوا أن يقطعوه بالسيوف ، فصار يسأل قرابة المملوك الذى قتل بألف دينار فأبى من ذلك وقال : ما آخذ الا روحه ، ثم أنزاه من سلم المدرج وأنوا به الى عند الحوض الذى تحت سلم المدرج فوسطوه هناك ، وأحضروا له تابوتا فحملوه فيه ومضوا به فغسلوه ودفنوه ، ومضى أمره كأنه ما كان .

وكان سنبل ههنا من أعيان الخدم حبشى الجنس جميل الصورة يدعى سنبل بن غارى ، وكان له من العمر يومئذ نحو ثلاثين سنة ، وكان لالا سيدى ابن السلطان وحج معه ورأى من العز والعظمة غاية التعظيم ، وكان خازن داركيس ، وكان من المقربين عند السلطان وافر الحرمة نافذ الكلمة ، ولا سيما لما ولى ابن السلطان أمير آخور كبير فصار سنبل هو المتصرف فى أمور باب السلسلة ويحكم عوضاً عن ابن السلطان ، وصار لا يقبل لأحد من الأمراء رسالة ولا شفاعة ، فعادى جميع الأمراء وحملوا منه فى الباطن ، فلما جرى له ما جرى لم يرث له أحد من الأمراء ، ولم يفد سنبل مما ناله من ذلك العز والعظمة شيئاً ، ومات هذه

الموتة الشنيعة ، ولم يتفق لأحد من الخدام قبله أنه مات موسطاً ، وكان ذلك من الأمور المقدرة .

فلما توسط سنبل خمدت تلك الفتنة وطلعت المماليك الى الطباق وبطل أمر الفتنة ، تم ان السلطان أشهر المناداة في القاهرة : بأن لا سوقيا ولا تاجرا ييهدل مماليك السلطان ولا يمسه لأحد منهم لجمام فرسه ، ومن فعل ذلك قطعت يده ولا يقل حياه عليهم ، وكانت هذه المناداة من أكبر الفساد في حق الناس ، وصارت المماليك من بعد ذلك يدخلون الى الأسواق ويخطفون القماش من على الدكاكين ولا يقدر أحد يمنعه من ذلك ، وصار الناس معهم من بعد ذلك في غاية الضنك والقهر ، وقد أرضى المماليك بقتل سنبل وبهذه المناداة عن طلب النفقة .

وفي يوم الاثنين ثلثه وردت على السلطان أخبار ردية بأن سليم شاه بن عثمان تملك غالب بلاد على دولات وشرع في بناء أبراج على عقبة بغراض عند باب الملك ، وأرسل نائب الشام ونائب حلب يعاتبان السلطان في تأخير ارسال التجريدة الى اليوم بسبب حفظ البلاد قبل أن يتمكن منها عسكر ابن عثمان ، فلما وردت هذه الأخبار على السلطان تنكد الى الغاية وطلع الى الدهيشة هو والأمراء وضربوا مشورة في ذلك الأمر .

وفي يوم الأربعاء خامسه نزل السلطان الى قبة الأمير يشبك التي بالمطرية فأقام بها الى بعد العصر ، فلما رجع الى القلعة شق من على باب اللوق ، فلما شق من هناك وقف له جماعة هناك من التجار وشكوا له من أذى المماليك في حقهم وخطفهم القماش من على الدكاكين ، فلم يلتفت الى ذلك ، وربما أغلظ التجار على السلطان في القول ، فطلع الى القلعة وهو في غاية السودنة من العوام .

وفي يوم الخميس سادسه توفي القاضي أبو الفتح السرم ساحى ، وكان من أعيان الناس ورأس الموقعين العدول ، وكان موته فجأة على حين غفلة .

وفي يوم السبت ثامن نزل السلطان من القلعة وتوجه الى المقياس وبات به ، وأصبح يوم الأحد مقيماً هناك ، ومد له الزيني بركات بن موسى أسمطة حافلة وانشرح هناك ، ثم طلع الى القلعة بعد العصر من يوم الأحد ، وكان النيل يومئذ في عشرين ذراعاً ، فجلس في القصر الذي أنشأه على بسطة المقياس وكان ذلك اليوم بالسلطاني .

وفي يوم الاثنين عاشره جلس السلطان في الميدان وعرض العسكر المعين الى جهة الهند ، فعرضهم وهم باللبس الكامل واستدعاهم كل واحد باسمه ، فلما فرغ من عرض العسكر خلع على الرئيس سلمان العثماني كاملية مخمل أحمر بسمور وقرره باش المراكب المجهزة للهند ، وقرر الباش الثاني شخصاً يسمى يشبك وهو أمير عشرة ، وقرر الباش الثالث شخصاً يقال له دمرداش الاقريطشى ، وكان أصله افرنجي يبيع النيذ الاقريطشى فاشتهر بذلك ، فأنعى عليه السلطان بامرة عشرة وجعله باش العسكر — وكان ذلك من غلطات الزمان ! — فلما انتهى أمر العرض بسط السلطان يده وقرأ سورة الفاتحة ودعا بالنصر للعسكر . تم ان العسكر خرج من الميدان ونزل وشق من القاهرة وقدامهم الطبول والزومر ومكاحل النفط والبندقيات وعلى رءوسهم الصنجق السلطاني ، وكان لهم يوم مشهود . وكان مجموع هذا العسكر المتوجه الى الهند على تحرر أمره نحو ستة آلاف انسان ، تفصيله : خاصكية خمسون ، جمدارية مائة وخمسون ، ومن الطبقة الخامسة المتجددة ما بين أولاد ناس ومماليك وغير ذلك أربعمائة وخمسون ،

وبعارة ومقاتلين وتراكمة ومغاربة وغير ذلك خمسة آلاذ، وثلاثمائة أربعة وأربعين على ما قيل ، فلما خرجوا من القاهرة توجهوا الى الريدانية الى أن يرحلوا من هناك الى السويس ، فكان السلطان في مدة اقامتهم في الريدانية يسد لهم أسنطة حافلة من ماله بكرة وعشيا الى أن رحلوا من هناك وتوجهوا الى صو السويس ، وكان عدة المراكب التي أنشأها السلطان بالسويس عشرين مركبا ، وقد شحنوا بالمكاحل والمدافع والبارود وغير ذلك من الزايت بسبب العسكر ، وقد تقدم القول على أن السلطان أنفق على هؤلاء العسكر قبل ذلك وأعطى لكل مملوك منهم خمسين دينارا ، ووعدهم بأن ينفق عليهم قبل أن يسافروا جامكية ستة أشهر مسحلا عند خروجهم الى السفر .

وفي ذلك اليوم خلع السلطان على قاصد ابن عثمان وأذن له بالعود الى بلاده وكتب له الجواب عن مطالعته التي حضرت على يده ، ثم ان السلطان قصد أن يعين له قاصدا من عنده فلم يطاوعه أحد من الأمراء ولا من الخاصكية بأن يتوجه قاصدا الى ابن عثمان ، وقالوا للسلطان . هذا رجل جاهل سفالك للدماء وكل من توجه اليه بهذا الجواب قتله ، فلم يوافق الى التوجه اليه أحد من العسكر

وفي يوم الخميس ثالث عشره خلع السلطان على الوزير يوسف البدرى بأن يسنم في الوزارة على عادته ، وكان له مدة وهو في الترسيم بسبب عمل الحساب . وآخر الأمر كتب عليه السلطان مسطورا بخمسة وستين ألف دنار والتزم بأمر السداد هو والقاضي شرف الدين الصغير ناظر الدولة ، فخلع السلطان عليهما ونزلا في موكب حافل .

وفي يوم السبت خامس عشره نزل السلطان

من القلعة وعدى الى الروضة ونصب له خيمة عند خرطوم الروضة وصواوين ، وأقام هناك يومين وليلة ، وأحضر عنده مغاني وأرباب الآلات ، ومد له هناك الزينى بركات بن موسى المحتسب أسنطة حافلة وطوارى فاخرة وفواكه وحلوى وغير ذلك مما يهدى للملوك ، فانشرح السلطان هناك الى الغاية وصنع دكة خشب في وسط الماء وكان النيل في قوة الزيادة ، وجلس عليها وحوله الخاصكية وهم خائضون في الماء حتى ابتلت ملايلتهم بالماء والطين ، وقد فتك في القصف والفرجة حتى خرج في ذلك عن الحد ، وكان السلطان حصل له قبل ذلك غاية النكد بسبب توسيط الطواشي سنبل وفتنة المماليك في طلب النفقة ، فما صدق باخمد تلك الفتنة عنه فنزل هناك وانشرح في ذلك اليوم ، واستمر مقيما هناك الى يوم الأحد آخر النهار ، وكانت ليلة تفرقة الجامكية ، فطلع من هناك الى القلعة وشق من الصليبية ولم يكن قدماه أحمد من الأمراء سوى جماعة من خاصكيته فقط .

وفي يوم الخميس عشرينه خرج الأمير طومان باي الدوادار الكبير وصحبته الأمير خاير بيك أحد المقدمين الذي كان كاشف الغربية وبعض أمراء عشراوات وخاصكية ، فخرج في ذلك اليوم وتوجه الى جبل نابلس بسبب فساد العربان الذين هناك ، فانه حصل بينهم وبين نائب غزة فتنة كبيرة وقتل فيها جماعة ، واضطربت أحوال الدرب السلطاني من غزة الى مصر ، وخرج الأمير الدوادار بغير طلب ، وكان ذلك اليوم يوم نوروز وأول السنة القبطية فلم تتفاهل الناس بخروج الدوادار في ذلك اليوم وقالوا : يستمر سنته كلها في هجاج وسفر .

وفي يوم السبت ثانی عشرینة توفی شخص من
الأمرء الطبلحانات یقال له جانی بیک قرا بن
حیدر وكان أصله من مماليك الأشرف قايتباي
وكان لا بأس به .

وفي يوم الاثنین رابع عشرینة رحل الأمير
الدوادار من الريدانية وتوجه الى الخانكة ، ومما
عد من محاسن الأمير طومان باي الدوادار أن
شخصا من الفقراء كان على باب جامع شيخو
يتمنى مائة دينار ذهبا وجملا وعبدا حتى يتوجه
الى الحجاز ، فأقام على ذلك مدة طويلة ، وكان
يبتلس بالأمرء كلما طلوعوا انى القلعة ونزلوا
فأصورهم وأبادهم شرا وحرهم أن يشقوا من
الصليية . ففى بعض الأيام أرسل اليه الأمير طومان
باي الدوادار خمسين دينارا ذهبا وجملا وعبدا
وقال له : امض الى الحجاز ، فقال له ذلك الفقير :
احملنى معك الى القدس فأزوره قبل أن أحج ،
فحملة معه لما سافر الى نابلس ، فعاد ذلك من
النوادر اللطيفة من الأمير الدوادار . وكان فيه
الخير ، وكان قليل الأذى بحلاف من تقدمه من
الدوادارية .

وفي يوم الخميس سابع عشرینة عزل السلطان
قاضى القضاة الشافعى محبى الدين بن النقيب
فكانت مدته فى هذه الولاية خمسين يوما لا غير ،
ونقد منه فى هذه الولاية ثلاثة آلاف دينار غير
الكلف ولم يقيم فيها سوى هذه المدة اليسيرة
وعزل فلما عزل لم يرث له أحد من الناس فى
سعيه فى هذه الوظيفة ، وقد نقد منه على وظيفة
القضاء فوق الثلاثين ألف دينار ، وهو ممقوت
عند الناس ولم يمكث فى هذه الست ولايات الا
مدة يسيرة نحو الستين ، وكان أرشل قليل الحظ .
فلما عزل ابن النقيب فى ذلك اليوم خلع السلطان
على قاضى القضاة كمال الدين الطويل وأعادته الى

القضاء ، وهذه رابع ولاية وقعت لقاضى القضاة
كمال الدين ، وقد سعى فى هذه الولاية بثلاثة
آلاف دينار ، وكان الساعى له القاضى علاء الدين
ناظر الخاص والشرفى يحيى الشطرنجى نديم
السلطان ، فلما لبس التشرىف وشق من القاهرة
أوقدوا له الشموع على الدكاكين وزينوا له بعض
دكاكين فى حارته عند الخانقاه البيبرسية . وكان
قاضى القضاء كمال الدين محبيا للناس قاطبة ،
ولما عاد قاضى القضاة كمال الدين الى منصب
القضاء هنبته بهذين البيتين وهما :

الى قاضى القضاة تقول مصر
لقد جاد الزمان بمشى حالى
ولما عاد منصبه أتاها
سرور بالتمام وبالكمال

فلما أحضروا له التشرىف وقف السلطان عن
لبسه فى ذلك اليوم وصار بعته بكلمات مما تقدم
منه ، وقال له : « لا تبقى تحكّم وترجع عن
أحكامك » .

وفي يوم الجمعة ليلة السبت ثامن عشرین رجب
كانت وفاة قاضى القضاة الحنفى سرى الدين عبد
البر بن قاضى القضاة محب الدين بن الشحنة ،
وقد تقدم ترجمة نسبه فى الجزء الثامن من التاريخ ،
وكان قاضى القضاة عبد البر اماما فاضلا عالما علامة
فى هبة ، وكان رئيسا حشما من ذوى البيوت
من أعيان علماء الحنفية ، توفى وله من العمر
نحو خمس وسبعين سنة أو دون ذلك ، ومات
وهو منفصل عن القضاة ، وقد أقام فى منصب
القضاء نحو ثلاث عشرة سنة وأشهر . ورأى
فى دولة الأشرف قانصوه الغورى ما لا رآه غيره
من القضاة ، وكان من أخصاء السلطان بحيث
انه كان يبات عند السلطان بالقلعة ثلاث ليل

في الجمعة ، وصار هو المتصرف في أمور المملكة بحضرة السلطان ، واستمر على ذلك حتى تغير خاطر السلطان عنه بسبب ما تقدم ذكره من عزل القضاة الأربعة في يوم واحد ، فعزل معهم ، واستمر على عزله والسلطان متغيظ عليه ولا يسمع بذكره قط حتى مات من شدة قهره ، ثم مات رحمة الله عليه ، وقد فلت في هذه الواقعة :

طلعت لعبد البر أعظم ذبلة

من قهر أحكام القضا لما عزل

دد نال دل الطرد من سلطانه

وأتى إليه كل عكس متصل

وفي شعبان كان مستهل الشهر يوم الأحد ، فجلس السلطان في الميدان ، وطلع القضاة الأربعة للتهنئة بالشهر ، وكان الخليفة متوعكا في جسده فلم يطالع للتهنئة بالشهر

وفي يوم الثلاثاء ثالثه نزل السلطان وتوجه الى قبة الأمير بشبك النى بالمطرية ، فبات بها وتفرج على الملقه وكانت في قوة ملوها ، فأقام هناك الى يوم الأربعاء آخر النهار تم عاد الى القلعة ، ونزل أيضا عقب ذلك الى القبة وبات بها .

وفي يوم الاثنين سادس عشره حضر الى الأبواب الشريفة جانم الخاصكى الذى كان أرسله السلطان الى ملك التتار بسبب أقارب السلطان الدين أسرهم ملك التتار عنده ، فلما مر من على بلاد ابن عثمان أرسل قبض عليه وأخذ ما كان معه من الهدية التى كان أرسلها السلطان الى ملك التتار ، وحصل لجانم من ابن عثمان غاة البهدلة ، وهم بشنقه غير ما مرة حتى شفع فيه بعض وزراء ابن عثمان ، فلما رجع جانم أخطر عن ابن عثمان أمورا شتعة قالها في حق السلطان وعسكر مصر ، وأنه جهز عدة مراكب كثيرة نحو أربعمائة مركب في

البحر تجيء ثغر الاسكندرية ودمياط ، وفرقا من عسكره تجيء من على البلاد الحلبية ، فلما تحقق السلطان ذلك أرسل خلف أمير كبير سودون العجمى وبقية الأمراء ، فجلسوا في الدهيشة وضربوا مشورة بسبب ابن عثمان ، وقيل انه حلف الأمراء في ذلك اليوم بأن يكونوا كلمة واحدة ولا يخرجوا عن طاعته ظاهرا وباطنا ، وحلف هو أيضا لهم بمعنى ذلك ، وانفض المجلس بعد الحلف .

ويقال كان سبب اثاره هذه الفتنة الحادثة بين السلطان وبين ابن عثمان أن حشقدم مملوك السلطان الذى كان مشد الشون . وقد تقدم القول على أنه كان قد حصل له من السلطان حنق بسبب زوجته بنت جاني بيك دوادار الأمير طراباى وقد تقدم ذكر ذلك ، فلما رأى حشقدم أن السلطان محظ عليه بسبب جاني بيك فر على حين غفلة ونزل في مركب وتوجه الى عند سليم بن عثمان وكان له أخ عند ابن عثمان ، فلما توجه حشقدم الى ابن عثمان أكرمه وأنعم عليه بامرية في بلاده .

فلما استقر حشقدم عند ابن عثمان شرع يحط على السلطان عند ابن عثمان ويجبره بأمور من أفعال السلطان من أبواب المظالم ، وأخبره بما أحدثه على السوق من أمر المشاهرة والمجامعة على أرباب البضائع من المال المقرر عليهم في كل شهر ، وأخبره بأمر العش الذى في المعاملة في الذهب والفضة ، وأخبره بأشياء كثيرة من هذا النمط عن أحوال مصر ، حتى أجبره بجملة عساكر مصر وما يشتملون عليه ، وأخبره عن أمر قضاة مصر قاطبة وأنهم يأخذون الرشوة على الأحكام الشرعية ، وحسن له أن يمضى على بلاد السلطان وسهل عليه ذلك الأمر ، فعرفه كيف يرسل مراكب على الاسكندرية ودمياط .

العسكر الذى كان فيها جماعة ، فلم تتفائل الناس بذلك .

وفى يوم الخميس تاسع عشره خلع السلطان على الأمير اينال باى دوادار سكين وعيسته بأى يسافر الى البلاد الشامية بسبب أمور تتعلق بأشغال السلطنة ، فتوجه اليها .

وفى يوم الجمعة عشرينه فتح سد بحر أبى المنجا ، وكان النيل يومئذ فى ست عشرة أصبعا ، من احدى وعشرين ذراعا ، وكان فتحه فى أول يوم من بابه من الشهور القبطية ، وقد تأخر فتحه عن العادة الى ذلك اليوم ، وكان النيل فى قوة عزمه من الزيادة ، فلما فتح سد أبى المنجا نقص النيل فى ذلك اليوم ولم يزد من بعد ذلك شيئا ، وقد ثبت على ست عشرة أصبعا من احدى وعشرين ذراعا ، وحصل به غاية النفع وروى سائر البلاد التى قط ما رويت ، واستمر ثابتا الى أوائل هاتور فعد ذلك من النوادر .

ومن العجائب أن مع وجود علو النيل وثباته لم يسكن فى الجزيرة الوسطى ولا بيت واحد ولم يفتح فيها دكان ولم يعمل بها مقصف للمتفرجين ، ولم يعلم ما سبب ذلك ، ولكن أشاعوا أنه سكن بالجزيرة عدة مناجات جمال لابن السلطان والأمراء ، فخشى الناس أن يسكنوا الجزيرة من نفر الذين هناك ، فهذا كان السبب فى منع الناس من سكنى الجزيرة .

وفى يوم الاثنين ثالث عشرينه نادى السلطان فى الحوش للعسكر بأن يعملوا يرقهم وأن يكونوا على يقظة فان السلطان ينفق ويخرج فى جمعته ، وصار فى كل جامكية ينادى للعسكر بذلك فى الحوش ، وأشيع أن السلطان هو الذى يسافر بنفسه بسبب

فعد ذلك طمعت آمال ابن عثمان بأن سلك مصر والله تعالى غالب على أمره . فمن حين توجه ختسدم الى ابن عثمان وهو يظهر المشى الى بلاد السلطان ، ولا سيما قتل على دولات وملك بلاده وولى فيها ابن سوار وجعله نائبه وصار يكتب السلطان فى مطالعاته بالفاظ يابسة ، وكل ذلك مما أوحاه اليه ختسدم عن أحوال الديار المصرية .

فلما حضر جانب الخاصكى وأخبر السلطان بما قاله ابن عثمان فى حقه من هذه الأخبار المقدم ذكرها ، اضطربت أحوال السلطان وتكد لذلك ، واستمرت الوحشة بينه وبين ابن عثمان عمالة .

وهذه الواقعة تقرب مما وقع للملك الناصر محمد بن قلاوون مع قبجق نائب الشام ، فانه أظهر العصيان على السلطان فأرسل بالتبض عليه ، فلما تحقق ذلك فر من الشام وتوجه الى غازان ملك التتار وقوى عزمه وحسن اليه بأن يمضى على بلاد السلطان بمملكها من غير ماع ، وكذا جرى فمضى غازان على بلاد السلطان وملك حلب والشام ، فخرج اليه الملك الناصر محمد بن قلاوون وتجارب مع غازان فكسر غازان الملك الناصر كسرة مهولة ، فرجع الملك الناصر الى مصر وهو مهزوم ، ثم تحايا عسكر مصر ورجع الملك الناصر وتجارب مع غازان ثانيا فكسره كسرة مهولة وغنم منه أشياء كثيرة من خيول وسلاح وغير ذلك ، وكان هذا كله من فتنة قبجق لما توجه اليه وحسن له ذلك ، ونعوذ بالله أن تكون فتنة ابن عثمان مثل ذلك ، والأمر الى الله تعالى .

وفى يوم الأربعاء ثامن عشره جاءت الأخبار من السويس بأن المراكب التى جهزها السلطان الى الهند غرق منها مركب وقد صدمت فى شعب فانكسرت وغرق جميع ما كان فيها ، وفقد من

ابن عثمان ، واستمرت الاشاعات قائمة بسفر السلطان تم خمدت تلك الاشاعة قليلا .

وفي ذلك اليوم كانت وفاة القاضي جلال الدين محمد الزفتاوى أحد نواب الشافعية ، وكان لا بأس به ، ومات وهو في عشر الثمانين سنة .

وفي يوم الثلاثاء رابع عشرينه نزل السلطان الى بولاق ونوجه الى ضيافة القاضي كاتب السر محمود ابن آجا بالبرابجية التى هناك فأقام عنده الى يوم الأربعاء وهو في أرغد عيتس ، فسا أبى العاضى كاتب السر فى ضيافته ممكنا وأحضر من كل شىء أحسنه ، حتى قيل انه تكلف على أسمطة وطوارى حافلة وتقدمة عظيمة قدمها للسلطان فوق ألف دينار . وكان ابن السلطان معه وجماعة من الخاصكية ، وانشرح السلطان هناك الى الغاية وأحضر بين يديه مغانى وأرباب الآلات ، وأظهر القاضى كاتب السر أنواع العظمة من الفرش الفاخرة والأوانى الصينى والنحاس المكفت وغير ذلك من كل صنف .

ثم ان السلطان صلى العصر يوم الأربعاء وطلع الى القلعة وكانت لبله جامكية ، فلما ركب من هناك خلع على القاضى كاتب السر كاملية حافلة من ملايسه مخمل أحمر بسمور فاخر ، وتشكر منه لما تكلفه له من الأسمطة الحافلة وغير ذلك من المآكل والمشرب والتقادام الحافلة .

وفي يوم الخميس سادس عشرينه أنفق السلطان الجامكية ، وهى آخر الجوامك ، ثم نادى للعسكر بأن يعملوا يرقهم وأن يكونوا على يقظة فان التجريدة الى حلب عمالة ، فلما تحقق المماليك ذلك نزلوا من القلعة وأطلقوا فى الناس النار ، وأخذوا بغال القضاة والعلماء والتجار وهجموا عليهم الحارات والبيوت ، وأنزلوا الفقهاء من على بغالهم

فى وسط الأسواق وأخذوها من تحتهم ، وأخذوا بعله النسيخ برهان الدين بن الكركى وهو فى الحضور فى المدرسة الأشرفية فبرطل عليها بمبلغ له صورة حتى حلسها ، ثم سارت المماليك تسافر الى نحو بلييس والصالحية ويأخذون بغال المسافرين وأكاديشهم ، حتى صبح منهم جميع الناس وتزايد منهم الضرر الشامل فى حق الناس جدا ، وصاروا يهدلون القضاة والعلماء بالضرب وبنزلونهم من على بغالهم ، وفعلوا من هذا النمط أشياء كثيرة .

وفي رمضان كان مستهل الشهر يوم الثلاثاء ، فجلس السلطان فى الميدان ، وطلع الخليفة والقضاة الأربعة وهنوا السلطان بالشهر ، ثم طلع الوزير بوسف البدرى والزينى بركات بن موسى المحتسب ، وطلعوا بالخبز والسكر والدقيق وهو على رءوس الجمالين مزفوف ، وطلعوا بأغنام وأبقار كما جرت به العادة فخلع السلطان على الوزير وناظر الدولة شرف الدين الصغير والمحتسب ... وكان يوما مشهودا .

وفي يوم الأربعاء ثانى شهر رمضان قوى عزم السلطان بأن يسافر الى نجر الاسكندرية ورشيد بسبب تفقد أحوال الأبراج التى هناك ، وأشيع أنه سرح فى بناء سور برشيد على شواطئ البحر الملح فأرسل عدة بنائين وحجارين بسبب ذلك ، وقد بلغه عن ابن عثمان أنه يقصد يطرُق نجر الاسكندرية ودمياط على حين غفلة ، فلما صلى السلطان الصبح يوم الأربعاء نزل من القلعة وتوجه الى بولاق وعدى الى بر انبابة ونصب له خيمة هناك حتى يتكامل خروج العسكر ، فكان صحبته من الأمراء المقدمين الأتابكى سودون العجمى والأمير أركماس أمير مجلس والأمير سودون الدوادارى

معلقا في الشباك فكتب بذلك محضرا ، ولم يفد من ذلك شيء . وراحت على من راح .

وفي يوم الأحد ثالث عشره أشيع بين الناس أن الوالى عاقب جاني بيك دودار طراباى على بنية المال الذى تأخر عليه ، فطالبوه بأن يورد ما عليه شيئا على الحامكية فقال : ما بقى مسمى شيء من المال غير روحى خذوها ، فضربوه كسارات على ركبته ، وقيل عصروه فى أصداعه ، وهو يقول ما بقى معى شيء من المال ، فاستمر يعاقبه الوالى حتى أشرف على الموت ، وأشيع بين الناس موته ، ولكن ما صح ذلك ، وهذا انتقام من الله تعالى ذان جاني بيك هذا كان من وسائله السوء مستحقا لكل الأذى .

وفي يوم الثلاثاء خامس عشر هذا الشهر حضر السلطان من ثغر الاسكندرية ، وهذه هى السفرة الثانية فكانت مدة غيبته فى هذه السفرة ثلاثة عشر يوما لا غير ، بخلاف السفرة الاولى ، وكان سبب توجهه الى ثغر الاسكندرية فى هذه المرة أنه لما بلغه عن سليم شاه ابن عثمان بأنه قد جهز نحو أربعمائة مركب وهو قاصد الى ثغر الاسكندرية ودمياط الشهير ، فتوجه السلطان الى هناك لتنفقد أحوال الأبراج التى هناك وترميم نائنها ، وتوجه الى رشيد وأيضا رسم بأن يبنى عليها سور من جهة البحر الملح ، وأشيع أن السلطان أنعم هناك على خاير بيك العلامى الشهير بالمعمار بتقدمة ألف وجعله متحدثا فى باشية برج الأشراف قايتباى ، وأشيع أيضا أن السلطان حصل له هناك نوعك فى جسده وأفطر يوما من شهر رمضان عندما حصل له دوخة وأغمى عليه ، فعند ذلك بادر بسرعة المجيء الى مصر ، فأتى فى مركب لبر مصر عند السواقي التى أنشأها هناك فطلع من عند السواقي هو والأمراء الذين كانوا صحبتته ،

رأس نوبة النوب والأمير أنص باى حاجب الحجاب والامير ناي بيك الحازندار أحد الامراء المقدمين ، وجماعة من الأمراء الطبليحات والعشراوات منهم الأمير خاير بيك المعمار ، وكان صحبتته من المباشرين الشهابى أحمد بن الجيعان نائب كاتب السر والفاضى أبو البقا ناظر الاسطبل ، وآخرون من المباشرين من أرباب الوظائف ، وعين معه نحو خمسين خاصكيا من أرباب الوظائف وألزمهم بأن يصحبوا معهم كل واحد فرسا وبعلا جنيا . فقاموا فى المراكب بسبب الخيول ما لا خير فيه ، وكان النيل فى عشرين ذراعا والطرق مقطوعة من كثرة الماء ، فحصل للأمراء والعسكر مشقة زائدة ولا سيما فى رمضان والصيام عمال كل يوم ، فأقام السلطان فى بر انبابة الى يوم الخميس ثالث الشهر فنزل فى مركب ورحل من انبابة هو والأمراء فى عدة مراكب كثيرة ، وكانت هذه السفرة على حين غفلة

وفي ليلة الجمعة رابع الشهر سقط سقف زاوية الشيخ أبى العباس البصير رحمة الله عليه ، وهى التى عند باب الخرق المطل على الخليج ، فقتل تحت الردم رجل وصبى صغير وهرب من كان بها من المصلين وقت العشاء فمسلوا ، ولم يقتل غير اثنين كما تقدم .

ومن الحوادث فى غيبة السلطان أن المماليك الجلبان ربطوا كلاب حديد فى حبل ، وشلقوه فتعلق فى شباك الطبقة التى على باب الزردخاناه ، وتسلقوا عليه وهم من داخل الحوش السلطانى ، فلما وصلوا الى الشباك وجدوا بالقرب منهم أربع طقزيات بأسقاط فضة فسحبوها وأخذوها . فلما طلع النهار حضر الأمير مغلباى الشريفى الزردكاش الكبير ، فأعلموه بذلك ورأى الجبل

وفي ذلك اليوم خلع السلطان على محيي الدين يحيى بن قاضي القضاة برهان الدين الدميري وأعادته الى قضاء المالكية ، عوضا عن جلال الدين ابن قاسم بحكم انفصاله عن القضاء ، وقد سعى عليه محيي الدين يحيى الدميري بألفى دينار ، وهذه ثانيا ولاية وقعت لمحيي الدين بن الدميري بمصر ، فكانت مدة جلال الدين بن قاسم في قضاء المالكية سنة وعشرة أشهر وثمانية أيام مثل مدة السمديسي الحنفي فانما وليا في يوم واحد ، وقد تولى الحسامي محمود ومحيي الدين يحيى بن الدميري في يوم واحد ، وشقا من القاهرة وعليهما التشاريف ، وكان لهما يوم مشهود .

وفي هذا الشهر كملت عمارة مدرسة الأمير بيبرس فريب السلطان التي أنشأها بقرب حط الجودرية ، وجاءت في غاية الحسن والظرف ، فخطب بها في ذلك الشهر .

وفي يوم الاثنين حادى عشرينه كان أول هاتور الشهر القبطي . ومن العجائب أن النيل استمر في ثبات لم ينهبط حتى دخل هاتور ، وكان يومئذ في تسع عشرة ذراعا ونصف ذراع ، حتى عد ذلك من النوادر ، ولكن حصل بذلك الضرر الشامل على المزارعين بمكث الماء على الأراضى . ومن العجائب مع وجود ثبات النيل هذه المدة لم تسكن الجزيرة الوسطى في هذه السنة ولا كرى فيها بيت ولا دكان .

وفي ذلك اليوم توفي الأمير أقبردى الحسنى أحد الأمراء العشراوات من طبقة زمامية ، وكان أصله من مماليك الأشرف قايتباي .

وفي يوم الأحد سابع عشرينه كان اختتم صحيح البخارى بالقلعة ، وخلع السلطان على القضاة الأربعة وأعيان العلماء ومن له عادة ، وفرقت الصرر على جارى العادة ، وكان ختما حافلا .

فخلع عليهم هناك كوامل مخمل بسمور ، فلما طلع لاقاه من هناك الخليفة والقضاء الأربعة وبقية الأمراء الذين كانوا بمصر ، فشق من السبع ستابات الى قناطر السباع ، ورسم لأمر كبير سودون العجمي بأن يتوجه الى بيته من هناك ، فلما وصل الى المدرسة الصرغتمشية رسم للخليفة بأن يتوجه الى بيته من هناك ، وكان الأمير أركساس أمير مجلس حصل له رمد في عينه فلم يركب مع السلطان ، فشق السلطان من الصليبية وطلع الى الرملة ودخل الى الميدان ، فطوب الى القضاة وانصرفوا الى بيوتهم ، وكان موكب السلطان هينا بحلاف مواكبه المقدمة .

وفي يوم الخميس رابع عشره فرق السلطان الكسوة على المسكر مع الجامكية .

وفي ذلك اليوم خلع السلطان على حسام الدين محمود ابن قاضي القضاة سرى الدين عبد البر ابن الشحنة وقرره في قضاء الحنفية ، عوضا عن القاضي شمس الدين السمديسي الحنفي بحكم انفصاله عن القضاء ، فكانت مدته في القضاء سنة وعشرة أشهر وثمانية أيام ، وكان من أخصاء السلطان وامامه ولكن سعى عليه الحسامي محمود ابن الشحنة بثلاثة آلاف دينار حتى ولي وظيفة القضاء ، وكان الحسامي محمود شابا قليل الرأسالة من العلم ولم يكن في طبقة علماء الحنفية ممن ولي وظيفة قضاء الحنفية ، ولكن السلطان ما عنده أعز ممن يورد له مالا ويكون مهما كان ، وقد استكثر غالب الناس على محمود وظيفة القضاء ، وفيه يقول القائل :

لا واخذ الرحمن سلطاننا
أفعاله بالطبع رهاجه
ولى علينا للورى قاضيا
ما كان للدهر به حاجة

وفي يوم الاثنين ثامن عشر منه عرض ناظر الخاص خلع العيد على السلطان ، وألبسه كامله محمّل أحمر بسمور ، ونزل من القلعه في موكب حافل ، وكانت الخلع في هذه السنه في عابه الوحاشه من انشحات ناظر الخاص بخلاف كل سنه .

وفي شوال كان مستهل الشهر يوم الأربعاء ، وهو يوم عيد النضر ، فخرج السلطان وصلى صلاة العيد ، ثم دخل الى الحوش الكبير وجلس على الدكة وخلع على النضاة الأربعة ثم على أمير بدير وبقية الأمراء المقدمين .

وفي ذلك اليوم خلع السلطان على الأمير خابر بك المعمار وألبسه مئزر وأطلسين لكونه بغير مقدم ألف ، ثم خلع على المباشرين ومن به عادة . وكان موكب العيد حافلا . وكان الأمير طوماى باى الدوادار مسافرا في جبل نابلس ، وكانت الخلع في هذا العيد في غابة الوحاشة ، وأبطل ناظر الخاص الطرز النخ الذى كان يعمل في الخلع ، وكانت الخلع من النمات القطنى الذى مثل القش . ثم نزل ابن السلطان الى باب السلسلة وعليه فوقانى بطرز يلبعوى عربص ، ونزل في موكب حافل وقدامه الشعراء والشبابه السلطانية ، فمد بباب السلسلة مدة حافلة وخلع على غلمانه أرباب الوظائف ، ثم خلع فوقانى الذى كان عله على الأمير آقبى الطويل أمير آحور ثابى أحد المقدمين فلما انقضى أمر المدة بباب السلسلة نزل المقر الناصرى ولد السلطان من باب السلسلة ، وعليه تخفيفه صغيرة وسالارى بعلبكى أبيض ، وقدامه القاضى محبى الدين عبد القادر القصرى ناظر الجيش والقاضى أبو البقا ناظر الاسطبل وبعض جماعة من الخاصكية ،

وقدامه ثلاث طوائل خيل بثواشى حرير أصفر ، فلما شق من القاهرة ارتشت له الأصوات بالدعاء وأوقدوا له أحمالا ونناير بالنهار من الوراقين الى آخر البندفابين ، وزدوا له عند بينه رينه حافلة بالحيام والسحائب ، وصنعوا له ردكا على بابه وفيه أشجار وأحواص جلد بفواوير ماء عماله ، واصلقت له الناس على الدكاكين بسبب الفرجة ، ودقت له الكوسات على بابه ، وزفته المغاني بالطارات على الدكاكين ، ولاقته طائفة اليهود بالنسرع مرقودة قدامه ، فاستمر في هذا المركب حتى دخل الى بيته الذى في خط البندفابين ، ومد له هناك مدة ثانية واستمر هناك في بيته الى أواخر النهار ، ثم ركب من هناك وطلع الى القلعة .

وفي يوم الخميس ثانيه تغير خاطر السلطان على عبد العظيم الصيرفى وأودعه في الحديد ، وأرسله الى بيت الأمير الدوادار حتى سئل حساب الشعير الذى هو متحدث عليه ، فاستمر في الترسيم حتى يكون من أمره ما يكون .

وفي يوم الثلاثاء سابعه عرض السلطان جماعة من المماليك القرائصة ، وغير منهم جماعة الى العقبه وجماعة الى الأزلم وجماعة الى الاسكندرية والى رتيد وجماعة الى دمياط يقيسون بها ، فعالب المماليك اختار دمياط ورشيد دون تلك المواضع وشرعوا يتشكون من ذلك فقال لهم السلطان : أنا ما شرطت عليكم كل من أخذ منكم الخمسين دينار النفقه بسافر الى العقبه والأزلم وغير ذلك من الأماكن وقتلوا نعم سافر الى أى مكان أرسلنا فيه السلطان ؟ فحصل في ذلك اليوم بين السلطان وبين المماليك بعض تشاجر ، وانقض المجلس مانعا ، وحنق السلطان من المماليك القرائصة في ذلك اليوم الى الغاية .

وفي يوم الخميس تاسعه خلع السلطان على الأمير قاصوه العادلي كاشف الشرفية على عادته .
وفي يوم الجمعة عاشره ، الموافق لتاسع عشر هاتور القبطي ، فيه لبس السلطان الصوف وقلع البياض ، وقد أخرج الصوف عن عادته أياما .
وفي يوم السبت حادى عشره قبض السلطان على المعلم خصر معامل اللحم ، وشككه في الحديد وهدبه ، وسجنه بالعرفانة حتى يغلق ما عليه من اللحوم المكسورة للعسكر . وفي ذلك اليوم ورد عبد العظيم الصيرفي مما قرر عليه بسبب الشخير المنكسر أفى دنار ، واستمر في الترسيم حتى يعلق ما بهى عليه وهو في الحديد .

وفي يوم السبت المذكور توفي الأمير بوروز أخو الأمير يتبك الدوادار أحد الأمراء المقدمين الألوفا وكان له مدة وهو منقطع في بيته عليل حتى مات في ذلك اليوم .

وفي يوم الخميس سادس عشره أنفق السلطان الجامكية على العسكر ، ووقع في ذلك اليوم بعض اضطراب . وسبب ذلك أن السلطان كان عين من المسالك القرائضة خمسين مملوكا يتوجهون الى مكة صحبة باش المجاورين على جارى العادة ، وكان قد عينهم في ربيع الأول وأخذوا في أسباب عمل يرقهم ، فلما كان يوم الخميس المقدم ذكره بدا للسلطان في ذلك اليوم بأن يبطل هؤلاء الخمسين مملوكا الذين كان عينهم صحبة باش المجاورين وعين غيرهم في ذلك اليوم وأبطل الذين كان عينهم قبل ذلك ، وكان قد بقى لخروج المحصل يومان ، فحصل الضرر الشامل للمماليك الذين بطلوا بعد أن باعوا خيولهم وفماشهم ، وأكروا لنسائهم على أنهم يقيمون في مكة سنة ، فتكدوا الى الغاية بسبب ذلك ، وحصل غاية الضرر للمماليك الذين تعينوا الى مكة في ذلك اليوم ، وقد بقى

وفي يوم الثلاثاء ثامن عشره وقعت فيه نادرة غريبة . وهي أن السلطان نزل الى الميدان وجلس به وأحصر بين يديه شحسا يهوديا يقال له بوسف شنشوا ، وكان أصله تاجرا من تجار الفريج ، وكان يعرف باللغة التركية ، ثم بقى معلما في دار الضرب فقيل انه تأخر عليه مال من بقايا المصادرات وحساب قديم ، وهو مبلغ اثنى عشر ألف دنار ، فتكاسل عن وزن ذلك ، فأرسله السلطان الى المقشرة فأقام بها أياما ولم يرد شيئا مما عليه من المال ، فأحضره السلطان بين يديه وأحضر له المعاصير وعصره في أكعابه في وسط الميدان بين يديه ، فلما تزايد به أمر الوجع من عصر أكعابه أسلم وقال : « أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمدا رسول الله ، برئت

وسلاريات سمور ووشق وغير ذلك أشياء كثيرة ،
ومن الأمراء وأعيان الناس ، وكان الناس يسألونه
في قضاء حوائجهم عند السلطان ، ورأى من العز
والعظمة بالديار المصرية ما لا رآه أحد قبله من
المقربين عند الملوك ، وكانت رياسة هذا العجى
من غلطات الزمان كما قيل :

ما طاب فرع أصله خبيث
ولا زكا من مجده حديث

ولم يصح موته .

وفي يوم الأربعاء سادس عشرينه حضر مبشر
الحاج وقد أبطأ عن ميعاده أياما . وسبب ذلك أن
العربان خرجوا عليه وعروه وأخذوا جميع ما معه
حتى الرحلة التي تحته وجميع كتب الحجاج ، فلم
يصل لأحد من الناس من حجاجه كتاب في هذه
السنة ، وقيل ان المبشر مشى على أقدامه يومين
وهو لابس بشت ، فلما سمع السلطان ذلك تنكد
والناس قاطبة لهذه الأخبار المهولة .

فلما حضر المبشر أشيع بين الناس وفاة القاضى
زين الدين النابلسى ، أخى الشرفى يونس النابلسى
الذى كان أستاذارا ، وكان القاضى زين الدين
مجاورا بمكة فمات هناك .

وفي هذا الشهر أشيع سفر السلطان الى جهة
الفيوم ليكشف عن الجسر الذى انهدم من الماء
وشرق غالب بلاد الفيوم ، فلما تسامعت الممالك
الجبليان بسفر السلطان الى الفيوم تنكدوا لذلك
وقالوا : « كيف يسافر السلطان في قوة الشتاء
وخيولنا في الربيع » . فشق عليهم ذلك وربما
أشاعوا وقوع فتنة كبيرة .

عن كل دين بخلافه دين الاسلام » . فكبر
الحاضرون من العسكر والناس أجمعين ، فلم
يلتفت السلطان الى اسلامه وأبقاه بالعمامة الصفراء
ورسم ليحىي ابن نكار دوا دار الوالى بأن يتسلمه
ويعاقبه ويستخلص منه المال جميعه ، وقال :
« المسلمون كثير والاسلام ما له حاجة بهذا ! » .
فشكه ابن نكار فى الحسد ونزل به ليعاقبه
ويستخلص منه المال فكان كما يقال : اذا تسلط
على اليهودى يسلم !

وفي هذا الشهر أشيع بين الناس أن العجى
الشنقجى الذى كان نديم السلطان يضحك عليه ،
وقد تقدم القول على أن السلطان كان أرسله فى
أواخر شهر رمضان الى نائب الشام والى نائب
حلب ، وعلى يده فيلان تقدمه من عند السلطان :
أحدهما الى نائب الشام والآخر الى نائب حلب ،
فأشيع بين الناس أن الشنقجى قد مات على غير
وجه مرضى ، وقد اختلف القول فى سبب موته
والى الآن لم يثبت عنه خبر صحيح فى كيفية موته
والأقوال فى ذلك كثيرة . وكان هذا العجى
مشعوذا مضحكا يلعب بالصحون النحاس على
جريدة فى الحلق ، فلما قربه السلطان وأحسن اليه
صار من جملة أعيان المملكة ، ويركب وقدمه
الساعى ويشق من القاهرة وتعظمه الأمراء وتقوم
اليه اذا دخل عليها ، وكذلك أرباب الدولة من
المباشرين وغيرها . وقيل انه لما دخل الى الشام
كان فى موكب حافل وزينت له مدينة دمشق لما شق
قيها الفيلان اللذان أرسلهما السلطان . ويقال ان
نائب الشام أنعم عليه بنحو ألف دينار وكذلك
نائب حلب ، وكسب من السلطان أموالا جزيلة

ففيهم من له عشرة أشهر مكسورة وفيهم من له ستة أشهر وأربعة أشهر مكسورة وأن يبطل هذا الظلم الزائد والمصادرات للناس وأن يمشى على طريقة الملوك السالفة ، وأن يعزل ابن موسى من الحسبة ويعزل الوزير يوسف البدرى من الوزارة ويعزل كرتباى الوالى ، فانه قتل من خشداشينا مملوكا وما بقى لنا حرمة بين العوام ، وذكروا أشياء كثيرة من هذا النمط .

وفى رواية أخرى أن المماليك قالوا : ويسلمنا علم الدين الحلبي وجمال الدين بواب الدهيشة ، فان جمال الدين كان متحدثا فى الخزائن الشريفة من بعد موت الأمير خاير بيك الخازندار ، فصار جمال الدين يعارض المماليك فيما رسم لهم به السلطان من انعام لهم . فلما طال المجلس على السلطان ، وأعيت الرسل المترددة بالرسائل بين السلطان وبين المماليك ، قام السلطان من الميدان وقد أدركته صلاة الجمعة ، فلما طلع أغلقت المماليك فى وجهه باب السبع حدرات ثم رجموه من الطباق ولم يمكنوه من الدخول الى الحوش ، وقيل جاءته رجمة فى تخفيفته وسبوه من الطباق سبا فاحشا بعبارة قبيحة .

فلما عاين السلطان ذلك خاف على نفسه من البهدة فرجع الى الميدان وخرج من باب الميدان الذى عند حوش العرب وخرج من بين الكيمان وتوجه الى الروضة وعدى الى المقياس وأقام به ذلك اليوم ، ثم نادى لأصحاب المراكب أن لا يعدى أحد من النواتية بأمر ولا مملوك الا بمشورة السلطان .

فلما قرب وقت صلاة الجمعة طلع جماعة من

وفى يوم الخميس سابع عشرينه حضر الى الأبواب الشريفة ابن على دولات الكبير ، وفد اجتمع اولاد على دولات وأخوه عبد الرزاق الكل بمصر . ولما حضر ابن على دولات حضر صحبته حاجب ثانى بحلب وهو شخص فقال له قانصوه ابن نفيس ، وكان نائب حلب أرسله الى ابن عثمان قاصدا بسبب القلاع التى أخذها من بلاد على دولات . فلما حضر قانصوه هذا من عند سليم شاه ابن عثمان أخبر عنه بأخبار غير صالحة بأنه قال : أنا ما أخذت هذه القلاع الا بالسيف وما أردتها الا بالسيف ، وأنه ماهو راجع عن التوجه الى حلب والشام وحدثته نفسه بأخذ مصر ، وهو فى عمل يرق عظيم وجهاز مراكب فى البحر ليجيء على اسكندرية ودمياط . فلما سمع السلطان ذلك تنكد واجتمع هو والأمراء فى ضرب مشورة بسبب ذلك . وأخبر هذا القاصد أنه أراد أن يعوقه عنده أو يقتله فما مكنه أمراؤه من ذلك ، وقالوا : القاصد ما يقتل .

وفى ذلك اليوم كان آخر تفرقة الجامكية ، فأشيع فى ذلك اليوم باقامة فتنة كبيرة من المماليك الجلبان . فلما كانت ليلة الجمعة أثار المماليك فتنة بالقلعة ورجموا من الطباق ، فلما طلع النهار يوم الجمعة نزل السلطان الى الميدان ، وجلس به وترددت الرسل بينه وبين المماليك ، وقد أرسل لهم جماعة من الأمراء والخاصكية فقالوا لهم : نحن ما نطلب منه نفقة ، وانما نطلب أن يبطل المجامعة والمشاهدة التى قررها على السوق فى الدكاكين وعلى سائر البضائع حتى ما نلتقى شيئا نأكله ، ويصرف هذه اللحوم المنكسرة للعسكر ،

وقد وقع مثل ذلك للملك الأشرف قايتباي لما طلب منحه المماليك نفقة عند حضورهم من تجريدة ابن عثمان ، فجمع الأمراء قاطبة والخليفة والقضاة الأربعة ، وأحضر القبة والطير وفرس النوبة وقال : « سلطنوا أمير كبير أزيك » ، وفكك أزرار ملوطته على أنه يدخل الى البحرة ، وقال للقضاة : « اشهدوا على أنى قد خلعت نفسى من السلطنة » . وقد تقدم ذلك فى أول التاريخ من أخباره ، فلما خلع نفسه من السلطنة أعاده الخليفة الى السلطنة ثانيًا ، وكان سبب ذلك المماليك أيضا .

ثم ان السلطان أرسل خلف أغوات الطباقي وهو فى المقياس ، فلما حضروا بين يديه صاروا يشكون له أن اقطاعهم لم يصل لهم منها شيء ، وأن الحماية يأخذونها من المقطعين معجلا قبل أوان النيل بمدة ، وأن لحوم العسكر مكسورة بالأشهر ، وأن جميع البضائع غالية بسبب المشاهدة والمجاعة التى قررت على السوق ، وأن كل شيء غال حتى الخام والبلبكي والتبن ما يوجد ، وصارت الجامكية ما فيها بركة كونها من مال المصادرات ، وأغلظوا عليه فى القول ، وقالوا له : « ليش ماتمشى على طريقه الملوك السالفة وتقل من هذا الظلم » . ثم قرروا معه بأن يصرف للعسكر اللحوم المكسورة وأن يبطل المشاهدة والمجاعة ، ويعزل المحتسب ويولى غيره ، ويعزل الوزير والوالى ويولى غيرها ، فقال السلطان : « نعم أفعل لكم ذلك جميعه » . وصاروا بشرطون عليه شروطا كثيرة من هذا النمط ، وهو يقول : نعم . وكان ألماس دوادار سكين هو الذى يتردد بالرسائل بين السلطان وبين المماليك .

الأمراء المتقدمين الى صلاة الجمعة فلما بلغهم توجه السلطان الى المقياس صلوا الجمعة بالقلعة ، ثم نزل ستة عشر أميرا متقدم ألف ، وتوجهوا الى السلطان فى المقياس لكنى يرضوا خاطره على مماليكه مما وقع من المماليك فى حقه ... فلما اجتمعوا بالسلطان قال لهم : « أنا ما بقيت أعمل سلطانا ، ولوا عليكم من تختارونه غبرى » . فبات تلك الليلة بالمقياس ، وبات عنده الأمراء المقدمون .

فلما كان وقت المغرب نزل من القلعة الجم الغفير من المماليك الجلبان ، وفصدوا أن ينهبوا بيوت الأمراء ، فسنعوا بعضهم بعضا من ذلك ، فنهبوا بعض دكاكين من الصليبة مثل الشمع والحلوى والخبز وغير ذلك . واستمر الحال على ذلك بطول الليل وهم يشوشون على الناس ، ويخطفون العمائم والشمود ، وحصل منهم فى تلك الليلة الضرر الشامل من أذى المماليك ، وكان السلطان لما توجه الى المقياس أخذ ولده معه خوفا عليه من المماليك أن ينكدوا عليه .

فلما كان يوم السبت تاسع عشرينه توجه الأمراء المقدمون قاطبة الى السلطان ، وكذلك الأمراء الطبلخانات والعشراوات من أرباب الوظائف ، فوقف الأتابكى سودون العجسى وبقية الأمراء المتقدمين وباسوا الأرض للسلطان على أنه يقوم ويطلع الى القلعة ويرضى عن مماليكه ، فشق السلطان ملوطته وبكى حتى أغمى عليه ، ورشوا على وجهه الماء وهو يقول : « ما بهى لى حاجة بسلطنة فأرسلونى أى مكان تختارونه وولو أمير كبير » . فخاف أمير كبير ، وصار يرعب من كلام السلطان وحصل له وهم .

فلما طاب خاطر المماليك على ذلك أحضر لهم السلطان مصحفاً شريفاً وحلف عليه أغوات الطباق من الحاصكية ، وكل واحد منهم على انفراده ، بأن يرجعوا بقية المماليك ، ويحمدوا هذه الفتنة وينوبوا تحت طاعة أستاذهم . فحلفوا على ذلك ودخلوا على السلطان ، وبأسوا له الأرض . وخدمت تلك الفتنة على خير ... ولولا لطف الله تعالى في اخماد هذه الفتنة عن قريب ، والا كان فصد المماليك الجلبان أن يذهبوا المدنسة وأسواق الصاس ويوب الأمرء وأعيان الناس ويفتلوا من الأمرء من أرادوا قتله ، ولو فعلوا ذلك لطلع من يدهم ، وكل مفعول جائز في هذه الأيام ، ولكن الله سلم والله الحمد على ذلك .

سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة (١٥١٦ م) :

كان مستهل المحرم يوم الاثنين . وكان يومئذ خليفة الوفت أمير المؤمنين المتوكل على الله محمد ابن أمير المؤمنين المستمسك بالله يعقوب عز شرفهما . وسلطان مصر يومئذ الملك الأشرف أبو النصر قانصوه الغورى عز نصره .

وأما السادة القضاة الأربعة : فالقاضي الشافعي كمال الدين الطويل ، والقاضي الحنفي قاضي القضاة حسام الدين محمود ابن قاضي القضاة سري الدين عبد البر بن الشحنة الحلبي ، والقاضي المالكي قاضي القضاة محيي الدين ابن قاضي القضاة برهان الدين الدميري ، والقاضي الحنبلي قاضي القضاة شهاب الدين الفتوحى أيد الله بهم الاسلام .

وأما الأمرء المقدمون فكانت عدتهم يومئذ ستة وعشرين أميراً مقدمي أوف ، منهم أرباب الوظائف ستة ، وهم : الأتابكي سودون العجمي

أمير كبير ، وكانت يومئذ امرية السلاح شاعرة ، والأمير أركماس طرباي أمير مجلس ، والمقر الناصري محمد بجل المقام الشريف أمير آحور كبير ، والأمير سودون الدوادر رأس نوبة النوب ، والأمير أنص باى بن مصطفى حاجب الحجاب ، والأمير طومان باى بن فنصوه ابن أخى السلطان أمير دوادر كبير ، وقد جمع بين الدوادارية الكبرى والاستادارية العالية وكاشف الكشاف .

وأما الأمرء المقدمون غير أرباب الوظائف ، فهم : الأمير بحسباى بن عبد الكريم نائب طرابلس كان ، والأمير قانصوه بن كسباى بن سلطان جركس المعروف بابن اللوقا ، والأمير تمر الحسنى المعروف بالزردكاش ، والأمير قانصوه أبو سنة الوالى كان السيفى بتسبك ، وفيل ان السلطان عين له تقدمة الأمير حسين نائب جدة وتوجهت اليه البشائر بها من قبل ، والأمير طقطباى العلائى نائب القلعة ، والأمير قانصوه كرت بن تمر باى ، والأمير جان بلاط المحمدى المعروف بالموتر ، والأمير تانى بك النجمى ، والأمير أزمك الشريفى الناشف ، والأمير تانم بك بن يتسبك المعروف بالحازندار ، والأمير قانصوه يشبك المعروف برجلة نائب قطيا ، والأمير خاير بك السيفى اينال ، والأمير قانصوه الفاجر ، والأمير أزبك بن طرباي المعروف بالملكحل ، والأمير بيبرس ابن عبد الكريم ، والأمير أبرك الأشرفى ، والأمير علان بن قراجا وقد جمع بين التقدمة والدوادارية الثانية ، والأمير خدابردى الأشرفى نائب الاسكندرية ، والأمير آقباى بن قانصوه وقد جمع بين الأمير آخورية الثانية والتقدمة ، والأمير خاير بك العلائى المعروف بالمعمار .

القادر وأخوه أبو بكر أولاد الملكى مستوفيا ديوان الجيوش الشريف ، والمقر العلائى على بن الامام ناظر الخاص الشريف وناظر الأوقاف ، وكانت الوزارة يومئذ شاغرة من حين عزل عنها يوسف البدرى ، فكان حينئذ القاضى شرف الدين الصغير ناظر الدولة ، ومتكلما فى ديوان الوزارة ، وقد جمع بين نظارة الدولة وكتابة الممالك ، وكانت وظيفة الاستدارية يومئذ بيد الأمير طومان باى الدوادر ، والقاضى أبو البقاء ناظر الاصلطيل الشريف ومستوفى ديوان الخاص ، والقاضى عبد الباسط تقي الدين ناظر الزردخانه ، والقاضى عبد الكريم بن الأدمى مستوفى الزردخانه ، والقاضى زين الدين بركات ابن موسى ناظر الحسبة الشريفة وغير ذلك من الوظائف ، والأمير شرف الدين يونس النابلسى استادار العالية كان ، وناظر الأحباس بدر الدين العيسى ، وتقيب الأشراف السيد الشريف أفضل الدين محمد والآن صار متحدثا فى استيفاء ديوان الجيش الشامى ، والقاضى كريم الدين أخو القاضى شرف الدين أحمد بن الجيعان ، والشمسى محمد ابن القاضى صلاح الدين بن الجيعان متحدثا فى الخزانة الشريفة ، والشمسى محمد بن ابراهيم الشرايىشى متحدثا فى وظيفة الزمامية ، والنلائى على البرماوى متحدثا فى جهات الديوان المفرد وبرددارية السلطان ، وعبد العظيم الصيرفى متحدثا فى الشؤون السلطانية وأمر العليق ، وغير ذلك من المباشرين وأعيان الدولة .

وأما الأعيان من الخدام الطواشية ، فان وظيفة الزمامية لها مدة وهى شاغرة من حين توفى الأمير

وأما نواب البلاد الشامية والحلبية : فالمقر السيفى سيباى بن بخت خجا ، والمقر السيفى خاير بك بن بلباى نائب حلب ، وتمراز الأشرقى نائب طرابلس ، وجان بردى الفزالى نائب حماه ، ويوسف الذى كان نائب القدس ، وانتقل الى نيابة صنف ، ونائب غزة دولات باى وقد أضيف اليه نيابة القدس والكرك مع نيابة غزة .

وأما الأمراء الطبلخانات من أرباب الوظائف : فالأمير يوسف الناصرى الذى كان نائب حماه شاد الشرابخانة الشريفة ، والأمير مغلباى الشريفى الزردكاش الكبير ، والأمير نوروز تاجر الممالك ، والأمير قانصوه بن دولات بردى استادار الصحبة ، والأمير قانى بك بن بخشباى رأس نوبة ثانى ، والأمير طومان باى قرا حاجب ثانى ، والأمير كرتباى الأشرقى والى الشرطة ، والأمير أزدمر المهمندار ، والشريفى يونس تقيب الجيوش المنصورة ، والأمير بخشباى قرا شاد الشون ، والأمير يونس الترجمان ، ومعلم المعلمين البدرى حسن بن الطولونى ولكن الوظيفة بيد ولده أحمد من حين كف بصره وانقطع .

وأما الأمراء الرءوس نوب فكثيرون لم نوردهم هنا خشية الاطالة .

وأما أرباب الوظائف من أعيان المباشرين المتعممين : فالمقر القاضوى المحبى محمود بن أجا الحلبى كاتب السر الشريف ناظر ديوان الانشاء أعزه الله ، ونائبه المقر الشهابى أحمد بن الجيعان ، والمقر القاضوى محبى الدين عبد القادر الشهير بالقصروى ناظر الجيش الشريف ، والزينى عبد

الأمرء بينه وبين مماليكه بالصلح على أن يعزل الوزير يوسف البدرى من الوزارة والأمير كرتباى من الولاية والزينى بركات بن موسى من الحسبة ويبطل المشاهرة والجامعة التى قررت على السوقه أرباب البضائع ، وقد تقدم القول بما كان سبب ذلك .

فلما أن طلع السلطان الى القلعة وبات بها أصبح فأمر بأن ينادى فى القاهرة بما تقدم ذكره ، ولم يفعل شيئا مما وقع عليه الاتفاق مع المماليك الجلبان ، فشقت عليهم هذه المناداة وأشيع بأثارة هذه الفتنة ثانيا وكثر القال والقييل بين الناس ، وكانت الناس استبشرت بإبطال المشاهرة والجامعة فلما نودى بأن كل شىء على حكمه نزل على الناس جمرة بسبب ذلك .

وفى يوم الثلاثاء ثانى الشهر جلس السلطان فى الحوش وعرض آغاوات الطباق ، فلما وقفوا بين يديه وبخهم بالكلام وقال : « لا تسمعوا للمماليك القرانصة كلاما لأنهم يرمون بينى وبينكم ، ولا تشتموا العدو فىنا ، وابن عثمان متحرك علينا ، ولا بد من خروج تجريدة له عن قريب ، فحصلوا معكم ذهباً ينفعكم اذا سافرتم ، والذى هو منكم متزوج يطلق زوجته حتى لا ييفى وراءكم التفاتة اذا سافرتم فى التجريدة » . فلما سمعوا ذلك شق عليهم وقصدوا أن يثيروا فتنة فى ذلك اليوم وتزايد الاضطراب ولهج الناس بوقوع فتنة عظيمة . وقد توعد المماليك بركات بن موسى المحتسب بالقتل لأنه لما نزل فى ذلك اليوم ونادى بأن كل شىء على حكمه ، وتخلقت جماعته بالزعمران فى عمائمهم ،

عبد اللطيف الزمام ، والآن الأمير بشير بن مصطفى رأس نوبة السقاة ، والأمير مرهف بن قانصوه ساقى خوند ، والأمير سنبل العثمانى مقدم المماليك ونائبه جوهر الرومى ، والأمير سرور الحسنى شاد الحوش الشريف ، وغير ذلك من أعيان الخدام .

وفى هذه السنة تكاملت خاصكية السلطان نحو ألف ومائتى خاصكى من مشترباته ، فقرر منهم جماعة أرباب وظائف ما بين دوادارية سكين وسلحدارية وزردكاشية وأمراء آخورية وسقاة وغير ذلك من الوظائف . وقد تكامل فى هذه السنة من الأمراء الطبليخانات والعشراوات فوق الثلثمائة أمير وقد كثر العسكر وقت الرزق

ولما كان مستهل الشهر يوم الاثنين جلس السلطان فى الميدان وطلع اليه الخلفة والقضاة الأربعة فهنوا السلطان بالعام الجديد ورجعوا الى دورهم .

ثم فى ذلك اليوم نزل الزينى بركات بن موسى المحتسب وصحبته الأمير كرتباى والى القاهرة وأشهروا المناداة فى القاهرة بالأمان والاطمئنان والبيع والشراء وأن لا أحد من الناس يكثر الكلام وأن كل شىء على حكمه يعنى فى أمر المشاهرة والجامعة التى قررت على الحسبة ، وأن لا أحد من الناس يخرج من بعد العشاء بسلاح ولا يتزيا يزى ولا يغطى وجهه فى الأسواق ، ومن فعل ذلك شنى من غير معاودة ، وأن لا أحد من الناس يحتمى على المحتسب . وقد تقدم القول بأن المماليك الجلبان أثاروا فتنة كبيرة حتى حنق منهم السلطان ، وتوجه الى المقياس وأقام به ثلاثة أيام ، فشنت

انقلب . وكان السلطان قبل وقوع فتنة المماليك المتقدم ذكرها قصد أن يسافر الى الفيوم بنفسه ويكشف عن أمر هذا الجسر . فما تم له ذلك فرسم الى الأمير الدوادار بأن يتوجه الى هناك ويكشف عن أمر هذا الجسر .

وفيه نادى السلطان للعسكر بأن يطلعوا الى القلعة بسبب اللحوم المنكسرة فطلع الجهم العفير من العسكر الذين معهم وصول باللحم المنكسر ، وقد تجمد للعسكر من اللحوم المكسورة في ديوان الوزارة فوق أربعين ألف دينار ، فنقل أمر هذا على السلطان .

وفيه نادى السلطان بأن الوزير يوسف البدرى يظهر وعليه أمان الله تعالى ، وكان محتفيا من حين توعدته المماليك الجلبان بالقتل . فظهر في يوم الثلاثاء تاسعه ، فلما قابل السلطان خلع عليه كاملية بسمور ونزل الى داره .

وفي يوم السبت ثالث عشره رسم السلطان بتوسيط خمسة أنفار من المنسر الذى شاع أمره في القاهرة وقد قبض عليهم شيخ العرب بن أبى الشوارب ، فرسم السلطان بتوسيطهم في ذلك اليوم وكان فيهم شخص يسمى أبو عزرائيل وهو كبيرهم فوسطهم أجمعين .

وفي هذا الشهر أو الذى قبله كانت وفاة الشيخ العارف بالله تعالى الولي المعتقد سيدى محمد بن عثمان رحمة الله عليه ، وكان من أعيان المشايخ الصوفية وله شهرة بالصلاح والاعتقاد بين الناس .

وفي يوم الاثنين خامس عشره حضر الى الأبواب الشريفة الأمير قانصوه جانية وكان قد توجه الى طرابلس بسبب المشاة من العربان الذين يخرجون أمام العسكر في التجريدة فأحضر الأموال صحبته ودخلت الى الخزائن الشريفة .

وشق في القاهرة ، تنكد المماليك الجلبان لذلك ، وقالوا . « لم يطلع بأيدينا من الاتفاق شيء ، وخلق جماعته بالزعفران جكاره فبنا ... والله ما نرجع حتى نقتله ! » . وقد تقدم القول بأن المماليك قالوا للسلطان : « سنم لنا ابن موسى المحتسب نقتله » ... بسبب غلو البضائع من كل شى في الأسواق .

وفي يوم الأحد سابعه توفى الشرفى يحيى بن القاضى صلاح الدين بن الجيعان ، وكان شابا حسن الشكل ضخم الجسد ، ومات وله من العمر نحو عشرين سنة ، وكانت جنازته حافلة .

وفي أثناء ذلك اليوم ركب الزينى بركات بن موسى المحتسب وشق القاهرة وقبض على جماعة من السوقة أرباب البضائع وضربهم ضربا مبرحا وأشهرهم في القاهرة ، وأشهر المناداة في ذلك اليوم وسعر اللحم والدقيق والخبز والأجبان وسائر البضائع ، وكل ذلك خوفا من المماليك الجلبان .

وفيه حضر الى الأبواب الشريفة قاصد من عند سوارشاه الذى تعصب له ابن عثمان عوضا عن دولات ، فأحضر صحبته مقدمة فشروية للسلطان وجودها وعدمها سواء ، وهى خمسة عشر جملا بخاتى وثمانى أكاديش وستة بغال من غير زيادة على ذلك ، وأرسل يترفق للسلطان في مطالعته فاستشار السلطان الأمراء بأن يقبل منه تلك التقدمة أم يردها عليه ، فأقامت الأمراء عند السلطان الى قرب الظهر ولم يعلم أحد ما وقع عليه الاتفاق في ذلك اليوم .

وفيه خرج الأمير طومان باى الدوادار وصحبته الأمير أرزمك الناشف أحد الأمراء المقدمين فتوجهوا الى جهة الفيوم ليكشفوا عن الجسر الذى هناك . وقد قيل انه لما كان النيل عاليا في هذه السنة

وفي يوم الثلاثاء سادس عشره ابتداء السلطان بتفرقة اللحوم التي كانت مكسورة للعسكر فصار يستدعيهم واحدا بعد واحد مثل تفرقة الجامكية ، وكان فيهم من له عشرة أشهر مكسورة وفيهم من له أربعة .

وفي يوم الخميس ثامن عشره كان دخول الأمير قايتباي أحد الأمراء الطبلخانات — وهو قريب زوجة الأتابكي قائم التاجر — على ابنة الأمير طقطباي نائب القلعة أحد المقدمين فكان هذا العرس من الأعراس الحافلة ، قيل اجتمع فيه من المغنبات خمس وعشرون رئيسة ، ومدوا فيه أسطه حافلة من الأطعمة الفاخرة وصنعوا شموعا مزهرة بين وشامات وكان من المهمات المشهورة . وفي يوم الاثنين ثاني عشره دخل أمير ركب الحاج الأول وهو المقر العلائي على ابن الملك المؤيد أحمد ، فخلع عليه السلطان ونزل إلى داره في موكب حافل .

وفي يوم الثلاثاء ثالث عشره دخل الأمير علان أمير حاج ودخل صحبته المحمل الشريف ، وكان يوما مشهودا . فطلع الأمير علان إلى القلعة وخلع عليه السلطان خلة سنية ، ونزل إلى داره في موكب حافل . وقد أثنى عليه الحجاج خيرا كثيرا بما فعله في طريق الحجاز من وجوه البر والصدقات ، وقد حصل في هذه السنة للحجاج مشقة عظيمة في مغارة شعيب بسبب السيل الذي نزل عليهم هناك . وهلك من الحجاج في هذه السنة جماعة كثيرة وكان معهم الغلاء موجودا . وكان العربان طافشة في درب الحجاز ولا سيما ما وقع للمبشر في هذه السنة وقد تقدم القول بأن العربان عروه وأخذوا كل ما معه حتى كتب الحجاج ، فلم يصل لأحد من حاجه في هذه السنة كتاب ولا علم بهم خبر .

ولما حضر الأمير علان أشيع أنه قبض في مكة على شخص يقال له المعلم أحمد الشامي وكان أصله من عتالين الزردخانا فوجد معه مالا يتجر فيه في مكة ، فلما بلغ أمره الأمير علان قبض عليه ، وكان له رفيق فهرب من هناك فلما دخل أحمد الشامي هذا إلى القاهرة أسفرت القضية عن كونه سرق العملة الضائعة التي كانت بالقلعة ، وسرقت من مال السلطان وهي اثنا عشر ألف دينار وقد تقدم الكلام على ذلك ، وأن السلطان غرمها للمعلم يعقوب اليهودي معلم دار الضرب ، فلما حضر أحمد الشامي بين يدي السلطان اعترف بذلك فسلمه السلطان للوالي يعاقبه حتى يستخلص منه المال الذي أخذه . ثم إن أحمد الشامي أقر على شخص كان معه لما أخذ المال وهو كان بالقاهرة مقيما ، فلما أقر عليه خاف على نفسه من العقاب فأرسل للسلطان أربعة آلاف دينار ، وقال هذا هو القدر الذي نابني من المال ولم يخصني شيء غير ذلك . فلم يكتف منه السلطان بذلك ورسم عليه وشكه في الحديد حتى يحضر بقية المال . وكان هذا الشخص من معلمى دار الضرب أيضا ، وقد ظهر هذا المال الذي سرق من دار الضرب بعد مدة طويلة فعد ذلك من جملة سعد السلطان .

وفي يوم الخميس خامس عشره حضر قاصد من عند ملك الحبشة وكانت قصاد ملوك الحبشة لهم مدة طويلة لم يدخل منهم أحد إلى مصر ، وقد دخل قاصد من عند ملك الحبشة في دولة الملك الأشرف قايتباي وذلك في سنة ثمانين وثمانمائة . ومن بعد ذلك لم يدخل قاصد من عند ملوك الحبشة سوى هذا القاصد لأن بلادهم بعيدة وما لهم شغل في مصر . فلما حضر هذا القاصد عمل له السلطان موكبا بالحوش من غير شاش ولا

قماش ، كما تقدم للأشرف قايتباى . فجلس السلطان على المصطبة التى أنشأها بالحوش ونصب على رأسه السحابة الزركش واصطفت الأمراء عن يمينه وشماله كل واحد منهم فى منزلته ، ثم طلع القاصد من الصليبة وصحبته الأمير أزدمر المهندار وجماعة من الرءوس النوب ومن المماليك السلطانية وغير ذلك . وكان القاصد معه من أعيان أمراء الحبشة نحو خمسة أنفار ، والبقية كلهم ليسوا من الأعيان ، وفيهم من هو عريان مكشوف الرأس وعلى رأسه شوشة شعر ، وفيهم من فى أذنه حلق ذهب قدر القرصة وفى أيديهم أساور ذهب .

وأما القاصد الكبير فذكروا أنه كان ابن أمير كبير الحبشة وقيل ان أباه هو الذى حضر فى دولة الملك الأشرف قايتباى وكان على رأسه خوذة مخمل أحمر وفيها صفائح ذهب وفيها بعض فصوص ، وعلى رأس الخوذة درة كبيرة مثنى وعليه شايات حرير ملون ، وعلى بقية أمراء الحبشة شايات حرير ملون وعلى رءوسهم شدود حرير . وذكروا أن فيهم شخصا شريفا ... وكان مجموع هؤلاء الحبشة الذين حضروا الى مصر نحو ستمائة انسان وأوساطهم مشدودة بحوائص كهيئة الدنانير . وكان معهم لما شقوا من الصليبة طبلان على جمل يضربون عليهما وكان صحبتهم البترك وعليه برنس حرير أزرق . وكانت أعيانهم راكبة على خيول والبقية مشاة ، فطلعوا القلعة من سلم المدرج والبترك ماش قدامهم . فلما وصلوا الى باب الحوش كان صحبتهم كراسى حديد عالية وقصدوا أن يجلسوا عليها بحضرة السلطان فلم تمكنهم رؤوس النوب من ذلك ، ووقع فى أيام الملك الأشرف قايتباى مثل ذلك وطلعوا معهم

بكراسى فما مكنوهم من الجلوس عليها بحضرة السلطان . فلما وصل هذا القاصد الى الحوش قبل الأرض ، فلما وصل الى أوائل البساط قبل الأرض هو ومن معه من أعيان الحبشة ولم يدخل معه قدام السلطان غير سبعة أنفس والبقية لم يدخلوا ، فلما قربوا من السلطان قبلوا الأرض بين يديه ثالث مرة ، ثم قدموا كتاب ملك الحبشة ، قيل انه فى ضمن غلاف من الفضة وقيل من الذهب ، فلما قرىء على السلطان وجد فيه ألفاظا حسنة ونعتا عظيما للسلطان ، وأن قصادنا أتوا الى مصر ليزوروا القيامة التى بالقدس ، فلا تمنعوهم من ذلك . فاستمروا على أقدامهم واقفين نحو خمس درج حتى قرأوا كتابهم ثم انصرفوا ونزلوا من القلعة ، فرسم لهم السلطان أن يقيموا فى ميدان المهارة الذى بالقرب من قناطر السباع الى أن يسافروا ، وأرسل لهم خياما ضربت لهم من داخل الميدان ووكل بباب الميدان جماعة من المماليك يمنعون من يدخل اليهم من العوام .

فلما نزلوا من القلعة نزل معهم الوالى والمهندار وجماعة من رءوس النوب فوصلوهم الى الميدان خوفا عليهم من العوام أن يرحموهم ، فكان لهم يوم مشهود . فان قصاد ملوك الحبشة لا يدخلون الى مصر الا قليلا لأن بلادهم بعيدة ، حتى قيل ان هذا القاصد له تسعة أشهر وهو مسافر حتى دخل الى مصر . ثم ان القاصد أرسل الى السلطان تقدمة لم تكن كبيرة أمر ، قيل قومت بنحو خمسة آلاف دينار أو دون ذلك ، فلما عاينها السلطان وبخ الذى طلع بها وأحضر له قوائم هدايا ملوك الحبشة الى الملوك السانفة مثل الأشرف برسباى والظاهر جقمق والأشرف قايتباى وغير ذلك من الملوك ، وأحضر له عدة توارىخ

يذكر فيها هدايا ملوك الحبشة الى ملوك مصر فقرئت عليه ، ولكن ضعف أمر ملوك الحبشة بالنسبة الى ما كانوا عليه من قديم الزمان حتى نقل بعض المؤرخين أنه كان لملوك الحبشة على نواحي النيل ستون مملكة لا ينازع بعضها بعضا فيما بأيديهم من الأراضى التى هناك ، والآن قد ضعف أمرهم بالنسبة الى ما كانوا عليه من قبل ذلك . وقد أرسل بعض ملوك الحبشة تقديما للملك الناصر محمد بن قلاوون فى سنة اثنتى عشرة وسبعمائة ، فقومت بمائة ألف دينار أو أكثر من ذلك حتى عدت من النوادر . ثم ان قاصد الحبشة أقام فى الميدان ثلاثة أيام وسافر هو ومن معه الى القدس ليزوروا القيامة .

وفيه حضر الأمير طومان باى الدوادار وقد تقدم القول على أنه سافر الى جهة الفيوم هو والأمير أرمزمك الناشف ليكشفنا على الجسر الذى هناك وقد انقلب من الماء . وكان السلطان قصد أن يتوجه الى هناك بنفسه فما تم له ذلك كما تقدم ذكره ، فلما توجه الأمير الدوادار الى هناك قررا على عمارة هذا الجسر نحو ثلاثين ألف دينار ، فلما رجعا أخبر السلطان بذلك .

وفيه خلع السلطان على شخص يقال له شمس الدين السكندرى وقرره اماما عوضا عن الشيخ محب الدين الشاذلى الامام بحكم وفاته ، قيل ان شمس الدين السكندرى سعى فى هذه الوظيفة بألف ومائتى دينار حتى قرر بها .

وفيه احتمل السلطان تفرقة ثمن اللحوم التى كانت منكسرة للعسكر ، وقيل ان السلطان أخرج من الخزائن الشريفة خمسة عشر ألف دينار وسلمها للقاضى شرف الدين الصغير ناظر الدولة ليشتري بها أغناما لأجل تفرقة لحوم المماليك ، وقال ما بقيت

أكسر للعسكر لحوما بعد هذا اليوم ، وقد ثقل عليه ما صرفه للعسكر بسبب اللحوم التى كانت منكسرة لهم ، حتى قيل انه صرف فى حركة تفرقة اللحوم فوق الأربعين ألف دينار . واستمرت الوزارة شاغرة من حين عزل عنها يوسف البدرى . وفيه نادى السلطان للعسكر بأن كل من كان له فرس أو أكثر فى الديوان يطلع يقبض ثمنه . ومن حين تحقق السلطان أن ابن عثمان زاحف على البلاد السلطانية وهو يأخذ بحواطر المماليك القرانصة ويرضيهم بكل ما يمكن ، وصرف لهم اللحوم التى كانت منكسرة وأعطاهم ثمن الخيول التى كانت لهم فى الديوان .

وفيه أخرج السلطان جانبا من مماليكه الغورية وفرق عليهم فى ذلك اليوم زرديات وسيوفات وراكيش وقسيا ونشابا ، وكانوا نحو ثلثمائة مملوك .

وفيه توفى الأمير قن بك بن تريك أحد الأمراء الطبلخانات ، وهو ابن عم الأتابكى أذربك ، وكان قد شاخ وكبر سنه وعجز عن الحركة .

وفيه أرسل السلطان الى عبد الرزاق أخى دولات والى أولاد على دولات الكبار والصغار ثمانية آلاف دينار فقسمت بينهم ، وأرسل يقول لهم : « اعملوا بهذه النفقات برفقكم واخرجوا سافروا قبل خروج التجريدة واجمعوا عساكركم من التركمان الى أن أحضر أنا والعسكر » .

وفيه أرسل السلطان مكاحل حديد ومدافع وصوانا الى ثغر الاسكندرية وسافرت فى المراكب الى هناك فكانت نحو مائتى مكحلة ، وقد بلغه أن ابن عثمان جهز عدة مراكب تجيء على السواحل للديار المصرية .

وفيه نادى السلطان فى القاهرة بأن أصحاب الدكاكين والأملاك يقطعون الأراضى من الأسواق

وفى يوم الاثنين تاسع عشره أكمل السلطان تفرقة تمن الحيول التى كانت للعسكر فى الديوان وأكمل تفرقة اللحم التى كانت مكسورة للعسكر وعوق بعض اللحم التى كانت منكسرة لجماعة من المباشرين الزردخانية .

وفى ذلك اليوم طرقت السلطان أخبار رديئة بسبب ابن عثمان فتنكد لذلك وخلا هو والأمراء . يصربون مشورة بينهم فى أمر ابن عثمان .

وفى يوم الثلاثاء سلخ هذا الشهر ، أشهر السلطان المناداة فى القاهرة للعسكر بالعرض يوم الخميس ، وألا يتأخر عن العرض احد من كبير ولا صغير فاضطربت لذلك أحوال العساكر قاطبة .

وفى صفر وكان مستهله يوم الأربعاء طلع الخليفة والقضاة الأربعة للتهنئة بالشهر ، فقال السلطان للخليفة لما جلس عنده : « اعمل بركك الى السفر وكن على يقظة فأنا مسافر الى حلب بسبب ابن عثمان » . وقال للقضاة الأربعة مثل ما قال للخليفة : « اعملوا يركم وكونوا على يقظة حتى تخرجوا صحبتى » ... فقالوا : « الأمر لمولانا » . وفى ذلك اليوم خلع السلطان على شخص من القراء يقال له شهاب الدين بن الرومى وقرره اماما عوضا عن عبد الرازق بحكم وفاته ، وقيل انه سعى فى ذلك بألف دينار حتى قرر بها .

وفى يوم الخميس ثانياه جلس السلطان بالميدان وعرض العسكر من كبير وصغير وكتب الجميع ، فعرض فى ذلك اليوم أربع طباق ولم يعف من العسكر أحدا .

وفى ذلك اليوم كانت وفاة الأمير خاير بك ابن اينال أحد الأمراء المقدمين ويعرف بكاشف الغربية وأصله من مماليك الأمير اينال الأشقر أمير

والشوارع فامتثلوا ذلك وشرعوا فى العمل ، لكن حصل للناس مشقة زائدة فى الصرف على ذلك لجماعة الوالى والترابة فى شيل التراب ، وقد وقع له مثل ذلك فى أوائل سلطنته فى سنة تسع وتسعمائة وقطع الطرقات قاطبة وادعى أن الأراضى قد علت ، وقد تقدم لى أنى قلت فى ذلك :

فى دولة الغورى رأينا العجب

وقد حملنا فوق ما لا نطبق

وقد كفى فى عامنا ما جرى

من قلة الأمن وقطع الطريق

وفى يوم الخميس خامس عشره أظهر السلطان العدل وأشهر المناداة عن لسان السلطان فى سواحل مصر العتيقة وبولاق بأن المكوس التى كانت تؤخذ على الغلال بطلت ، وكانت مظلمة عظيمة من البدع المنكرة ، وهى أنه كان يؤخذ على كل أردب قمح أو شعير أو فول يباع أو يشتري نصف فضة . وكان الأشرف قايتباى أبطل ذلك فلما تسلطن ابنه الملك الناصر أعاد هذه المظلمة . فلما تسلطن الأشرف قانصوه الغورى تزايد الأمر حتى صار يؤخذ على كل أردب ثلاثة أنصاف من البائع والمشتري ، وصار يسمى الموجب ، ثم انتقلوا من الغلال الى أن جعلوا على البطيخ مكسا أيضا . فاستمر ذلك مدة طويلة الى أن ألهم الله تعالى السلطان ابطال ذلك جميعه .

وفى يوم السبت سابع عشره كان دخول الأمير ألباس أحد الأمراء العشاوات على ابنة الأمير قانى باى قرا أمير آخور كبير كان ، فكان ذلك المههم من المهمات المشهورة ، وحضر فى هذه الوليمة الأتابكى سودون العجمى والمقر الناصرى محمد نجل المقام الشريف وسائر الأمراء من كبير وصغير وكان يوما مشهودا .

سلاح كان ، وقد ساعدته الأقدار حتى صار باش
العسكر ثم بقى كاشف الغربية ثم أنعم عليه السلطان
بتقدمة ألف ، وسافر الى الحجاز باش العسكر في
التجريدة التي خرجت بسبب الجزائى واتصر على
العربان من قبيلة بنى ابراهيم فجزرءوسهم وأرسلها
الى القاهرة ، وكان مسعود الحركات . فلما مات
نزل السلطان وصلى عليه وكانت جنازته مشهودة ،
وكان في سعة من المال فخلف من الموجود ما لا
يحصى .

وفي يوم السبت رابعه عرض السلطان ممالك
الأمير خاير بك المتوفى ، وأخذ منهم ما اختاره
وأرسلهم الى الطباقي ، ثم أرسل رسم على دوادار
خاير بك وعلى مباشره وشكهم في الحديد . وكان
الأمير خاير بك قد كتب وصية وبراً جماعته فلم
يلتفت السلطان الى وصيته .

وفي أثناء هذا الشهر كانت وفاة الشيخ نور
الدين على المحلى رحمه الله وكان يعزف بقريبة ،
وكان من أعيان علماء الشافعية وله شهرة زائدة بين
الناس .

ومن الحوادث في هذا اليوم ما وقع لعلم الدين
چلبى السلطان ، وهو أنه كان ساكنا في الحسينية
وكان السلطان رسم للوالى بأن يباشر قطع أراضي
الأسواق بنفسه ، فلما انتهوا في القطع الى الحسينية
جاء ممالك الوالى الى الحسينية ، وأخذوا حميرا
من حمام الجالين ليشيلوا عليها التراب الذى
قطعوه ، فمنعهم من ذلك جماعة علم الدين
وتخاصموا مع ممالك الوالى ، فجاء عبد علم
الدين وقال لأستاذه على ذلك ، وكان علم الدين في
الحمام فقال علم الدين : « اضربوا ممالك الوالى
وامنعوهم » . ففتكوا بهم وضربوهم ضربا مبرحا
حتى شجوا بعضهم وكسروا أيدي بعضهم ، فلما

سمع الوالى بذلك ركب وأتى الى علم الدين ،
فأغلظ عليه علم الدين في القول وربما سفه على
الوالى ، فقبض الوالى على عبد علم الدين الذى
ضرب ممالك الوالى فوضعه في الحديد ، ثم طلع
الوالى الى السلطان وأحضر ممالكه الذين ضربوا
بين يدي السلطان ، فلما عين السلطان ذلك شق
عليه ما فعل علم الدين في حق الوالى . ثم طلع
علم الدين الى السلطان وظن أن السلطان يقوم في
نصره ، فلما عين السلطان علم الدين رسم لتقيب
الجيش بأن يقبض على علم الدين ويمضى به الى
الوالى ليوسطه ، وصمم السلطان على ذلك . فقبض
تقيب الجيش على علم الدين وقلع سلاحيه وفك
أزرار ملوطته وأركبه على بغلة ، ومضى به الى
الوالى ليوسطه ، فاستدرك الوالى فرصة في هذه
الواقعة وركب في أثناء ذلك اليوم وأتى الى الأمير
الكبير سودون العجمى ، وترامى عليه بسبب علم
الدين بأن يطلع يشفع فيه عند السلطان من
التوسيط ، فطلع أمير كبير فشنع فيه فقبلت
شفاعته ، ثم أن الوالى ألبس علم الدين كاملية
صوف بسمور وطلع علم الدين الى السلطان ليوس
الأرض ، فنتر فيه السلطان لما رآه وقال له :
« الزم بيتك ولا ترنى وجهك أبدا » . فقيل ان علم
الدين خدم السلطان بمال له صورة حتى رضى عليه
وخدم الوالى أيضا بمال لكنه استمر ممنوعا من
الطلوع الى القلعة من بعد ذلك ، وقد تزايد هذا
الأمر الفشروى حتى خرج عن الحد . وكان علم
الدين لما قرره السلطان طاش ، وكان في خدمة
السلطان من مبدأ أمره حين كان أمير عشرة . وكان
علم الدين عنده بجمقدار وهو صبى أمرد ، فلما
تسلطن السلطان صار علم الدين عنده من المقرين

لأنه في عصره بين الملوك نادره
 فيالها من سنة خيراتها مبادره
 فكهم له في الخير من أفعال بر ظاهرة
 يا رب فاجعل يده لكل باع فاهره
 وكانت هذه المشاهرة من أكبر أسباب الفساد
 في حق المسلمين ، فان الوسائط السوء حسوا
 للسلطان عبارة بأن يجعل على السوق في كل شهر
 مالا يوردونه للمحتسب فتزايد الأمر الى أن صار
 مقررا على السوفه في كل شهر فوق ألفى دينار من
 هذه الجهة وغيرها! من الجهات المتكلم عليها الزينى
 بركات بن موسى ، وكان جماعة من الأمراء الذين
 بغير أقاطيع محتالة في كل شهر على الزينى بركات
 ابن موسى بما يتحصل من المشاهرة والمجامعة ،
 فكانت السوق تجور في أسعار البضائع ولا يجسر
 أحد من الناس يكلمهم فيقولون علينا مال للسلطان
 نورده في كل شهر ، فاستمر ذلك من أول دولة
 السلطان الى أن ألهمه الله تعالى ابطالها .

وفيه وجد مملوك من ممالك السلطان مقتولا
 بباب الوزير وكان ذلك المملوك من جلبانه وكان
 مصارعا ولا يعلم من قتله فتتكدت الممالك بسبب
 ذلك .

وفي يوم الثلاثاء سابعه عرض السلطان الأمراء
 المقدمين والأمراء الطبلخانات والعشراوات وكان
 قد دار عليهم تقيب الجيش من قبل وأعلمهم أن
 العرض يوم الثلاثاء فطلعوا جميعا ، فقبل عين في
 ذلك اليوم من الأمراء المقدمين ستة عشر أميرا وأما
 الأمراء الطبلخانات والعشراوات فلم يعف منهم
 الا القليل وقال لهم : « الذى له عذر يعوقه عن
 السفر يذكره لى » ... فأعفى منهم جماعة .

وفي يوم الخميس تاسعه أكمل السلطان عرض
 العسكر قاطبة وام يعف منهم أحدا .

وصار يلبس سألرى بكم قصير مثل الأمراء
 العشراوات ويشق القاهرة والركبدار يمشى في
 جانبه يفسح له الطريق وخلفه بجمقدار وعلى
 كنفه فوطه حرير وهو راكب على بغلة عالية فكانت
 الممالبك كلما رأوه يلعنونه في الباطن ، وربما
 توعدوه بالقتل . وأمه كانت صانعة ، وقبل ان أصله
 كان من أبناء الساسة التى بالحسينية وعنده كثافة
 في طبعه وقلة فضيلة فكان كما قيل :

قصت عقلا وفهما وزدت شحما ولحما
 ورثت طالوت جسما ولم ترث منه علما
 وفي يوم الاثنين سادس صفر جلس السلطان
 بالميدان وعرض من العسكر في ذلك اليوم أربع
 طباق . ومن الحوادث اللطيفة في ذلك اليوم أن
 السلطان أمر بابطال المشاهرة والمجامعة التى كانت
 للمحتسب ، وأشهر النداء في مصر والقاهرة بذلك
 وان مكس البحرين الذى كان يؤخذ على الغلال
 بطل . فارتفعت له الأصوات بالدعاء بالنصر ،
 وانطلقت له النساء بالزغاريت من الطيقان ونقطت
 الناس المنادين بالفضة على تلك البشارة الحسنة
 التى سرت القلوب والأسماع وكان يوما مشهودا
 وقلت في هذه الواقعة هذه الأبيات :

قد جاد سلطان الورى بعدله في القاهرة
 مذ رخص الأسعار مع ابطاله المشاهرة
 كم جائع من فرحة يدعو له مجاهرة
 وكم حزين قلبه بالكسر أضحى جابره
 وقد عفا غلالنا من المكوس الجائره
 وصرف اللحم الذى أرضى به عساكره
 فارتفعت أيدي الورى له بفضل شاكره
 وحاز أجرا ناله من الدنا والآخره
 وقد علا تاريخه فوق النجوم الزاهرة

محمد : « بقي عندنا صبي صغير أمرد يسمى عبد الرزاق أصله من باب الوزير وهو يتيم وكان يحلق لجماعة من الضدام وهو يحلق مليحا » . فقال السلطان : « أحضره حتى يحلق لى » . فأحضره ، فلما حلق له أعجبت حلاقته ، فاستقر به چلبى السلطان عوضا عن علم الدين ، فسافر هذا الصبي مع السلطان الى القيوم وأنعم عليه بكسوة حافلة وأخرج له اكديشا وبغلة وصار چلبى السلطان فى ساعة واحدة . واذا أعطى لا مانع ، والله عند القلوب المنكسرة جابر ، والعبد بسعده لا يآيه ولا بجده ... فقد ذلك من النوادر !

وفى يوم الاثنين ثالث عشره خرج عبد الرزاق أخو دولات وأولاد على دولات الذين كانوا حضروا الى مصر فلما حضروا أرسل اليهم السلطان ثمانية آلاف دينار ليعملوا بها برفهم ، فتأهبوا وخرجوا وسافروا فى ذلك اليوم وقصدوا التوجه الى حلب .

وفى يوم الخميس سادس عشره جلس نائب القلعة ومقدم الممالك عند باب القلعة ، وصرفا الجامكية على الممالك والعسكر فى غيبة السلطان على جارى العادة .

وفى يوم الأحد تاسع عشره حضر السلطان من القيوم وعدى من الجيزة فلاقاه الخليفة والقضاة الأربعة فشق من الصليبة وقدمه القضاة الأربعة والأتابكى سودون العجمى وسائر الأمراء المقدمين وأعيان المباشرين وانسحبت الجنائب قدامه وطلع الى القلعة فى موكب حافل ، وكانت مدة غيبته فى القيوم تسعة أيام ، فكشف على الجسر الذى هناك وعاد فدخل عليه تقادم كثيرة من الكشاف ومن المدركين ما بين خيول وأغنام وأبقار وجمال وغير ذلك من التقادم الفاخرة . قيل لما توجه الخليفة ليسلم على السلطان لم يجتمع به هناك فطلع بعد

وفى ذلك اليوم خلع السلطان على القاضى بركات بن موسى وقرره ناظر الذخيرة الشريفة كما كان شمس الدين بن عوض ولم يعد الزينى بركات الى الحسبة ، فنزل من القلعة فى موكب حافل وصحبه الأمير طومان باى الدوادار وقدمه الساعة ماشية وشق من الصليبة واستمرت الحسبة شاغرة الى الآن لم يلبها أحد .

وفى يوم الجمعة عاشره صلى السلطان صلاة الصبح ونزل الى الميدان ثم خرج من باب الميدان الذى عند باب القرافة وتوجه من هناك الى الروضة وعدى الى المقياس وأقام به ذلك اليوم . وأشيع أن السلطان يريد أن يتوجه من هناك الى القيوم ليكشف عن أمر الجسر الذى انقلب هناك من الماء ، وذلك لأنه لم يكتف بتوجه الأمير طومان باى الدوادار والأمير أرزمك الناشف الى هناك قبل ذلك كما تقدم ذكره فصمم على ذلك وتوجه فكان صحبه من الأمراء المقدمين الأتابكى سودون العجمى والأمير أركماس أمير مجلس والأمير سودون الدوادارى رأس نوبة النوب والأمير أنص باى حاجب الحجاب والأمير طومان باى الدوادار والأمير تراز الزردكاش أحد المقدمين وبعض أمراء عشراوات ، ونحو خمسين خاصكيا وبعض جماعة من المباشرين وأقام فى المقياس الى أن صلى الجمعة وعدى الى الجيزة ونصب له وطاق عند الأهرام ، فأقام ذلك اليوم هناك ثم توجه الى القيوم من تحت الجبل .

ومن الوقائع الغريبة أن السلطان لما غضب على علم الدين چلبى بسبب ما تقدم ، واستمر علم الدين ممنوعا من طلوع القلعة قال السلطان لمحمد المهتار : « انظر لى چلبى يحلق رأسى » ... فعرض عليه عدة چلبية فما أعجبه منهم أحد ، فقال له

العصر الى القلعة ، وسلم على السلطان وهناه
بالسلامة .

ومن الحوادث في ذلك اليوم أن السلطان لما
عدى من الجيزة كان في ذلك اليوم رياح عاصفة
ففرقت مركب قدام المقياس ، وقد ازدحمت فيها
الخيول وشبت على بعضها ، فأشيع أن المركب قد
انقلبت بمن فيها ثم خمدت تلك الاشاعة عن ذلك
الخبر .

وفي يوم الاثنين عشريه كان عبد النصارى وهو
أول يوم من الخماسين ، وكانت خماسين مباركة لم
يظهر فيها علة بمصر ولا بأعمالها قاطبة .

وفي يوم الخميس ثالث عشريه أشيع بين الناس
أن النيل قد زاد ذراعين فطلع ابن أبى الرداد
وأخبر السلطان أن النيل قد زاد نصف ذراع وكان
النيل يومئذ في اثني عشر ذراعا وثلاث أصابع فزاد
على ذلك نصف ذراع وكان ذلك في شهر برمهاث .
وسبب هذا الزيادة أن الأمطار كانت بأعلى بلاد
الصعيد فانحدرت منها السيول الى النيل فزاد
هذه الزيادة في غير أوانها ، وقد وقع مثل ذلك في
بعض السنين الماضية وزاد في غير أوانه بسبب
السيول نحو ذراعين .

وفي يوم السبت خامس عشريه جلس السلطان
في الميدان وعرض الأمراء الطبلحانات والعشراوات
ورؤوس النوب ، فلما عرصهم قال لهم : « اعملوا
برقكم وكونوا على نقطة من السفر فاني أنفق
وأخرج في جمعتي هذه » ... فنزلوا على ذلك .

وفي يوم الخميس سلخ هذا الشهر حضر ساع
وقيل اثنان من عند نائب حلب وأخبرا بأن نائب
حلب أرسل مطالعة على يديهما فلما قرئت على
السلطان فاذا فيها ان شاه اسماعيل الصفوى ملك
العرافين جمع من العسكر ما لا يحصى وهم زاحفون

على بلاد ابن عثمان ، وكان في سنة عشرين
ونسعمائة حصل بينه وبين سليم شاه ملك الروم
واقعة مهولة ، وقد تقدم القول على ذلك وانكسر
اسماعيل شاه الصفوى كما تقدم . فاستمر الصفوى
من حين جرى له ما جرى وهو في جمع عساكر
واستعان بملوك التتار فقبل انه جمع الجهم الغفر
من العساكر ، فان ابن عثمان كان قد قتل غالب
عسكره في الواقعة المتقدم ذكرها .

فلما راج أمر الصفوى وجمع العساكر قصد
الزحف على بلاد ابن عثمان ، فقبل انه كبس على
جماعة ابن عثمان الذين كانوا في آمد وقد كان
ملكها من بد الصفوى حين محاربتة معه في الواقعة
المذكورة وجعل ابن عثمان فيها نائبا من قبله ،
فأشيع أن الصفوى كبس على من كان بآمد على
حين غفلة ، وقتل من كان فيها من العثمانية ،
واستخلصها من بد جماعة ابن عثمان وانتصر
عليهم .

فلما طرق هذا الخبر سمع السلطان اجتمع
بالأمراء في الميدان وأقاموا في ضرب مشورة بسبب
ذلك الى قريب الظهر ، فأشيع أن السلطان قال :
« أنا أخرج بنفسى وأقعد في حلب حتى أنظر
ما يكون من أمر الصفوى وابن عثمان فان كل من
انتصر منهما على غريمه لا بد أن يزحف على
بلادنا » .

فانفض المجلس على أنه لا بد من خروج
تجريدة تقيم بحلب وتحرس البلاد الحلبية ، وأشيع
في ذلك اليوم باحضار الكشاف ومشايخ العربان
والزامهم أن شرعوا في تحصيل عشرين ألف
خيال من العشير وفرسان العرب ، ويوزعوا ذلك
على سائر البلاد من الشرقية والغربية وجهات
الصعيد ، وهذا من أكبر أسباب الفساد في حق
الجنود والمقطعين ، فان الكشاف ومشايخ العربان

يأخذون في هذه الحركة من البلاد المثل عشرة
أمثال لأنفسهم .

وفي ربيع الأول وكان مستهله يوم الجمعة طلع
الخليفة والقضاة الأربعة وهنوا السلطان بالشهر ،
وقيل ان السلطان أرسل شمس الدين بن ناشي
وبركات بن الظريف شيخ القراء الى الخليفة وهو
يقول : « اعمل برفق الى السفر فانه لا بد من سفر
السلطان الى حلب ، وانه ينفق ويخرج في شهر
واحد » ... فتتكذ الخليفة لهذا الخبر .

وفي يوم الأحد ثلثه جلس السلطان بالميدان
وعرض الأمراء الطبلخانات وخاصكية الخواص ،
وعين منهم جماعة للسفر . ثم طلع ودخل الى قاعة
اليسرية وفتح الحواصل وأخرج منها عدة سروج
بلور وعقيق وكنائش زركش وسروج ذهب
وبركستوانات فولاذ مكفتة بذهب وغير ذلك ،
وأفرد منها ما حسن بباله لأجل الطلب اذا خرج
وسافر ... وهذا كله حتى يشاع بين الناس سفر
السلطان الى حلب .

وفي يوم الثلاثاء خامسه جلس السلطان بالميدان
وعرض الأمراء الطبلخانات والعشراوات وألزم كل
أمير أن يستخدم عنده ممالك شئ خمسة وشئ
ثلاثة وشئ اثنان بحسب اقطاعه ، وقرر معهم أن
بعد المولد الشريف يعرضهم قدامه بالميدان وهم
باللبس الكامل والخيول الجيدة وكل من لم يفعل
ذلك يخرج عن امرته ويجعله طرخانا .

وفي يوم الثلاثاء المذكور نزل القاضي شهاب
الدين بن الجيعان نائب كاتب السر عن لسان
السلطان الى أمير المؤمنين المتوكل على الله بسبب
عمل برقه ، وقد كشفوا في الدفاتر القديمة فوجدوا

أن الخليفة اذا سافر صحبة السلطان يكون جميع
برقه على السلطان ... فكتب الخليفة قوائم
بمصروف عمل للبرق فكان ذلك بعشرة آلاف
دينار ، وقيل خمسة آلاف دينار فأخذ الشهابي
أحمد تلك القوائم وطلع بها الى القلعة ليعرضها
على السلطان .

وفي هذا الشهر خلع السلطان على الأمير طراباي
الذي كان قبل ذلك نائب صفد وأعادته الى نيابة
صفد كما كان ، وعزل عنها يوسف الذي كان
نائب القدس فكان مكنه في نيابة صفد دون السنة
ثم عزل وولى طراباي المذكور .

وفي يوم الأربعاء سادسه جلس السلطان
بالميدان وعرض ممالكه الجبلان قاطية وعينهم الى
السفر صحبته ، ولم يعف منهم سوى الممالك
الصغار الكتائية المرء .

وفي يوم الخميس سابعه رسم السلطان
للطواشية بأن تدور على الممالك البطالة وأولاد
الناس الذين كان السلطان قطع جوامكم ، بأن
يطلعوا يوم السبت للعرض ، فالذي يصلح للسفر
يعيد السلطان له جامكيته ويكتبه للسفر . ثم من
بعد ذلك ظهرت اشاعة رد الجوامك التي قطعت .
فلما كان يوم السبت تاسعه جلس السلطان
بالميدان وعرض جماعة من الممالك القرانصة من
الشيوخ والعواجز وأولاد الناس أصحاب
الجوامك ، فلما عرضهم عين منهم جماعة للشرقية ،
وعين منهم جماعة مع كاشف الغربية وجماعة الي
البحيرة وجماعة منهم الي الطرانة ، وجماعة الي
المنوفية وجماعة الي منفلوط وجماعة الي الجيزة ،
وألزمهم بأن يكونوا مع الكشاف لرد العربان اذا
ظهر منهم فساد وحفظ البلاد في غيبة السلطان اذا
سافر . وقد قويت الاشاعات بسفر السلطان الي

حلب ، ودارت الطواشية على المالبك القرانصة
وأولاد الناس بسبب هذا العرص حتى عين هؤلاء
الجماعة الى هذه الجهات المذكورة لا يسبب رد
الجوامك التي كانت قطعت للمالك العواجز
وأولاد الناس ، واستقرت هذه الواقعة على
ما ذكرناه .

وفي يوم الأحد عاشره نزل السلطان وعدى الى
بر الجيزة وعرض جمال الأمير حناير بك باسم
العرييه الديو نوفي ، سم عاد وطلع الى الطلعه ودخل
الى قاعة البيسرية ، وعرض في ذلك اليوم بكباير
وفرفلات وجوانسن وغير ذلك أشياء كثيرة من
آلات السلاح من حواصل الذخيرة .

وفي يوم الاثنين حادى عشره عمل السلطان
المولد النبوى الشريف على العادة ونصب الخيمة
العظيمة التي صنعها الملك الأشرف . وكانت هذه
الخيمة كهيئة قاعة فيها لواوين ثلاثة وفي وسطها
قبة على أربعة أعمدة ، فيل لم يعمل في الدنيا قط
لها نظير وهي من فماش ملون ، وهذه الخيمة كان
لا ينصبها الا ثلاثمائة رجل من النواتية ، وقيل ان
مصروفها ستة وثلاثون ألف دينار ، فنصبها
بالحوش ونصب الشربدارية في الحوش أحواض
جلد مملوءة بالماء الحلو وعلقوا شوكلات بالكيزان
الفاخرة ، وزينوا بالأواني الصينى والطاسات
النحاس ، وأوسعوا في زينة الشرابخانة الزينة
الفاخرة أكثر من كل سنة . ثم جلس السلطان في
الخيمة ، وحضر الأتابكى سودون العجمى وسائر
الأمرء من المقدمين وغيرهم وحضر القضاة الأربعة
وأعيان الناس والمباشرون والوعاظ على العادة ثم
مدوا السماط وقد أوسع في أمره . وكان مولدا
مشهودا أبهج مما تقدم من الموالد الماضية .

وفي ذلك اليوم توفى قاضى القضاة محيى الدين

ابن النقيب رحمة الله عليه ، وهو محيى الدين
عبد القادر بن على بن مصلح الشافعى ... وكان
يقرب للخوارج شمس الدين بن فضا الجوهري ،
وكان من أهل العلم والفضل ، لكنه كان جاني
النفس ، وينسب الى شح زائد وله في ذلك الامر
أخبار شنيعة لم تذكر هنا لكنها شائعة بين الناس ،
ومات وله من العمر نحو الثمانين سنة . وكان
سبب موته أنه كان يمتنى في الأسواق بشباب
سجك فتوجه الى خان الحليلى فرفسه فرس فوقع
على فخذه فانكسر ، فحملوه الى خلوته التي في
المدرسة المنصورية فأقام بها أياما ومات . وكان
منفصلا عن القضاء وقد ولي منصب القضاء ست
مرات ، ونفذ منه في هذه الست ولايات ستة
وثلاثون ألف دينار ، وكانت اقامته في الست
ولايات نحو سنتين ، وكان قليل الحظ عند الناس
قاطبة ، وكان يسعى على القضاة المتولين ولا يزال
عليهم حتى يعزلهم ويتولى منصب القضاة ، فعزل
به قاضى القضاة زكريا ، وقاضى القضاة ابن
أبى شريف وقاضى القضاة القلقشندي وقاضى
القضاة عماد الدين الطويل وبدر الدين المكينى
وعلاء الدين بن النقيب ، وكان يسعى بجملته من
الأموال ولا تقيم في منصب القضاة غير أشهر ثم
يعزل ، فنفذ منه مال له صورة على هذه الطريقة .
وقد قلت في ذلك مداعبة لطيفة :

منصب الحكم في القضا قال لما

كشف الله ما به من هموم

زال عنى ابن النقيب وانى

كنت معه في قبضة الترسيم

وقيل كان متحصل ابن النقيب هذا في كل يوم

من وظائفه نحو أشرفيين من خبز وجوامك ، وكان

بحرم نفسه من المأكول والمشرب والملبوس .

وفي ذلك اليوم توفي المهتار حسن شربدار السلطان وكان في سعة من المال ، وصادره السلطان غير ما مرة . فلما مات ختم السلطان على حواصله ولم يلتفت الى اولاده .

وفي يوم الثلاثاء ثاني عشره توفي الشيخ محب الدين الحلبي امام السلطان وكان من المقربين عنده وكان لا بأس به .

وفي يوم الخميس رابع عشره ورد على السلطان مطالعة من عند سيباى نائب السلطان بالشام ، فأرسل يقول له : « يا مولانا السلطان ان البلاد الشامية مغلية والعليق والتبن لا يوجد ، والزرع في الأرض لم يحصد ولا ثم عدو متحرك ، ولا يتعب السلطان سره ولا يسافر ، وان كان ثم عدو متحرك فنحن له كفاية » . فلم يلتفت السلطان الى كلامه واستمر باقيا على حركة السفر الى حلب .

وفي يوم الاثنين ثامن عشره خلع السلطان على الأمير أرزمك الناشف أحد المقدمين ، وقرره أمير حاج بركب المحمل ، وخلع على الأمير برسباى الفيل أحد أمراء الطبليخانات وقرره أمير حاج الركب الأول ، فنزلا من القلعة في موكب حافل .

وفي هذا اليوم خلع السلطان على الأمير ألماس أحد الأمراء العشراوات ، ويعرف بدوادار سكين وقرره في ولاية الشرطة بالقاهرة عوضا عن الأمير كرتباى بحكم انتقاله الى تقدمه ألف . وكان الأمير كرتباى من أعيان مماليك السلطان ، وولى كشف الشرقية وولاية القاهرة ثم أنعم عليه السلطان بتقدمة ألف . وقيل ان الأمير ألماس سعى في الولاية بأحد وأربعين ألف دينار منها عشرون ألف دينار معجلة وواحد وعشرون يدفعها على نقداً مثرقة .

وفي ذلك اليوم خلع السلطان على مملوكه

الأمير ماماي الصغير وقرره في نظر الحسبة الشريفة عوضا عن الزيني بركات بن موسى بحكم انتقاله الى استدارية الذخيرة ، وكانت مدة اقامة الزيني بركات بن موسى في الحسبة احدي عشرة سنة الا شهرا وعزل عنها والناس عنه راضية . وقيل ان الأمير ماماي الصغير سعى في الحسبة بحسبة عشر ألف دينار حتى وليها ، وكانت الحسبة والولاية في قديم الزمان من أقل الوظائف ، وولبها جماعة كثيرة من أبناء الناس والفقهاء ، ولكن عظم أمر هاتين الوظيفتين في هذا الزمان الى الغاية ، وصارتا من أجل الوظائف ، وهذه الأموال العظيمة التي يسعى بها هؤلاء انما يستخلصونها من أضلاع المسلمين ودمائهم والأمر الى الله .

وفي ذلك اليوم أنفق السلطان على العسكر نفقة السفر ، وقد تحقق أمر خروج التجريدة ، فأنتق على كل مملوك مائة دينار وجامكية أربعة أشهر بثمانية آلاف وثمان جمل سبعة دنانير ، ثم ان السلطان كتب اولاد الناس قاطبة الى السفر ولم يعطهم نفقة بل أعطاهم جامكية أربعة أشهر بثمانية آلاف ، وكان سبب ذلك أن القاضي شرف الدين الصغير كاتب الممالك قال للسلطان : « انا نظرنا في بعض التواريخ أن الملك الظاهر برقوق لما خرج الى التجريدة لم ينفق على اولاد الناس شيئا » . فأعجب السلطان منه ذلك ، وقطع نفقة اولاد الناس قاطبة ، فكثر عليه الدعاء من اولاد الناس بسبب ذلك . وكانت هذه الواقعة من أعظم مساويه في حق اولاد الناس ، وحصل لهم كسر خاطر شديد .

وفي يوم الأحد سابع عشره ظهر أحمد بن الصائغ الذي كان ضد الزيني بركات بن موسى في الحسبة وكان له مدة وهو محتف ، فظهر في

ذلك اليوم وقابل السلطان ثم خمد أمره ولم ينتج مع وجود الزينى بركات بن موسى .

وفي يوم الثلاثاء تاسع عشره توفيت خوند جان سكر العجركسية مستولدة السلطان رهي أم ولده الذى توفى فى الفصل سنة عشرين وتسعمائة ، وكانت دبنة خيرة قليلة الأذى ، فلما أشيع موتها طلع الخليفة والقضاة الأربعة وسائر الأمراء وأعيان المباشرين ، فصلى عليها الخليفة عند باب الستارة ونزلوا بها من سلم المدرج وهى فى بشخانة زرکش ونهبت الكفارة من قدامها قبل أن تنزل من القلعة ، ومشى الخليفة والقضاة الأربعة وسائر الأمراء قدامها من القلعة الى مدرسة السلطان التى فى الشرايشين ، فدفنت هناك على أولادها . ولم يدخلوا بها من باب زويلة بل دخلوا بها من خوخة أيدغمش . وكانت جنازتها حافلة ، وكثر عليها الأسف والحزن من الناس .

وفي يوم الخميس حادى عشره وقف جماعة من أولاد الناس الى السلطان بسبب النفقة ، فلما وقفوا له ساعدتهم الأمير علان الدوادار وبقية الأمراء ، فلم يرث لهم السلطان ، وقال : « أنا ما عندى نفقة لهؤلاء فالذى لا قدرة له على السفر يرد الأربعة شهور الجامكية التى أخذها وأنا أترك له شهرا ويستريح وتنقطع عنى جامكيتته » . فرد جماعة كثيرة من أولاد الناس جامكية الأربعة شهور التى أخذوها واستمر أمرهم مبنيا على السكوت .

وفي يوم الأربعاء ويوم الخميس أثنى السلطان على بقية العسكر النفقة . وفي يوم السبت ثالث عشره أكمل السلطان النفقة على العسكر قاطبة من قرانصة وجلبان ، ونادى عليهم فى الحوش أن السفر أول الشهر ، فاضطربت أحوال العسكر وارتجت القاهرة وعز وجود الخيل والبغال ، وصار

المماليك بهجمون الدواحين وبأخذون منها الخيول والبغال والأكادينس ، فطلقت النواحين قاطبة ، وامتنع الخبز من الأسواق وكذلك الدقيق ووقع القحط بين الناس وضعج العوام وكثر الدعاء ، وغلقت أسواق التماش بسبب المماليك واختفى الصنائعية والخياطون ، واضطربت أحوال القاهرة واختفى جماعة من النجار خوفا من المماليك ، واختفى طائفة من العلمان خيفة السمر ، وصارت أحوال مصر مثل يوم الضيامة كل واحد يقول يارب روحى . وفد عاب العسكر على السلطان هذا الرهيج الذى وقع منه ، ولم يستن على طريقة الملوك السالفة عند خروجهم للسفر مع انه لم يكن أمر يستحق هذا الرهيج العظيم ، ولا جاءت أخبار بأن ابن عثمان قد وصل الى حلب ولا جاليشه ولا تحرك على بلاده ، وعابوا على السلطان أينما عرضه عسكر مصر قاطبة فى أربعة أيام ، وأثنى عليهم مع العرض ، فحشوا أن يتساع فى بلاد ابن عثمان وبلاد الصنوى أن السلطان الغورى قد عرض عساكره جميعا فى أربعة أيام فينسبونهم الى قلة وانه ما ثم بمصر عسكر ، وربما يطمع العدو اذا سمع بذلك . وما كان هذا رأى من الصواب وهذه الأحوال كلها غير صالحة .

وفي يوم السبت المقدم ذكره أرسل السلطان نفقة الأمراء المقدمين ، فأرسل للأتابكى سودون العجمى خمسة آلاف دينار ، والأمير أوكماس أمير مجلس والأمير سودون الدوادارى رأس نوبة النوب والأمير أنص باى حاجب الحجاب لكل واحد أربعة آلاف دينار ، وبقية الأمراء المقدمين الذين هم بغير وظائف لكل واحد منهم ثلاثة آلاف دينار . وأين هذه النفقة من النفقة التى كان يرسلها الأشرف قايتباى للأمراء المقدمين عند خروجهم الى

الى الشرقية والغربية والصعيد والزمهم أن يخرجوا
بلا نفقة وكانوا نحو خمسمائة مملوك .

وفي يوم الثلاثاء سادس عشره نزل السلطان
من القلعة وتوجه الى الريدانية ، ورتب الفراشين
كيف ينصبون الوطاق اذا برز السلطان للسفر ،
ورتب منازل الأمراء وكيف تكون منازلهم
بالريدانية .

وفي ذلك اليوم رسم السلطان لولده أمير آخور
كبير بأن يعسل برفه ويسافر صحبته ، وكان في
الأول رسم له بأن يكون مقبلا بساب السلسلة الى
أن يحضر السلطان تم بطل ذلك ، ورسم له بأن
يشرع في عمل برفه الى السفر .

وفي يوم الجمعة تاسع عشره ، الموافق لسادس
بشنس القبطي ، خلع السلطان الصوف ولبس
البياض . وكانت أول جمعة خونه زوجة السلطان
التي توفيت فصنع لها السلطان مادة حافلة وحضر
هناك الخليفة والتضافة الأربعة وجماعة من
الأمراء المتقدمين ، وحضر قراء البلد قاطبة والوعاظ
وكانت ليلة منسهودة بندرسة السلطان التي
بالشرايشين .



وفي يوم السبت مستهل شهر ربيع الآخر جلس
السلطان بالميدان ، وطلع اليه الخليفة والقضاة
الأربعة فهنوه بالشهر الجديد وعادوا الى دورهم .
وفي ذلك اليوم خلع السلطان على ولد المهتار
حسن الشريدار الذي تقدم ذكر وفاته وقرره في
وظيفة أبيه في مهتارية الشرابخانه عوضا عن أبيه
بحكم وفاته .

وفي ثانيه فرق السلطان على مماليكه الجلبان
لبوس الخيل من حرير ملون وخود وأتراس وبدلات
ما بين زنود وركب فولاذ ، وغير ذلك من آلة
السلاح التي في الزردخانه ، فتزلحمت عليه المماليك

تجاريد ابن عثمان ؟ فكان يرسل للأتابكي أزبك
وحده ثلاثين ألف دينار والأمير تمارز أمير سلاح
عشرين ألف دينار وأمير مجلس مثل ذلك وبقية
الأمراء المقدمين لكل واحد منهم عشرة آلاف دينار
حتى عد ذلك من النواذر الغريبة ... ولم يفعل
الأشرف قايتباي ذلك الا في آخر تجاريديه لابن
عثمان سنة خمس وتسعين وثمانمائة ، فبلغت نفقة
الأمراء قاطبة دون الجند مائة ألف دينار .

وفي يوم الأحد رابع عشره نزل السلطان وتوجه
الى مدرسته التي بالشرايشين فأقام بها الى ما بعد
العصر ، وأتبع أنه قد عرض موجود خوند ،
فان حواصلها كانت هناك فظهر لها موجود عظيم
ما بين ذهب وفضة عين وفصوص وقماش فاخر
وغير ذلك .

وفي يوم الاثنين خامس عشره أتفق السلطان على
الأمراء الطليخانات والأمراء العشراوات ، وصار
يستدعيهم واحدا بعد واحد مثل تفرقة الجامكية ،
فأعطى لكل أمير طليخانات خمسمائة دينار ،
وأعطى لكل أمير عشرة مائتي دينار ، ولم يرسل
للخليفة نفقة ، فحصل له غاية المشقة وترامى على
جماعة من الأمراء في أن يقرضوه مبلغا بربح ،
ودخل في جهته ديون كثيرة ... ولم يتفق قط أن
السلطان اذا سافر البلاد الشامية وصحبته الخليفة
أن يخرج بلا نفقة ، وكانت عادة جميع السلاطين
أن يرك الخليفة اذا سافر يكون على السلطان ،
وكان يرسل اليه خمسمائة دينار لأجل جوامك
أتباعه ، فلم يلتفت السلطان لشيء من ذلك وشح
معه في أمر النفقة ، وكان الخليفة مظلوما مع
السلطان في هذه الواقعة . ثم انه عرض المماليك
القرانصة الشيوخ والعواجز وكتب منهم جماعة

وصاروا يخطفون اللبوس الملاح بأيديهم ، ولا يرضون بالذى يفرقه السلطان عليهم ، فعجز عن رضاهم فى ذلك اليوم وكثر تنمردهم فى هذه الأيام الى الغاية .

« أعجوبة » قيل ان امرأة ولدت ولدا له رأسان وأربع أيدي وأربع أرجل ، فلما شاهده السلطان تعجب منه وقيل وقع مثل ذلك فى زمن الامام على رضى الله عنه .

ومن جملة انعام الله تعالى على المسلمين آن السلطان أبطل سفر العربان الذين أفردهم على البلاد الشرقية والغربية والصعيد ، وقد تقدم القول على أن السلطان قصد أن يأخذ معه فى التجريدة جماعة من الخيالة من فرسان العرب يكونون أمام العسكر وقت الحرب ، فأحضر مشايخ العربان والكشاف ، وأفرد عليهم نحو خمسمائة خيال وقيل خمسة آلاف خيال ، فنزلوا الى البلاد قاطبة ، وصاروا يفردون على كل بلد خيالين بمائة دينار وعلى البلد الكبيرة أربع خيالة بمائتى دينار . فلما سمع أهل النواحي من الفلاحين بذلك الأمر أخلوا البلاد وتركوا زروعهم فى الأرض ورحلوا وخرب بعض بلاد فى هذه الحركة ... فلما بلغ الأمراء ذلك وقفوا للسلطان وشكوا له من ذلك ، وأن غالب البلاد تخرب وأخلاها الفلاحون وأغلظ الأمراء على السلطان فى القول وقالوا له : نسافر معكم وتخرّب بلادنا فمن أين نأكل ونسدد ديواننا اذا سافرنا ؟ فاستحى منهم السلطان وأمر بإبطال ذلك ، وأخرج مراسيم شريفة الى الكشاف ومشايخ العربان بإبطال ما كان قد رسم به فى الأول ، واعادة ما أخذ من الفلاحين بالنواحي . فخرجت المراسيم الشريفة الى البلاد بمنع ذلك ، ولو استمر على قوله الأول لخربت مصر عن

آخرها ووقع بها الغلاء العظيم من خراب البلاد .
فله الحمد على ذلك .

ومن الحوادث فى هذه المدة أن السلطان صادر ابنة الأمير خاير بك كاشف الغريبة أحد الأمراء المقدمين ، وهى زوجة الأمير تانى بك الخازندار أحد الأمراء المقدمين ، وهى التى كان وقع لها ذلك الأمر الفاحش المقدم ذكره ... فلما صادرها قرر عليها مالا ثقيلآ له صورة ، فأرسل رسم عليها بجماعة من الطواشية . فلما تحققت ذلك شرعت فى بيع جهازها وجميع ما تملكه من صامت وناطق .

وكان سبب ذلك أنه لما توفى والدها الأمير خاير بك تكلم الأعداء فى حقها بأنها أخذت من موجود أبيها ثلاث قدور فيها مال جزيل له جرم ، فأرسل خلفها فلما حضرت بين يديه سألها عن ذلك فأكرت وحلفت أنها مارأت تلك القدور الذهب التى اتهموها بها ، فحقت منها السلطان وقال لها : « أنسى ذنبك ؟ » يعنى أمر الصبى الذى وجدوه عندها ، فحلف السلطان ان لم تحضر بالمال الذى أخذته من مال أبيها والا يفرقها ، وصمم على ذلك ... فلما جرى ذلك شرعت فى بيع جهازها لتورد المال الذى قرر عليها ، فصار فى كل يوم سبت وثلاثاء يحضر الزينى بركات بن موسى وجماعة من المباشرين ويبيعون قماشها مثل التركة . وقد وقع لابنة يشبك الدوادار زوجة الأمير قانباى أمير آخور كبير كهذه الواقعة بعينها وصودرت وباعت جهازها وقماشها وجواربها مثل التركة ، وغلقت ما عليها من المال . وقد تقدم ذكرها .

وفى يوم الخميس سادسه صرف السلطان للعساكر المتوجهة الى السفر ثمن اللحوم المنكسرة لهم على ثلاثة أشهر لكى يتوسعوا فيها ، ولم

يصرف للذين تأخروا بمصر شيئاً ، وأحالهم على الطباخين يصرفون لهم في غيبته .

وفي ذلك اليوم برز السلطان خيامه الى الريدانية وقد تحقق أمر سفره الى البلاد الشامية ، تم نادى للعسكر في الميدان أن كل من جهز برقه ولا بقى له عاقبة يخرج ويسافر ويتقدم قبل خروج السلطان ، ولكن الى الآن لم يعلق السلطان الجاليش الذى هو مقدمة الجيش اذا سافروا الى البلاد الشاميه ، وكانت العادة أنهم اذا سافروا الى البلاد الشاميه يعلقون الجاليش قبل خروجهم بأربعين يوماً ، فلم يمش السلطان على طريقة الملوك السالفة .

وفي يوم الخميس المذكور أرسل السلطان الى أمير المؤمنين محمد المتوكل على الله نفقة السفر ، على يد حسام الدين الألواحى بواب الدهيشة ، ألف دينار وكان الساعى له فى ذلك الأمير طومان باى الدوادار الكبير ، ولولا هو ما كان يرسل له شيئاً ، فان السلطان أرسل للقضاة الأربعة يقول لهم اعملوا برقكم ، ولم يرسل لهم شيئاً من النفقة ، وقد حصل لهم غاية الكلفة والمشقة لأنه من حين سافر الأشرف برسباى الى آمد سنة ست وثلاثين وثمانمائة لم يخرج الخليفة ولا القضاة الأربعة الى البلاد الشاميه صحبة السلطان ، وكان للخليفة والقضاة الأربعة على السلطان عادة أنهم اذا سافروا الى البلاد الشاميه يرسل لهم نفقة السفر ، فتعافل السلطان عن ذلك .

ثم بعد أيام أرسل السلطان للخليفة سيفاً مستقلاً بالذهب ، على يد شخص من الزردكاشية يقال له محمد العادلى ، وقد تقدم القول على أنه أرسل له نوبة جام جديد ، فكان مجموع ما حصل له من السلطان من الانعام ، ذهب وغير ذلك ، دون ألفى

دينار ، وقد تكلف الخليفة فى هذه الحركة على مصروف برقه وغير ذلك نحو الخمسة آلاف دينار أو أكثر .

وفي يوم الجمعة سابعه خرجت جماعة كثيرة من ممالك السلطان ، وتوجهوا الى السفر نحو البلاد الشاميه ، وقد نادى عليهم السلطان قبل ذلك أن كل من جهز برقه يخرج ويسافر قبل خروج السلطان ، فصار يخرج فى كل يوم جماعة من العسكر شيئاً فشيئاً ولم يسافروا .

وفي ذلك اليوم حضر خليفة سيدى أحمد البدوى وقد حضر بطلب من السلطان فلما مثل بين يديه قال له اعمل برقك حتى تسافر صحبتى الى حلب . فلما سمع ذلك تعلل وأظهر أنه ضعيف ولم يقدر يسافر ، فحنق منه السلطان وألزمه بالسفر ولم يقبل له عذراً . وأرسل بقول لخليفة سيدى أحمد الرفاعى رحمة الله عليه اعمل برقك حتى تسافر صحبتى .

فلما تحقق القضاة سفر السلطان أخذوا فى تجهيز أمرهم وعمل برقهم ، وعينوا معهم جماعة كثيرة من النواب ، فتقلقوا من أمر السفر ، فعند ذلك فرض القضاة الأربعة مبلغاً له صورة على نوابهم على كل واحد من النواب قدر معين على قدر مقامه ، فقامت الثائرة والشناعة على القضاة بسبب ذلك . ولما بلغ السلطان ذلك الخبر أنكر على القضاة هذه الفعلة .

وفيه طلع قاضى القضاة الشافعى كمال الدين الطويل وصلى بالناس صلاة الجمعة ، ثم استأذن فى الدخول على السلطان ، فدخل عليه وهو بالدهيشة ، فلما جلس بين يدي السلطان شرع يحلف له أنه لم يدخل كيسه شيئاً مما قرره على النواب ، وانما النواب الذين عينوا للسفر قالوا

وفي يوم الأحد تأسعه حضر الى الأبواب الشريفة العجمي الشنقجي ، نديم السلطان الذي كان توجه بالأفيال الى نائب الشام ونائب حلب وقد أبطأ مدة طويلة حتى أشاعوا موته غير ما مرة ، فظهر أن السلطان أرسله الى شاه اسمعيل الصفوي في الخفية في خبر سر بين السلطان وبين اسمعيل شاه كما أشيع ذلك بين الناس .

وفي يوم الاثنين عاشر ربيع الآخر خرج طلب السلطان . وكان من ملخص أمره أنه أخرج الطلب من الميدان قبل طلوع الشمس ومشى به من الرميثة ونزل من حدره البقر وطلع به من الصليبة ، وكان ما اشتمل عليه ذلك الطلب أنه جر فيه خمس عشرة نوبة هجن بأطوار زركش وكنابيش وخمس عشرة نوبة بأكوار مخمل ملون ، وأما الخيول فثلثمائة فرس ، منها مائة فرس بيركستوانات فولاذ مكفت بذهب وجواغين مكفتة بالذهب وشيء مخمل ملون ومنها ثلاث طوايل بكنابيش زركش وسروج ذهب ومنها ثلاث طوايل بعراقى وسروج بداوى وطبول بازات . وكان في الطلب أربعة وعشرون تختا بأغشية حرير أظفر وكجاوتين مخمل بزركش وهما الجوشنان ، وكان فيه ست خزائن بأغشية حرير أصفر ، وكان فيه محفتان على البغال بأغشية حرير أصفر ، وكان بالطلب خمسة رءوس خيل خاصة منها اثنان بأرقاب مزركش وكنابيش وسروج بلور مزينة بذهب وشيء عقبق وطبول بازات بلور مزينة بذهب ، وكان به فرسان بكنابيش وسروج ذهب عليها غواشي ذهب وعليها هلالات ذهب عوضا عن الطيور ، وكان راكبا بالطلب بعض أمراء عشراوات رءوس بالشاش والقماش ، وبعض خدام من الطواشية ، وكان

نجعل كلتمنا على النواب المقيمين بمصر . فلما سمع السلطان ذلك قال : « لا تشوشوا على أحد من النواب ولا تأخذوا أحدا منهم بالغصب ، فالذي يسافر من تلقاء نفسه يسافر والذي لا يسافر لا تخصبوه على السفر » . . . فبطلت تلك الحادثة الشنيعة والله الحمد بعد ما كان جماعة من النواب شرعوا في بيع قماشهم وكتبهم . وقد حصل لهم الضرر بسبب ما قرروه عليهم كما تقدم ذكره . ولم يقع للقضاة مع نوابهم مثل ذلك لما سافر الأشرف برسباي الى آمد .

وفيه عرض السلطان غلمانا للبيوتات من الفراشين والبايية والركبخانة والحجارين والشربدارية والزردخانية من النفطية وغير ذلك ، وطلب الأمير علم الدين الذي يحكم على الطباين والزمارين وألزمه أن يصرف على من يسافر صحبته من الطباين والزمارين والمنقرين من كيسه ، وقال له : أنت تأكل معلوم هذه الوظيفة عدة سنين فأنتفق عليهم من عندك والا فعندنا من يلي هذه الوظيفة ويفعل ذلك . ثم عرض مغاني الدكة وهم أحمد أبو سنة والمحوجب والمحلاوى ، وأمرهم بأن يسافروا صحبته ، ثم عين جماعة من التجارين والحجارين وأمرهم بالسفر معه ، ثم عرض هؤلاء المذكورين ولم ينفق عليهم شيئا ، بل صرف لهم جامكية أربعة شهور لا غير ، ولم يعطهم نفقة وقال لهم : « أنتم تأكلون جوامك السلطنة كذا وكذا سنة فعند ارادتي سفركم تطلبون مني نفقة » . وكان قبل ذلك لما قرر القضاة على نوابهم مبلغا مساعدة للنواب الذين يسافرون ، أفرد شمس الدين الظريف نقيب القراء على جماعة من القراء والوعاظ والمؤذنين ، وأمرهم أن يسافروا صحبة السلطان كما فعل القضاة مع نوابهم .

عقيب طلبه ثم تنسحب أطلاب الأمراء بعده شبنا فشيئا ، فلم يمس السلطان على النظام القديم وخالف عوائد الملوك في أشياء كثيرة من أفعاله ، منها أنه لم يعلق الجاليش على الطبلخانات كعادة الملوك السالفة فانهم كانوا يعلقون الجاليش ، ويعرضون العسكر ثم ينفقون عليهم نفقة السفر ، ويستمر الجاليش معلقا الى أن يخرج السلطان ولو بعد شهرين .

وقد حكى عن الظاهر برقوق أنه لما جرد الى تمرلك خرج طلبه بنسحب من باب الميدان وكان الظاهر برقوق يرتب طلبه بنفسه وهو راكب على فرسه وفي يده طبر وبكر بفرسه من باب الميدان الى الصوة .

قيل أن السلاطين المتقدمة كانوا يخرجون الى البلاد الشامية عند ما تنتقل الشمس الى برج الحمل في أوائل فصل الربيع والوقت رطب ، وأما الغورى فانه سافر في قوة الحر والشمس في برج السرطان فحصل للعسكر مشقة شديدة في الطريق وليس من العادة القديمة أن السلطان يشق عند خروجه القاهرة بل يخرج من الصوة ، وفي العود يشق القاهرة . وكان السلطان الغورى لا تقتدى الا برأى نفسه في جميع الأمور .

وفي يوم الخميس ثالث عشره أشيع بين الناس أن شخصا من ممالك السلطان الجلبان يقال له جانم الأفرنجي ، وكان مجرما عاتقا مسرفا على نفسه ، خرج صحبة المماليك السلطانية الذين تقدموا قبل خروج السلطان ، فصار جانم هذا يخطف كل شيء لاح له ، ويؤذى الناس بطول الطريق . فلما بلغ السلطان ذلك أرسل مراسيم شريفة الى أرباب الادراك بأن يقبضوا عليه ويشنقوه حيث وجدوه من غير مشورة ، فقبل انهم قبضوا عليه وشنقوه على شجره في بليس وهو

راكبا به من المباشرين القاضي محمود بن أجا كاتب السر ، والقاضي مجيب الدين القصرى ناظر الجيش ، والقاضي علاء الدين ابن الامام ناظر الخاص ، والقاضي شهاب الدين أحمد بن الجيعان كاتب السر ، والقاضي أبي البقاء ناظر الاسطبل ، والقاضي بركات بن موسى المحتسب ، والقاضي شرف الدين الصغير كاتب المماليك وناظر الدولة ، والشرفي يوس النابلسي الاستادار كان ، والقاضي كريم الدين بن الجيعان ، وأولاد الملكى وغير ذلك من المباشرين . ثم جاء الصنجنق السلطاني وانجرت الكئوسات والصناجق السلطانية والخليفة ، وكان به أربعة طبول وأربعة زمور وعشرة أحمال كئوسات ، وكان عادة طلب السلطان أن يكون به أربعون حمل كئوسات ، فشق طلب السلطان من الرمييلة واصطف العسكر والجهم الغفير من الناس بسبب الفرجة على الطلب ، فلما مر الطلب لم يعجب الناس واستقلوا الخيول اننى به .

وقال من أدرك طلب الأشرف برسباى لما خرج الى آمد : كان في طلبه أربعمائة فرس مزينة بالبركستوانات المخمل الملون والقولاذ ، وميز بعض الناس يشبك الدوادار لما خرج الى شاه سوار على طلب السلطان وشكره على هذا الطلب ، لأنه كان مرتبا عن طلب السلطان ونزل من جهة باب الوزير ودخل من باب زويلة ، وشق من القاهرة وكان يوما مشهودا حتى رجعت له القاهرة في ذلك اليوم . فاستمر ينسحب حتى خرج من باب النصر وتوجه الى المخيم الشريف بالريدانية .

وفي ذلك اليوم خرج سنيح أمير المؤمنين المتوكل على الله ، وكان قدماه طبلان وزمران ونفير . ولم يخرج في ذلك اليوم غير طلب السلطان فقط ، وكانت العادة القديمة أن يخرج السلطان

بقماشة وسيفه وتركاشه ، ووضعوا غلمانه في الحديد الى أن أتوا بهم الى المقشرة .

وفي يوم الجمعة رابع عشره نزل السلطان من القلعة وتوجه الى القرافة وزار قبر الامام الشافعى والامام الليث رضى الله عنهما ، وكان صحبته ولده أمير آخور كبير ، وقيل انه تصدق في ذلك اليوم بمال له جرم .

وفي ذلك اليوم برز سنيح السلطان وتوجه الى الريدانية ، وكذلك الأمراء خرج سنيحهم .

فلما كان يوم السبت خامس عشره خرج السلطان الملك الأشرف أبو النصر قانصوه الغورى الى البلاد الشامية والحلية ، وللناس مدة طويلة لم يروا سلطانا خرج الى تلك البلاد على هذا الوجه من حين توجه الأشرف برسباى العلائى الى آمد ، وذلك في سنة ست وثلاثين وثمانائة ، فكانت المدة نحو سبع وثمانين سنة .

ولما كانت صبيحة يوم السبت المذكور اجتمع سائر الأمراء المتقدمين عند السلطان بالميدان ، وهم بالشاش والقماش ، فخلع السلطان في ذلك اليوم ميمر وأطلسين على الأمير أركماس بن طراباى أمير مجلس وقرره في امرية السلاح ، وكانت شاعرة من حين قرر الأمير سودون العجمى فى الأتابكية ، فكانت عدة الأمراء المتقدمين الذين تعينوا للسفر صحبة الركاب الشريف خمسة عشر أميرا ... منهم أرباب الوظائف خمسة وهم المقر الأتابكى سودون ابن جانى بك الشهير بالسجوى ، والمقر السيفى أركماس أمير مجلس سلاح ، والمقر الناصرى محمد ابن المقام الشريف أمير آخور كبير ، والمقر السيفى سودون الدوادارى رأس نوبة النوب ، والمقر السيفى قانصوه بن سليمان چركس ، ثم الأمير تمر الحسنى الشهير بالزردكاش ، والأمير

علان بن قراچا دوادار ثانى أحد المقدمين ، والأمير قانصوه كرت ، والأمير جان بلاط الشهير بالموتر ، والأمير تانى بك الشهير بالخازندار ، والأمير بيبرس قريب السلطان ، والأمير أبرك رأسى الجلبان الأشرفى ، والأمير أقبساي الطويل أمير آخور ثانى أحد المقدمين ، والأمير كرتباى الأشرفى الذى كان والى القاهرة أحد المقدمين .

وأما الأمراء الطبلخانات من أرباب الوظائف منهم الأمير يوسف الناصرى شاد الشرابخانه ، والأمير مغلباى ، والشرفى يحيى الزردكاش الكبير ، والأمير قاننى بك بن بخشباى رأس نوبة ثانى ، والأمير طومان باى قرا حاجب ثانى ، وغير ذلك من الأمراء الطبلخانات . وأما الأمراء العشراوات فعين منهم جماعة كثيرة يخرجون الى السفر صحبة الركاب الشريف . وأما الأمراء الذين تخلفوا بالقاهرة فهم المقر السيفى طومان باى أمير دوادار كبير ابن أخى السلطان ، وقد تعين أن يكون نائب الغيبة عن السلطان الى أن يحضر ، والأمير طقطباى نائب القلعة أحد المقدمين ، والأمير أرمك الشهير بالناشف ، والأمير قاننى بك النجمى أحد المقدمين وكان قرر فى امرية الحاج ، والأمير أربك الشهير بالمكحل أحد المقدمين ، والأمير قانصوه الفاجر أحد مقبمى الألف ، والأمير بخشباى أحد المقدمين ، وكان قد توجه الى الفيوم بسبب عمارة الجسر الذى هناك ، والأمير خاير بك المعمار أحد المقدمين وكان مقيما بثغر رشيد بسبب عمارة الأبراج التى هناك والسور ، والأمير خدابردى نائب الاسكندرية أحد المقدمين وكان مقيما بها ، والأمير قانصوه الشهير برجله أحد الأمراء المقدمين نائب قطيا وكان مقيما بها .

فلما أشرقت شمس يوم السبت خامس عشر

الدين عبد القادر القصرى ، ومنهم ناظر الخاص علاء الدين ابن الامام ، والقاضى شهاب الدين أحمد بن الجيعان نائب كاتب السر ومستوفى ديوان الانشاء الشريف ، والقاضى شرف الدين الصغير ناظر الدولة الشريفة وكاتب العساكر المنصورة ، والقاضى بركات بن موسى ناظر الحسبة الشريفة واستادار الذخيرة ، والشرفى يونس النابلسى كاتب جيش الشام واستادار العالية كان ، والقاضى أبو البقاء ناظر الاصطبل المعمور ، وأولاد الجيعان كتاب الخزائن الشريفة ، وأولاد الملكى كتاب استيفاء الجيش ، وكاتب الزردخانا ، وغير ذلك من أرباب الوظائف من المباشرين ، والشرفى يونس تقيب الجيوش المنصورة

وكان حاضرا هذا الموكب السادة الأشراف اخوة الشريف بركات أمير مكة ، فكانوا فدام الأمراء المقدمين ، ثم تقدمت الأمراء المقدمون قاطبة وصحبتهم ولد السلطان المقر الناصرى أمير آخور كبير والى جانبه الأتابكى سودون العجمى . ثم من بعد ذلك تقدمت السادة القضاة الأربعة مشايخ الاسلام وهم قاضى القضاة الشافعى كمال الدين الطويل ، وقاضى القضاة الحنفى حسام الدين محمود ابن الشحنة ، وقاضى القضاة المالكى محبى الدين يحيى الدميرى ، وقاضى القضاة الحنبلى شهاب الدين أحمد الفتوحى الشهير بابن النجار ، ثم بعدهم أمير المؤمنين المتوكل على الله محمد ابن المستمسك بالله يعقوب العباسى وهو لابس العمامة البغدادية التى بالعدبتين ، وعليه قباء بعلبكى بطراز أسود حرير ، ولم يكن على رأسه صنجق خليفتى ، وقد اختصر هذا الخليفة أشياء كثيرة مما كان يعمل للخلفاء المتقدمين من أقاربه . ثم مشت الجنائب السلطانية فكانوا طوائف خيل بعراقى وسروج

ربيع الآخر المقدم ذكره انسجت أطلاب الأمراء المقدمين المتوجهين صحبة الركاب الشريف ، فكان أولهم طلب الأمير كرتباى أحمد المقدمين ، وهو الذى كان والى القاهرة ، ثم طلب الأمير أقبابى الطويل أمير آخور تانى أحد المقدمين ، ثم طلب الأمير تانى بك الخازندار ، ثم طلب الأمير أبرك الأشرفى أحد المقدمين ، ثم طلب الأمير علان بن قراجا الدوادار الثانى أحد المقدمين ، ثم طلب الأمير بييرس قريب السلطان ، ثم طلب الأمير جان بلاط الشهير بالموتر ، ثم طلب الأمير قانصوه كرت ، ثم طلب الأمير تمر الحسنى الشهير بالزردكاش ، ثم طلب الأمير قانصوه ابن السلطان جركس ، ثم طلب الأمير أنص باى بن مصطفى حاجب الحجاب ، ثم طلب الأمير سودون الدوادارى رأس نوبة النوب ، ثم طلب المقر الناصرى محمد ، نجل المقام الشريف أمير آخور كبير ، ثم طلب الأمير أركماس بن طراباى أمير مجلس وقد قرر أمير سلاح ، ثم بعد ذلك مشى طلب الأتابكى سودون بن جاني بك الشهير بالعجمى وكان طلبه غاية فى الحسن والترتيب .

فلما اتقضى أمر الأطلاب خرج السلطان من باب الاصطبل الذى عند السلم المدرج ، فخرج وقدامه النفير السلطانى المسمى بالبرغشى وهو فى موكب عظيم قل أن يتفق لسلطان موكب مثل ذلك الموكب فكان فى أول الموكب الأقيال الثلاثة وهى مزينة بأنواع الزينة ، ثم ترادف العسكر المنصور بالشاش والقماش ثم الأمراء رءوس النوب بالعصى يفسحون الناس ، وقد ترادفت الأمراء الطبلخانات والأمراء العشراوات قاطبة ثم أرباب الوظائف من المباشرين ، منهم المقر القاضوى محب الدين محمود بن أجا كاتب السر الشريف ، والقاضى ناظر الجيش محبى

التي جمعها من أوائل سلطنته الى أن خرج في هذه التجريدة ، وفرغ أيضا حواصل الذخيرة وأخذ ما فيها من التحف وآلات السلاح الفاخرة التي كانت بها من ذخائر الملوك السالفة من سروج ذهب وبلور وعقيق وغير ذلك من كنايش زركش وطبول يازات بلور ومينة وبركستوانات مكفتة وأكوار زركش وغير ذلك من التحف الملوكية . فنزل جماعة من كتاب الخزينة صحبة الخوخجانات وجماعة من الخازنارية وهم بالشاش والقماش ، فكانت تلك الخوخجانات محملة على خمسين جملا ، ثم نزلت الزردخانة وهي محملة على مائة جمل ، وقدامها طبلان وزمران وعيسدان نقر على جمال ، فتوجهوا الى الوطاق .

وفي يوم الأحد سادس عشره أرسل السلطان نادى في القاهرة أن الرحيل يوم الجمعة حادي عشره ، فلا يتأخر أحد من العساكر الذي تعين للسفر ولا يحتج بحجة ولا عذر ، ولما أقام السلطان في الوطاق عين جماعة من نواب السادة القضاة للسفر صحبة الركاب الشريف . فأما نواب الشافعية : فعين منهم الشيخ زين العابدين نجل القاضي كمال الدين الطويل ، والقاضي شمس الدين بن وحيش ، والقاضي شمس الدين التنهنى امام الأمير أركماس أمير سلاح ، والقاضي زين الدين الظاهري ... فجملة ذلك أربعة من نواب الشافعية . وعين من مشايخ العلم الشافعية جمال الدين الصابوني مفتى المسلمين ، والشيخ صلاح الدين القليوبى قارئ الحديث الشريف ، وسافر صحبة هؤلاء العلماء اخوة الشريف بركات أمير مكة .

وأما من تعين من نواب السادة الحنفية : فالسيد الشريف القاضي البردينى ، والقاضي زين الدين

بعواشى حرير أصفر وطبول يازات ، وطوالتي خيل بكنايش وسروج ذهب وميائثر زركش وبعضهم بسروج بلور مزينة بالذهب وشيء عقيق مزينة بفضة ، وقد تقدم ذكر الطلب بما شرح من وصفه قبل ذلك ، ثم تقدمت جماعة من رعوس النوب مشاة والجاويشية والطبردارية مشاة بالأطبار ، ولم يكن قدامه لا وطاق ولا شجابه سلطانية كما هي عادة السلاطين في المواكب . ثم مشيت البقيع والجاميع مغطية بالحرير الأصفر ومشى البخورى بالمبخرة قدامه ، ثم أقبل السلطان الملك الأشرف قانصوه الغورى عز نصره ، وكان الخليفة قدامه بنحو عشرين خطوة . وكان السلطان راكبا على فرس أشقر بسرج ذهب وكنبوش وعلى رأسه كلوته وهو لابس قباء بعلبكي أبيض بطرز ذهب على حرير أسود عريض قيل كان فيه خمسمائة ذهب بنادقة ، وكان ذلك اليوم في غاية الأبهة والعظمة ، فانه كان حسن الهيئة تملأ منه العيون مبعجلا في المواكب ، وأقبل والصنجد السلطاني على رأسه ومقدم المماليك سنبل العثماني خلفه وصحبته السلحدارية بالشاش والقماش والجهم الكثير من الخاصكية والجمدارية . فدخل من باب زويلة وشق القاهرة في ذلك الموكب الحافل ، فارتجت له القاهرة في هذا اليوم ، وضجت الناس له بالدعاء من العوام وغيرهم ، وانطلقت له النساء بالزغاريت من الطيقان ، فاستمر في ذلك الموكب حتى خرج من باب النصر وكان يوما مشهودا . ثم وصل الى المخيم بالريداية ، ثم في عقيب ذلك اليوم نزلت خووخجانات فيها الذهب والفضة وضمن كل واحدة من الذهب العين ألف دينار خارجا عن المعادن وقد فرغ الخزان من الأموال

عبد الكريم بن الأذنى ، وغير ذلك من المباشرين .
وأما من توجه صحبه السلطان من الاطباء فمنهم .
محمد ابن الرئيس شمس الدين القوصوى وهو
رأس الاطباء الا ان ، وصحبته جماعه من الاطباء ،
ومن الكحالين عبد الرحمن ابن الشريف ، ومحمد
ابن العفيف ، وآخرون . ومن المزينين عبد القادر
المرشدى وآخرون من الجراحية . وأما من توجه
صحبه من معانى الدكة : فهم نور الدين المحوجج
وأحمد بن أبى سنة وأحمد المحلاوى . وتوجه
صحبة السلطان جماعة كثيرة من البنائين والتجارين
والحدادين كما جرت به العادة .

وسافر معه شيخ المشايخ ، المسمى بشيخ
الخرافيش ، وجنده وصنجه وطبله ، وكان هو
قدام طلب السلطان لما دخل الى دمشق كما جرب
به العوائد القديمة عند خروج التجاريد .

ولما كان يوم الثلاثاء ثامن عشر ربيع الآخر رحل
من المخيم الشريف ثلاثة من الأمراء المقدمين وهم
الأمير كرتباى الأشرفى الذى كان والى القاهرة
وبقى مقدم ألف ، وكان جملة ما معه من مماليكه
أربعين مملوكا ، والأمير أبرك الأشرفى والأمير
بيرس قريب السلطان ، وكان جملة ما معه من
مماليكه أربعة وأربعين مملوكا .

وفى يوم الأربعاء تاسع عشره رحل من الأمراء
المقدمين ثلاثة أيضا وهم : الأمير تانى بك الخازندار
وكان جملة ما معه من مماليكه اثنين وستين
مملوكا ، والأمير قانصوه كرت وكان جملة ما معه
من مماليكه اثنين وخمسين مملوكا ، والأمير قانصوه
ابن سلطان جركس وكان جملة ما معه من مماليكه
ستة وسبعين مملوكا ، وأما الأمير جان بلاط الموتر
فكان جملة ما معه من مماليكه ستة وثلاثين مملوكا ،

الشرنقاشى ، والقاضى شرف الدين البلقينى ،
والقاضى عز الدين خليل . وأما نواب السادة
المالكية فتعين منهم : القاضى شمس الدين المدينى
والقاضى معين الدين بن يعقوب . وأما نواب السادة
الحنابلة فتعين منهم : القاضى شهاب الدين الهيمى
والقاضى شمس الدين الطرابلسى . وأما من توجه
صحبة الركاب الشريف من مشايخ الصوفية :
فمنهم السادة الأشراف القادرية ، وخليفة سيدى
أحمد البدوى رضى الله عنه ، والشيخ محمد بن
كشك ، وخليفة سيدى أحمد الرفاعى رضى الله
عنه ، والشيخ عفيف الدين شيخ مشهده السيدة
نفيسة رضى الله عنها . وأما من توجه صحبة
الركاب الشريف من أئمة السلطان : فقاضى القضاة
الحنفية شمس الدين السمديسى ، والشيخ شهاب
الدين بن الرومى . وأما من توجه من مشايخ
القراء صحبته : فالشيخ شمس الدين بن الظريف ،
والشيخ الخواص ، والرومى ، والشيخ حسن
الطنتائى ، وابن القاضى خليل ، والشيخ أبو الفضل
القار ، وابنا عثمان الاثنان . وأما من سافر معه
من المؤذنين ، فمنهم : نور الدين الخواص ،
ونور الدين الحسنى ، وجلال الدين ، وناصر
الدين . وأما من توجه صحبة السلطان من
الموقعين : فمنهم القاضى رضى الدين الحلبي ،
والقاضى عمر بن معين الدين ، والقاضى علم الدين
العباسى ، والقاضى محب الدين الظاهرى ، وشمس
الدين الجيزى ، وسعد الدين بن الرومى . وأما
من توجه صحبته من كتاب الخزينة فمنهم : القاضى
كريم الدين عبد الكريم بن الجيعان أخو الشهابى
أحمد ، والقاضى شمس الدين محمد ابن القاضى
صلاح الدين بن الجيعان . وأما كتاب الزردخانه
فمنهم : القاضى زين الدين عبد الباسط ، والقاضى

والأمير تمر الزرد كاش كان جملة ما معه من مماليكه اثنين وسبعين مملوكا .

وفي يوم الجمعة حادى عشره رحل من الأمراء المقدمين أرياب الوظائف الأمير أنص باى حاجب الحجاب وكان جملة من معه من المماليك أربعة وستين مملوكا ، والأتابكى سودون العجمى ، وأما المقر الناصرى ولد السلطان أمير آخور كبير والأمير أقبای الطويل أمير آخور ثانى فانهما لا يرحلان الا فى ركاب السلطان ، وكان جملة ما مع الأتابكى سودون من مماليكه مائة وخمسة وثلاثين مملوكا ، وولد السلطان عشرين مملوكا كتابية صغارا للخدمة ، وجملة ما مع الأمير أقبای الطويل من مماليكه خمسة وأربعين مملوكا ، فكان جملة ما مع هؤلاء الأمراء الذين توجهوا صحبة السلطان تسعمائة وأربعة وأربعين مملوكا على ما قيل . ويقال ان عدة المماليك الذين خرجوا فى هذه التجريدة من القرائصة والجلبان وأولاد الناس خمسة آلاف نفر ، على ما قيل ، والله أعلم . وقيل تأخر بالقاهرة من المماليك القرائصة والعواجز والشيوخ والمماليك الجلبان فى الطباق والقلعة وأولاد الناس نحو ألفى نفر على ما قيل .

ولما كان السلطان بالمخيم الشريف ورد عليه مطالعة من عند نائب حلب واذا فيها : « ان ابن عثمان أرسل قاصدا فعوقناه عندنا وأخذنا الكتاب منه وهاهو وأصل لكم » فوصل اليه وهو بالمخيم بالريداية . ولما فكاه السلطان وقرأه فاذا فيه عبارة حسنة وألفاظ رقيقة ، منها أنه أرسل يقول له : « أنت والدى وأسألك الدعاء وانى ما زحفت على بلاد على دولات الا باذنك وانه كان باغيا على ،

وهو الذى أثار الفتنة القديمة بين والدى والسلطان قايتباى حتى جرى بينهما ما جرى ، وهذا كان غاية الفساد فى مملكتكم وكان قتله عين الصواب . وأما ابن سوار الذى ولى مكانه فان حسن ببالكم أن تبقيه على بلاد آبيه أو تولوا غيره ، فالأمر راجع اليكم . وأما التجار الذين يجلبون المماليك الجراكسة فانى ما منعتمهم وانما هم تضرروا من معاملتكم فى الذهب والفضة فامتنعوا عن جلب المماليك اليكم ، وان البلاد التى أخذتها من على دولات أعيدها لكم وجميع ما ترومونه ويريده السلطان فعلناه » .

فلما سمع السلطان ذلك أحضر الأمراء المقدمين وقرأ عليهم كتاب ابن عثمان ، فانشرح الأمراء والسلطان لهذا الخبر ، واستبشروا بأمر الصلح والعود الى الأوطان عن قريب ... وكان هذا كله حيل وخداع من ابن عثمان حتى يبلغ بذلك مقاصده ، وقد ظهر حقيقة ذلك فيما بعد .

وفى عقيب ذلك اليوم حضر الأمير اينال باى الدوادار سكين ، الذى كان توجه الى حلب بسبب كشف خبر ابن عثمان ، فلما حضر وجد السلطان قد برز خيامه الى السفر وخرج من القاهرة فأخبر أن قاصد بن عثمان وصل الى حلب ، وأن ابن عثمان يقصد الصلح بينه وبين السلطان ، فقدم لاينال باى هناك مقدمة حافلة .

ومما وقع للسلطان وهو بالوطاق أن ليلة رحيله من الريداية خلع على الأمير طومان باى الدوادار كاملية بسمور حافلة وقرره نائب الغيبة بالقاهرة الى أن يحضر . وخلع على القاضى بركات بن موسى وقرره فى الحسبه عوضا عن الأمير ماماي الى أن

إذا ما اشتكى المظلوم من جور ظالم
له طلعة بالعدل تؤذن بالفجر
فيارب كن عوناً له ومساعداً
على كل ما يغشاه من حادث الدهر
وأبق ابن موسى للرعية أنه
كليم زكى القلب آمن من السحر
جناب كريم ثم ناظر حسبه
ومولده قد كان في ليلة القدر
وللسادة الأشراف ينظر بالتقى
ونال بهذا غاية الفوز بالأجر
وصار لديوان الذخيرة ناظراً
وعامله في أعناق أعدائه يبري
عزيز بمصر حاز طلعة يوسف
أعوذه بالنجم والنور والحشر

وفي يوم السبت ثاني عشر ربيع الآخر رحل
السلطان من المحيم الشريف بالريديانية وصحبته
الحليفة والقضاة الأربعة وولده المقر الناصري أمير
آخور كبير وأقبای الطويل أمير آخور ثاني فصلی
صلاة الصبح ورحل وتوجه الى خانقاه سرياقوس ،
وكانت مدة اقامته في الوطاق بالريديانية سبعة أيام ،
فلما توجه الى خانقاه سرياقوس أقام بها يوماً وليلة
ورحل عنها يوم الأحد ثالث عشره .

وفي يوم الاثنين رابع عشره فرقت الجامكية
الثالثة على العسكر الذي تأخر بمصر ، فجلس
الأمير طقطبای عند سلم المدرج ، وصرفت الجامكية
بحضرته ... وهذه أول جامكية صرفت في غيبة
السلطان .

وفي ذلك اليوم رسم الأمير الدوادار للأمرء
المقدمين الذين عينهم السلطان الى الشرقية
والغربية بأن يرحلوا ويسافروا لأجل حفظ البلاد

يحضر ، وجعل الزينى بركات بن موسى المذكور
متحدثاً في جميع أمور السلطنة . وفي تلك الليلة
أحضر مشاعل موقدة فطارت منها شرارة على خيمة
السلطان فاحترق جانب منها ، فلم تتفائل الناس
بذلك بسبب السلطان . فلما دخل الزينى بركات
ابن موسى الى القاهرة تضاعفت عظمته الى الغاية
وصار في مقام نظام الملك وهو المتصرف في أمور
الملكمة ، والأمير الدوادار الكبير معه كاللؤلؤ
يديره كيف يشاء .

وفي تلك الليلة أيضاً خلع على الأمير الماس ،
وقرره والى القاهرة وأوصاه بحفظها وعدم الظلم ،
وخلع على الأمير مامای المحتسب ورسم له بالسعر
معه الى حلب ، فرجع الأمير الدوادار من عند
السلطان وشق من الصليبية في موكب حافل وقدامه
المنادون ينادون بالأمان والاطمئنان والبيع والشراء ،
وأن لا أحد من الناس يمشی من بعد العشاء
بسلاح ، ولا يشوش مملوك ولا غلام على مسبب ،
وأن من كانت له ظلامة أو حق شرعى على أحد ولم
يدفعه له فعليه بباب الدوادار فارتفعت له الأصوات
من الناس بالدعاء . وكان الأمير الدوادار محبباً
للرعية والفقراء ، قليل الأذى في حق الناس . ولما
شق الصليبية شق في موكب حافل وقدامه السعاة
والسقاءون والجهم الكثير من الناس والأتباع
والماليك السلطانية ، وتوجه الى منزله في ذلك
الموكب . وقد قلت في ذلك :

لقد شرف الأكوان نائب غيبة

أمير دوادار الى النهى والأمر

كريم شجاع في المعامع فارس

له نصره في الحرب بالبيض والسم

فقبضوا على ذلك الرجل الذى زعموا أنه فداوى
وأحضره بين يدى السلطان ، فقرره فأنكر فرسم
بشنته .

ثم ان السلطان أرسل يقول للأمير ألماس والى
القاهرة بأن يكبس على علم الدين وعلى أقاربه
ويقبض عليهم ويشنق علم الدين على بابه ، فلما
بلغ علم الدين الجلبى ذلك اختفى وهرب من
بيته .

ثم ان الوالى قبض على جماعة من الساسة
من أقارب علم الدين ووضعهم فى الحديد ، فأشيع
بين الناس أنهم شنقوهم فى المقشرة أو سجنوهم
حتى يحضر السلطان . وكان قبل ذلك حرق
للأمراء أيضا عدة شون دريس فى الحسينية بنحو
ألقى دينار ، فنسبوا ذلك لفعل جماعة من الساسة
من أقارب علم الدين الجلبى ، واذا وقعت البقرة
كثرت سكاكينها ، واستمر الطلب الحثيث على
علم الدين الجلبى الى أن ظفروا به ، فقيلا ان
الوالى لما هرب علم الدين أرسل مماليكه باللبس
الكامل فى طلب علم الدين فلم يظفروا به .

وفى يوم الجمعة ثامن عشره خرج الأمير
الدوادار وسافر بسبب سد جسر الفيض وجسر
أبى المنجا وقد أعيا الخولة سدهما ، وكان النيل
قد زاد قبل المنادة ، وكان فى اثنى عشر ذراعا
فتعب الأمير الدوادار فى سد تلك الجسور غاية
التعب ، وكسر مراكب فى أساس هذين السدين
والماء بقوى على ما يصنعون الى أن أعان الله
وسدهما ورجع .

وفى جمادى الأولى خرج الأمير مامى الصغير
المحتسب وسافر ولحق السلطان ، وخرج صحبته
صبي صغير عمره ثلاث عشرة سنة ويقال له قاسم

من فساد العربان ، فتوجه الأمير تانى بك الى
الشرفية ، والأمير أزيك المكحل الى الغربية ،
والأمير قانصوه الفاجر الى المنوفية ، والأمير
قانصوه أبو سنه الى البحيرة ، والأمير بخشبای
كان مسافرا الى جهة الفيوم بسبب عمارة الجسر
الذى هناك . ثم نادى الأمير الدوادار فى القاهرة
لجميع المماليك السلطانية المعينين الى البلاد بأن
يخرجوا صحبة الأمراء الذين يسافرون الى الشرقية
والغربية ولا يتأخر عن ذلك أحد من المماليك
المعينة للسفر فامثلوا ذلك .

وفى يوم الاثنين رابع عشره توفى الأمير نوروز
تاجر المماليك وأحد الأمراء الطبلخانات ، وكان
أصله من مماليك الأشرف قايتباى ، وكان قد كبر
وثقل فى الشحم حتى عجز عن الحركة ، واستمر
على ذلك حتى مات ، فأشيع أن السلطان أنعم على
مملوكة مامى الذى قرر فى الحسبة بىرك نوروز
وخيوه وبغاله وخيامه على ما قيل والله أعلم .

وفى ذلك اليوم أظلم الجو وأرعس وأبرق ،
وأمرت السماء مطرا غزيرا ، وكان ذلك فى أول
بؤونة من الشهور القبطية ، فاستمر المطر عمالا
ثلاثة أيام متوالية حتى عد ذلك من النوادر . وقام
عقيب ذلك رياح واصفر الجو صفرة عظيمة وقت
المغرب فتفائل الناس بوقوع فتن فى الوجود وقد
جرى فيما بعد .

وفى ذلك اليوم جاءت الأخبار من عند السلطان
أنه لما رحل من الخانقاه وجد فى وطاقه شخص من
السعادة ، زعموا بأنه فداوى أرسله علم الدين
چلبى السلطان الذى تغير خاطره عليه كما تقدم
ذكر ذلك ، فقال أعداء علم الدين انه أرسل ذلك
الفداوى ليقتل الصبى المسمى بعبد الرزاق الذى
صار چلبى السلطان عوضا عن علم الدين ،

وألا يخرج أحد من الناس من بيته بعد العشاء ولا
يمشى بسلاح .

ومن الوقائع اللطيفة أن الأمير الدوادار لم
يشوش على أحد من أجناد الحلقة ولا ألزمهم
بالمبيت في القلعة في غيبة السلطان ، وكانت العادة
القديمة أن السلطان اذا سافر نحو البلاد الشامية
تتسلط نقباء القصر على أولاد الناس من نقباء
الحلقة ويلزمونهم بالمبيت في القلعة في كل ليلة في
مدة غيبة السلطان الى أن يحضر من السفر ،
فيحصل لهم مشقة زائدة ويقاسون تعباً شديداً
بسبب طلوعهم كل ليلة الى القلعة ليبيتوا بها
بعيدا عن بيوتهم في الشتاء ، والذي لا يبيت يقيم
له بديلا يبيت عنه بالقلعة . وكان ذلك يعمل الى
أيام الأشرف قايتباي لما كان يسافر ، فلم يتعرض
الأمير الدوادار لما سافر الغوري الى أحد من
الناس من أجناد الحلقة ، فكتب ذلك في صحيفة
الأمير الدوادار ودعا له أولاد الناس الذين أبطل
عنهم هذه السنة السيئة .

ومن الحوادث في غيبة السلطان أن شخصا من
مماليك السلطان الجلبان قصد أن يشتري قمحا
من مركب على شاطئ البحر ، فلما اشتراه لم
يجد تراسا فوجد شخصا من الفلاحين الصعايدة
ومعه حمار وزكبية ، فأمسك المملوك ذلك الحمار
والزكبية فلم يعطه الفلاح اياهما ، وتنازع معه
فضربه المملوك ضربا مبرحا على رأسه حتى سال
دمه ، فألقى الرجل نفسه في البحر فأغمر عليه
فمات ، فعند ذلك تكاثر الناس على ذلك المملوك
فمسكوه وأتوا به الى بيت الأمير الدوادار ،
فوضعه في الحديد وأرسله الى الوالى ... فلما
بلغ خشداشيه أتوا الى بيت الدوادار فوجدوه
غائبا نحو جسر الفيض بسبب سده ، فقبل للممالك

ابن أحمد بك بن أبى يزيد بن عثمان وكان عمه
سليم شاه ابن عثمان لما قتل أخاه أحمد بك فر ابنه
قاسم هذا هو ولالاه ، ودخل الى حلب في الخفية
ثم جاء الى مصر وأقام بها الى أن خرج السلطان
الى جبة البلاد الشامية ، فأخذه صحبته ليبلغ
بذلك مقاصده ، فلم يفد من ذلك شيء . ولما خرج
صحبة الأمير ماماي خرج وقدامه جنائب ، وكان
السلطان قد قام له بمصالح البرق ، وتكلف عنه
بنحو ألفي دينار حتى يظهر أمره ويشاع ذكره في
بلاد بنى عثمان بأن في مصر من أولاد بنى عثمان
ولدا ذكرا ، وظن السلطان أن عسكر ابن عثمان
اذا سمعوا ذلك يخامرون على سليم شاه ويأتون
الى هذا الصبي قاسم ، فلم يظهر لهذا الأمر نتيجة
ولا أفاد ما قصده شيئا ، فشق من الصليبة وعلى
رأسه عمامة تركمانية وفي وسطه خنجر ملوكى .
وقيل كان في أذنه بلخشة مشمة ، وصحبته جماعة
من العثمانية . وخرج صحبته الأمير ماماي والأمير
اينال باى دوادار سكين الذى كان قد حضر من
البلاد الشامية ، فرسم له السلطان بالعود ثانيا
صحبته الى حلب .

ومن الحوادث التي جرت في غيبة السلطان أن
الأمير ألماس والى الشرطة صار يحجر على الناس ،
ويأمرهم بأن يعمروا على الحارات والأزقة دروبا
في أماكن شتى ، فعمروا دربا في رأس سوق
الدريس ودربا في الحسينية ودربا على قنطرة
الحاجب ودربا عند الفرايين وآخر عند خوخة
القطانين وآخر عند المقس وعدة دورب في أماكن
شتى ، وسد عدة خوخ كانت بالقاهرة فصار على
رأس الناس طيرة بسبب المناسر والحريق بالقاهرة ،
وأمرهم بأن يعلقوا على كل دكان قنديلا ،

ومن الاشاعات التي أشيعت في أثناء الطريق أنه سرقت بغلة قاضي القضاة الحنفية ثم ظهرت بعد ذلك وتكلف عليها الحلوان حتى رجعت اليه . وأشيع أن بقجة فيها قماش قاضي القضاة الحنبلي سرقت من خيمته . وأشيع أنه قد سرق للسلطان جمل عليه مال له صورة ، فقبض على من فعل ذلك ، ووسط من الجمالة ثلاثة أنفار ... وكل ذلك اشاعات ليس لها صحة .

ثم وردت الأخبار أن السلطان دخل مدينة غزة المحروسة يوم الخميس رابع جمادى الأولى ، فلاقاه الأمير دولات باى نائب غزة ومد له مدة حافلة ، وقدم له مقدمة عظيمة ، وقيل انه أقام بها خمسة أيام ورحل عنها .

وأشيع أن السلطان لما كان بغزة خلع على جمال الدين الألواحى بواب الدهيشة وقرره معلم المعلمين عوضا عن الشهابى أحمد بن الطولونى بحكم انفصاله عنها ، وكان هذا من غلطات الزمان في تولية الوظائف غير أهلها .

وفي يوم الجمعة تاسع عشره طلع ابن أبى الرداد ببشارة النيل المبارك ، فأخذ القاعدة فجاءت اثني عشر ذراعا وهذا من النوادر ، وقد بقى على الوفاء ستة أذرع . هكذا نقله المقرزى في الخطط ، وزاد الشيخ جلال الدين السيوطى في كتابه المسمى بـكوكب الروضة أربعاً وعشرين اصبعاً . وكان الناس من أيام الناصر محمد بن قلاوون ما رأوا القاعدة جاءت اثني عشر ذراعا ، فإن أيامه ستة احدى وستين وسبعمئة جاءت القاعدة اثني عشر ذراعا وكان الوفاء سادس مسرى وبلغت الزيادة في تلك السنة الى ما يقرب من أربعة وعشرين ذراعا ، فحصل للناس بسبب ذلك الضرر الشامل ،

ان ذلك المملوك سلمه الأمير الدوادر الى الأمير ألماس الوالى ، فعند ذلك نزل من الطباق الجهم الكثير من الممالك الجلبان لأجل أن ينهبوا بيت الوالى ويحرفوه ويطلقوا المملوك ، فتغافل الأمير الدوادر عن أمر ذلك القتييل وراحت على من راحت .

ومن الحوادث في غيبة السلطان أن شخصا من الطواشية يقال له عنبر مقدم طبقة الأشرفية ، وكان ساكنا بالقلعة في خرائب تتر وكان متهما بالمال ، وكان عنده ودائع من جوامك الممالك ، فنزل عليه بعض الحرامية وهو راقد في بيته ليلا وضربوه على رأسه بالجلبات حتى مات ، وأخذوا جميع ما في بيته ، وقتلوا عبده وجاريتيه ولم ينتطح فيها شاتان ، حتى تحير الأمير طقطبى نائب القلعة من ذلك ، وكيف جرى في وسط القلعة والأبواب تغلق من بعد المغرب ... فعند ذلك من العجائب !

وفي يوم الثلاثاء تاسعه توفى قاضي القضاة الشافعية جمال الدين ابراهيم ابن الشيخ علاء الدين القلقشندى رحمة الله عليه ، وكان من أهل الدين والعلم والفضل وله سند عال في الحديث الشريف ، وولى منصب القضاة في أيام الأشرف الغورى مرتين . وكان قد كبر وشاخ وقارب التسعين سنة ، وكان من أعيان علماء الشافعية رحمة الله عليه .

وفيه وردت الأخبار بأن السلطان دخل الى الصالحية في يوم الثلاثاء خامس عشرى ربيع الآخر . قيل انه لما أراد الرحيل منها أذن للخليفة والقضاة الأربعة أن يتقدموا الى غزة ، ثم لما وصل الى قطيا لاقاه الأمير قانصوه رجلة نائب قطيا ومد له هناك مدة حافلة ، وقدم له مقدمة جيدة على ما قيل .

واستسقوا في هبوطه حتى هبط بعد ما مكث الى آخر توت .

ثم في أيام الأشرف برسباي في سنة ثمان وثلاثين وثمانمائة جاءت القاعدة أحد عشر ذراعا وعشر أصابع . وكان الوفاء ثانی مسرى وبلغت الزيادة في تلك السنة عشرين اصبعاً من الذراع العشرين ، وثبت الى أواخر بابه . فلما جاءت القاعدة في هذه السنة اثني عشر ذراعا حسبت الناس أن النيل يمكث على الأراضى وقت أوان الزرع وأنه يبقى في غير آوانه ، فما حصل في هذه السنة الا كل خير ، ووفى النيل في آوانه ، وسيأتى الكلام عليه في موضعه .

وفي يوم السبت سبع عشرية توفي الأمير جاني باي من طبقة الزمامية ، وكان من أمراء الطبلخانات وأصله من مماليك الأشرف قايتباي ، وكان لا بأس به .

وفيه أخرجوا فلوساً جديداً وأبطلوا الفلوس العتق ، ونادوا بأن الفلوس العتق ينصفين الرطل والجدد معاددة ، فوقف حال الناس بسبب ذلك .

وفي جمادى الآخرة وكان مستهله يوم الثلاثاء ، توجه جماعة من نواب القضاة وأعيان الناس الى بيت الأمير الدوادار وهنوه بالشهر .

وفي هذا الشهر وردت الأخبار بأن السلطان دخل الى دمشق المحروسة يوم الاثنين ثامن جمادى الأولى ، فلاقاه الأمير سيباي نائب الشام ودخل في موكب حافل وقدامه الخليفة والقضاة الأربعة وسائر الأمراء المقدمين وأمراء الطبلخانات والعشراوات وأرباب الوظائف من المباشرين والجهم الكثير من العسكر والناس . ولاقاه أمراء الشام وعساكرها ، وحمل على رأسه القبة والجلالة كما جرت به عوائد الملوك من قديم الزمان ، فزينت

له مدينة دمشق زينة حاذلة ودقت له البشائر بقلعة دمشق ، وتر على رأسه بمنس دجار الأفرنج ذهباً وفضة وفرش له سيباي نديت منافر فرسه الشقق الحرير ، وازدهمت عليه المساليك بسبب نثار الذهب والفضة ، فكاد السلطان يسقط عن ظهر فرسه من شدة زحام الناس عليه ، فبنعهم من نثار الذهب والفضة ومن فرش الشقق الحرير تحت حافر فرسه ، فكان له بدمشق يوم دشهود وعد ذلك من المواعظ المشهودة . فاستمر ذلك الموكب الحفل حتى دخل من باب النصر الذي بدمشق ، وخرج الى الفضاء منها ، وتوجه الى المصطبة التي يقال لها مصطبة السلطان ، وهي بالقابون القاقوني ، فنزل هناك ورسم لبعض حجاب دمشق بعمارتها ، وكانت قد تشعثت من مرور السنين . وهذا الموكب لم يتفق لسلطان من بعد الأشرف برسباي لما توجه الى الشام في سنة ست وثلاثين وثمانمائة سوى الملك الأشرف قانصوه الغوري .

ثم ان السلطان أقام بالمصطبة التي بالقابون تسعة أيام . وقيل ان قاضي القضاة كمال الدين الطويل خطب بجامع بنى أمية جمعيتين ولم يحضر السلطان هناك لصلاة الجمعة . وقيل استمرت مدينة دمشق مزينة سبعة أيام ، ثم ان السلطان رحل عنها وتوجه الى حمص ، ثم رحل عنها وتوجه الى حماه فلاقاه نائبها جان بردى الغزالي . قيل انه مد له هناك مدة حافلة أعظم من مدة أمير الشام على ما أشيع . وقيل ان السلطان لما رحل من حماه نزل بها قاسم بك بن أحمد بن عثمان الذي تقدم ذكره عندما خرج من مصر وسافر صحبة الأمير ماماي المحتسب كما تقدم .

وقيل انه في ليلة الاثنين رابع عشر هذا الشهر خسف جرم القمر خسوفاً فاحشاً ، حتى أظلمت

الدنيا وأقام في الخسوف فوق خمسين درجة ،
وتغطى بالسواد جميعه ، واستمر في الخسوف الى
ثلاث الليل الأخير .

وفي يوم الاثنين رابع عشره رسم الأمير الدوادار
بشئق شخص من العربان المفسدين على قنطرة
الحاجب .

وقد ضبط الأمير الدوادار أحوال الديار المصرية
في غيبة السلطان ضبطا جيدا ، ورسم للأمير ألماس
والى القاهرة بأن يطوف في كل ليلة من بعد
العشاء ، وعين معه مائة مملوك من المماليك الجلبان
يطوفون معه : كل ليلة تنزل جماعه من المماليك
من طباقهم بالنوبة ويطوفون مع الوالى الى طلوع
الفجر ، فلم يقع في غيبة السلطان في القاهرة الا كل
خير ، وكان ذلك على غير قياس .

وكان الأمير الدوادار في كل وقت يقمع الأمير
ألماس الوالى بسبب ما أخذه من الناس لأجل
الدورب ، وقد أفحش في الظلم في هذه الحركة ،
فكان ينتق مع أرباب الأدراك والخفراء فيجبون له
من سكان الخطط والحارات لأجل عمارة
الدورب ، فجبوا له من الناس أموالا لها صورة ...
فكانت الخفراء اذا وقفوا على باب أحد من
السكان يقررون عليه من الدراهم بحسب ما
يختارونه من ذلك ، فاذا هرب صاحب الدار
سمروا الباب على أولاده وعياله حتى يحضر ويدفع
لهم ما قرروه عليه ، والمرأة الأرملة يسمرون بانها
عليها ويتركونها بالجوع والعطش حتى ترمى لهم
من الطاقة للحناف أو الطراحة أو البساط أو غير
ذلك ، فكانوا يقررون على الفقراء من الناس شئ
أشرفى وشئ أشرفين ، وأما أعيان الناس فكانوا
يقررون عليهم شئ خمسة أشرفية وشئ عشرة
أشرفية بحسب ما يختارونه ... ففعلوا مثل ذلك

بخط المتس وخط باب البحر وسويقة اللبن
بالحسينية وسوق الدريس وخط بركة الرطلى
وغير ذلك من الأماكن والخطط ، ففعلوا في هذه
الحركة ما لم يفعله هناد ، من وجوه الظلم
والفساد ، وهم يزعمون أن في ذلك نفعا للمسلمين
في عمارة الدورب . فجبوا من هذه الحركة مالا له
صورة ، ولم يصرفوا منه الا القليل .

ثم حسنوا للوالى عبارة بأن يجبى من جامع
ابن طولون الى مشهد السيدة نفيسة الى
آخر السوق الطولونى على جميع الأملاك
والدكاكين التى هناك ، وزعموا أنهم ينشئون
سورا على حدة ابن قميحة الى باب القرافة ،
وزعموا أن ذلك يمنع هجمة العربان على حين
غفلة ، وكل هذا حيلة على أخذ مال الناس .
فشرعوا في كتب أسماء الدكاكين والأملاك التى
بتلك الحارات الطولونية والقرافية . فلما بلغ
الأمير الدوادار زجر ألماس وحط عليه . وكان
أشاع ذلك على لسان الأمير الدوادار فحلف الأمير
الدوادار أيما مغلظة أنه ما له علم بذلك ، وأبطل
هذه الحادثة المهولة فدعا له الناس قاطبة .

ثم ان جماعة حاجب الحجاب قصدوا أن ينشئوا
مظلمة أخرى ، وهى أنهم يجبون من سكان بركة
الرطلى مالا له صورة بسبب قطع الطين الذى في
فم البركة ، فانه كان قد علا جدا حتى امتنع دخول
المراكب للبركة ، ولما بلغ الأمير الدوادار ذلك
أبطل هذه الفعلة أيضا ورسم بسد فم البركة رأسا
حتى لا تدخل اليها المراكب .

وفي يوم السبت تاسع عشره حضر الأمير
الدوادار وكان قد توجه الى القيوم ليكشف عن
الجسر الذى عمره الأمير بخشبى هناك ، فكشف
عليه وعاد بعد أيام .

تمتع بماء النيل قبل وفائه
فقد طاب منه الشرب وهو لنا طيب
وقد سكبت منه الجنادل فيضها
فأضحى بلا شك حلاوته سكب

ومن الحوادث أن الأمير الدوادار نائب الغيبة
منع الناس أن يسكنوا الجسر الذي ببركة الرطلى
والحلجان فاطبة ، وعمل جسرا على خليج الزريبة
عند موردة الجبس ، فأل أمر الجزيرة الوسطى
الى الخراب . فلم يكن بها بيت ، ولا فتح فيها
دكان ، ومنع المقاصفية أن ينصبوا مقصفا في
الجسر ، ولا في الزريبة ، فلم يكر في الجسر ولا في
الزريبة بيت ولا دكان ، ولم يسكن المسطاحي ولا
حكر الشامي ولا الزريبة ، وصارت بيوت بركة
الرطلى خاوية على عروشها ولا سيما بيوت أولاد
الجيعلان وبيت كاتب السر وغير ذلك من بيوت
الأعيان ، فحصل للناس في هذه السنة غاية الإنكاد
بسبب ذلك ، وخسر الناس كراء بيوتهم . وأشيع
سد خوخة الجسر ، فتلطف القاضي بركات بن
موسى المحتسب بالأمر الدوادار في أن يسمح
للناس في دخول المراكب على العادة ، وأن يسكنوا
الجسر فأبى من ذلك ، وقال ان العوام يفسدون
نساء الأغوات المسافرين صحبة السلطان في هذه
النيلية ، واستمر مصمما على منع ذلك .

ثم في أواخر النيلية شفع القاضي بركات بن
موسى في خمسة مراكب للبياعين أن تدخل في
البركة على العادة ، فدخل الحلواني والحيان
والفاكهاني والعداس والسويخاتي لا غير ، فأقاموا
أياما يسرون فلم يجدوا من يبيعون عليه ، فمضوا
الى حال سبيلهم . واستمرت بركة الرطلى ليس بها
ديار ولا نافخ نار ، فعند ذلك عمل الشيخ بدر

وفي غيبة السلطان كان الأمير الدوادار يركب
كل يوم ومعه الأمراء العشاوات الدين بمصر
ويسرون نحو المطرية وبركة الحاج ، فاذا رجع
يدخل من باب النصر ، وقدامه الجهم الكثير من
الأمراء والعسكر ، وكل هذا لأجل العرب
والفلاحين حتى لا يظنوا أنه ما بقى في مصر عسكر
ولا يطمعوا في أمر العامة ، وكان هذا من الآراء
الحسنة .

وفي يوم الاثنين حادى عشرى جمادى الآخرة
الموافق لسابع عشرى آيب كان وفاء النيل المبارك ،
وفتح السد يوم الثلاثاء ثانى عشرىه الموافق الثامن
عشرى آيب ، وقد وفى قبل دخول مسرى بأربعة
أيام ، وكان للناس مدة طويلة من سنة خمس
وأربعين وثمانمائة ما رأوا النبل وفى سابع
عشرى آيب الا فى تلك السنة . فصنف منادى
البحر هذه الكلمات : « يا حبيب اهنا وطيب ،
النيل أوفى فى آيب ، وقد بقينا فى هنا ، يافرحنا » .
وكلمات آخر غير ذلك .

فلما وفى النيل توجه الأمير طومان باهى الدوادار
نائب الغيبة لفتح السد فنزل فى مركب الحرافة
وتوجه الى المقياس وخلق العمود . ثم نزل من
المقياس فى الحرافة المذكورة وصحبته جماعة من
الأمراء المقدمين الذين كانوا بمصر ، منهم الأمير
طقطباى نائب القلعة والأمير أرزمك الناشف
وآخرون من الأمراء ... فتوجه لفتح السد وكان
يوما مشهودا . فلما فتح السد عاد الأمير الدوادار
الى بيته فى موكب حافل ، وقدامه الأمراء بالشاش
والقماش ، وجماعة من المباشرين . فلما فتح السد
جرى الماء فى الخلجان بعزم قوى ، وسر الناس فى
ذلك اليوم بوفاء النيل قبل ميعاده ، وقد قيل فى
المعنى :

الدين الزيتونى هذه المرثية اللطيفة فى واقعة الحال
فقال :

سألت الله العرشى بنعم بالنصر
لسلطاننا الغورى فهو أبو النصر
ملك عزيز أشرف ومظفر
مؤيد دين ظاهر كامل القدر
لغيبته أضحي على الكون وحشة
فهما بركة الرطلى مدمعها بجرى
يحق لنا زنى المقاصف بالبكا
خصوصا من المسطاح مع لذة الجسر
لقد كان فيه للخليج تواصل
لعمرك ان الوصل خير من الهجر
وكان بها جيمزة طاب ظلها
فناح عليها الطير والوحش فى القفر
على ما جرى للجسر ساقية بكت
وصاحت بقلب صار فى غابة الكسر
ودوحته تبكى بجماعه دما
وقد أصبح الشامى يبكى على الحكر
وأضحب بيوت الجسر خالية فلا
لصاحبها سكنى ولا أحد يكرى
وقد أصبحت تلك القصور خواليا
فياوحشة السكان من كل ذى قصر
على بركة الرطلى نوحوا وعددوا
لما حل فيها من نكال ومن خسر
فكان بها للقادسى حلاوة
مشبكها يشدو من المسك والعطر
وكان بها الفكاه يسعى بمركب
بخوخ ورمان يبشر بالبشر
وزهر ونسرين وآس ونوفر
لها بهجة للمرء طيبة النشر

وكان بها الجبان يقلى بمركب
فيجمع بين النار والماء فى البحر
وكان بها للأكلين قطايف
بها عطش تسقى من الغيث بالقطر
لها رونق فى الصحن من فستق بها
وسكرها يروى حديث أبى ذر
وكان بها للراكبين مراكب
مسترة فيها وأخرى بلا ستر
وكم داخل فيها مغن ومنشد
بنغمة فم من خفيف ومن شعر
وكم آلة للمطربين عهدتها
وجنك وأعواد تغرد كالقمرى
وقد درست تلك المعاهد كلها
وناخت بها الغربان والبوم فى الوكر
وشق شقيق الروض فيها ثيابه
وأرمى غصين الدوح مافيه من زهر
وقد لبس الشحرور سود ثيابه
وأبدى خرير الماء لظما من النهر
وسالت دموع السحب من أعين السما
وصار ضياء الصبح كالليل اذ يسر
وقد كسفت شمس الضحى فى سمائها
وأظلم نور البدر بالخسف للفجر
جزيرتنا الوسطى خراب لأنها
بها وضعوا سد الماء بها بجرى
وقد أخذوا ألقاضها لمبيعها
ولم يبق فيها من بناء سوى الجدر
وقد أصبح النوتى فى غاية الضنا
ولا يلتقى فيها معاش ولا مكرى
وباع قماش الستر منها وقلعها
وباع المدارى حيث يدرى ولا يدرى

فيامقتى جودى بدمع تحسرا
 ويامهجتى صبيرا وناهيك بالصبر
 رعى الله آيما تقضت بطبيها
 ونحن بمصر فى أمان وفى بشر
 وكان الدوادار الكبير هو الذى
 أشار بهذا المنع بالنهى والأمر
 أراد بهذا المنع صون حريم من
 غدا صحبة السلطان والبنيت فى الحدر
 فكان بهذا الأمر أكرم صائن
 حريم جميع الناس من آفة الدهر
 ولولا ابن موسى كان فى البعض شافعا
 وقد نال شكر الشاكرين مع الأجر
 لما سمحوا فيها بمركب بائع
 ولا لاح فيها من جليس على الجسر
 فياربنا أنعم علينا بنصرة
 لسلطاننا الغورى والعسكر المصرى
 وأنعم بعود الكل فى خير مقدم
 الى الأهل والأوطان فى غابة الجبر
 وصل على المختار من آل هاشم
 محمد الهادى الى الخير والبشر
 كذا الآل والأصحاب والتبع الأولى
 لهم غاية الاحسان فى موقف الحشر
 عليهم صلاة الله ما هبت الصبا
 صباحا على عود وما غرد القمرى
 وناظمها العوفى يدعو لكل من
 رأى عيب زيتونى وينعم بالستر
 وفى يوم الجمعة خامس عشره توفى الشيخ تاج
 الدين الذآكر رحمه الله وكان من أعيان مشايخ
 الصوفية ، وله شهرة طائلة بالصلاح والاستقامة
 بين الناس ، وكان لا بأس به .

وفى شهر رجب توفى الأمير طراباى أحد الأمراء
 العشراوات ، وكان مستهله يوم الخميس فتوجه
 جماعة من نواب القضاة والكتاب والأعيان الى
 بيت الأمير الدوادار نائب الغيبة وهنئوه بالشهر .
 وفى يوم الخميس ثامنه توفى تغرى بردى
 المعروف بالشمشماني وكان يدعى أنه من الأمراء
 العشراوات ، قيل انه كان من جملة السقاة فمات
 عن عدة أقطيع ورزق مشترياته ، وكان فى سعة
 من الرزق ، وكان ينسب الى شح زائد وبخل .
 وفيه جاءت الأخبار بوفاة شحص من الأمراء
 العشراوات يقال له مسايد ، وكان مسافرا صحبة
 السلطان فى التجريدة ، وكان أصله من مماليك
 الأشرف قايتباى .

وفيه دخل الأمراء الذين كانوا فى نواحي
 الشرقية والغربية كما تقدم ذكر ذلك فرجعوا عندما
 أوفى النيل وتقطعت الطرقات بالمياه .

وفيه قلق الناس بسبب الفلوس الجدد فصارت
 البضائع تباع بسعرين ، ووصل صرف النصف
 الفضة بالفلوس العتق الى ستة عشر درهما وكانت
 الفلوس الجدد تصرف معاددة وهى فى غاية الخفة ،
 فتضرر الناس لذلك وغلقت الدكاكين بسبب ذلك
 وتشحط الخبز وسائر البضائع ، وكادت أن تنشأ
 من ذلك غلوة .

وفيه وردت الأخبار بأن السلطان وصل الى
 حلب فدخلها فى يوم الخميس عاشر جمادى
 الآخرة . فكان لدخوله يوم مشهود ، وقدامه
 الخليفة والقضاة الأربعة وسائر الأمراء كموكبه
 بالشام ، وحملت القبة والجلالة على رأسه ، وكان
 حاملها ملك الأمراء خاير بك نائب حلب كما فعل
 سيباى نائب الشام .

وفى حال دخول السلطان الى حلب حضر قصاد

من التقدمة أربعين مملوكا، وأبدان سمور وأثواب
مخمل وأثواب صوف وأثواب بعلبكية وغير ذلك .
وكان ما أرسله الى الخليفة بدنين سمور وثوب
مخمل بكفوف قصب وثوبين صوف عال . وأرسل
اليه قاضى عسكر ابن عثمان ثوبين صوف وسجادة
وبغلة . وأرسل ابن عثمان الى أمير كبير أيضا
تقدمة حافلة ما بين سمور ومخمل وصوف ومن
الماليك اثنين .

ثم ان السلطان عين الأمير مغلباى دوادارسكين
بأن يتوجه الى ابن عثمان وعلى يده مطالعة من
عند السلطان الى ابن عثمان تتضمن أمر الصلح
بينهما ، والأمراء والعسكر منتظرون رد الجواب
عن ذلك . وقد نظمت هذه القصيدة فى معنى واقعة
سفر السلطان من حين خروجه من مصر الى دخوله
مدينة حلب فقلت :

ادعو بنصر للمليك الأشرف
سلطان مصر ذى المقام الأشرف
قد قدر الرحمن نقل ركابه
نحو الشام وحسنها المستظرف
اختار أن يظأ البلاد لكشفها
فغدت تجود له بجود متحف
خضعت له النواب طوعا باللقا
من غير حرب أو حسام مرهف
لو كان ذو القرنين حيا فى الورى
لاقاه بالاكرام والفضل الوفى
تاريخه فاق الملوك تعاظما
فاصغى له واسمع بغير تكلف
عائنته يوما مضى فى موكب
يزهو على برقوق وهو الأشرفى

سليم شاه بن عثمان ملك الروم ، فقبل انه أرسل
اليه قاضى عسكره — وهو شخص يقال له ركن
الدين — وأحد أمراءه يقال له فراجا باشا ،
وصحبتهم سبعمانه عليقة ، فنزلوا بمدينة حلب .
وبلغنى من الكتب الواردة بالأخبار أن السلطان
لما حضر بين يديه قاضى ابن عثمان وقراجا باشا
شرع يعنبتهم على أفعال ابن عثمان وما يبلغه عنه
وما جرى منه فى حقه ، وأخذ له لبلاد على دولات ،
فقال له القاضى وقراجا باشا : « نحن فوض لنا
أستاذنا أمر الصلح ، وقال كل ما اختاره السلطان
افعلوه ولا تشاورونى » ... وكل هذا حيل وخداع
حتى تبطل همة السلطان عن القتال ويتشتى عزمه عن
ذلك . وقد ظهر مصداق ذلك فيما بعد .

ثم ان قاضى ابن عثمان أحضر فتاوى من علماء
بلادهم ، وقد أفتوا بقتل شاه اسمعيل الصفوى ،
وأن قتله جائز فى الشرع . وأرسل يقول فى كتابه
للسلطان : « أنت والدى وأسألك الدعاء ، لكن
لا تدخل بينى وبين الصفوى » .

ومن جملة مخادعة السلطان ابن عثمان للسلطان
الغورى أنه أرسل يطلب منه سكر وحلوى فأرسل
له الغورى مائة قنطار سكر وحلوى فى علب كبار
وهذه حيلة منه ، وأرسل يقول فى كتابه : « انى
لا أحول عن اسمعيل شاه أبدا حتى أقطع أثره من
وجه الأرض ، فلا تدخل بيننا فيما يكون فى أمر
الصلح » . وأظهر أنه قاصد نحو الصفوى ليحاربه
والأمر بخلاف ذلك فى الباطن . وذكروا له أنه على
القيسارية يقصد التوجه الى الصفوى .

ثم ان السلطان خلع على قصاد ابن عثمان الخلع
السنية ، وقيل ان السلطان ابن عثمان أرسل الى
السلطان الغورى تقدمة حافلة ، وللخليفة وأمير
كبير سودون العجمى ، فكان ما أرسله ابن عثمان

ركب الخليفة والقضاة أمامه
وجيوشه منها الأسود تختفي
عادت طلعتة بسورة يوسف
وجميع عسكره بأى الزخرف
في غزة قد كان يوم دخوله
يوم الخميس بعسكر مترادف
قالت دمشق لفرحها لما أتى
أهلاً بسلطان الأنام المنصف
وتهللت بالنور جبهة ربوة
لما اكتست بالزهر حلة يوسف
وحماة أحماها بصائح عدله
فأطاعه العاصي بغير توقف
واشتافه نهر الفرات وقد أتى
تيساره بالماء في عزم وفي
واستأنست حلب به مذ زارها
واستوحشت مصر له بتكلف
شرفت به حلب وقالت فرحة
يا حبذا من قادم مستظرف
سلطاننا الغورى صار مؤيدا
مذ حفه الرحمن باللطف الخفى
فالله يبيئه على طول المدى
ما أسكرت ريح الصبا كالترقف
قد صار لابن اياس شعر قاله
لكن نظمى قد أتى بتضعف
ثم الصلاة على النبي المصطفى
خير البرية ياله من مسعف
والآل والأصحاب ما جن التدجى
أو ضاء صبح بعد ليل أوظف
وختام مسك قد شذا لما بدا
سلطان مصر ذو المقام الأشرف

وحكى أن السلطان لما دخل الى حلب رسم
لقاضى المصاة كمال الدين الطويل بأن يحطب فى
الجامع الكبير الذى يحلب ، فاجتمع الجهم الكثير
من أهل حلب فى الجامع المذكور ، فخرج قاضى
القضاة كمال الدين الطويل ورفى المنبر وحطب
خطبة بليغة ، وأورد أحاديث شريفة فى معنى الصلح .
وأذن المؤدبون بالجامع وفرأوا حزب السلطان
هناك ، وعملت الوعاظ . وكان يوما متمهودا بالجامع
المذكور ، ولم يحضر السلطان ولم يصل صلاة
الجمعة هناك كما فعل بدمشق ، فعابوا عليه ذلك .
وكان قاضى القضاة كمال الدين يحطب بالجامع
الكبير مدة إقامة السلطان بحلب .

ومن الحوادث التى وقعت من السلطان بحلب
أنه أنعم على قانصوه نائب حلب بنفسه ألف ،
وعلى يوسف الناصرى شاد الشرايحة الذى كان
نائب حماه ، وعلى طراباى نائب صفد ، وعلى
تزاز نائب طرابلس .

ومنها أنه أنفق على أولاد الناس الذين توجهوا
صحبته بلا نفقة ، لكل واحد منهم ثلاثون ديناراً .
وكان رسم لهم قبل ذلك لكل واحد بحمسين ديناراً ،
فعارض فى ذلك كاتب المالك وجعلها ثلاثين
ديناراً . وصرف المعسكر تمن اللحم عن ثلاثة
شهور .

ثم ان السلطان فرق على ممالكة الحلبان من
حواصل قلعة حلب عدة سلاح لم يعبر عنها ، وفرق
عليهم خيولاً ما لها عدد ، وصار نعم عليهم
بالعطايا الجزيلة من مال وخيول خاص وسلاح
بطول الطريق ، ولم يعط الممالكة الفرائص شيئاً
فعر ذلك عليهم فى الباطن .

ثم ان السلطان فرأ ختمة فى الميدان الكبير بحلب
يوم الخميس مع ليلة الجمعة ، وحضر أمير المؤمنين

المتوكل على الله والقضاة الأربعة ومشايخ الزوايا ،
وصلى أمير المؤمنين بالسلطان في الحيمة صلاة
العصر وصلاة المغرب .

وأنعم السلطان في ذلك اليوم بأربعمائة دينار ،
ومائة رأس غنم ، وأنعم على فاضى القضاة
الشافعى بسبعين ديناراً ، وعلى نوابه ومن معه من
العلماء بسبعين ديناراً ، والقاضى الحنفى كذلك .
وأنعم على القاضى المالكى بخمسين ديناراً ، وعلى
نوابه الثلاثة بثلاثين ديناراً ، وكذلك القاضى
الحنبلى . وأنعم على مشايخ الزوايا لكل واحد
منهم خمسون ديناراً ، ، وأنعم على الفقراء الذين
سافروا صحبته لكل واحد منهم عشرة دنانير ،
وأنعم على القراء الذين حضروا هذه الختمة من
قراء حلب وغيرها لكل واحد خمسة دنانير . وفى
عقيب ذلك أحضر السلطان الأمراء المقدمى الألوفا
والنواب والأمراء الطبلخانات والأمراء العشراوات
وحلفهم على المصحف الشريف بأنهم لا يخونونه
ولا يغدرونه ، فحلفوا كلهم على ذلك .

ثم نادى للعسكر بالعرض فى الميدان الذى فى
حلب فعرضوا وهم باللبس الكامل وأدخلهم من
تحت سيفين على هيئة قنطرة ، كما هى عادة
الأتراك . وعندهم أن هذا هو القسم العظيم .
ثم ان السلطان أرسل خلف قاسم بك فى حماة
فلما حضر خلع عليه وأشهر أمره بحلب .

ثم وردت الأخبار الى حلب بأن سليم شاه بن
عثمان قبض على قاصد السلطان الذى كان أرسله
الى ابن عثمان ، وهو الأمير مغلباى أحد الدوادارية
ووضعه فى الحديد . وكان السلطان جهز الأمير
كرتباى الأشرفى أحد الأمراء المقدمين الذى كان
والى القاهرة الى ابن عثمان وصحبته هدية حافلة
بنحو عشرة آلاف دينار ، وخلع على قاضى عسكر

ابن عثمان ووزير قراجا باشا الذى تقدم ذكرهما
خلعة سنوية بطرز يلبغاوى عريض ، وأذن لهما
بالعود الى بلادهما . وكان هذا هو عين الغلط من
السلطان الغورى ، حيث أطلق فصاد ابن عثمان
قبل أن يحضر مغلباى ويظهر له من أمر ابن عثمان
ما يعتمد عليه .

ثم لما وصل الأمير كرتباى الى عنتاب بلغه أن
السلطان ابن عثمان أبى الصلح وقبض على الأمير
مغلباى ووضعه فى الحديد بعد أن قصد شنقه ،
فشنع فيه بعض وزرائه وقصد حلق لحيته . وقد
قاسى منه من البهدلة ما لا يمكن شرحه . فلما
تحقق الأمير كرتباى ذلك رجع الى حلب ، وأعلم
السلطان بما فعله سليم شاه ابن عثمان بالأمير
مغلباى ، وأن طوالع عسكره قد وصلت الى عنتاب
وملكت قلعة ملطية وبهنسا وكركر وغير ذلك من
القلع . ولما وصل الأمير كرتباى بهذه الأخبار
الردية الى السلطان اضطربت أحواله وأحوال
الناس وأحوال العسكر قاطبة .

ثم ان السلطان أنعم على الأمير عبد الرزاق
وولاه على اقليم أولاد ذو الغادر ، فخرج من حلب
وصحبته ملك الأمراء خاير بك فى موكب حافل .
فخرج نائب حلب وأمراؤها وعساكرها ونزلوا عن
حلب بيوم ، وصحبتهم من المشاة خمسة آلاف
ماش ، وأنفق عليهم السلطان جامكية شهر واحد .
ثم خرج بعدهم ملك الأمراء سيباى نائب
الشام ، وتمراز نائب طرابلس ، وطراباى نائب
صفد ونائب حمص ونائب غزة ، فخرجوا من حلب
يوم السابع عشر من شهر رجب . وقد أشيع أن
ابن عثمان ماش من جهة وابن سوار ماش من
جهة .

ثم ان السلطان نادى للعسكر بالرحيل من

ووافق ذلك يوم النوروز من السنة القبطية
فعد ذلك من النوادر ، وقد دخلت سنة قبطية في
أول يوم من الشهور العربية ، ولا سيما يوم
الجمعة وهو يوم فيه ساعة الاجابة .

وفي يوم السبت خلع الأمير الدوادار على
شخص من الخاصكية يقال له جاني بك القصير
وهو من ممالك السلطان وقرره في كشف منفلوط
عوضا عن اينال بن جاني بك الذي كان بها ، وقد
ضعف بصره .

وفي يوم الأحد ثالثه عرض الأمير الدوادار
المحايسس الذين بالسجون وعرض النساء اللاتي
بالحجرة فأطلق منهم جماعة ممن عليهم دين ،
وصالح أرباب الدبون من ماله وأرصاهم ،
واستتاب جماعة من الحرامية وأطلقهم ، ورسم
بتوسيط جماعة ممن عليهم الدم ، وأبقى منهم
جماعة في السجون الى أن حضر السلطان .

ثم ان الأمير الدوادار تصدق على الفقراء بمبلغ
له صورة ، ورسم بقراءة ختمات في جميع مساجد
القاهرة ، وقال ادعوا للسلطان بالنصر .

وفي يوم الاثنين رابعه خلع الأمير الدوادار على
يوسف البدرى وأعاده الى الوزارة كما كان ،
وهذه رابع ولاية له بالوزارة .

وفي ذلك اليوم نودى في القاهرة بسفر الحاج
على العادة ، وكان أشيع عدم خروج الحاج في
هذه السنة .

وفي يوم الثلاثاء خامسه مع ليلة الأربعاء توفي
قاضي الحنفية كان برهان الدين ابراهيم بن الكركى
وهو ابراهيم بن الشيخ زين الدين عبد الرحمن بن
اسماعيل الكركى الحنفى وكان عالما فاضلا رئيسا
حشما من أعيان الحنيفة ، سمع على الشيخ محيى
الدين الكافيحى ، والشيخ سيف الدين وآخرين

حلب والنزول على جيلان لقتال الباغى ابن عثمان ،
وأن السلطان والأمراء عن تريب يخرجون الى
القتال ، والذى يريد الله هو الذى يكون ...
وهذا ما نقل من شرح كتاب أمير المؤمنين الى ولده
أمير المؤمنين يعقوب .

ثم ذكر فيه عن أمر الأسعار في حلب ، فقال :
الشعير كل أردب بسبعة وعشرين نصفا ، والخبز
لل رطل بثلاثة دراهم ، والجبن بنصفين الرطل ،
واللحم بنسعة دراهم كل رطل مصرى ، والدبس
بصنف فصه الرطل المصرى ، وتناهى سعر القمح
الى أشرفيين لل أردب ، والكرسنه عليق الجمال
بمائة وأربعة وعشرين درهما الأردب

ثم ان السلطان أرسل مثالا شريفا الى الأمير
الدوادار تتضمن الوصيه بالرجعة ، وأن الممالك
الجلبان الدين بالطباق كعمور الأذى عن الناس
ولا يشوشون على أحد من المتسبيين ، وأن الأمير
الدوادار يعرض جمبع من فى الجبوس قاطبة من
رجال وساء ، ويطلق المديوبين وغيرهم ، ولا
يترك بالجبوس غير أصحاب الجرائم ممن عليه
دم . وأرسل أيضا يقول له ان كان درب الحجاز
آمنا من العربان فجهز الحاج من القاهرة ، وان
كان مخوفا فلا يسافر أحد من الحجاج فى هذه
السنة .

وأرسل أيضا مثالا شريفا الى الممالك الجلبان
الذين بالطباق بأنهم لا ينزلون من الطباق الى
المدينة ، ولا يشوشون على أحد من الناس قاطبة ،
ومن يفعل ذلك يشنق من غير معاودة ، فقضى
عليهم هذا المثال بالقلعة بين يدى الأمير طقطباى
نائب القلعة ، وأرسل بالسلام على الأمراء
والعسكر قاطبة .

وفي شهر شعبان — وكان مستهله يوم الجمعة —

من الأمراء منهم الأمير يوسف الناصري شاد الشرايحافاه ، ومنهم طراباي بن يشبك نائب صفد ، ومنهم قانصوه استادار الصحبة ، ومنهم فانصوه الأشرقي نائب قلعة حلب ، ومنهم تمراز نائب طرابلس ، وآخرون . والذي يظهر من أمر السلطان أنه كان يريد ابطال جماعة من الأمراء المقدمين العواجز ويجعل هؤلاء عوضا عنهم .

وفي يوم الجمعة خامس عشر شعبان ، توفي الحاج علي البرماوي بزردار السلطان والمتحدث على جهات الديوان المفرد ، وقد رأى من العز والعظمة ما لم يره غيره من البزدارية ، وساعدته الأقدار حتى وصل الى ما لم يصل اليه غيره في هذه الوظيفة ، وكان سبب موته أنه طلع له شففة في ظهره فانقطع اثني عشر يوما ومات .

وكان أصله من فلاحين برمة يبيع الخام والطرح في الأسواق وهو راكب على حمار الى أن فتح الله عليه ، وكان لا بأس به ، وعندده لين جانب مع تواضع زائد ، وظهر له من الموجود بعد موته من الذهب العين خمسمائة ألف دينار وستمائة دينار . ووجد له في مكان اثنا عشر ألف دينار ذهب عين برسبيية ، ووجد له من الحجورة والمهارة نحو خمسة وأربعين رأسا ، ومن الجاموس مائة رأس ، ومن الغنم الضأن ألف رأس ، ووجد له بالدواليب أربعمائة ثور ، وضاع له عند الفلاحين بالبلاد أكثر مما تقدم ذكره ، فقوم ذلك الموجود بمائة ألف دينار .

وفي يوم السبت سادس عشر شعبان أشيع خبر هذه الكائنة العظيمة التي طمت وعمت وزلزلت لها الأقطار ... وما ذلك الا أن أخبار السلطان والعسكر انقطعت مدة طويلة ، ثم حضر كتاب على يد ساع مجرد مطرد من عند الأمير علان دودار ثاني أحد

من علماء الحنفية . وكان امام الأشرف قايتباي ، ورأى في أيامه غاية العز والعظمة ، وولى عدة وظائف سنية ، منها أنه ولى مشيخة أم السلطان التي في التبانة ، ومنها استيفاء الصحبة ، ثم ولى قاضي قضاة الحنفية مرتين ، ثم ولى مشيخة المدرسة الأشرفية وقاسى محنا وشدائد من الأشرف . وكان بشوش الوجه عنده رقة حاشية ولطافة ، غير كثيف الطبع ومات وهو في عشر الثمانين ، وعاش سعيدا ومات شهيدا ، وكان في أرغد عيش من المال والجاه . وكان سبب موته أنه كان ساكنا على بركة الفيصل فنزل يتوضأ على سلم القيظون وفي رجله قبقاب ، فزلقت رجله بالقبقاب ، فوقع في البركة وكانت في قوة ملئها أيام النبل ، ولما وقع ثقلت عليه الثياب فمات من وقته رحمة الله عليه ومات شهيدا .

وفيه خلع الأمير الدوادار على شخص من الخاصكية يقال له قجماس وقرره في كشف المنوفية عوضا عن قانصوه الذي كان بها .

وفيه جاءت الأخبار من حلب بوفاة شمس الدين محمد بن ناشي شيخ سوق الكتبيين ، وكان مقربا عند السلطان ، وقد حاز عدة وظائف سنية .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة الأمير يوسف الشهير بالمقطش الذي كان نائب صفد وعزل عنها ثم توفي بحلب . وأشيع وفاة أبرك الذي كان كاشف اقليم الجزيرة وكان من الأمراء العشراوات . وأشيع وفاة جماعة كثيرة كانوا صحبة السلطان بسبب وخم حصل لهم . فمات في غزة وفي انشام وفي حلب من الأمراء العشراوات والخاصكية والعلمان وغير ذلك مالا يحصى عدده ماتوا من كثرة الأوخام التي كانت معهم بطول الطريق .

وفيه جاءت الأخبار بصحة ما تقدم ذكره . وأن السلطان لما كان بحلب أنعم بتقادم ألوف على جماعة

فركب السلطان وهو بتخفيفه صغيرة وملوطة وعلى كتفه طبر وصار يرتب العسكر بنفسه . وكان أمير المؤمنين على الميمنة وهو بتخفيفه وملوطة وعلى كتفه طبر مثل السلطان ، وعلى رأسه الصنجد الخليفة . وكان حول السلطان أربعون مصحفا في أكياس حرير أصفر وعلى رعوس جماعة أشرف وفيها مصحف بخط الامام عثمان بن عفان رضى الله عنه . وكان حول السلطان جماعة من الفقراء وهم خليفة سيدى أحمد البدوى ومعه أعلام ، والسادة الأشراف القادرية ومعهم أعلام خضر ، وخليفة سيدى أحمد بن الرفاعى ومعه أعلام ، والشيخ عفيف الدين خادم السيدة نفيسة رضى الله عنها بأعلام سود ، وكان الصبى قاسم بك ابن أحمد بك بن عثمان المقدم ذكره واقفا بازاء الخليفة وعلى رأسه صنجد حرير أصفر وقيل أحمر ، وكان الصنجد السلطاني خلف ظهر السلطان بنحو عشرين ذراعا ، وتحتة مقدم المماليك سنبل العثماني والسادة القضاة الأربعة والأمير تمر الزردكاش أحد المقدمين ، وكان على ميمنة العسكر الأمير سيباى نائب الشام ، وعلى الميسرة خاير بك نائب حلب ، فقيل أول من برز الى القتال فى الميدان الأتابكى سودون العجمى وملك الأمراء سيباى نائب الشام والمماليك القرائنة دون المماليك الجلبان ، فقاتلوا قتالا شديدا هم وجماعة من النواب فهزموا عسكر ابن عثمان وكسروهم كسرة مهولة منكرة ، وأخذوا منهم سبع صنجد وأخذوا المكاحل التى كانت على العجل ورماة البندق . فهم ابن عثمان بالهروب أو بطلب الأمان ، وقد قتل من عسكره فوق العشر آلاف انسان ، وكانت النصره لعسكر مصر أولا وياليتة تم ذلك . لكنه قد بلغ المماليك القرائنة أن السلطان قال للمماليك الجلبان :

الأمراء المتدمنين وضمنه أن السلطان كان يكذب فى أمر سليم شاه بن عثمان تارة ويصدق أخرى ، الى أن حضر الأمير مغلباى دوادار سكين من عنده وهو فى حال نحس ، بزلف أقرع على رأسه ، وعلى بدنه كبر عتيق دنس ، وهو راكب على اكديتس هزيل ، وقد نهب جميع بركه ، وأخذت خيوله وقماشه . وأخبر أن ابن عثمان أبى الصلح وقال له : « قل لأستاذك يلاقينا على مرج دابق » . وأخبره أنه وضعه فى الحديد ، وقصد أن يخلق لحيته ، وقدمه الى الشنق ثلاث مرات فشفع فيه بعض وزرائه ، وحمله الزبل من تحت خيله فى قفة على رأسه ، وقاسى منه من الهوان والأهوال ما لا خير فيه . فلما سمع السلطان هذه الحكاية تحقق وقوع الفتنة بينه وبين ابن عثمان . فقيل انه أنعم على مغلباى بألف دينار وخيول وقماش فى نظير ما ذهب له .

والذى استفاض بين الناس من أخبار السلطان انه صلى الظهر وركب ، وخرج من ميدان حلب يوم الثلاثاء فى العشرين من رجب وصحبته أمير المؤمنين المتوكل على الله ، والقضاة الأربعة ، وكان قد تقدمه نائب الشام ونائب حلب وجماعة من النواب ، فخرجوا بأطلاب حريرية وطلبول وزمور ونفوط حتى رجت لهم حلب .

فلما خرج السلطان من حلب توجه الى جيلان فبات بها ، فلما أصبح يوم الأربعاء حادى عشرى رجب رحل السلطان من جيلان وتوجه الى مرج دابق ، فأقام الى يوم الأحد خامس عشرى رجب — وهو يوم نحس مستمر — فما يشعر الا وقد دهمته عساكر سليم شاه ابن عثمان ، فصلى السلطان صلاة انصبح ، ثم ركب وتوجه الى زغزغين وتل الفار ، قيل ان هناك مشهد نبى الله داود عليه السلام .

« لا تقاتلوا أبداً ، واخلوا المماليك القرانصة يقاتلون وحدهم » ...

فلما بلغهم ذلك ثنوا عزمهم عن القتال ، فبينما هم على ذلك واذا بالأتابكي سودون العجمي قتل في المعركة ، وقتل ملك الأمراء سيباي نائب الشام ، فانهزم في الميمنة من العسكر جانب كبير . ثم ان خاير بك نائب حلب انهزم وهرب ، فكسر الميسرة . وأسر الأمير قانصوه بن سلطان چركس ، وقيل قتل . وقيل ان خاير بك كان موالسا على السلطان الغورى في الباطن ، وهو مع ابن عثمان على السلطان ، وقد ظهر مصداق ذلك فيما بعد ، فكان هو أول من اهتزب قبل العسكر قاطبة وأظهر الهزيمة ، وكان ذلك من الله تعالى خذلانا لعسكر مصر حتى نفذ القضاء والقدر . وصار السلطان واقفا تحت الصنجق في نفر قليل من المماليك ، فشرع ينادى : « يا أغوات هذا وقت المروءة ، هذا وقت النجدة » فلم يسمع له أحد قولاً وصاروا يتسحبون من حوله ، وهو يقول للفقراء : « ادعوا الله تبارك وتعالى بالنصر فهذا وقت دعائكم » وصار لا يجد له معينا ولا ناصرا ، فانطلقت في قلبه جمرة نار لا تطفأ ، وكان ذلك اليوم شديد الحر ، وانعقد بين العسكرين غبار حتى صاروا لا يرى بعضهم بعضا ، وكان نهار غضب من الله تعالى قد انصب على عسكر مصر ، وغلت أيديهم عن القتال ، وشخصت منهم الأبصار . وقد قلت في هذه الواقعة هذه الأبيات :

لما التقى الجيشان مع سلطاننا

في مرج دابق قال هل من مسعفى

فله أجاب لسان حال قائلا

عرضت نفسك لليلا فاستهدف

واشتد بالجلبان رعب قلوبهم
وغدوا يقولوا أى أرض نخنقى

والهيب أطمعهم لذل نفسوسهم

حتى آتاهم بالقضاء المتلف

فلما اضطربت الأحوال ، وتزايدت الأهوال ، خاف الأمير تمر الزردكاش على الصنجق السلطاني فأنزله وطواه وأخفاه . ثم تقدم الى السلطان وقال له : « يا مولانا السلطان ان عسكر ابن عثمان قد أدركنا فانج بنفسك وادخل الى حلب » . فلما تحقق السلطان ذلك غلبه في الحال خلط فالج ، أبطل سنه وأرخی حنكه ، فطلب ماء فأتوه بماء في طاسة من ذهب فشرب منه قليلا ، وألقت فرسه على أنه يهرب فمشى خطوتين وانقلب عن الفرس الى الأرض ، فأقام نحو درجة وخرجت روحه ومات من شدة قهره ، وقيل فقئت مرارته وطلع من حلقه دم أحمر .

فلما أشيع موته زحف عسكر ابن عثمان على من كان حول السلطان فقتلوا الأمير بيبرس أحد المقدمين ، وقتلوا جماعة من الخاصكية وعلمان السلطان ممن كان حوله ، وأما السلطان من حين مات فلم يعلم له خبر ، ولا وقف له على أثر ، ولا ظهرت جثته بين القتلى ، فكان الأرض قد ابتلعت في الحال ، وفي ذلك عبرة لمن اعتبر . فداست العثمانية وطاق الغورى بما فيه من الأمتعة والأرزاق التي كانت حوله بأرجل الخيول ، وفقد المصحف العثماني ، وداسوا أعلام الفقراء وصناجق الأمراء ، ووقع النهب في أرزاق عسكر مصر وبرقهم ، وزال ملك الأشرف الغورى في ملح البصر ، فكأنه لم يكن ، فسبحان من لا يزول ملكه ولا يتغير .

فاضحل أمره وزال ملكه ، بعد ما تصرف في ملك مصر وأعمالها ، والبلاد الشامية وأعمالها ، وكانت مدة سلطنته خمس عشرة سنة وتسعة أشهر

وعشرين يوما ... فانه ولي ملك مصر في مستهل
شوال سنة ست وتسعمائة ، وتوفى في الخامس
والعشرين من رجب سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة
وكانت الناس معه في هذه المدة في غاية الضنك وقد
قلت في المعنى :

اعجبوا للأشرف الغورى الذى

مذ تنهى ظلمه فى القاهرة

زال عنه ملكه فى ساعة

خسر الدنيا اذن والآخرة

وقد أقامت هذه الواقعة من طلوع الشمس الى
ما بعد الظهر ، وانهى الحال الى الأمر الذى فد
قدره الله تعالى ، فقتل فى تلك الواقعة من عسكر
السلطان ابن عثمان ومن عسكر السلطان الغورى
ما لا يحصى عدده ، فقتل من الأمراء المقدمين ثلاثة
وهم : الأتابكى سودون العجى ، وبيبرس قريب
السلطان ، وأقبى الطويل ، وأسروا قاصوه بن
سلطان چركس ، وقتل سيبى نائب الشام وتمراز
نائب طرابلس وطراباى نائب صند وأصلان نائب
حمص وغير ذلك جماعة كثيرة من أمراء دمشق
وأمرآء حلب وطرابلس ، وقتل من أمراء مصر جماعة
كثيرة من أمراء الطبلخانات والعشراوات والحاصكية
وأكثر من قتل من عسكر مصر المماليك القرانصة .

ولم يقتل من المماليك الجبلان الا القليل فانهم لم
يقااتلوا فى هذه الواقعة ولا ظهر لهم فروسية ولا
جذبوا سيفا ولا هزوا رمحا فكأنهم خشب مسندة .
وقتل من عسكر ابن عثمان ما لا يحصى ضبطه ،
وقتل من أمراء مصر ومن دمشق وحلب فوق
الأربعين أميرا ، وقتل فى ذلك اليوم القاضى ناظر
الجيش عبد القادر القصرى وجماعة كثيرة من
الجند يأتى الكلام على ذلك فى موضعه ، فكانت

ساعة يشيب منها الوليد ، ويذوب لسطوتها الحديد .
فكان مرج دابق فيه جثث مرمية وأبدان بلا رعوس
ووجوه معمرة بالتراب قد تغيرت محاسنها ، وصار
فى ذلك المكان خيول مرمية موتى ، وسروج مفرقة
وسيوف مسقطة بذهب وبركستوانات فولاذ
بذهب وخوذ وزرديات وبقج قماش فلم يلتفت اليها
أحد ، وكل من العسكرين قد اشتغل بما هو أهم
من ذلك ، وقال بعض الموايا فى المعنى :

صفق جوادى وقد جسيت يوم الحرب

عودى فغنت صوارم شرقها والغرب

ضربت عادة تنقط فى سماع الضرب

رعوس الأعادى وترفض داخله فى الحرب

ثم ان ابن عثمان زحف بعسكره وأتى الى وطاق
السلطان ، ونزل فى خيامه وجلس فى المدورة ،
واحتوى على الطشتخاناه وما فيها من الأواني
الفاخرة ، وعلى الزردخاناه وما فيها من السلاح ،
وعلى خزائن المال والتحف ، ونزل كل أمير من
أمرائه فى وطاق أمير من أمراء الغورى واحتوى على
ما فيها ، فاحتوى على وطاق حمسة عشر أميرا
مقدمى ألوف خارجا عن أمراء الطبلخانات
والعشراوات ، واحتوى العسكر على خيام العسكر
المصرى والشامى والحلبى وغير ذلك كما يقال :
« مصائب قوم عند قوم فوائد » .

ولم يقع قط لملوك ابن عثمان مثل هذه النصره
على أحد من الملوك قاطبة ، بل ان تمرلنك زحف على
بلاد ابن عثمان وحارب أحد أجداده وهو شخص
يقال له يلدرم . فلما حاربه انكسر فأسره تيمور
ووضعه فى قفص حديد وصار يعجب عليه فى بلاد
العجم ، فما طاق ابن عثمان ذلك فابتلع فص الماس
فمات وهو فى ذلك القفص الحديد . ولم يقع قط
لأحد من سلاطين مصر مثل هذه الكائنة ، ومات

تحت صنجقه في يوم واحد وانكسر على هذا الوجه أبدا ، ولا سمع بمثل ذلك ونهب ماله وبركه بيد عدوه غير فاتحوه العورى . وكان ذلك في الكتاب مسطورا ، وكان السلطان والأمراء ما منهم أحد ينظر في مصالح المسلمين بعين العدل والانصاف ، فردت عليهم أعمالهم ونياتهم وسلط عليهم ابن عثمان حتى جرى لهم ما جرى كما قيل في المعنى :

أين الملوك الأولى في الأرض قد ظلموا

والله منهم لقد أخلى أماكنهم

ثم ان السلطان ابن عثمان تحول من مرج دابق فدخل الى حلب فملكها من غير مانع ونزل بالميدان الذى بها في المكان الذى كان به السلطان العورى ...

وهذا ما انتهى اليه من ملخص هذه الواقعة مع ما فيها من زيادة ونقصان ، فهذا ما كان من أمر السلطان العورى وابن عثمان . وأما ما كان من أمر الأمراء والعسكر بعد الكسرة فانهم توجهوا الى حلب وأرادوا الدخول بها ، فوثب عليهم أهل حلب قاطبة ، وقتلوا جماعة من العسكر ونهبوا سلاحهم وخيولهم وبرقهم ، ووضعوا أيديهم على ودائعهم التى كانت بحلب ، وجرى عليهم من أهل حلب ما لم يجر عليهم من عسكر ابن عثمان .

وكان أهل حلب بينهم وبين المماليك السلطانية حظ نفس من حين توجهوا قبل خروج السلطان من القاهرة الى حلب صحبة قانى باى أمير آخور كبير . فنزلوا في بيوت أهل حلب غصبا وفسقوا في نسائهم وأولادهم وحصل منهم غاية الضرر والأذية لأهل حلب ، فما صدق أهل حلب أن وقعت لهم هذه الكسرة فأخذوا بثأرهم منهم ... فلما رأى الأمراء وبقية العسكر ذلك خرجوا من حلب على حمية وتوجهوا الى دمشق ودخلوها وهم في أفحش حال ،

لا برك ولا قماش ولا خيول ، ودخل غالب العسكر الى الشام وبعضهم راكب على حمار وبعضهم راكب على جمل وبعضهم عريان وعليه عباءة أو بشت . ولم يقع لعسكر مصر مثل هذه الكائنة ، فأقام الأمراء والمباشرون والعسكر في الشام حتى تتكامل البقية ويظهر السالم من العاطب ... قيل ان الأمراء لما دخلوا الى الشام وصاروا في حر الشمس لم يجدوا ما يستظلون به حتى صنع لهم الغلمان عرايش من فروع الشجر يستظلون بها .

وأما ما كان من أمر سليم شاه ابن عثمان فانه أقام بالميدان الذى في حلب فتوجه اليه أمير المؤمنين المتوكل على الله والقضاة الثلاثة وهم قاضى القضاة الشافعى كمال الدين الطويل وقاضى القضاة محيى الدين الدميرى المالكى وقاضى القضاة شهاب الدين الفتوحى الحنبلى . وأما قاضى القضاة محمود بن الشحنة فانه هرب مع العسكر الى الشام ونهب جميع بركه وقماشه ، ودخل الى الشام في أنحس حال .

قيل لما دخل أمير المؤمنين على ابن عثمان وهو بالميدان عظمه وأجلسه وجلس بين يديه فأشيع انه قال له : أصلكم من أين ؟ فقال له : من بغداد ، فقال له ابن عثمان : نعيدكم الى بغداد كما كنتم . والأقوال في ذلك كثيرة ... فلما أراد الخليفة الانصراف خلع عليه خلعة سنية من ملابسه ، وأنعم عيه بمال له صورة وردة الى حلب ووكل به ألا يهرب .

وقيل لما دخل عليه القضاة الثلاثة المذكورون وبخهم بالكلام ، وقال لهم أتمتم تأخذون الرشوة على الأحكام الشرعية ، وتسعون بالمال حتى تتولوا القضاء ، وما منكم من أحد يرشد الى الخير ، لأنكم لم تمنعوا سلطانكم عن المظالم التى كان يفعلها بالناس ، وأنتم ترون ذلك منه ولا تنكرونه .

وأشاعوا من هذه الأخبار العجائب والغرائب ،
والمعول في ذلك على الصحة .

وأخبرني من رأى سليم شاه ابن عثمان أنه مربع
القامة واسع الصدر أقتص العنق مكرفس الأكتاف
مترك الوجنتين واسع العينين درى اللون وافر
الأنف ملىء الجسد حليق اللحية ليس له غير
الشوارب ، كبير الرأس عمامته صغيرة دون عمامهم
أمرائه . فلما جاء الى حلب سلمه أهلها المدينة من
غير نزاع ، وهرب قانصوه الأشرفي نائب القلعة ،
وتوجه الى الشام مع العسكر وترك أبواب قلعة
حلب مفتحة ... فلما بلغ ابن عثمان ذلك أرسل اليها
شخصا من جماعته أعرج أجروود وفي يده دبوس
خشب ، فطلع الى قلعة حلب فلم يجد بها مانعا
يرده . فختم على الحواصل التي بها واحتوى على
ما فيها من مال وسلاح وتحف وغير ذلك ، وقد
فعل ابن عثمان ذلك ليقال انه أخذ قلعة حلب
شخص أعرج وفي يده دبوس خشب وهو أضعف
من في عسكره وقد قيل في المعنى :

لا تحقرن صغيرا في مخاصمة

ان الذبابة تدمى مقلة الأسد

وأشيع أن ابن عثمان من حين استولى على مدينة
حلب لم يدخلها غير ثلاث مرات : المرة الأولى دخلها
وظلع الى القلعة بسبب عرض حواصلها ، فلما
عرضت عليه رأى ما أدهشه من مال وسلاح
وتحف ، وكان فيها من المال نحو مائة ألف ألف
دينار ، ورأى من الكنايش الزركش والرقاب
الزركش والطير والسروج الذهب والبلور وطبول
البازات واللجم المرصعة والفصوص المثمنة
والبركستوانات الفولاذ الملون والسيوف المسقطة
بالذهب والزرديات والخوذ الفاخرة وغير ذلك من
السلاح ما لم يره قط ، ولا فرح به أحد من

أجداده ، ولا أحد من ملوك الروم ، لأن الذي
جمعه الغورى من الأموال من وجوه الظلم
والجور ، والتحف التي أخرجها من الخزائن من
ذخائر الملوك السالفة من عهد ملوك الترك
الچراكسة ، احتوى عليه جميعه السلطان سليم شاه
ابن عثمان من غير تعب ولا مشقة . هذا خارج عما
كان للأمرء المقدمين والأمرء الطبلحانات
والعشراوات والمباشرين والعسكر قاطبة من
الودائع بحلب من مال وسلاح وقماتس وبرك وغير
ذلك ، فاحتوى ابن عثمان على ذلك جميعه .

وقيل انه ملك ثلاث عشرة قلعه من بلاد
السلطان ، واحتوى على ما فيها من مال وسلاح
وغير ذلك ، فكان الذي ظفر به سليم بن عثمان
في هذه الواقعة من الأموال والسلاح والتحف وغير
ذلك لا ينحصر ولا يضبط ، وقد قسم له ذلك من
القدم ... واحتوى على خيول وبغال وجمال
لا يحصى عددها ، واحتوى على خيام وبرك
ولا سيما ما كان مع السلطان وأمرء العسكر ، كما
يقال في المعنى :

ألا انما الأقسام تحرم ساهرا

وأخر يأتي رزقه وهو نائم

ودخل المرة الثانية فصلى صلاة الجمعة في جامع
الأطروش الذي بحلب وخطب باسمه ودعى له على
المنابر في مدينة حلب وأعمالها ، وزينت له مدينة
حلب وأوقدت له الشموع على الدكاكين ، وارتفعت
له الأصوات بالدعاء وهو مار عند عوده من
الجامع ، وفرح الناس به فرحا سديدا ، واتمنى
اليه الخواجا ابراهيم السمرقندى والخواجا يونس
العادلى والعجمى الشنقجى . وكان هؤلاء من
أخصاء الغورى ، وكانوا مع ابن عثمان في الباطن
ويكاتبونه بأحوال السلطان وما يقع من أخبار

المملكة . فلما فقد السلطان الغورى أظهروا عين المحبة لابن عثمان وصاروا يحطون على الغورى ويذكرون أخباره الشنيعة لابن عثمان ، وصاروا من جماعته ونسوا احسان الغورى اليهم كما يقال فى المعنى :

لقاء أكثر من يلقاك أوزار
فلا تبالى أصدوا عنك أو زاروا

أخلاقهم حين تبلوهن أوعار
وفعلهم منكر للمرء أو عار

لهم لديك اذا جاءوك أوطار
اذا قضوها تنحوا عنك أو طاروا

وممن كان موالسا على السلطان فى الباطن خاير بك نائب حلب ، فانه أول من كسر عسكر السلطان ، وانهزم عن ميسرته ، وتوجه الى حماه . ولما ملك ابن عثمان حلب أرسل خلفه ، فلما حضر اليه خلع عليه وصار من جملة أمرائه ولبس زى التراكمة — العمامة المدورة والدلامة — وقص ذقنه وسماه السلطان « خاين بك » لكونه خان سلطانه وطاع ابن عثمان . فلما جرى ذلك تسحبت مماليك خاير بك ، وتوجهوا صحبة العسكر الى مصر ، ودخل هو تحت طاعة ابن عثمان .

وهذه الواقعة تقرب من واقعة ابن العلقمى وزير بغداد لما والس على الخليفة المعتصم بالله وملك هولاءكو بغداد وقتل الخليفة ، فصار ابن العلقمى مقربا عند هولاءكو ثم انقلب عليه وقتله ، وقال : « أنت ما فيك خير لأستاذك فما يكون فيك الخير لى » . وربما يقع لخاير بك مثل ذلك .

ثم ان ابن عثمان دخل الى مدينة حلب ثالث مرة بسبب أنه دخل بها الحمام وأنعم على المعلم بمبلغ

له صورة ... واستمر الخليفة والتضامة الثلاثة الشافعى والمالكى والحنبلى فى الترسيم بحلب لا يخرجون منها الى ان ياذن لهم ابن عثمان ، وأقام بحلب جماعة كثيرة من أعيان الناس بمد الكسرة منهم : القاضى عبد الكريم بن الجيعان كاتب الخزائن الشريفة ، وعبد الكريم بن فخرية أحد كتاب المماليك ، وعبد الكريم بن الأدمى مستوفى الزردخانه ، والرئيس محمد بن القيسوى امام السلطان الغورى ، والسمديسى الذى كان قاضى القضاة الحنفية وامام السلطان ، والخواص مؤذن السلطان ورفيقه رصاص المؤذن ، وبصبي بن بكير ورفيقه ، وجماعة آخرون لم تحضرنى أسماؤهم الآن ... فهؤلاء تخلفوا بحلب بعد الكسرة حتى يؤذن لهم .

وقيل لما دخل ابن عثمان الى مدينة حلب نادى فيها بالأمان والاطمئنان والبيع والشراء ، وكل من كان عنده للأمرء والعسكر شيء من خيول أو سلاح أو قماش يحضر ما عنده ، وان لم يحضر ما عنده وغمز عليه شقن من غير معاودة .

وأما من قتل فى هذه المعركة من الأمرء وأعيان الناس ، فالذى يحضرنى من ذلك وتحققته : الأتابكى سودون العجمى ، وملك الأمرء سيباى نائب الشام ، والأمير قانصوه بن سلطان چركس ، وقيل لم يقتل وأسر الأمير بيبرس قريب السلطان وهو صاحب المدرسة التى بالقرب من الجودرية ، والأمير أقبابى الأشرفى الطويل أحد المقدمين أمير آخور ثانى ، فهؤلاء الذين قتلوا من الأمرء المقدمين فى هذه الواقعة .

وأما من قتل من النواب : فتمراز الأشرفى نائب طرابلس ، ونائب صغد ، وأصلان نائب حمص ، وجماعة كثيرة من نواب الشام وحلب .

وقتل محمد العفيف رئيس الكحالين ، وتوفي جلال الدين أحد كتاب المماليك بغزة عند العود ، وخليفة سيدي أحمد البدوي رضی الله عنه ، وغير ذلك ممن لا تحضرني أسماءهم ، وأما القاضي جمال الدين عبد الله مباشر وقف قاني باي الجركسي فقد قيل انه قتل في الواقعة .

وأما من توفي من أولاد الناس فالشرفي يونس ابن قانصوه أحد أولاد بنت قرقماس الطبردارية وشخص يقال له محمد بن قرقماس الجمالي أحد الطبردارية أيضا ، وقتل ابراهيم قريب الشرفي يونس نقيب الجيوش المنصورة ، وآخرون من الأعيان ممن لا تحضرني أسماءهم الآن . وقتل بعد الواقعة بحلب عبد الكريم الأدمي مستوفى الزردخانة ، وقتل ابن علي الزردى .

ومن هنا نرجع الى أخبار القاهرة بعد هذه الواقعة ، فانه لما ورد كتاب الأمير علان الدوادر الثاني بما وقع من هذه الأمور المهولة في تلك الواقعة وقتل الأمراء والأعيان والقضاة ، قام العزاء والصراخ في بيت الأتابكي سودون العجمي وكان أميرا دينا خيرا لين الجانب ، وكان يعرف بسودون بن جاني بك وكان أصله من مماليك الأشرف قايتباي وولى عدة وظائف سنية منها امرية مجلس ، وامرية سلاح ، والأتابكية ، واصطلى الحرب وأظهر الفروسية في هذه الواقعة ، واستمر يقاتل حتى قتل على ظهر فرسه رحمة الله عليه .

وقام نعى السلطان في ذلك اليوم ، ونعى الأمراء والأعيان الذين قتلوا وصار في كل حارة وزقاق وشارع من القاهرة صراخ وبكاء بسبب من قتل من العسكر وغيرهم ، ورجت القاهرة

وأما من قتل من الأمراء الطبلخانات فجماعة كثيرة : منهم طومان باي ابن قرا حاجب ثامى وجاني بك العادلى شاد الشرايحانا كان ، وقانصوه حياثية ، وبرد بك رأس نوبة عصاه ، ونوروز رأس نوبة عصاه ، وقانصوه الذى كان أستاذار الصحبة ، وبخشباي قرا شاد الشون ، وقيت الأحول ، وقرقماش المقرى توفي بالشام ، ويوسف المفتش الذى كان نائب صدق . ومن الأمراء العشراوات جانبهم المحمدي ، وجان بردى الذى كان كاشف الرميلى ، وبرسباي أحد الأمراء العشراوات ، وتوفي أقباي الطويل الذى كان كاشف الشرقية ، وملاج الذى كان نائب القدس ، وجان بردى وطراباي أخو الأتابكي قيت الرحبي ، وخدا بردى ، وقانم الأعرج ، وجانم الطويل ، وقايتباي أخو اصطمر . وتوفي مسسايد ، وتوفي طراباي قرا ، وأفظوه الطويل خادم السادة ، وجان بلاط الذى كان والى قظيا ، وبرسباي أحد الأمراء العشراوات وصهره ، وتوفي لاجين ناظر مقام سيدي أحمد البدوي بغزة ، وقانصوه الناصرى ، وطراباي الأشرفي ، وتوفي الأمير أينال خازندار الأمير قاني باي أمير آخور كبير وكان من أمراء الطبلخانات ، وغير ذلك ممن يأتى ذكره ، حتى قيل انه مات في هذه الواقعة من أمراء مصر والشام وحلب وغير ذلك نحو أربعين أميرا لهم تحضرني أسماءهم الآن .

وقتل أربك العجمي أمير طبلخانات ، وقتل جان بلاط الساقى أمير طبلخانات ، وتوفي شاد بك نائب المهمندار ، وتوفي الأمير اياس المشطوب رأس نوبة عصاه من العشراوات .

وأما من توفي من المباشرين فالقاضي ناظر الجيش عبد القادر القسروى ، وقتل بوطاق السلطان .

وضجت الناس واضطربت الأحوال وكثر القال والقييل .

وفي يوم الأحد سابع عشر شعبان وردت الأخبار على الأمير الدوادار بأن عربان بنى عطية والنعائم نهبوا ضياع الشرفية وأخذوا منها نحو أربعمائة رأس غنم من غنم السلطان والدوادار ودخلوا وادى العباسية ، ولما بلغ الأمير الدوادار ذلك صلى الظهر ثم ركب وخرج إليهم وصحبته خمسمائة مملوك ، فكبس عليهم ، فهربوا من وجهه وغنموا ما نهبوه من الأموال والمواشي والغلال وغير ذلك ، فرجع الأمير الدوادار الى داره .

وفيه خلع الأمير الدوادار على الزينى بركات ابن موسى ، فشق القاهرة وأشهر النداء بالأمان والاطمئنان وأن المشاهدة والجماعة بطالة ، وجميع المظالم الحادثة بطالة ، وأن الزينى بركات بن موسى على عادته ولا يحتسى عليه أحد ، وقد تضاعفت حرمة ، ونفذت كلمته فوق ما كان ، واجتمع معه عدة وظائف سنية ، وصار هو المتصرف في جميع أمور المملكة ليس على يده يد .

وفي يوم الاثنين ثامن عشره أنفق الأمير الدوادار الجامكية على العسكر الذين في القاهرة ، فجلس الأمير طقطباى نائب القلعة عند سلم المدرج ، وأنفق الجامكية هناك ، والاشاعات فاشية بموت السلطان ، والأحوال مضطربة .

وفيه رسم الدوادار بعرض من في السجون حتى النساء اللاتي بالحجرة ، فلما عرضوا عليه أفرج على جماعة كثيرة منهم جان بك دوادار الأمير طراباى ، وكان له مدة وهو في السجن بالمقشرة بسبب المال الذى تبقى عليه من حين كان

متحدثا في نظر الديوان المفرد ، وأفرج عن القاضى بدر الدين بن ثعلب قاضى أسيوط ، وكان له مدة في المقشرة على بقايا من مال المصادرة ، وأفرج عن ولده شمس الدين وأخيه نجم الدين ، وأفرج عن صلاح الدين ابن كاتب غريب ابن أخى أبى الفضل ، وأفرج عن المعلم شنشو اليهودى الذى كان يهوديا وأسلم وقد تقدم سجنه ، وأفرج عن المعلم يعقوب الصائغ معلم دار الضرب ، وأفرج عن جماعة كثيرة من العمال والفلاحين وغيرهم ، حتى أفرج عن النساء اللاتي كن بالحجرة ، وعن كانوا في السجون من الأعيان . ولم يبق في السجون غير أصحاب الجرائم ومن عليه دم قديم . وقطع أيدي جماعة وأطلقهم ، ثم وسط جماعة من المجرمين منهم شخص يقال له عبدالقادر أبو دية وآخرون منهم ، وقطع أيدي جماعة من الحرامية ، وأفرج عن القاضى صلاح الدين بن أبى السعود ابن القاضى ابراهيم بن ظهيرة قاضى قضاة مكة ، وكان له مدة وهو في الحديد في بيت الزينى بركات بن موسى في الترسيم ، وأقام على ذلك مدة طويلة حتى أفرج الله عنه ، وكان سبب ذلك شخص يقال له ابراهيم السمرقندى ترافع معه عند السلطان حتى قال انه لقي خبيثة بمكة فيها مال كثير ، وأرسل السلطان أحضره على غير صورة مرضية من مكة ، ولما حضر قال له : « المال الذى لقيته أحضره لى » فأنكر ذلك فوضعه السلطان في الحديد وسلمه الى الزينى بركات ، فأقام عنده في الترسيم في الحديد مدة طويلة بغير ذنب .

وفي يوم الثلاثاء تاسع عشره خلع الأمير الدوادار على الشهابى أحمد بن المنذرى حسن ابن الطولونى وأعادته الى وظيفته معلم المعلمين ، وكان السلطان أخرجها عنه وجعل جمال الدين

الزواحي بواب الدهيشة متكلمًا في المعليمة
عوضًا عن ابن الطولوني .

وفيه رسم الأمير الدوادار نائب الغيبة بأشهر
المناداة في القاهرة بأن جميع المكوس الحادثة
بطالة ، وتجري على ما كانت عليه أيام الأشرف
قايتباي من غير زيادة على ذلك ، فارتفعت له
الأصوات بالدعاء .

وفي ذلك اليوم شق الزيني بركات بن موسى
القاهرة ، وسعر جميع الأسعار ، حتى الكنافة
سعرها بدرهمين الرطل ، وكانت بأربعة دراهم
كل رطل ، وسعر الأجبان واللحوم .

وفي أثناء ذلك الشهر فتح سد أبي المنجا ،
وكان النيل يومئذ في عشرين ذراعًا ، ووافق ذلك
ثاني عشر توت أول الشهور القبطية . وكان
الأمير الدوادار في مدة غيبة السلطان يركب في
كل يوم ويسير نحو المطرية ، فإذا رجع يدخل من
باب النصر ويشق من القاهرة وقدامه الأمراء
المقدمون الذين تخلفوا بمصر ، والجهم الكثير من
العسكر . فيشق القاهرة وقدامه السعاة والعييد
النفطية وماليكه متقلدون بالسيوف وبأيديهم
رماح بشطقات حرير ملون ، فترتج له القاهرة
وترتفع له الأصوات بالدعاء من الناس ، فكانت
نفسه تحدثه بالسلطنة قبل وقوعها ، وقد عظم
أمره جدا وهابه الناس هيبة عظيمة .

وفي يوم الجمعة ثاني عشره لما تحقق موت
السلطان لم تدع الخطباء في ذلك اليوم على
المنابر باسم السلطان ، بل دعوا باسم الخليفة
فقط ولم يذكروا اسم السلطان ، وبعضهم قال :
« اللهم ول علينا خيارنا ولا تول علينا شرارنا » .
واستمر الحال على ذلك مدة طويلة ومصر بلا
سلطان ، وكذلك البلاد الشامية .

وفي تلك الأيام وقع الفساد من العربان في
الشرقية وغيرها من البلاد ، فنهبوا عدة بلاد من
المنزلة وغيرها من ضواحي الشرقية ، ولم يبقوا
لهم مواشى ولا بقرا ولا غنما ، حتى أخذوا صيغة
النساء ، وقتل من الفلاحين في هذه الحركة ما لا
يحصى عددهم ، وكذلك من القصاد وغيرهم .
واقطعت جميع الطرقات من المسافرين ولا سيما
لما تحققت موت السلطان ، وصارت مصر في
اضطراب والاشاعات قائمة بالأخبار الرديئة عما
جري للسلطان والعسكر .

وكان أكثر من شن هذه الغارات أولاد شيخ
العرب الأمير أحمد بن بقر وجماعة من العشير ،
وفعلوا ما عظم خبره في العساكر والتجار الذين
دخلوا صحبة القفل الشامية ، فقتلوا من العساكر
والتجار ما لا يحصى عددهم ، وأخذوا أموالهم
وجمالهم ، والذي سلم من القتل عروه ، وجري
على العسكر من هؤلاء العربان ما لم يجز عليهم
من عسكر ابن عثمان ، ووقع لهم ذلك بين قطيا
والصالحية عند ما وصلوا الى الأمان .

وفي هذا الشهر أشيع أن المماليك الجلبان
قصدوا أنهم ينزلون من الطباق ، وينهبون خان
الخليلى ثم يحرقونه ، ويقتلون من به من تجار
الأروام ، وقالوا : هؤلاء التجار من جهة ابن عثمان
وقد شتموا بأستاذنا لما مات ... فلما بلغ الأمير
الدوادار ذلك أحضر أغوات الطباق وقال لهم :
« لا أطلب خسود هذه الفتنة الا منكم » .
فمنعوهم من النزول من الطباق ، ولولا أن الأمير
الدوادار قام في هذا الحركة حتى خمدت هذه
الفتنة لخرت مصر عن آخرها من المماليك الجلبان .
وفيه اهتم الأمير الدوادار بعمل طوارق خشب
وكفيات وبنديقيات وغير ذلك من آلات الحرب ...
وأشيع أنه يتسلطن قبل مجيء العسكر ، وكان

القائم في ذلك الأمير طقطباى نائب القلعة والأمير
علان الدوادار الثاني .

وفي يوم الجمعة الثانية لهم تذكر الخطاب اسم
سلطان في الدعاء كما فعلوا في الجمعة الماضية ،
ومن حين ورد كتاب الأمير علان بما جرى للعسكر
من أمر الكسرة وأمر السلطان لهم ترد من بعد
ذلك أخبار صحيحة ، وانقطعت الأخبار عن مصر
نحو أربعين يوما ، وكثر القال والقيل في ذلك على
أنواع شتى .

ومن جملة ما أشيع أن جان بردى الغزالي نائب
الشام منع أن يصل الى مصر أحد ، وعوق العسكر
بالشام .

وفيه وردت أخبار من عند الأمير حسين
نائب جدة ، والرئيس سلمان العثماني ، أنهما لما
توجها الى الهند صحبة العسكر المقدم ذكرهم ،
ووصلا الى كمران ، وهى ضيعة من ضياع الهند ،
أنشئوا هناك قلعة ذات أبراج ، فأكمل بناؤها في
نحو خمسة أشهر . ثم ان الأمير حسين أرسل
طائفة من العسكر نحو مكان يسمى اللحية ،
وأرسل طائفة من العسكر الى مكان يسمى مورا ،
وأقام الأمير حسين هو وبقيه العسكر في مكان
يسمى « بيت الفتية » فأقاموا بها نحو شهر . ثم
ان الأمير حسين والأمير سلمان والعسكر
توجهوا الى نحو زبيد ، وحاصروا صاحبها عبد
الملك أخا الشيخ عامر فملكوا منه زبيد وذلك
صبيحة يوم الجمعة في العشرين من جمادى الآخرة
سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة ، فوجدوا بها من
الأمم ما لا يحصى عددهم ، ثم ذكروا في الكتاب
أن الأمير حسين لما أن فتح زبيد توجه الى حصار
مدينة عدن ، وأنه أشرف على أخذها ، ولما ملكوا
زبيد أقاموا بها شخصا من مماليك الأشرف الغورى
وهو من أمراء العشراوات يسمى برسباى ، ومعه

بعض جماعة من المماليك وأولاد الناس الذين
كانوا صحبتهم ، والتف عليهم جماعة من العربان
نحو عشرة آلاف انسان . ولما ملك برسباى زبيد
تسلطن بها ورتب له دوادارا وخازندارا وأرباب
وظائف كمادة السلاطين ، وغنم منها أموالا جزيلة
هو ومن معه من العسكر . ولما توجه الى حصار
عدن أيضا ملكها كما قيل .

وفي هذا الشهر عرض الأمير الدوادار العسكر
الذين في القاهرة وكان ذلك العرض في بيته وكان
سبب هذا العرض أنه بلغ الأمير الدوادار أن عدة
مراكب وصلت الى ثغر اسكندرية ورشيد ، فخصى
أن تكون من عند ابن عثمان ، فبادر الى عرض
العسكر وقال لهم : كونوا على يقظة وعبوا برقمكم
حتى يتضح هذا الخبر ، وانفصل المجلس على
ذلك ... فانصرف العسكر في هرج .

وفي شهر رمضان ، وكان مستهله يوم السبت ،
توجه لبيت الأمير الدوادار جماعة من نواب القضاة
وهنئوه بالشهر وكانت القضاة الثلاثة والخليفة في
أسر سليمان شاه ابن عثمان يحلب لا يمكنهم العود
الى مصر .

وفي يوم الأحد ثانيه كان أول بابيه من الشهور
القبطية ، فثبت فيه النيل المبارك على عشرين
ذراعا ، وكان في العام الماضي أرجح من ذلك ،
واستمر في ثبات الى أول هاتور ، ثم وردت الأخبار
على يد ساع بأن الأمراء والعسكر دخلوا الى
الشام وهم في أُنحس حال ، وقد نهب برقمهم
وخيولهم وجمالهم وجميع ما يملكونه ... وأخبر
ذلك الساعى أن أهل الشام لما تحققوا موت السلطان
وثب بعضهم على بعض ، ونهبوا زروع الشام ،
وأخذوا أموالهم ، وقتلوا منهم جماعة ، واضطربت
أحوال البلاد الشامية غاية الاضطراب .

وهو في محفة وصحبته الشهابي أحمد بن الجيعان ،
ودخل الأمير أركماس أمير سلاح وهو في محفة
عليل ، ودخل الأمير أنص باي حاجب الحجاب وتمر
الزردكاش والأمير علان الدوادر الثاني وآخرون ،
ثم دخل بقية العسكر وهم في أسوأ حال من العري
والجوع والضعف ، ودخلوا وأطواقهم مفككة ،
وأظهروا الحزن على السلطان ، وصار الأمراء
والعسكر يدخلون شيئا فشيئا .

وفي يوم الخميس ثالث عشره دخل الأمير
سودون الدوادرى رأس نوبة النوب ، والأمير
كرت قانصوه والأمير جان بردى الغزالي نائب
حصاه ، ودخل المقر الناصرى محمد نجل السلطان
الغورى ، والأمير جان بلاط الموتز والأمير أبرك
الأشرفي والأمير تاني بك الخازندار والأمير
كرتباي .

وفيه تكامل دخول الأمراء فسلم عليهم الأمير
الدوادر ورجع الى منزله ، ودخل صحبته الأمير
قانصوه الأشرفي الذي كان نائب قلعة حلب ،
وهو الذي سلم القلعة بما فيها من المال والسلاح
والتماش والكنائش الزركش والسروج الذهب
 وغير ذلك من التحف ، فتسلمها ابن عثمان من
غير أن يحاصر القلعة ، فخرج قانصوه هذا
والأمراء الذين معه فارين الى جهة الشام ، مع أن
قلعة حلب حصينة مانعة ... فلما قابله الأمير
الدوادر وبخه بالكلام ، ورسم بسجنه في البرج
الذي بالقلعة ، واستوعده بكل سوء .

فلما دخل الأمراء الى القاهرة اجتمع رأى
الجميع على سطنة طومان باي الدوادر . وترشح
أمره لأن يلى السلطنة ، فصار يمتنع من ذلك غابة
الامتناع ، والأمراء كلهم يقولون : « ما عندنا من
نسلطنه الا أنت ، ولا محييد لك غنبا طوعا أو
كرها » .

وفيه دخل قاضى القضاة محمود بن الشحنة
وقد نهب جميع بركه وكل ما يملكه ، وأخبر أن
ابن عثمان ملك ثلاث عشرة قلعة ، وخطب باسمه
فيها ومشى حكمه من الفرات الى حلب . وأخبر أن
ال خليفة والقضاة الثلاثة في أسر ابن عثمان بحلب ،
ولولا أنه هرب مع العسكر والا كان أسر معهم .
وأخبر أن ابراهيم السمرقندى ويونس العادلى
والعجمى الشنقجى — الذين كانوا من أخصاء
السلطان — لما مات الغورى التفوا على سليم شاه
ابن عثمان ، وصاروا من جماعته ، وصاروا يتقربون
اليه بذكر مساوى أستاذهم الغورى وأمرائه ،
ويظهرون له معائبهم وقبائحهم ، ولم يذكروا شيئا
من احسان الغورى لهم لا جليلا ولا حقيرا ، وكأنه
لم يكن سلطانا لهم ولا أستاذا ، ونسوا جميع
انعامه واحسانه اليهم ، ولا سيما ما أحسن به
الى العجمى الشنقجى من سلاريات وشقق حرير
وسمور ومال وانعامات جزيلة ، فلم يثمر ذلك
فيهم . فلما بلغ الأمير الدوادر ذلك رسم للوالى
أن يكبس على بيت السمرقندى ويونس العادلى ،
فتوجه اليهم الوالى وقبض على عيال السمرقندى
ويونس العادلى وحرىبهما وحاشيتهما ، ووضع
عبد السمرقندى في الحديد ، وختم على حواصل
السمرقندى ويونس العادلى ، وظهر أنهم كانوا
موالسين على السلطان ، وكانوا يكتبون سليم
شاه ابن عثمان فى الباطن بأحوال السلطان وأمور
المملكة ... وصاحب البيت أدري بالذى فيه .

* * *

وفي يوم الجمعة سابعه صلى الأمير الدوادر
صلاة الجمعة ، وخرج الى ملاقاتة الأمراء المقدمين
الذين حضروا من الشام ، وقد بلغه وصولهم الى
بليس ، فدخل القاضى محمود بن أجا كاتب السر

هذه السنة ، واستمر نأفذا الكلمة وافر الحرمة الى أن دخل الى حلب وأقام بها ، وأرسل اليه ابن عثمان عدة قصاد بالخلع السنية ، وأنعم عليهم بالعطايا الجزيلة الى أن حضر مغلباى دوادار سكين الذى كان أرسله الى ابن عثمان ، فلما رجع من عنده وهو فى غاية التحقير كما تقدم ، وكان السلطان أرسل مغلباى هذا الى ابن عثمان فى هيئة تشعر بالشدة والقوة ، لابس آلة الحرب باللبس الكامل . فشق ذلك على ابن عثمان وبهدله . فلما حضر الى الغورى أعلمه أن ابن عثمان قد أبى من الصلح .

فلما تحقق السلطان أن ابن عثمان يريد الشر معه نادى للعسكر بالرحيل والخروج من حلب ، فخرج العسكر قاطبة وهم كالنجوم الزاهرة ، من آلة السلاح والخيول الفاخرة ، وكل فارس مقوم بألف فارس من عسكر ابن عثمان ، ولكن الله تعالى يعطى النصر من يشاء ... فتوجهوا الى مرج دابق يوم الأحد خامس عشرى رجب من هذه السنة ، فلما بلغه أن عسكر ابن عثمان قد وصل الى تل الفار ، ركب صبيحة يوم الأحد المذكور وهو يوم نحس مستمر ، فبرز فيه الى قتال ابن عثمان ، وكانت الكسرة أولا على عسكر ابن عثمان ، ثم بدل الله سبحانه وتعالى هذا الأمر ، وعادت الكسرة على عسكر مصر .

ولما رأى السلطان عين الغلب من عسكره أراد أن يلفت فرسه ليهرب وينجو بنفسه ، فاعتزته سارقة من الرجفة فأغمى عليه فسقط عن ظهر فرسه الى الأرض فطلعت روحه فى تلك الساعة ، وصار ملقى على الأرض ، فزحفت عساكر ابن عثمان ، ففر من كان حوله من الغلمان ،

ثم ان الأمير الدوادار ركب وصحبته جماعة من الأمراء المقدمين ، منهم الأمير علان والأمير أنسباى حاجب الحجاب والأمير تمر والأمير طقطباى نائب القلعة وآخرون من الأمراء وتوجهوا الى العارف بالله تعالى الشيخ أبى السعود الذى فى كوم الجارح ، فلما تكامل المجلس عنده ذكروا له أمر سلطنة الدوادار وانه امتنع من ذلك ، فأحضر لهم الشيخ مصحفنا شريفا ، وحلف الأمراء الذين حضروا صحبة الدوادار بأنهم اذا سلطنوه لا يخوبونه ولا يغدرونه ولا يخامرون عليه ويرضون بقوله وفعله ... فحلف الجميع على ذلك .

ثم ان الشيخ حلفهم ألا يعودوا الى ما كانوا عليه من ظلم الرعايا ، وألا يشوشوا على أحد بغير طريق شرعى ، ولا يجددوا مغلطة ، وأن ييطلوا جميع ما أحدثه الغورى من المظالم ، ويطلوا ما كان على الدكاكين من المشاهدة والمجامعة ، وأن يجرؤا الأمور على ما كانت عليه فى أيام الأشرف قايتباى ، ويمشوا الحسبة على طريقة يشبك الجمالى لما كان محتسبا ... فحلفوا على ذلك .

ثم ان الشيخ ذكر للأمراء أن الله تعالى ما كسرهم وذلكم ، وسلط عليكم ابن عثمان ، الا بدعاء الخلق عليكم فى البر والبحر ، فقالوا : « تبنا الى الله تعالى من اليوم عن الظلم » . ثم انفض المجلس على ذلك وخرجوا من عند الشيخ أبى السعود على أن يسلطنوا الأمير الدوادار ، وأخذ الشيخ عليهم العهد بجميع ما حلفهم عليه بحضرته كما تقدم . وترشح أمر الأمير الدوادار الى السلطنة ، وتسلطن كما سيأتى ذكر ذلك فى موضعه .

ومن هنا نرجع الى أخبار الأشرف الغورى ، فانه خرج من القاهرة خامس عشر ربيع الآخر من

وملبسه ويحب رؤية الأزهار والفواكه ، ويميل إلى أبناء العجم وربما كان يميل إلى مذهب النسيبية من ميله إلى معايشة الأعاجم ، وكان مولعا بفروس الأشجار وحب الرياضيات وسماع الأطيوار المغردة ، ونشق الأزهار العطرة . وكان يستعمل الطاسسات الذهب يشرب فيها ، وكان يستعمل الأشياء المفرحة ، وكان نهما في الأكل والشرب ، وكان يعفوى طيور السموع .

وكان يعرف بقانصوه بن ببيردى الغسورى ، واستمر يرتع في ملك مصر على ما ذكرناه من التمتع والرفاهية وهو نافذ الكلمة وافر الحرمة ، والأمراء والنواب والعسكر في قبضة يده لم يختلف عليه اثنان في كلمة ، إلى أن وقعت الواقعة بينه وبين سليم شاه ابن عثمان ملك الروم ، فخرج إليه كما ذكرنا وجرت له هذه الكائنة التي لم تقع لملك من ملوك مصر ولا غيرها من الملوك ، وكان ذلك في الكتاب مسطورا . وقد قلت في معنى ذلك :

طلعت تاريخ الملوك فلم أرى

فيما سمعت حوادث مما جرى

لا زالت الأيام يبدو فعلها

بعجائب وغرائب بين الورى

لكن هذى وقعة ما مثلها

سبقت لسلطان ولا متأرا

والأشرف الغورى كان مليكنا

لكنه قد جار فينا واقدرى

والموت أوجب هزمه مع جيشه

قد كان ذلك في الكتاب مسطرا

أعماله ردت عليه بما جنى

والدهر جازه بأمر قدرا

وكان للغورى محاسن ومساوى ، لكن مساويه

أكثر من محاسنه ...

والساحدارية والماليك الجلبان ، وتركوا جثته على الأرض فكان آخر العهد به ولم تر له جثة ولا عرف له مكان قبر ، فكأنما ابتلعت الأرض ، ولم يقف له أحد من الناس على خبر .

ومن العجائب انه لم يدفن في مدرسته التي صرف عليها نحو مائة ألف دينار ، وظن أنه يدفن بها على عزة وحفظ مقام ، فكان المقدور خلاف ذلك ، وصار مرميا في البرارى تنهشه الذئاب والنمور ، ومات وله من العمر نحو ثمانية وسبعين سنة .

وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية والبلاد الشامية خمس عشرة سنة وتسعة أشهر وخمسة وعشرين يوما . وكانت هذه المدة على الناس كل يوم كآلف سنة مما يعدون .

وكانت صفته أنه طويل القامة ، غليظ الجسد ذو كرش كبير ، أبيض اللون ، مدور الوجه ، مشحم العينين ، جهورى الصوت ، مستدير اللحية ، ولم يظهر بلجبه الشيب الا قليلا . وكان ملكا مهيبا جليلا مبجلا في المواكب ، تملأ العيون منه في المنظر ، ولولا ظلمه وكثرة مصادراته للرعية لكان خيار ملوك الجراكسة ، بل وخيار ملوك مصر قاطبة .

وكان في يومى الاثنين والخميس ينزل إلى الحوش السلطاني ، ويومى السبت والثلاثاء بالميدان . فينزل من السبع حدرات وقدامه طوالتين خيل بسروج ذهب وكنابيش زركش . وكان يكثر في الأسفار من ركوب الحجورة بالسروج البداوى والركب العراض ، وكان يشد في وسطه حياصة ذهب عوضا عن الشد البعلبكي ، وكان يلبس في أصابعه الخواتم الياقوت والفيروزج والزمرد والألماس وعين الهر ، وكان مولعا بشم الرائحة الطيبة من المسك والعود والعنبر ، وكان ترفا في

فأما ما عد من محاسن الغورى فانه كان رضى الخلق ، يملك نفسه عند العصب ، وليس له زيادة حدة عند قوة خلقه . ومنها أنه كان له اعتقاد زائد فى الفقراء والصالحين . ومنها أنه كان يعرف مقادير الناس على قدر طبقاتهم . ومنها أنه كان ماسك اللسان عن سب الناس فى شدة غضبه . ومنها أنه كان يفهم الشعر ويحب سماع الآلات والغناء ، وليس له هرج . وكان مغرما بقراءة التواريخ والسير ودواوين الأشعار ، وكان فريبا من الناس ، يحب المزح والمجون فى مجلسه ، غير أنه كشف من حيث النظر الى داته . وكان عنده لين جانب ورياضة بخلاف طبع الأتراك ، ولم يكن عنده شمم ولا كبر نفس ولا رقاعة زائدة بخلاف عادة الملوك فى أفعالها .

وأما ما عد من مساويه فانها كثيرة لا تحصى : منها أنه أحدث فى أيام دولته من أنواع المظالم ما لم يحدث فى سائر الدول من قبله . ومنها أن معاملته فى الذهب والفضة والفلوس الجدد أنحس المعاملات جميعها : زغل ونحاس وغش ، لا يحل بها بيع ولا شراء . ولا معاملة فى مله من المثل . ومنها ما قرره على الحسبة فى كل شهر وهو مبلغ ألفين وسبعمائة دينار . وكانت السوقه نبيع البضائع بسا يختارونه من الأثمان ، ولا يفدر أحد أن يكلمهم ، فان كلمهم أحد فبولون علينا مال السلطان ، فكانت سائر البضائع فى أيامه غالية بسبب ذلك .

وقرر على دار الضرب مالا له صورة فى كل شهر ، فكانوا يضيفون فى الذهب والفضة والنحاس والرصاص جهارا . فكان الأشرافى الذهبى اذا صفى يظهر فيه ذهب يساوى اثنى عشر نصفنا . وقد سلم السلطان دار الضرب الى شخص يسمى جمال الدين ، فلعب فى أموال المسلمين ، وأتلف المعاملة ،

وسبك ذهب السلاطين المتقدمة حتى صار لا يلوح لأحد من الناس منها لا دينار ولا درهم . فلما شنق جمال الدين فرر فى دار الضرب المعلم يعقوب اليهودى ، فمشى على طريقة جمال الدين . وقد استباح أموال المسلمين فكان النصف الفضة ينكشف فى ليلته ويصير من جملة الفلوس الحمر . فاستمر الغش فى معاملته فى مدة دولته الى أن مات . وقد ورد الحديث الشريف « من غشنا فليس منا » .

ومنها أنه كان يولى الكشاف ومشايخ العربان على بلاد المقطعين والأوقاف فيأخذ كل منهم المثل أمثالا ، فضعف أمر الجند من يومئذ وتلاشى حال البلاد الشامية والحلبيه . وكان يفرد عليهم الأموال الجزيلة فى كل سنة فيأخذونها من الرعية وزيادة بالظلم والعسف ... فكان كل واحد من الرعية أصحاب الأقطاع والأوقاف يتسنى الرحيل من بلاده الى غيرها من عظم الظلم الذى يصيبهم من النواب ، ولا سيما ما حصل لعربان جبل نابلس بسبب المال الذى آفده عليهم لأجل المشاة عند خروج التجريدة ، فما حصل لأهل البلاد الشامية بسبب ذلك خير .

وكان حسين نائب جدة يأخذ العشر من تجار الهند المثل عشرة أمثال ، فامتنتت التجار من دخول بندر جدة ، وآل أمره الى الحراب . وعز وجود الشاشات بمصر ، وعز وجود الأصناف التى كانت تجلب من بلاد الافرنج ، والأرز والأنطاع ، وخرب البندر ، وكذلك بندر الاسكندرية ، وبندر دمياط ، فامتنتت تجار الفرنج من الدخول الى تلك البنادر من كثرة الظلم .

وكان كل أحد من أراذل الناس يتقرب الى خاطر السلطان بنوع من أنواع المظالم ، فقرر على بيع الغلال قدرا معلوما يؤخذ على كل اردب ثلاثة

أنصاف من البائع والمشتري ، وكذلك على البطيخ والرمان ، حتى خرج على بيع الملح ، وجدد في أيامه عدة مكوس من هذا النمط لم يفعلها هناد في زمانه ، ولم يفتنه من أعيان التجار أحد حتى صادره .

وصادر أمير المؤمنين المستمسك بالله يعقوب ، وأخذ منه مالا له صورة ، ودخل في جملة ديون حتى أورد ما فرر عليه .

وأما من مات تحت عقوبته بسبب المال ، فمنهم القاضي بدر الدين بن مزهر كاتب السر ، ومهم شمس الدين بن عوض ، ومعين الدين بن شمس الدين ، وعلم الدين كاتب الخزانة ، وغير ذلك جماعة كثيرة من المباشرين والعمال ماتوا في سجنه بسبب المال والمصادرات .

ومن أفعاله النسيعة ما فعله مع أولاد الناس من خروج أقطيعهم ورزقهم من غير سبب ، وإعطاء ذلك إلى مماليكه الجلبان . ومنها قطع جوامك الضعفاء والأيتام من الرجال والنساء والصغار ، وحصل لهم الضرر الشامل بسبب ذلك . ومنها أنه أرسل فك الرخام الذي بقاعة ناظر الخاص يوسف التي تسمى نصف الدنيا ، فوضع ذلك الرخام في قاعة اليسرية التي بالقلعة .

ومنها أنه قطع معتاد الناس من الديوان المقرر من قديم الزمان ، وجدد أخذ الحمایات من المقطعين من قبل أن يزيد النيل وتزرع الأراضي ، وكانت المقطعين تقاسى من الهوان والذل ما لا خير فيه . ثم تزايد حرصه على جمع الدنيا وشحه حتى صار يحاسب السواقين الذين في سواقى القلعة ، والخولة الذين في سواقى الميدان ، على العجلة وروث الأبقار وما يتحصل في كل يوم مما يبيعونه ، وقرر عايبهم مبلغا يؤدونه للذخيرة الشريفة . وكانت أرباب الوظائف من المباشرين والعمال معه في غاية الضيق ،

لا يغفل عنهم من المصادرات يوما واحدا . وكان من حين توفي الأمير خاير بك الخازندار يباشر ضبط أمر الخزانة بنفسه ، ما يدخل إليها وما يخرج منها وما يعرضون عليه من الأمور في ذلك جميعه من الوصولات ، وما يصرف من الخزائن في كل يوم . وكانت هذه الأموال العظيمة التي تدخل له يصرفها في عمائر ليس بها نفع للمسلمين ، ويزخر به الحيطان والسقوف بالذهب ، وهذا عين الاسراف لبيت مال المسلمين . . . وكان يهرب من المحاكمات كما يهرب الصغير من المكتب ، وما كانت له محاكمة تخرج على وجه مرضى ، بل على أمور مستقبحة . وكان يتغافل عن أمر القتل ويدفعهم إلى الشرع ، ويضيع حقوق الناس عليها . وكان يكسل عن علامة المراسيم ، فلا يعلم على المراسيم الا قليلا ، فتتعطل أشغال الناس بسبب ذلك ، حتى كانت تشتري العلامة العتقة بأشرفى حتى تلتصق على المرسوم لأجل قضاء الحوائج . ولو شرحنا مساويه كلها لطلال الشرح في ذلك .

وأما من تولى الخلافة في أيامه فأمر المؤمنين محمد المتوكل على الله ، نجل امين المؤمنين المستمسك بالله يعقوب .

وأما قضاة الشافعية فأولهم شيخ الاسلام قاضى القضاة زكريا ، وقاضى القضاة محبى الدين عبد القادر النقيب ، تولى وظيفه القضاء في أيامه خمس مرات ، وقاضى القضاة برهان الدين بن أبى شريف المقدسى ، وقاضى القضاة ابن فرفور المقدسى ، وقاضى القضاة جمال الدين القلقشندى ، تولى القضاء في أيامه مرتين ، وقاضى القضاة كمال الدين بن محمد بن على الشهير بالطويل القادري ، وقاضى القضاة بدر الدين المكينى ، وقاضى القضاة علاء الدين بن النقيب ، ثم أعيد

قاضي القضاة كمال الدين الطويل ، وقد ولى القضاء في دولته أربع مرات .

وأما قضاة الحنفية فالقاضي سري الدين عبد البر ابن الشحنة ، ثم القاضي برهان الدين بن الكركي ، ثم القاضي شمس الدين محمد السمديسي ، ثم القاضي حسام الدين محمود بن الشحنة .

وأما قضاة المالكية فالقاضي عبد الغني بن تقي الدين ، ثم القاضي برهان الدين الدميري ، ثم ولده محيي الدين يحيى ، ثم جلال الدين بن قاسم ، ثم أعيد محيي الدين بن الدميري ثانيا .
وأما قضاة الحنابلة فالقاضي شهاب الدين أحمد الششيني ، ثم ولده عز الدين محمد ، ثم شهاب الدين الفتوحى .

وأما كتاب سره فالقاضي محمد الدين الحلبي .
وأما نظار جيشه فالقاضي شهاب الدين أحمد بن الجمالي يوسف ناظر الحاص ، والقاضي عبد القادر القصري .
وأما نظار خواصه فالقاضي علاء الدين ابن الصابوي أولا ، ثم علاء الدين ابن الامام ، ثم ناصر الدين الصفدي ، ثم أعيد ابن الامام ثانيا .

وأما وزراؤه فالأمير طقطباي بن ولي الدين ، وجمع بين الوزارة والأستادارية ، ثم الأمير نعرى برمش ، ثم الأمير يوسف البدرى .

وأما استادارياته ، فالأمير نعرى بردى بن بلباي القادري ، ثم الأمير نرباي حارندار الملك العادل طومان باي . ثم الشرفي يونس النابلسي . ثم قرر الأمير طومان باي الدوادار في الأستادارية مضافا لما بيده من الدوادارية الكبرى ، واستمر بها الى أن تسلطن .

وأما من ولى الحسبة في أيامه فالأمير قرقماس المقرى ، والأمير جان بردى الغزالي . ثم أعيد

قرقماس المقرى ، ثم الزينى بركات بن موسى ، ثم الأمير ماماى الصغير .

وأما أتابكياته فأولهم قيمت الرحبى ، وقرقماس ابن ولى الدين ، ودولات باي بن أركماس ، وسودون العجمى .

وأما دوادارياته فأولهم مصرباي ، ثم أزدمر بن على باي ، ثم طومان باي الذى تسلطن بعده .

وأما حجايه فالأمير خاير بك بن باي الذى شرد في نيابة حلب ، والأمير أنص باي بن مصطفى .
وأما بقية الأمراء وأرباب الوظائف فعلى حكم ما تقدم من أخبارهم .

وأما نوابه بالشام : فالأمير دولات باي بن أركماس ، ثم قانصوه المحمدى الشهير بالبرجى وسيباي بن بخت خجا .
وأما نوابه بحلب : فأركماس بن طراباي ، وبخشباي بن عبد الكريم ، وسودون بن يشبك ، وجانم ويشبك وأبرك الأشرفى ، وتمراز الأشرفى .
وأما نوابه بصفد : فقانصوه بن قرا ، وتانى باي العثمانى ، وسودون الدوادار .
وأما نوابه بغزة : فالأمير صلاح الدين الذى كان نائب القدس ، وأزبك الصوى الذى كان نائب القدس أيضا ، وأقباي الذى كان كاشف الشرقية .
وآخر من ولى بها في أيامه دولات باي الأعمش ، وقد جمع له بين نيابة القدس والكرك ونيابة غزة ، وولى بها آخرين غير هؤلاء .

وأما ما أنشأه بالقاهرة : فمن ذلك الجامع والمدرسة اللذان أنشأهما عند الشرايشيين ، والوكالة والحواصل والربوع التى أنشأها خلف المدرسة عند المصبغة ... ومن انشائه المئذنة التى عمرها بالجامع الأزهر وهى براسين ، وأنشأ هناك الربيع والحوانيت التى بالسوق خلف الجامع ، وأنشأ الربوع التى بخان الخليلي ، ووجد عسارة

وأنشأ هناك خانا وأبراجا على بابه ، وجعل فيه
حواصل لأجل ودائع الحجاج . وأنشأ في الأزلم
خانا وجعل فيه حواصل مثل الخان الذى فى العقبه ،
وحفر هناك الآبار فى عدة مواضع من مناهل
الحجاج .

وأنشأ بسكة المشرفة مدرسة ورباطا للمجاورين
والمقطعين هناك ، وأجرى عين بازان بعد ما كانت
انقطعت من سنين ، وأنشأ بجدة سورا على ساحل
البحر المالح ، وفيه عدة أبراج بسبب حفظ بندر
جدة من الفرنج ، وجاء هذا السور من أحسن
المبانى هناك . وله غير ذلك من الآثار الحسنه عدة
مبان بها نفع للمسلمين .

وبالجملة أن السلطان الغورى كان خيار ملوك
الچراكسة على عوج فيه ، ولم يجرى من بعده أحد
من الملوك يشابهه فى أفعاله وعلو همته وعزمه فى
الأمر . وكان كفؤا تاما للسلطنة ، مبدلا فى
المواكب ، تملأ منه العيون .

وأما من توفى فى أيامه من أعيان العلماء ،
ومشايخ الاسلام ، وقضاة القضاة ، فمنهم : الشيخ
بدر الدين ابن عبد الرحمن الديرى رحمة الله عليه ،
وكان من أعيان علماء الحنفية مفتيا مدرسا عريفا
ولى مشيخة الجامع المؤيدى ، وكان من خيار أبناء
الديرى . وتوفى الشيخ شهاب الدين ، خليفة
سيدى أحمد البدوى رحمة الله عليه ، وكان من
أعيان مشايخ الحقيقة . وجاءت الأخبار بوفاة قاضى
القضاة الحنبلى بهاء الدين بن قدامة ، توفى بدمشق
ولى قضاء الحنابلة بمصر والشام . وتوفى الشيخ
ابراهيم المواهبى الشاذلى رحمة الله عليه ، وكان
من أعيان مشايخ الصوفية . وتوفى العلامة تفى
الدين الأوجاقى شيخ الحديث ، رحمة الله عليه .
وتوفى الحافظ العلامة جلال الدين عبد الرحمن
الأسيوطى ، وكان من أعيان علماء الشافعية ، بلغت

خان الخليلى ، وأنشأ به الحواصل والدكاكين ...
وأنشأ فى باب القنطرة ربعين ودكاكين ، وكذلك
الربعين اللذين بين السورين والطاحون عند
المصبغة ... وأنشأ البيت الذى فى البندقانيين
لولده ، وتناهى فى زخرفته . وأنشأ هناك ربعا
ووكالة .

وأنشأ الميدان الذى كان تحت القلعة ، ونقل
اليه الأشجار من البلاد الشامية ، وأجرى اليه ماء
النيل من سواق نقالة ، وأنشأ به المناظر والبحرة
والمقعد والمبيت برسم المحاكمات ... وأنشأ جامعا
خلف الميدان عند حوش العرب بخطبة ومئذنة ،
وجدد عمارة بالقلعة منها الدهيشة ، وقاعة اليسرية ،
وقاعة العواميد ، وقاعة البحرة . وأنشأ المقعد
القبطى الذى بالحوش ، وجدد عمارة المطبخ الذى
بالقلعة ، وجدد عمارة سبيل المؤمنين ، وجعل سفنه
معقودا بالحجر . وأنشأ الربع والدكاكين التى
يسوقها عبد المنعم . وأنشأ الربع والوكالة التى فى
الجسر الأعظم . وجدد عمارة ميدان المهارة الذى
بالقرب من قناطر السباع ، وبناه بالحجر الفص
المشهر بعد ما كان بالطوب اللبن . وأنشأ المجراة
ونقلها من درب الخولى الى موردة الحلفاء .

وجدد عمارة المقياس ، وأنشأ به القصر على تلك
البسطة التى كانت هناك . وأنشأ بها المقعد المثل
على البحر ... وجدد عمارة قنطرة بنى وائل ،
والقنطرة الجديدة وقنطرة الحاجب ، وقنطرة
الخرنوبى وأعلاها ، حتى صارت تدخل المراكب من
تحتها . وجدد عمارة قناطر السباع . وأنشأ المساطب
وعليها الدعائم عند قبة الأمير يشبك التى بالمطرية .

وأنشأ بالطينة على ساحل البحر المالح قلعة
لطيفة بها أبراج وجامع بخطبة . وأنشأ بشعر رشيد
سورا وأبراجا لحفظ الثغر ، وجدد عمارة الأبراج
بالأسكندرية ، وأصاح طريق العصبه ، ودوار حقن .

وبهذا رب السما قد حكم
والفلك دار ولم يزل دابر
ابن عثمان باداه بأخذ القلع
ويمنع التاجر مع الجلاب
أن يجيبوا الى مصر مملوك
ولا فروة سمور ولا سنجاب
ولا وشق ولا ثعلب يجلبوا
ومن الصوف ما عاد يجينا ثياب
على الصوف ياما قعدنا سنين
ما يجي من عندو ولا تاجس
والأمارة جسو للملك قالوا
ابن عثمان بانغي عليك جاير
الأمير الكبير سى سودون
للعجم نسبتو خلاف القياس
والمقر الأشرفى العنالى
هو أمير سلاح سى أركناس
وبسودون رأس نوبة النواب
لو رياضه مع سائر الأحناس
وأنص باى هو حاجب الحجاب
لو شجاعة فى الحرب بالناظر
ومحمد يدعى أمير آخه
نجل سلطان أشرف عزيز ناصر
والدوادار تانى أمير علان
وان أردت المقدمين تذكر
ابن جركس مقدم كبير
وتسر بالزردكاش يسر
وكذا جنبلاط معو كرتباى
وأربعين فى ذى العدد واكثر
وتبعهم من الاساوة كثير
طيلخااه بالنصر تباشر

مصنفاته ستائة مؤلف ، وكان بارعا فى علم
الحديث ، توفى فى جمادى الأولى سنة احدى عشرة
وتسعمائة . وتوفى قاضى قضاة المالكية برهان الدين
الدميرى سنة ثلاث عشرة وتسعمائة . وتوفى
القاضى ناصر الدين محمد بن جرباش ، وكان من
أعيان علماء الحنفية . وتوفى الشيخ علاء الدين
العجمى الشافعى شيخ تربة جانى بك نائب جدة ،
وكان من أعيان علماء الشافعية . وتوفى قاضى قضاة
الحنابلة شهاب الدين أحمد الشيشينى ، وكان علامة
فى مذهبه ، توفى سنة تسع عشرة وتسعمائة . وتوفى
الشيخ عبد الباسط بن خليل المؤرخ ، وكان من
أعيان الحنفية ، وكانت وفاته فى ربيع سنة عشرين
وتسعمائة . وتوفى الشيخ العارف بالله تعالى ، محمد
ابن عنان رحمة الله عليه ، وكان من أعيان مشايخ
الصوفية . وتوفى قاضى قضاة الشافعية كان ، محيى
الدين عبد القادر بن النقيب ، وكانت وفاته سنة
اثنين وعشرين وتسعمائة . وتوفى قاضى القضاة
كان ، جمال الدين ابراهيم بن علاء الدين
القلقشندى الشافعى ، وكان من أعيان علماء
الشافعية . وتوفى الشيخ نور الدين على المحلى
وكان يعرف بفريه ، وكان من أعيان علماء
الشافعية . وتوفى الشيخ تاج الدين الذاكر ، وكان
من أعيان الصوفية . وتوفى قاضى قضاة الحنفية ،
وكان يسمى برهان الدين بن الكركى . وكان من
أعيان علماء الحنفية ، مات غرقا فى أبام دولته .
ومات غير هؤلاء جماعة كثيرة من الأعيان لم نذكرهم
هنا خشية الاطالة . ولا بأس بإيراد هذا الزجل الذى
عمله الشيخ بدرالدين أبقاه الله تعالى ، يرثى به
الملك الأشرف قانصوه الغورى عند وقوع تلك
الفتنة المقدم ذكرها وما جرى له ، وهو قوله :

غربت شمس دولة الغورى
وابن عثمان بجسو طلع ساير

هو المباشر للخاص وهو العامل
وكذا القصري للجيش ناظر
دخلوا الشام أوكب بهم موكب
ما سمعنا موكب رثى مثله
ولا نالوا ملك ولا سلطان
في الموكب ولا أحد قبله
ومن الشام خرج دخل في حلب
وقطع من وعره الى سهله
وسليم شاه لما سمع أظهر
أن طبعوا منها بقى حابر
طلب الصلح أرسل لهم قاصد
بالهدايا والملبس الفاخر
قالوا دا الصلح سيد الأحكام
من بخالف يرجع هداه في ضلال
والأمانة في محمل الانسان
وأبى حملها عوالي الجبال
وقضى ربنا بحضن الدما
وكفى الله المؤمنين القتال
جو جواسيس الأشرف الغورى
أعلموه انو عليه ماكر
قالوا احذر تركن الى صلحو
واعلم انه خاين عليك غادر
حقق القول ومن حلب برز
والعساكر معو لاجل القتال
وجد الروم مجهزين بالسلاح
والتراكيش معمره بالنبال
ووقع بين العسكرين وقعة
للفريقين شابت لها الأطفال

والعساكر معهم كثير فرسان
عشراوات من ترك تتكاثر
ضرب الكل بينهم مشورة
قالوا ملت منا القلوب والنفوس
نحن نخرج جميع لاجل القتال
بالجنائب والسلاح واللبوس
ونجرد لنصرة السلطان
نكسر الروم والأراضى ندوس
راهنوا بالنفوس وهم أقنار
كل واحد بهجتو قامر
ولا يدري ما قد خبي في الغيب
من تقادير القادر القاهر
خامس العشر من ربيع آخر
لتسعمائة اثنين وعشرين عام
ورخوها من هجرة الهادى
شافع الخلق في نهار الزحام
كان خروج السلطان بتجريدة
لابن عثمان طالب بلاد الشام
والامارة في خدمتو موكبين
بالماليك والطلب تتفاخر
وخروج الجميع من القاهرة
كان بتقدير الواحد القاهر
في محفة خرج معو القاضى
كاتب السر المنتخب محمود
والخليفة المتوكل ولد يعقوب
هو محمد فعلو الجميل محمود
وقضاة القضاة ومن معهم
كل نائب قد أبدل المجهود
خرج معو لاجل الخلع
ناظر الخاص الناهى الأمر

نصر الله المصري على الرومي
 وبجلاو أفسحى عليه غاير
 ولا يدري ما قد خبي في الغيب
 ولا يدري ما هو اليه صاير
 ابن عثمان كان لو من العسكر
 خلق كانوا على الشمال كامنين
 في اشتغال العسكر بنهب الروم
 خرجوا في القتال لأجل السنين
 فاستغاث الملك وبو سارقه
 ارتقى على الأرض عن جوادوينين
 جا ابن عويبيرس واقباى الطويل
 كل واحد لصرته بادر
 والشجاعة ما تغلب الكثرة
 قطعوهم بالصارم الباتر
 جل ربي محرك الحركات
 جعل الله لكل قتله سبب
 والعجب كان في قتلة الغورى
 في التواريخ تكتب بماء الذهب
 تسعمائة اثنين وعشرين عام
 ما جرى لو خامس وعشرين رجب
 نسال الله أن يحسن العافية
 ويعيد الرابع هو الحاسر
 يكشف العار عنا بأخذ التار
 ويرد الكره على الكافر
 أشتهى التار لقتلة الغورى
 ولعللى أن أبلغ الأوطار
 والتهامى ذلك النهار عندى
 ويعنوا على وسر او طار

بعد هذا ما أخشى غراب البسين
 ان زعق في دارنا أو طار
 والعجائب في قتلة الغورى
 راح يرجلو لقتلو خاطر
 وحسنا كل الحساب الا
 ما جرى لو ما مسر بالخاطر
 دمعته العين منى على الغورى
 من دماها بجرى لحزنى عين
 أرتجى عين في الناس تساعدنى
 من صباحى حتى تغيب العين
 كان عليه ترقب زمان ملكو
 والسعادة حتى أصابو عين
 الجواد غاب بين العباد أرماء
 مات ودمعو من العيون غاير
 كل من غار منسو بقى فرحان
 بعد ما كان غاير على الغاير
 ذى العساكر شبهتها روضه
 فيها أغصان فرسان عليها زهور
 والنسيم في النهر فصل زرد
 واذا هو كالسيف ظهر مشهور
 واللبوس من فوق الحديد تحكى
 ورد أحمر بين الرياض متشور
 ومن البان شطقات غصون مذهبه
 وجمهاها صنابق الباتر
 وحكى الياسمين بدن مجروح
 وشقيق النعمان عليه داير
 في سما حرب عسكر السلطان
 تطلع انجم فرسان تزين اللبوس

لو يكن في هذا البلد حمال
ويراهن في واجب الملعب
نحن عصبه نحزن على غلبه
لمسا يبقى دستو عليه مقلوب
فايش تغسل سلطاننا الغورى
لما جرد قتل ومات مكروب
بعد ملكو خمسة وعشر سنين
تسعة أشهر بالكاتب الحاصر
ويليها خمسة وعشرون يوم
عز كاتب حاسب أمين ذاكر
العجب كان في قتلة الغورى
كل مقدور لا يمنعه المحذور
ويوم خروجو من البلد أوكب
ولا يدري ما فى الجبين مسطور
بالمقدر قال لو لسان الحال
قد بقى من عمرك ثلاث شهور
اتبه من رقدة الغفلة
واحمل الطول من الأمل قاصر
بعد الأشهر عدة تسعة أيام
والمنية تكون فى العاشر
ذى الملك كان رئيس وهو مقدم
وابن عثمان مؤخر ولاح كسره
خندس الريح عليه وحل مركبو
وابن عثمان عوم وبان نصره
غرق السفن واخرب السفان
وبسيفو رمى الجميع بحره
من جيشهم ومن دماهم صار
بحرهم بر بالجتت صادر

والأسنة تحكى شهب ثاقه
وخودهم مثل النجوم فى الشموس
والملك بينهم قمر مخسوف
وحكى الرعد ضربهم فى التروس
خلت أسهم من قوس قزح ترمى
للعساكر فى ليل غبار عاكر
السحاب صار يمطر سهام خارقه
للأعدى ولم يزل ماطر
ذى العساكر بستان وفيه فاكهه
ودماهم خمر العنب مدفوق
واحد اصفر لونو حكى مشمش
وذا لون العناب وذا معشوق
ما رأى حد مثل ذى الوقعة
لا تغل لى الناصر ولا برفوق
والأمارة تحكى شجر متمر
فى رياض نشروا غدا عاطر
والمدافع ترمى سفرجل كبار
ول رمان يحكى من الفحول فاخر
كم أسلى قلبى على الغورى
وأقلو يا قلب اتفكر
أين سليمان وأين هو الثمرود
وأين هو فرعون وأين هو اقيصر
وأين ملوك الزمان وذو القرنين
واللى يسمى ان صح الاسكندر
وأين كسرى أنو شروان وايوانه
مات والايوان بعدو بقى دائر
اكل حادث بأمر القديم راحل
والاقامة للأول الآخر

وتركهم لما رجع مقلع
 برهم بحر بالدماء حادر
 قد جلا لو عروس جمال ملكو
 خالق الخلق ربنا ذو الجلال
 وجبا لوانو يقع ميت
 عن جواد ويوم الحروب والقتال .
 وزوى لوانو يموت مقهور
 ولا يعرف قبره ليسوم الزوال
 كم تطير بالرمل والرمال
 طائر الله هو أعظم الطائر
 طار حسابو وكل ما أمل
 وبهذا ما طار عليه طائر
 ابتدأ في النظم والخاتم
 بمديحي في المصطفى المختار
 كلمو الضب والذراع والبعير
 وسعت لو في خدمتو الأشجار
 والغزاة حديثها مشهور
 ونطق لو في راحتو الأحجار
 والقمر انشق له بصفين
 بعد ما كان كامل صحيح فاير
 وأشبع الجيش كلو ببعض الزاد
 وجرى الماء من اصبعو فاير
 ان يقولوا أبو النجاة العوفي
 في نظامو ما في البلد مثلو
 يا الذي جا يسمع عقود نظمه
 خذ وحرر عنو بديع نقلوا
 وان أتالك من يطلب التاريخ
 والوفايح عن الملوك قلو

غربت شمس دولة الغورى
 وابن عثمان نجمو طلع سائين
 وبهذا رب السما قد حكم
 والفلك دار ولهم نزل داين

وهذا آخر ما انتهى الينا من أخبار دولة الملك
 الأشرف أبي النصر قانصوه الغورى رحمة الله
 عليه . وقد افتتح أوائل دولته بمصادرات وظلم ،
 وأخذ أموال بغير حق ، واختتمت أواخر دولته بفتن
 ، وضرب سيف وذهاب أموال وأرواح ، وأمور
 مهولة وحوادث غريبة ، وفتن عظيمة ليس لها آخر .
 والأمر الى الله تعالى من قبل ومن بعد ، يفعل ما يشاء
 ولا يسأل عما يفعل .

واستمر سليم شاه بن عثمان مستوليا على البلاد
 الشامية والحلبية وملك قلاعها وأعمالها ، وحكم
 من الفرات الى الشام ثلاثة شهور ، وملك ثلاث
 عشرة قلعة بالأمان من غير حرب ولا قتال ، وملك
 قبل ذلك عدة قلاع من أعمال شاه اسمعيل
 الصفوى . والذي وقع لسليم شاه ابن عثمان من
 السعد والنصرة على الصفوى وسلطان مصر ،
 وأخذ أموالهم وبركهم وحيولهم واحنوائه على
 بلادهم ، وخزائن أموال الأمراء وأموال السلطان
 العورى وناهيك بها — ما وقع لفظ لأحد من ملوك
 الروم قبله ولا بعده ، وهذا الأمر من الله تعالى ،
 وقد وعده بذلك من القدم ، ان يعد الله حق . وهو
 لا يخلف الميعاد .

الأشرف أبو النصر طومان باي

وهو السابع والأربعون من ملوك الترك
 وأولادهم بالديار المصرية ، وهو الحادى
 والعشرون من ملوك الجراكسة وأولادهم في

من المكاحل فترج له القاهرة كلما شق منها وفتح
السد في عيبة السلطان ، وكان يوم مشهود
ولم يزل على ذلك حتى تبت صوت السلطان
العورى : ورجعت الأمراء من التجريده ، فوقع
الاختيار مهم على سلطنته ، فامتنع من ذلك غاية
الامتناع ، والأمراء تقول ما عهدنا سلطان الا انت ،
وهو يمتنع من ذلك

ثم ركب هو والأمير علان وجماعه من الأمراء
المقدمين ووجهوا الى نوم الجارج عند الشيخ
أبي السعود ، فلما جلسوا بين يديه وذكروا له ذلك
بعل الأمير طومان باى على السدس «واع من
العلل . منها ان حزانن بيت مال المسلمين يس فيها
درهم ولا دينار ، فادا سلطت العسك على
العسكر شيئا . ومنها ان ابن عثمان ملك البلاد
الشاميه وهو راحف على مصر ، وأن الأمراء
لا يطاوعوبى على الرجوع الى السفر نابا ومها
أنه اذا تسلطن يعدرون به ، ويركبون عليه ،
ويحلغوبه من السلطنة ، ويرسلونه الى السجن
بشعر الاسكندريه ، ولا يقوبه فى السلطنة الامدة
يسيره . ثم ان الشيخ أبا السعود احصر بين يدي
الأمراء مصحفا شريفا وحلف عليه الأمراء الدين
جاءوا بضحته بأنهم اذا سلطنوه لا يحامرون
عليه ولا يعدروه ، ولا يثيرون فقتنا . وأنهم
ينتهون عن مظالم المسلمين قاطبة فحلفوا كلهم
على المصحف الشريف بسعى ذلك فلما حلفوا
ترشح أمر طومان باى الى السلطنة ، وانفض
المجلس على ذلك ، ووجه الأمراء الى بيوتهم .

فلما كان يوم الجمعة رابع عشر شهر رمضان من
هذه السنة صلى الأمير الدوادار صلاة الفجر ،
وركب ومعه الأمراء المقدمون وقدامه الفسوانيس
والمشاعل ، فطلع الى باب السلسلة وجلس به .

العدد وكان أصله من كتابية الأشرف
قايىباى ، اشراه الملك الأشرف فانصوه العورى ،
وكان بلود له بصرايه . فلما اشراه قدمه الى
الأشرف قايىباى ، ولهذا يدعى طومان باى بن
قانسوه . فصار من جيلة مماليكه الكتابية ،
واستمر على ذلك حتى تسلطن الملك الناصر محمد
ابن قايىباى ، فأخرج له حيولا وقماشيا وغلماانا وصار
من مستخرجات الناصر ومعانيقه . وبفى جمدارا
تم بى خاصكيا ، واستمر على ذلك حتى سلطن
قريبه قانسوه العورى ، فأنعم عليه بامرية عشرة ،
واستمر على ذلك الى سنة عشر وتسعمائة ... فلما
توفى ابن السلطان المقر الناصرى فى الفصل الذى
جاء بها أنعم عليه السلطان بامرية طبلخاناه وجمه
شاد الشرايخاناة عوضا عن ولده بحكم وفاته ،
واستمر على ذلك الى سنة ثلاث عشرة وتسعمائة .

فلما توفى الأمير أزدمر بن على باى الدوادار
الكبير فى جمادى الأولى وهو مسافر بجبل نابلس ،
خلع عليه السلطان وقرره فى الدوادارية الكبرى
عوضا عن الأمير أزدمر بحكم وفاته ، فاستمر فى
الدوادارية الكبرى الى أن خرج السلطان الى
التجريدة بسبب ابن عثمان ... فجعله نائب العيبة
عوضا عن نفسه الى أن يحضر من السفر ، فساس
الناس فى عيبة السلطان أحسن سياسة ، وكانت
الناس عنه راصية ، وأطاعه العسكر الدين بحلفوا
بمصر قاطبة . وقد جسع بين الدوادارية الكبرى
والاستادارية العالية وكاشف الكشاف ونائب
العيبة .

وكان يركب فى كل يوم اثنين وخمس ويسير
نحو المطرية . ويدخل من باب النصر ، ويشق
القاهرة وهدامه الجم الكثير من العسكر والأمراء
المقدمين ، وقدامه سعاة وعبيد نفطية يرمون بالنفط .

عن محمد المتوكل ، وحضر في آخر المجلس قاضى
القضاة الحنفى محمود بن الشحنة .

فلما تمت له البيعة أحضروا له خلعة السلطنة ،
وهى الجبة السوداء والعمامة السوداء والسيوف
البدائى ، فأفيض عليه شعار الملك ، وتلقب بالملك
الأشرف ، مثل قريه الغورى . ثم قدموا له فرس
النوبة بغير كنبوش ولا سرج ذهب ، ولا وجدوا
له فى الزردخانات لاقبة ولا طيرا ، ولا الغواشى
الذهب . فركب من سلم الحراقة التى يباب
السلسلة ، والخليفة قدامه . فطلع من باب سر
القصر الكبير ، وجلس على كرسى المملكة ، وقبل
له الأمراء الأرض ، ودقت له البشائر بالقلعة ،
ونودى باسمه فى القاهرة ، وارتفعت له الأصوات
بالدعاء ، وفرح كل أحد من الناس بسلطنته .

وكان محببا للعوام ، فانه كان لين الجانب ، قليل
الأذى ، غير متكبر ولا متجبر . فلما انتهى أمر
المبايعة خلع السلطان على أمير المؤمنين ونزل الى
داره فى موكب حفل . وزالت دولة الغورى كأنها
لم تكن . فسبحان من لا يزول ملكه ولا يغير على
طول المدى . وقد قال محمد بن قانصوه :

فد ذهب الغورى الى ربه
وذا الدى قدره الله

الملك لله فمن شاء من
عباده للملك ولاه

فلما كان وقت صلاة الجمعة فى ذلك اليوم
خرج السلطان وصلى صلاة الجمعة ، وخطب به
الشرفى يحيى بن البردينى ، واستمر يحط به فى
كل يوم جمعة . ثم ان الخطباء حطوا باسمه فى
ذلك اليوم على منابر مصر فى القاهرة بعد ما كان
الخطباء لم يدكروا فى الخطبة اسم سلطان ، ولم

فلما ركب من بيته الذى فى درب البابا شق من
الصليبة . وهو بتخفيفه صغيرة وملوطة بيضاء ،
وكذلك الأمراء الذين طلوعوا صحبته . فارتفعت له
الأصوات بالدعاء ، وانطلقت النساء له بالزغاريت
من الطيقان .

فلما استقر بباب السلسلة أرسل خلف أمير
المؤمنين يعقوب والد أمير المؤمنين المتوكل على
الله ، فحضر وصحبه سيدي هرون ولد الخليفة
محمد المتوكل على الله واولاد ابن عمهم خليل ،
وحصر فاضى القضاة الحنفى حسام الدين
محمود بن الشحنة ، والقاضى شرف الدين يحيى
ابن البردينى أحد نواب الشافعية ، وجماعه
نواب القضاة الذين بالقاهرة ، فلما تكامل المجلس
واجتمع سائر الأمراء المقدمين وغيرهم من الأكابر
والأصاغر والعسكر أظهر أمير المؤمنين يعقوب
وكالة مطلقة عن ولده محمد المتوكل على الله بأنه
وكله فى جميع أموره ، وما يتعلق به من أمور
الخلافة وغيرها ، وكالة مفوضة ، وثبت ذلك على
يد الفاضى شمس الدين بن وحيش ، فاكتفوا
بذلك ... وكان أشيع أن يولو الخلافة الى أحد
من أولاد سيدي الكبير خليل ، فان الخليفة المتوكل
على الله كان فى أسر ابن عثمان ، ووالده يعقوب
عزل نفسه من الخلافة ، فلما أحصر هذه الولاية
عن ولده اكتفوا بذلك ... وكان قاضى قضاة
الشافعية كمال الدين الطويل فى أسر ابن عثمان
وكذلك قاضى قضاة المالكية يحيى الدين الدميرى
وقاضى القضاة الحنبلى الشهابى الفتوحى . فلم
يحضر هذه المبايعة من أعيان نواب الشافعية الا
الشرفى يحيى بن البردينى . فبايع السلطان الخليفة
أمير المؤمنين يعقوب ، وشهد عليه بذلك الشرفى
يحيى بن البردينى وجماعه من نواب القضاة نيابة

دعوا نحو خمسين يوماً ، بل كانوا يدعون
للخليفة فقط

وفي هذا السوم قبض السلطان على قانصوه
الأشرفي نائب قلعة حلب الذي سلم القلعة إلى
ابن عثمان من غير حرب ولا محاصرة ، فلما حضر
قانصوه هذا صاحبه العسكر نعيم حاطر السلطان
عليه بسبب ذلك ، فقبض عليه وأودعه في البرج
بالقلعة . حتى يكون من أمره ما يكون

وفي يوم السبت خامس عشر رمضان حضر جماعة
من الأمراء ممن تحلف بعد العسكر بدمشق ،
فحصر الأمير جان بردى العزالي نائب حماه وقد
ترشح أمره أن يلي بياضة الشام ، والأمير سودون
الدوادار رأس نوبة النوب ، والأمر فانصوه كرت
أحد المقدمين وكان مرتصداً فلما حصروا وجدوا
الدوادار قد تسلطن فعز ذلك على الأمير سودون
الدوادار . وكان قد ركن إلى السلطنة وهو
بالشام فلم يسم له ذلك فلما حصروا طبعوا إلى
القلعة وحبسوا الأرض للسلطان . ونزلوا إلى
دورهم

ثم جاءت الأخبار من بعد ذلك بأن أمير عربان
حماه الأمير ناصر الدين بن الحنش طبعه
آل ابن عثمان أرسل چالش عسدره وصاحبه ابن
سوار — الذي كان يعصب له — فلما وصلوا
إلى قابون بالقرب من دمشق ، اتهم ابن الحنش ،
وحصل يسه وبين عسكر ابن عثمان مقتلة عظيمة
مهولة ، وقتل منهم جماعة وأطلق عليهم الماء من
أنهر دمشق ، حتى صار كل من دخل في تلك المساء
نفرسه يوحل ، فلا تقدر على الخلاص فهلك من
عسكر ابن عثمان جماعة كثره حسبما أشيعت
بذلك الأخبار . وقد قلت في المعنى :

قل لا بن عثمان اذا قابلته
اقبل نصيحة ناصح ودع الطيش

واحد يعارض شاميا بجهالة
نحشى عليك اللدع من ابن الحنش

فلما دخلت الأمراء دخل صاحبهم جماعة كثيرة
من أعيان أهل دمشق وأولادهم وغيالهم ، وسبب
ذلك أنه لما حصل لعسكر مصر هذه الكسرة ،
وقتل سييى نائب الشام ، واضطربت الأحوال ،
وتب أهل الشام بعضهم على بعض . وبهبوا حارة
السرة ، وقتلوا جماعة وأخذوا أموالهم . وكذلك
فعلوا بتجار الفريج الدين هناك ، وبهبوا أموالهم .
وكانت فتنة مهولة . وبهبوا بيوت اعيان الناس
بدمشق من الغضاة والتجار . فخرج غالب أعيان
دمشق منها بسبب ذلك ، وبسبب فتنة ابن عثمان
ومساد الأحوال بمصر والبلاد الشامية فلما بلغ
السلطان ما فعله ناصر الدين بن الحنش مع عسكر
ابن عثمان رسم له بياضة حمص ، وهيل برزت له
المراشيم الشريفة أنه اذا كسر عسكر ابن عثمان
قررر السلطان في الأتابكة بدمشق ، فان ابن
الحنش أرسل يقول للسلطان . « مدنى يبغض
عسكر وأنا أجمع العربان وضمان كسرة عسكر
ابن عثمان على » وكان في قديم الزمان بعض
أجداد الحنش متولبا على بياضة حمص .

وفيه حضر شخص يقال له اينال الأعور وكان
جان بردى العزالي قررر في بياضة صفد فلما بعث
إليها دواداره ومباشريه وثب عليهم أهل صفد ،
ولم يمكنهم من الدخول إلى المدنسة ، وربما
قتلوا منهم جماعة فحضر إلى مصر ليلبس خلعة
وبمضى إلى صفد ، لقتنص من أهلها

وفي يوم الاثنين سابع عشره أنفق السلطان
الجامكية على العسكر في الحوش ، وحصل في

وفيه قبض السلطان على المهتار محمد الفجولي ،
وعلى أخيه على مهتار الطشطحاناه بخدمة السلطان
الغورى ، وفبض على جمال الدين الألواحى بواب
الدهيشة ، وهذا كان أول حكم للسلطان طومان
باى . وسبب ذلك أن السلطان لما تسلطن عرض
الخزائن فوجدها فارغة ليس فيها درهم ولا دينار .
وكان محمد المهتار وجمال الدين البواب من حين
توفى الأمير خاير بك الخازندار جعلهما السلطان
الغورى متحدتين فى أمور الخزائن الشريفة ،
فصارا يتصرفان فيها كيف يختاران ، فطاشا وركبا
فى غير سرجيها ، وما كانا يظنسان أن السلطان
الغورى يموت فى هذا الزمان . فكان ذلك من
أكبر أسباب الفساد فى حقها كما يقال فى المعنى :

أمور تضحك السفهاء منها

ويكى من عواقبها اللبيب

وفى يوم الخميس عشرى شهر رمضان ، عمل
السلطان الموكب بالشاش والقماش ، وجلس على
الدكة بالحوش ، وخلع على من يذكر من الأمراء ،
وهم المقر السيفى سودون التهابى الدوادار ، وقرره
أتابكى العساكر عوضا عن سودون العجمى بحكم
قتله فى واقعة ابن عثمان . وخلع على المقر السيفى
جان بردى الغزالى ، وقرره فى نيابة الشام عوضا
عن سيباى بن بخت خجا بحكم قتله فى واقعة ابن
عثمان . وخلع على المقر السيفى أركماس بن
طراباى ، وقرره فى امرية سلاح على عادته . وخلع
على المقر السيفى بخشبباى بن عبد الكريم وقرره
أمير مجلس عوضا عن أركماس بحكم ولايته فى
امرية سلاح . وخلع على المقر السيفى أنص ناى
ابن مصطفى وقرره أمير آخور كبير عوضا عن نجل
المقام الشريف الغورى بحكم انفصاله عنها . وخلع
على تمر الحسنى وقرره رأس نوبة النوب عوضا

ذلك اليوم بين الأمراء خلف بسبب الوظائف ،
وحصل بين الأمير علان الدوادار الثانى وبين جان
بردى الغزالى تشاجر حتى خرجا فيه عن الحد .

وفى ذلك اليوم نادى السلطان للعسكر بالعرض
وهم الذين كانوا مقيمين بمصر ولم يخرجوا فى
التجريدة صحبة السلطان . ونادى أيضا أن كل
من أخذ شيئا من نهب سلاح العسكر أو قماشهم
يرده ، ومن لم يرد شيئا وغمز عليه شتى من غير
معاودة . وقد بلغه أن جماعة من الغلمان والعيبد
ممن كان فى التجريدة نهب أشياء كثيرة من مال
وسلاح وقماش وغير ذلك .

ومن الوقائع اللطيفة أن السلطان لما تسلطن أمر
بهدم المسطبة التى كان أنشأها السلطان الغورى
بالحوش أيضا عوضا عن الدكة التى كان يجلس
عليها الأشرف قايتباى ، فهدم السلطان المسطبة
وأعاد الدكة كما كانت فى أول الأمر وجلس عليها ،
وكانت قد تكسرت فأصلحوها وجعل لها غشاء من
الجوخ الأصفر وصار يجلس عليها للمحاكمات كما
كان يجلس الأشرف قايتباى ، وقد قلت فى المعنى :

قد عادت الدكة للحكم

وانهدمت مسطبة الظلم

وصار طومان باى بين الورى

يمشى به الذيب مع الغنم

فياله من ملك عدله

قد شاع بين العرب والمعجم

وفى يوم الثلاثاء ثامن عشره ، جلس السلطان
على الدكة وعرض العسكر بالحوش ، وكتب منهم
نحو ألفى مملوك ، وعين من الأمراء المقدمين الذين
كانوا بمصر نحو ستة مقدمين . وعين الأمير جان
بردى الغزالى باشا على العسكر ، وقد ترشح أمره
بأن يلى نيابة الشام .

قتله هنالك . وخلع على سائر المباشرين من أرباب الوظائف باستمرارهم على وظائفهم . وخلع على نقيب الجيش ، وأزدهر المهندار ، والمساس والى الشرطة ، وسنبل مقدم الماليك ، باستمرارهم على عاداتهم .

وفي يوم الثلاثاء خامس عشره خلع السلطان على شيخ العرب الأمير أحمد بن بقر باستمراره على عاداته . وقد حصل من أولاد أحمد بن بقر في هذه السنة من الفساد ما لا يحصل من بلاد الفرنج ، من قتل النفوس وبهيب الأموال ، ولا سيما ما فعله ابن الجذامي بالعسكر لما رجع وهو مكسور ، وما فعله أولاد عبد الدائم بالشرفية من نهب الأموال وقتل النفوس ، ولم تنتزع فيها شاتان . وخلع عليه وراحت على من راح .

وفي يوم الخميس سبع عشره ، خلع السلطان على مصرى الأقرع أحد أمراء الطبلخانات وقرره فى الحجوية الثانية عوضا عن طومان باى قرا بحكم قتله فى واقعة عثمان . وخلع على تسرباى العادلى وقرره تاجر المماليك عوضا عن نوروز بحكم وفاته . وخلع على شادبك وقرره شاد الشرابخانه عوضا عن يوسف الناصرى بحكم انتقاله الى القدمة . وخلع على على بك وقرره على نظر الجوالى عوضا عن القصرى . وخلع على فخر الدين بن عوض واستقر به ثالث فلم فى كتابة المماليك عوضا عن جلال الدين بحكم وفاته . وخلع على حاجب الحجاب بدمشق باستمراره على عاداته .

وفى أواخر هذا الشهر قرىء عهد السلطان بحضرة أمير المؤمنين يعقوب وقاصى القضاة الحنفى ، وجماعة من النواب ، وحضرت جماعة من المقدمين على العادة . ثم ان السلطان أنعم على أمير المؤمنين يعقوب لما بايعه بالسلطنة بحصنة

عن سودون الدوادارى بحكم انتقاله الى الأتابكية . وخلع على طسبباى العلالى نائب القسلى وقرره حاجب الحجاب عوضا عن أنص باى بحكم انتقاله الى امریه آخور الكبرى . وخلع على الأمير علان ابن فراجا وقرره أمير دوادار كبير عوضا عن المقام الشريف بحكم انتقاله الى السلطنة . وخلع على الأمير أبرك الأشرفى وقرره وزيراً واستاداراً وكاشف الكساف عوضا عن المقام الشريف . وخلع على كرتباى الأشرفى أحد الأمراء المقدمين وقرره دوادارا تانيا مقدم ألف كما كان علان . وخلع على ماماي دوادار قانى باى قرا أمير آخور كبير كان ، وقرره أمير آخور تانيا عوضا عن آقباى الطويل بحكم قتله فى واقعة ابن عثمان . وخلع على شحص من الأتراك يقال له تم السيفى مغلباى الساقى ، وقرره فى نيابة الاسكندرية عوضا عن خدا بردى الأشرفى ، بحكم أنه بقى مقدم ألف . وخلع على شحص يقال له بخشباى الذى كان كاشف البهسنا وقرره فى نيابة صفد . وخلع على شخص آخر من الأتراك وقرره فى نيابة طرابلس . وخلع على شخص يقال له تانى بك الأشرفى وقرره فى نيابة القلعة عوضا عن طقطباى بحكم انتقاله الى الحجوية الكبرى . وخلع على آقطوه وقرره كاشف الشرقية ثم أبطل ذلك فيما بعد . وخلع على الأمير بشبك الفقيه وقرره خازندارا كبيرا عوضا عن خاير بك الذى توفى . وخلع على جنتمر وقرره خازندارا تانيا . وخلع على ماماي الصغير وأقره فى الحسبة على حاله . وخلع فى ذلك اليوم على جماعة كثيرة وقرره فى وظائف معلومة .

وأما أرباب الوظائف من المباشرين ، فخلع على القضاة محمود كاتب السر ابن أجا وأقره على حاله . وأقر الشهابى أحمد ناظر الخاص ابن يوسف متحدثا فى نظارة الجيش عوضا عن القصرى بحكم

ونصف وثلث في منشية دهشور ، فأنعم عليه في ذلك اليوم بما ذكرناه .

وفي يوم السبت تاسع عشره طلع ناظر الخاص بخلع العيد وعرضها على السلطان وهي مزخرفة على رؤوس الحمامين .

وفي يوم الأحد سلخ هذا الشهر حضر الناصري محمد ابن بلباى المؤيدى حاجب ميسره بدمشق وأخبر بأن سليم شاه بن عثمان فد ملك مدينه دمشق وملك قلعتها ، وقتل على باى الأشرى نائب القلعة ، وقتل ستة وثلاثين أميرا من أمراء دمشق غير من وجده من الرعية بالشام .

وحضر ابن بلباى هذا وهو في زى العرب ببشب وزنط على رأسه . فلما أشيعت الأخبار في القاهرة بأن ابن عثمان ملك الشام صارت الناس في أمر مريب بسبب ذلك ، وقالوا ما بقى بعد أخذ الشام الا مصر ، وجزموا بهذا الأمر . وعول بعض الناس على الهروب الى جهة الصعيد ... فتنكد السلطان والأمراء والناس قاطبة لهذا الخبر ، ولا سيما أنها ليلة عيد الفطر ، والناس جرحهم طرى بسبب موت السلطان وكسرة العسكر ، والأشلة قائمة بسبب من قتل من العسكر ، وقد قلت :

يا ابن عثمان كف عن أخذ مصر

بلد شرفت بخير امام

حبرنا الشافعى قطب ولى

نجل ادريس عمدة الاسلام

هى تدعى كنانة من غزاها

قسم الله ظهره بالحسام

وفي شوال ، وكان مستهله يوم الاثنين ، صلى السلطان صلاة العيد ، وخلع على الأمراء ومن له

عادة . فخطب بالسلطان في ذلك اليوم الشرقى بحى ابن البردينى ، وكان موكب العيد حفلا .

وفي يوم الجمعة خامسه ، الموافق لرباع هاتور القبطى ، قلع السلطان البياض ولبس الصوف ، وقد عجل بلبس الصوف .

وفيه توفى الأمير جانم الابراهيمى أحد الأمراء الطبلحانات .

وفي يوم السبت سادسه طلع الى السلطان شخص يقال له على الشعبانى تقيب المحتسب ، وشخص آخر يقال له ابن خبيز السمسار في الغلال ، فلما وقفا بين يدى السلطان تكلما معه بأن يجعل على الحسبة مالا معيناً ، وعلى الغلال أيضا ، ولا يحصل من ذلك ضرر للمسلمين ... فلم يلتفت السلطان الى كلامهما وضرب على الشعبانى بالمقارع وابن خبيز ، وأشهر الشعبانى في القاهرة وهو ماش مكشوف الرأس ، وفد صرب بالمقارع ونودى عليه : هذا جزاء من يتعاون في انشاء المظالم في الدولة العادلة بعد ما بطلت ، وأمر السلطان بعزل الشعبانى من التحدث في أمر الحسبة ، فأقام الشعبانى بعد ذلك أياما يسيرة ، وأشيع موته من الضرب الذى حصل له كما تقدم .

وفي يوم الاثنين نامنه ، حضر دوادار نائب غزة المسمى بعلى بك الأحذب ، وأخبر بأن ابن عثمان من حين دخل الشام تلاشى أمره ووقع الوخم في عسكره ، فصار يموت منهم في كل يوم جماعة ، وعز عندهم وجود الأقوات من الغلال والعلف . وقد ضيقت عليه العربان ومنعوا عنه ما يجلب من الشعير والقمح والتين ، وكل من خرج من عسكره الى الضياع قتله العرب ، وقد تجون بدخوله فما بقى يمكنه الخروج منها ، وسارت خيول عسكره سائبة تأكل من ورق الأشجار وهي في غاية الحصر .

وفيه حضر خدابردى نائب الاسكندرية وخرج اليها نتم الذي قرر بها ، وحضر الأمير خابر بك المعمارى الذى كان توجه الى ثعر رشيد بسبب عمارة السور والأبراج التى هناك كما تقدم .

وفيه خلع السلطان على شخص من الأتراك يقال له ملباى المشرف وقرره فى استنادارية الصحبة عوضا عن قانصوه الأشرفى بحكم قتله فى واقعة ابن عثمان .

وفى يوم الثلاثاء تاسعه كانت كائنة الزينى بركات ابن موسى مع الشيخ أبى السعود وسبب ذلك أن شخصا مدابعا يبيع الجلود ، يقال له الدمراوى - مكاसा على بيع الجلود - فجار عليه ابن موسى ، فوقع بينه وبين ابن موسى حظ نفس ، فقصد ابن موسى أن يقبض عليه فتوجه الدمراوى الى الشيخ أبى السعود واحتمى به ، فأرسل الشيخ أبو السعود رسالة الى ابن موسى بسبب ذلك ، وقد شنع فيها ، فتوقف ابن موسى فى أمره ولم تلتنف الى رسالة الشيخ وطاوله فى أمر الدمراوى . فأرسل الشيخ لابن موسى فأحضره ، فما حضر عنده فى كوم الجارح وبخه الشيخ بالكلام ، وقال له : « ناكلب كم تظلم المسلمين » . فحقق منه ابن موسى وقام من عنده على غير رضا ، فأمر الشيخ بكشف رأس ابن موسى وضربه بالنعال . فصفعوه بالنعال على رأسه حتى كاد أن يهلك ، ثم وضعه فى مكان وأرسل خلف الأمير علان الدوادار الكبير ... فلما حضر قال له ضعه فى الحديد ، واطلع وشاور السلطان عليه وأعلمه بأنه يؤذى المسلمين .

فلما طلع الأمير علان وشاوره فى أمر ابن موسى وما جرى له مع الشيخ أبى السعود ، أرسل السلطان يقول للشيخ أبى السعود : مهما اقتضاه

رأيك فيه فافعله فلما ورد الجواب على الشيخ بذلك أمر باشهار ابن موسى فى القاهرة تم يشنقوه على باب زويلة . فأخرجوا ابن موسى من زاوية الشيخ التى فى كوم الجارح وهو ماش مكشوف الرأس بكبر طاق وهو فى الحديد نادى عليه : « هذا جزاء من يؤذى المسلمين » . فتوجهوا من كوم الجارح الى ساحل مصر العتبقة وهم ينادون عليه الى أن وصل الى بيت الأمير علان الدوادار الذى بالناصرية ... فأراد أن يوقع فيه بشنق أو تعريق . ثم عاودوا الشيخ فى أمره بأن عليه مالا للسلطان ومتى شنق ضاع على السلطان ماله ، فعفا الشيخ عنه من القتل ، واستمر ابن موسى عند الأمير علان وهو فى الحديد حتى تكون من أمره ما يكون . وكانت واقعة مبهولة بين ابن موسى والشيخ أبى السعود ، وقد أشرف ابن موسى فى هذه الكائنة على الهلاك . وقد قلت فى هذه الواقعة :

تعجبوا مما جرى فى الوجود
بين ابن موسى كان وأبى السعود

تشاجر قد طال ما بينهما
واشتعلت نيرانه بالسعود

فصرح الشيخ بعزلانه
وأكد القول بالألسعود

ويغلب الله على أمره
ويرعم القاهر أنف الحسود

ليت شعرى ذا الهبوط الذى
نال ابن موسى بعده من صعود

ولما جرى لابن موسى ما جرى ، ظهر غريمه شهاب الدين بن الصائغ ، وكان يسعى عليه فى أيام الغورى . فلما وقعت هذه الكائنة لابن موسى

اتدب الى مرافقته ابن الصائغ وقال : أنا أثبت في
جهة ابن موسى للسلطان مائة ألف دينار .

ثم ان ابن الصائغ توجه الى بيت ابن موسى
وصحبه طواشية وقواسة وجماعة كثيرة ، وكبس
على نساء ابن موسى . وبيض عليهن وهب ما في
بيوتهن من قماش وأمتعة . وبيض على عبيده
وغلمانة وحاشيته .

فلما رأى السلطان ما قد حل به توقف عما كان
فيه من أذى ابن موسى ... ثم ان ابن موسى قال
أنا أثبت في جهة ابن الصائغ مائتي ألف دينار ،
وقال للأمير علاء . أرسل خلف ابن الصائغ وصعه
في الحديد حتى يعمل حسابه . فلما حضر ابن
الصائغ وصعه الأمير علاء في الحديد حتى يقيم
حسابه مع ابن موسى .

وأما ما كان من أمر الشيخ أبي السعود ، فانه
لما فعل بابن موسى ما فعل فامت عليه النارة
والأشلة وأنكر عليه الناس والفراء ، وقالوا . ابش
للشيخ شعل في أمور السلطنة لا نستقلت الناس به
ولم يشكره أحد على ما فعله بابن موسى .

وفي يوم الأحد رابع عشره طلعت الى القلعة
خوند بنت الأمير أفردى الدوادار ، وهي روجة
السلطان ، وأمها بنت حاص بك أخت خوند وزوجه
الأشرف قايتباي فطلعت وقت صلاة الصبح
بالغوايس والمشاعل . ومعها الجم الكثير من
الحوندات والستات وأعيان نساء الأمراء
والمباشرين . فاستمرت في موكبها حتى طلعت الى
القلعة ودخلت الى قاعة العواميد . فحصل الأمير
بشير الطواشي رأس توبة السشارة على رأسها
القبعة والطير ، حتى جلست على مرئيتها ، وكان لها
يوم مشهود بالقلعة .

وفي يوم الأحد عرض الأمير علاء الدوادار ابن
موسى ، وابن الصائغ ، وكان قور على ابن موسى
عشرين ألف دينار ، وأن يورد منها على الجامكية
عشرة آلاف دينار ، فلم يورد منها شيئاً فبطحه
على الأرض . وضربه نحو عشرين عصا ، فوعد أنه
يورد ذلك القدر .

ثم طلب أحمد بن الصائغ وضربه فوق أربعمائة
عصا حتى كاد أن يهلك ، وأشيع بين الناس موته .
وفي يوم الخميس ثامن عشره لم يخرج المحمل
من القاهرة ولم يحج أحد من الناس قاطبة بسبب
فتنة ابن عثمان ، وأشيع أنه يرسل جماعة من
عسكره الى مكة المشرفة وصحبتهم كسوة
الى الكعبة ، فلم يثبت ذلك .

ثم ان السلطان أرسل الطواشي مرهف من البحر
المالح وصحبتهم كسوة الكعبة المشرفة والصرر لأهل
مكة المشرفة والمدينة . فتوجه الى الطور ونزل
من هناك الى البحر .

وفي يوم الجمعة تاسع عشره أشيع أن الشيخ
أبا السعود أرسل خلف ابن موسى وفكه من الحديد
وأظهر أنه قد رضى عليه ، وصار يتصرف في أمور
المملكة من عزل وولاية ، فأنكر عليه الناس ذلك .

وفي يوم السبت عشريه طلع الزيني بركات بن
موسى الى السلطان على أنه يعيده الى وظيفته فلم
يلتفت اليه ، ونزل من عنده بعير طائل وهو في
التوكيل به حتى يعاق ما قرر عليه من المال ، فتوجه
الى بيته وهو في غاية الذل بعد ما زينت له حارته
في سوقة اللبن ، وتخلقت جماعته بالزعفران فنزل
عليهم خدمة بسبب ذلك .

وفي يوم الأحد حادي عشره ، خلع السلطان
على شرف الدين بن عوض وقرره في استنادارية

الذخيرة عوضا عن ابن موسى بحكم انفصاله عنها

وفي يوم الاثنين ثانی عشریه نادى السلطان للعسكر بأن يوم الثلاثاء أول النفقة .

وفیه وردت الأخبار من الهند بأن المراكب التي كان أرسلها السلطان الغورى قد غرقت بما فيها من مكاحل ومدافع وآلات السلاح وغير ذلك ، وأنه قد وقع بين الرئيس سليمان العثمانى وبين الأمير حسين نائب جدة ، وأن كلا منهما توجه الى جهة من جهات الهند .

وفیه خلع السلطان على شخص من الأتراك يقال له قجماس — وكان شادا فى بنها العسل — وقرره فى كشوفية الشرقية ، وأبطل من كان قرر بها .

وفیه أنفق السلطان على العسكر المعينين للتجريدة ، فأعطى لكل مملوك خمسين دينار ، فردوها عليه وقالوا « بق ، بق » وخرجوا من باب الحوش على حمية ، وقصدوا أن ينشئوا فتنة ، فأشار بعض الأمراء على السلطان بأن يرضيهم ، وأن ينفق عليهم كل واحد مائة دينار على جارى العادة . فاسترد من خرج من العسكر على غير رضا ، ثم لما ردوا أنفق لكل مملوك مائة دينار وجامكية ثلاثة شهور عبارة عن مائة وعشرين دينارا لكل مملوك . فأنتفق فى ذلك اليوم على أربع طباق ، وأشيع أن هذا العسكر لما يخرج يقيم فى غزة هو والأمراء ويحرسون المدينة الى أن تخرج التجريدة الكبيرة بعد الربيع .

وفیه أرسل السلطان بالقبض على جماعة من الأروام الذين كانوا فى خان الخليلى ، وقد بلغه عنهم أنهم يكتبون ابن عثمان بما يقع فى مصر من أمور المملكة ، وعندهم جواسيس لابن عثمان ، فأرسل بالقبض عليهم ووضعهم فى الحديد .

وفیه أشيع أن السلطان طلب ابن عثمان الصبى الصغير الذى يقال له قاسم بن أحمد بك ابن عثمان الذى توجه مع السلطان الغورى الى التجريدة ، فلما انكسر العسكر رجع مع الأمراء الى مصر ، فبلغ السلطان أن جماعة يقصدون قتله ، فحاف عليه السلطان من القتل ... فطع به الى القلعة وأسكنه فى مكان بالبحرة ورتب له ما يكفيه فى كل يوم هو وجماعته .

وفیه حضر الى الأبواب الشريفة الشرفى يحيى ابن الأتابكى أزبك بن ططخ ، وكان مفيما بحماه ، فلما ملكها ابن عثمان فر منها وجاء الى مصر من البحر المالح من جهة طرابلس .

وفیه خلع السلطان على الأمير طقطباى حاجب الحجاب ، وجعله متحدثا فى كشوفية البحرية عوضا عن يوسف البدرى مضافا لما بيده من الحجوية الكبرى .

وفى يوم الجمعة سادس عشریه حضر الى الأبواب الشريفة القاضى عبد الكريم بن الجيعان أخو الشهابى أحمد بن الجيعان ، وكان فى الأسر عند ابن عثمان بالشام ، ففر منه وحضر الى مصر وهو فى زى جمال وعليه بشت وعلى رأسه زنط . وحضر صحبته شخص يقال له أحمد الدمياطى وهو تاجر فى الوراقين ، وأخبر السلطان بأن ابن عثمان قد تلاشى أمره ، وأن عساكره مختلفون ؟ وأن ناصر الدين ابن الحنش ضيق عليه الطرقات . وصارت العربان تقتل كل من انفرد من عسكره فى الضياع ، وأخبر أنه ملك مدينة الشام وقلعتها ، وملك قلعة طرابلس وصفد وأعمالها ، وصار بيده من الشام الى الفرات ، وأناب فى هذه المدن التى ملكها جماعة من أمرائه كما فعل فى حلب وحماه وحمص وغير ذلك من البلاد . وقيل ان ابن

الحنش أرسل الى السلطان مطالعة مستحثة في ارسال تجريدة بسرعة قبل أن يزحف ابن عشان الى غزة . ثم ان السلطان خلع على القاضي عبد الكريم ونزل الى بيته .

وفي يوم الاثنين تاسع عشره خلع السلطان على ابن خليفة سيدي أحمد البدوي الذي قتله ابن عثمان في حلب وفرره عوضا عن آبيه بحكم قتله ، فنزل من القلعة في موكب حافل وعلى رأسه الأعلام وقدامه سائر الفقراء الأحمديّة .



وفي ذى القعدة ، وكان مستهله يوم الثلاثاء ، جلس السلطان على الدكة بالحوش ، وخلع في ذلك اليوم على الشرفي يحيى بن البرديني وفرره في قضاء الشافعيه عوضا عن قاضي القضاة كمال الدين الطويل بحكم أسره عند ابن عثمان . وخلع على فاضي القضاة الحنفيّة حسام بندين محمود ابن التسحنة وأفره في قضاء الحنفيّه على عادته وخلع على الشيخ سسس الدين التتائي وفرره في قضاء المالكية عوضا عن القاضي مجيب الدين الدميري بحكم أسره عند ابن عثمان وخلع على فاضي القضاة عز الدين الششيني وأعادته الى قضاء الحنابلة عوضا عن شهاب الدين الفتوحى بحكم أسره عند ابن عثمان ... وهذه ثانية ولايه وفتع لعز الدين بن الششيني . فلما خلع السلطان على الفصاة الأربعة في يوم واحد ونزلوا من القلعه وعليهم التشارين رجت لهم القاهرة في ذلك اليوم ، واصطفت لهم الناس على الدكاكين بسبب الفرجة . وقد تولى هؤلاء القضاة والقاهرة في غاية الاضطراب بسبب ابن عثمان .

وفي ذلك اليوم أكمل السلطان النفقة على العساكر المعينة للتجريدة ، وأخذوا في أسباب عمل البرق والحروج الى غزة ... قيل ان السلطان أنفق

على نحو ألفى مملوك ، وهم المعينون للسفر . وفي يوم الجمعة رابعه طلع ملك الامراء جان بردى العزالي نائب الشام الى القلعة فصلى مع السلطان صلاة الجمعة ، ثم خلع عليه السلطان وجعله باشا على العسكر المعينين للتجريدة . فلما نزل من القلعة توجه الى وطاقه الذي بالريدايسة وخرج من غير طلب ، بل قدامه بعض جنائب حيول بعراى وطبول بازات ، وقدامه عبيد نطقية ، فتوجه الى الريدايه في ذلك اليوم قبل خروج الأمراء والعسكر .

وفي يوم السبت خامسه نادى السلطان للعساكر المعينه للتجريدة بأن يخرجوا صحبه الباشا في ذلك اليوم ، ومن لا يخرج يستاهل ما يحرى عليه فوقف له جماعة من الممالك المعينه وقالوا لا يخرج ولا يسافر حتى تنفق علينا تمن جمل ستة أشرفية ، وتصرف لنا العليق ، وثمان اللحم المنكسر . فحصل في ذلك اليوم بعض اضطراب ، وخرج المجلس مانعا ، والعسكر غير راض ، والأحوال غير صالحة ، وابن عثمان زاحف الى غزة ، ونائب غزة أرسل يقول : أدركونا بالعسكر قبل أن يملك ابن عثمان مدينة غزة ، وتتعبوا في خلاص البلاد من يده

وفي يوم الأحد سادسه خرج شحص من الأمراء المقدمى الألوفا المعينين للسفر ، وصار في كل يوم يخرج منهم الى الوطاق جماعة شسبنا فشيئا ، والباشا جان بردى مقيم بالريدايسة حتى يكمل خروج العسكر .

وفي يوم الاثنين سابعه أنفق السلطان على العسكر المعين للسفر ثمن اللحم عن ثلاثة أشهر ، فحصل كل مملوك نحو أربعة أشرفية ونصف توسعة عليهم ليستعينوا بذلك .

وفي ذلك اليوم حضر شخصان من الممالك السلطانية وكانا في بعض البضائع عند العرب .

الذخيرة الشريفة ، ووكيل بيت المال عوضا عن
الزبني بركات بن موسى .

وفي يوم الجمعة حادى عشره تزايد أم الاشاعات
بأن ابن عثمان أرسل الى غزة عسكرا صحبه جماعة
من أمرائه ، منهم شخص يسمى اسدندر باشا ،
والآخر يسمى داود باتا ، وآخرون من أمرائه .
وأشيع أنهم قد ملكوا مدينة غزة ، وأحرفوا منها
بعض ييوت . وأن نائب غزة هرب وعسكر
ابن عثمان زاحف على مصر ، وأن الاحوال غير
صالحة

فلما تحقق السلطان هذه الأخبار ، أشيع أنه
يخرج الى لقاء ابن عثمان بنفسه . ونادى في ذلك
اليوم بأن الزعر والسيبان الشطار والمعاربة وكل
من كان مخفيا عنى قتل قتل أو غلبه دم يظهر
وعليه امان الله ، والعرض هم في المدان ، وان
السلطان بصرف بهم الجوامك وامرئوب وكونيون
صحبة الزردخانات اذا سافر السلطان . فلم تعجب
الناس هذه المناذاة لقوله ولو ذبوا قتلوا القتل
منهرون وعلمهم امان الله -- وكان السدوت عن هذا
أجل -- فاضطربت الأحوال في ذلك اليوم ،
وارتجت القاهرة ، وخرج العسكر المعين للسفر
على وجوههم مسرعين .

وفي ذلك اليوم خرج الأمير خدا بردى الأشرفي
أحد المقدمين الذي كان نائب الاسكندرية ، فخرج
في موكب حفل بعير طلب ، وفسداهم الجنائب
الحربية ، وصحبته الجم الكثير من العسكر من
ماليكه . وقيل كان عنده ثلثمائة مملوك ...
فارتفعت له الأصوات بالدعاء من الناس قاطبة ،
والنصرة للعسكر على ابن عثمان . وقد صارت
الناس في وجل بسبب ابن عثمان .

وفي يوم السبت ثاني عشره جلس السلطان على

فدخلا مصر في هيئة الغلمان بأبشاث وعليهما
زنوط ، فأخبرا بأن ابن عثمان قد تلاشى أمره وأن
عسكره مختلف عليه ، وقد وقع بينه وبين خاير بك
نائب حلب ، وربما أشاعوا قتله . ولم يكن لهذا
الخبر صحة في أمر ابن عثمان ولم تثبت صحة هذه
الأخبار .

وفي يوم الأربعاء تاسعه حضر دوا دار خاير بك
نائب حلب ، وزعم أنه قد فر من ابن عثمان ، وأخبر
أن ابن عثمان أرسل عسكرا نحو خمسة آلاف
فارس صحبة ابن سوار وقد أشروهوا على أخذ
غزة ، بل أشاعوا أخذها ، وان نائب غزة قد
هرب . فاضطربت الأحوال لهذه الأخبار ، وتكد
السلطان الى الغاية ، ونادى في ذلك اليوم بالحروج
من غير تأخير ، ومن تأخر يستاهل ما يجري عليه .
فلما كان في ذلك اليوم خرجت العسكر على
وجوههم مسرعين ، وأشيع سفر السلطان بنفسه
وصحبته الأمراء قاطبة ، وأنه هو الذي يلقى ابن
عثمان بنفسه وصحبته نائب حلب أمير كبير ، وهو
في الحديد ، وجماعة من أجناد الحلقة بغزة ، وهم في
الحديد ، وأرسل نائب غزة يرافع فيهم بأنهم كاتبوا
ابن عثمان بأن يحضر الى غزة ويملكها من غير
مانع .

فلما حضروا بين يدي السلطان حلفوا له أن هذا
الأمر ما وقع منهم ولا كاتبوا ابن عثمان ، وانما
دولات باي نائب غزة بينه وبين أجناد غزة حظ
نفس ، فكذب عليهم بهذه التهمة الباطلة ، فصدفهم
السلطان على ذلك . وأرسل جان بردى الغزالي
نائب الشام يشفع فيهم ويبرئهم مما قالوه في حقهم
بالباطل ، ففكهم السلطان من الحديد ، وأرسلهم
الى نقيب الجيش حتى يتبصر في أمرهم .

وفي يوم الخميس خلع السلطان على الأمير
يوسف البدرى الذي كان وزير وهرره ناظر

الدكة بالحوش ، وحضر الأمراء فاستحثهم السلطان على أن يخرجوا كلهم في ذلك اليوم فقال الأمير طقطبای حاجب الحجاب : أنا عزمت على السفر الى البحيرة ... وكان السلطان قد جمعه متحدثا في كشوفية البحيرة . فقالت الأمراء : الخروج الى قتال ابن عثمان أوجب من الخروج الى البحيرة ، وأنت ما خرجت سحبة السلطان العورى لما سافر ، ولا نهب لك برك ولا قماش . فتعلل أنه ضعيف ، فحصل بينه وبين الأمراء في ذلك اليوم تشاجر عظيم بحضرة السلطان ، وفصد الممالك الجلبان أن ينزلوا فينهبوا بيته ويحرقوه ... وقبل ان بعض الممالك اكمه وقاسى من البهدة ما لا خير فيه ، فتقرر الحال على أنه يخرج الى التجريدة صحبة الأمراء ، ومنع السلطان الممالك من نهب بيته . وفي ذلك اليوم نادى السلطان للعسكر بالعرض قاطبة .

وفي ذلك اليوم خرج الأمير نائب حماه الذى قرر عوصا عن جان بردى الغالى فخرج بطلب حربى .

وفي ذلك اليوم خرج الأمير أرزمك الناشف أحد المقدمين وطلب طلبا حربيا ، وكان قدماه جنائب وطلبان وعلى رأسه صنجق ، وصارت الأمراء تخرج شيئا بعد شيء الى قتال ابن عثمان .

وفي يوم الأحد ثالث عشره جلس السلطان بالميدان وعرض العسكر الذين كانوا مسافرين الى التجريدة ، فكتبهم الى السفر ثانيا ولم يترك منهم الا القليل . فعرض في ذلك اليوم أربع طباق وكتب غالب من فيها من الممالك .

وفي ذلك اليوم عرض السلطان عجلة من خشب تجرها أبقار ، وفيها رماة بالبندق الرصاص ... وكانوا نحو ثلاثين عجلة أو فوق ذلك . وعرض

جمالا وفوقها مكاحل ورماة يرمون بالبندق الرصاص من المكاحل فوق ظهور الجمال . وعرض طوارق خشب بسبب الرماة بالنشاب . فقوى قلب العسكر في ذلك اليوم على القتال : وأظهر السلطان أنه يخرج بنفسه الى قتال ابن عثمان ، واستحث بقية الأمراء على الخروج بسرعة ولم ينفق على الأمراء شيئا ، وقال لهم : اخرجوا قاتلوا عن أنفسكم وأولادكم وأزواجكم فان بيت المال لم يبق فيه لا درهم ولا دينار ، وأنا واحد منكم ، ان خرجتم خرجت معكم ، وان قعدتم قعدت معكم ، وما عندي نفقة أنفقها عليكم .

وفي يوم الاثنين رابع عشره جلس السلطان بالحوش وعرض من العسكر أربع طباق .

وفي ذلك اليوم أشيع أن السلطان تغير خاطره على الزينى بركات بن موسى وأعادته الى الترسيم بعد ما كان ترشح أمره الى اعادته في وظائفه . وكان سبب ذلك أن السلطان لما حصل لابن موسى ما حصل قرر عليه مالا فلم يورد منه الا القليل ، وادعى العجز . فلما جاء على السلطان أمر نفقة العسكر وخروجهم بسرعة ، ضيق على أصحاب المصادرات ، منهم : ابن موسى ، ومحمد المهتار ، وجمال الدين بواب الدهيشة ، وآخرون ممن بقيت عليهم بوافى الأموال المنكسرة لستعين بذلك على نفقة العسكر ... ومن حين قرر يوسف البدرى في وظائف ابن موسى آل أمره الى العكس والزوال .

وفيه خرج الأمير قانصوه الفاجر أحد المقدمين وتوجه الى السفر .

وفي يوم الاثنين المتقدم ذكره خرج الأمير طقطبای حاجب الحجاب وتوجه الى السفر ، فطلب طلبا وقدماه طبلان وزمران وبعض جنائب ، كما خرج أرزمك الناشف .

وفي يوم الثلاثاء خامس عشره جلس السلطان بالميدان وعرض بقبة العسكر ثم نادى في ذلك اليوم بأن الأمراء وبقية العسكر يخرجون في هذا اليوم ومن تأخر لا يسأل عما يجري عليه . وقد خرج هذا العسكر في قلب الشتاء في وسط الأربعمائة وقاسى غابه المنفعة .

وفي هذا اليوم خرج الأمير تانى بك التجسى أحد الأمراء المقدمين بطلب حربى .

وفي يوم الخميس سابع عشره خرج الأمير الماس والى القاهرة وبرز الى السفر في ذلك اليوم .

وفيه قبض على شخص أعجمى كان يدسج السنجوسك عند قناطر السباع ، فوجدوه قد سجد الى كلب أسود سدين فذبحه وسلحه وعمل منه السجوسك ، فلما قبضوا عليه أحضروه بين يدى الأمير مامى المحسب ، فضرب العجمى بامفارع وأشهره في القاهرة والكلب معلق في ربيته ، فطافوا به في المدينة ثم سجنوه في المعتسره ولم تزل الاعجام تقع منهم هذه الفعله النسبيعة من قبل .

وفي يوم الاثنين حادى عشره وقع فيه من الحوادث ان بعض المماليك السلطاييه خرجوا بسيرون نحو المطرية ، فرأوا جماعة مصبلين من نحو يركه الحاج ، فلما فربوا سهم فادا هم من جماعه ابن عثمان ، فقالوا لهم من آتم ؟ قالوا نحن قصاد من عند السلطان سليم شاه بن عثمان ، وكانوا نحو حسة عشر انسانا ، وفيهم القاصد الكبير ، وهو رجل شيخ بلحية بيضاء وعليه ثياب مخملة . ورأوا صحبتهم شحصا من مصر يقال له عبد البر ابن محاسن ، كان كاتب الخزانة عند الأتابكى سودون العجمى ، فلما قتل وملاك ابن عثمان حلب والشام ، تحشر فيه بواسطة يونس العادلى والسرقندى ، فلما أرسل ابن

عثمان هذا القاصد ما جبروا يجيئون من جهة عزه ، فان نائب الشام جان بردى العزالى كان بالقرب من عزة يحاصر جماعة ابن عثمان الدين بعزة ، فبرطل القاصد بعض العربان بمال له صورة حصى أتوا بهم من طريق الدرب السلطاني وطلعوا بهم من التيه وأتوا بهم الى عجرود فلما شعر بهم أهل مصر الا وهم في وسط المدينة فلما صادفهم هؤلاء المماليك قبضوا على القاصد الكبير وعلى جماعته وعلى محاسن ، ووجدوا معهم ثلاثة من العربان ، فقبضوا على الجميع فبينما هم على ذلك اد رأوا ثلاثة أنصار من الأروام الدين في خان الحليلى فد أتوا اليهم وسلموا عليهم ، وياسوا أديهم ، فقبض عليهم هؤلاء المماليك وقالوا لهم . « من اين علمتم ان هذا القاصد بجى اليوم حى آتيتهم اليه ؟ ما آتم الا جواسيس من عند ابن عثمان » . فقبضوا عليهم بعد ما أنسجوهم ضربا ، وأتوا بالكل الى بيت الأمير علان الدوادار الكبير .

فلما دخل القاصد بيت الأمير علان ، قالوا له انزل عن فرسك وسلم على الأمير الدوادار ، فلم يوافق على ذلك ، وأغلظ عليهم في القول . ثم سل سيفه وهاش على من حوله من جماعة الدوادار .

فلما رأى الدوادار الكبير ذلك ، رسم للمماليك أن ينزلوه عن فرسه عسبا ، فأنزلوه وأخذوا سيفه منه ، ثم بهدلوه ومن معه من العثمانيه ، وضربوهم ومسكوهم وعروهم من نيباهم ، ووضعوهم في الحديد بعد ما فاسوا غاية البهدة من جماعة الدوادار .

فلما بلغ السلطان ذلك رسم الأمير مغلباى دوادار سكين — الذى كان أرسله السلطان العورى الى ابن عثمان وحصل منه في حقه غاية البهدة — فقال

له السلطان » انزل وبهدل فاحمد ابن عثمان كما بهدلوك . فآخذ خشداشينه ووجسه بهم الى بيت الأمير علان على أنهم يوفعون في جماعة ابن عثمان فعلا من أنواع البهذلة . أو يقتلوههم ، فما مكنتهم الأمير علان من ذلك .

... بر بن دحاس الذي حضر صحبتهم ، فلما مثل بين يدي السلطان شرع بطسب في أوصاف ابن عثمان وفي تزايد عظيسته . فمن جملة ما حكى عنه أنه لما دخل إلى حلب فطسب في يوم واحد ثمانمائة رأس من حسنة أهل مصر من جملتهم حليفة سيدي أحمد المدوي وآخرون من الأعيان ممن تحالفوا بحلب . وأحبر أن عسكر ابن عثمان هزق السنين ألف انسان ، وأنه خطب باسمه من بغداد إلى الشام ، وأن معاملته مائتية من بغداد إلى الشام ، وأنه لما دخل إلى الشام وملكها شرع في عمارة سمور وأبراج من القصابون إلى آخر سديته مدني . ويجعل في ذلك السور أبوابا تعلق على المدسة . وهو في حمة زائدة ، ويقول ما أرجع حتى أدلت مصر . واقبل جديع من بها من الممالك الجرائسة ... وأخبر ابن عثمان يحجب عن عسكره أناد لا يظهر دنها ، فهي هذه المدة بقتل عسكره حانما في المدسة وسجدهرون بالمعاصي والقسوف . « أنهم لا يصومون تسهر رمضان ، ويشربون حمة التمسير والبيرة . ويسعملون ده الشمس والشمس ، ويعملون الفاحشه في الصبان المردي في شهر رمضان ، وأن ابن عثمان لا يصلي صلاة الجمعة إلا طلالا ... وقد أشيعت عن ابن عثمان حمانه الخبر المتبعة من غير ابن محاسن ومن ساعد هذا من أفعال عسكره بحلب والشام .

فلما أطب ابن محاسن في أخبار ابن عثمان ، حنق منه السلطان ، وقال له : « أنت جاسوس

من عند ابن عثمان أتيت لتكشف أخبارنا وتطالعه بذلك » . فرسم بسجنه في البرج الذي بالقلعة ، فسجن به أياما حتى طلع الأتابكي سودون الدواداري وشفع فيه حتى أطلقه من البرج ، وقد قطع قلب العسكر بما حكاه عن ابن عثمان .

ثم ان السلطان رسم بشق اثنين من العربان الذين أتوا بالقاصد من هذه الطريق التي كانت يحفه عليهم . وأشيع أنه حضر صحبة القاصد من جماعة ابن عثمان نحو أربعين نفرا ، فاخفقوا في القاهرة . فلما بلغ السلطان ذلك نادى في خان الحليلي « بأن لا أحد يأوي عنده عريبا من جماعة ابن عثمان ، ومن عمز عليه بأن عنده أحد من العثمانية شق من غير معاودة » .

ثم ان السلطان أرسل أخذ المطالعات التي حضرت على يد القاصد ، ولم يقبله . فوجدوا معه عدة مطالعات للأمراء والمباشرين وأعيان الديار المصرية . فالدى أشيع من مطالعة السلطان أن غالب ألفاظها تركيه ، وكان من مضمونها : من مقامه السعيد إلى الأمير طومان باي ، أما بعد ، فإن الله قد أوحى إلى باني أملك البلاد شرقا وغربا كما ملكها الاسكندر ذو الفريين . ومن جملة المطالعة وعد ووعد ، وتهديد وتشديد فس جملة ذلك « أنك مسلوك باع ونشري ، ولا تصح لك ولاية ، وأنا ملك بن ملك إلى عشرين جدا ، وقد بوليت الملك بعهد من الخليفة والقصة » . وذكر في مطالعته أشياء كثيرة من هذا النمط . ثم ذكر في أثناء المطالعة « وان أردت أن تنجو من سطوه بأسنا فاضرب السكة في مصر بأسنا ، وكذلك الخطبة ، وتكون نائبا بصر ، ولك من غزة إلى مصر ، ولنا من الشام إلى الفرات ، وان لم تدخل تحت طاعتنا ، أدخل إلى مصر ، وأقتل جميع من بها من الجراكسة حتى أشق بطون الحوامل ، وأقتل الأجنة التي

النفقة في وجهه ، وقالوا ما نسافر حتى نأخذ مائة دينار كل مملوك ، فاننا لم ببق عندنا لا خيول ولا قماش ولا برك ولا سلاح ، فنزلوا كلهم من القلعة على حية ، وهم على غير رضا ، فحنق منهم السلطان وقام عن الدكة وطلع المقعد ، وقال « ما أقدر على مائة دينار لكل مملوك ، والخزائن فارغة من المال ، وان لم ترضوا بذلك فويلوا عليكم من تختارونه في السلطنة ، وأنا أتوجه الى مكة أو غيرها من البلاد » فوقع في ذلك اليوم بعض اضطراب ، وأشيع أن بعض المماليك قال للسلطان « ان كنت تعمل سلطانا فامش على طريقة من تقدمك من الملوكة ، وان رحمت لعنة الله عليك ، غيرك يجي يعمل سلطانا » . فسمع ذلك بأذنه منهم .

وأشيع أن السلطان قال للعسكر « أتتم أخذتم من السلطان العورى ثلاثين دينارا ولم تقابلوا شيئا ، وكسرتهم السلطان وحنتموه حتى قتل » . فنزل العسكر على غير رضا ... وأشيع اثاره فتنه بين العسكر .

ثم انه في ذلك اليوم نادى السلطان بأن جميع الأمراء من الأكابر والأصغار يطلعوا غدا باكر النهار ، فان العرض عام . وانقض المجلس على ذلك .

فلما كان يوم الخميس رابع عشره ، جلس السلطان على الدكة بالحوش ، وطلع الأمراء قاطبة والعسكر ، وطلع سيدي محمد ابن السلطان الغورى ، فقال السلطان : « هذا ابن أستاذكم قد حضر ، اسألوه ان كان أبوه ترك في الخزائن شيئا من المال يجبركم بذلك ، وان كنتم تسلطونه فانا أول من يبوس له الأرض » . فقالت المماليك الجلبان : « نحن نسافر بلا نفقة حتى نأخذ بثأر

في بطونهن من الجراكسة » . وأظهر التعاضل فوة البأس ، ولعل الله تعالى أن يخذله بسبب هذا التعاضل الزائد . وفي آخر مطالعته : « وما كنا معذيين حتى نبعث رسولا » . فلما قرئت هذه المطالعة على السلطان بكى وحصل له غاية الرعب . وكانت المماليك الجلبان اتفقوا على أنه اذا طلع القاصد الى القلعة ، يقطعونه بالسيوف ، فلم يطلع الى القلعة بسبب ذلك .

وفيه أشيع بين الناس ما في مطالعة ابن عثمان من هذه الدعاوى العريضة كما تقدم ذكره . ثم اضطربت أحوال الديار المصرية ، وأخذ كل أحد حذره من ابن عثمان ، وقالوا مثل ما طرفتنا قصاده على حين غفلة ، كذلك هو يطرفنا أيضا على حين غفلة . فشرع الناس في تحصين أماكن في أطراف المدينة وجوابها ليحتفوا فيها اذا دخل ابن عثمان الى مصر ، وبعض الناس عول على أن نزل هو وأولاده وعياله ويتوجه الى أعلى الصعيد اذا تحقق مجيء ابن عثمان .

وأشيع أن خاير بك نائب حلب ، الذي عصى ودخل تحت طاعة ابن عثمان ، أرسل مطالعات الى بعض الأمراء المقدمين ، وهو يرعبهم في الدحول تحت طاعة ابن عثمان ، وشرع يطنب في محاسنه وعدله بين الرعية ، وأنه اذا دخل مصر يبعي كل أحد من الأمراء على وظيفته وعلى رزقه . وكل هذا حيل وخداع ، حتى يتمكن من الدحول الى مصر .

ثم ان السلطان نادى للعسكر أن أول النفقة يوم الأربعاء ثالث عشر الشهر ، فجلس السلطان بالحوش على الدكة ، وطلع العسكر لقبض النفقة فلما طلوعوا اتفق عليهم لكل مملوك ثلاثون دينارا وجامكية ثلاثة أشهر بعشرين دينارا ، فرموا تلك

أستاذنا » . وقالت المالك القرائصة « نحن ما نساغر حتى نأخذ مائة وثلاثين دنارا كما أعطى من ساغر قبلنا » . فانفض المجلس مانعا أيضا . . . وكثر القال والقال في ذلك اليوم .

وأشيع أن بعض الأمراء قال للسلطان : اعمل كما عمل الأشرف قايتباي والسلطان العورى ، وخذ من الأملاك والأوقاف والرزق والاقطاعات لتستعين بذلك على النفقة بسبب دفع العدو عن مصر . فلم يوافق السلطان على ذلك ، وقال : ما أحدثت في أيامي مظلمة أبدا . فشكره الناس على ذلك ، ودعوا له . ولو فعل ذلك جاز وقالوا يعذر لأجل دفع العدو . وما ثم في الحزائن مال ولكن وفقه الله تعالى إلى فعل الخير ، وسطر أجر ذلك في صحيفته إلى يوم القيامة ، فكان كما قيل في المعنى :

للحير أهل لا تزا ل وجوهه تدعو إليه
طوبى لمن جرت الأمور ر الصالحات على يديه
وفي هذا اليوم أشيع أن السلطان أرسل نفول
لأولاد الملك المؤيد . وأولاد الملك المصور ،
وأولاد الأمراء الدين بمصر ، اعلموا برفكم
وأخرجوا للسفر ، والذي لا يسافر منكم يقيم له
بديلا عوضا عنه للسفر

وقيل وزع على جماعة من المباشرين والخدام
من الطواشية مالا له صورة مساعده السلطان على
النفقة . وشرع السلطان في بيع فاش وسلاح
وتحف وذخائر وصوف وسمور وبعبدى وغير
ذلك من الأصناف ، وأخذ من ابن السلطان العورى
مالا له صورة مساعده على النفقة

وفي ذلك اليوم أشيع أن السلطان أرسل بعض
الخاصكية إلى الأتابكي فيت الرحى لنقله من
نجر الاسكندرية إلى نجر دمياط ، وأرسل مراسيم

شريفه إلى الظاهر فاصوه بسرى بسرى . . .
أن يسكن في قاعة الملك المؤيد بالاسكندرية ،
وأن يركب ويصلى صلاة الجمعة مع الناس في
الجامع ، وأن يسير نحو البساتين التي
بالاسكندرية .

وفي يوم الجمعة خامس عشره خرج الامير خاير
بك المعسار أحد الأمراء المقدمين والامير أزيك
المكحل ، فخرجا في ذلك اليوم إلى التجريدة
وطلبا أطلابا حربية .

وفي يوم السبت سادس عشره طلع العسكر
بسبب العرس . ونم بطلع في ذلك اليوم أحد من
الأمراء المقدمين ، واحتجب السلطان في الدهيشة
ولم يخرج إلى العسكر ، فنزلوا إلى بيوتهم من
غير طائل .

وفي هذا اليوم ، نادى السلطان بأن لا أحد من
الناس يتجاهر بالمعاصي ، ولا يهودى ولا نصرانى
يبيع خمر ، ومن شمر عليه بيع الحمر شق من
غير معاودة ، وكذلك البوزة والحشيش . فلم
يسمع له أحد ذلك ولم ينتهوا عما هم فيه .

وفي ذى الحجة ، كان مستهل الشهر يوم
الخميس ، طلع القضاة الذين بولوا جديدا في
الشهر الماضى ، وهنوا السلطان بالتسهر ونزلوا
إلى بيوتهم .

وفي ذلك اليوم نادى السلطان للعسكر بأن أول
النفقة يوم السبت ثالث الشهر ، وعد اتفق مع
العسكر على أنه بنفق لكل مملوك خمسين دنارا ،
ويصرف ثمن اللحم المنكسر خمسة أشهر ، والعليق
المنكسر ، فتراضوا .

وفيه أنعم السلطان بامرية عشرة على جماعة من
الخاصكية نحو عشر أنفس ، منهم شخص يقال

حزير بن البجهمدار ، وهو من خيار مماليك الأشرف قايتباي .

وفيه أشيع أن السلطان خرج عن ألف دينار فرقها على الفقراء الذين في الزوايا وفي المزارات التي بالقرافة وغيرها من المزارات ، وفرق عليهم أيضا قمحا لكل زاوية خمسة أرادب . وقال لهم ادعوا بالنصر للسلطان وهلاك العدو . وقرأ عدة ختمات في المزارات ، منها عند الامام الشافعي والامام الليث وغير ذلك من المزارات .

وفيه استحث السلطان اولاد السلاطين واولاد الأمراء والمياشرين والخدام فيما قرره عليهم من المال بسبب النفقة ، وأشيع أنه أخذ من ابن السلطان الغوري مالا له صورة . وقيل ان السلطان الغوري كان قد خصص ولده قبل أن يسافر الى البلاد الشامية بمائة ألف دينار ... هكذا أشيع .

وفي يوم السبت ثلثه طامع العسكر الى القلعة ليقبضوا النفقة كما نادى ، فورد على السلطان في ذلك اليوم أخبار ردية بأن العسكر الدين توجهوا الى عزة قد انكسروا في يوم الأحد رابع عشرى دي القعدة .

ومن العجائب أن الواقعة الأولى التي انكسر فيها السلطان الغوري كانت في يوم الأحد خامس عشرى رجب ، فكان التفاوت بينها وبين هذه الواقعة يوما واحدا ، وهذا من العجائب . وهذه الكسرة الثانية كانت يوم الأحد .

وكان من ملخص أخبار هذه الكسرة ، أن جان بردى الغزالي — نائب الشام — خرج الى التجريدة قبل العسكر بمدة أيام ، وصار الأمراء والعسكر يخرجون بعده متفرقين بتكاسل زائد فلما أبطأوا على الغزالي جمع بعض عربان وتقدم الى عزة هو والأمير أرزمك الناشف أحد المقدمين

الذى ولي نيابة حماه ، ودولت باي نائب عزة ، وأصله من مماليك السلطان الغوري ، وجماعة من المماليك السلطانية ، فقاطعوا على عسكر ابن عثمان من طريق الدرب السلطاني ، فتلاقوا مع عسكر ابن عثمان على الشريعة بالقرب من بيسان .

وكان باش العسكر العثمانية سنان باشا ومعه آخرون من أمرائه ومن العساكر العثمانية الحجم الكثير ، وكان جان بردى الغزالي ومن معه من الأمراء في فئة قليلة من العسكر ، فوقع بين الفريقين هناك واقعة مهولة تشيب منها النواصي ، وكان ذلك بالقرب من بيسان ، فانكسر الأمير جان بردى الغزالي ومن معه من العساكر والأمراء ، وقتل الأمير خدابردى أحد الأمراء المقدمين ، وقتل الأمير على باي السيفي ، وأزدمر الدوادار أحد الأمراء الطبلخانات ، وأشيع موت جماعة من الأمراء ولكن لم آقف على صحة من قتل من الأعبان في هذه المعركة .

وأشيع أن الأمير جان بردى الغزالي قد جرح والأمير أرزمك الناشف أيضا . وقتل من المماليك السلطانية جماعة ، ومن العلمان ما لا يحصى عددهم ، وقد حزت رءوسهم بالسيوف . وفيل ان هذا الخبر ورد من عند الأمير طقطباي حاجب الحجاب ، وكان من حين جرح الى السفر وهو مميم بالصالحية ، فورد عليه بعض المماليك السلطانية وأخبره بذلك ، فطالع السلطان بما قد جرى من أمر هذه الحركة المهولة .

وأشيع أن عسكر ابن عثمان قد احتوى على برك الغزالي وأرزمك الناشف لما وقعت الكسرة ، فلم يتركوا لهما بركا ولا خيولا ولا جمالا ولا سلاحا . وقد تقوى العثمانية ثانيا بهذه الكسرة

الثانية ، ولم ينج من عسكر مصر في هذه المعركة الا من طال عمره .

وقيل ان مماليك الغورى هم الدين أحسوا بالعسكر وبادروا بالهروب حتى وقعت هذه الكسرة الثانية ، ولما تزايدت الأقوال في ذلك عين الأمير سنبل مقدم المماليك بأن يوجه الى الصالحية ليكشف الأخبار ، فخرج من بومه وسافر .

وفي يوم الأحد رابعه وقعت حادثه مهولة وهى أن السلطان نزل الى الميدان ، واجتمع الأمراء والعسكر فلم يشعروا الا وقد فامت ضجه كبيرة فى الرميعة ، وأشاعوا أن عسكر ابن عثمان قد وصل الى الريدانية ، فقال السلطان للعسكر : « كم فلنا لكم اخرجوا للتجريدة ما ترضون تسافرون . فاخرجوا ولافوا ابن عثمان » . فلبس العسكر آلة الحرب وركبوا قاطبة ، ورجت القاهرة رجا مهولا ، ووزع الناس قماشهم فى الأماكن المخفية .

فلما اضطربت الأحوال ركب العسكر وتوجهوا الى الريدانية ، فلم يروا هناك أحدا من العثمانية ، فرجع العسكر الى بيوتهم بعد ما ارتجت القاهرة ، وعول الناس على أن يحتقوا فى فسافى الموتى ، ثم أسفرت هذه الواقعة عن جماعه من العربان نزلوا من الجبل وأنوا الى الريدانية فأشاع الذى رأهم من بعد أنهم من العثمانية ، فانتشرت هذه الأخبار فى القاهرة من غير سبب

وفي هذا اليوم أفرج السلطان عن الأمير قانصوه الأشرقى الذى كان نائب حلب ، وسلم القلعة الى ابن عثمان من غير قتال ولا محاصره . فتعير خاطر السلطان عليه بسبب ذلك وسجنه فى البرج بالقلعة ، فأقام به مدة ثم أفرج عنه فى ذلك النوم . وفى يوم الاثنين خامسه دخل الأمراء والعسكر الذين بوجهوا الى عزه وانكسروا من عسكر ابن

عثمان ، فدخّل جان بردى الغزالى وأرزمك الناشف وبعض أمراء عشراوات ، ودخل العسكر وهم فى أنحس حال مما جرى عليهم من النهب والقتل ، أنحس من المرة الأولى ... فدخّل بعض المماليك السلطانية وهم راكبون على حمير ، وبعضهم على جبال ، وقد بهب قماشهم وخيولهم وسلاحهم ، ولم يسلم من القتل الا من كان فى أجله مدة . وذكروا عن ابن عثمان أن مع عسكره رماحا بكلايب يحفظون بها الفارس عن فرسه وبلفونه على الأرض . وذكر جان بردى أنهم رموه على الأرض ولولا غلمانه فاتلوا عنه العثمانية لكانوا حزوا رأسه مثل الأمير خدابردى الذى قتل .

وحكوا عن عسكر ابن عثمان أنهم مثل الجراد المنتشر ، لا يحصى عددهم ، وأن معهم رماة بالبندق الرصاص على عجالات ختنب تسحبها أبقار وجاموس فى أول العسكر ، وحكوا عنهم أشياء كثيرة من هذا النمط .

وحضر الأمير دولات باى نائب غزة الذى كان بها . وحصر أيضا الأمير بحشباى الذى كان مشد الشور ، أخو الأمير كرباى الذى كان والى القاهرة ، وكان أشيع موته فى الواقعة التى وقعت فى مرج دابق ، فظهر أنه فى بيد الحياة ، وكان محتقيا عند العرب ، فحضر فى ذلك اليوم ، وحصر أيضا شحص من الأمراء العشراوات يقال له فرقماس الرحبى ، وكان أشيع موته فى الواقعة التى كانت فى مرج دابق ، فظهر أنه فى مد الحياة ، وحضر أيضا جماعة كثيرة كان أشيع موتهم ، فظهر أنهم فى بيد الحياة .

فلما طلع الأمير جان بردى الغزالى والأمير أرزمك الناشف الى القلعة ألبسهما السلطان ملابس بسمور ونزلا الى منزلهما . وقد فرح

من قتل من الأمراء ، رجع سنان باشا اليه غزوة ، فوجد من كان بها قد قتل وبهب الوطاق ، فجمع أهل غزة قاطبة وقال لهم : « من فعل ذلك بنا ا » ، قالوا : « على باي دودار نائب غزة وأجناد غزة ، ولم نفعل نحن شيئا من ذلك » . فأمر سنان باشا بكبس بيوت غزة فوجدوا بها قماش العثمانية وخيولهم وخيامهم . فقال لهم سنان باشا : « نحن لما دخلنا غزة هل نؤشنا على أحد منكم أو نهبنا لكم شيئا ؟ » قالوا لا ، فقال لهم : « كيف فعلتم بعسكرنا ذلك ؟ » فلم يأتوا بجواب ولا عذر ولا حجة ... فعند ذلك أمر عسكره أن يلعبوا فيهم بالسيف ، فقتلوا منهم ما لا يحصى عدده وراح الصالح بالطالح ، وكان ذلك في الكتاب مسطورا . وقد قيل في المعنى :

ان ترمك الأقدار في أزمة
أوجبها أجرامك السالفه
فادع الي ربك في كشفها
ليس لها من دونه كاشفه

وفي يوم الأربعاء سابعه حضر الي الأبواب الشريفه جماعة من طوائف العربان من غزاة ومحارب ، ومن عربان هوازة . وكان السلطان ألزم مشايخ العربان أن يأتوا وصحبتهم جماعة من فرسان العربان ممن هو أشجعهم ، حتى بنوجهوا صحبة التجريدة مع العسكر . فلما حضروا نزلوا بالجيزة ، واجتمع بها الجم الكثير من العربان ، ثم دخلوا الي الرميلة ونزلوا بها حتى بعرضهم السلطان بالميدان . وقد انحط أمر الترك عند العرب والفلاحين بسبب هذه الكسرات التي وقعت للعسكر ، وتملك ابن عثمان البلاد الشامية ، وثبت عند الناس أن دولة الجراكسة قد آلت الي الانقراض ، وأن ابن عثمان هو الذي يملك البلاد

كل واحد من الناس بسلامتهما لأنهما فرسان الاسلام ، فدقت لهما البشائر على أبواب دورهما . فلما حضر العزالي ومن معه من الأمراء والعسكر ، ظهر أمر من قتل من الأمراء العشاوات والعسكر والغلمان ، فصار في كل حارة نعي مثل أيام الفصول .

وفي ذلك اليوم نادى السلطان للعسكر بأن أول النفقة يوم الثلاثاء سادسه ، فلما طلع النهار بادر العسكر بالطلوع الي القلعة فابتدأ السلطان بتفرقة النفقة على العسكر ، فأعطى لكل مملوك خمسة وعشرين دينارا ، وأعطاهم ثمن الأصحية على العادة ، وكان أولا سألهم بأن يعطيهم ثلاثين دينارا لكل مملوك فأبوا ذلك .

فلما رأوا عين الجاد وأن ابن عثمان زاحف على البلاد ، وقد وصل الي فطيا ، رسوا بحمسة وعشرين دينارا نفقة ، ونزلوا من القلعة وأخذوا في أسباب آلة السفر .

وفيه ورد على السلطان أخبار ردة بأن سنان باشا أحد أمراء ابن عثمان الذي ملك مدينة غزة قد لعب في أهل غزة بالسيف ، وقتل منهم نحو ألف انسان ما بين نساء ورجال وصغار . وكان سبب ذلك أن العزالي لما تلافى مع سنان باشا على الشريعة ، أشيع في غزة أن العزالي قد انصر على عسكر ابن عثمان ، وقتل سنان باشا ، وعسكر ابن عثمان . فبادر على باي دودار نائب غزة وأجناده فنهبوا وطاق العثمانية وأحرقوا خيامهم ، وقتلوا من كان في الوطاق والمدينة من العثمانية نحو أربعمائة انسان ما بين شيوخ وصبيان ، ومن كان بها مريضا ، وأحرقوا الحيام التي كانت في وطاقهم .

فلما ظهر أن الكسرة على عسكر مصر ، وقتل

وصار جماعة من الفلاحين اذا اتاهم قاصد من باب
أستاذهم يقولون ما تقدر تعطى خراجا حتى يتبين
لنا أن البلاد لكم أو لابن عثمان ، فنبهى نورد
الخراج مرتين . وقد اضطربت الأحوال برا وبحرا
والأمر الى الله تعالى .

وفي ذلك اليوم أشيع بين الناس أن السلطان
وسم بتغريق القاصد الذى حضر من عند ابن عثمان ،
وقد تقدم ذكر ذلك . فأشيع أنهم أغرفوه ومن
معه من العثمانية تحت الليل ... هكذا أشيع .

وفيه ابتداء السلطان بتغريف الأضحية على
العسكر ولم يعط المماليك الذين كانوا صحبة
الغزالي وانكسروا ، فقال لهم السلطان : أنتم هربتم
ولم تقاتلوا شيئا ، وخنتم الأمراء حتى انكسروا .

وفيه أشيع بين الناس أن أوائل عسكر ابن عثمان
قد وصل الى قطيا ، وقد تملنوا القلعة التى
بالطينة ، وهرب من كان بها من اولاد الناس
القاطنين بها . وقيل لم يثبت أمر هذه الاشاعة

وفي يوم السبت عاشره كان عيد النحر فخرج
السلطان وصلى صلاة العيد ، وطلع الأمراء بالشاش
والقمماش على جارى العادة وكان موكب العيد
حافلا ، لكن كان الناس فى غابة الوجل والخوف
من ابن عثمان . وقد بلغ الناس أن أوائل عسكره
وصل الى قطيا ، ولا سيما ما بلغ الناس مما فعله
عسكر ابن عثمان بأهل غزة من القتل والنهب
وسبى النساء وقتل الأطفال ، كما أشيع ذلك .

وفي يوم الاثنين ثانى عشره أخرج السلطان
الزردخانه الشريفه التى يخرجها صحبة العسكر ،
فجلس بالميدان وانسحبت قدامه العجلات الخشب
التى كان صنعها بسبب التجريده ، فكانت عدتها
مائة عجلة وتسمى عند العثمانية ربة ، وكل عربة
منها يسحبها زوج أبقار ، وفيها مكحلة نحاس ترمى

بالبنديق الرصاص ... فنزل السلطان من المتعد
وركب وفى يده عصا ، وصار يرتب العجلات فى
مشيها بالميدان ، ثم انسحب بعد العجل مائتا جمل
محملة طوارق بحو ألف وخمسمائة طارقة ،
ومحملة أيضا بارودا ورصاصا وحديدا ورماح
خشب ، وغير ذلك . وقدام العجلات أربعة طبول
وأربعة زمور . وقدامها من الرماة نحو مائتى انسان
ما بين ريمان ومغاربة ، وبأيديهم صنماج بعلبكي
أبيض وكندكى أحمر ، وهم هولون الله ينصر
السلطان . وجماعة من النفطية ما بين عبيد وغيرهم
يرمون بالنفط قدام العجلات .

وركب فدامها الأمير مغلباى الزردكاش الكبير ،
ويوسف الزردكاش الثانى ، وجماعة من الزردكاشية ،
وعبد الباسط ناظر الزردخانه ، والشهابى
أحمد بن الطولونى ، وفدامهم الجهم الكثير من
النجارين والحدادين الذين بعينوا للسفر مع
التجريدة ... فخرجوا من باب الميدان الى الرميطة
ونزلوا من جهة القبور ، وشقوا من البسطين ،
ودخلوا من باب زويلة ، وشقوا من القاهرة
فرجت بهم القاهرة فى ذلك اليوم ، واصطفت
الناس على الدكاكين بسبب الفرجة ، وكان يوما
مشهودا . وارتفعت الأصوات له بالدعاء بالنصر
على ابن عثمان الباغى ، وتباكى الناس لما
عابوا تلك العجلات والمكاحل والهمة العالية التى
من السلطان فيما صنع . واستمروا شاقين من
القاهرة حتى خرجوا من باب النصر وتوجهوا الى
الريمانية عند تربة العادل التى هناك .

وأشيع أن امرأة قتلت فى ذلك اليوم من شدة
الازدحام ، فلما وصلت العجلات الى تربة العادل
صنوهم هناك الى أن تخرج الأمراء . فكان ذلك
اليوم من الأيام المشهودة فى الفرجة

وفى يوم الثلاثاء ثالث عشره ، أشيع أن بعض

الناس شفع في المماليك الذين حضروا من غزة ، ولم يصرف لهم السلطان الأضحية ، فصرفها لهم في ذلك اليوم بعد ما ويجهم بالكلام . وقال لهم : كيف هربتم حتى كسرتم الأمراء ولم تقاتلوا وبقي وجهكم أسود بين الناس ؟

وفي يوم الأربعاء رابع عشره ، حضر الى الأبواب الشريفة الناصري محمد بن شمس الدين القوصوي رئيس الطب ، وكان في حلب أسيرا عند ابن عثمان ، فهرب من هناك مع العربان ، وغرم لهم مالا له صورة حتى أتوا به الى مصر فطلع وقابل السلطان في ذلك اليوم ، وقد غير هبته وحلق ذقنه وتزيا يزي العرب ، حتى نخلص من جماعة ابن عثمان ، وأخير السلطان أنه قد بلغه عن ابن عثمان أن عسكره مختلف عليه ، وأنه مات له من الجمال والحيول ما لا يحصى عدده من الثلج الذي وقع بالشام ، وأن الغلاء هناك ، وأن عسكره قد قلق من البرد والثلج وموت الحيول . وأشيع في ذلك اليوم أن عسكر ابن عثمان كان في غزة ورحل عنها ، وقد صارت العربان تقتل منهم جماعة كثيرة ممن يجدونه في الضياع ، فيقتلونهم ويهربون في الجبال .

وفي يوم الخميس خامس عشره طلع العسكر لقبض الجامكية ، فقال لهم الطواشية : « يا أغوات ما في هذا اليوم جامكية ، البلاد خراب ، والعرب مشتتة في الطرقات ، والمدركون ومشايخ العربان ما أرسلوا من التقاسيط التي عليهم شيئا ، فان حصل شيء على يوم الاثنين ينفق لكم » .. فنزل العسكر من القلعة وهم في غاية التكد ، فان لهم ستة أشهر لم يصرف لهم السلطان من اللحم المتكسر شيئا ، وقد معطت الجوامك أيضا .

وفي ذلك اليوم خلع السلطان على قانصوه رجلة ، أحد الأمراء المقدمين الذي كان نائب قطيا ، وقرره كاشف الترفيه عوضا عن فجماس الذي كان بها ، فانه كان عاجزا عن اصلاح أحوال الشرقية . وخلع على ألماس كاشف الغربية بأن يستمر على عادته في كشف العربية . وخلع على الأمير أبرك الوزير والاستادار باستمراره على عادته . وكان أشيع عزله . وقد صارت أحوال الدبار المصرية في هذه الأيام في غاية الاضطراب من وجوه شتى

وفي يوم الجمعة صلى السلطان صلاة الجمعة ، ثم خلع على الأتابكي سودون الدواداري ، وقرره باش العسكر على التجريدة .

وفيه حصر الأمير طقطبای حاجب الحجاب وكان قد توجه صحبة التجريدة المعينة الى غزة ، فأظهر أنه مريض ، وأقام بالصالحية فلما انكسر جان بردى الغزالي ورجع الى مصر ، أقام بقية الأمراء في الصالحية الى أن تخرج التجريدة التي نعتت ثانيا ، فلما حضر الأمير طقطبای دون الأمراء الذين هناك عز ذلك على الأمراء والعسكر ، ونسبوه الى العجز ، وصار ممقوتا عند العسكر قاطبة .

وفيه أشيع أن السلطان رسم لطوائف العربان الذين حضروا بأن يرجعوا الى بلادهم . وقد أشار بعض الأمراء على السلطان أن العربان ليس لهم فائدة في خروجهم مع التجريدة ، فرسم لهم بالعود الى بلادهم .

وفي يوم الأحد ثامن عشره ورد على السلطان اخبار ردة بأن ابن عثمان خرج من الشام بنفسه هو وعساكره ، وهو قاصد مصر ، وقد أشيع أنه قسم عسكره فرقتين ، فرقة تجيء من الدرب السلطاني ، وفرقة تجيء من التيه .

وفي أثناء هذا الشهر خلع السلطان على الأمير

فلما عاد الجواب على السلطان بما قاله المغاربة ، عز على السلطان ذلك ، وأرسل يقول لهم : « ان لم تخرجوا وتقاتلوا ابن عثمان والا فالملك اليك الجلبان يفتلون كل مغربي في مصر حتى لا يدخلوا فيها مغربيا يلوح » . فنزلوا من القلعة على غير رضا من السلطان .

وفيه أشيع أن ابن عثمان أرسل كتابا الى شيخ العرب أحمد بن بقر ، يقول له فيه : « ادخل تحت طاعتنا ولك الأمان ، ولاقينا من الصالحية ، وصحبتك ألف أردب شعير »

وأشيع أن عبد الدائم أحمد بن بقر الذي كان عاصيا توجه الى ابن عثمان لغزة ، والاشاعات في أخبار ابن عثمان كثيرة .

وفي يوم الاثنين المقدم ذكره نادى السلطان للعسكر قاطبة من كبير وصغير بأن يعرضوا غدا في الريدانية وهم باللبس الكامل من آلة السلاح .

ثم ان السلطان نزل الى الميدان ، وصلى صلاة العصر وركب من هناك وتوجه الى الريدانية ، وبات بها في الوطاق . وهذا أول نزوله من حين ولى السلطنة .

وفي يوم الثلاثاء عشره لبس العسكر آلة السلاح وخرجوا للعرض بالريدانية بحضرة السلطان .

وفي ذلك اليوم صارت الأمراء المقدمون يخرجون الى الريدانية ، وهم الأمراء الذين تعينوا للتجريدة وصاروا يخرجون شيئا بعد شيء وهم بأطلاب حريية ، ومماليكهم لابسه آلة الحرب ، وهم على جرائد الخيل .

ثم خرج الأتابكي سودون الدوادري ، وجان بردى الغزالي نائب الشام ، وأركماس امير سلاح ،

اينال خازندار الأمير طراباي ، أحد الأمراء العشراوات ، وقرره في نيابة دمياط عوضا عن كان بها ، فلما بلغ السلطان هذا الخبر المتقدم أرسل أحضر الأمراء وضربوا مشورة في ذلك . وأشيع أن السلطان يخرج الى الريدانية ويقيم بها ، ويقسم العسكر فرقتين فرقة تتوجه الى ناحية عجرود ، والفرقة الثانية تتوجه الى المكان الذي جاء منه القاصد الذي تقدم ذكره . وكان الأمراء عولوا على خروج التجريدة من أول السنة الجديدة ، فلما وردت عليهم هذه الأخبار اضطربت أحوالهم ، ورسم لهم السلطان أن يبرزوا خيامهم في الريدانية بسرعة ، ويكوبوا على يقظة ، فان ابن عثمان قد وصل الى غزة ... وقيل انه توجه يزور بيت المقدس ، ثم يمشى بعساكره الى مصر ، وقد كثر القتل والقتيل في ذلك ، واضطربت أحوال الناس قاطبة ، الى أين يذهبون حتى تنقضى هذه الفتنة .

وفي ذلك اليوم رسم السلطان لتقيب الجيش بأن يدور على الأمراء المقدمين ، ويقول لهم برزوا خيامكم بالريدانية في هذا اليوم . فخرجت خيام جماعة من الأمراء في ذلك اليوم الى الريدانية .

وفي هذا اليوم نادى السلطان بأن جميع المغاربة الذين في مصر والقاهرة يحضرون عدا للعرض .

وفي يوم الاثنين تاسع عشره ، جلس السلطان على الدكة في الحوش ، وطلع الجهم الكثير من المعاربة . فلما طلعا الى القلعة لم يجتمع عليهم السلطان ، وأرسل اليهم الأمير شاد بك الأعور ، فقال لهم . « السلطان يقول لكم عينوا منكم ألف انسان من شجعانكم حتى يخرجوا مع التجريدة » فأرسلوا يقولون للسلطان : « نحن ما لنا عادة نخرج مع العسكر ، ونحن ما نقاتل الا الافرنج ، وما نقاتل مسلمين » وأظهروا التعصب لابن عثمان .

والصالحية حتى يخرج العسكر قدامه من هناك ثم يعود الى القلعة وكان ذلك عين الصواب .

وفي يوم الاربعاء حادى عشره امسر السلطان مقيما بالريدانية وخرج في ذلك اليوم بفيلة العسكر وقد ترادف الخروج من غير عذر ولا حجة والسلطان يستخفهم في سرعة الخروج .

ولما نزل السلطان من القلعة أخذ صحبته قاسم بك ، وهو الصبي الذي من اولاد ابن عثمان ، وقد تقدم ذكره . فجعل له السلطان بركا وسنحا على انفراد ، ورسم له بأن يسافر صحبة العسكر ، ويقف وقت الحرب تحت الصحيق السلطاني .

وأشيع أن سليم شاه في قلبه الواجس من هذا الصبي ، وقبل ان غالب عسكره مائل الى هذا الصبي ، ويقولون اذا انكسر سليم شاه مالنا الا ابن استادنا هذا سلطنه عوضا عن سليم شاه .

وفي ذلك اليوم أشيع أن صاحب رودس ، أرسل الى السلطان ألف رام من جماعته يرمون بالبندق الرصاص . وأرسل اليه عدة مراكب فيها بارود ، فدخلت تلك المراكب الى ثغر دمبساط ، وأرسلوا يعلمون السلطان بذلك ، وهذه عونة من صاحب رودس الى سلطان مصر ، حتى بسنمين بذلك على قتال ابن عثمان الباغي على أهل مصر . فلم يظهر لاشاعة هذه العونة خبر ولا نتيجة ، وانما هي اشاعة ليس لها صحه فيما نقل عنها .

ولما خرج السلطان الى الريدانة أشيع أنه بتوجه من هناك الى الصالحية للاقى عسكر ابن عثمان ، فمعه الأمراء من التوجه الى الصالحية ، وقالوا ما تقع بيننا وبينه قتال الا في الريدانة .

ثم ان التجار صارت تنقل أمتعتها وأموالها من الدكاكين التي في الأسواق . وبدخلوها في الأماكن المنسية ، حتى تسلم ، وما سلم منها شيء .

وبحسبى أمير مجلس ، وأنص باى أمير آخور كبير ، وسر رأس نوبه النوب ، وعلاء الدوادار الكبير ، وطفطبانى حاجب الحجاب ، وهيسل بل أغنى من السمر بسبب ضعفه ، ولكن الأصح سفره . وخرجت بيعة الأمراء المقدمى الالوف قاطبة ، والأمراء اضبحاناب ، والعسراوات فاطمة ، وعساكر مصر ، ولم بق بها من الأمراء والعسكر الا القليل . وهذه التجربة أكثر عسكرا من التجربة التي خرجت مع السلطان الغورى .

وكان هذا السلطان له عزم شديد في عمل هذه العجالات وسبب المكامل ، وعسل البندق الرصاص ، وجمع من الرماة ما لا يحصى ، وكانت له همة عالية ومفصد جميل ، ولعل الله تعالى أن ينصره على ابن عثمان . وكان ابن عثمان باغيا على عسكر مصر ، وقد ناداهم وتمدى عليهم بغير سبب ، والباغى له مصرع .

وفيه أشيع أن السلطان رسم بأن الأقبال الكبار تخرج صحبة العسكر اذا تقاتلوا مع ابن عثمان بعد ثلاثة أيام .

وفي ذلك اليوم لما خرج العسكر ركب السلطان من الوطاق ، وتوجه الى المصطبة التي بالريدانية ، التي تسمى المطعم ، فجلس بها واجتمع الجهم الكثير ، وهم لا يسون آلة السلاح ، وقد سدوا الفضاء واجتمع هناك السواد الأعظم من العوام حتى النساء ، وقد أطلقوا الزغاريت هناك ، وارتفعت الأصوات بالدعاء للسلطان بالنصر ، وكان يوم مشهود .

فلما نظر السلطان الى العسكر لم يعرضهم باستدعاء هناك ، بل نادى بأن جميع العسكر المنصور من كبير وصغير لا يناحر منهم أحد ، وأن العرض في الصالحية ، وأن السلطان لا توجه الى

منزله من غير معاودة . وجعل يكرر المناداة في ذلك اليوم مرتين ، فانه قد بلغ السلطان أن جماعة من المماليك السلطانية صاروا يتوجهون الى الوطاق في باكر النهار حتى ينظرهم السلطان ، ثم يرجعون الى بيوتهم ويبيتون بها ، فشق ذلك على السلطان وحجر عليهم بأن يبيتوا في الوطاق كل ليلة .

وفي يوم الجمعة ثالث عشره وردت الأخبار بأن عسكر ابن عثمان قد وصل أوائله الى قطيا ، فاضطربت أحوال الناس لذلك .

وفي يوم السبت رابع عشره عرض السلطان العسكر الذين بالوطاق ، فاجتمع منهم الجهم الكثير فوعدهم السلطان أنهم اذا قاتلوا عسكر ابن عثمان بقلب ، وانتصروا عليهم ، ينفق على كل واحد منهم عشر أشرفيات ، وينعم على كل واحد منهم بسيف وترس . ورسم للأمير أنسباى أمير آخور بأن يصلح بين زعر الصليية وزعر المدينة .

وفي ذلك اليوم أشيع أن السلطان اهتم بعمل حائط يستر بها المكاحل التى نصبها بالريدانية ، وأشيع أن السلطان جعل يحمل الحجارة بنفسه مع البنائين . فلما رأى العسكر أن السلطان حمل الحجارة بنفسه ، صار المماليك يحملون الحجارة ويشيلون التراب مع الفعلة في حفر الخندق ، وعمل الحائط التى تستر المكاحل .

ثم وردت الأخبار بأن عسكر ابن عثمان قد وصل الى بليس .

وفي يوم الأحد خامس عشره ، حضر الأمير قانصوه العادلى ، الذى كان كاشف الشرقية ، وكان السلطان قد أرسله ليكشف أخبار عسكر ابن عثمان ، اذا كانوا قد وصلوا الى هناك ، أى الى القرب من الصالحية . فلما وصل الأمير قانصوه الصالحية ، رأى جماعة من عسكر ابن عثمان فد

وفيه تحول غالب الناس من أطراف المدينة ودخلوا القاهرة وسكنوا بها ، ونقل اعيان الناس فماشهم الى الترب ، والى المدارس والزوايا والمزارات ، والى بيوت العوام التى فى الرباع ، لعله يسلم وما سلم منه شئ ، كما سيأتى الكلام على ذلك فى موضعه .

وفي آخر هذه السنة توفى الشهابى أحمد بن الأمير أسنبا الطيارى رأس بوبه السوب كان . وكان الشهابى أحمد من اعيان أولاد الناس الرؤساء ، وكان حشما رئيسا لا بأس به ، ومات وله من العمر ما قارب التسعين سنة ، وكان من المعمرين فى الأرض .

وفي يوم الخميس ثانى عشره وردت الأخبار بأن ابن عثمان قد خرج من غزة ، وأن أوائل عسكره قد وصل الى العريش . وأشيع أن السلطان رسم بحفر خندق من سبيل علان الجبل الأحمر والى آخر غيطان المطرية ، ثم ان السلطان نصب على ذلك الخندق الطوارق والمكاحل معمرة بالمدافع ، وصف حولها العربات الخشب التى صنعها بالقلعة كما تقدم ذكر ذلك .

ثم ان السلطان رسم للأمير ماماي الصغير المحتسب بأن ينادى فى القاهرة للسوقه وأرباب البضائع من الزياتين والخبازين والجزارين بأن يحولوا بضائعهم الى الوطاق عند تربة العادل ، وينشئوا هناك سوقا ويبيعوا على العسكر الذى هناك .

ثم ان السلطان رسم للوالى بأن ينادى فى القاهرة للعسكر الذين تأخروا بأن يخرجوا الى الريدانية ولا يتأخر منهم أحد . فنادت المشاعلية فى الحارات والأزقة بأن المماليك السلطانية تخرج فى ذلك اليوم الى الوطاق ، وكل من تأخر منهم شفق على باب

قدام الوطاق ، وهم على ظهور خيولهم لابسين آلة الحرب ، ولا ينساموا الا بالنوبه خوفا من هجمة تحت الليل من العثمانية . وقد اشتد الرعب في قلوب الجر اكسة من عسكر ابن عثمان .

فلما قرب عسكر ابن عثمان من الخانكاه خرج منها غالب أهلها بأولادهم وعيالهم وقماشهم ... ودخلوا الى القاهرة خوفا على أنفسهم من عسكر ابن عثمان ، وكذلك غالب فلاحى الشربة وأهل بلبس ، قد دخلوا الى القاهرة خوفا من النهب والقتل من العثمانية .

ثم ان العربان من السوالمه صاروا يقبضون على كل من يروح لهم من العنمايه ، ويفطعون رؤوسهم ويحصرونها بين يدي السلطان ، فيرسم السلطان بأن يعلى على باب النصر وباب زويلة .

ثم ان السلطان عرض العسكر بالريدايه وهم لابسون آلة الحرب حتى عرض الأمراء المقدمين والعشراوات ... وحضر الأمراء المقدمون وهم بالطبول والزمور ، وكان لهم يوم مشهود بالريدانة .

ثم ان السلطان سار الى بركة الحاج وصحبته الأمراء والعسكر فاطبة فسير بهم ، ثم رجع الى الوطاق وقدامه الضبول والزمور والنفوط ، فامتدت العساكر من الجبل الأحمر الى غطان المطرية حتى سدت الفضاء .

وأشيع أن السلطان لما تحقق وصول ابن عثمان الى بلبس ، رسم بحرق النور النى في بلبس وما حولها ، حتى النور النى في الخانكاه ، فأحرقوا أشياء كثيرة من النبن والتدريس وغير ذلك من القمح والشعير والبول ، وذلك لأجل عسكر ابن عثمان حتى لا يهبوها بسبب خيولهم ، فيفوى بذلك العسكر على القتال .

وصلوا الى هناك ، فقبض على شخصين منهم وحز رأسيهما وأحصرهما بين يدي السلطان . وكان صحبه تلك الرؤوس شخص من أبناء حلب من جماعة حايربك نائب حلب الذى خامر على السلطان العورى والتف على ابن عثمان . فلمسا وقف بين يدي السلطان طومان باى أخبره أن الواصل اليك حايربك نائب حلب وصحبته ابن سوار وجماعة من أمراء ابن عثمان ، وان هذا الجاليش فيه من عسكر ابن عثمان ثمانية آلاف فارس ، وقد بطلت خيولهم من التعب والجوع ، وأن الغلاء موجود فى عسكره . ووجدوا مع ذلك الرجل الحلبي عدة مطالعات من خاير بك نائب حلب الى الأمراء المتقدمين الذين بمصر ، فأخذ السلطان المطالعات التى كانت معه ، ووضع ذلك الرجل الحلبي فى الحديد .

وأشيع أن عسكر ابن عثمان لما دخل بلبس نادى لأهل بلبس بالأمان والاطمئنان ، وأن لا أحد من العساكر العثمانية يشوش على أحد من أهل بلبس ، ولا الفلاحين فاطبة .

ثم أشيع أن عسكر ابن عثمان قد وصل الى العكرشيه ، فلما تحقق السلطان ذلك أراد أن يخرج بالعسكر وبلاقيهم من هناك ، فلم تمكنه الأمراء من ذلك ... ولو لاقاهم من هناك كان عين الصواب ، فان خيولهم كانت قد بطلت من الجوع والتعب ، وكان غالب عسكر ابن عثمان مشاة على أقدامهم من حين خروجهم من الشام وهم فى غاية التعب ، فكان ربما ينكسرهم قبل أن يدخلوا الى الخانكاه ، ويجدوا العليق والمأكول والمشرب والراحة من التعب ... فلم يتفق للسلطان أن يلاقيهم من هناك حتى تمكنوا من الدخول الى الخانكاه .

ثم رسم السلطان للعسكر بأن يبيتوا تلك الليلة

رأسه تحت الليل ، فلما طلع النهار أحضرها بين يدي السلطان طومان باي وقال له : « الذي يأتيك برأس ابراهيم السمرقندي ايش تهطيه ؟ » فقال له السلطان : « أعطيه ألف دينار » . فأخرج رأس السمرقندي من تحت برنسه وقال له : « هذا رأس ابراهيم السمرقندي » ، فلما نحقق السلطان ذلك دفع لذلك البدوي ألف دينار . وكان ابراهيم السمرقندي أصله من المدينة الشريفة ، وطاف من بلاد العجم الى بلاد الروم ، وكان يعرف اللغة التركية ... فلما دخل الى مصر تحشر في السلطان الغورى وصار من جملة أخصائه ، فلما جرى للغورى ما جرى وانكسر التف على سليم شاه بن عثمان وصار من أخصائه . وفيل هو الذي حسن لابن عثمان أن يدخل مصر ويملكها ويقطع جاذرة الجراكسة من مصر ، وأطمعه في ذلك حتى دخل مصر ... وكان السمرقندي من الظلمة الكمار ، ولو عاش الى أن ملك ابن عثمان مصر ما كان يحصل لأهلها منه خير قط . وكان يرفع في أعيان مصر أشد المرافعة ، فأراح الله تعالى منه الناس قاطبة وكفاهم شره .

وفي يوم الأربعاء ثامن عشرى ذى الحجة وردت الأخبار بأن جاليش عسكر ابن عثمان قد نزل الحاج ، فاضطربت أحوال عسكر مصر ، وأغلقت باب الفتوح ، وباب النصر ، وباب الشعرية ، وباب البحر ، وباب القنطرة ، وغير ذلك من أبواب المدينة . وغلقت الأسواق الى بالقاهرة ، وتعطلت الطواحين ، وتشحط الدقيق والحبز من الأسواق . ثم ان السلطان لما تحقق وصول عسكر ابن عثمان الى بركة الحاج ، زعق النفير بالوطاق ، فركب العسكر قاطبة وركب سائر الأمراء المقدمين والأمراء الطبليخانات والعشراوات ، وركب قاسم بك بن

وفي هذه المدة صارت العربان تقطع رؤوس العثمانية الذين يظفرون بهم في الطرقات ، فيرسل السلطان يعلق تلك الرؤوس على أبواب المدينة . ومن الحوادث في هذه السنة انه اشيع أن السلطان كان جالسا في الحيمة وادا بسجس من التركمان قد دخل عليه وهو لا يلبس رباطا أحمر وثى وسطه محمق وبركاش ، وقد صرب على وجهه لثاما ، وكان السلطان في نفر قليل من الحاصكية . فلما هجم ذلك الشحص على السلطان وفرب منه دفعه بعض الطواشيه الدين كانوا وافقين بين يدي السلطان ، فلما مس صدر ذلك الشحص وجد في صدره ثديين طويلين فكشف اللثام عن وجهه ، فاذا ذلك الشحص امرأة من ساء التراكمة ، فتوهم السلطان انها تقصد قتله ، فقال أخرجوها من قدامى . فلما خرجت من بين يديه وجدوها لابسة زردية من تحت ثيابها وهي مسحلمة بجنجر كبير من تحت ثيابها ، فلما عاينها المماليك الجلبان على تلك الحالة صربوها بالسيوف ، وقد بحققوا أنها هجمت على السلطان تريد قتله لأمحاله . فلما قتلوها رسم السلطان بأن يعلقوها على باب النصر ، فأتوا بها وهي عريانة وصاروا يسحبونها من الريدانة الى باب النصر ، حتى علقوها هناك على مكان نجاه باب النصر ، واستمرت معلقة هناك يومين عريانة وعورتها مكشوفة بين الناس ، ثم دفنت .

ثم ان السلطان أرسل مع دوادار الوالى رأسين مقطوعين ، فزعموا أن أحسدها رأس ابراهيم السمرقندي ، والآخر رأس أمير من أمراء ابن عثمان ، فعلقوهما على دكان عند باب زويلة . وقد تحيل بعض العربان على ابراهيم السمرقندي وأضافه وبات عنده ، وكان السمرقندي أتى صحبة ابن عثمان . فلما بات تلك الليلة عند البدوي حز

وقاتلهم هناك قبل أن يدخلوا الريدانية لكان عين الصواب .

فلما كان يوم الخميس المقدم ذكره زحف عسكر ابن عسكان ووصل أوائله الى الجبل الأحمر ، فلما بلغ السلطان طومان باى ذلك زعق النفير في الوطاق ، ونادى السلطان للعسكر بالخروج الى قتال ابن عثمان ، فركب الأمراء المدموم ودعوا الطبول حربيا ، وركب العسكر فاطبة حتى سدوا الفضاء ، وأقبل عسكر ابن عثمان كالجراد المنتشر ، وهم السواد الأعظم ، فتلافى الجيتان في أوائل الريدانية ، فكان بين الفريقين واقعه مهولة يطول شرحها ، أعظم من الواقعة التي كانت في مرج دابق . فقتل من العنابية ما لا يحصى عددهم ، وقتل سنان باشا لالا ابن عثمان ، وكان أكبر وزرائه ، وقتل من أمرائه وعسكره جماعة كثيرة ، حتى صارت الجثث مرمية على الأرض من سبيل علان الى نربة الأمير بشبك الدوادار

ثم ان العشماية تحايوا وجاءوا من كل ناحية أفواجا أفواجا كأنهم قطع الغمام ، ثم انقسموا فرقتين : فرقة جاءت من تحت الجبل الأحمر ، وفرقة جاءت للعسكر عند الوطاق بالريدانية . وطرشوهم بالبندق الرصاص وهجموا عليهم هجمة منكرا ، فما كان غير قليل حتى قتل من عسكر مصر ما لا يعلمه الا الله تعالى . وقتل من الأمراء المقدمين جماعة كثيرة منهم أربك المكحل ، وجرح الأتابكي سودون الدوادار جرحا بالغا ، وقيل انكسر فخذاه فاخفق في غيط هناك ، وجرح الأمير علان الدوادار ، فلم تكن الا ساعة سيرة مقدار خمس عشرة درجة ، حتى انكسر عسكر مصر وولى مدبرا وتمت عليهم الكسرة . فثبت بعد الكسرة السلطان طومان باى نحو عشرين درجة ، وهو يقاتل بنفسه في نفر قليل من العبيد الرماة والمماليك

عثمان ، فاجتمع من الصناجق نحو ثلاثين صنجقا ، واجتمع من العساكر من أرباب الوطاق ومن المماليك السلطانية ومماليك الأمراء والعربان نحو عشرين ألف فارس ، ودقت الطبول والزمر حربيا ، وصار السلطان طومان باى راكبا بنفسه ، وهو يرتب الأمراء على قدر منازلهم ، وصف العسكر من الجبل الأحمر الى غيط المطرية ، فاجتمع هناك الجم الكثير من العسكر ، وكان السلطان طومان باى له همة عالية ، ولو كان السلطان الغورى حيا ما كان يفعل بعض ما فعله السلطان طومان باى ، لكن لم يعطه الله النصر على ابن عثمان ، ولم تقع في ذلك اليوم بين الفريقين قتال ، ولم يبرز كل منهما الى غريمه . فقطعوا في ذلك اليوم بعض رعوس من العثمانية ، وأرسلوا علقوها على أبواب المدينة .

فلما كان يوم الخميس تاسع عشرى ذى الحجة وقعت فيه كائنة عظيمة تذهل عند سماعها عقول أولى الألباب ، وتضل لهولها الآراء عن الصواب ، وما ذاك الا أن السلطان طومان باى لما توجه الى الريدانية ونصب بها الوطاق ، حصن الوطاق بالمكاحل والمدافع ، وصف هناك طوارق ، وصنع عليها تساتير من خشب ، وحفر خندقا من الجبل الأحمر الى غيط المطرية ، وقد تقدم القول على ذلك . ثم ان السلطان جعل خلف المكاحل نحو ألف حمل جمل وعلبها زكائب فيها عليق ، وعلى أقتابها صناجق بيض وحمرة تخفق في الهواء ، وجمع عدة أبقار بسبب جر العجل ، وظن أن القتال بطول بينه وبين ابن عثمان ، أو أن الحصار يبقى مدة طويلة ، فجاء الأمر بخلاف ذلك . فلما نزل عسكر ابن عثمان ببركة الحاج ، أقام بها بومين ، فلم يجسر السلطان طومان باى أن يتوجه اليهم ، ولو توجه

عدة جمال من جمال السقائين ، وصارت العثمانية
 فنهب ما يلوح لهم من القماش ، وغير ذلك .
 وصاروا يحفظون جماعة من الصبيان المرد والعييد
 السود ، واستمر النهب عمالا في ذلك اليوم الى
 ما بعد المغرب ، ثم توجهوا الى شون القمح التي
 بنصر وبولاق ، ونهبوا ما فيها من الغلال حق
 المسلمين . وهذه الحادثة التي وقعت لم تكن لأحد
 على بال ، وكان ذلك مما جرت به الأقدار في الأزل .
 وقتل في هذه المعركة ابن سوار بالريديانية ، ودفن
 على جده سوار في تربته التي تجاه شريك
 الدوادار ، وقتل سنان باشا وزير ابن عثمان الأكبر .
 وفي ذلك يقول الشيخ بدر الدين الزيتوني :

نبكى على مصر وسكانها
 قد خربت أركانها العامرة
 وأصبحت بالذل مقهورة
 من بعد ما كانت هي القاهرة

وفي يوم الاثنين — سلخ سنة اثنتين وعشرين
 ونسعمائة — دخل أمير المؤمنين محمد المتوكل على
 الله القاهرة ، وصحبه وزراء ابن عثمان والجم
 الكثير من العساكر العثمانية ، ودخل ملك الأمراء
 خاير بك ، ودخل قاضي القضاة الشافعية كمال
 الدين الطويل ، والقاضي المالكي محيي الدين
 الدميري ، والقاضي الحنبلي شهاب الدين الفتوحى ،
 وكل هؤلاء كانوا في أمر ابن عثمان من حين مات
 السلطان الغورى .

فلما دخل الخليفة من باب النصر ، شق القاهرة
 وفداه المشاعليه تنادى للناس بالأمان والاطمئنان ،
 والبيع والشراء ، والأخذ والعطاء ، وأن لا أحد
 من العسكر العثماني يشوش على أحد من الرعية .
 وقد أغلق باب الظلم وفتح باب العدل ، وأن كل
 من كان عنده مملوك چركسى ولا يفض عليه وظهر
 عنده يشنق من غير معاودة ، والدعاء للملك المظفر

السلحدارية فقتل من عسكر ابن عثمان
 ما لا يحصى . فلما تكاثرت عليه العساكر
 العثمانية ، ورأى العسكر قد ذهب من حوله ،
 خاف على نفسه أن يفضوا عليه ، فطوى الصنجق
 السلطاني وولى واختفى ، فبيل انه توجه نحو طرا
 وهذه ثالث كسرة وقعت لعسكر مصر .

وأما الفرقة العثمانية التي توجهت من تحت
 الجبل الأحمر ، فانها نزلت على الوطاق السلطاني ،
 وعلى وطاق الأمراء والعسكر ، فنهبوا كل ما كان
 فيه من قماش وسلاح وخيول وجمال وأبهار وغير
 ذلك ، ثم نهبوا المكاحل التي كان نصبها السلطان
 هناك . ونهبوا الطوارق والتسائير الحشب
 والعربات التي تعب عليها السلطان وصرف عليها
 جملة من المال ، ولم يفده من ذلك شيء . ونهبوا
 البارود الذي كان هناك ، ولم يبقوا بالوطاق شيئا
 لا قليلا ولا كثيرا ، فكان ذلك مما جرت به المقادير ،
 والحكم لله العلى الكبير .

ثم ان جماعة من العثمانية لما هرب السلطان
 ونهبوا الوطاق ، دخلوا القاهرة بالسيف عنوة ،
 وتوجه جماعة منهم الى المقشرة ، وأحرقوا بابها
 وأخرجوا من كان بها من المحاييس ، وكان بها
 جماعة من العثمانية سجنهم السلطان لما كان
 بالريديانية ، فأطلقوهم أجمعين ، وأطلقوا من كان في
 الديلم والرجبة والقاعة أجمعين .

ثم توجهوا الى بيت الأمير خاير بك المعمار أحد
 المقدمين ، فنهبوا ما فيه ، وكذلك بيت يونس
 الترجمان ، وكذلك بيوت جماعة من الأمراء وأعيان
 المباشرين ومسائير الناس ، وصارت الزعر والغلمان
 ينهبون البيوت في حجة العثمانية ، فانطلق في أهل
 مصر جمره فار .

ثم دخل جماعة من العثمانية الى الطواحين
 وأخذوا ما فيها من البغال والاكاديش وأخذوا

سليم شاه بالنصر . ففضج له الناس بالدعاء ، ولكن لم تلتفت أحد من العثمانيه لهذه المتاداة ، وصاروا يهبون بيوت أولاد الناس ، حتى بيوت الربوع في حجة أنهم يفتشون على المماليك الجراكسة فاستمر النهب والهجم عمالا في بيوت الأمراء والعسكر وأهل البلد ثلاثة أيام منواله لا يترون خيلا ولا بعالا ولا فماشيا ولا قليلا ولا كثيرا ، وما أبقوا في ذلك ممكنا .

ودخل في ذلك اليوم يونس العادلي ، وخشقدم الذي كان متشد الشون بمصر ، وكان قد هرب من المحوري الى البلاد العثمانية ، وهو الذي كان سببا لهذه الفتنة العظيمة .

وفي يوم الجمعة حطب باسم السلطان سليم شاه على منابر مصر والقاهرة ، وقد ترجم له بعض الحطباء في خطبته فقال : « وانصر اللهم السلطان ابن السلطان ، ملك البرين والبحرين ، وكاسر الجينيين ، وسلطان العراقيين ، وخادم الحرمين الشريفين ، الملك المظفر سليم شاه . اللهم انصره نصرا عزيزا ، وافتح له فتحا ميبيا يا مالك الدنيا والآخرة يارب العالمين » .
وعد قلت في ذلك :

حم العمام بحرب وكدر
وجرى للناس عابات الضرر
وأتاهم حادث من ربهم
كل هدا بفضاء وفدر

سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة (١٥١٧ م) :

كان مستهل المحرم يوم السبت ، وفيه أرسل السلطان سليم شاه جماعة من الانكشارية وأوقفهم على ابواب المدينة يمعرون الهابة من بهب البيوت ، ولما انكسر عسكر مصر حول السلطان سليم شاه

وطاقه من بركة الحجاج ونصبه في الريدانية ، وشرعت العثمانية بنص على المماليك الجراكسة من الترب ومسافى الموتى ، ومن عيطان المطرية ، فلما أحصروهم بين يدي السلطان أمر بصرب أعناقهم

ثم ان بعض مشايخ العربان قبض على الأتابكي سودون الدواداري ، وأحصره بين يدي السلطان سليم شاه . فلما حصر بين يديه وبجه بالكلام فوجده قد جرح وكسر فحذنه وهو في حالة الأموات ، فلم تأخذه عليه شفقه ، بل أركبه على حمار وألبسه عمامه زرقاء وجرسه في وطاقه ، وفصد أن يشهره في القاهرة ، فمات وهو على ظهر الحمار ، وفيل حز رأسه بعد الموت وعلقوها في الوطاق .

وصار العثمانية يكبسون الترب ، ويقبضون على المماليك الجراكسة منها ، وكل تربة وجد فيها مملوك چركسى حزوا رأسه ورأس من بالتربة التي وجدوه فيها من الحجازيين ، وعلقوا رؤوسهم في وطاق ، فضرب في يوم واحد ثلثمائة وثلاثون رأسا من سكان الصحراء . وقيل كان فيهم يابعة وأشراف ، فراحوا ظلما لا ذنب لهم ، وصاروا يكبسون الحارات والبيوت ، ويفبصون على المماليك الجراكسة من اصطبلاهم باليد ، ويتوجهون بهم الى الوطاق بالريدانية ، فيصربون أعناقهم هناك . فلما كثرت رؤوس القتلى بالريدانية نصبوا صواري وعليها حبال وعلقوا عليها رؤوس من قتل من المماليك الجراكسة وغيرهم ، حتى فيل قتل في هذه الواقعة بالريدانية فوق أربعائة انسان ، ما بين جراكسة وغللمان ، وعربان من الشرقية والغربية . وصارت الجثث مرمية من سبيل علان ابى تربة الأشرف قايتباي ، فجافت منهم

الأرض وصارت لا تعرف جثة الأمير من جثة المملوك ، وهم ابدان بلا رءوس وأما من قتل من عسكر ابن عثمان في هذه الواقعة فلا يحصى عددهم

ثم ان ابن عثمان أرسل خلف المقر الناصري محمد بن السلطان العورى ، فلما حضر ألبسه قفطانا من محصل أحضر مذهب ، وألبسه عمامة عشانية ، وأعطاه وردة بالأمان له على نفسه ، ورسم له بأن سكن في مدرسه أبيه التي أتسأها في الشرايشيين ، وأسدن الدفتردار في بيته الذي في البندقانيين ، وهو احد وزراء السلطان سليم شاه . ثم توجه اليه الأمير يوسف البسدرى الوزير فأعطاه أمانا وألبسه قفطانا محملا وأقره مجددا على جهات العرييه . وخلع على الأمير فارس السيفى تراز وأقره كاشف المنية ، وغير ذلك من الجهات القبليه وخلع على الزينى بركات بن موسى ، وجعله متحدثا في الحسبة على أن يهرر بها من يختاره

وفي يوم الأحد تالى المحرم أسيح أن السلطان سليم شاه نقل وطافه من اربدانية ونصبه في بولاغ من تحت برسف الى آخر لجزيره الوسطى ، وقد أحصروا اليه مهابيح قلعه الجبل فلم يلتفت الى ذلك ، واختار الافامه على شاطئ بحر النيل فلما كثرت العساويه بالقاهره صاروا يدورون في الحارات والأزقه والأسواق . وكل من رأوه من أولاد الناس لا يسا زبنا أحسر وتحصفه بهولون له أنت جركسى ، فيقطعون رأسه فلبس أولاد الناس كلهم عمامهم حتى أولاد الامراء والسلاطين قاطبه ، وأبطلوا لبس التحايف والزنوط من مصر .

وفي يوم الاثنين ثالث المحرم أوكب السلطان سليم شاه ، ودخل الى التاهره من باب النصر وشق

المدينة في موكب حافل ، وقدامه الجنائب المسومة الكثيرة العدد ، والعساكر التراكمة ما بين مشاة وركاب ، حتى ضاقت بهم الشوارع . واستمر سائرا من المدينة حتى دخل من باب زويلة ، ثم عرج من تحت الربع وتوجه من هناك الى بولاغ ، ونزل بالوطاق الذي نصبه تحت الرصيف .

فلما شق من المدينة ، ارتفعت له الأصوات بالدعاء من الناس قاطبة . وقيل ان صفته درى اللون ، حليى الدون ، وافر الأنف ، واسع العينين ، فصير القامة ، وعلى رأسه عمامة صغيرة وكان عنده خفه ورهح ، كثير التلفت اذا ركب القرس . وقيل انه كان له من العمر حين ذلك نحو أربعين سنة أو دون ذلك ، وليس له نظام يعرف مثل نظام الملوكة السالفه . وكان سييء الخلق ، سفاكا للدماء شديد الغضب ، لا يراجع في القول .

ولما شق من القاهرة كان فدامه الحليفة والقضاة الأربعة وجماعة من المباشرين الذين كانوا بمصر . وكان ينادى كل يوم في القاهره بالأمان والاطمئنان ، والنهب عمال من جماعته ، ولا يستمعون لمناداته . وحصل للناس منه الضرر الشامل .

ومما أشيع عنه أنه قال في بعض مجالسه بين أخصائه وهو بالنمام : اذا دخلت الى مصر أحرق بيوبها قاطبه ، وألعب في أهلها بالسيف . فقيل تلطف به الحليفة حتى رجع عن ذلك ، ولو فعل ذلك ما كان يجد له من مانع منعه ، ولكن الله سلم والله غالب على أمره .

ولما زاد صرر العثمانية في القاهرة صارت أعيان الناس والمباشرين يجعلون على أبوابهم جماعة من العثمانية يحفظون بيوتهم من النهب ، وصارت العثمانية يمسكون أولاد الناس من الطرقات ، ويمولون لهم أتمم جراكسة فيشهدون الناس

عندهم أنهم ما هم چراكسة . فيقولون لهم اشتروا أنفسكم من القتل ، فيأخذون منهم بحسب ما يختارونه من المبلغ . وصار أهل مصر نحت أسرهم ، ثم صار الزعر وعياق مصر يغمزون العثمانية على حواصل الخوندات والستات فينهبون ما فيها من القماش الفاخر . فافتحت للعثمانية كنوز الأرض بمصر من بهب فساش وسلاح وخيول وبغال وجوار وعبيد وغير ذلك من كل شئ جليل ، وظفروا بأشياء لم يظفروا بها قط في بلادهم ، ولم يروها قبل ذلك ، ولا أستأدهم الكبير .

ومن هنا نرجع الى ترجمة سليم شاه ابن عثمان وذلك على سبيل الاختصار من أخباره بحسب ما يتيسر لي من ذلك ، على ما مئت عليه طريفة التاريخ من مبتداه الى هذه الواقعة .

سليم شاه بن أبي يزيد

هو الملك اتلفظر سليم شاه ، بن السلطان أبي يزيد ، بن السلطان محمد بن اسلطان مراد خان ابن أبي يزيد المعروف بيلدرم بن أرخان بن أردن بن عثمان بن سليمان بن عثمان الكبير ، الشهيد بالغزاة بعد أن عاش تسعا وستين سنة .

وسليم شاه هذا هو الشهير بابن عثمان ، من خلاصة ملوك الروم ، وهو الثامن والاربعون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية ، وهو الثالث من ملوك الروم بصر . فان أول ملوك الروم بمصر الظاهر خشقدم ، والثاني الظاهر ترميفا ، والثالث سليم خان ابن عثمان .

ملك القاهرة عنوة بقائم سینه ، وقد حصل له سعد عظيم لم يحصل لأبائه ولا لأجداده من قبله . وقد ساعدته الأقدار على بلوغ الأوطار ، فتصدى

الى قتال شاه اسماعيل الصفوى سنة احدى وعشرين وتسعمائة ، فانكسر منه الصفوى ، وقتل غالب عسكره ، واحتوى على أمواله وسلاحه من غير مانع ، وملك غالب بلاده التي بالعراقين .

ثم تصدى الى قتال الملك الأشرف قانصوه الغورى ، وتلاقى معه على مرج دابق في رجب سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة ، فلم يحمل معه غير مدة يسيرة وانكسر ، ومات قهرا في وسط الحرب .

وملك سليم شاه مدينة حلب وقلعتها من غير محاصرة . فلما ملك قلعة حلب أرسل اليها شخصا من جماعته أعرج أعور وفي يده دبوس خشب ، وهو ماش على أقدامه ، فتسلم الأموال والسلاح التي كانت بها ، حتى قيل كان بها من الأموال السلطانية للغورى مائة ألف دينار وثمانمائة ألف دينار ، خارجا عن السلاح والكنائيس الذهب والسروج الذهب والبلور والعقيق والخلع التي بالطراز الذهب اليلبغاوى ، وغير ذلك من التحف الفاخرة . فاحتوى على ذلك جميعه خارجا عن برك السلطان والأمراء وأولادهم ، وبرك العساكر وخيولهم وبغالهم وجمالهم ، وخيامهم فاحتوى على ذلك جميعه .

ثم توجه الى الشام فملكها بالأمان ، ثم نزل اليه اغات الشام بالأمان فقتله وقتل معه نحو أربعين أميرا من أمراء الشام ، وملك قلعتها واحتوى على ما فيها من الأموال والسلاح والغلال والبارود وغير ذلك مما كان بها .

ثم خرج من الشام وقصد التوجه نحو الديار المصرية ، فتسلم طرابلس وصفد وغزة وبيت المقدس وجبل نابلس وعدة بلاد من تلك الجهات ... تسلم الكل بالأمان من غير حرب ولا مانع ، ولم يتفق ذلك لأحد من الملوك قبله .

قنطرة قديدار ، واستمر الحرب ثائرا بين الفريقين من طلوع الفجر الى ما بعد المغرب .

ثم أشيع أن العربان لما وفعت هذه الحركة نهبوا وطاق العثمانية الذي كان بالريديانية .

ثم ان المماليك الجراكسة صاروا يكبسون البيوت والحارات على العثمانية ، كما كانت العثمانية تكبس البيوت على الجراكسة ، ومثل ما عمل شاة الحسى فى القرظ ، يعمل القرظ فى جلدھا ، فصاروا يدورون فى الحارات ، وكل من يظفرون به من العثمانية بقطعون رأسه ، ويحضرونها بين يدي السلطان طومان باى ، وصار الطالب مطلوبيا ، ولكن لم يتم لهم ذلك .

فلما كان يوم الخميس سادس المحرم ، اشتد القتال بين الفريقين ، ونادى السلطان طومان باى فى الناصرية وقناطر السباع للزعر والعياق بأن « كل من قبض على عثمانى يأخذ عريه ، ويقطع رأسه ، ويحضرها بين يدي السلطان » .

ثم ان العثمانية طردوا الأتراك من بولاق وجزيرة النيل . وملكوها منهم ، ثم ان الأتراك خرقوا عقد قنطرة قديدار خوفا من العثمانية أن يهجموا عليهم ، ثم ان العثمانية هجموا على زاوية الشيخ عساد الدين التى بالناصرية ، وقبضوا على من بها من المساليك الجراكسة ، وأحرقوا البيوت التى حول الزاوية ، ونهبوا القناديل والحصر التى فى الزاوية ، وقتلوا جماعة كثيرة من العوام ، وفيهم صغار وشيوخ لا ذنب لهم .

ثم ان العثمانية طردوا الأتراك من الناصرية الى قناطر السباع ، ثم ان السلطان طومان باى نزل فى جامع شيخو بالعمري الذى بالصليبية وصار يركب بنفسه ويكر من الصليبية الى قناطر السباع فى نفر قليل من العسكر . ثم رسم بحفر خندق فى رأس

ثم توجه الى القاهرة فتلاقى مع الأشرف طومان باى على الريديانية فوقع بينهما قتال هين ، فلم يكن الا عشرون درجة وانكسر الأشرف طومان باى وولى مهزوما ، وقتل من العسكر ما لا يحصى عددهم ، وآخر الأمر ملك مصر والقاهرة عنوة بقائم سيفه .

ومن عهد عمرو بن العاص رضى الله عنه فاتح مصر سنة اثنتين وعشرين من الهجرة النبوية عنوة بقائم سيفه ، لم يفتحها أحد من الملوك بعده عنوة سوى سليم شاه بن عثمان ، ولم يقع مثل ذلك الا لبختنصر فى قديم الزمان .

ومن هنا يرجع الى أخبار بن عثمان ، فانه لما نزل بالوطاق الذى نصبه فى بولاق عند الرصيف أقام به الى يوم الثلاثاء رابع المحرم .

فلما كانت ليله الأربعاء خامس الشهر بعد صلاة العتاء لم يتسع ابن عثمان الا وفد هجم عليه الأشرف طومان باى بالوطاق بما معه من العسكر ، واحتاط به ، فاضطربت أحوال ابن عثمان الى الغايه ، وظن أنه مأخوذ لا محالة . وأشيع أنه هجم عليه بجمال محملة ساسا وأطلق دهبها النار ، فاحترق بعض خيام من وطاق ابن عثمان ، وأوقع فيهم السيف تحت الليل ، فقتل من عسكر ابن عثمان ما لا يحصى عددهم ، واجتمع هناك الجهم الكثير من الزعر وعياق بولاق من النواتيه وغيرهم ، وصاروا يرمون فى الوطاق بالمقاليع وفيها الحجارة . واستسروا على ذلك الى أن طلع النهار ، فلاقاهم الأمير علان الدوادار الكبير من الناصرية عند الميدان الكبير ، فأسعفهم .

وكان بين عسكر ابن عثمان وبين عسكر مصر ، هناك واقعة تشيب منها النواصى ، فملكوا منهم من رأس الجزيرة الوسطى الى قنطرة باب البحر ، والى

الصليبية ، وآخر عند قناطر السباع ، وآخر عند
وأس الرملة . وآخر عند جامع ابن طولون ،
وآخر عند حدرة البحر .

ثم ان السلطان طومان باى رسم بحرق خان
العلبلى ، فمتعه بعض الأمراء من ذلك ، وأشيع
أنه فسم العسكر الى أربع فرق . فرقة الى جهة
قناطر السباع ، وفرقة الى جهة الرملة ، وفرقة الى
جهة جامع ابن طولون ، وفرقة الى جهة باب زويلة .
فلم يفتل من المالك الجراكسة الا التسلل ،
وصاروا يختفون فى الاصطبلات والزوايا خوفا من
القتال ، وقد دخل الرعب فى قلوبهم من العثمانية
فما بقى يخرج منها .

ثم ان طائفة من العثمانية توجهوا من جهة مصر
العتيقة ، وطلعوا من جهة باب القرافة ، وملكوا من
باب القرافة الى مشهد السيدة نفيسة رضى الله
عنها ، فدخلوا الى ضربحها ، وداسوا على قبرها ،
وأخذوا قناديلها الفضة والشمع الذى كانت عند
قبرها ، وبسطوا الزاوية ، وأخذوا من مقامها شيئا
كثيرا ، وقتلوا أيضا فى مقامها ممالك من أكسة وغير
ذلك من الناس الذين كانوا اجتمعوا بها حين هربوا
من المعركة .

ثم أن السلطان قصد أن يهدم قناطر السباع ،
فهدم من عقدها بعض شىء . ثم ان الأتراك سجنوا
جماعة من العثمانية ، فهربوا وطلعوا الى مآذن
الجوامع . فطلعوا مئذنة المؤيد ، وصاروا يرمون
الناس بالبندق والرصاص ، ويمنعونهم من الدخول
الى باب زويلة ، واستمروا على ذلك حتى طلع لهم
الأتراك وقتلهم فى المئذنة شرقتلة .

ثم صارت القتلى من الأتراك والعثمانية
أجسادهم مرمية من يولاق الى قناطر السباع ،

والى الرملة والى تحت القلعة ، وفى الحارات
والأزقة ، وهم أبدان بلا رعوس .

هدا والعربان واقفة عند قنطرة الحاجب يعرفون
الناس ، وبأخذون أثوابهم ، ويقتلونهم ويقتلون
كل من يلوح لهم من العثمانية ، وغيرهم ، ولولا
لطف الله تعالى لهجموا على الناس فى القاهرة ،
ونهبوا أسواقها ودورها .

ثم ان السلطان طومان باى نادى فى القاهرة أن
كل من أمسك احدا من العثمانية ، وطلب منه
الأمان لا تقتله ويأتى به حيا .

ومن العجائب فى هذه الواقعة ، أن السلطان
طومان باى لما ظهر فى هذه المرة بعد انهزامه فى
الريديانية ، خطب باسمه فى القاهرة ، وكان فى
الجمعة الماصية خطب باسم سليم شاه بن عثمان
فكان كما يقال فى المعنى :

لا نياسن من فرج و لطف

وقوة نظهر بعد ضعف

فاستمر السلطان طومان باى يرتفع امره مع
عسكر ابن عثمان ، ويقتل منهم فى كل يوم ما لا
يحصى من يوم الأربعاء الى طلوع شمس يوم
السبت ثامن المحرم ، فتكاسل العسكر عن
القتال ، واختفوا فى بيوتهم ، وتفرقت الأمراء عنه
كل واحد فى ناحية ، واستمر السلطان طومان باى
بقاتل فى عسكر ابن عثمان وحده فى نفر قليل من
العبيد الرماة وبعض ممالك سلطانية وبعض
أمراء ، كالأمير شاد بك الأعور ، وآخرين من
الأمراء العشراوات . فلما ظهر انه الغلب هرب
وتوجه الى نحو بركة الحبش ، وكان قليل الحظ
غير مسعود الحركات فى أفعاله كما قيل فى المعنى :

فليل الحظ ليس له دواء

ولو كان المسيح به طيب

وهذه رابع كسرة وقعت لسكر محرم مع ابن عثمان ، وقد غلت أيديهم عن القتال حتى نفذ القضاء والقدر ، وكان ذلك في الكتاب مسطورا .
ولما هرب السلطان طومان باي وقعت في القاهرة المسيية العنلى التى لهم يسع بشلها فىا تقدم من الزمان ، رهو أنه لما هرب السلطان طومان باي مسيحه يوم السبت ثاهن المحرم .
طفشت العثمانية فى الصلبة وأحرفوا جامع شبحو ، فأحرق سقف الايوان الكبير والقية التى ناست به ... فعلوا ذلك لآلوه كان به وقت الحرب لما تقدم ، وأحرفوا البيوت التى حوله فى درب ابن عزيز . نم مجسوا على الشرفى بحى بن العداس خليل الجامع . واحمره بين بدى سليم شاه ابن عثمان ، فهم بضرب عنقه ، فلما بلغ الخليفة ذلك ، ركب وأبى الى ابن عثمان ، وشفع فى ابن العداس ، وخلصه من النبل ، ولولا أنه كان فى أجله فسحة لضربوا عنقه فى الجبال ، وفاسى شدة من الطرية .

تم ان العنسابية طمنت فى جميع البحارات والأماكن ، وحطوا عليهم فى السبد والعداس والعوام من الزمر وعبرهم ، ولعبو بهم بالسيف ، وراح الصالح بالطالغ ، وربما حوت من لأدب له فصارت جشهم مرمه فى الطرافات من باب زوبلة الى الرملة ، ومن الرملة الى الصلبة الى قناطر السباع ، الى الناصرة الى مصر العنفة فكان مقدار من قتل فى هذه الافه من بولاق الى الجزيرة الوسطى الى الصلبة فوق العنرة آلاف انسان ، فى هذه هذه الأربعة الأيام ، ولولا لطف الله تعالى لطفى أهل مصر فاطمة بالسيف .

ثم ان العثمانة صارت تكس على الممالك الجراكسة فى البيوت والحارات ، فس وجده

منهم ضربوا عنقه ، وكذلك الجوامع الكبار ، والممارس والزوايا . فهجموا على الجامع الأزهر ، وجامع الحاكم ، وجامع ابن طولون ، وغيرها ، وقتلوا من وجده من الممالك الجراكسة فيها . فقتل قبضوا على نحو ثمانمائة مملوك ما بين أمراء عشراوات وخاصكية ، ومساليك سلطانية . فضربوا رقابهم أجمعين بين بدى السلطان سليم . وقيل ان المشاعلى الذى كان هناك فرنجى ، وقيل يهودى من الروم . وكان اذا ضرب عنق أحد من الجراكسة يعزلها وحدها ، ويعزل رؤوس الغلمان والعربان وحدها ، ثم ينصب الجبال على الصوارى ويلقى عليها تلك الرؤوس فى الوطاق الذى بالجزيرة الوسطى . وكان المشاعلى اذا حز رأس الممالك يرمى جشهم فى البحر .

وأخبرنى من أثق به أنه شاهد جثة الأمير قانصوه رجله أحد الأمراء المقدمين الذى كان نائب قطيا وهى مرمية قدام سبيل السلطان ، والكلاب تنهش فى مصارينه وشحم بطنه ، فانه كان رجلا جيسا . وقتل فى هذه الواقعة الأمير بخشباى الذى كان فرره السلطان طومان باي أمير مجلس كما تقدم ، وقتل آخرون من الأمراء الطلجاناات والعشراوات والخاصكة وغير ذلك ، وصارت الحث مرمة فى الرملة الى سوق الخيل ، ثم الى الحميين ، وقد تنهنت الكلاب أجسادهم .

ولم يقاس أهل مصر شدة مثل هذه قط . الا ما كان فى زمن بختنصر البابلى لما أتى من بابل وزحف على البلاد بعسكره وخرها وهدم بيت المقدس . ثم دخل مصر وخرها عن آخرها ، وقتل من أهلها مائة ألف ألف انسان ، حتى أقامت مصر أربعين سنة وهى خراب ، لس بها دنار ولا نافخ نار . فكان النيل يعلو ويهبط فلا يجد من

يزرع عليه الأراضي ولا ينتفع به . لكن هذه الواقعة لها نحو ألفى سنة وهي قبل ظهور عيسى ابن مريم عليه السلام .

ثم وقع مثل ذلك في بغداد في فتنة هولوكو ، وهو المعروف بتتار ، لما زحف على بغداد وخرّبها وأحرق بيوتها ، وقتل الخليفة المستعصم بالله ، واستمرت من بعد ذلك خرابا الى الآن ، فوقع لأهل مصر ما يقرب من ذلك ، وما زالت الأيام تبدى العجائب .

فلما هرب السلطان طومان باى وقتل من قتل من الأمراء والعسكر ، رجع السلطان سليم شاه الى وطاقه الذى فى الجزيرة الوسطى ، ونصب فى وطاقه صنجنين أحدهما أبيض والآخر أحمر ، وذلك اشارة عندهم لرفع السيف عن أهل المدنة . هكذا عادتهم فى بلادهم اذا ملكوا مدينة وفتحوها بالسيف عنوة .

وفى هذا الشهر توفى الشيخ شهاب الدين القسطلانى ، وكان علامة فى الحديث ، وله شهرة طائلة بين الناس ، وكان لا بأس به .

وفى تلك الأيام صار الخليفة المتوكل على الله هو صاحب الحل والعقد ، والأمر والهوى بالديار المصرية . وصارت أولاد السلاطين جالسه فى دهليز بيته لا يعبأ بهم ، مثل المقر العلاتى على بن المؤيد أحمد ، وابن الظاهر خشقدم ، وأولاد الملك المنصور عثمان ، وغير ذلك من أولاد الأمراء ، وأعيان الناس من الرؤساء والمباشرين ، وجماعة من الأمراء مثل قانى بك رأس بوبة ثانى ، وسنبل مقدم المماليك ، وغير ذلك من الأمراء ، فى دهليز بيته لم يلتفت اليهم ، وصار رنكه مضروبا على غالب البيوت . وكانت مراسلته ماشية فى المدينة لا ترد ، وشفاعته كافية فى كل أمر اشتد . وصار هو

فى مقام سلطان مصر فى نفوذ الكلمة ، وظهور العظمة فى تلك الأيام . ودخل عليه من الناس أموال وتفادم عظيمة لم تصل لآبائه ولا أجداده ، وصارت الستات والحدونات مرمية فى دهليز بيته لا يلتفت اليهن ، وصارت خوند ابنة الأمير أقبردى الدوادار زوجة السلطان طومان باى مقيمة فى بيته ، وقد قرر عليها السلطان سليم شاه مالا جزيلا تورده الى الديوان . فلا زال الخليفة يتلطف بالسلطان سليم شاه حتى حط عنها جانبا من المال الذى قرره عليها . وحصل له من الستات والحدونات خدم جزيلة . فطاش الخليفة فى تلك الأيام الى الغاية ، وظن أن هذا الحال بنم له ، وما علم أن القبان بأخره . كما قيل فى المعنى :

أمور تضحك السفهاء منها

ويبكي من عواقبها اللبيب

ومن الحوادث أن أولاد الزنكلوبى الدين جرى لهم مع السلطان العورى ما جرى ، ومات أبوهم تحت الضرب . وابن نور الدين المشالى الذى شتقه العورى — كما تقدم ذكره — لما تعيرت الدول ودخل ابن عثمان الى القاهرة ، وناذى من كانت له ظلامة يرفع أمره الى السلطان سليم ، ثار أولاد الزنكلوبى وابن نور الدين المشالى على القاضى شمس الدين وحيش ، وقالوا له أنت كنت سببا لشنق نور الدين المشالى ، وضرب الزنكلوبى . وقصدوا أن يمضوا به الى ابن عثمان ليقطع رأسه ، فترامى على الخليفة فى عمل المصلحة بينه وبين أولاد الزنكلوبى وابن المشالى ، فتكلم الخليفة بينهم على أن ابن وحيش يدفع الى أولاد الزنكلوبى ثلثمائة دينار ، ولابن المشالى مائتى دينار ، فأبوا من ذلك ، واستمرت دعوتهم باقية على شمس الدين بن وحيش الى أن يعرضوا ذلك على ابن عثمان .

وفي يوم الثلاثاء حادى عشر المحرم ، نادى
لسلطان سليم شاه بعد العصر في القاهره بأن
للأمراء المقدمين والأمراء الأربعينيات والأمراء
العشراوات الذين اختفوا بعد الواقعة بظهور
وعليهم أمان الله تعالى .

وقيل ان السلطان سليم شاه كتب للامراء عهدا
وأمانا في ورقة طويلة وعلقها المنادى على جريدة ،
ونادى أيضا بأن الأمراء المختفين يظهرون
ويتوجهون الى مدرسة السلطان العورى وعليهم
الأمان . فظهر الأمير أركناس أمير سلاح ، والأمير
أنص باى أمير آخور كبير ، والأمير تتر الحسى
رأس نوبة النوب ، والأمير طقطباى حاجب
الحجاب ، والأمير تانى بك الحازندار أحد
المقدمين ، والأمير تانى بك النجمى أحد المقدمين ،
والأمير قانصوه أبو سنة أحد المقدمين .

ومن الأمراء الطبلخانات الأمير مصرباى الأقرع ،
والأمير قانى بك رأس نوبة تانى ، والأمير يتسبك
الفتية دوادار السلطان طومان باى ، وكان مختفيا
في الجامع الأزهر فطلع بالأمان .

وظهر من الأمراء العتراوات نحو أربعين أميرا
وأكثر من ذلك وآخرون من الخاصكية .

فلما ظهروا واجتمعوا في المدرسة الغورية
احتاط بهم جماعة من العتمانية ، ثم مضوا بهم الى
الوطاق وأرادوا أن يخونوهم . فلما قابلوا السلطان
سليم وبخهم بالكلام وبسق على وجههم ، ودكر
لهم ظلمهم وما كانوا يصنعون ، تم رسم لهم بأن
يطلعوا الى القلعة ، ويقوموا بها محتفظا بهم فطلعوا
الى القلعة .

وفيه أشيع أن جان بردى الغزالي أرسل بطلب
الأمان من السلطان سليم شاه . وقد وصل الى

الخائفاه وصحبته جباة من المماليك الجراسه
الذين هربوا بعد الكسرة ، فأرسل له السلطان
سليم شاه أمانا .

وفيه أشيع ان السلطان طومان باى لما هرب من
الواقعة التي كانت بالصليية ظهر بعد ذلك أنه
توجه الى البهنسا وأقام بها ، فلما خجر من الذى
قاساه من الحروب والشور ، أرسل القاضى
عبد السلام قاضى البهنسا ليطلب له الخليفة الأمان
من السلطان سليم شاه .

وفيه أشيع أن العشانية هجموا على مفسام
الامام الشافعى رضى الله عنه ونهبوا ما فيه من
السط والفتناديل في حجة المماليك الجراكسة ،
وكذلك مقام الليث بن سعد أيضا نهبوا ما فيه .

وفي يوم الثلاثاء ، ثامن عشر المحرم ، دخل
جان بردى الغزالي القاهرة وعلى رأسه منشور
فيه أمان من السلطان سليم شاه ، فتوجه اليه وهو
في الوطاق وقابله هناك . وكان الغزالي لما انكسر
السلطان طومان باى في الريدانية أشيع أنه هرب
الى عكة ، وقيل الى غزة ، ومعه جماعة من المماليك
الجراكسة . وكان جان بردى الغزالي منوطا مع
ابن عثمان في الباطن من أيام الغورى . وكان سببا
لكسرة العسكر في مرج دابق هو وخاير بك نائب
حلب ، وانهزما قبل العسكر ، وأشاعا الكسرة على
عسكر مصر .

وفي يوم الأربعاء تاسع عشر المحرم ، أشيع أن
المماليك الذين ظهروا صحبة الغزالي رسموا
عليهم ، وقيل سجنوهم بالقلعة ، وكانوا نحو
أربعمائة مملوك ، وقد ظهروا بالأمان من ابن
عثمان . فلما ظهروا قبض عليهم وغدر بهم ، وكان
من عادته يعطى الأمان للأمراء والمماليك ثم يغدر
بهم في الحال ، فكان لا يثق أحد منه بالأمان .

وفيه فرر السلطان سليم شاه جماعة من أمرائه في الولايات على بعض البلاد ، منهم نائب غزة ، ومنهم كاشف المحلة والشرقية والغربية ، فولى عدة مكشاف في أماكن مختلفة من البلاد .

وفي يوم الخميس عشرى المحرم ، نادى السلطان سليم شاه في الصليبية وقناطر السباع بأن أصحاب الأملاك الذين في الصليبية وجامع ابن طولون يخلون بيوتهم ، فان السلطان سليم شاه طالع الى القلعة ليقبم بها ، وصار يكرر المناداة في كل يوم بذلك ، فأخلى الناس بيوتهم .

فلما طلع الى القلعة نادى للناس بالأمان والاطمئنان ، وكيف الأمان وقد خرجت الناس من بيوتهم على وجوههم في أسوأ الأحوال ، وانطلقت في قلوبهم جمره نار ، وهجمت الطوائف العثمانية على الناس في بيوتهم ، وأخرجوهم منها وسكنوا بها ، حتى صارت الحارات والأزقة ما تنشق منهم ، وصاروا كالجراد المنتشر من كثرتهم ، من الصليبية الى جامع قوصون الى قناطر السباع الى داخل باب زويلة ، وما خلا منهم موضع في المدينة . وصارت الناس تسد أبوابها وتضيقها مثل الحوخ حتى لا تدخل فيها الخيول ، ولم يقد ذلك شيئا ، وهدموا ما بنوه وسكنوا بها .

تم ان السلطان سليم شاه طلع الى القلعة في موكب حافل رجت له القاهرة ، وكان معه المماليك الذين طلوعوا بالأمان ، وقيدوهم وأودعوهم في الوكالة التي خلف مدرسة السلطان الغورى .

وفي أوائل هذه السنة كانت وفاة الشيخ الامام العالم العلامة برهان الدين ابراهيم بن أبى شريف المقدسى الشافعى ، كان عالما فاضلا في مذهبه ،

بارعا في العلوم ، ورعا زاهدا ... ولى قضاء الشافعية في أيام السلطان الغورى ، فأقام بها مدة وعزل عنها ، ثم قرره الغورى في مشيخة مدرسته ، وقاسى في أواخر عمره شدائد ومحنا من السلطان الغورى وأقام مدة طويلة وهو عليل ، حتى مات ، وعاش من العمر فوق الثمانين سنة . ولما أن مرض ثارت الحروب والفتن وتكاثرت الأهوال على الناس بمصر ، فمات ولم يشعر بموته أحد من الناس ، رحمة الله عليه .

وتوفى أيضا البدرى حسن بن الطولونى معلم المعلمين كان ، وكان رئيسا حشما من أعيان أولاد الناس ، وكف بصره قبل موته بمدة طويلة ، وكان أنشأ له تاريخا لضبط الوقائع ، وكان علامة في كل فن ، رحمة الله عليه .

وفي يوم الثلاثاء خامس عشرى المحرم ، خلع السلطان على الشرقى يوس الاستادار قفطانا من المحمل بالذهب ، وجعله متحدثا على جهات بلاد الشرقية ، ليمسح البلاد ويكشف ما فيها من اقطاعات المماليك الجراكسة وغير ذلك من الرزق والأوقاف . فأخذ فوائم من أولاد الجيعان بمعنى ذلك . ونزل الى الشرقية ، فما أبفى من أبواب المظالم شيئا حتى فعله بالشرقية . وقرر فخر الدين ابن عوض وبركات آخا شرف الدين الصغير متحدثين في جهات الغربية . وقرر الزينى بركات بن موسى متحدثا على جهات المحلة . وقرر شرف الدين الصغير وأبا البقا ناظر الاضطبل متحدثين في الجهات القبلية ، فأظهر كل منهم أنواعا من المظالم في حق الناس بسبب الاقطاعات والرزق .

وأشيع أن السلطان سليم شاه أوقف أمر المناشير

وخرّب ابن عثمان غالب الأماكن التي بالقلعة
وفك رحامها ونزل به في المراكب يوجهون به الى
القسطنطينية .

ولما أقام سليم شاه بالقلعة نصب وطاق عسكره
بالرميلة من باب القرافة الى سوق الخيل ، ثم ان
العثمانية نصبوا حيمة في وسط الرميّة وجعلوا
فيها دنان بوزه ، وخيمة أخرى فيها جفان حشيش ،
وخيمة أخرى فيها صبيان مرد لأجل المحارفة
كعادتهم في بلادهم .

وفي يوم الجمعة جاءت الأخبار من بلاد الصعيد
بأن السلطان طومان باي قويت شوكته ، والتف
عليه جماعة كثيرة من العربان ، واجتمع عنده من
الأمرء والعسكر الجم الكثير .

وأشيع أنه وصل اليه من نجر الاسكندرية
زردخاناه ما بين نشاب وقسي وبارود . فلما تحقق
السلطان سليم شاه ذلك أخذ حذره من الملك
الأشرف طومان باي ، وصار على رأس أهل مصر
طيرة مما جرى عليهم في الواقعة التي كانت
بالصلية ، فخشوا من مثل ذلك .

وفي صفر وكان مستهله يوم الأحد ، في يوم
الثلاثاء ثائه حضر العالئي على ناظر الخواص ،
وكان قد توجه الى نجر الاسكندرية ، فلما حضر
أحضر صحبته جماعة من المالبك الجراكسة كانوا
هناك ، فأحضرهم في زناجير . ثم أشيع بعد ذلك
أن ناظر الخواص كان قد توجه الى ... ١ ويقول
لهم سبحان الله ان كنتم نسيتمونا فنحن ما نسيناكم .
وأرسل يعتب عليهم ويتحرش بهم .

ثم بعد أيام أشيع أن طومان باي أرسل يقول
لابن عثمان : « ان كنت تروم أن أجعل الخطبة
والسكة باسمك ، وأكون أنا فائبا عنك بمصر ،

(١) بياض بالأصل .

التي بيد أولاد الناس بسبب أقاطيعهم ، فحصل
لهم غاية الضرر بسبب ذلك .

وفي آخر هذا الشهر تشحطت الغلال وارتفع
الخيز من الأسواق ، وسبب هذا الأمر أن العثمانية
لما دخلوا القاهرة نهبوا المغل الذي في الشون ،
وأطعموه لخيولهم ، حتى لم يبق في الشون شيء ،
من الغلال . ونهبوا القمح الذي كان بالطواحين ،
واضطربت أحوال الناس قاطبة

ثم ان الأخبار ترادفت بأن طومان باي ظهر أنه
في الصعيد ، عند أولاد عمر ، ومنع المراكب من
الدخول الى مصر بالغلال . فسوجب ذلك وقعت
التشحيطة بمصر .

وأما السلطان سليم فانه لما طلع الى القلعة
احتجب عن الناس ولم يظهر لأحد ، ولم يجلس
على الدكة بالحوش السلطاني جلوسا عاما ، ولم
يفصل بين ظالم ومظلوم ، بل كان يحدث منه ومن
وزرائه كل يوم مظلمة جديدة من قتل وأسر وأخذ
أموال بغير حق . وكان هذا على غير القياس . فانه
كان أشيع العدل الزائد عن أولاد ابن عثمان وهم
في بلادهم ، قبل أن يدخل سايم شاه الى مصر ، فلم
يظهر لهذا الكلام نتيجه ، ولا متنى سليم شاه على
قواعد السلاطين السالفة ، ولم يكن له نظام يعرف
لا هو ولا وزرائه ولا أمراؤه ولا عسكره ... بل
كانوا همجا لا يعرف الغلام من الأستاذ .

ولما أقام ابن عثمان بالقلعة ، ربطت العسكر
الخيول في الحوش الى باب القلعة عند الايوان
الكبير وباب الجامع الذي بالقلعة ، وصار روث
الخيل هناك كأنه كيما التراب على الأرض ، حتى

سد الطريق .

وبردبك داوآدار الخليفة ، الى السلطان طومان باى
نحو الصعيد .

وفى هذه الأيام قويت الاشاعات بأن السلطان
طومان باى جمع من العساكر والعربان ما لا يحصى
عددهم وهو زاحف على ابن عثمان فى بر الجزيرة .
فكثرت القيل والقال ، ووقع الاضطراب فى القاهرة
بسبب ذلك .

ثم أشيع أن الأمير علان بن قراجا الدوادار
الكبير قد توفى بالصعيد ودفن فى بعض الضياع
هناك وصلى عليه السلطان طومان باى والأمراء
الذين كانوا هناك . وكان الأمير علان جرح فى
الواقعة التى كانت بالريديانية ، واستمر عليلا من
ذلك الوقت حتى مات هناك ، وكان من فحول
الأمراء وأشجعهم والله غالب على أمره .

وفى يوم الاثنين سادس عشر صفر تزايد فساد
العربان بالشرقية ، وصاروا يقطعون الطريق على
العثمانية ويقتلونهم ويأخذون خيولهم وجمالهم
وسلاحهم ، ونهبوا بلاد عبد الدائم بن أبى
الشوارب وأحرقوها ، ونهبوا عدة بلاد من
الشرقية ، منها قلوب وقلقشندة ، وغير ذلك من
البلاد ، ووصلوا الى شبرى ، وصاروا يعدون من
شبرى الى قنطرة الحاجب . فلمسا تزايد الأمر
أرسل اليهم السلطان سليم شاه تجريدة فيها من
العسكر نحو ألف وخمسمائة عثمانى ، وجعل عليهم
جان بردى الغزالى باشا ، فخرجوا من القاهرة على
حماية وتوجهوا الى الشرقية فأقاموا بها أياما ،
فذهبت العربان من وجوههم وصعدوا الى الجبال
فرجع العسكر ولم يلاقوهم .

وفى أثناء هذا الشهر وردت الأخبار من الصعيد
بأن القضاة الأربعة وبردبك داوآدار الخليفة ، وقاصد
ابن عثمان مصلح الدين الذى كان أرسله معهم ،

وأحمل اليك خراج مصر حسبما يقع الاتفاق عليه
بيننا من المسال الذى أحمله اليك فى كل سنة ،
فارحل عن مصر أنت وعسكرك الى الصالحية ،
وصن دماء المسلمين بيننا ، ولا تدخل فى خطيئة أهل
مصر من كبار وصغار وشيوخ ونساء ، وان كنت
ما ترضى بذلك اخرج ولاقنى فى بر الجزيرة ،
ويعطى الله النصر لمن يشاء منا .

فلما وقف السلطان سليم شاه على مطالعة
السلطان طومان باى ، أرسل خلف أمير المؤمنين
والقضاة الأربعة ، وأحضر جماعة من وزرائه ،
وكتب بحضرتهم صورة حلف الى السلطان طومان
باى ، وكتب ابن عثمان خطه عليها ، ووقع الاتفاق
فى القلعة على أن الخليفة والقضاة الأربعة يتوجهون
الى السلطان طومان باى بذلك الحلف على
أيديهم .

ثم ان ابن عثمان خلع على القضاة الأربعة خلعا
سنية وقال لهم : « انزلوا فى هذا الوقت واعملوا
برقكم حتى تتوجهوا الى طومان باى نحو
الصعيد » . فنزلوا من القلعة على ذلك .

ثم ان الخليفة امتنع من التوجه الى السلطان
طومان باى ، وقال أنا أرسل داوآدارى برد بك الى
طومان باى صحبة القضاة الأربعة . وأشيع أن
المطالعة التى أرسلها طومان باى الى ابن عثمان
ذكر فى ذيلها : « ولا تحسب أنى أرسلت أسألك
فى أمر الصلح عن عجز ، فان معى ثلاثين أميرا
ما بين مقدمى ألف وأربعينيات وعشراوات ، ومعى
من المماليك السلطانية والعربان نحو عشرين ألفا ،
وما أنا بعاجز عن قتالك ، ولكن الصلح أصلح
لصون دماء المسلمين » .

ثم فى عقب ذلك توجهت القضاة الأربعة ،

وجماعة من العثمانيين ، وصلوا الى قريب البهنسا ، فخرج عليهم جماعه من الجراكسة فقتلوا العثمانيه ، وهرب بردبك دوادار الحلينه حتى بجا من القتل ، ونهب جميع ما معه من القماتس ، وغيره . وأتسيع قتل قاضي البهنسا عبد السلام ، ونهبوا ما كان مع القضاة من البرك ، وما سلموا من القتل الا بعد جهد كبير .

فلما بلغ ابن عثمان ذلك اغتاظ غيظا شديدا وتحقق أن السلطان طومان باى قد أبى الصلح بعد أن أرسل يطلب الأمان ، ثم ان ابن عثمان نقل وطاقه من الجزيرة الوسطى الى بركة الحبش . وفي يوم السبت حادى عشرى صفر نزل السلطان سليم شاه من القلعه ومعه الجم الكثير من العساكر ببركة الحبش ، ونوجه المباشرون صحبته ، حتى القاضى كاتب السر ، وأخذ السفائين بجمالهم ، فضج الناس من العطش لأن السلطان ابن عثمان طلب جميع السفائين بجمالهم ورواياهم ليسافروا معه الى الصعيد بسبب السلطان طومان باى ، وان كان يهرب منه الى بلاد الزنج وينبعه ، فوصل ثمن الراوية الماء أربعة أنصاف .

وفي يوم السبت ثامن عشرى صفر أشيع أن أوائل عسكر السلطان طومان باى قد وصل الى نرسه بالقرب من الجيزة ، فرسم ابن عثمان بعسل وحسات على شاطئ البحر بجهة طرا لأجل تعديه العسكر ، وكذلك فى بر مصر العيقه . وفى هذه الأيام امتنع جلب البصائع التى كانت تدخل الى القاهرة من الجبن والسنن والأعنام وغير ذلك من البصائع التى كانت تجلب من الجيزة وبواحيها ، وقلوب وتسبرى وغير ذلك من ابلاد ، واضطربت أحوال القاهرة جدا بسبب اقامة هذه الفتنة .

وفي ربيع الأول ، وكان مستهه يوم الثلاثاء ،

أشيع أن جان بردى الغزالى لما خرج من بلاد الشرقية ، كبس على عدة بلاد منها حين وصل الى التل والزنكلون ، فنهب مافيهما من الأبقار والأغنام والأوز والدجاج ، وأسر نساء الفلاحين وأولادهم الصبيان والبنات ، وصاروا يبيعونهم فى القاهرة بأبخس الأثمان ، كما فعل أقبرى الدوادار فى الأحامدة وأولادهم . فاشتري بعض الناس بتا بأربع أشرفيات وأعتقها ووهبها الى أمها ، وقد رق عليها .

ثم ان جان بردى الغزالى فعل فى الشرقية ما لم يفعله بختنصر لما دخل الى مصر . ثم ان يونس باشا نادى فى القاهرة أن كل من اشترى شيئا من نهب بلاد الشرقية من الأبقار والأغنام يرده على أصحابه ، وكذلك أولاد الفلاحين . ولام الغزالى على فعله ذلك فى الشرقية لوما عنيفا . وقد قيل فى المعنى :

يا دهر بع رتب المعالى مسرعا

بيع الهوان ربحت أم لم تبيع

قدم وأخر من أردت من الورى

مات الذى قد كنت منه تستحي

وفي يوم الأربعاء ثانى ربيع الأول رسم السلطان سليم شاه بأن الأمراء الذين كانوا بالقلعة فى الترسيم يحضرون بين يديه فى الوطاق الذى فى بركة الحبش ، فنزلوا بهم من القلعة : شىء على بغال ، وشىء على حمير ، وشىء مشاة . وهم فى جنازير وعليهم كبوره عتق ، وعلى رعوسهم كوافى بغير شاشات . وقيل كان فيهم من الأمراء المقدمين سبعة ، وهم : أركماس أمير سلاح ، وأنص باى أمير آخور ، وتمر رأس نوبة النوب ، وطقطبای حاجب الحجاب ، وتانى بك الخازندار أحد الأمراء المقدمين ، وتانى بك النجمى أحد الأمراء المقدمين ، وقانصوه أبو سنة أحد الأمراء المقدمين .

جل الذي أفنى عساكر مصرنا
من دولة أتراكها من جركس
وأنت الينا دولة عوجاء من
أولاد عثمان ذوى الفعل المسمى
قتلوا أكابرنا بأيسر حيلة
عملت عليهم لا بأسهام القسى
ياليت شعرى دولة الأتراك هل
تأتى كما كانت ونذكر مانسى؟!

ومن الحوادث أن السلطان سليم شاه لما قتل
هؤلاء الأمراء أرسل فقبض علم نسايمهم ورسم
عليهم ، وأرسلهن الى بيت ناظر الحاص وأشيع
أنه بمصد مصادرتهن ، وقرر عليهم مالا يوردنه .
فأقمى فى بيت ناظر الحاص أياما ، ولم يوردن من
المال شيئا ، فنقلوهن الى بيت الدفتردار فقصد أن
يعاقبهن ، وقبل سجن مهن جماعه فى الحجره حتى
يوردن ما فرر عليهم من المال . ورسم على مباشرى
الأمراء الدين قتلوا حتى يفيسوا حساب اقطاعهم
فأقاموا فى الترسيم مدة .

وفى يوم الأحد سادس ربيع الأول عدى السلطان
سليم باى بر الجيره بسبب قتال الأشرف طومان
باى . وقد بلعه أنه وصل الى المنوات ، ومعه من
العربان والعسكر ومن المساليك الجراكسه الجم
الكثير .

فلما عدى الى بر الجيزة أقام بها الى يوم الخميس
عاشر نهر ربيع الأول ، فتلاقى عسكر ابن عثمان
وعسكر السلطان طومان باى على وردان ، وقيل
على المنوات ، فكان بين الفريقين واقعة لم يسمع
بشئها ، أعظم من الواقعة التى كانت بالريداية .
وقيل كانت هذه الواقعة عند كوم الحمام وانكسر
عسكر ابن عثمان فوق ما مرة ، وطردهم الأتراك

وأما الأمراء الطبلخانات فهم قانى بك رأس نوبة
ثامى ، ومصرباى الأفرع ، وألماس والى القاهره ،
وماماي السعير المحنصب ، ويوسف الأشرفى
الزردكاش الثانى . وآخرون من الأمراء الطبلخانات
لم نحضرنى أساؤهم الآن .

وأما الأمراء العتراوات فجماعة كثيرة لم
تحضرنى أساؤهم . فكان مجموع هؤلاء الأمراء
المقدم ذكرهم أربعة وخمسين أميرا ما بين مقدمى
ألوف وغير ذلك . فلما منلوا بين يدى السلطان
سليم شاه ، وبجهم بالكلام ، تم امر نصرب أعناقهم
أجبعين فضرب أعناقهم فى الوطاق الذى بركة
الحبس ، وذلك فى يوم السبت خامس ربيع الأول .
وصارب أجسادهم مرميه على الأرض تنهتهم
الكلاب بالنهار ، والضباع والذئاب بالليل وصارت
المرأة من ساء الأمراء المقدمين تبرطل المشاعلة
بسال له صورة حتى يسكنوها من نقل جته زوجها
فتحضر له تابونا وحمالين بحملونه من برنة الحبس
الى المدنة ، فتغسله ونكفنه وتدفنه فى ترابه ان
كان له تربة . وتركت جت البشه هناك مرمية
تنهسها الكلاب .

وكانت هذه الكائنه من أعظم الكوائن فى حق
الأمراء . وقد ظهروا بالأمان لابن عثمان ، تم
مغدرهم وقتلهم ، فكان لا يثق أحد له بالأمان ،
وليس له قول ولا فعل .

وفيل كان سبب قتل هؤلاء الأمراء أن السلطان
طومان باى لما قتل قاصد ابن عثمان ، وجماعه من
عسكره الذين توجهوا صحبه الفضاة الأربعة ،
لما طلب طومان باى الأمان من ابن عثمان ، فلما فعل
ذلك طومان باى علم ابن عثمان أنه قد أبى من
الصلح ، فقتل هؤلاء الأمراء ظلما بعد أن أعظامهم
الأمان وكان ذلك من شدة عيظه وحمه وقد قلت
فى هذه الواقعة :

والتفضاة الأربعة والأمراء بالحوش السلطاني ،
والأسمطة التي كانت تعمل في ذلك اليوم ، وما كان
يعطى للمقرئين والفقراء من الشقق والأنعام في تلك
الليلة ، فبطل ذلك جميعه .

وأشيع أن ابن عثمان لما طلع الى القلعة وعرضت
عليه الحواصل التي بها رأى خيمة المولد فباعها
للمغاربة بأربعمائة دينار ، فقطعوها قطعاً وباعوها
للناس سنائر وسفر . وكانت هذه الخيمة من جملة
عجائب الدنيا لم يعمل مثلها قط . قيل ان مصروفها
على الأشرف قايتباي ثلاثون ألف دينار ، وقيل
أكثر من ذلك ، وكانت غاية في التجميل حين تنصب
ليلة المولد الشريف . وكانت كهيئة قاعة ، ولها
أربعة لواوين ، وفوقها قبة بقمرينات ، والكل من
قماش . وكان فيها تقاصيص غريبة ، وفصوص
غريبة ، وصنائح لا يعمل الآن مثلها أبداً ، وكانت
إذا نصبت أيام المولد يحضرون بجماعة من النواتية
نحو خمسمائة انسان حتى ينصبوها في الحوش
السلطاني ، وكانت من جملة شعائر المملكة السلطانية
بالقاهرة ، فابتيعت بأبخس الأنسان ، ولم يعرف
ابن عثمان قيستها ، وفقدتها الملوك من ذلك الوقت ،
وهذه من جملة مساويه التي فعلها بمصر .

وفيه أشيع أن السلطان سليم شاه لما بلغه أن
الدفتردار رسم على نساء الأمراء الذين قتلوا ،
أنكر على الدفتردار ذلك ، وأمر باطلاقهن من
الترسيم ، وأمر ألا يأخذ أحد منهن شيئاً ويترك
لهن ما تأخر عليهن من المال .. فارتفعت له الأصوات
بالدعاء ، ولم يظهر لهذا الكلام تنبجة فبسا بعد ،
واستمرت المصادرات عماله كما كانت بل ازدادت
أضعافاً .

وفيه جاءت الأخبار من البهنسا بأن قاضي القضاة
الحنفى حسام الدين محمود ابن قاصى القصاة عبد
البر بن الشحنة قد قتل هو وأخوه أبوبكر . وكان

الجراسة حتى ألقوا أنفسهم في البحر ، وكانت
الكسرة عليهم أولاً ، وقتل منهم جماعه كثيرة .

ثم بعد ذلك تكاثرت العثمانيه على الأتراك ،
وطرشتهم الرماة بالبندق الرصاص ، فهزمهم
هزيمة منكرة ، ووقع الكسرة على الأتراك ، وولى
السلطان طومان باى مهزوما فوجه الى قرية تسمى
البولة في أعلى تروجه ، وهذه خامس كسرة وقعت
على عسكر مصر . وكان السلطان طومان باى ليس
له سعد في حر كاته ، كلسا رام أن ينتصر على ابن
عثمان ينعكس ، كما يقال في المعنى :

إذا لم يكن سود من الله للفتى

فأول ما يجى عليه اجتهاده

فلما انتصر ابن عثمان على عسكر مصر ، قطع
رءوس المساليك الجراسه ، وقطع رءوس جماعه
كثيرة من العربان الذين كانوا مع السلطان طومان
باى فلما تكامل قطع الرءوس رسم ابن عثمان
باحضار مراكب ، فلما حصرت وضعوا فيها رءوس
الذين قتلوا ، فلما عدوا الى بولاق صعوا مدارى
خشب ، وعلنوا عليها تلك الرءوس ، وحملتها
النوايه على أكتافهم ، ولافتهم الطبول والزمور
ونادوا في القاهرة بالزينة فزينت زينه حافلة ، وشعوا
بتلك الرءوس من البحر الى باب القنطرة ، وطلعوا
بهم على سوق مرجوش ، وشقوا بهم من القاهرة ،
وكان لهم يوم مشهود وفيل كان عدة الرءوس
الذين قتلوا في هذه الواقعة ودخلوا القاهرة نحو
ثمانائة رأس ما بين أترك وعربان وغير ذلك ،
والذين قتلوا هناك وألقوهم في البحر أكثر من
ذلك .

وفي يوم الجمعة حادى عشر ربيع الأول ، كانت
ليلة المولد النبوى ، فلم يشعر به أحد من الناس .
وبطل ما كان يعمل في ليلة المولد من اجتماع العلماء

جددا كل اثنين بدرهم ، وعلبها اسم سليم شاه ، وكانت في عاية الحفة ، فنصرر الناس معها الى الغاية .

وفي اثناء هذا الشهر كانت وفاة صاحبنا الناصري محمد الأشقر شيخ الشيوخ بحاقاه سريافوس ، وكان اصيلا عريفا من ذوى البيوت . وكان والده القاضي محب الدين الأشقر ولي نظارة الجيش . وكتابه السر بالديار المصرية . وكان من أعيان الرؤساء رحمه الله عليه ، مات وله من العسر فوق التساين سنة . وكان عنده لين جانب مع تواضع زائد ، وكان أسير اللول جدا ، كانت أمه جارية حبتيه مسولدة الأشقر .

ومن هنا نرجع الى اخبار السلطان طومان باى فانه لما تلافى مع عسكر ابن عثمان على المنوان وفيل بوردان ، انكسر عسكر السلطان طومان كما تقدم القول على ذلك ، فتوجه طومان باى الى نحو تروجة بالعريسة منهزما ، فلافاه حسن ابن مرعى وشكر ابن أخيه مشايخ البحيرة في ضيعة تسمى البوعه ، فعزما على السلطان طومان باى ليصيفاه . وكان حسن بن مرعى بينه وبين السلطان طومان باى صداقة فديمة ، فركن له السلطان طومان باى ونزل عنده على سبيل الضيافة .

ثم ان السلطان طومان باى أحضر الى حسن بن مرعى وشكر مصحفا شريفا وحلفها عليه ابهما لا يحونانه ، ولا يعدران به ، ولا يدلسان عليه بشىء من الأشياء ، ولا بسبب من أسباب المسك ، ولا يدلان عليه . فحلقا له على المصحف شمع إيمان بمعنى ذلك ، فطاب قلب السلطان طومان باى عند ذلك ونزل عندهما .

فلما استقر عندهما احتاطت به العربان من كل جانب وهو لا يدري بما به المقادير تجرى . ثم انهما

السلطان سليم شاه أرسله مع القضاة الثلاثة الى السلطان طومان باى بالبهسا ، لما أرسل يطلب من ابن عثمان الأمان . فكتب له أمانا وصورة حلف ، وأرسله على يد قاضى القضاة ، وأرسل صاحبهم أميرا من أمرائه ، وجباة من العنمانية . فلما وصلوا هناك لم يوافق السلطان طومان باى على الصلح ، ولم يسكنه الأمراء من ذلك ، وقاروا على جباة ابن عثمان وقتلوه عن آخرهم وقتلوا عبد السلام قاضى البهسا وفضلوا قاضى القضاة محسود بن الشحنة .

ويقال ان سبب قتله أن أخاه أبا بكر كان عنده عرسه وملوحة رفية ، فهدا سباد الناس المور ، فزعوا أنه عمز على شخص من المماليك الجراكسة كان مختفيا في مكان ، فدل العنسانه عليه ، فهجموا على ذلك المملوك وفضعوا رأسه .

فلما سافر قاضى القضاة محسود بن الشحنة الى السلطان طومان باى بسبب الأمان الذى أرسله اليه ابن عثمان ، سافر أبو بكر صحبة أخيه محسود الى البهسا ، فثارت الجراكسة على جماعة ابن عثمان فقتلوه هناك ، فكان للمملوك الذى قتل أخ هناك فغمره بعض المماليك على أبى بكر وقالوا له هذا الذى غمز على أخيك حتى قطعوا رأسه فوثب ذلك المملوك على أبى بكر وفضع رأسه هناك . فنعصب له أخوه محسود بن الشحنة ، فوثبوا عليه فقطعوا رأسه أيضا ، ودفنا هناك .

هذا ما أشيع واستفاض بين الناس من أمرهما . ولما انتصر ابن عثمان على عسكر مصر أقام في بر الجيزة أياما ، وسار من هناك وتفرج على الأهرام وتعجب من بنائها .

وفي يوم الأربعاء سادس عشره نادوا في القاهرة بإبضال الفلوس العتق . وضربوا للناس فلوسا

أرسل إلى السلطان سليم شاه أعلاه به ، فأرسل إليه جماعة من عسكره فقبضوا عليه ، ووضعوه في الحديد ، وتوجهوا به إلى ابن عثمان ، ولما رأى من كان مع السلطان طومان باي من الأمراء والعسكر أنهم قبضوا عليه ، تفرقوا من حوله ، وتشتتوا في البلاد . وتمت الحيلة على السلطان طومان باي ، وخانه حسن بن مرعى بعد أن حافه على المصحف الشريف وركن إليه .

وكان حسن بن مرعى من أعز أصحاب السلطان طومان باي . وله عليه غاية الفضل والمساعدة من أيام السلطان العورى ، وقام بما عليه من المال مرارا ، فلم يذكر له من هذه الأخلاق شيئا ولا آثر فيه الحير . فكان كما قيل في المعنى :

لا تركزن إلى الحريف فماؤه

مستوخم وهوأوه خطاف

يمشى مع الأجسام مشى صديقها

ومن الصديق على الصديق يخاف

فلما أحضروا السلطان طومان باي بين يدي ابن عثمان وهو لا لبس مثل لبس العرب الهوارة ، وعلى رأسه زنط ، وعليه شاش ، وعلى بدنه ملوطة بأكام طوال . فلما وقعت عين ابن عثمان عليه قام له ثم عاتبه ببعض كلمات ، فلما خرجوا به من قدومه توجهوا به إلى خيمة من الخيام ، فأقام بها ، واحتاطت به الأنكشارية بالسيوف لأجل الحفظ به . فأقام هناك أياما وهو بوطاق ابن عثمان ببر انبابه .

وفيه وردت الأخبار إلى القاهرة بمسك السلطان طومان باي ، فصارت طائفة من الناس تكذب بمسبكه ، وطائفة تصدق ذلك . فأقام السلطان طومان باي في الوطاق عند ابن عثمان ، وهو في الحديد إلى يوم الاثنين حادى عشرى ربيع الأول من تلك السنة . وكان ذلك اليوم يوم الخميس ،

وهو يوم قطر النصارى وعيدهم الأكبر . فعدوا بالسلطان طومان باي من بر انبابة إلى بولاق ، وطلعوا به من هناك وهو راكب على الكديش : وهو في الحديد ، وعليه لبس العرب الهوارة كما تقدم . وكانت مدة اقامته في الوطاق على تلك الحالة نحو سبعة عشر يوما . وأشيع أن ابن عثمان تصد أن يرسل طومان باي إلى مكة ولا يقتله ، ثم بدا له بعد ذلك ما سنذكره .

فلما علم ابن عثمان أن الناس لا تصدق بمسك طومان باي ، حنق من ذلك وعدى به إلى بولاق ، فلما طلع إلى بولاق وشق من المقس ، كان فداه نحو أربعمئة عشاني ورماة بالنفط ، فطلع من جهة سوق مرجوش ، وشق من القاهرة ، فجعل يسلم على الناس بطول الطريق . حتى وصل إلى باب زويلة وهو لا يدري ما يفعل به .

فلما أتوا إلى باب زويلة ، أنزلوه عن فرسه وأرخصوا له الجبال ، ووقفت حوله العثمانية بالسيوف مسلولة . فلما تحقق أنه يشنق وقف على أفداه على باب زويلة ، وقال للناس الذين حولته : اقرأوا لى الفاتحة ثلاث مرات . ثم بسط يده وقرأ الفاتحة ثلاث مرات ، وقرأت الناس معه ، ثم قال : للمشاعلى : اعمل شغاك .

فلما وضعوا الحية في رقبتهم ورفعوا الجبل ، انقطع به فسقط على عتبة باب زويلة ، وقيل انقطع به الجبل مرتين ، وهو يقع على الأرض ثم يعلقونه وهو مكشوف الرأس ، وعلى جسده شايه جوخ احمر ، وفوقها ملوطة بيضاء بأكام كبار ، وفي رجليه لباس من جوخ أزرق ... فلما شنق وطلعت ووجه ، صرخت عليه الناس صرخة عظيمة ، وكثر عليه الحزن والأسف . فانه كان شابا حسن الشكل ، كريم الأخلاق ، سنه نحو أربع وأربعين سنة . وكان

وفي اليوم الثالث أنزلوه وأحضروا له تابوتا ،
ووضعوه فيه ، ونوجهوا به الى مدرسة السلطان
الغورى عمه ، ففعلوه وكفنوه ، وصلوا عليه
ودفنوه في الحوش الذي خلف المدرسة ، ومضت
دولته كأنها لم تكن ، وقد قلت من آيات :

لهفى على سلطان مصر كيف قد
ولى وزال كأنه لن نذكره
شقوقه ظلما فوق باب زويلة
ولقد أذافوه الوال الأكبر
يا رب فاعف عن عظامه جرمه
واجعل جنان الحلد رب له قرى

وكان شقيق السلطان طومان باى من غانات سعد
السلطان سليم شاه بن عثمان ولم يسمع بمتل
هذه الواقعة فما تقدم من الزمان أن سلطان
مصر شقيق على باب زويلة قط ، ولم يعهد مثل
هذا ، ومن عهد شاه سوار الذى كلموه على باب
زويلة ، لم يعلق أحد ممن له شهرة طائلة غير
السلطان طومان باى .

ثم ان ابن عثمان لما شقيق طومان باى صفا له
الوقت ، وفعل بعد ذلك أمورا يأتى الكلام عليها .
تم أخذ فى أسباب التوجه الى نحو بلاد
القسطنطينية ، فأشع أنه يجعل بوس باشاه نائبا
عنه بمصر . ثم حلع على شخص من جماعته وقرره
نائب غزة . وخلع على شخص آخر وقرره نائب
القدس . فخرجوا من القاهرة فى أواخر هذا الشهر ،
وقدامهما طبلاان وزمران وجنائب . وخرجوا فى
موكب حافل .

وفي يوم الأربعاء ثالث عشره صنع بعض النقطية
الى السلطان نفطا ، وتوجه به الى وطافه بانباية ،
فأحرقوه فدأمه بالوطاق .

شجاعا بطلا تصدى لقتال ابن عثمان ، وثبت وقت
الحرب بنفسه ، وفنك فى عسكر ابن عثمان ، وقتل
منهم ما لا يحصى ، وكسرهم ثلاث مسرات ، وهو
فى نفر قليل من عسكره . ووقع منه فى الحرب
أمور لم تقع من الأبطال العاترة .

وكان لما سافر عمه السلطان الغورى ، جعله
نائب الغيبة عنه الى أن يحضر من حلب ، فساس
الناس فى غيبة السلطان أحسن سياسة ، وكانت
الناس عنه راضية فى غيبة السلطان ، وكانت القاهرة
فى تلك الأيام فى غاية الأمن من المناسر والحريق
وغير ذلك .

لما مات السلطان الغورى عمه ، وتسلطن
عوضه ، أبطل من المظالم أشياء كثيرة مما كان
يعمل فى أيام الغورى ، ولم يشوش على أحد من
المباشرين فى مدة سلطنته .

ولما وصل ابن عثمان الى الشام وفصد أن يخرج
اليه ، قيل له ان الخزائن خالية من الأموال . فقال
له الأمراء وجماعة المباشرين : « افعل كما فعل
السلطان الغورى ، وحد أجرة الأماكن التى بالقاهرة
سبعة أشهر ، وخذ من الرزق والأقطاعات خراج
سنة » . فلم يسمع لهم شيئا وأبى من ذلك ،
وقال : « ما أجعل هذا مسطرا فى صحيفتى » .

وكان ملكا جايلا قليل الأذى . كثير الخير ،
وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية ثلاثة أشهر
وأربعة عشر يوما ، فانه تسلطن رابع عشر رمضان ،
وانكسر وهرب تاسع عشرى ذى الحجة .

وكان فى هذه المدة فى غاية التبع والنكد ،
وقاسى شدائد ومحضا ، وحروبا وشرورا
وهجاجا... وتشتت فى البلدان ، وآخر الأمر شقيق
على باب زويلة . وأقام ثلاثة أيام وهو معلق حتى
فاحت رائحته .

ومن الحوادث المهمة أنه قد أشيع أن السلطان
سليم شاه ، عول على جماعه من أهل مصر من
أعيانهم يرسلهم الى اسطنبول .

وفي يوم الجمعة خامس عشره آتى السلطان
سليم شاه من ومطافه الذى فى ابابه ، وعدى الى
بولاق وتوجه الى القاهرة ، وشق من باب الخرق ،
ودخل من باب زويلة ، وتوجه من هناك الى الجامع
الأزهر ، وزينت له القاهرة ، فصنى بالأزهر صلاة
الجمعة ، وتصديق هناك بمبلغ له صورة . ثم
توجه الى بولاق من الطريق التى آتى منها ، وكان
فى موكب حافل .

ثم بعد أيام أشيع أنه دخل الى حمام الاستدار
التى ببولاق فأتى من الرملة ولم يشق بولاق .
وكان أهل بولاق زينوا له السوق ، ولما خرج من
الحمام عاد من الطريق التى آتى منها ، وفيل انه
أنعم على الحمامى فى ذلك اليوم بعشرين ديناراً ،
وأعجبه حمام بولاق وشكره ثم عاد الى الوطاق .

ثم ان جماعه من وزراء ابن عثمان وأهل مشورته
جسوا فى المدرسة العورىة ، وشرعوا يطلبون جماعة
من القضاة والشهود والمباشرين ، وأعياد تجار
المغاربة ، وتجار الوراقين ، ونجار الشرب ،
والباسطية ، وجماعة من البزدارية والرسل ، وجماعه
من السوق المتسبين فى البصائير ، وطائفة من
البنائين والتجارين والمرحيين والمبطين والحدادين
وغير ذلك من أرباب الحرف ، حتى تلموا جماعة
من أعيان اليهود فلما تكامل عرضهم فى المدرسة
العورىة عيسوا جماعة منهم أن يسافروا الى
اسطنبول . فكتبوا أساءهم فى فوائهم ، وألزموا
كل واحد منهم بأن يحضره ضامناً لضمنه . فلما
أحضروا لهم الضمان أطلقوهم الى حال سبيلهم .

ويأتى الكلام بعد ذلك فى أمورهم وما نهم لهم فى
هذه الحركة .

وفي يوم الأحد سابع عشره قبض الوالى على
شخص من العماوية ديل انه حطف امرأه من السوق
وزنى بها ، فلما بلغ ابن عثمان ذلك أمر الوالى
أن يقطع رأسه فقطع رأسه فى الحال ، وطاف بها
فى القاهرة وهى على رمح ، نظهر من ابن عثمان
فى ذلك اليوم عادل عظيم لعل أن يعتبر بميه عسكره
ويكفوا عن الأذى .

وفي أثناء ذلك الشهر وقع أن ابن عثمان شرع
فى فك الرخام الذى بالقلعه فى قاعة اليسرى
والدهيشة ، وقاعة البحرة والقصر الكبير ، وغير
ذلك من أماكن بالقلعة ، وفك العواميد السماقية
التى كانت فى الايوان الكبير ، فيل انه قصد أن
ينشئ له مدرسة فى اسطنبول مثل مدارس السلطان
العورى ، فلم تبسر له ذلك .

ثم صار بجيبى بن بكار برك ويأخذ معه جماعة
من المرحمين . فبهجمون قاعات الناس ، ويأخذون
ما فيها من الرخام السماقى والزرزورى الملون .
فأحربوا عدة قاعات من أوقاف المسلمين ويوت
الأمراء فاطمة ، حتى القاعات التى ببولاق ، وقاعات
الشهابى أحمد ناظر الجيش بن ناظر الخاص التى
عنى بركة الرطلى ، وغير ذلك من قاعات المباشرين
والتجار وأبناء الناس ، والمدارس التى فيها الكتب
المقيسة ، فنقلوها عندهم ووضعوا أيديهم عليها ،
ولم يعرفوا الحلال من الحرام .

وفيه نادوا فى القاهرة بإبطال الفلوس العتق
وصربوا الناس فلوساً جديداً خفافاً جداً ، فحسر
الناس الثلث ، ووقف حال الناس بسبب ذلك ...
فصارت البضائع تباع بسعيرين : سعر بالفلوس
العتق ، وسعر بالفلوس الجدد .

وفيه صاروا يقبضون على جماعة من مباشرى
الأمراء ، ويقولون لهم حاسبونا على خراج الأمراء
الدين فتلوا في المعركة .

وفي ربيع الثانى وكان مسهله يوم الأربعاء ،
أشيع أنه قد حضر قاصد من شاه اسمعيل الصفوى
وعلى يده مطالعة لابن عثمان ، فلما قرأها تنكد
وقصد أن يقبض عليه ، فهرب ذلك القاصد من
عند ابن عثمان ، وكان بالمقياس . فلما هرب صاروا
يكبسون بيوت مصر العتيقة ، وبيوت الروضة ،
فلم يحصلوه لا فى البر ولا فى البحر ، فحصل لأهل
مصر المتبعة غاية الضرر من كبس البيوت بسبب
هروب هذا القاصد . فمن الناس من يقول انهم
قبضوا عليه فيما بعد وقطعوا رأسه ، ومنهم من
يقول انهم لم يحصلوه واستمر هاربا .

ومن الحوادث أن شحصا من التجار الأروام
كان له دين على الزينى عبد القادر الملكى وأخيه
أبى بكر بن الملكى ، نحو خمسة آلاف دينار ،
وفيل عشرة آلاف دينار ، فكان كلما طالهما سوفاً
به ومطلاه . وتماديا على ذلك مدة طويلة ،
فشكاهما الى الدفتردار ، فأرسل حلفهما ، فلمسا
حضرا اعترفا لذلك التاجر بالقدر المذكور ، فأمرهما
الدفتردار بأن يدفع له ذلك ، فقالا ما معنا شيء
من المال ، ولكن يصبر حتى يبعث الله لنا بشيء من
المال ، فندفع له حقه . فقال لهما ما بعيت أصبر
عليكما . فحنق منهما الدفتردار وأمر بسجن
عبد القادر وأخيه أبى بكر ، فسجنا فى سجن
الديلم ، وأقاما به أياما حتى سعى لهما الشهابى
أحمد ابن الجيمان وأطلقا من السجن ،
ثم استرضوا ذلك التاجر حتى أفرج عنهما .

وفي أوائل هذا الشهر حضر قاضى القضاة
الشافعى كمال الدين الطويل ، والقاضى الملكى

محيى الدين بن الدميرى ، والقاضى الحنبلى شهاب
الدين الفتوحى ، وكانوا توجهوا الى نحو البها
بسبب الأمان الذى توجهوا به من عند ابن عثمان
الى السلطان طومان باى ، ولم نفذ توجه هؤلاء
القضاة اليه شيئا .

ولما حضر هؤلاء القضاة أخبروا بصحة قتل
قاضى القضاة حسام الدين محمود بن الشحنة
الحنفى وأخيه أبى بكر ، وقد تقدم القول على
سبب قتلها ودفنا هناك .

وفي يوم الاثنين سادسه أشيع أن ابن عثمان
عدى الى المقياس . وكان فى ذلك اليوم رياح
عاصفة فكاد أن يغرق . فلما سلم من الغرق أقام
بالمقياس ونقل وطاقه الى الروضة ومصر العتيقة
ثم ان أمراءه طردوا السكان الذين بالروضا
وبمصر العتيقة ، وسكنوا فى دورهم ، فحصل
للناس الضرر الشامل بسبب ذلك ، فأعجبه المقياس
فأقام به مدة أيام ، وكان وزراؤه يعدون الى
الروضة فى كل يوم وبطالعونه بالأمر التى يفعلونها
فى الناس من خير أو شر .

وفي يوم الثلاثاء سابعه توفيت ابنة الأمير يشبكت
ابن مهدى أمير دوادار ، وهى روجه قابى باى أمير
آخور كبير ، وقاست قبل موتها شدايد ومحنا ،
وصودرت غير ما مرة من السلطان العورى ، ومن
ابن عثمان أيضا ، واستمرت محتفة حتى ماتت .
وكانت من أعبان الستات فى سعة من المال ، وكانت
لا بأس بها .

وفيه خلع السلطان على شحص من العلماء .
يقال له الشيخ شمس الدين بن يس الطرابلسى :
وقرره فى قضاء الحنفية عوضا عن محسود بن
الشحنة بحكم قتله كما تقدم

وفيه وقعت كائنة عظيمة لحوند ابنه المقر آقبردى

الشافعية ، وقد قاسى من العثمانية غاية البهدة من الضرب والصك ، وأزلوه المركب على رعم أنفه ، ومنهم الزينى زين الدين الشرفقاشى ، أحد نواب الحنفية ، والقاضى شمس الدين بن جمال الدين الأثميدى ، أحد نواب الشافعية ، والقاضى بدر الدين البلقينى ، نقيب قاضى القضاة الشافعى ، والقاضى شهاب الدين بن الهيشى ، أحد نواب الحنابلة . والشريف البردينى الحنفى ، وآخرون من نواب القضاة الأربعة .

وخرج فى ذلك اليوم جماعة كثيرة من تجار السرب والورافين ... منهم محمد المسكى الأسود . ومن تجار الباسطية شهاب الدين الخطيب الأسمر ، ومن جبار خان الخليلى وغيره ... وخرج يوسف الذى كان ناظر الأوقاف ، وخرج ابن سفيرة التاجر الذى بمرجوش . ومن تجار الهرامزة وغير ذلك من التجار والأعيان من مشاهير الناس ... فهؤلاء خرجوا فى ذلك اليوم ثم تبعهم طائفة أخرى يأتى الكلام عليها . وكانت هذه الواقعة من أشنع الوقائع المنكرة التى لم يقع لأهل مصر قط مثلها فيما تقدم من الزمان . وهذه عبارة عن أمر المسلمين وتقييمهم الى اسطنبول .

وفى يوم الثلاثاء حادى عشره أشيع بين الناس أن ابن عثمان كان فى أصبحة خانم من الفضة وهو مرصود للمقابلة . وكان يشرك به فسقط من أصبحة فى البحر وهو فى المقياس ، فتأسف عليه غاية الأسف ، وأحضر العطاسين فغضبوا عليه عادة مرات فلم يجدوه فى ذلك المكان . ويقال ان هذا الخاتم كان فى ذخائر أجساد ابن عثمان حتى فقد منه .

وفى أواخر هذا الشهر أرسل ابن عثمان بقول لأمير المؤمنين : « اعمل برقات حتى تسافر الى

الدوادار ، وهى زوجة السلطان طومان باى ، ردلك انه كان عندها جارية يبصاء چركسيه رقاصه ، فهربت من عندها ووجهت الى بعض وزراء ابن عثمان ، فعرفه بمكان حاصل سيدها . فتوجهوا اليه ونقلوا لل ما كان فيه من بنساحب زركتش وعنبر ومغاند سمور ووسى وحياصاب ذهب ولؤلؤ وجوهر مرصع وكوامل ذهب . وغير ذلك من الامتعة الفاخرة ، وأوانى بلور وأوانى فضة ونحاس مكلف بالذهب . وصيى موتى بلازورد ، وغير ذلك . فنقلوا جميع ما كان لها فى الحاصل . فذهب لها أشياء كثيرة بنحو خمسين ألف دينار . وما فتح ابن عثمان بذلك . فصادها وفرر عليها وعلى والدتها بنت العالانى على بن خاص بك عشرين ألف دينار . وقبل أكثر من ذلك الفدر . فحصل لها ولوالدها الضرر الشديد ، وفاسنا شدائد عظيمة ومحننا وبهدة وهديدا بالقتل . وما جرى عليهما خبر .

وفى يوم الجمعة سابع عشره رسم الدفتردار باخراج طائفة من اليهود ممن كان تعين الى السمر الى اسطنبول . فخرجوا فى ذلك اليوم جملة واحدة . فنزلوا فى المراك ووجهوا الى نغر الاسكندرية الى أن مضوا الى اسطنبول ... فأخذوا بساءهم ، أولادهم ومغضه . وفى نفس ذلك خرج طائفة من اليونانيين والمهماسين والنجارين والحدادين والمدحمن والمباظين ، ودمهم البعض من الصارى . وطائفة من الفعلة ، وذلك بسبب المدرسة التى أراد ابن عثمان أن تبنىها باسطنبول مثل مدرسة السلطان العورى . وأشيع أنه أرسل طائفة من المغاربة أيضا تقييم باسطنبول .

وفى يوم السبت ثامن عشره خرج الى السفر لاسطنبول طائفة أخرى من نواب القضاة والتهود فمنهم القاضى شمس الدين الحلبي أحد نواب

سافرون صحته الى ثغر الاسكندرية ، وأشيع
سفره الى هناك

وفي يوم الاثنين رابعه عدى ابن عثمان من
المقباس الى بر مصر العتيقة ، وشق من حمام ابن
طولون وطلع الى القلعة ، ثم عاد من يومه الى
المقباس وأقام به .

ومن الحوادث أن شخصا من بواب الشافعة
قيل عنه انه زوج امرأة من ساء الأتراك لشخص
من العثمانية ، فظهر أنها لم تكمل عدة زوجها الذي
مات ، فدلس ذلك على القاضى الذى زوجها الى
العثماني فلما رفع أمرها الى ابن عثمان احضر
ذلك القاضى ولم يقبل له عدرا ، وبطحه وصربه
ضربا شديدا ، ثم كشف رأسه وألبسه عليها كرشا
من لروش البصر بروتة ، ورببه على حمار
مقلوبا ، وأشهره فى القاهرة ، وكان قبل ذلك
نادى السلطان فى القاهرة بان لا أحد من فضاة
مصر يعمد عقدا لعثماني ، ولا تزوجه بأحد من
ساء الأتراك . وكذلك التسهو . وخرج عليهم فى
ذلك الى العساة ، فلم يسمع به فضاة مصر شيئا
من ذلك ، وصاروا بزواج العثمانية بنساء
الأتراك الذين فتلوا فى الحرب كما تقدم الفول
على ذلك .

وفي يوم الخميس سابع هذا الشهر نزل
السلطان سليم شاه من المقباس فى مراكب هو
وجماعة وفصدوا التوجه الى ثغر الاسكندرية
وفيل كان معه من فرسان عسكره ألف فارس ،
وتوجه يوسف باشا من البر الى تروجة بعسكر
آخر يلاقيه من هناك .

وفي يوم الثلاثاء ثانى عشر جمادى الأولى خرج
أمير المؤمنين المتوكل على الله قاصدا السفر الى

اسطنبول « فلما تحقق الخليفة ذلك اضطربت
أحواله ، وشرع فى عمل برفه وقال سافر أنت
واولاد عمك خليل وصهرك محمد بن خاص بك .
فلما بلغهم ذلك تنكدوا أجمعون .

وفيه نزل ابن عثمان بالرخام الذى فكه من
القلعة ، فوضعه فى صناديق خشب ونزلوا به فى
المراكب لسوجهوا به الى اسطنبول

ومن العجائب أن السلطان العورى ظلم أولاد
ناظر الحاص يوسف ، وأخذ رخام قاعتهم التى
تسمى بنصف الدنيا ، وجعل ذلك الرخام فى فاعة
البيسرية ، فسلط الله تعالى عليه بعد موته ابن
عثمان ، ولم ينتفع به أحد من بعده ، والمجازاة من
جنس العمل . وقد خرج هذا الشهر على الناس
وهم فى أمر مريب مما جرى عليهم من ابن عثمان .

وفي شهر جمادى الأولى ، وكان مستهله يوم
الجمعة ، ففى ذلك اليوم خرج المقر العلانى على
ابن الملك المؤيد أحمد ابن الملك الأشرف انال ،
وكان تعين الى السفر الى اسطنبول ، فخرج فى
ذلك اليوم ، وخرج جماعة من الفقهاء وأعيان
التجار ممن تعين الى اسطنبول ، فمنهم شمس الدين
ابن روق وكان القاضى بدر الدين بن الوقاد
أحد بواب الخنفة تعين الى السفر الى اسطنبول ،
فلما تحقق ذلك اختفى ، وحصل على ثقب الجيش
من الدفتردار ما لا خير فيه ، وبهدله وهم بضربه
لأنه كان ضامنه .

وفي يوم السبت ثانى الشهر ، عرض السلطان
سليم شاه عسكره ببر الجيزة ، وعين منهم جماعة

خرج الى السفر الى اسطنبول الشهابي أحمد ناظر الجينس وابن الجمالى يوسف ناظر الخاص ، وخرج صحبته بدر الدين وأخوه كمال الدين ، وخرج ناصر الدين العزى ويحيى بن الطنساوى موقع الدرج ، وخرج جان بك دوادار طراباى .

وفي يوم الجمعة المقدم ذكره حضر السلطان سليم شاه من ثغر الاسكندرية ، فكانت مدة غيبته في هذه السفرة خمسة عشر يوما ذهابا وايابا ، وفيل انه أقام بثغر الاسكندرية ثلاثة أيام لا غير . ودخل عليه من التقادم من مشايخ العربان بالغربية شىء كثير ما بين خيول وجمال وأبقار وغير ذلك . فلما حضر أتى الى المقياس وشق من جهة الروضة بالمرآك ، فانطلقت له النسوان من الطيقان بالزغاريت .

وفي يوم السبت ثالث عشره عرض يونس باشا الذى قرر نائب السلطنة بمصر عسكر ابن عثمان ذلك اليوم ، وأشيع أن ابن عثمان قد طرقتة الأخبار الرديئة من عند الصفوى وأنه قد زحف على بلاده وملك منها عدة بلاد .

وفي يوم الجمعة تاسع عشرى جمادى الأولى خرج الى السفر الى اسطنبول الشيخ زين العابدين ابن قاضى القضاة الشيخ كمال الدين الشافعى الطويل ، فكثرت عليه الأسف والحزن فانه كان محببا للناس ، وخرج زين الدين البتنولى ناظر المواريث أيضا وآخرون من مباشرى المواريث . وخرج جماعة من الزردكاشية منهم يحيى بن يونس ومحمد العادلى المعروف بابن البدوية وزين الدين بن محمود الأعور وأحمد بن الهوارى وآخرون من صناع الزردخانة . وخرج ابراهيم مصدم الدولة وخرج جماعة من مباشرى الخوشكانة .

اسطنبول ، وخرج صحبته أولاد عمه خليل ، وهما أبو بكر وأحمد ، وخرج صحبته الناصرى محمد ابن الصالنى على بن حاص بان صهر الحليفة ، وخرج السرفى بوس ابن الاتابدى سودون العجيبى ، وآخرون من الأعيان ، فتوجهوا الى بولاق ، ونزوا من هناك فى المراكب لسوجهوا الى ثغر رشيد ، فحصل للناس على فقد أمير المؤمنين من مصر عانة الأسف ، وقالوا قد انقطعت الخلفاء من مصر ، وصارت باسطنبول ... وهذه من الحوادث الميولة .

ثم ان الحليفة عوم من بولاق الى رشيد ، ثم بعد ذلك وردت الأخبار بأن الحليفة قد وصل الى ثغر رشيد ، وأقام به هؤ وجساعه من الدين سافروا ، ثم دخلوا الى ثغر اسكندرية ووجدوا الصهاريج التى بها مشحونة من الماء . فبلغ ملء كل كراز خمسة أنصاف ، وذلك من كثرة الخلق الذين اجتمعوا هناك ، ولا سيما لما دخل اليها عسكر ابن عثمان .

وأشيع أن السلطان سليم شاه لما دخل ثغر الاسكندرية ، رسم بأن الجساعه الدين أبوا من مصر سيجون فى الحانات ، وفى أبراج الاسكندرية الى أن تكاملوا ، ثم سافروا دفعة واحدة . فوضعهم فى الأبراج وساءهم فى الحانات ، ففاسوا مشمة عظيمة بسبب ذلك .

وخرج فى عقب ذلك مقدم المماليك سنبل وسافر الى اسطنبول ونائبه جوهر ، وقيل توجه سنبل الى بيت المقدس من بعد ذلك .

وفي يوم الجمعة ثانى عشرى جمادى الأولى

وفي أثناء هذا الشهر توفي تقي الدين بن الطبري
كاتب السعير بالشون السلطانية ، وكان لا بأس به .

وفي يوم السبت سلخ هذا الشهر طلع ابن ابي
الرداد ببشارة النسل المبارك ، وجاءت القاعدة تمانى
آدرع وست عشرة أصبعا . وكانت القاعدة في العام
الماضي لما أخذ قاع النبل انتتى عشرة دراعا ، حتى
عند ذلك من النوادر العربية

وفي جمادى الآخرة ، وكان مستهله يوم الأحد .
في ذلك اليوم كان أول المناذاة على النبل المبارك
فزيد ثلاث أسابيع ... وفي ذلك اليوم أشيع أن
السلطان سليم شاه خلع على وريره نونس باشا
وهره نائباً عنه بمصر وأعمالها إذا سافر الى بلاده .
فلما تقرر نونس باشا في النيابة بمصر ، وأشيع
سفر ابن عثمان ، ظهر جماعة كثيرة من الممالك
الچراكسة وتزيوا بزى العنمانية ولبسوا الطراير
والقفاطين الحرير ، وصاروا بخالطون العثمانية ،
ويركبون معهم في الأسواق بطول النهار .

وفي يوم الأربعاء رابع هذا الشهر نادى السلطان
في عسكره بأن كل من كان متزوجاً من مصر بامرأة
بطلقها ، والا شتق من غير معاودة فمنهم من طلق
زوجته ومنهم من أباقها في عصمته .

ومن الحوادث أن القاضي بدر الدين بن الوقاد
لما تعين للسفر الى اسطنبول وضمنه نسب الجيش
تخلص واختفى أباماً فغمز عليه فقبضوا عليه من
المكان الذي كان به . فلما أحصروه بين يدي
الدفتردار وبخه بالكلام ، وبطحه على الأرض ،
وهم بضربة حتى شفع فيه بعض الحاضرين ،
وقاسى من البهدة والسب ما لا خير فيه ، وغرم
مالاً له صورة ، وآخر الأمر سافر الى اسطنبول ،
والذى خاف منه قد وقع فيه .

وفي يوم الخميس خامسه ، عدى السلطان سليم
شاه من الروصنة ، وطلع الى الرميلى ، وعرض
عسكره في الميدان الذى تحت القلعة ، وعين منهم
جماعة فسمون بمصر صحبة نونس باشا ، وعين
جماعة يسافرون صحبته ، ورسم للمشاة من
عسكره بأن يسافروا في البحر ، واستمر بعرض
عسكره ثلاثة أيام متوالية

وفي ذلك اليوم خرج حريم ملك الأمراء خابر
بك ، وحريم جان بردى الغزالي ، للاقامة بحلج
الى أن أتى السلطان هناك . وقد فوت الاشاعات
بمصر السلطان عن قريب

وفي يوم الجمعة سادس هذا الشهر ، خرج
جماعة من المباشرين للسفر الى اسطنبول ، منهم
القاضي عبد الكريم أخو الشهابى أحمد بن الجيعان
كاتب الحزائن الشريفة ، وحسرح الناصرى محمد
ابن القاصى صلاح الدين بن الجيعان كاتب الحزائن
أبضاً . وخرج الزينى عبد القادر بن الملكى مستوفى
ديوان الجيس . وخرج شحص من أولاد ابن
البارزى يقال له بهاء الدين ، وخرج محمد المجولى
متهار السلطان الغورى بالطشتخاناه الشريفة ،
وخرج عبد الباسط بن تقي الدين ناظر الزردخانه
وولده زين الدين ، وخرج فى ذلك اليوم بعض
نصارى من كتاب الحزينة . وخرج كمال الدين
بزددار الطرايبية ، وخرج فرج الدين البردى رأس
نوبه حاجب الحجاب ، وخرج فتح الدين بن فحيرة
أحد كتاب المماليك . وخرج جماعة كثيرة من
البزددارية ، والرسل وأرباب الصنائع من كل فن
ممن تعين الى اسطنبول ، وخرج الشهابى أحمد
ابن البدرى وحسن بن الطولونى معلم المعلمين ،
وخرج يحيى شكار دودار ، وشيخ سوق العزل
بدر الدين ، وخرج ابراهيم مقدم الدولة ، وخرج

له أصحاب ، يكون ملكا للسلطان ، ويدخل الى الدحيرة .

ويقرب من هذه الواقعة أن الدفتردار رسم لقاضى القضاة المنفصل علاء الدين بن النقيب أن يتحدث على أوقاف الحرمين الشريفين فاطمة ، ورفع بد قاضى القضاة كمال الدين الطويل التسامى من التحدث على أوقاف الحرمين الشريفين ، فكان أصحاب الأوقاف يعرضون مكاتيبهم على قاضى القضاة علاء الدين ويكتب عليها « عرض » ، ثم يرضون بها الى الدفتردار فخرج مراسيمهم بالافراج عن ذلك . فبقع عليهم كلفة للقاضى علاء الدين ، وكلفة لمراسيم الدفتردار ، وان لم يفعلوا ذلك ، ولم تخرج مراسيم الدفتردار بالافراج عن جهات الأوقاف ، يضع المباشرون والظلمة أيديهم على بلاد الأوقاف ، ويستخرجون منها الخراج ، ويروح ذلك على النظار . وهذا من جملة مساوى ابن عثمان فيما فعله فى أهل مصر من الإنكاد والضرر الشامل لهم .

وفى يوم الجمعة ثالث عشر جمادى الآخرة ، حضر الشرفى يونس النابلسى الاستادار ، وكان قد توجه الى بلاد الشرقية بسبب جمع الخراج من بلاد المقطعين والأتراك والأمراء الذين قتلوا فى المعركة ، فمسح بلاد الشرقية قاطبة وحصل منه غارة الضرر . وضيق على الناس فى أرزاقهم من نساء ورجال ، ووضع يده على خراجهم بغير حق ، وما حصل لأحد منه خير . فكان ، كما يقال فى المعنى : مباشر فى الورى لم تخف سيرته

بين الأنام وما بخشى من الريب تنجو به رجله مما جنت يده
كأنه القط فى خطف وفى هرب
وفى يوم الأحد خامس عشره ، حضر الى

جماعة كثيرة غير هؤلاء فى أوقات متفرقة ، ونزلوا فى المراكب ونوجهوا الى نهر الاسكندرية ، ومن هناك ينوجهون الى اسطنبول . وقبل ان عدده من خرج من أهل مصر الى اسطنبول ألف وثمانمائة انسان ، وقيل دون ذلك .

وقيل ان السلطان سليم شاه لما أخذ من مصر هؤلاء الجماعة أحضر غيرهم من اسطنبول يسيرون بمصر عوضا عن الذين خرجوا منها ، وقيل ان هذه عادة عندهم اذا فتحوا جهة أخذوا من أهلها جماعة يرضون الى بلادهم ، ويحضرون من بلادهم جماعة يقيسون فى تلك المدينة عوضا عن الجماعة الذين أخذوهم .

وفيه نادوا فى القاهرة أن لا عد ولا جارية ولا امرأة ولا صبى أمرد يخرج الى السوق حتى يخرج العسكر العثماني من مصر ، وذلك خوفا عليهم من التركمان أن يخطفوههم ويسافروا بهم .

وفيه توجه السلطان سليم شاه الى بئر البلسان التى بالمطرية وأضافه هناك الناصرى محمد بن الرئيس شمس الدين القوصونى ومد له هناك مدة حافلة ، وكذلك الشيخ دمرdash ، وانشرح ابن عثمان فى ذلك اليوم الى الغابة ، وغسل وجهه من مائها ، وأقام هناك الى ما بعد العصر ، ثم رجع الى الوطاق .

ومن الحوادث فى هذا الشهر أن الدفتردار ضيق على الناس أصحاب الأملاك بسبب أملاكهم ، وبدب الشرفى يوس تقيب الجيش الى ضبط البيوت التى فى القاهرة قاطبة . فصار الناس يعرضون عليه مكاتيبهم ، فالذى يكون من الأعيان يفرج له عن بيته ، ويواسى تقيب الجيش بشيء من الدراهم ، ويكتب على مكتوبه « عرض » . والذى يكون جاريا فى ملك الممالك الجراكسة ، ولم يظهر

عرض ، وكانا في بعض جهات الغربية ، بسبب
استخراج الحراج وعمارة الجسور التي هناك
وفي يوم الخميس تاسع عشره ، توفيت ابنة
السلطان طومان باي ، وكان لها من العمر نحو
عشر سنين ، وكان قد حصل لها طربة على أبيها
لما قتل .

وفي يوم الأحد ثاني عشره اضطربت أحوال
القاهرة ، وصارت الأدراك تقف على أبواب المدينة
ويمسكون الناس من رئيس ووضع ، ويضعونهم
في الجبال حتى من بلوح لهم من القضاة والشهود ،
وما يعلم ما يصنع بهم . فلما طلعوا بهم الى القلعة
أسفرت هذه الواقعة عن أنهم جمعوا الناس
ليسحبوا المكاحل النحاس الكبار التي كانت
بالقلعة ، وبنزلوها الى شاطئ البحر ، ثم وضعوها
في المراكب ، وبعثوا بها الى اسطنبول .

وكان جبل ذلك بدمه نزلوا ناعمودين السماقي
اللذين قلعهما من الابوان الذي بالقلعة ، فارتجت
لهما الصلبة لما نزلوا بهما من القلعة . وقامى
الناس في سحبهما عاه المشقة ، وحصل لهم بهدنة
من الضرب والصك وخطف العمائم والشدود تم
في غيب ذلك نزلوا بالمكاحل من القلعة وصاروا
يربطون الرجال بالجبال في رقابهم ، وسوقونهم
بالضرب الشديد على ظهورهم ، ولو كانوا من
أعيان الناس . فحصل للناس بسبب ذلك ما لا خير
فيه .

وفي يوم الخميس سادس عشره رسم السلطان
سليم شاه باحضار ألف رأس من الغنم ، ومائة
جمل ومائة بقرة ، فلما حضرت بين يديه أمر أن
تفرق قربانا على مجاورى الجوامع والمساجد
والزوايا ومزارات الصالحين التي بالقرافة وغيرها
من المزارات المشهورة ، حتى على أبواب ترب

الأبواب الشريفة ابن السيد الشريف بركات أمير
مكة ، وكان سبب حضوره أنه أتى ليهنيء ابن عثمان
بمملكة مصر ، وأحضر صحبته تقسام فاخرة ،
وحضر صحبته بيردى بن كسباى أحمد الأمراء
العشراوات الذي كان باش المجاورين بمكة ،
وحضر قراكر الذي كان محتسبا بمكة . فلما حضر
أشيع بين الناس أن حسين نائب جدة قد قتل على
يد الرئيس سلمان العثماني ، وقيل انه أعرفه في
البحر . وكان حسين قد ظلم وجار على أهل مكة
وجدة ، وجدد مظالم في أيام السلطان الغورى ،
وكان من المفسدين في الأرض ، فقتل كما تقدم ،
وكان غير محب لأهل جدة ومكة .

ومن الحوادث أن النيل المبارك نوقف في أثناء
الزيادة واستمر في التوقف ستة أيام ، فقلق الناس
لذلك ، وزاد سعر القمح ، وتشحطت سائر الغلال ،
واضطربت الأحوال جدا . ثم بعد ذلك زاد النيل
المبارك أصعبا واحدة فسكن الحال . فلما .

وفي يوم الاثنين سادس عشره ، حضر جماعة من
المباشرين الذين كانوا قد توجهوا الى الغربية
والمنوبة والمحطة ... فحضر ابو البقاء ناظر
الأسطبل ، وبركات أخو شرف الدين الصغير ،
ويحيى بن الطنساوى وآخرون من المباشرين .

وفي يوم الثلاثاء سابع عشره أشيع أن بيردى
باش المجاورين وقراكر المحتسب والماليك الذين
حضروا صحبتهما من مكة يريد قتلهم ابن عثمان ،
فشفع فيهم ابن الشريف بركات من القتل ، فرسم
أن بتوجهوا الى اسطنبول ، فخرجوا في ذلك
ونزلوا في المراكب ، وتوجهوا الى ثغر الاسكندرية
ومن هناك توجهوا الى اسطنبول .

وفي يوم الأربعاء ثامن عشره ، حضر الزينى
بركات بن موسى المحتسب ، وحضر فخر الدين بن

وسافر من البحر المالح وتوجه الى المدينة الشريفة من ينبع ، وكان من قديم الزمان لايلي مشيخة الحرم الا الطواشية .

وفيه أشيع أن السلطان سليم شاه لما كان بالمقياس ، أحضر في بعض الليالي خيال الظل ، فلما جلس للفرجة قيل ان المخايل صنع صفة باب زويلة وصفه السلطان طومان باي لما شنق عليها ، وقطع به الحبل مرتين ، فانشرح ابن عثمان لذلك ، وأنعم على المخايل في تلك الليلة بشمانين دينارا ، وخلع عليه فقطانا مخطلا مذهبا ، وقال له اذا سافرنا الى اسطنبول فامض معنا حتى يتفرج ابني على ذلك .

وفيه أشيع أن السلطان سليم شاه أنشأ له قصرا من حاسب بالمقياس فوق القصر الذي أنشأه السلطان العورى فوق بسطة المقياس ، وصار يجلس به في اليوم الحر ، وأحضر جباة من النجارين والبنائين وشرع في بنائه حتى درغ في أسر مدة . وقد قلت في ذلك :

لو علم العورى أن قصره
يسكن للمظفر المؤيد
أضرم فيه النار من يومه
ولم بدع في جدره جلمد
* * *

وفي رجب وكان مستهله يوم الاثنين ، في يوم الأربعاء تالته ، توفي القاضي رضى الدين الحلبي الموقع ، وكان شابا حسن الشكل والهيئة . وكان من أخصاء القاضي كاتب السر محمود ابن آجا ، وكان من أعيان الموقعين ، وكان من جملة أصحابنا رحمة الله عليه . وكان له مدة وهو متسوعك في جسده ، وكان تعين الى سفر اسطنبول فمرض عقيب ذلك . فدخل انكشارى من العثمانية فرآه مريضا ، فقال له اخرج في هذا اليوم وسافر . فقال

السلطين المتقدمين . ففرقوا ذلك جميعه وصاروا يذبجون الغنم والبقر والجمال على أبواب الجوامع والمساجد والزوايا ويفرقونها على المجاورين الذين بها وقبل ان سبب ذلك أن لهم عادة في بلادهم اذا حلت الشمس في برج الأسد يفرقون هذا القربان على مجاورى الجوامع والمساجد والزوايا ، ويفرقونها على المجاورين الذين في بلادهم قاطبة ، ففعل مثل ذلك بمصر .

وفيه أشيع أن السلطان سليم شاه نزل في مركب وتوجه نحو الآثار الشريف ، فمام عليه ربح عاصف فاقبلت به المركب في البحر ، فكاد أن يعرق ، وأغمى عليه وما بقى من موته شيء ، وقيل انه كان سكران لا يعى ، فكان في أجله فسجدة حتى عاش الى اليوم .

ومن الحوادث في هذا الشهر أن الخليفة لما سافر الى اسطنبول أخرجوا عنه نظر مشهد السيدة نفيسة رضى الله عنها ، وكان ذلك بيد الحلفاء من قديم الزمان ، وكان من جملة تعظيمهم . وكان يحصل لهم من هذه الجهة غاية الخير من التسوع والزيت ، وكان يحصل لهم في كل يوم من الصندوق الذى تحت رأس السيدة نفيسة مبلغ له صورة من النذور التى كانت تدخل عليهم ، فخرج ذلك كله عنه ، وحصل للخليفة بعفوب والد المتوكل على الله غاية الضرر بسبب ذلك ، وشنق عليه ذلك ، ولم يفده من ذلك شيء .

وفي أثناء هذا الشهر ، خرج الشرفى يحيى بن البردينى الذى كان ولى قضاء القضاة في دولة الأشرف طومان باي ، ولما رأى الأحوال مضطربة وبعثوا أعيان الناس الى اسطنبول ، سعى بسال له صورة حتى قرر في مشيخة الحرم الشريف النبوى ، كما كان جاهين الجمالى . فخرج من هذا الشهر

له لا أستطيع القيام ، فحمله العثماني بالنطح الذي تحته ، وأراد أن يخرج من الباب ، فدخلوا عليه ودفعوا له سبع أشرفيات حتى تركه ومضى . فمات تلك الليلة من الرجفة التي حصلت له .

وفي يوم الخميس رابعه خرج الى السفر ابن السيد الشريف بركات أمير مكة ، فتوجه الى وطاقه الذي بالريديانية ، فكان له موكب حافل ، وخلع عليه السلطان ققطان تماسيح مذهب ، وفدامه الرماة بالنفط . وخرج صحبته غالب الحجازيين الذين كانوا بالقاهرة ، وقد أشار عليه السلطان بأن الحجازيين الذين بالقاهرة تخرج صحبته الى اسطنبول .

وأشيع أن السلطان سليم شاه كتب مراسيم للسيد الشريف بركات أمير مكة بأن يكون عوضا عن الباشا الذي بها ، وجعله هو المتصرف في أمر مكة قاطبة . وأضاف له نظر الحسبة بمكة أيضا ، وأنصفه غاية الانصاف . وتزايدت عظمة السيد بركات الشريف الى الغاية ، وأكرم ولده غاية الاكرام .

وفيه ترافع جماعة من المباشرين مع بعضهم ، وانتبذ الى عمل حسابهم الزينى بركات بن موسى ، وألزمهم بالعود الى البلاد ثانيا ليغلقوا ما كان يقى عليهم من الخراج في البلاد ، فانهم كانوا أرسلوا خلفهم بالاستعجال الى سفر اسطنبول .

وفي أثناء هذا الشهر توفي القاضي ناصر الدين محمد بن العمري ، موقع الأمير يشيك الدوادار ، وكان من المعمرين في الأرض .

ومن الحوادث أن الدفتردار أوقف المناشير التي في يد أولاد الناس بسبب اقطاعاتهم ، ولم يمض غير الأوقاف والرزق التي بالمسكاتيب ، والمربعات الجيشية فقط . فحصل لأولاد الناس غاية الضرر

بسبب ذلك ، ووضع المباشرون أبدتهم على حراجهم ، وراح عليهم الحراج في هذه السنة بين الفلاحين والمباشرين .

وفي يوم الأربعاء عاشر رجب حضر شيخ العرب أحمد بن بقر ، وقد أرسل اليه ابن عثمان أمانا بالحضور ، فحضر وقابل يونس باشا وبفيئة الوزراء ، وكان له مدة وهو عاص في وادي العباسة ، ومعه جماعة من الماليك الجراكسة ، وكان يحسن اليهم بالعليق وغير ذلك من القوت . وفي يوم السبت ثالث عشر رجب ، الموافق ثامن مسرى من الشهور القبطية ، أظلم الجو ظلمة شديدة ، وأمطرت السماء مطرا غزيرا حتى توحدت منه الأرض والأسواق . وكانت الشمس في برج الأسد ، فتعجب الناس غاية العجب من كون المطر جاء في غير أوانه ، وكان قد بقى على ميعاد الوفاء أربع وستون أصبعا ، والنيل في قوة الزيادة ، فخشى الناس على النيل من النقص ، وأشيع كسوف الشمس في ذلك اليوم .

وفي يوم الثلاثاء سادس عشره تحول السلطان سليم شاه من المقياس ، وأتى الى بيت الأشرف قايتباي الذي خلف حمام الفارقاني المطل على بركة الفيح ، فأقام به ، فتعجب الناس لذلك كيف ترك المقياس في ليالي الوفاء وسكن في هذا المكان الذي بين الدروب ، فاختلف الناس في الأقوال بسبب ذلك ، ولم يعلم ما سبب تحوله من المقياس الى هذا المكان مع وجود كثرة رغبته في اقامته بالمقياس . فلما سكن في ذلك المكان طفشت عساكره في بيوت الناس التي حول الصليبية وأعمالها ، وطردها أصحابها منها وسكنوها ، فحصل للناس الضرر الشامل بسبب ذلك .

وفي يوم الخميس خامس عشره طلع ابن عثمان الى القلعة ودخل الى الحمام الذي بها بالبحرة ، ثم

من فضل الله تعالى على عباده . فلما كان يوم الاثنين
ناسع عشرى رجب الموافق لرايح عشرى مسرى
فتح السد وجرى الماء في الخليج الحماكمى
والناصرى ، وقد قيل فى المعنى :

عجبت لئيل مسر حين وفى
على جور الأنام العاديات

فخضنا فى حديث النيل لكن
مزجناه بأوصاف الفرات

وكان الذى فتح السد فى ذلك اليوم يونس
باشا نائب السلطنة ، فلم يكن ليوم الوفاء بهجة
مثل العادة . وبطل ما كان يعمل فى ذلك اليوم من
الأسطة التى كانت تصنع بالمقياس ، والمجامع
الحلوى ، والمشنات الفاخرة التى كانت تصرف فى
ذلك اليوم . فنزل يونس باشا فى الحراقة السلطانية
وتوجه الى السد وفتحه على العادة . ولكن أين
الشراب من يد المتساول بالنسبة لما كان يعمل يوم
الوفاء بمصر .

ومن الحوادث أنه لما دخل الماء الى بركة الرمللى
سكنت العثمانية فى بيوت الجسر قاطبة . وربطوا
خيولهم فى القواطين المطلة على البركة ، وأخذوا
الأبواب والطيفان والدرابزانات وأوفدوها فى
النار ، وكذلك بيوت المعسطاحى وحكر الشامى ،
وسكنوا فى بيوت الأكاير التى كانت على البركة
قاطبة ، فامتنعت مراكب البياعين من الدخول الى
البركة ، وكذلك المتفرجون . ومنعوا المتفرجين من
الدخول الى الجسر ، وصاروا يهوشون على الناس
بالعصى . وأما الجزيرة الوسطى فانها خرجت عن
آخرها . ولم يبق منها الا الجدر ، ونقل أصحاب
الإملاك ستوف البيوت والأبواب والطيقان ، ولم
سعوا منها غير الجيطان . وأما بركة الأربكية فان

رجع الى بيت الأشراف قايتباى . فقتل اصطفى
عساكره من الصليبي الى باب السلسلة ما بين مشاة
وركاب .

وبه وردت الأخبار من البحيرة بأن حسن بن
مرعى محاصر مع الجويلى . فأرسل لهما السلطان
تجريدة الى البحيرة ، وعين بها ألف عنماى من
عسكره .

ومن الحوادث المهولة أن النيل المبارك توقف
ليالى الوفاء على اصبع واحدة . وكان معنى من
مسرى ثمانية عشر يوما ، فاضطرب أحوال الديار
المصرية بسبب ذلك . ثم أشيع أن النيل قد نقص
أربع أصابع ، واستمر فى ذلك التوقف ستة أيام ،
وقد مضى من مسرى واحد وعشرون يوما ،
فاضطربت الأحوال بسبب ذلك . ولولا خوف
السوقة من ابن عثمان لرفعوا الحيز من الأسواق ،
وكادوا أن ينشئوا علوة عظيمة . وقد توقف النيل
فى هذه السنة مرتين ستة أيام فى آيب وستة أيام
فى مسرى ، ولولا أن الله بعث الزيادة بعد ذلك
لأكل الناس بعضهم بعضا ، وقال التائل فى المعنى :

لو نطق النيل قال قولاً

بشفى به غاية الشفاء

قد كثر الجور فاعذرونى

لما توففت فى الوفاء

فلما كان يوم السبت سابع عشرى رجب ،
الموافق لناى عشرى مسرى . زاد الله فى النسل
المبارك اصبعاً واحدة عن النقص الذى كان نقصه .
ثم فى يوم الأحد ثالث عشرى مسرى القبطى ،
الموافق لثمان عشرى رجب ، زاد النسل ما كان
نقصه ، ووفى ست عشرة ذراعاً واصبعاً من السابعة
عشرة ، وكان النقص أربع أصابع عن الوفاء ، فزاد
النقص وأوفى وزاد اصبعاً من السابعة عشره . وذلك

التركان نصبوا وطاقتهم بها ومنعوا الماء من
الدحول اليها و حربوا غالب بيوتها ، وأخذوا غالب
ما فيها من الأبواب والطبقان وغير ذلك من
الأخشاب

وفي يوم الثلاثاء سلخ شهر رجب أشيع أن حسن
ابن مرعى شيخ عريان البحيرة فد حضر بالأمان ،
وكان قد بهى له ادلال على ابن عثمان ، من حين
تحيل على السلطان طومان باى وقبض عليه . فلما
قابل ابن عثمان قبض عليه وسججه بالبرج الذى
بالقلعة ، وقبض على ابن صقر ، وقبض على ابن
أخى الجويلى ، وسجنهم بالبرج أيضا . وكان
شيخ العرب أحمد بن بفر أتى ليفايل ابن عثمان ،
فلما رأى ما جرى على مشايخ العربان هؤلاء رجع
بعد أن دخل القاهرة ، ومضى الى الشرقيه . وقد
شمت فى حسن بن مرعى كل الناس ، فانه كان
سببا لمسك السلطان طومان باى حتى شتى .
والمحازاة من جنس العمل

وفي آخر هذا الشهر بوفى صاحبنا القاضى
أبو الفتح السراجى أحد بواب الحنفية رحمة الله
عليه ، وكان عالما فاضلا بارعا فى النحو ، وكان له
شعر جيد وألف عدة كتب . وكان من الأفاضل فى
عصره ، عارفا بطريقة صنعة التوقيع ، حسن
العبارة وكان مجلسه يحط جامع ابن طولون
وعاش من العمر ما قارب السبعين سنة ، وكان
حسن الهيئة ، وقلت :

نوحوا على مصر لأمر قد جرى

من حادث عمت مصيسته الورى

زالت عساكرها من الأتراك فى

غمض العيون كأنها سنة الكرى

وأتى اليها عسكر سيماهمو

حلق الذقون ولبس طرطور يرى

وأمرهم بين الورى قد حقرا
لا يعرف الأستاذ من غلمانه
جل الاله مصدقا عما حكى
فى سورة الروم العظيمة أخيرا

قد أوعد الرحمن وعدا صادقا
أن ابن عثمان بلى وكذا جرى
ولاه رب العرش سلطانا على
مصر وهذا الأمر كان مقدر

أين الملوك مصر من ساداتها
مثل الدور تضى وكانت أنورا
يا لهف قلبى للمواكب كنف، لم

تلقى بقلعتها الحزينة عسكرا
لهفى على ذاك النظام وحسنه
ما كان فى الترتيب منه أفجرا
لهفى على ضرب الكرات ولعبها

فى الحوش صارت فى الحضيض الى ورا
لهفى على الشباب والرمح الذى
كانا مع الدبوس بكر عنترا
لهفى على لبس الكلوثة والقبأ

كانا بها التجميل من غير ازدرا
لهفى على تلك التحايف التى
كانت على الأمراء تزهو منظرا
لهفى على لبس الكراف بقندس

بطلت وألغوا كل زنط أحمر
لهفى على المهماز والخف الذى
كانا نهار الحرب أصون للثرا
لهفى على أعياد مصر كيف قد

أفنت تشاريفا بها ومتمسرا
وكدا الكنايش التى قد زخرفت
كانت تشد خيولها عند السرى

وكذا السروج المفرقات بلمعها
كافت كبرق أو كليل أقمرأ
لهفى على الأبواب كنف تكسرت
وخلت أماكنها وصاحبها سرى
لهفى على نهب القماش وبيعه
وبأبخس الأثمان صارت تشتري
وأشيع بيع الخيمة العظمى التى
للمولد النبوى أحسن ما يرى
بيعت بأبخس قيمة عما حكى
يالهدف قلبى كم يزيد تحسرا
لهفى على شبحو وجامعه الذى
قد كان للصلوات مجمع للورى
درست معاملة بحرق صار من
بعد التزخرف والرياضة أغبرا
لهفى على سوق الصليبة كيف قد
أخلت حوانيت به مما جرى
لهفى على فك الرخام ونقله
من كل بيت كان زاه أزهرأ
زالت محاسن مصر من أشياء قد
كانت بها تزهو على كل القرى
لهفى على الأمراء كيف تشتتوا
وخلت منازلهم وعادت مقفرا
لهفى على أترالك مصر اذ غدت
مكسورة وقلوبها لن تجبرا
لهفى على الفرسان كيف تقطعت
أعناقهم بيد العدو اذ افترى
صارت على الطرقات من أجسادهم
رمم حكمت عيد الضحى الأكبرأ
لهفى على ذلك الحریم وهتكه
من بعد صون فى الحریم مخدرا

وتيمت أطفال جند قد غدت
أجسامهم نهش الكلاب على الثرى
قتلوا بأصغر بندق من شأنها
كالم تجرى فى الجسوم ولا ترى
لما تكسرت الجراكسه التى
كانوا بمصر آذلهم رب الورى
لهفى على سلطان مصر كيف فد
ولى وزال كأنه لم يذكرأ
شنتقوه ظلما فوق باب زويلة
ولقد أذاقوه الوبال الأكبرأ
يارب فاعف عن عظامم جرمة
واجعل جنان الخلد رب له قرا
يالهدف قلبى للخليفة كيف قد
طرده عن مصر بجور واقترا
وأذيق من ذل السؤال وفاقه اا
أيدى وأنصاب بما قد أقهرا
وكذا بنو عم له قد أخرجوا
معه لأسطنبول وامتد السرى
وكذاك أبناء الملوك تحيروا
عند الخروج ولم يراعوا الأوقرا
وكذاك أعيان التجار وغيرهم
صارت دموعهمو بمصر أنهرا
لهفى على الشرع الشريف وحكمه
قد كان فى زمن القضاة موقرا
يالهدف قلبى للشهود بمجلس
كانوا بهم تقضى الحوائج للورى
الله أكبر انها لمصيبة
وقعت بمصر ما لها مثل يرى
ولقد وقفت على تواريخ مضت
لم بذكروا فيها بأعجب ما جرى

لهفى على عيش بمصر قد خلت
أمامه كالحلم ولى مدبرا
وأتى من التكدير ما لا مخبر
سمعت به أذن ولا عين ترى
وتوقف النيل السعيد عن الوفا
في هذه الأيام آخر ما جرى
وتزايد الكرب العظيم لأجله
حتى وفى وبه المنادى بشرا
قد كان هذا الانتقام بمصرنا
سبقت به الأقدار كان مصدرا
يأليت شعرى بعد هذا كله
تنفى الهوم وترتجى فرجا نرى
يارب انا بالنبي المصطفى
والأنبياء الكل سادات الورى
نسألك كشفا للأمر بسرعة
واعف عن الأجرام عفوا واغفرا
قد جاد لابن اياس شعر قاله
لكن منه النظم يحكى جوهر
ثم الصلاة على النبي محمد
والآل والأصحاب ممن بشرا
ماماس غصن فى الرياض وغردت
أطياره عند النسيم اذا سرى

وفيه أشيع أن جماعة من العثمالة قتلوا أمرا
من أمراء ابن عثمان وهو نائهم على فراشه ، وكان
صاحب صنجق ، ولم يعلم ما سبب ذلك . وقيل
قبضوا على من فعل ذلك من العثمالية وشنق منهم
جماعة من اجل ذلك

وفيه أشيع أن السلطان سليم شاه بدا له أن
يعزل يونس باشا من نيابة السلطنة بمصر ، ويولى
ملك الأمراء خاير بك عوضا عنه لأمر قد عن له .
ومن الحوادث ، ان ابن عثمان لما سكن فى
بيت الأشرف قايتباى المطل على بركة الفيلى ،
وجرى الماء فى الخليج الحاكمى ، أمر بسد الخليج
من عند قنطرة عمر شاه حتى نملا بركة الفيلى
بسرعة .

وفى يوم الجمعة ثالث شعبان ، أشيع أن ابن
عثمان قوى عزمه على العود الى بلاده ، وحروجه
من مصر ، فعين شخصا من أمرائه يقال له على بك
فى ذلك اليوم ، وصحبته جماعة من العثمانية ،
بسبب اصلاح الآبار فى طريق غزة . وتنظيف
الطرق من الوعر قبل خروج السلطان ، فلما
تحقق عسكره أمر خروجه الى السمر لأسطنبول
شرعوا فى عمل برقههم ، ومشتري أزوادهم ،
فارتجت لهم القاهرة بسبب ذلك

وفى يوم السبت رابع شعبان ، وقعت حادثة
مهولة ... وهى أن السلطان سليم شاه قص على
جماعة من عسكره نحو أربعة وعشرين انسانا ،
وقيل أكثر من ذلك . فلما قبض عليهم رسم بشنق
جماعة منهم فى أماكن مختلفة ، وكلب منهم اثنين
على باب زويلة ، واثنين على باب الصاغة ، واثنين
بين القصرين ، والبقية عند جامع قوصون ، وشيء
فى الصليبية ، وشيء فى قناطر السباع . وأشيع أن
سبب ذلك ان جماعة من الانفشارية قصدوا أن

لهفى على عيش بمصر قد خلت
أمامه كالحلم ولى مدبرا
وأتى من التكدير ما لا مخبر
سمعت به أذن ولا عين ترى
وتوقف النيل السعيد عن الوفا
في هذه الأيام آخر ما جرى
وتزايد الكرب العظيم لأجله
حتى وفى وبه المنادى بشرا
قد كان هذا الانتقام بمصرنا
سبقت به الأقدار كان مصدرا
يأليت شعرى بعد هذا كله
تنفى الهوم وترتجى فرجا نرى
يارب انا بالنبي المصطفى
والأنبياء الكل سادات الورى
نسألك كشفا للأمر بسرعة
واعف عن الأجرام عفوا واغفرا
قد جاد لابن اياس شعر قاله
لكن منه النظم يحكى جوهر
ثم الصلاة على النبي محمد
والآل والأصحاب ممن بشرا
ماماس غصن فى الرياض وغردت
أطياره عند النسيم اذا سرى

وفى أول شعبان المكرم وكان مستهله يوم
الأربعاء ، أشيع أن شيخ العرب أحمد بن بقر لما
رأى أن السلطان سليم شاه قبض على حسن بن
مرعى شيخ عربان البحيرة ، وسجنه بالبرج ، خاف
على نفسه ، وخرج من القاهرة على حين غفلة ،
وتوجه الى جهات الشرقية ، ولاقتسه العربان .
ولو تكاسل يوما واحدا لقبض عليه ابن عثمان
وسجنه ، كما قد فعل بحسن بن مرعى .

بقتلوا ابن عثمان لما كان بالمقياس ، فاستدرك أمره ، وتحول الى بيت السلطان قايتباى الذى خلف حمام الفارقانى ، وصار يقبض على من كان سببا لاشاعة قتله .

وفيه حضر الرئيس سلمان العثماني الذى كان قد توجه صحبة المراكب التى كان أرسلها السلطان الغورى الى الهند .

وفيه أشيع أن الرئيس سلمان هو الذى أغرق حسين نائب جده ، وكان يسير عداوة من أيام الغورى ، فلما مات الغورى وظهر سلمان بحسين قتله على ما قيل . ولما حضر الرئيس سلمان أحضر صحبته جماعة من الفرنج الذين كان أسرهم من بحر الهند ممن كان بعث به ، ويقطع الطريق على مراكب التجار الذين يمرون من هناك .

وأشيع أن الرئيس سلمان ، وحسين نائب جده ، كانا فتحا عدة بلاد بالهند من بلاد الشيخ عامر ، وغنموا منها أموالا جزيلة لا تحصي هم والعسكر الذين نوجهوا صحبتهما في أيام الغورى ، وهم من عسكر الطبقة الخامسة التى كان جدها الغورى في زمانه .

وفي يوم السبت حادى عشر شعبان كان يوم النوروز ، وهو أول السنة القبطية . وفيه أشيع ان ابن عثمان أرسل الى خاير بك الذى قرره في نيابة السلطنة صنجقا ، وتحقق الناس أنه نائب السلطنة عوضا عن يوس باشا ، وكان ابن عثمان قرره في نيابة السلطنة قبل ذلك .

وفيه عرض ابن عثمان عسكره بالميدان الذى تحت القلعة وهم لابسو الزرديات ، وفي أيديهم الرماح والأتراس . وأشيع سفره أواخر الشهر الى اسطنبول

وفي يوم الثلاثاء رابع عشره وقفت جماعة

الوالى على أبواب المدينة ، وصاروا يقبضون على كل من يلوح لهم من العوام وغيرهم ، فاذا قبضوا عليهم يضعونهم في الجبال . وصاروا يقبضون على الناس من شطوط بولاق ، ومن شطوط مصر المتنيقه ، وكذلك يقبضون على جمال السفائين بالروايا التى عليها ، فاضطربت أحوال الناس ، وغلقت الأسواق والدكاكين ، واختفت الناس في البيوت ، وكثر القيل والقال في ذلك فمن الناس من يقول انهم يقبضون عليهم بسبب أنهم بمسكون الحيول الجنائب اذا سافر ابن عثمان ، ومنهم من يقول انهم يقبضون عليهم حتى يسافروا بهم الى اسطنبول في المراكب . فحصل للناس الضرر الشامل بسبب هذا .

وأما سبب مسك جمال السفائين ، فانهم أشاعوا ان ابن عثمان اذا خرج يأخذ معه جمال السفائين بالروايا الى ان يصل الى غزة ، لأجل عدم الماء في الطريق من هنا الى غزة ، فامتنع السفاءون من الخروج في هذه الأيام وعز وجود الماء ، فضجت الناس لذلك ، وأقاموا على ذلك ثلاثة أيام متوالية .

وفيه خرج الوالى الذى كان ابن عثمان فرره في ولاية القاهرة ، فخرج وبرز الى الريدانية الى أن يخرج ابن عثمان .

وفيه أشيع ان ابن عثمان أطلق الجماعة الذين كان قبض عليهم من العوام والفلاحين والسوقة ، وكان أشيع عنهم أنهم يتوجهون بهم الى اسطنبول . وكانوا لما قبضوا عليهم سجنوهم في أماكن متفرقة حتى يكون من أمرهم ما يكون . ثم نادى في القاهرة بأن لا أحد يشوش على أحد من العوام ولا من الفلاحين ، فسكن الاضطراب قليلا ، وفتحت الدكاكين في الأسواق ، وخمدت هذه

الحركة . قيل ان بعض وزراء ابن عثمان شفع عنده في اطلاق الناس الذين سجنوهم كما تقدم . وفي يوم الجمعة سابع عشره توجه السلطان سليم شاه الى الجامع الأزهر وصلى به الجمعة وتصدق في ذلك اليوم بمال له صورة ، ثم شق من القاهرة في موكب ، وكان ذلك آخر مواكبه في القاهرة ، ثم رجع الى المكان الذي كان به .

وفي يوم الاثنين عشيره عرض السلطان سليم شاه كسوة الكعبة الشريفة ، وكسوة ضريح النبي صلى الله عليه وسلم ، وكسوة ضريح سيدنا ابراهيم الخليل عليه السلام ، وصنع للمحمل الشريف كسوة . وقد تباهى في كسوة الكعبة بحلاف العادة ، وتباهى في زركشة البرقع الى الغاية ، وكذلك في ثوب المحمل الشريف ، وما أبقى في ذلك ممكنا .

وفيه أطلق ملك الأمراء خاير بك نائب السلطنة جماعة كثيرة من المماليك الجراكسة الذين كانوا في سجن الديلم فأطلقهم أجمعين ، وكانوا نحو أربعة وخمسين مملوكا ، وقد راج أمر المماليك الجراكسة قليلا .

وفي يوم الأربعاء ثانی عشریه خرج القاضي محب الدين بن أجا — كاتب السر الشريف وصاحب ديوان الانشاء — فخرج هو ونساؤه وعياله وصهره الجمالی يوسف بن الطحان ، فخرجت النساء في محائر وشقائف . فلما خرج القاضي كاتب السر سكن في بيته الذي عند قنطرة سنقر الوزير يوسف البدری .

وفي يوم الخميس ثالث عشرى شعبان خرج وتوجه الى السفر سلطان مصر الملك المظفر سليم شاه بن عثمان ، فخرج من بيت السلطان قايتباي الذي خلف حمام الفارقاني ، وشق من الصليبة

وطلع الى الرميلة ، فخرج في موكب محافل ، وقدامه ملك الأمراء خاير بك نائب حلب ، وجان يردى الغزالي نائب الشام ، وقدام العسكر طبلان ورمزان وعدة جنائب حربية . وكان راكبا على بغلة صفراء عالية — قيل انها من بغال السلطان الغوري كان يركبها في الأسفار — وكان عليه ققطان مخمل أحمر ، وقدامه جماعة من الوزراء ، منهم يونس باشا والدفتردار وبقية الوزراء والأمراء والجم الكثير من عساكره ما بين مشاة وركاب . فطلع من جهة الصور ، ونزل من جهة تربة الأشرف قايتباي ، ووقف هناك وقرأ سورة الفاتحة وأهداها اليه . وكان قدامه جماعة كثيرة من الرماة بالنفوط المرعبة . ثم شق من بين التراب الى تربة العادل التي بالفضاء ، واستمر على ذلك حتى نزل بالوطاق الذي نصبه ببركة الحاج . ولو شق من القاهرة لكان يوما مشهودا ، ولكن خرج على حين غفلة فلم يشعر به أحد من الناس . ولما خرج من بين التراب قسم عسكره فرقتين: فرقة مرت من تحت الجبل الأحمر ، وفرقة من تربة العادل ، ثم تلاقوا على بركة الحاج . ولما وصل الى الوطاق لم ينزل به وتوجه على ظهر الخاتقاء فنزل هناك .

ثم ان ابن عثمان لما رحل من مصر ترك بها من عسكره ، ممن يقيم بالقاهرة عند خاير بك ، نحو خمسة آلاف فارس ، ومن الرماة بالبندق الرصاص نحو خمسمائة رام . وقرر من أمرائه شخصا يقال له خير الدين باشا ، وجعله نائب القلعة ، يقيم بها ولا ينزل الى المدينة .

ومن العجائب أن مصر صارت نياية بعد أن كان سلطان مصر أعظم السلاطين في سائر البلاد قاطبة لأنه خادم الحرمين الشريفين ، وحاوي ملك مصر

الى الشام ، ويخطب فيها باسمه ، وكذلك السكة على الذهب والفضة باسمه ، وكذلك ما حول العراقيين ، وقد وعده الله بذلك .

وفي مدة اقامه ابن عثمان بمصر لم يجلس بقلعة الجبل على سرير الملك جلوسا عاما ، ولا رآه أحد ، ولا أنصف مظلوما من ظالم بل كان مشغوبا ببلدته وسكره واقامته في المقاس بين الصبيان المرء ، ويجعل الحكم لوزرائه بما يختارونه . فكان ابن عثمان لا يظهر الا عند سفك دماء الجراكسة ، وما كان له أمان اذا أعطاه لأحد من الناس ، وليس له قول ولا فعل ، وكلامه ناقض ومنقوض لا ثبت على قول واحد كقول الملوك وعاداتهم في أفعالهم ، وليس له سباط يعرف ، ولا نظام كعادة السلاطين في سباطهم كانت تجلس عليه الخاصكية في كل يوم .

وأما عسكره فكانوا جميعا عيوبهم دنية ، ونفوسهم قذرة ، يأكلون وهم راكبون على خيولهم في الأسواق ، وعندهم عفاشة في أنفسهم زائدة وقلة دين ، يتجاهرون بشرب الخمر في الأسواق بين الناس . ولما جاءهم شهر رمضان كان غالبهم لا يصوم ولا يصلي في الجامع ، ولا صلاة الجمعة الا قليلا منهم ، ولم يكن عندهم أدب ولا حشمة ، وليس لهم نظام يعرف لاهم ولا أمراؤهم ولا وزراؤهم ، وهم همج كالبهائم .

ولما خرج ابن عثمان من مصر ، رسم لابن السلطان الغورى بأن يسافر معه فبرز سنبجه ، وخرج وسافر صحبته . وأشيع أن جان بردى الغزالي لما خرج مع ابن عثمان كان وعده بناية الشام ، بل قيل انه ولاء نيابة طرابلس ونيابة صنف ونيابة غزة ونيابة الرملة وبيت المقدس وجبل

(١) في الاصل : « ولا أنصف ظلما من مظلوم » .

الذى افتخر به فرعون اللعين حيث قال : « أليس لي ملك مصر » وقد تباهى بملك مصر على سائر ممالك الدنيا ، ولكن ابن عثمان هتك حريم مصر ، وما حرج منها حتى غنم أموالها ، وقتل أبطالها ، ويتم أطفالها ، وأسرى رجالها ، وبدد احوالها ، وأظهر احوالها فلم يدخل اليها أحد من الحوارج ، ولا ملكها فظ أحد ، ولا جرى مثل ما جرى عليها من ابن عثمان الا ان كان في زمن بختنصر البابلي ، ففسد جرى عليها من ابن عثمان بعض ما جرى عليها من بختنصر . ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم

وأشيع أن ابن عثمان خرج من مصر ومعه ألف جبل محملة ، ما بين ذهب وفضة ، هدا خارجا عما عنمه من التحف والسلاح والسيى والنحاس والمكفت والحيول والبغال والجمال وغير ذلك ، حتى نقل منها الرخام الفاخر ، وأخذ منها من كل شيء أحسنه ، مما لم يفرح به أباه ولا أجداده من قبله أبدا . وكذلك ما غنمه وزراؤه من الأموال الجزيلة ، وكذلك عسكره ، فانهم غنموا من النهب ما لا يحصى وصار أقل ما فهم أعظم من أمير مائة ومقدم ألف ، مما غنمه من مال وسلاح وحيول وغير ذلك ... فسا رحلوا عن الدار المصرية الا والناس في غابة البلبه .

وفي مدة اقامه ابن عثمان بالقاهرة حصل لأهلها الضرر الشامل ، وبطل منها نحو خمسين صنعة ، وتعطلت منها أصحابها ، ولم يعمل بها في أيامه بمصر . وكانت مدة اقامة ابن عثمان بمصر ثمانية أشهر الا أياما فلانل . ومدة استيلائه على مصر والبلاد الشامية والحلبية من حين قتل الغورى ، واستيلائه على حلب الى خروجه من مصر ، سنة وشهر واحد . وهو مالك من الثغرات الى مصر

الأتراك يقال له كشيخا ، وقرره في ولاية القاهرة وهو مسلوكة .

وفيه خلع ملك الأمراء خاير بك على جماعة من المباشرين وقرره في وظائف سننية : فخلع على الفصاحى ناظر الجيش « علاء الدين ابن الامام » وقرره كاتب السر الشريف ، عوضا عن محمود بن آجا بحكم بوجهه الى السفر كما تقدم ، وقرره ناظر الجيش ايضا عوضا عن الشهابي أحمد ابن ناظر الخاص ، وأبقى علاء الدين في نظارة الخاص مضافة لما بيده من هذه الوظائف . وقيل انه قرره في نظر الكسوة الشريفة ، وجعله أمير ركب المحمل أيضا ، فصار بيده خمس وظائف سنية ، فتضاعفت عظمته فوق ما كان .

وخلع على الزينى بركات بن موسى ، وفسره مدير المملكة ، وناظر الحسبة الشريفة ، وناظر المارستان المنصوري ، وناظر الدخيرة الشريفة ، وغير ذلك من الوظائف . وتزايدت عظمته ، واجتسعت الكلمة فيه ، وصار عزيز مصر في هذه الفترة ، فتوجه الناس الى بابه لقضاء حوائجهم ، وصار هو حاكم البلد ، وقد قلت فيه :

يا نجل موسى عدت بالبركات في
أعلى المراتب حيث كنت وأزيديا
قد كان قطعاً زال عنك ولم تزل
في السعد عسالا على رغم العدا

وخلع على النهابي أحمد بن الجيعان ، وقرره نائب كاتب السر على عادته ، ورسم له بأن يتوجه الى مكة من البحر المالح وكسوة الكعبة بصحبته . وخلع على القاضي شرف الدين الصغير وقرره متحدثا في ديوان الوزارة . وخلع على الشرفي يونس النابلسي وقرره استاذاً العالية وصاحب الديوان المفرد . وخلع على فخر الدين وأخيه

نابلس ولم يول له نيابة الشام ، فشق ذلك عليه ، ثم قرره في نيابة الشام وتوجه اليها صحبته .

وفي يوم السبت خامس عشرية نادى خاير بك بأن المماليك الجراكسة تظهر وعليهم أمان الله تعالى . فظهر منهم الجرم الكثير وهم في أسوأ حال في زى الفلاحين ؛ وعليهم زنوط قرع وبرد سود وهمضان بأكام كبار . فاذا رأهم أحد لا يفرق بينهم وبين الفلاحين .

وفيه وردت الأخبار بأن ابن عثمان قد وصل الى بلبس ، وحصل له توعك في جسده ، فأرسل الى خاير بك يطلب محفة ، فأرسل له خاير بك محفة الى بلبس .

وفي يوم الأحد سادس عشرى شعبان ، طلع المقر السيفى ملك الأمراء خاير بك بن بلباي نائب السلطنة بالديار المصرية الى قلعة الجبل ، فكان له موكب حافل ، وقدامه عدة جنائب بغواشى حرير أصفر ، وقدامه جماعة كثيرة من العثمانية مشاة يرمون بالنقط ، وقدامه الجرم الكثير من عسكر ابن عثمان . فشق من الصليبة بعد طلوع الشمس ، وطلع الى القلعة وأقام بها ... وصارت مصر نيابة بعد أن كانت سلطنة ، وتقلبت الأحوال ، وكثرت الأقوال . وقد قلت في خاير بك لما تولى نيابة السلطنة شعرا وهو :

مصر أضححت في سرور عندما
قد تولى للنيابة خسير بك
فلسان الحال عنها قائل
بالعمرى قد أتانى خير بك

فلما أقام خاير بك بالقلعة ، أرسل خلف البنائين والنجارين والمبلطين ليرموا ما فسد من أماكن القلعة . ثم ان خاير بك خلع على شخص من

شمس الدين كاتب الممالك ، وقررها في التحدث على جهات الذخيرة . وخلق على عبد العظيم الصيرفي وقرره في استنادية الشعير وغير ذلك من الوظائف ... فنزلوا من القلعة وهم بالقفصطين المخمل عوضا عن الخلع ، فخلق على هؤلاء الجماعة في يوم واحد ، وهذا أول تصرف خاير بك في أحوال المملكة .

وفيه أشيع أنه قد عقد لخاير بك على خوند مصر باي زوجة الظاهر قانصوه .

وفيه ظهر الزينى أبو بكر ابن الملكى وكان له مدة وهو مختف ، فلما ظهر خلع عليه خاير بك قفطانا محملا ، وفرره في استيفاء الجيش على عادته

وفي يوم الثلاثاء ، ثامن عشرى شعبان ، حضر الأمير قايتباي الذى كان نائب الكرك ، وكان قد ارسله خاير بك الى ابن عثمان بطالعة من عنده لأجل أن جاعة من عسكره الانكشارية ثاروا على خاير بك ، وقالوا له « رتب لنا جامكية كما كانت تأخذ الممالك الجراكسة ، واجعل لنا لحما وعليقا مثل الجراكسة » فقال لهم : « حتى أرسل أستاذن استاذكم بذلك » .. فأرسل الأمير قايتباي نائب الكرك الى ابن عثمان سبب ذلك . فلما حضر ما علم احد بصادا أجاب ابن عثمان عن تلك المطالعة التى أرسلها بسبب جماعه الانكشارية كما تقدم . فلما حضر قايتباي أشيع أن ابن عثمان لمسا دخل الى الخطارة قطع رأس يونس باشا ، ولا يعلم ما سبب ذلك . وكان يونس باشا أعظم وزرائه ، وكان لطيف الذات وعنده رقة حاشية بخلاف طبع الأتراك . وكان قرره أولا فى أن يكون نائبا عنه بصر ، ثم رجع عن ذلك وقرر خاير بك فى النيابة . وكان يونس باشا مقربا عند ابن عثمان الى الغاية بخلاف بقية الوزراء ، ويقال ان يونس

باشا هو الذى كان سببا لولاية سليم شاه على مملكة الروم دون اخوته ، فما زال يجتهد ويسعى حتى ولاه الروم ، ثم سار معه على ذلك حتى دخل الى مصر وملكها .. ولكن سليم شاه ابن عثمان ليس له صاحب ولا صديق ، ولا أمان منه لأحد من وزرائه ولا من عسكره ، ومن طبعه الرهج والخفة ، ويجب سفك الدماء ولو كان لولده . ويقال انه قتل أباه واخوته لأجل مملكة الروم ، وآخر الأمر قتل يونس باشا لكونه صار له عليه يد قديمة ، وكان يونس باشا يظن أن سليم شاه يرمى له الود القديم ، فكان كما قيل فى المعنى :

ربما يرجو الفتى نفع فتى

خوفه أولى به من أمله

رب من نرجو به دفع الأذى

سوف يأتيك الأذى من قبله

فلما أشيع قتل يونس باشا ، اضطربت القاهرة وغلقت أبواب المدينة من بعد العصر ، وخشوا من هجمة العرب على المدينة ، ثم سكن ذلك الاضطراب قليلا .

وفي شهر رمضان ، وكان أوله يوم الخميس ، فلما كانت ليلة الرؤيا ركب الزينى بركات بن موسى المحتسب من المدرسة المنصورية ، وقدامه الفوائس موقودة والمشاعل كذلك على العادة ، وكان له موكب حافل .

فلما كان صبيحة شهر رمضان ، خلع ملك الأمراء خاير بك على القاضى شرف الدين الصغير وابن موسى ، قفطانين مخملين كما هى عادتهم فى أول شهر رمضان ، ونادوا فى القاهرة بأن لا أحد يحتمى على الزينى بركات ابن موسى ناظر الحسبة الشريفة .

وفي يوم الخميس ، مستهل الشهر ، خلع ملك الأمراء خاير بك على الأمير قايتباي الشهير

بنائب الكرك وقرره في الدوادرية ، وكانت شاعرة
من حين مات الأمير علان الدوادار .

وفي يوم الخميس ثامن شهر رمضان طلعت الى
القلعة خوند مصرباى - وقد تقدم القول بأن ملك
الأمراء خاير بك قد تزوج بها - وطلعت الى القلعة
في ذلك اليوم قبل شروق الشمس وصحبها نساء
كثيرة من نساء أعيان وهن على حمير المكارية .

وفي يوم الجمعة تاسع الشهر أشهروا في القاهرة
أربع نسوة ، وهن على حمير ووجههن ملطخة
بالسواد ، فيل انهن كن يجعن عندهن الأجانب
من الأتراك في شهر رمضان ، ويأتين لهم بالنساء
الأجيبات ، فعمز عليهن ، وأمر خاير بك باشهارهن
على تلك الحالة .

وفي يوم السبت عاشره ظهر الأمير قانصوه
العادلى الذى كان كاشف الشرفه ، وقد أرسل
اليه ملك الأمراء خاير بك مندبل الأمان ، وصحبته
جماعة من المماليك الجراكسة . فلما طلع الى
القلعة ، وقابل خاير بك ، خلع عليه ققطانا مخملا ،
ونزل فسكن في بيت الأمير قانصوه جركس الذى
في حارة السقائين . وأشيع ظهور جماعه من الأمراء
العشراوات .

وفيه قابل شيخ العرب أحمد بن بقر ، وخلع
عليه وعلى ولده بيبرس ، وقد التزما باصلاح
جهات الشرفه ولم نم ذلك . واستمرت أحوال
الشرقية في غاية الفساد من جبد الدانم بن بقر
واخوته .

وفي يوم الاثنين ثانى عشر رمضان - وكان أول
بابه من الشهور القطه - ثبت النيل المبارك على
اربع عشرة أصبعا من تسع عشرة ذراعا ، واستمر
في ثبات الى آخر أيام بابيه ، وشرق غالب بلاد
الصعيد ، وأكثر البلاد العالية التى لا تروى الا

من عشرين ذراعا ، وكان نيلا شحيحا من أوله الى
آخره .

وفيه ظهر أبو البقاء فاطر الأسطبل ، وكان
مختفيا ، فلما ظهر ألبسه خاير بك ققطانا مخملا ،
وأقره على عادته متحدنا على جهات الاسطبل
الخاص .

وفي يوم الاثنين المقدم ذكره ، عرض ملك
الأمراء خاير بك كسوة الكعبة الشريفة والبرقع ،
وكسوة مقام ابراهيم الخليل عليه السلام ، وكسوة
ضريح النبى صلى الله عليه وسلم ، وعدة ستور من
فيل ابن عثمان ، وقد تناهوا في زركشة البرقع ،
وسيج كسوة الكعبة الى الغاية ، بخلاف العادة .

فشقوا بها من القاهرة وقدامهم الأعيان من
المباشرين والجم الكثير من العساكر العثمانية ،
ومن الرماة جماعة كثيرة يرمون بالنفوط ، وكان
ذلك اليوم متسهودا . فلما طلوعوا الى القلعة عرضوا
على خاير بك نائب السلطنة ، تم رجوعوا ثانيا من
حيث جاءوا .

وفي يوم الأربعاء رابع عشر رمضان ، نادى
ملك الأمراء خاير بك ، بأن المماليك الجراكسة
الدين فظهروا بمصر يركبون الحبول ويشترون
السلح ، وكان قبل ذلك نادى في القاهرة لتجار
القبو بأنهم لا يبيعون على المماليك الجراكسة شيئا
من آلة السلح ، فشق ذلك على العثمانية ،
ووقفوا لخاير بك في الحوش ، وكلموه وأرادوا
معه فتح باب الشر ، وقالوا له : « نحن ما يكفيننا
هذا القدر الذى ربته لنا ، وهو ثلاثة أنصاف في
كل يوم ، وكل شىء في السوق عال » . ثم قالوا
له : « رتب لنا جوامك في كل شهر ألفين ، ولحما
وعليقا ، وفرق علينا اقطاعات مثل ما كانت المماليك
الجراكسة » . وأغاظوا عليه في القول ، فقال لهم :

« ليس لي هذا التصرف ، لأنى انه أنا نائب السلطنة ، وهذا لا يكون الا بأمر السلطان ، فهو الذى يفسر عليكم الاقطاعات ، ويجعل لسكنم الجوامك واللحوم والعليق » . فلما سمعوا ذلك منه سبوه سبا قبيحا وهموا بقتله ، فقام ودخل البيت مسرعا ، وأغلق عليه الباب دونهم . فوضع فى ذلك اليوم بعض اضطراب بالقلعة ، وكادت أن تكون فتنة عظيمة . وثاروا على خير الدين الذى جعله السلطان نائب القلعة ، فأغلق باب القلعة واختمها . ثم أشيع أن خاير بك أرسل الى ابن عثمان ساعيا بخبره بما وقع من أمر هذه الحركة ، وعول خاير بك على رد الجواب عن ذلك .

وفى يوم الاحد ثامن عشر رمضان ، نادوا فى القاهرة بأن المسالك الجراكسة الذين طهروا يلبسون الزنوط الحمر والملايط على عادتهم ، ولا يتزويوا بزى العثمانيه ولا يخرجوا الى الطرقات . وسبب ذلك أنه أشيع أن جماعة من الجراكسة يتزويوا بزى العثمانيه ، ويخرجون الى الطرقات . ويحفظون عمامت الناس . وما بلوح لهم من البضائع وغيرها فى حجة العثمانيه . فسأدى خاير بك تلك المناذاة حتى ساء اجراسه من العثمانية ، ولم يقد ذلك شيئا .

وفى يوم الاثنين ناسع عشره خرج الشهابى أحمد ابن الجيعان نائب نائب اسر . ومصلح الدين خارفدار ابن عثمان ، وصحبهما لسود اسعبيه الشريفة وهى محزومة محملة على الجمال ، وأشيع أنها سوجهان بها من البحر المالح الى جملته الى مكة المشرفة ، فلما لهما فى القاهرة موكب حافل ، وكان ذلك اليوم مشهودا ، وخرج صحبتهما ألفا عثمانى وقدامهم طبلان وزمران ورماة بالنفط . وركب قدامهما الأمير قاينباى الدوادار الكبير ، وأعيان المباشرين ، فلما خرجوا من القاهرة رجعت

لهم مصر ، فخرجوا من باب النصر ، وتوجهوا الى الودلاق بالريداقية .

وفى ذلك اليوم ثارت جماعة من العثمانية على الزينى بركات بن موسى المحتسب ، بسبب الفلوس الجدد ، فان ابن عثمان ضرب فلوسا جددا وجعل فيها اسسه ، ورسم للسوفة ونادى لهم بأن يصرف كل ستة عشر جديدا بنصف فضه معاددة . وكانت هذه الفلوس فى غاية الخفة ، فحصل للناس الضرر الشامل بسبب ذلك ، ووقف حالهم وغلقت الدكاكين . فلما جرى ذلك نادى الزينى بركات بن موسى بأن النصف الفضة يصرف بأربعة وعشرين جديدا ، ليعرف الدرهم الفلوس من الدرهم فى المعاملة ، فثارت العثمانية على ابن موسى ، وقالوا له : « هل مات السلطان سليم شاه بن عثمان ، حتى تبطل من مصر معاملته » ؟ وهموا بضربه فنادى فى ذلك اليوم بأن كل شىء على حاله من الفلوس ، كل ستة عشر جديدا بنصف فضة كما كان فى الأول . فأغلقت السوق دكاكينهم ، ورفعوا البضائع ، ووقع فى القاهرة بعض اضطراب .

وأشيع أن خاير بك نائب السلطنة صنع من الخوازيق الحديد عدة ، وأنه بعد العيد يخوزق جماعة من السوق على باب القاهرة ، فلما أشيع ذلك خافت السوق وفتحت الدكاكين ، ومشوا صرف النصف بستة عشر جديدا ، كما كان فى الأول .

وفى يوم الثلاثاء عشرى شهر رمضان ، نزل ملك الأمراء خاير بك من القلعة ، وتوجه الى تربة العادل ليودع مصلح الدين والشهابى أحمد بن الجيعان ، فودعهما ورجع ودخل من باب النصر ، وشق من القاهرة فى موكب حافل ، وقدامه نحو ألفين من العثمانية ، وجماعة مشاة يرمون بالنفط ،

باسمه ، فكان سائر الخطباء يدعون في يوم الجمعة باسمه ، ويقولون : « وانصر اللهم السلطان المنصور المظفر سليم شاه » . وكذلك اسمه على الدنانير والدراهم والفلوس الجدد .

ثم كان مستهل شوال يوم السبت ، فطلع القضاة الأربعة وجماعة من أعيان المباشرين ، فخرج ملك الأمراء خاير بك وصلى صلاة العيد بجامع القلعة . ثم أنه مد مدة حافلة لجماعة من العثمانية ، فنزلوا على ذلك السباط مثل الصفورة ، فلم يبعوا منه غير العظام ، ولم يفضل لعلمان القلعة شيء . وكان خاير بك يظن أن الأمراء الجراكسة الذين ظهروا والخاصكية يطلعون ويحضرون المدة ، فلم يطلع له أحد من هؤلاء ، وخافوا أن تكون مكيدة أو حيلة . وكان هذا اليوم لم يكن عبدا ، بل كان في غابة الخسود في كل نىء .

وفي هذا العيد لم يخلع خاير بك على أحد من قضاة القضاة ، ولا على أحد من المباشرين قاطبة كما كانت العادة القديمة .

وفي يوم الثلاثاء حادى عشره ، نزل ملك الأمراء خاير بك من القلعة ، وتوجه الى نحو البريم على سبيل التنزه ، ونصب له هناك خاما ، وأراد أن يبني على شاطئ البحر ، وأحضر جماعة ممن يقلون السك ، وقصد أن ينسرح في ذلك اليوم هناك ، فصنع له السيد نقيب الأشراف مدة حافلة وأحضرها هناك ، فخرج عليها جماعة من العثمانية في أثناء الطريق ، فخطفوا ذلك الأكل من فريق رءوس الحمالين . فلما بلغ خاير بك ذلك تنكد من العثمانية بسبب هذه الفعل ، ولم يكن له عند العثمانية حرمة ولا وقار ، ولا مراعاة له في سائر الأحوال .

فرجت له القاهرة في ذلك اليوم ، وارتفعت له الأصوات بالدعاء من الناس قاطبة ، وهسدا أول مواكبه بالقاهرة من حين تولى نيابة السلطنة .

ثم في يوم الخميس ثانى عشره ، نزل ملك الأمراء من القلعة ثانيا ، وتوجه الى باب الشعرية ، وزار الشيخ عبد القادر الدشوطى ، وجلس عنده ساعة . فقيل ان الشيخ عبد القادر قال له استوص بالرعية فانك تسأل عن ذلك يوم القامة . فبكى خاير بك ، وقبل يده وخرج من عنده ، وعاد الى القلعة من يومه .

وفي يوم السبت رابع عشرى شهر رمضان ، ظهر الأمير آرزك الناشف أحد الأمراء المقدمين . فلما طلع الى القلعة وقابل ملك الأمراء خاير بك ومنديل الأمان على رأسه ، قام له خاير بك واعتنقه وأجلسه بين يديه . وكان لما طلع القلعة لابسا زى العرب ، وعليه زنت وشاش وملوطة بأكام كبار ، فألبسه خاير بك ققطانا مخملا بتماسيح ، وألبسه عمامة عثمانية . وكان لما قابله معه ستة أنفار ما بين أمراء عشراوات وخاصكية ، فخلع عليهم قفاصين مخملة ونزلوا من القلعة الى أماكن أعدت لهم .

وفي يوم الأربعاء ثامن عشرى شهر رمضان ، ختم صحيح البخارى بالقلعة ، وحضر ملك الأمراء خاير بك والقضاة الأربعة وجماعة من أعيان العلماء والفقهاء وأعيان المباشرين .

فلما انفض المجلس خلع خاير بك على القضاة قفاطين من جوخ أزرق بوجه صوف ، وفرق على الفقهاء والعلماء صررا فيها دراهم ، وكان ختما حافلا . وشتان بين هذا الختم وما كان يعمل في ختم السلاطين الماضية في مثل هذا اليوم .

ولما سافر سليم شاه بن عثمان ، وخرج من مصر ، استمرت الخطبة والسكة عمالة في مصر

وفي ذلك اليوم فتح البريم بحضرة خاير بك ،
وأحد ساعه من الصيادين في مراكب ومعهم
أسماك كثيرة ، فصار القلايون يقلون من هذه
الاسماك ويطعم العسكر الدين بصحبته ، وانشرح
في ذلك اليوم الى الغاية ، وأقام هناك الى ما بعد
العصر ، ثم نزل في مركب وتيق من جهة الروضة ،
وطلع من بر مصر العتيقة الى القلعة .

وفي ذلك اليوم أتبع أنسيع أن السلطان سليم شاه بن
عثمان أرسل مطالعة الى خاير بك على يد ساع ،
فكان من مصسوها انه وصل الى الشام
ودخل اليها ، وزينت له لما دخلها ومن مصسون
تلك المطالعة أن ابن عثمان أرسل يطلب من
خاير بك أربعين ألف أردب شعير وفتح يرسلها له
في مراكب من البحر المالح الى الشام ، فألزم
خاير بك المباشرين بذلك ، فأخذوا في تجهيز ذلك
وارسالة من البحر كما برز الامر .

وفي آثناء هذا الشهر وردت الأخبار من عند
الجماعة الذين خرجوا من مصر وبوجهوا الى
اسطنبول ، بأن مركبا من المراكب التي بوجهوا بها
قد غرقت في البحر المالح ، وغرق للناس فيها جملة
مال ، وغرق فيها أربعمائة انسان ، وفيهم جماعة
من الأعيان الذين خرجوا من مصر ، ولكن لم
يثبت الى الآن أسماء من غرق فيها من الأعيان .
وقد أشيع أنه كان فيها بييردى بن كسباى أحد
الأمراء العشراوات الذى كان باش المجاورين بمكة ،
وحضر صحبة ابن الشريف بركات أمير مكة ، وقد
تقدم القول على ذلك .

وكان بتلك المركب فراكز الجكمى رأس نوبة
عصا ، الذى كان محتسبا بمكة ، وكان بها نحو
أربعين مملوكا ، وكانوا صحبة باش المجاورين ،
وحضروا صحبة ابن الشريف بركات أمير مكة .
وقد تقدم القول على ذلك .

وكان بتلك المركب محمدا بن ابراهيم
النراييتى . الذى كان نافلسر الاوقاف المتعلقة
بالزمامية في أيام السلطان الغورى ، وكان بها غير
هؤلاء جماعة كثيرة من الناس فأشيع غرقهم أجمعين ،
ولكن لم يتأكد القول بذلك الى الآن . وأشيع
غرق جماعة من البزدداريه الدين كانوا خرجوا من
مصر ليتوجهوا الى اسطنبول . وأشيع أن الطاعون
عسال باسطنبول وبها الوخم والغلاء ، وهذا
ما أتبع والله أعلم بصحة ذلك .

وفي يوم السبت خامس عشر سوال ، حضر أمير
من عند ابن عثمان من الشام يقال له الأمير على ،
فيل هو الذى كان واليا بالقاهرة لما كان بها ابن
عثمان ، فخرج الأمير قايتباى الدودار الى ملاقاته ،
فدخل من باب النصر .

وحضر صحبته جماعة كثيرة من العثمانية ،
وجماعة من المساليك المتعلقة بسلوك الأمراء خاير
بك الذين كانوا بحلب . فيل انهم نحو ثلثائة
مملوك ، فأنزلوا هذا القاصد في بيت الأتابكى
سودون العجى الذى فى قنطرة سنقر ، فلم تصح
هذه الاشاعة ، وأنزلوه فى مكان غير ذلك المكان
الذى ذكروه ، فأخبر هذا القاصد بأن ابن عثمان
دخل الى الشام وهو مقيم بها . وقيل انه يشتى
هناك ، وأن أهل الشام فى غاية الضنك والشدة
من عسكره ، لأنهم طردوهم عن بيونهم وسكنوا
بها ، وحصل منهم لأهل الشام الضرر الشامل
أكثر مما حصل لأهل مصر . وأخبر أن الغلاء
بالشام حتى بلغ ثمن العليقة الواحدة ستة أنصاف
ولا توجد .

واختلفت الأقوال فى مجيء هذا القاصد ...
فمن الناس من يقول جاء بسبب استعجال هذا
المغل الذى أرسل يطلبه ابن عثمان ، ومن الناس
من يقول ان ابن عثمان ولاء نيابة الاسكندرية ،

ورك قدامه سائر الأعيان من المباشرين من كبير وصغير ، ثم أتى بعده المحمل وقدامه القضاة الأربعة على العادة

ومن حج في هذه السنة من الأعيان قاضى القضاة محبى الدين المالكي — وهو ابن الدميرى — فألبسه خاير بك قفطانا محملا ، وقرره قاضى المحمل وحج آخسرون من الأعيان لا يحضروا أسماؤهم الآن .

وقد جدد ابن عثمان كسوة المحمل في هذه السنة ، فصنع له كسوة فاخرة كلها زركش ، وكتب عليها اسمه ، ولما شقوا من القساهرة كان لهم يوم مشهود على العادة القديمة . هذا ما كان من ملخص خروج المحمل في ذلك اليوم .

وفي يوم السبت ثانى عشره خلع ملك الأمراء خاير بك على قانصوه العسادل قفطانا محملا بتناسيح ، وقرره كاشف الشرقية كما كان أولا .

وفي يوم الأحد نالت عسريه قبض الوالى على خمسة أنفار من العثمانيه أشيع عنهم أنهم يحفظون العمائم ويعرون الناس في الطرقات ، وأنهم يخطفون النساء والصبيان المرد ، وتزايد منهم الفساد . فلما قبض عليهم ، رسم سنان باشا أحد أمراء ابن عثمان أن يشنقوا على باب زويلة فشنق منهم اثنان على باب زويلة ، وواحد على باب الشعرية . وأما الاثنان فقد شفع فيهما من الشنق في ذلك اليوم فسنجنا

وكانت العثمانية الذين بمصر كثر منهم الأذى في حق أهل مصر من حين رحل ابن عثمان عنهم ، وصاروا لا يسمعون لخاير بك كلامه ، ولا له عليهم حرمة .

وفي يوم الاثنين رابع عشرى شوال توجهت المماليك الجراكسة الى بيت الأمير قايتباى الدوادار

وقيل جاء بسبب غير ذلك . والأقوال في ذلك كثيرة .

وفي يوم الأحد سادس عشره نزل ملك الأمراء خاير بك من القلعة ، وتوجه الى منشييه المهرانى ، بسبب وسق المراكب بالمغل الذى أرسل بطلبه ابن عثمان ، فقبل جهاز من المغل بحو ثلاثين ألف أردب قمحا وشعيرا ، وقيل أكثر من ذلك

وفي يوم الاثنين سابع عشر شوال خرج المحمل الشريف من القاهرة في موكب حافل ، وكان أمير ركب المحمل في تلك السنة القاضى علاء الدين بن الامام ناظر الخاص ، الذى قرر في كتابة السر كما تقدم .

وقد خرج الحاج في هذه السنة ركبا واحدا ، الأول والمحمل معا . وكان الحاج في هذه السنة قليلا جدا خوفا من فساد العربان في الطريق ، لأنه في السنة الماضية — في دولة الأشرف طومان باى — لم يخرج المحمل من القاهرة ، ولم يحج فيها من أهل مصر أحد .

ولما خرج القاضى ناظر الخاص ، طلب طلبا بحريا ، يشتمل على أربعة نوب هجن بأكوار مخمل ، وبعض خيول جنائب عليها بركستوانات فولاذ وكناييش زركش ، وثلاثة خزائن بأغشية حريز أصفر ، ومحفة جوخ أزرق ، وقدامه طبلان وزمران من غير صنجق . وقد احتفل بعمل سنيح حافل بسبب من حج معه من العثمانية في هذه السنة .

ولما شق من القاهرة كان قدامه الأمير قايتباى الدوادار والأمير أرزمك الناشف أحد الأمراء المقدسى الألوف الذى ظهر عن قريب ، والأمير قانصوه العادلى الذى كان كاشف الشرقية ، وكان قدامه جماعة من أمراء ابن عثمان ومن عسكره

هذه الهبة ، واختلط العثمانية مع الجراكسة ، حتى صاروا لا يعرف هذا من هذا الا بشيء واحد وهو أن المماليك الجراكسة تعسرف بذقوبهم ، والعثمانية بغير ذقون . وقد قلت في هذا المعنى مواليا :

امشى مع الدهر قدر الجهد يا غلطان
واخلع تياب المواكب واتبع السلطان

في لبس سقمان أو طرطور أو قفطان
وكن مع القوم في الملبوس والأوطان
وفي يوم الأحد ثامن الشهر ، نزل ملك الأمراء خاير بك من القلعة باكر النهار ، وتوجه الى نحو قبة الأمير يشبك الدوادر التي بالمطرية ، وأقام هناك الى آخر النهار ، ومد في ذلك اليوم مدة حافلة ، واهدت اليه جماعه من المباشرين مجامع حلوى ، ومشنات فاكهة ، وسكر وخرقان شوى ، وأقفاص أوز ودجاج ، وغير ذلك أشياء فاخرة ، على أعناق الحمالين وظهور الدواب ، وكان يوما سلطانيا . ولم يتم حتى وقعت حادثة ... وهى أنه في ذلك اليوم بعد العصر ، نزل جماعة من العربان من نحو الجبل الأحمر ، بالقرب من سبيل علان ، فقطعوا الطريق على جماعة من الفلاحين معهم جمال محملة قمحا وبطيخا ، فأخذوا منهم نحو أربعين جبلا ، وذهبوا بها الى الجبل ، ومضوا بها ولم تنتطح فيها شاتان . فلما بلغ ملك الأمراء ذلك تنكد غاية النكد بسبب ذلك ، فلما ذهبت العرب بالجمال أنى الفلاحون الى ملك الأمراء واستغاثوا بين يديه وبكوا ، فقام من وقته وهو منكدر ، وطلع الى القلعة بعد العصر ، ولم يخرج من يده شيء فى رد الجمال من أيدي العربان الى أصحابها .

وفي يوم الثلاثاء عاشر ذى القعدة حضر الى الأبواب الشريفة شيخ العرب عبد الدائم بن شيخ

بسبب أنه وعد المماليك أنه يصرف لهم جوامك في ذلك اليوم ، فطلع الى القلعة واجتمع بملك الأمراء خاير بك ، وأقام بالقلعة الى قريب الظهر ، والمماليك الجراكسة فى انتظاره على بابها ، فلما نزل قال لهم : « با أغوات شاورت ملك الأمراء عن أمركم ، فقال حتى يجمع المال ، وذنق عليهم الجوامك » . ولم يواعدهم على يوم معين ، فرجعوا من عنده بغير طائل .

وقد صارت المماليك الجراكسة فى غاية الذل من الفقر والعري ، ومنهم من سأل الناس فى رغيغ يقتسات به ، ومنهم من يطوف فى الأسواق يسأل التجار والسوقة فى درهم يشتري به كبشة فول يأكلها ، فسبحان من بعز ويذل . وصاروا يمشون فى الأسواق لا خيول لهم ولا قماش ولا سلاح ولا بيوت تأويهم ، ولا اصطبلات ولا عبيد ولا غلمان ، وقد نظر الله بهم بعين المقت جزاء ما كانوا يعملون ، فسبحان من قهر الجبابرة بعز سلطانه .

وفي يوم الأحد كان مستهل ذى القعدة الحرام ، فطلع القضاة الأربعة الى القلعة ، وهنأوا ملك الأمراء خاير بك نائب السلطنة بالشهر ، وعادوا الى بيوتهم .

وفي يوم الخميس خامسه خلع ملك الأمراء على يوسف البدرى وأعادته الى الوزارة كما كان أولا ، فخلع عليه قفطانا مخملا عوضا عن المتبر . وقد صارت الأمراء الجراكسة الذين ظهروا كلهم بقفطانات مخملة ، وبعضهم بقفطانات جيوخ وطراير جيوخ أسود ، وعليهم عمائم مدورة ، وفى أرجلهم سقمانات جلد فى زى العثمانية ، فصارت الأمراء الجراكسة والمماليك السلطانية كلهم على

من أن جماعة من المباشرين بالديوان المفرد ، منهم يوس النابلسي الأستادار ، ووجر الدين وأخوه أولاد ابن عوص ، وبركات أخو شرف الدين الصعير . وشرف الدين الكبير ، وأبو بكر بن الملكى مسوفى ديوان الجيش ، وبركات بن موسى وعلاء الدين ناظر الحاص . وعبد العظيم أستادار النعير ... فهؤلاء التسعة الرهط الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون ، اتفقوا على أخذ أموال المسلمين ، فاستباحوا أموالهم ودماءهم ، وما ذلك إلا أن غالب البلاد قد شرق فى هذه السنة بسبب خسة النيل . وكان المباشرون !ترموا بتعليق المال الذى على البلاد ، فلما حصل هذا الشراقى صربوا مشوره بين بعضهم وقالوا : « نحن فى العام الماضى أوقفنا اقطاعات أولاد الناس التى بالمناشير ، وأخذنا خراجهم ، وفى هذه السنة أوقفوا الرزق التى بالمربعات الجيشية ، ونضع أيدينا على خراجها فى هذه السنة فى نظير شراقى البلاد » فطلعوا الى ملك الأمراء خير بك ، وعرضوا عليه ذلك وحسنوا له عبارة فى استخراج خراج الرزق فى هذه السنة فى نظير الشراقى ، فقال لهم : « انزلوا افعلوا ذلك » فنزلوا من عنده ، وأطلقوا فى الناس النار ، وأرسلوا العمال بالمراسيم الى البلاد ليستخرجوا منها الأموال من الرزق التى بالمربعات قاطبة ، حتى الرزق الأحباسية ، ولو كانت الرزقة تشتري بمربعة شرفة . فضجت أولاد الناس والنساء الأرامل من هذه الحادثة المهولة ، وحصل الضرر الشامل للأرامل والأبتام . والله تعالى لا يغفل ولا ينام .

وصار الناس يقفون الى ملك الأمراء خير بك ، ويشكون اليه ذلك ، فبقولهم : « أنا أوقفت المناشير والمربعات بأمر الخنكار ابن عثمان » ، فنزلوا من عنده فى أسوأ حال ، وصاروا يسألون

الأستادار بمال يدفعونه له حتى يفرج عن ررهم ، فلا يجيبهم ولا يفصى لهم حاجة .

تم ان فجر الدين بن عوض — لا جزاه الله خيرا — استدرج من الرزق الى خراج بلاد الأوفاف التى كانت بالمكاتبى الترعيه ، فصار يستخرج خراج الأوفاف ويأكله على أصحابه رغما عن أنفسهم ، فحصل للناس فى هذه الحركة غاية الضرر الشامل ، وقد اشتد الأمر على الناس بسبب ذلك ، وكل هذا من المباشرين وأداهم فى حق المسلمين . وقد قلت فى المعنى مواليا :

كان ابن عثمان مذ جا مصر مثل الضئف

رحل وولى علينا كل صاحب حيف

مباشرين يجوروا فى الشتا والصيف

أطراف أقالمهم تفعل مثل فعل السيف

وفى يوم الأحد ثانى عشرى ذى القعدة ، خرج الأمير قايتباى الدوادار ، وعدى الى بر الجيزة ، وخرج صحبته جماعة كثيرة من العثمانية ، ومعهم مكاحل نحاس ومدافع نحاس وعجل ، وقد أشيع أن عدة قبائل من العرب نزلوا على الجيزة فافتتنوا مع عرب عزالة ، وحصل منهم غاية الفساد . فخرج الأمير قايتباى وصحبته تجريدة وعسكر من الجراكسة بسبب العربان وطردهم عن البلاد فخرج وقام فى بر الجيزة الى أن بتكامل العسكر .

وفى يوم الاثنين ثالث عشره ، اجتمع المماليك الجراكسة فى بيت الأمير قايتباى الدوادار — وهو بيت الأتابكى قرقماس الذى عند حوض العقظام — واجتمع القاضى شرف الدين الصغير كاتب المماليك ، ولم يكن الأمير قايتباى الدوادار حاضرا ، بل حضر أخوه جان بك . فأنفقوا على المماليك الجراكسة لكل واحد منهم ألفا درهم .

وفي يوم الجمعة سابع عشره ، حضر الأمير قايتباي الدوادار ، وكان قد خرج باش التجريدة الذي توجهت الى السرب ، وأخبر أنه لم يظفر بحسن ابن مرعي ، ونرافع هو والعربان الى الأودية والجبال . وأشيع أن باش عسكر العثمانية هو الذي أهمل في أمر حسن بن مرعي حتى أخلى من وجه العسكر ، ومضى بجعه ، ودخل الى الأودية والجبال .

وفي آخر هذا الشهر وقع بين القاضي فخر الدين بن عوض ، وبين خشمدم الاشرى مملوك السلطان العورى . الذي كان شاد الشون وهرب ونوجه الى بلاد ابن عثمان ، وكان سببا لانشاء هذه الفتنه بين سليم شاه بن عثمان وبين السلطان العورى . وقد تقدم القول على ذلك . فلما دخل ابن عثمان الى مصر وملكها فرر خشمدم هذا كاشف أسيوط مع منفلوط فلما رحل ابن عثمان عن مصر . وفرر ملك الأمراء خاير بك نائب السلطنة بمصر ، عزل خشمدم من التحدث على أسيوط . فلما حضر خشمدم من أسيوط وفعب بينه وبين فخر الدين بن عوض فتنه بسبب الرزق التي هناك ، فحصل بينهما نشاجر عظيم ، فتشامتا وتسابا سبا فييجا . وقال فخر الدين بن عوض لخشمدم : أنت كنت سببا لوفوع الفتنه بين أستاذنا العورى وبين ابن عثمان ، فتحصل خشمدم من فخر الدين بن عوض ، وشق عليه ذلك .

فلما كان يوم السبت ثامن عشرى دى الحجة ، طلع خشمدم الى القلعة ، ووقف الى ملك الأمراء خاير بك ، وشكا له فخر الدين بن عوض مما قاله في حقه ، فتعصب له جماعة من العثمانية ، وأغلظوا على خاير بك في القول بسبب فخر الدين بن عوض فلما طلع ابن عوض الى القلعة يوم السبت ، وبخه

وصاروا يستوعبونهم طبقة بعد طبقة ، فأنتفخوا عليهم يوم الاثنين ويوم الثلاثاء رابع عشره ، وأنفقوا يوم الأربعاء ويوم الخميس أيضا ، وقصد ظهر من المماليك الجراكسة الجهم الكثير فوق الخمسة آلاف مملوك ، وقد كانوا موزعين في البلاد عند الفلاحين ، وآخرون قد اختفوا في البيوت والحارات ، حتى خمدت الفتنة ثم ظهروا بعد ذلك .

وفي يوم الخميس سادس عشره ، أشيع أن الأمير قايتباي الدوادار ، لما توجه الى بر الجيزه بسبب فساد العربان ، وأقام هناك أياما حتى يتكامل خروج العسكر ، وردت الأخبار بأن العسكر العثماني لما توجهوا الى هناك ، وقع بينهم خلف في بعضهم ، فونبوا على باشهم ، وهو شخص من أمراء ابن عثمان ، وراموا قتله فهرب واستجار بالأمير قايتباي . فلما جرى ذلك أرسل الأمير قايتباي كاتب ملك الأمراء بما جرى من العثمانية في حق باشهم .

ثم أشيع واستفاض بين الناس ، أن حمادا شيخ عربان عزالة قد حصر عند ملك الأمراء خاير بك ، وأخبره أن العربان الذين أتوا الى بر الجيزه ، عدة قبائل لا تحصى ، وأن العسكر الذي أرسله لا يفاوم هذه العربان الكثيره ، فانهم فوق العشرين ألف اسان . ونشأ هذا كله من حسن بن مرعي لما هرب من الحبس ، فانه طاف بالعربان وأنشأ هذا الفساد . ثم قال له : « ان لم تخرج أنت بنفسك ، وتعدى بر الجيزه ، والا فما يقع للعسكر اتفاق بينهم » ، فصلى ملك الأمراء خاير بك صلاة الفجر ، ثم نزل من القلعة وقدامه جماعة كثيرة من الرماة بالنفوط ، والجهم الكثير من العثمانية ، ومعهم سناجق حرير أحمر ... فشق من الصليبه وبوجه الى بولاق ليعدى الى الجيزه .

وأشيع عن كتب الحجاج أن الشهابي أحمد بن الجيعان قد جاور بسكة ، وكذلك مصلح الدين خازندار ابن عثمان ، وغير ذلك من الأعيان ، والذين كانوا بها نزلوا صحبة الحجاج لما اشتد أمر الغلاء بسكة .

انتهى ما أوردناه من حوادث سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة ، وقد خرجت هذه السنة على خير ، وكانت سنة صعبة شديدة على الناس ، كثيرة الحوادث والفتن ، جرت فيها أمور شنيعة لهم تجر في سالف الأزمان ، وقتل فيها جماعة من الأمراء والعسكر والمماليك السلطانية في فتنة ابن عثمان ، وقتل فيها من أهل مصر من ليس له ذنب وراح ظلما . فقتل من الناس مالا يحصى عددهم ، ولعب السيف في أهل مصر سبعة أيام ، وقتل فيها ثلاثة سلاطين وهم : الأشراف الغوري ، والأشرف طومان باي ، والظاهر قانصوه — قتل في البرج بعر الاسكندرية — وتغير فيها ثلاث دول ، وخربت فيها دور كثيرة ، ونهب فيها أموال وقماش لا يحصى . وتيتم فيها أطفال ، وترملت فيها نساء ، وجرت فيها مفاسد كثيرة لم نسمع بمثلا . ولم تقاس أهل مصر شدة أعظم من هذه الا في زمن بختنصر البابلي ، فانه خرب مصر وأحرقها حتى أقامت أربعين سنة خرابا . فكان النيل يطلع ويهبط ، ويفرس على الأرض فلا يجد من يزرع شيئا من أراضيها . وهذا كله بتقدير الله تعالى فنسأل الله تعالى حسن العاقبة ، ورد العاقبة الى خير .

وقد وقفت على كتاب تأليف الشيخ جلال الدين السيوطي رحمة الله عليه ، ذكر فيه « أن في هذا القرن يبدو الحراب في مصر في سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة ، ثم يتزايد الأمر الى سنة خمسين وتسعمائة ، فيقع فيها فناء عظيم ، حتى

خاير بك بالكلام ، وقامت عليه النائرة من أمراء ابن عتسان الدين بسمر ، وقالوا له : « هذا خلى أساده الغوري وهرب من عنده وجاء الى الخنكار وصرار من جسامته ، وأنت نبهله وتشتنه ؟ » ، فقامت البيهنة على ابن عوض بأنه تنتم خستقدم وسبه ، فغضب خاير بك على ابن عوض ، وأمر بوصعه في الحديد ، وأسلمه للوالي ، ورسم له بأن يوسطه ، فقصصد الوالي أن ينزل به من القلعة ليوسطه . فقامت جماعة من المباشرين وندخلوا على خستقدم ، وأصلحوا بينه وبين فخر الدين بن عوض ، فدخل الى ملك الأمراء خاير بك ، وشمع فيه من التوسيط وقاسى ابن عوض في ذلك اليوم غاية البهدة من أمراء ابن عثمان بسبب خستقدم .

وكان ابن عوض مستحفا لذلك ، فانه صار في هذه الأيام من وسائل سوء ، ولا سيما ما فعله في جهات الغربية . ووضع يده على رزق الناس وأوقافهم ، واستخراج حراجهم ، وضاعت على الناس حقوقهم ، وحصل منه الضرر البالغ ، ولا حول ولا قوة الا بالله .

وفي ذلك اليوم حضر هجان بكتب الحاج ، وقد حضر في السابع والعشرين من ذي الحجة ، وأشيع عن كتب الحجاج أن مكة بها غلاء ، وقد وصل الحمل الدقيق الى أربعين ديناراً ، ووصل الأردب القمح الى عشر أشرفيات ، ووصلت البطة الدقيق الى ثلاث أشرفيات . وكذلك اشتد السعر في سائر البضائع والأصناف والغلل . وذكروا أنه مات من الجمال ما لا يحصى ، حتى وصل كراء الموهية الى أربعين ديناراً . وذكروا من هذا النمط أشياء كثيرة ، وأن أمير مكة السيد الشريف نادى في مكة أن لا أحد من الناس يجاور بمكة تلك السنة بسبب الغلاء .

والشيخ شمس الدين الحجازي ، والشيخ شمس الدين بن الآدمي الدمياطي ، والقاضي شمس الدين المفسى العزيزي ، والسيد الشريف الحجار ، والقاضي ولي الدين البتوي ابن الثرمساحي ، والقاضي شمس الدين بن جمال الدين الأتميدى .

ومن نواب السادة الحنفية الشيخ رين الدين الترفناتى ، والسيد الشريف البرديسى ، والشيخ بدر الدين بن الوفاة السعودى ، والشيخ بدر الدين محمد بن الرومى .

ومن نواب السادة المالكية : الشيخ شهاب الدين أحمد بن الفيتى ، والشيخ شهاب الدين الأبنسدى .

ومن نواب السادة الحنابلة : الشيخ شهاب الدين الهيتى ، والشيخ جلال الدين الطنبدى ، والقاضي جمال الدين الحنبلى .

وأما من توجه الى اسطنبول من المباشرين السلطانية فهم : المقر الشهابى أحمد ناظر الجيش ابن ناظر الخاص يوسف ، وابن أخيه بدر الدين ابن كمال الدين ، والجناب الشمسى محمد بن القاضى صلاح الدين بن الجيعان أحد كتاب الخزانة الشريفة ، والقاضى زين الدين عبد القادر الملكى مستوفى ديوان الجيوش المنصورة ، والشمسى محمد البارزى .

ومن كتاب الماليك وغيرهم : شمس الدين محمد بن فخر الدين ، وسعد الدين وفرج وكريم الدين ، وفتح الدين من أولاد ابن فحيرة ، وابن أبى المنصور ، ومحمد بن عبد العظيم ، ومحمى الدين ابن بهاء الدين من أولاد ابن البقرى ، وأبو الحسن ابن الرقيق ، وعبد العظيم بن غالب ، ويحيى بن الطنساوى ، وشهاب الدين بن عبد العظيم ، وعبد العظيم بن تقى الدين ناظر الزردخاناة ، وولده زين الدين ، وتاج الدين أخو عبد الكريم اللادى ،

يفنى من أهل مصر نحو النصف » . وقد ظهرت علامة ذلك فى هذه السنة . ومن أعظم مساوىء ابن عثمان اخراج أعيان الرؤساء بالدار المصرية ، وفتحهم الى اسطنبول ، ونحن نذكر منهم ما تيسر فنقول :

ذكر من توجه فى هذه السنة الى القسطنطينية من أعيان رؤساء الديار المصرية

وهم : مولانا أمير المؤمنين المتوكل على الله ابن المستمسك بالله يعقوب ، وأولاد ابن عمه سيدى خليل ، وهما : أبو بكر وسيدى أحمد ، ثم المقر العلائى على ابن الملك المؤيد أحمد بن الأشرف اينال .

ومن أولاد الأمراء : الشرفى يونس بن الأتابكى سودون العجمى ، والجناب الناصرى محمد بن العلائى على بن خاص بك صهر الأشرف قايتباى . ومن الأمراء ببيردى ابن كسباى الذى كان باش المجاورين بمكة أحد الأمراء العشاوات ، وقرائز الجمكى أحد الأمراء العشاوات ، وقانصوه القيم باش المدنة الشريفة ، وجماعة من المماليك السلطانية الذين كانوا مجاورين بمكة المشرفة ، وجان بك دودار الأمير طراباى .

ومن أولاد الناس : الشهابى أحمد بن البدرى حسن بن الطولونى معلم المعلمين ، ويوسف بن أبى الفرج الذى كان تقيب الجيش ، ويحيى بكار الذى كان دودار الوالى

ومن نواب السادة الشافعية : الشيخ زين العابدين بن قاضى القضاة كمال الدين الطويل ، والشيخ شرف الدين بن دوق ، والشيخ شمس الدين الحلبي والشيخ شمس الدين بن وحيش ، والشيخ لمال الدين بن مظفر . والشيخ بدر الدين البلقينى ، والشيخ برهان الدين الأبناسى ،

وسالم التاجوري ، وسعيد اللبدي ، وأبو سعيد ،
وآخرون لم تحضرني أسماؤهم من المبتدئين
والتجار بأسواق القاهرة وغيرها .

ومن الخدام : مقدم الماليك سنبل العثماني
ونائبه ، وعثمان الرومي ، وشهاب الدين أحمد
الجارحي . فيل مات من الرجفة قبل سفره بإيام .
ومن البزدارية كمال الدين بن بزدار أمير كبير ،
وعبد القادر بن المنقار ، وابن الشيخ محمد ابن
رسلان ، وناصر الدين واسماعيل ومحمد الكاتب ،
وأبو بكر وابن السميني ، ويحيى بن يحيى ،
وبركات بن المبيض ، ومحمد بن الجيعان ، وبركات
النائب ، وسعد الدين بن الجلاق ، ويحيى مقدم
الخاص ، وحسن نائب البرماوي ، والسوهاجي ،
ومحمد قطارة ، ومحمد بن فرو شيخ جهات
الأميرية ، وآخرون ما تحضرني أسماؤهم الآن .
ومن رعوس النوب : فرج بن البرديني وآخرون .
ومن مقدمي السفانين : عبيد وأبو الخير وابن فريخ
النار .

وتوجه الى اسطنبول جماعة من البنائين
والتجارين والحدادين والمرخين والمبلطين والخراطين
والمهندسين والحجارين والفعلاء جماعة كثيرة لم
تحضرني أسماؤهم الآن . وقد زعموا أن الخنكار
ابن عثمان قصد أن ينشئ له مدرسة في اسطنبول
مثل مدرسة السلطان الغوري التي بالشرابشين .
وتوجه الى اسطنبول جماعة من طائفة اليهود
والمسامرية . ومن طائفة النصارى : بانوب الكاتب
بالخزائن الشريفة ، وأبو سعيد ، وأمين الدولة ،
ويوحنا الصغير ، ويوسف بن هبول ، وشيخ
الملكيين الأسكندري وولده ، وآخرون من
النصارى واليهود لم تحضرني أسماؤهم . فيقال ان
جميع من خرج من أهل مصر وتوجه الى اسطنبول
دون الألف انسان ، والله أعلم بحقيقة ذلك . وفيهم

وكمال الدين من أولاد ابن البفري ، وشرف الدين
وعلى المرجوشي ، وأبو يوسف الاستادار ، وابن
الزكي ، ومحمد بن علي كاتب الحزاة ، وأحمد
ابن قريميط ، وعبد القادر بن قريميط ، وأبو
السعادات ، وأفضل الدين المنوفي ، وناصر الدين
العزى الموفع ، وولي الدين ناظر المواريت ، وعامل
المواريت ، وسعد الدين احو علاء الدين ناظر
الخاص ، وبركات المنوفي وسعد الدين المنوفي ،
ومحمد الكوير ناظر الخاص ، وأحمد بن حسو
الطن ، وابن نصر الله ، وكريم الدين سهر عبد
الفتاح ، ومحمد بن أبي غالب ، وصفي الدين بن
الهيضم ، وتاج الدين بن البفري ، وشفيقه بركات
بن سلمان ، وكمال الدين بن الناصري ، وعبد
الرحمن مباشر أمير آخور كبير ، وبدر الدين بن
خازوفسه ورفيقه ، وأبو الفضل مباشر الوالي
ورفيقه ، والعبادي ورفيقه ، وبدر الدين مباشر
الأمير أنتس باي ، وكمال الدين العائق مباشر أمير
آخور كبير ، وآخرون من المباشرين بهم تحضرني
أسماؤهم الآن .

ومن أعيان الناس : المهتار محمد النجولي مهتار
السلطان العوري كان ، والمينار سليمان ، ومحمد
ابن يوسف الذي كان ناظر الأوقاف ، وعلم الدين
جلبي السلطان العوري ، وعلى مقدم الدولة .

ومن الزردكاشية : يحيى بن يوسف ، ومحمد
العادلي الشهير بابن البدويه ، وزين العابدين بن
محمود الأعور ، وجماعة من السيوفيه والسيائلة
والسباكين والحدادين .

ومن تجار الباسطية : شهاب الدين الخطيب
الأسمر ، وأحمد الديروطي ، وأولاد ابن قيس ،
وعلى بن خشيم ومن نجار سوق مرجوش : ابن
الشفيقة ، وأبو الموز الحنصالي . وبدر الدين
شيخ سوق الغزل . ومن بجار المعاربة : الشيخ

ما فيها من الأبواب والسقوف والشبائيك الحديد والطينان ، ويحملونها على الجمال بين الناس على النداء والاجهار ، ويبيعونها بأبحس الأثمان ، ولم يجدوا من يردهم عن ذلك .

ثم صاروا يطلعون بالنساء الى القلعة ويتحشرون بهن في أطباق المماليك الدين بالقلعة ، وصنعوا بالطباق أطباق بوزة ، وصارت خانة يرسم حرافهم . وصاروا يأخذون ما بالطباق من الأبواب والسقوف ويطبخون بها الطعام ، حتى خربوا غالب السقوف التي بالقلعة .

ثم تزايد منهم الفساد حتى صاروا يحفظون النساء والصبيان المرد وعمائم اناس من الطراف والأزقة والأسواق في النهار والليل ، وصار الناس على رءوسهم طيرة من العثمانية ، ويجدون القتلى مرمية في الطراف .

فلما تزايد هذا الأمر دخل جماعة من الناس الى القاضى الذى جعله ابن عثمان في المدرسة الصالحة أمينا على قضاة مصر ، فشكوا له من أفعال العثمانية وما يفعلونه بالناس . فلما سمع هذا الكلام ركب وبوجه الى بيت الأمير فايتبأى الدوادار ، وأركبه وطلع به الى القلعة ، وأخبروا ملك الأمراء خاير بك بهذه الأحوال التي تصدر من العثمانية .

ثم ان قاضى ابن عثمان أغلظ على خاير بك في القول وقال له : « انظر في أحوال المسلمين والا تحرب مصر عن آخرها ، فقد فسدت الأحوال جدا ، ومتى بلغ الحنكار هذه الأخبار يرسل يضرب أعناقنا ، ويقول لنا كيف كتمتم عنى أخبار مصر ، وغفلتم عن أحوال المسلمين ، حتى جرى فيها ما جرى » .

فلما سمع ملك الأمراء خاير بك هذا الكلام وعد القاضى والأمير فايتبأى الى يوم السبت حادى

نسوان أيضا وأولادهم صغار رضع ، ومنهم كبار . ولم يفاس أهل مصر من قديم الزمان أعظم من هذه الشدة ، ولا سمع بمثلها في التواريخ القديمة ، وكان ذلك في الكتاب مسطورا ... ففارق الناس أوطانهم وأولادهم وأهاليهم وتغربوا من بلادهم الى بلد لم يثووها قط ، وخالطوا أقواما غير جنسهم ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم . وكانت سنة مشومة على الناس ، مباركة على المباشرين السدين بمصر ، وصاروا هم الملوك يتصرفون في المملكة بما يختارونه من الأمور ، ولا سيما ما فعلوه في جهات الشرفية والغريسة وجهات الصعيد ، ووضعوا أيديهم على رزق الناس والافطاعات ، تم استدرجوا الى أن أخذوا أموال الناس بعير حق شرعى ، ثم استدرجوا ثانيا الى أن أخذوا أموال الأوقاف . وصاروا ليس على يدهم يد ، يفعلون ما شاءوا من هذا النمط ، فغنموا في هذه السنة أموالا جزيلة من البلاد مما أخدوه من خراج الناس ... فكان مجيء ابن عثمان غنيمة للمباشرين ، وبعض الأفراد الذين أودع عندهم الأمراء الجراكسة والعسكر الأموال والقماش وقتلوا في الواقعة ، ففعدوا على تلك الودائع ، وراحت على من راحت ، فكان كما يقال في المعنى : « مصائب قوم عند قوم فوائد » .

سنة اربع وعشرين وتسعمائة (١٥١٨ م) :

فيها كان افتتاح شهر المحرم يوم الأربعاء ، فطلع القضاة الى القلعة ، وهنوا ملك الأمراء خاير بك بالعام الجديد ، ثم رجعوا الى دورهم فلما كان يوم السبت رابع المحرم ، شكا الناس من أذى العثمانية الذين بمصر ، وتزايد منهم الفساد في حق الناس ، وصاروا يتوجهون الى الأماكن التي في زقاق الكحل والمسطاحى والتي في الجسر وحكر الشامى والأزيكية ويأخذون

عشر الشهر ، فأحضر الانكشارية والأصباهية وعرضهم ، وفحص عن يفعل هذا منهم .

ثم أن خاير بك نادى في القاهرة بأن لا امرأة تخرج من بيتها ولا صبي أمرد ، ولا يتوجهون في هذا الشهر الى السيدة نقيسه ، ولا الى مشهد الحسين ، ولا الى بين القصرين ، وان الدكاكين والأسواق تغلق بعد المغرب ، ولا يشئ أحد من الناس بعد المغرب .

وفي يوم الاحد ثاني عشر المحرم ، حضر من الشام من عند ابن عثمان قاصدان زعما أنهما من أعيان أمراءه ، وقيل ان أحدهما آغات طانفة الانكشارية ، والآخر آغات الأصباهية ، فلما بلغ ملك الأمراء حضورهما نزل من القلعة ولاقاهما ، وكان لهما موكب حافل ، فطلعا الى القلعة . واجتمعت الأمراء العثمانيه والأمير قايتباي الدوادار وقرءوا مطالعة الخنكار .

ثم أشيع أن ابن عثمان أرسل يطلب الأمير أرزمك الناشف أحد الأمراء المقدمين ، والأمير قانصوه العادلي كاشف الشرقية ، والأمير ترمباي العادلي ، وأرسل يطلب جماعة من الانكشارية وجماعة من الأصباهية الذين كان قد تركهم بمصر ، فكش القيل والقال في ذلك .

فلما كان يوم الثلاثاء رابع عشره أرسل ملك الأمراء خاير بك ابى الأمير أرزمك الناشف أحد الأمراء المقدمين ، والأمير قانصوه العادلي كاشف الشرقية ، والأمير ترمباي العادلي ، وأرسل يطلب جماعة من الانكشارية وجماعة من الاصباهية الذين كان قد تركهم بمصر ... فكش القال والقيل في ذلك .

وأرسل ملك الأمراء خاير بك الى الأمير أرزمك الناشف أربعائة دينار وقال له . هذه نفقة السفر :

فاعمل بها بركك وأخرج سافر . فشكا أرزمك من ذلك وقال ايش يكفينى هذا القدر لعسل برق السفر . ثم ركب وتوجه الى بيت الأمير قايتباي الدوادار وشكا له من أمر هذه النفقة ، فقال له : اصبر حتى أطلع الى ملك الأمراء خاير بك في ذلك اليوم .

ثم في يوم الأربعاء خامس عشره ، أشيع بين الناس أن جماعة من الانكشارية والاصباهية لما تحققوا أن الخنكار أرسل يطلبهم أظهروا العصيان ، وخرج بعضهم الى نحو الشرفية والغربية وتفرقوا في البلاد .

ومن الحوادث الغريبة أنه في يوم الجمعة سابع عشر المحرم من هذه السنة ، أشيع واستفاض بين الناس أنه قبض على قاسم بك بن أحمد بك بن أبى يزيد بن محمد بن عثمان ملك الروم . وقاسم بك هذا هو الذى كان قانصوه الغورى اجتهد كل الاجتهاد حتى أدخله الى مصر ، وصار ضدا لسليم شاه ابن عثمان . وكان سليم شاه يخشى من أمر قاسم بك هذا أن يلتف عليه عسكر الروم من عساكر جده ويولوه مملكة الروم . وسافر قاسم بك هذا صحبة الأشرف قانصوه الغورى الى حلب ، وصنع له برقا وسنجحا حافلا ، وجعل له صنجقا من حرير أخضر وأحمر كما هى عادة ملوك الروم ، وحضر الواقعة التى كانت في مرج دابق . فلما فقد السلطان الغورى وجرى ما جرى ، رجع قاسم بك صحبة الأمراء الى مصر وصار معظما عند السلطان طومان باى ، وحضر معه فى الواقعة التى كانت بالمطرية ، فلما انكسر السلطان طومان باى هرب معه الى جهة الصعيد ، فلما وقع السلطان طومان باى هو وابن عثمان فى الجيزة بالقرب من وردان انكسر طومان باى وهرب . فلما قبضوا عليه وشنقوا قاسم بك ولم يعلم له

خير مدة طويلة ، وقد فاته القتل مرارا عديدة . وكان السلطان حاسب حسابه جدا ليلا ونهارا ، وكان عسكر ابن عثمان قصدهم المخامرة عليه والتوجه الى قاسم بك . وقد أشيع بين الناس انه لما هرب بعد كسرة طومان باي ، توجه مع بعض العربان الى نحو الجبل الأخضر الذي بأعلى البحيرة ، وكان قد نسي أمره .

فلما كان يوم الجمعة المقدم ذكره أشاعوا أنهم قد قبضوا عليه في مكان عند العطوف بالقرب من اليرقية ، وقد غمز عليه بعض غلمانه في ذلك المكان ، فتوجه اليه كمشيعا والى القاهرة وشخص آخر يقال له جانم الحمزاوي شاد الشون من خدمة ملك الأمراء خاير بك ، وهو دوادار الآن ، فتوجه اليه وقبضا عليه من ذلك المكان المذكور . فلما قبضوا عليه عروه من أثوابه وقلعوه عمامته والبسوه برنسا أسود وغطوا وجهه . وسبب ذلك أنهم خشوا أن العثمانية متى بلغهم أنهم قبضوا عليه وهو طالع الى القلعة يخلصونه ويقتلون من معه ، وتشور بين العثمانيين فتنة عظيمة ، وتكون سببا لزوال ملك سليم شاه بن عثمان . فلما طلوعوا به الى القلعة بعد العصر قريب المغرب من يوم الجمعة ، عرضوه على ملك الأمراء خاير بك ، فرسم بإدخاله الى سجن العرقانة الذي هو داخل الحوش السلطاني ، فأدخلوه به وأغلقوا عليه باب السجن .

ثم اجتمع ملك الأمراء خاير بك ، والأمير قايتباي الدوادار ، ومن الأمراء العثمانيين فائق بك وسنان بك ومصطفى بك وخير الدين بك نائب القلعة . فلما اجتمعوا ضربوا مشورة في أمر قاسم بك ، فقال ملك الأمراء خاير بك : دعوه في السجن وأرسلوا كاتبوا الخنكار في أمره وانتظروا الجواب فيما يرسم به . فقال فائق بك : هذا ما هو رأي ،

متى بات في قيد الحياة تدخل علينا التراكمة وتقتلنا عن آخرنا وتقع فتنة كبيرة . فلما دخل وقت العشاء أحضروا المشاعلي ودخلوا عليه وهو في العرقانة فخنقوه بها ، وكان آخر العهد به .

فلما أصبح يوم السبت تامن عشره ، أخرجوا قاسم بك من العرقانة وهو مبت ، ووقدوه على مسطبة بالحوش ، وكشفوا عن وجهه ، وأرسلوا خلف العثمانيين قاطبة حتى رأوه ، فقالوا لهم : هذا قاسم بك بن أحمد بك ابن أبي يزيد بن عثمان . ثم صاروا يقلبونه باطنا وظاهرا ، ثم شهد منهم جماعة كثيرة أن هذا هو قاسم بك ابن أحمد بك ابن عثمان . ثم بعد ذلك أرسل ملك الأمراء خاير بك خلف قاضي القضاة الشافعي كمال الدين الطويل ، وقاضي القضاة الحنفي الطرابلسي ، وقامت عندهما البيعة بصحة معرفة قاسم بك هذا ، فكتبوا بذلك محضرا وثبت عند قاضي القضاة . ثم انهم شرعوا في تجهيز قاسم فغسلوه وكفنوه ، وأخرجوه فدام الدكة التي بالحوش السلطاني ، فصلوا عليه هناك ، وكان الذي صلى عليه قاضي القضاة الشافعي . وكانوا أطلقوا له نذراء في القاهرة بأن الصلاة على الشاب الشهيد قاسم بك بن عثمان ، فانه ينزل من القلعة . ثم ان ملك الأمراء خاير بك أشهر المناداة في القاهرة بأن يصلى على قاسم بك بن عثمان صلاة الغيبة في الجوامع ، كل هذا حتى يتحقق الناس موته عن يقين .

فلما صلوا عليه بالحوش حمل الأمراء نعشه على أكتافهم ، ثم نزلوا به من سلم المدرج ، ووضعوا عمامته على نعشه ورفعوا عليه علما أبيض ، ثم توجهوا به الى تربة البجاني فدفنوه فيها على أقاربه . وكانت جنازته مشهودة ، وكثر عليه الأسف والحزن من الناس ، فانه كان شابا جميل الصورة ، حسن المنظر ، له من العمر سبع

عشرة سنة ، وقد قتل ظلما بغير ذنب ، وقد تناحرت عليه العثمانيون بالبكاء

فلما دفنوه ولحدوه قطعوا رأسه بليل ووضعوه في علبه وتوجه بها جانم الحمزاوي هي والمحضر الي الخنكار بالشام ... هذا ما أتيح واستفاضل بين الناس ، والله أعلم بصحة ذلك .

وقد عد مسك قاسم بك وقتله أعظم من مسك الأشرف طومان باي وقتله ، فتمعجب الناس من عوذة سعد سليم شاه بن عثمان من مبدئه الي منتهاه ، وهذا أمر من الله تعالى ليس في فدره بشر . وكانت الناس تظن أن قاسم بك هذا سيلى مملكة الروم بعد عمه سليم شاه ، فخابت منه الظنون وعاجله ريب المنون ، وكان ذلك مما سبقت به الأقدار ، والحكم لله الواحد القهار

وفي يوم الأحد تاسع عشره أنفقوا الجامكية على الممالك الجراكية في بيت الأمير فابتى الدوادار ، فأنفقوا لكل مملوك ألفى درهم ، وهى جامكية شهر واحد ، فأنفقوا عليهم يوم الأحد ويوم الاثنين .

وفي ذلك اليوم نادى ملك الأمراء خاير بك في القاهرة بأن لا أحد من الناس يخبى في بيته عثمانيا ولا انكشاريا من عسكر ابن عثمان ، وكل من خبأ عنده أحدا وغمز عليه شنق على باب داره من غير معاودة . وسبب ذلك أن الخنكار بن عثمان لما أرسل يطلب جماعة من الانكشارية ومن الاصباية اختفى منهم جماعة وجماعة تفرقوا في الشرقية والغربية وتوجهوا اليها هارين في البلاد ، وأطهروا العصيان ، وقد تقدم القول على ذلك .

وفي يوم الاثنين سابع عشره أشهروا المناداة في القاهرة حسبما رسم ملك الأمراء بأن جميع الانكشارية والاصباية يخرجون يوم الاثنين

صحبة التصاد ، وكل من تأخر منهم شنق من غير معاودة ، فشنق من القاهرة جيساعة من الأمراء العثمانية وقدامهم مشاعلى ينادى بالتركي وآخر ينادى بالعربي وذلك بعد الظهر . فلما بلغ العثمانية ذلك اضطربت أحوالهم وخرج غالبهم الي نحو الشرقية ، وقد التفت عليهم الممالك الجراكية ، وصاروا يرمون بينهم وبين الأمراء العثمانية الذين بمصر الفتى حتى يقع بينهم الشر ويظهروا العصيان على ابن عثمان .

وفي يوم الثلاثاء ثامن عشرى المحرم ، دخل الحاج الى القاهرة ودخل المحمل الشريف ، والقاضى علاء الدين ناظر الخاص أمير ركب المحمل ، وقاضى قضاة المالكية محبى الدين بن الدميرى ، وبقية الحجاج ، وأخبروا أنهم قاسوا في هذه الحجة مشقة زائدة وشدائد عظيمة من الغلاء وموت الجمال ، وفساد العربان في الطريق ، وكثرة الأمطار والسيول ، وقلة العليق . ومشى غالب الحجاج على أقدامهم في الرجعة ، وقد أثنوا على ناظر الخاص فيما فعله بالحجاج في الطريق من البر والصدقات وفعل الخير ، وكان اذا رأى أحدا من الحجاج منقطعاً يركبه على جماله وينعم عليه بالماء والبسماط في الطلعة والرجعة . فرجع الحجاج وهم عنه راضون فيما فعله بهم ، وقد رفق بهم في مشى الركب بسبب المنقطعين من الحجاج ، وقد أثنوا عليه خيرا .

وفي يوم الأربعاء تاسع عشره ، دخل الى القاهرة الأمير قانصوه العادلى كاشف جهات الشرفيه ، وكان أشيع عنه العصيان من حين عين للسفر ، فأتى لتبطل عنه الاشاعات . فلما طلع يوم الخميس الى القلعة خلع عليه ملك الأمراء خاير بك ققطانا مخملا مذهبا ، ونزل يعمل برفقه .

وقد مضى هذا الشهر وعسكر ابن عثمان في خلف بينهم بسبب السفر الى الشام ، واستمرت الانكشارية في أمر العصيان عن السفر ، وصاروا يكبسون عليهم بيوتهم وحاراتهم ، ويقبضون على نسائهم اللاتي تزوجن بهن من مصر ، وحصل لهن الضرر الشامل بسبب ذلك .

وفي صفر الخير ، وكان مستهله يوم الجمعة ، طلع القضاة الأربعة الى القلعة ، فهنوا ملك الأمراء خاير بك بالشهر ورجعوا الى دورهم . وفي هذا اليوم خرج جماعة من الانكشارية والاصباهية من الطائعين منهم دون العاصين الذين هربوا كما تقدم ، فخرجوا صحبة القصاد الذين جاءوا لطلبهم من الشام حسبما رسم الخنكار سليم شاه بن عثمان . قيل انه أرسل بطلب ألف انسان من الاصباهية ، ومن الانكشارية أربعمئة انسان .

وفي يوم الاثنين رابع صفر ، خرج بقية العسكر العثماني الذي تعين للسفر ، وخرج الأمراء المعينون للسفر ، وهم : الأمير أرزمك الناشف أحدالمقدمين ، والأمير قانصوه العادلي كاشف الشرقية ، والأمير تمرباي العادلي ، والأمير خشقدم الأشرفي الذي كان شاد الشون أيام السلطان الغوري . ولم يشعر بخروجهم أحد من الناس ، ولم يطلبوا طلبا على جاري العادة ، فلما خرجوا توجهوا الى الريداية ونزلوا بها الى أن يرحلوا منها .

وفي هذه الأيام تزايد القتل والقتل بين الناس بوقوع فتنة كبيرة .

وفي يوم الثلاثاء خامس صفر خلع ملك الأمراء خاير بك على شيخ العرب الأمير أحمد بن بقر وقرره في مشيخة جهات الشرقية عوضا عن ابنه عبد الدائم ، وقد أظهر عبد الدائم العصيان ونهب

منية عمر وأحرقها وغيرها من بلاد الشرقية ووقع الاضطراب بها ، وطفشت العربان في البلاد بالفساد والنهب ، وحصل منهم الضرر الشامل . وصار عبد الدائم رأس كل فتنة في كل دولة ، وقد تقدم القول على ذلك .

وفي يوم السبت تاسعه قويت الاشاعات بعصيان عبد الدائم ، وأنه قد التف عليه عربان كثيرة من الشرقية والغربية ، وطردهوا آباءه من الشرقية . واضطربت أحوال الشرقية الى الغابة

وأشيع في البلاد أن مصر ما بقي فيها أحد من عساكر ابن عثمان . فلما بلغ ملك الأمراء خاير بك ذلك رسم لخير الدين بك نائب القلعة وجماعة من الأمراء العثمانية بأن يسفوا من القاهرة ومعهم الانكشارية الذين تأخروا بمصر . فنزل من القلعة وقدامه من الانكشارية نحو ثلثمائة انسان وهم مشاة وبأيديهم مكاحل ، وشق من الصليبة وتوجه من بين الصورين وطلع من جهة سوق مرجوش ، وشق من القاهرة فرجت له في ذلك اليوم ، ثم عاد الى القلعة .

وفيه أشيع أن ملك الأمراء خاير بك أخذ في أسباب تحصين القلعة ، وسد منها عدة أبواب ، وأبقى منها الأبواب الكبار على حنكها ، وقصد أن يسد بعض أبواب من القاهرة ، وأظهر الخوف والفرع ، ودخلت رأسه الجراب من عبد الدايم بن بقر وكثرة العربان التي اجتمعت معه . وكثر القتل والقتال في ذلك والروايات مختلفة .

وفيه أشيع أن الرئيس سلمان العثماني الذي كان في البرج بالقلعة وضعه خاير بك في الحديد وأرسله الى ابن عثمان بالشام ، وكثرت الحوادث في هذه الايام جدا .

وفي يوم الاثنين حادي عشره أشيع أن ملك

بك ، وقد تقدم القول على أنه كان توجه الى الشام عند السلطان سليم شاه ابن عثمان بيشارة قتل قاسم بك بن عثمان ، فلما أخبر سليم شساه بذلك سر الى الغاية . وأشيع أنه أنعم على جانم الحمزاوى بناية نغر الاسكندرية ، ثم رسم له بالعود الى القاهرة ، وأرسل على يده خلعة الى ملك الأمراء خاير بك في استمراره بناية السلطنة بمصر على عادته ، وأرسل خلعة الى الأمير قايتباى الدوادار ، وقيل الى كمشبغا والى القاهرة لكونه قبض على قاسم بك ابن عثمان . فلما وصل القاصد صحبه جانم الحمزاوى الى الريدانية بات في تربة العادلى . وفى هذا اليوم نزل ملك الأمراء خاير بك من القلعة وصحبته الأمير قايتباى الدوادار والأمراء العثمانية الذين بمصر ، وطائفة من الانكشارية والاصبائية وغير ذلك من الطوائف الذين تركهم ابن عثمان بمصر ، وصحبته جماعة كثيرة من الأمراء الجراكسة والمماليك الجراكسة الذين ظهروا بمصر كما تقدم . وخرج نجم الكثير من العساكر العثمانية وفهم من يرمى بالنفوط . فتوجه الى تربة العادلى وجلس على المسطبة التى هناك . ثم ان ملك الأمراء خاير بك لبس القفطان المخمل المذهب الذى أرسله له السلطان سليم شاه ابن عثمان ، فأشيع ذلك اليوم أن ابن عثمان جعله مستمرا على نيابته بمصر على عادته ، وأن يجعل السكة والخطبة باسمه ، فلم تصح هذه الاشاعات فيما بعد .

ثم ان ملك الأمراء ركب من هناك ودخل من باب النصر وشق من القاهرة فى موكب حافل ، وقدامه قضاة القضاة . وموجب ذلك أن هذا اليوم كان مستهل الشهر ، فتوجهت اليه القضاة هناك ليهنوه بالشهر . فلما رجع الى القاهرة رجعوا صحبته وركبوا قدامه الى أن طلع الى القلعة ،

الأمراء خاير بك عين الأمير قايتباى الدوادار بأن يخرج الى عبد الدائم بن بفر وصحبته جماعه من المماليك الجراكسة ومن العثمانية . وعرض فى ذلك اليوم طائفة من العثمانية يقال بهم كلمبا ، فعرضهم فى بيت سنان باشا العثمانى ، وعين منهم جماعة يخرجون الى التجريدة صحبة الأمير قايتباى الدوادار بسبب عبد الدائم كما تقدم .

وفى أثناء هذا الشهر أشيع أن الخنكار سليم شاه ابن عثمان خرج من دمشق وفصد الوجه الى حلب ، وما يعلم سبب ذلك . وكثرت الأفاويل فى خروجه من الشام الى حلب .

وفى يوم الأربعاء عتسرى صفر عرض الأمير قايتباى الدوادار المماليك الجراكسة فى بيته الذى بين القصرين ، وعين جماعه منهم يخرجون الى الشرفية بسبب عصيان شيخ العرب عبد الدائم بن بقر ، وقد قويت الاشاعات بعصيانه ، وقد التفت عليه جماعة كثيره من العربان ، وفسدت آحوال الشرقية قاطبة من قطع الطريق على القصاد ، ونهب البلاد ، ووقع الاضطراب جدا هناك حتى كادت أن تحرب بلاد الشرقية ، ولما عرض الأمير قايتباى الجراكسة وجد غالبهم مساة على أقدامهم بغير خيول ولا سلاح ، فبطل أمر العرض والتجريدة .

وفى يوم السبت ثالث عشره حرج شيخ العرب بيبرس بن بفر أخو عبد الدائم وصحبته الشيخ أبو الحسن بن الشيخ أبى العباس العسرى يسعون بين عبد الدائم وبين أبيه الأمير أحمد وبين اخوته بالصلح . وأشيع أن ملك الأمراء خاير بك أرسل صحبتهما خلعة الى عبد الدائم نعه يقع الصلح على أيديهما ، وكذا جرى .

وفى يوم السبت مستهل شهر ربيع الأول حضر جانم الحمزاوى دوادار ملك الأمراء خاير

ورك قدامه أيضاً أعيان المباشرين ، ولاقتنه
النصارى بالشموع في أديهم من باب النصر .
قلما وصل الى بين القصرين ومر على بيت الأمير
قايتباي الدوادار نثرت على رأسه كبشة جيدة من
القضة ، فتخاطفتها الناس .

فلما شق من القاهرة زنت له زينة خفيفة في
بعض أماكن ، وارتفعت له الأصوات بالدعاء من
بعض الناس ، وأشبهوا النداء قدامه بالأمان
والاطمئنان ، والبيع والشراء ، وأن لا أحد شوش
على أحد من الرعية ، وأن كل من ظلم أو قهر عليه
بباب ملك الأمراء خاير بك ، والدعاء بالنصر
لمولانا السلطان سليم شاه ابن عثمان . فضج الناس
له بالدعاء قاطبة . واستمرت الانكشارية رموز
قدامه بالنفوس وهم مشاة حتى طلع الى القاعة
وكانوا نحو أربعمئة انسان .

وكان أشيع أن ملك الأمراء خاير بك يستقل
بمملكة مصر ، ويجعل السكة والخطبة باسمه
حسبما رسم الخنكار ابن عثمان ، فلم تصح هذه
الاشاعة ، وخدمت كأنها لم تكن ، واستمر نائباً
على حكمه وكانت هذه الاشاعة من الكلام
المختلف من جملة كذب الناس ، وصار غالب أهل
مصر في هذه الأيام بختلقون الكلام الكذب ،
ويشيعونه بين الناس بما يختارونه ، ثم يطلونه
وينقضونه وبأتون بكلام غيره . والكل ليس له
صحة وهو من جملة المختلف . وقال القائل في
المعنى :

أبناء مصر مقالهم عجب

تواتر الصدق منه مرفوض

مقالهم لا يزال مختلفاً

وكله ناقض ومنقوض

ولما حضر جانم الحمزاوى أشيع بين الناس أن

السلطان سليم شاه لما أقام بالشام رسم لقاضى

القضاة الشافعى محب الدين ابن قاضى القضاة
شهاب الدين بن فرفور بأن يتقلد بمذهب
الامام أبى حنيفة وبترك مذهب الامام الشافعى
رضى الله عنه . وأشيع أنه لا يحكم بالشام غير
قاضى قضاة الحنفية لا غير ، كما هى عادة بلاد
الروم . وأبطل من الشام المذاهب الثلاثة فتساءل
الناس له بسرعة الزوال عن قريب بسبب ذلك ،
وأشيع أنه أبطل الوكلاء والرسل من أبواب القضاة
ونوابهم . فلما بلغ ملك الأمراء خاير بك ذلك رسم
لقضاة القضاة بمصر أن يحضوا من نوابهم ، فرسم
لقاضى القضاة الشافعى بخمسة من النواب ، وقاضى
القضاة الحنفى بأربعة من النواب ، وقاضى
القضاة المالكي بثلاثة من النواب ، وقاضى القضاة
الحنبلية باثنين من النواب ، من غير زيادة على
ذلك . ثم ان ملك الأمراء خاير بك رسم لنواب
القضاة أن سطلوا الوكلاء والرسل من المدرسة
الصالحية ، وأن نواب القضاة لا يحكمون الا في
بيوتهم من غير رسل ولا وكلاء ، فلم يتم هذا الأمر
ولم يسمع له شيء .

ومما وقع في هذه الأيام من الحوادث الشيعة ،
أن شخصا من أمراء ابن عثمان صار يجلس على
دكة بباب الصالحية يسمونه المحضر ، وحوله
جماعة من الانكشارية ، فكان لا يقضى أمر من
الأحكام الشرعية حتى يعرض عليه فكان يقف
بين يديه الشاكى والمشتكى ويحاطبونه بترجمان
بينهما عن أمر الشكاة ، فكان يقرر على كل
محكمة في كل أشرفى ستة دراهم نفرة ، يأخذها
لنفسه من الشاكى والمشتكى ، يسمون ذلك
مصالحات . وكان اذا أمر بشيء لا تعارضه القضاة .
وكان يزعم أنه مستوفى على القضاة في الأمور
الشرعية . وكان يضرب من يستحق الضرب ،
ويسجن من يستحق السجن ، ولا يراجع القضاة

فى ذلك ، فكان يتصل له فى كل يوم من ذلك القدر المعلوم مال له صورة ، يأخذه من الشاكى والمستكى .

تم انهم أحدثوا مظلمة أخرى ، وهى أنهم فرروا اصافا على كل دكان من الشهود ومجالس القضاة الذين بمصر والقاهرة قاطبة كل شهر ستة ، ويزعمون أنهم يوردون ذلك الصدر لبيت مال المسلمين ، ويجهزونه الى السلطان ابن عثمان . وقد ضعفت شوكة الشرع فى هذه الأيام جدا ، وقد قال القائل فى المعنى :

يارب زاد الظلم واستحوذوا

والفعل منهم ليس يخفى عليك

ومالنا الاك فانظر لنا

ونجنا منهم وخذهم اليك

ولما حضر الأمير جانم الحزاوى دوا دار ملك الأمراء خاير بك أخبر بأن السلطان سليم شاه لما دخل الى الشام استقر بالأمير جان بردى الغزالى نائب الشام . وجعل له التحدث من غزة الى الشام وأعمالها ، يولى من يختار ويعزل من يختار . وأشيع أن عسكر ابن عثمان لما دخلوا الى الشام طردوا الناس عن بيوتهم وسكنوا فيها كما فعلوا بمصر ، وخربوا غيطانها وزروعها ، وقطعوا أشجارها ، وأكلوا جميع فواكهها .

وفى يوم الاثنين ثالث ربيع الأول أشيع بين الناس بالمراسيم التى حضرت من عند الخنكار سليم شاه على يد الأمير جانم الحمزواوى ، فكان مضمونها أنه أرسل يقول لملك الأمراء خاير بك « اصرف لأولاد الناس جوامكهم على العادة ، وكذلك المماليك الجراكسة ، وكل من له جامكية يصرفها له ، ويجرى الناس على عوائدهم من كبير وصغير » . فشكر له الناس ذلك ودعوا له .

فلما بلغ أولاد الناس ذلك طلوعوا الى القلعة ونزلوا أسماءهم عند القاضى شرف الدين الصغير كاتب المماليك ، حتى كل من كان له جامكية أشرفى أو مائتا درهم . وأرسل يقول له احتفظ بالرعية . وفى يوم الاثنين عاشره طلوع المماليك الجراكسة الى الميدان الذى تحت القلعة ، وحضر كاتب المماليك شرف الدين الصغير ، وأنفق على المماليك جامكية شهر واحد ، وبقي لهم شهران مكسوران . ولم يحضر ملك الأمراء تفرقة الجامكية بالميدان ، بل حضر شرف الدين الصغير وجماعة من كتاب المماليك . وشرع شرف الدين كاتب المماليك يقول للمماليك : نا أغوات كل من أخذ الجامكية يعمل برقه للسفر . ويقول له : اذا طلبت منك هؤلاء المماليك للسفر فأحضر بهم . فنزلوا من القلعة على ذلك .

وفى يوم الثلاثاء حادى عشر ربيع الأول كانت ليلة المولد النبوى ، فصنع له ملك الأمراء مولدا لهم يشعر به أحد من الناس . فقبل أحضر عنده عشر جوخ للمقربين فضجوا من ذلك ، وقالوا نحن كان يدخل علينا فى مولد السلطان لكل واحد منا مائة شقة ، فكيف نأخذ فى مولد ملك الأمراء جوخة بأشرفيين ؟ فرسم لكل منهم بجوخة بأربع أشرفيات لا غير .

ثم بعد العصر مد سماطا فى المقعد الثانى الذى بالحوش ليس بكبير أمر ، تخاطفته العثمانية فى لمح البصر وبات غالب الفقهاء بلا عشاء ، وأين الحسام من المنجل بالنسبة لما كان يعمل فى مولد السلاطين الماضية من الأسطة الحافلة ، والشقق الحرير التى كانت تدخل على المقربين والوعاظ ، ولا سيما ما كان يعمل فى مولد السلطان قانصوه الغورى . فكان يصرف على مولده فوق الأربعة آلاف من

الدناير ، ويحضر عنده في تلك الخيمة المعظمة التي لم يسمح الزمان بمثلها أبدا القضاة الأربعة ، ومن الأمراء المقدمين أربعة وعشرون أميراً مقدم ألف ، غير بقية الأمراء والعسكر وهم بالشاش والقماش ، فأين هذا النظام من ذلك النظام العظيم . فما أسفى على تلك الأيام ، كأنها منامات أحلام ! وقد قال القائل في المعنى :

يا دهر بع رتب المعالى مسرعا

بيع الهوان ربحت أم لم تبيع

قدم وأخر من أردت من الورى

مات الذى قد كنت منهم تستحي

وفي يوم السبت خامس عشر ربيع الأول، خلع ملك الأمراء خاير بك على الزينى بركات بن موسى المحتسب واستقر به أمير ركب المحصل الشريف ، وكانت هذه الوظيفة لا يستقر بها إلا أمير مقدم . ولعمري أن هذه الوظيفة فد هانت حتى سامها كل مفلس ، فخلع عليه ققطانا مخملا مذهبا ، ونزل من القلعة في موكب حافل وقدامه أعيان المباشرين والأمراء العثمانية ، وجماعة من الأمراء الجراكسة ، والمماليك الجراكسة ، فرجت له القاهرة في ذلك اليوم ، وزينت له الدكاكين بالشموع ، وعلقت له الأحمال بالقناديل ، ولاقته مشايخ العربان من بنى هلال ، وكاشف الشرقية ، ومشى قدامه جماعة من الانكشارية نحو مائتى انسان يرمون بالنفوط ، ومشى قدامه جماعة من القواسم نحو ثلثمائة انسان ، ومشى قدامه السقاءون يرشون الماء بطول الطريق ، ومشى قدامه الضوية بالمشاعل وعلها النفوط الزركش ، ومشى قدامه جميع الرسل قاطبة وبأيديهم العصي ، ولاقاه الشعراء والشبابية السلطانية مثل مواكب السلاطين ، ولاقاه المعالى من النساء بالطارات ،

وانطلقت له النساء بالزغاريت من الطيقان ، وساق قدامه البرجاس عربان بنى حرام ، وكان ذلك اليوم من الأيام المشهودة قل أن يقع لأحد من الأمراء مثل ذلك ، فلهج الناس بهذا الموكب ، وقالوا لعل هذا نهاية سعد الزينى بركات بن موسى . ولم يقع مثل هذا الموكب للملك المظفر سليم شاه ابن عثمان لما دخل الى القاهرة حين ملكها . فلما نزل الزينى بركات بن موسى الى داره ، أنعم على الانكشارية بثلاثمائة دينار ، فحصل لكل واحد منهم أشرفى ، وأنعم على القواسم والسفائين أيضا بمبلغ جيد . وقد قلت في هذا الموكب أبياتا :

ان ابن موسى لم تزل حركاته

تأبى بسعد خارق بين الورى

عابنته في موكب حفل فلا

سمعت به أذن ولا عين يرى

في يوم سبت شرفوه بجلعه

فاق الملوک وصار يزهو منظرا

لما استقر أمير محمل سرنا

واستبشرت لقدمه أم المرى

وتفائل الحجاج آن بكعبة

يلقوا الرخا والأمن من بشرا

يا ربنا فأطل بقساه بنعمة

تحسد بها الركبان عاقبة السرى

وفي يوم الأحد ثالث عشره أنفق ملك الأمراء على جماعة من الأمراء الجراكسة : فأعطى لكل أمير طبليخانات أربعين دينارا ، وأعطى لكل أمير عشرة عشر أشرفيات ، وقيل خمسة وعشرين أشرفيا في نظير أقاطيعهم ولحومهم وعليقهم ، وأعطى المماليك الجراكسة لكل واحد منهم ألفى درهم من غير زيادة على ذلك .

وفي يوم الاثنين رابع عشرى ربيع الأول ، وافق

ذلك اليوم دخول أول يوم من الحماسين وهو يوم
عند النصارى وفطرهم . ومن جدله امام الله تعالى
أنه لم يقع في هذه الحماسين باعون بمصر ولا
غيرها من البلاد .

وفي ذلك اليوم كانت وفاة صاحبنا الناصري
محمد بن منكلبي بغا ، وكان موته فيجأة . وكان
لطيف الداب . هذه المحاضرة ضمن العبارة في
كلامه ، رقيق الطباع ، عشرين الناس ... وكان
لا باس به .

وفي هذا الشهر حضر الناصري محمد المعروف
بابن الورد لاعب التنطرنج ، وكان بالشام من حين
أرسل خلفه السلطان سليم شاه ، وكان السلطان
أرسل له مبلغا له صورته يتسمر به . فاما توجهه الى
الشام وجد الجنكار غير منسرح بسبب الصغوى ،
فأقام مده بالشام ثم استأذن السلطان في عودته الى
مصر ، فأذن له بالعود الى مصر ، فأخبر الناصري
محمد بن الورد أن فساد الصغوى قدموا على ابن
عثمان وهو بالشام من مكان غير الطريق السالكه ،
فما شعر بهم ابن عثمان الا وهم بين يديه ، فدفعوا
اليه مطالعة من عند الصغوى ، وتقدمة حافلة . فلما
قرأ تلك المطالعه وجد فيها عبارة لطيفة ، وألفاظا
رقيقة تتضمن أمر الصلح بينه وبين الصغوى ،
ونعته بنعون عظيمة في المطالعة . فلما قرأ المطالعة
اضطرب لذلك ، وقال هذا كله مخادعة من الصغوى
حتى يبطل عزمي عن ملاقاته ، ثم بطرفني على حين
غفلة ، كما فعلت أنا مع السلطان العورى . فرحل
من الشام على الفور . ونصحت السوجه الى حلب .
وقال لوزرائه : أنا أعلم من حيل اسمعيل الصغوى
ومخادعته ما لا تعلمونه . فدان لما قال في المعنى :

توقع كيد من خاصست يوما

ولا تركن الى ود الأعداى

فإن الجرح ينكث كل حين

إذا كان البناء على فساد

ثم أشيع أن ابن عثمان لما دخل الى حلب أخذ
في أسباب دتصين المدينة ، ثم فبض على جماعه من
أظلي باشوسه ممن كان مشهورا بالفساد ، فشنق
منهم جماعة . ثم أشيع أنه صادر جماعة من أهل
حلب ، وأفرد عليهم الأموال الجزيلة ، وحصل لأهل
حلب منه ومن عساكره غاية الضرر ، والأمر لله .

واستهل شهر ربيع الآخر ، وكان أوله يوم
الأحد . ففى يوم الخميس خامسه قدم الى الأبواب
السريه مصلح الدين بك خازندار ابن عثمان ،
وكان توجه الى مكة من البحر المالح صحبة
الشهابى أصد بن الجيعان ، فلما نزل ببركة الحاج
خرج الأمير فايتباى الدوادر الى ملاقاته ، وكذلك
أعيان المباشرين ، فلما طلع الى القلعة وقابل ملك
الأمراء خلع عليه ونزل الى منزله فى موكب
حافل ، وفداهه الأمراء العثمانية والجراكسة والجم
الكثير من العساكر .

وفي يوم الثلاثاء عشره وقعت حادثة غريبة ،
وهى أن ملك الأمراء خاير بك أشهر النداء فى
القاهرة بأن كل من رأى كلبا يقتله ويعلقه على
دكانه . فبادر الناس بالتبض على الكلاب ،
وصارت التراسه يسدون اللاب من الطرافات
ويوسطونها بالسيوف نصفين ، فقتلوا فى ذلك
اليوم ما لا يحصى من الكلاب ، حتى فيل انهم
قتلوا فى ذلك اليوم فوق الخمسمائة كلب على
ما أشيع . وصار المياق بمسكون الكلاب من
الحارات والأزقة ويقتلونها شر قتلة ، وصاروا
يعلقونها على الدكاكين ، ولم يعلم ما سبب ذلك .
ثم أشيع بأن عادة التراكمة فى بلادهم باسطنبول
إذا كثرت عندهم الكلاب فى المدينة يقتلون منها
جانبا كبيرا فى أيام الحماسين ، يزعمون أن بذلك
يخف الطاعون من المدينة ، فصارت عندهم عادة ،
ثم استسر السيف يعمل فى الكلاب يوما وليلة حتى

هجت الكلاب مما دهاها الى الترب والصحراء .
وقد قلت في المعنى :

تأملوا ما جرى بمصر
من حادت عم بالعذاب
فما رعى الترك في دماء
فكيف يرعوا دم الكلاب !

فلما تزايد الأمر في قتل الكلاب ، طلع الزيني
بركات بن موسى المحتسب الى ملك الأمراء خاير
بك وشفع في الكلاب من القتل ، وقال لملك الأمراء
لا تتعرض لقتل الكلاب لأن أربك أمير كبير تعرض
لقتل الكلاب التي كانت بالأزبكية ، فلم يعش بعد
ذلك غير سنة واحده ومات ، فرجع ملك الاسراء
عن قتل الكلاب ، ونادى في القاهرة بأن يرفعوا
القتل عن الكلاب ، وكل من قبص على كلب يطلفه
الى حال سبيله . فدعا الناس للزيني بركات بن
موسى الذي شفح في الكلاب من القتل ، ثم سكن
الاضطراب الذي كان بالقاهرة بسبب قتل
الكلاب .

وفي هذه الأيام أشيع أن ملك الأمراء أخذ في
أسباب تحصين القلعة وسد منها أبوابا ، وحصن
الأبراج التي بها وركب عليها المكاحل ، وشرع في
عمل عجالات وعمل مكاحل ومدافع ، وعمل شباب
ولم يعلم ما سبب ذلك .

ثم أشيع أن ملك الأمراء أحضر مصحفا شريفا
وأحضر الأمراء العثمانية الذين بسصر وحلفهم
بأنهم لا يخونونه ، ولا يغدروه ، وأن يكونوا
هم واياهم على كلمة واحدة . ثم انه حلف الأمير
قايتباي الدوادار بمعنى ذلك ، فأقام الامراء في
القلعة على ذلك الى بعد الظهر وهم في ضرب
مشورة بينهم .

ومن الوقائع الغريبة أنه في يوم الثلاثاء سادس
عشره وقعت فادرة ، وهي أن شخصا ظهر بالبحارية

وزعم أنه السلطان قانصوه الغورى ، وصار يفسد
عقول الفلاحين ، ويقول لهم أنا السلطان الغورى ،
وصار يكتب كتبنا ويرسلها الى مشايخ العربان ،
وهي مخلقة بالزعفران ، ففسدت غالب الناس بأن
السلطان الغورى قد ظهر وهو في فيد الحياة ،
فامتلات القاهرة بهذه الاشاعة . فلما قويت أخبار
هذا الرجل ارسل ملك الأمراء بالقبص عليه من
البحارية فقبصوا عليه ، واحصروه بين يدي ملك
الأمراء . فلما مل بين يديه عرفه ، وكان نصب عليه
قبس ذلك وهو نائب وادنى انه فانصور حمسائة
الدى تسلطن ، وأفسد عقول الناس أيضا بحلب .
فصر به ملك الامراء في حلب ، بالمعارع وفتح انعه
ثم أتى الى مصر وأشاع أنه الأمير محمد بك قريب
السلطان العورى الذى قتل في عزة الفريج . وقد
نصب بسبب ذلك واحد من الشناف ومسايح
العربان جيلة تقادم . وقد قرب الى عقولهم أنه
الامير محمد بك قريب السلطان ، فقبص عليه
السلطان العورى وصر به وسجنه بالمقشرة ، فأقام
بها مدة . وقيل كان أصله من القواسمة ببعض
جهاز دمشق . فلما سافر السلطان العورى الى
حلب واستقر الأمير طومان باى الدوادار نائب
العيه أطلقه من المقشرة مع جيلة من أطلقه ، فلما
ادعى أنه السلطان العورى وقبص عليه ملك الأمراء
خاير بك وقال له : « أنا ما قطعت أنفك في حلب
وقلت لى انى نبت عن الكذب على الملوك » . ثم
انه رسم بتكليمه على باب الشعرية ، فنزلوا به من
القلعة وربطوا رجله في ذنب أكديش ، وصار
يسجبه على وجهه الى باب الشعرية ، والمشاعليه
تنادى عليه : هذا جزاء من يكذب على الملوك .
فرجت له القاهرة في ذلك اليوم . وكان يوما
مشهودا في الفرجة عليه ، والناس تقول قد مسكوا
السلطان العورى . فلما وصل الى باب الشعرية
كلبوه على الباب بين البرجين ، فاسسروا مكلبا ثلاثة

أيام لهم يست . فلما بلغ ملك الأمراء أنه لم يست
الى الآن ، رسم بأن ينزلوه ويوسطوه ، فأنزلوه
ووسطوه عند باب الشعريه في مفرق الطرق ، بعد
أن فاسى أنواع العذاب ، ودفنوه ومضى أمره
وكفى الناس شره .

وفيه كانت كائنه الشيخ أبرك الرومى ، وفسد
تعبير حاطر ملك الأمراء عليه فوصعه في الحديد ،
وهيل صريه بالمقارع ، وأتبع أنه فصد شنه فشفح
فيه بعض الفجر . ولم يعلم ما دسه حتى تعب حاطر
خاير بك عليه . وقد أحلف الأفعال في أمره ،
وكان عنده بحضر راند في الإلابر ، واحصر الامر
وقع في هذه الكائنه المهوله

وفي يوم الأربعاء سابع عشره نزل ملك الأمراء
من القلعه ، وغدى الى الروسه واقام بالمقياس ،
وكان صحبته الأمير قايباى الدوادار وجماعته من
العثمانيه ، وأضافهم سيافه حافله . ومد لهم اسطة
وطوارى . وسبب ذلك أن ملك الامراء حاير بك
كان يبه وبين الأمير قايباى وحنه ، وقد صار
بعض الوسائط يرمى بينهما العن بم ان ملك
الأمراء حاير بك حلف الأمير قايباى الدوادار على
مصحف شريف بان يكون هو واباه على كلسة
واحدة ، ولا يحون بعضهم بعضا . وقد تقادم
العون على ذلك ، فلما بحالما را ما كان يبهما من
الوحشه .

وكان نقل الى ملك الأمراء أن الأمير قايباى
الدوادار منفق مع المسالك الجراكسه على زواله
وكانت هذه فتنة من الأعداء . تم أشيع بين الناس
أن الشيخ ابرك كان يعنى يبهما بالسن وينقل
الكلام الباطل ، فصنع ملك الأمراء تلك الوليمه
في المقياس . وعزم على الأمير قايباى وجماعة من
الأمراء العثمانية ، وأقام ملك الأمراء بالمقياس الى
آخر النهار ، فأرسل اليه الزينى بركات بن موسى
هناك مدة حافلة على رءوس الحمالين ، وصار كل

واحد من المباشرين يهدى اليه شيئا من المأكول
الفاجر ، وكان يوما سلطانيا ، ثم عاد ملك الأمراء
الى القلعة بعد العصر من يومه .

وفيه حضر شخص من حلب بهلوان ونصب في
بركة الفرع النى بالحسيه سوارى . حلالا . وكان
يوم الجمعة ، فاجتمع الجهم الكثير من الحلائق .
فلما سعد على الحبال ظهر اشياء عرييه في سعة
البهلوانية وهو واقف على الحبال ، منها أنه نصب
له أدماج وسيه ورمى بالنشاب في السيه وهو
واقف على الحبال ، ومنها أنه مشى على الحبال
وهو مفيد وعيناه مربوطه بخرقه ، ومنها أنه مشى
على الجبل وفي رجله فبقاب وتخته الواح صابون ،
ورمى في الادماج وهو واقف على سيوف مسلولة ،
ومها أنه مسى على الحبال مطلوباً وهو معسى
العيسين ، وأظهر من هسده الألعاب العجائب
والغرائب... وكان لمصر لمدة طويلة من أيام الأشرف
برسباى لم يدخلها مثل هداى صنعته البهلوانية .
وكان هدا البهلوان يدعى يوسف ، وهيل انه من
أبناء حلب ، وهيل انه نشأ باللاذقية . وكان شايبا
جليل الصورة وله عبيد حلهم صعه البهلوانيه
يشنون على الحبال أيضا ويظهرون الفنون العرييه
مثله .

وفيه حضر الزينى طيلان رأس نوبة ، وكان
بوجه الى مكة المشرفة من البحر المالح صحبه
مصلح الدين بك والتهاى أحمد بن الجيعان ،
وكان أشيع عنه أنه توجه الى اسطنبول مع جملة
من توجه هناك ، فلم يصح ذلك ، وانما كان توجه
الى مكة وحصر من البحر المالح أيضا .

وفيه توفى العلامى على بن طوغان الذى كان
دوادار الأشرف قانصوه خمسمائة ، وكان من
أعيان أولاد الناس ، وكان رئيساً حشماً بين الجانب
سيوسا في أفعاله ، وقاسى في آخر عمره شهائد
ومحنا بسبب قانصوه خمسمائة .

وفيه حضر قاصد من عند السلطان سليم شاه ،
فلما حضر أشيع بين الناس أن السلطان مفيم
بحلب ، وأن شاه اسماعيل الصفوي ممحرك على
ابن عثمان ، وهو في جمع كبير من العساكر ، وأن
ابن عثمان أخذ حدره منه . وأشيع بين الناس أن
نائب الشام جان بردى الغزالي تحايل على ناصر
الدين ابن الحنش شيخ الأعراب والبقاع وغير ذلك
من جهات دمشق . فلما تحايل عليه ونست حيلته
عليه قتله وفسل نحصا آخر من متماييح العربان
يقال له ابن الحرفوش . وكان ناصر الدين بن
الحنش كثير العصيان على نواب حلب ، بل وعلى
سلاطين مصر أيضا . وكان لما ملك ابن عثمان
دمشق امتنع من المقابلة به ، فتحايل عليه جان
بردى الغزالي حتى أخذه بغتة وقتله وحز رأسه هو
وابن الحرفوش ، وأرسل رأسيهما إلى ابن عثمان
وهو بحلب ، فعد ذلك من جملة سعد بن عثمان ،
ولولا تحيل الغزالي على قتل ابن الحنش بحيلة
صعدت من يده لما قدر على قتله ابن عثمان أبدا ،
وعد عجز عن ذلك سلاطين مصر .

وفيه أشيع أن الخنكار سليم شاه لما توجه إلى
حلب أرسل سيدي محمد ابن السلطان العورى
إلى اسطنبول من هناك ، وأرسل صحبه آخرين
من امرائه يتحفظون به إلى أن يدخل إلى اسطنبول
وأشيع أن الخنكار لما دخل إلى حلب أقام بها
مدة وحسن سورها وأبراجها وابوابها ، وعمر فيها
ما يحتاج إليه من العسارة ، وقتل من أهل حارة
بالقوسه جماعة من شرار أهلها ، وفيل وزع على
جماعة من أعيان حلب مالا له سورة ، وعمل فيهم
الطيط ، فلما بلغه أن شاه اسماعيل الصفوي يقصد
أن يزحف على البلاد الحلبيه أخذ يتلافى خواطر
أهل حلب ، ورفع عنهم ما أحدثه عليهم من المظالم .
وقد تقدم القول أن ابن عثمان لما كان مقيما بدمشق
طرقته قصاد الصفوي على حين غفلة من طريق غير

الطريق السالكة ، وهي أسربة قليلة السالك ، وهي
طريق يقال لها الحلويه بالشرب من ندمر ، فما ندمر
ابن عثمان إلا وهم بين يديه ، فقال لهم : « لم لا
أتينهم من الطرق السالكة » فقالوا له ، أن نساه
اسماعيل الصفوي أرسل اليك عدة قصاد ، ونوابك
الذين في البلاد بتلوونهم ، فقال لنا: توجهوا من هذه
الطريق ، تم قدموا إليه مطالعة الصفوي ، فأشيع
أن مضمونها أنه أرسل يترفق له في المطالعة ، وبعته
فيها بعوب سليبه بانك ملك البلاد والعباد ،
وملكت مصر وصرت خدام المصريين الشريين ،
وأنت الآن اسكندر عصرك ، والماضي بيننا لا يعاد ،
فتنوجه أنت إلى بلادك ، وأتوجه أنا إلى بلادى ،
ونصون دماء المسلمين بيننا ، ومهما كان فمصدق
فعلته لك . فلما وقف السلطان على مطالعة الصفوي
قال لوررانه . « ان هذه الهدية التي أرسلها اليها ،
وهذا الكلام الذي في المطالعة كله حيل وخداع ،
حتى يبطل عزمي عن مسافقاته ويترقى على حين
غفلة » كما فعلته قصاده . فتبيل انه أخذ الهدية
التي أرسلها ، وقتل القصاد وما أبقى منهم سوى
كبيرهم فكان كما قيل في أمثال الصادح والباغم :
وان من يستنصح الأعدى يردونه بالعنن والنساد
ثم ان ابن عثمان لما وردت إليه دساد الصفوي
وهو بالشام رحل عنها ، وتوجه إلى حلب ، وأحد
في أسباب تحسينها كما تقدم .

وفي جمادى الاوى ، وكان مسنهل الشهر يوم
الثلاثاء طلع القضاة إلى التلعة وهنوا ملك الأمراء
بالنهر وعادوا إلى منازلهم .

وفي يوم الأربعاء تأنبه تونيت زوجة الأمير
قايتباى الدوادار ، وهي سرية الملك الأشرف طومان
باى ، التي تدعى نال باى ، فلما ماتت دفن في
حوش مدرسه السلطان العورى .

وفي يوم الخميس ثالثه قدم القاضي شهاب الدين أحمد بن الجيعان نائب كاتب السر ، وكان توجه الى مكة المشرفة من البحر المالح صحبة مصلح الدين خازندار ابن عثمان ، فسببه مصلح الدين وتأخر بعده مدة ثم حصر . فلما حضر طلع الى القلعة وفابل ملك الأمراء فحلح عليه قفطانا احمر مخملا مذهبا ، ونزل من القلعة في موكب حفل وقدامه علاء الدين الامام كاتب السر ، وأعيان المباشرين من ارباب الوظائف ، وركب قدامه نصيب الجيش الشرقي يونس وجماعة من الأمراء العثمانية ، ومن الأمراء الجراكسة . فزينت له حارة البندقانيين وأوقدوا له بها الشموع على الدكاكين ، وتخلقت جماعته بالزعفران ... وكان ذلك اليوم مشهودا في القصف والفرجة .

وفيه رسم ملك الأمراء بالافراج عما بأيدي أولاد الناس والنساء من المربعات التي نانوا أوقفوها من أول السنة ولم يمضها المباشرون ، فحصل لأولاد الناس الضرر الشامل بسبب ذلك ، وعمل المباشرون بجملة مال له صورة ، وأمضوا للناس الافراج عن رزقهم واقطاعاتهم ونفعوا الناس عايه النفع ، ولم يشعر ملك الأمراء بشيء من ذلك .

وفيه وقعت حادثه شنيعة ... وهي أن شخصا من العوام كان أصله مؤذنا ، فدخل في بعض العيطان وفتح عيدان خيار سنبر ووضعها في قمه ، فمبص عليه الخولى وحصل بينهما تساجر ، فأغلظ عليه الخولى وأتى به الى بيت الوالى وقص عليه أمره ، فطلع به الوالى الى ملك الأمراء وعرضه عليه وهو حامل القفة التي فيها الخيار السنبر . فلما علم ملك الأمراء بذلك ، وكان ملك الأمراء حرج على بيع خيار السنبر ، وصار يشتريه على ذمته ويتجر فيه . ثم ان ملك الأمراء رسم للوالى بشنق ذلك الرجل الذى سرق خيار السنبر ، فأشهره في القاهرة ،

وعلق القفة التي فيها الخيار السنبر في رقبته ، وشق به من القاهرة حتى أتى به الى الفنطرة التي يزقاق الكحل فشنقه هناك ، وأقام ثلاثة أيام وهو مصلوب لم يدفن ، وراح الرجل ظلما على بعض عيدان خيار سنبر ما تساوى أربعة أنصاف ، فتأسف الناس عليه كيف راح ظلما على شيء ما يسحق هذا كله . وكان له أولاد وزوجة .

وكان ملك الأمراء يبيت يسكر طول الليل ، ويصبح في خبال السكر يحكم بين الناس بما يقول له عقله ، ولم يظهر العدل في محاكماته قط منذ ولى على مصر .

وفي يوم الثلاثاء خامس عشره ، في تلك الليلة خسف القمر ، وأقام في الحسوف ثمانيا وأربعين درجة .

وفيه أنفق ملك الأمراء الجامكية على الأمراء الطبلخانات ، وعلى الأمراء العشروات ، وعلى المماليك الجراكسة ، فأعطى الأمراء الطبلخانات كل واحد أربعين دينارا ، وأعطى الأمراء العشروات كل واحد منهم خمسة وعشرين دينارا ، كما أنفق عليهم في الشهر الماضى . وأنفق على المماليك كل واحد منهم ألفى درهم على العادة . وأنفق على أولاد الناس ممن نزل اسمه في الديوان ، فأنفق على العسكر جامكية شهرين كانت منكسرة لهم في الديوان من غير لحوم ولا عليق .

وفي يوم السبت تاسع عشره توفيت والددة الشهابى أحمد بن الجيعان ، ودانت لها جنازة حافلة . وفي يوم الأحد عشره وقعت حادثه مهولة ، وهي أن ملك الأمراء خاير بك كان عين جماعة من الانكشارية والاصباهية أن يسافروا الى الخنكار بحلب صحبة مصلح الدين . فلما قصد مصلح الدين السفر هربت الانكشارية والاصباهية في تلك الليلة ، وكسروا أبواب القلعة ونزلوا منها على

حمية ، وتوجهوا الى مصر العتيقة ، فتلوا في
المراكب الكبار ، تم أخذوا جماعة من النواتية
وسافروا في المراكب ، وفصدوا آذ يوجهوا الى
جهة الصعيد .

فلما بلغ ملك الأمراء ذلك أرسل يقول للأمير
قايتباي الدوادار : اخرج في هذه الساعة وسافر
خلف الانكشارية ، وكل من ظفرت به معهم اقتله .
فصلى الأمير قايتباي صلاة الصبح وركب وخرج
على حمية ، وصحبه الامير جانم الحمراوى ،
والامير على العثماني ، وجماعة كثيرة من المماليك
الجراسية ، وجماعة من العساكر العثمانية ، فعدوا
الى بر الجزيرة وأقاموا فيه ذلك اليوم حتى تكامل
خروج العسكر ، وخرجوا أفواجا افواجا ، فرجت
لهم القاهرة في ذلك اليوم وكثر القتل والقتيل في
ذلك اليوم بين الناس بسبب ذلك ، واضطربت
أحوال العثمانية في بعضهم ، وصاروا فرقتين : فرقة
مع ملك الأمراء ، وفرقة معهم عليه

ثم ان الأمير قايتباي رحل من الجزيرة هو
والعسكر وتوجه الى نحو الميمون بالقرب من
جزيرة بنى على ، فتلاقوا هناك مع الانكشارية
والاصبائية الذين هربوا هناك .

ثم ان الزينى يركات بن موسى المحتسب رسم
له ملك الأمراء خاير بك بأن يتوجه الى مصر العتيقة
ويملك مراكب ، ويرسل فيها رواده بالأمراء
والعسكر الذين توجهوا الى الميمون . فأوسق عدة
مراكب فيها زوادة ما بين بسماط وجبب حالوم
ورز وسمن وعسل وغير ذلك من الزوادة ، وأرسل
ذلك الى العسكر .

ثم في يوم الأربعاء ثالث عشره وردت الأخبار
بأن الأمير قايتباي الدوادار قد اتصر على
الانكشارية والاصبائية الذين هربوا ، فلما تلاقوا

معهم عند جزيرة بنى على تصدى الى قتالهم الأمير
جانم الحمراوى والأمير على العثماني ، فحاصر
الانكشارية في المراكب ، ورموا عليهم بالمدافع
والبندي الرصاص ، فأحرفوا مراكبهم ، فطلبوا
الأمان من الأمير على ، والامير جانم الحمراوى
وفد وقع عليهم في البحر فعرو من عرو ، وفبصوا
على الباقى وأسروهم ، فجزوا رؤوس جماعة منهم ،
وذانوا نحو ستة وتلاين رأسا ، وأسروا الباقين
بالحياة . ثم ان الأمير قايتباي ارسل تلك الرؤوس
والأسارى الى ملك الأمراء في مراكب ، فلما طلوعوا
بها علقوها على مدارى كما فعلوا برؤوس الجراسية ،
والمجازاة من جس العن ، فلما طلوعوا بهم الى
القلعة قصد ملك الامراء أن يعلى تلك الرؤوس
على ابواب المدينة فشق ذلك على بنية العثمانية ،
ومسعوا ملك الأمراء من ذلك . وأما بقية الانكشارية
الذين أسروا بالحياة فقطعوا رؤوسهم اجمعين ،
فقبل كانت عدة الانكشارية الذين قتلوا والدين
هربوا والذين عرقوا نحو مائة وخمسين انسانا .

ومن العجائب أن التراكمه كانت في العام الماضى
تقتل أولاد الجراسية ، فعما قريب صارت المماليك
الجراسية تقتل التراكمه في الليل والنهار ، وهذا
عجيب ! وقد ورد في بعض الأخبار « لا تكروهوا
القتل فان فيها حصاد المناقين » ، وقد قيل في المعنى :
لا تكروهوا الحرب ان فيه حصاد نذل مع الحيث
فمسنريح ومسراح منه كما جاء في الحديث
وفيه خرج مصلح الدين خازندار ابن عثمان ،
الذى قدم من مكة ، فتوجه الى الريدانية ، وقصد
السفر الى الخنكار ابن عثمان . وقد أشيع أن ابن
عثمان كان قد أرسل خلفه ، فلما أقام بالريدانية
نزل اليه ملك الأمراء وودعه ، ثم رجع ودخل من
باب النصر وشرق من القاهرة في موكب حافل ،

بمصر . فلما حضر لم يظهر لهذه الاشاعة نتيجة ، واستمر بطالا مقيما بمنزله . وبلا حضر حضر بصحبته الأمير شاد بك نائب المهندار ، والأمير جانم الطويل أحد الأمراء العشر اوات ، وكان أشيع موتهما بمرج دابق ، فلما ظهر أنهما في قيد الحياة حضر الى مصر .

وفي آخر هذا الشهر كثرت الاشاعات بأن عربان السوالم قد حضر منهم ما لا يحصى ، وقد فصدوا حرب ابن بقر ، وأظهروا غاية الفساد بالشرقية .

وفي جمادى الآخرة كان مستهل الشهر يوم الخميس ، فطلع قضاة القضاة الى القلعة وهنئوا ملك الأمراء بالشهر ثم عادوا الى دورهم .

وفي يوم الخميس ثامنه رسم ملك الأمراء بقراءة سبع ختمات : واحدة في مقام الامام الشافعى ، وواحدة في مقام الامام الليث ، وواحدة في مقام الشيخ عمر بن الفارض ، وواحدة في مقام الشيخ أبى الحسن الدينورى ، وواحدة في مقام الشيخ أبى الخير الكلبياتى رضى الله عنهم أجمعين ، وواحدة في المقياس ، وواحدة في الجامع الأزهر . ورسم بأن يهدوا ثواب ذلك للسلطان سليم شاه ابن عثمان ، فانه خرج الى ملاقاته اسماعيل شاه الصفوى .

فلما قدم رسول صاحب اليمن ، وعلى يده مقدمة حافلة للسلطان سليم شاه بن عثمان ، استمر القاصد مقيما بالقاهرة الى أن سافر صحبة مصلح الدين ، كما سيأتى الكلام على ذلك .

وفي يوم الأحد حادى عشر هذا الشهر طلع ابن أبى الرداد بيشارة النيل وأخذ قاع النيل فجاءت القاعدة ست أذرع وعشر أصابع أنقص من السنة الخالية بذراعين وست أصابع . فانه كانت القاعدة في السنة الخالية ثمانى أذرع وست عشرة أصبا .

وارتفعت له الأصوات من الناس بالدعاء ، واستمر على ذلك حتى طلع الى القلعة . ثم ان مصلح الدين أقام بالريدانية أياما تم عاد الى القاهرة ، فأشيع أن سبب ذلك أن قاصد صاحب اليمن قد وصل الى الطور ، وصحبته تقدمه حافلة الى السلطان سليم شاه بن عثمان ، فلما بلغ ذلك ملك الأمراء أرسل استرد مصلح الدين الى القاهرة حتى يدخل الى القاهرة قاصد صاحب اليمن ، ويأخذه صحبته مع التقدمه ويمضى الى الخنكار ، فهذا كان سبب رجوع مصلح الدين الى القاهرة .

وفيه رسم ملك الأمراء للفصاة بأن يتوجهوا الى مقام الامام الشافعى رضى الله عنه ويهروا هناك ، ويدعوا الله تعالى بالنصر للسلطان سليم شاه على اسماعيل الصفوى فتوجه فضاه القضاة الى مقام الامام الشافعى رضى الله عنه ، وهروا هناك ختمة ، وفرقوا أجزاء الربعة على الحاصرين ، فقرءوا أجزاء الربعة عشر مرار ، وأهدوا ثواب ذلك للبنى صلى الله عليه وسلم ، ثم الى السلطان سليم شاه ودعوا له بالنصر على الصفوى .

وفي يوم السبت سادس عشره حضر الأمير قايتباى الدوادار ، والأمير جانم الحمزاوى والأمير على بك العثمانى ، وكانوا توجهوا الى الميمون بسبب محاربة الانكشارية الذين هربوا ، كما تقدم . فلما انتصروا عليهم وقتلوهم رجعوا وطلعوا الى القلعة ، فطلع عليهم ملك الأمراء ونزلوا الى منازلهم

وفيه حضر الى القاهرة الأمير أرزمك الناشف أحد الأمراء المقدمين ، وكان لما ظهر ارسل الخنكار طلبه وهو بحلب ، فتوجه اليه هو والأمير قانصوه العادلى ، والأمير تمر باى العادلى ، وأقام عنده مدة ، ثم رسم له بالعودة الى القاهرة ، وكان أشيع بين الناس أن ابن عثمان قرره في الأتابكية

وقال لبركات ابن موسى أنت لو حججت في هذه السنة ما يقبلك النبي صلى الله عليه وسلم . فلما تزايد في القول حنق منه ملك الأمراء ، فأمر بضرب عنقه فضرب عنقه في الميدان . وقيل ان ذلك الرجل تكلم بكلام كثير ، وأظهر أنه كشف له عن أمور تأتي في أواخر هذه السنة من الأهوال ، فان كان صادقا فيما قاله وادعاه من هذه الأخبار التي ذكرها فسوف تقع ، ويظهر أثره أو صلاحه أو كذبه .

وفيه أشهر ملك الأمراء النداء في القاهرة بأن لا أحد من الحجاج يسافر في البحر المالح ، ولا يرسل له أحمال من البحر ، وموجب ذلك فساد العربان في الطرقات ، وعبث الفرنج في سواحل البحر المالح .

وفي يوم الخميس ثاني عشره خرج مصلح الدين خازندار ابن عثمان وتوجه الى نحو الريدانية ، وقصد السفر الى الخنكار ابن عثمان ، فخرج وقت صلاة الصبح وصحبته الأمير قايتباي الدوادار ، وأعيان المباشرين ، والأمراء العثمانية . فكان له موكب حافل .

ثم خرج بعده مقدمة حافلة أرسلها ملك الأمراء الى الخنكار هو وولده سليمان بك الذي باسطنبول . فكان ما اشتملت عليه تلك المقدمة من الخيول أربعين فرسا خاصات عليها عبي فلعي ، يصحبها أربعون فرسا من الأكاديش ، واثنان وأربعون جملا محملة قماشاً محزومة ، قيل صمنها تفاصيل سكندرية ، وأيدان منزلاوية ، وقماش فارسكوري ، وغير ذلك من شاشات وأرز ، وغير ذلك من مقاطع خمسيني ، وخام رفيع وغير ذلك .. ومن جبلتها أربعة وستون جملا محملة سكرا ضمن صناديق جريد بأغشية لباد أبيض . قيل جملة ذلك أربعمئة قنطار . وقيل أن ملك الأمراء كرر السكر ثانيا وجعل فيه المسك والعنبر الخام .

وفي يوم السبت سابع عشره لمقت ملك الأمراء أخبار رديئة ، بأن عربان السواحل قد طفست حتى وصلت الى بركة الحاج ، ووصل أوائلهم الى المطرية . فلما بلغ ملك الأمراء ذلك تنكد ، وأرسل الى الأمير قايتباي الدوادار يقول له : « اخرج في هذه الساعة ، واطرد العربان » . فخرج من يومه هو والماليك الجراكسة وجماعة من العثمانية ، ورماة من الانكشارية ، فرجت لهم القاهرة في ذلك اليوم ، فخرجوا وهم سائقون الى بركة الحاج . فقبل حصل بين الترك والعربان عركة يسيرة ، فقتل فيها جماعة من العربان ، وأسروا منهم جماعة ، وقطعوا رعوس أربعة . ثم رجع الأتراك بعد المغرب وقد وقعت خيولهم وبعض منها تفرقع من العطش ، وما رأوا خيرا ... فهربت العربان من وجوههم وصعدوا الى الجبل .

ثم رسم ملك الأمراء بشنق من أسر منهم على باب قنطرة الحاجب ، وعلقوا عليه تلك الرؤوس التي قطعوها من العربان ، وقيل قتلوا من الأتراك جماعة ورجعوا من غير طائل من العربان .

وفي يوم الأربعاء حادي عشره وقعت حادثة شنيعة ، وهي أن شخصا يقال له حسين وكان طشتدار عند الأمير نوروز أحد الأمراء المتقدمين ، ثم بقي في طشتخانات السلطان الغوري ، وهو رجل شيخ مسن زعم أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم في المنام ، وقال له امض الى سليم شاه بن عثمان وقل له يرجع الى بلاده ويكف القتال عن المسلمين بسبب اسماعيل شاه الصفوي . وادعى أن ابن عثمان دفع اليه مالا له صورة فلم يقبله منه . ثم ان ذلك الرجل ذهب الى ملك الأمراء خاير بك وقص عليه تلك الرؤية فتهاون خاير بك بكلامه . ثم أن ذلك الرجل قال لملك الأمراء : « ارجع عن مظالم العباد أنت والمباشرون ، خربتم مخر بظلمكم » ثم سب المباشرين بحضرة خاير بك سباً قبيحا ،

ومن جملة التقدمة جمال محملة عصفرا وحذاء وغير ذلك ، ومن جملة التقدمة أحبال شفافد ضسها مرطبات أشربة مربي .

وأشيع أن ملك الأمراء أرسل الى الخنكار ابن عشان جبالا عليها مال من حراج مصر عن سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة ، ولم يعلم ما قدر ذلك . فلما مضت تقدمة ملك الأمراء طلع في عقيب ذلك تقدمة صاحب اليمن ، وهي تقدمة حافلة تشتتل على شاشات وأرز وتحف ومعادن ولؤلؤ وفصوص وطواشية وغير ذلك . فلما مضت تقدمة صاحب اليمن ، طلعت تقدمة الأمير على بن عمر صاحب جهات الصعيد ، وهي تقدمة حافلة منها مائتا فنطار سكر ، ورقيق ما بين عبيد وجواري وخيل وجمال ، وغير ذلك أشياء حافلة تصلح للسلوك .

وفي يوم الجمعة ثالث عشره رحل مصلح الدين من الريدانية ، وتوجه الى الخانقاه . وأشيع أنه لما كان مصلح الدين بالريدانية سرق من تحت رأسه بقجة قماش قيل ان فيها مبلغا له صورة .

وفي يوم الجمعة المذكور طرقت ملك الأمراء أخبار ردينة ، بأن حسن بن مرعى شيخ عربان البحيرة أظهر العصيان وخرج عن الطاعة ، والتفت عليه عربان قبائل البحيرة وغيرها . فلما تحقق ملك الأمراء صحة هذا الخبر نزل الى الميدان قبل صلاة الجمعة وعرض المماليك الجراكسة ، والعسكر العثماني . فكتب من الفريقين نحو خمسمائة انسان ما بين انكشارية ورماة ، وعين صحبتهم عشر عجلات تكون قدام العسكر ، وعين الأمير قايتباي الدوادر باش المماليك الجراكسة ، وعين أمير آخور باش العثمانية .

وفي هذه الأيام اضطربت أحوال ملك الأمراء جدا ، وقد بلغه أن العربان طردوا اسمعيل بن الجسويلي عن أرض البساط وملكوها منه ،

واضطربت أحوال الغربية الى الغاية ، واضطربت أيضا أحوال الشرقية بسبب عربان البحر . وعبد الدائم بن بقر واخوته ، واضطربت أيضا أحوال جهات الصعيد ، وقصد ضاعت مصالح المسلمين بينهم . وخرّب من الشرقية والغربية عدة بلاد ، وظهر الفساد والفتن برا وبحرا . والأمر لله تعالى .

وفي يوم السبت رابع عشره أرسل شكر أخى حسن بن مرعى شخصا من أقاربه يطلب الأمان له من ملك الأمراء ، فأرسل اليه ملك الأمراء مندبيل الأمان وصورة حلف على يد القاضي فخر الدين ابن عوض ، وأرسل اليه ققطان حرير مخملا . وخلع على شخص من أقارب حسن بن مرعى الذي جاء يطلب الأمان من ملك الأمراء .

وفي يوم الأحد خامس عشره خرجت التجريدة التي كانت تعينت الى حسن بن مرعى ، وكان باش العسكر أمير آخور أخا ملك الأمراء وصحبته جماعة من العثمانية ما بين انكشارية ورماة بالبندق الرصاص ، وخرج صحبة العسكر تلك المعجلات التي عينت لهم ، وكانت عدتها عشر عجلات ، وخرجت طائفة من المماليك الجراكسة وتوجهوا الى البحيرة وصحبهم الأمان والخلعة الى شكر بن مرعى .

وفي هذا الشهر وردت الأخبار من مكة بأن عدة مراكب فيها افرنج يعبتون في البحر المالح ويقطعون الطريق على المسافرين في البحر . وأرسل السيد الشريف مطالعة الى ملك الأمراء بأن يرسل له تجريدة بسرعة ، وقد ختى على بنهر جسدة أن تطرقه الفرنج على حين غفلة ، ويملكوه من المسلمين .

وفي يوم الثلاثاء سابع عشره نزل ملك الأمراء الى الميدان الذي تحت القلعة ، وعرض العسكر ،

كان سببا لذلك ، فعد هذا من جملة مساويه في حق أهل مصر ، وحصل في هذه الحركة غاية النفع للباشيرين الذين تكلموا في أمر هذه المساحة بالشرقية . والأمر لله وحده .

وفي يوم الاثنين حادى عشره أشهر ملك الأمراء خاير بك المنادة في القاهرة بأن المماليك الجراكسة لا يلبسون زنوطا ، ولا يمشون بقبساقيب في الأسواق ، ولا يجلسون على المساطب في الحارات ، ولا على أبواب الجوامع ، وكان ملك الأمراء سامح لهم أولا في ذلك ، ثم ضيق عليهم ومنعهم من هذه الأفعال فيما بعد .

وفي يوم السبت سادس عشره رسم ملك الأمراء بشنق شخص عجمي فشنق ، وكان هذا الشخص ناجرا في سعة من المال ، فلما حضر من بلاد الشرق ومعه متجر بمال له صورة طمع ملك الأمراء في ماله وزعم أنه جاسوس من عند شاه اسمعيل الصفوى حضر ليكشف عن مصر وأحوالها ، ويطلع الصفوى بذلك . فشنقه ظلما ، واحتاط على جميع أمواله ، وجعل له ذنبا أنه جاء من عند الصفوى جاسوسا . وفي يوم الأربعاء عشره حضر شيخ العرب شكر أخو حسن بن مرعى شيخ جهات البحيرة صحبة القاضى فخر الدين بن عوض ، وقد تقدم القول بأن ملك الأمراء كان أرسل له مندبل الأمان على يد ابن عوض ، فأطاع وحضر الى القلعة وقابل ملك الأمراء فخلع عليه قفطان حرير ونزل من القلعة وتوجه ليحضر أخاه حسن بن مرعى ، فتوجه الى نحو قليوب وصحبته القاضى بركات المحتسب ليحضر حسن بن مرعى ، وأرسل له ملك الأمراء مندبل الأمان على يد القاضى بركات المحتسب .

ثم في أثناء ذلك اليوم حضر حسن ابن مرعى ودخل القاهرة وعلى رأسه مندبل الأمان ، وصحبته جماعة من العثمانية ، وأمير آخور أخو ملك الأمراء ، والزينى بركات المحتسب ، وفخر الدين

وعين منهم جماعة يسافرون الى جدة بسبب حفظ البندر . فلما عرض العسكر كتب منهم جماعة ما بين جراكسة وأولاد ناسى رمضانية وغير ذلك . وكان مجموع ما كتبه من العسكر فى ذلك اليوم نحو مائتين وخسين انسانا ، وأنفق فى ذلك اليوم على طائفة المغاربة على حكم ما كان ينفق عليهم السلطان العورى . فنزلوا من القلعة ، وشرعوا فى أسباب عمل برقتهم الى السفر ، وأما بقتية العسكر فلم ينفق عليهم شيئا . وقد صبر حتى يرد عليه من مسكة خبز آخر فى أمر الفرنج ينسد عليه .



وفي شهر حبيب وكان مستهله يرم الجنبعة طلع القضاة الأربعة وهنئوا ملك الأمراء بالشهر وعادوا الى دورهم .

وفي يوم الاثنين رابعه حضر جان بك دوادار الأمير قايتباى ، والأمير بخشباى فرا السدى كان شاد الشون ، والقاضى عبد الفتاح وآخرون من المباشرين . وكان هؤلاء توجهوا نحو الشريعة بسبب أنهم مسسحوا جهات الشرقية ، وميزوا الشرقى من الرى ، ومسحوا الأقطيع والرزق ، وعملوا بالباع والذراع فى الشرقية ، وجاروا على المقطعين فى المساحة . ثم انتقلوا من السرزق والأقطيع الى جهات الأوقاف فمسحوها ، وصاروا ينزلون الى البلاد ويفردون عليها المال ، ويضعون الفلاحين فى الحديد بعد الضرب المؤلم ، ويقررون على كل بلد ما يختارونه من الأموال . فجبوا من الشرفية فى هذه الحركة فوق المائة ألف دينسار ، وخرب فى هذه الحركة غالب بلاد الشرقية ، ورحل منها الفلاحون . وكان هذا أكبر أسباب الفساد فى حق الناس ، فعمت هذه الحادثة أصحاب الرزق والأوقاف من الرجال والنساء حتى الأراامل والأيتام والمستحقين ، وقد تعطلت الأوقاف بسبب ذلك . وكان هذا كله بواسطة ملك الأمراء خاير بك فانه

ولما توفي الشيخ بدر الدين الزيتوني رثاه
ولده القاضي بدر الدين محمد بهمة القطعة الزجل
اللطيفة وهي قوله :

يحق لي أن أرثي لموت والدي
كان أفصح النظام وغملو رجيج
في درج الأكفان للقياما اندرج
واجب على ففسدو بعزمي أصبح
كان والدي في فن الأزجال تقصدوا
حفاظ مصر والكل يبه يعتنون
وفي جميع العلوم مالو نظير
فقيه مدرس في جميع الفنون
يدرر الأصول والنحو معرب خطيب
ومنطقي في الصرف عاقل مصون
جا الموت خدو وأصحت بين الوري
فريده وجميع الناس بحزني تتيح
وينسذبوا هسي عليه بالفراق
وما جرى من جفن عيني الفريح
قوموا بنا جع الموالي والصحاب
نرتي الذي فد كان وكان في الدهور
زين الوجود مالو وجود في الوري
عارف بفن الشعر والكل زور
أصحابنا زيدوا النبواح والنحيب
على أديب يدرر أصول البحور
مثلو ما حد يحسن زجل في الأنام
ولا موشح لو ودويت صحيح
والفرو ظاهر مثل صبح الدجي
ما بين قاضي الكل والزمر ريج
كان في الأدب ناظم ونائر فصيح
وقد حوى جملة محاسن ملاح
ان ملت في التحرير حريري النظام
بل سيدو لما تعد الفصاح

ابن غوض ، وجماعة كثيرة من العربان . فشق من
القاهرة ومنديل الأمان على رأسه . فلما طلع الي
ملك الأمراء بالقلعة وفابله خلغ عليه فقطانا محملا
مدهبا ، ونزل من القلعة في موكب حافل .

وكان أشيع أن ملك الأمراء سيمبص عليه ، فانه
وقع في ذنب عظيم . وسبب ذلك أنه كان مسجوننا
بالقلعة من حين قبص عليه الخنكار وسجنه بها ،
فتسحب من هناك ليلا وهرب ، واستمر في عصيان
وهجاج مدة طويلة ، وكثر النيل والقال بسببه ،
والتف عليه جماعة كثيرة من عربان الغريبة . فلما
طلع وقابل ملك الأمراء وخلغ عليه بطلت تلك
الاشاعات التي كانت تشاع بين الناس بسبب
عصيانه .

وفي يوم الاثنين خامس عشرى شهر رجب ،
كانت وفاة صاحبنا الشيخ بدر الدين محمد بن
محمد الزيتوني العوفي رحمة الله عليه ، وكان أحد
نواب السادة الشافعية ، وكان فاصلا عارفا بصعة
القضاء والتوفيق ، ماهرا في الخطب . وكان فكه
المحاصرة كبير العترة للناس . وكان علامة في فن
الزجل . وكان ينظم الشعر على فنون ، وهي الشعر ،
والدوييت ، والموالي ، والموشحات . وكان له شعر
جيد ، ونظم أرجوزة مفيدة في الفقه وشرحها شرحا
على الأوضاع مفيدا في معناه . ومن شعره الرقيق
قوله ملغزا في اسم حسرة :

يا ساتلى عن اسم من خدوده كالعندم
في خده وثغره وفي فؤادى المعرم
وكان مولده سنة احدى وثلاثين وثمانائة ،
وذلك في شهر شعبان في سادسه . فكانت مدة
حياته اربعا وتسعين سنة الا يوما . فلما مات حضر
القضاة الأربعة وصلوا عليه ، وكانت له جنازة
حافلة ، ودفن بحوش ربة الصوفيه ، رحمه الله
تعالى .

أو عنتر العبي نهار المجال
أو نشر حاتم طي عند السماح
وما لشماخ رقتوا في البديع
وقس ما ينقاس بنطقو الفصيح
وسائر الحفاظ تراهم لديه
ما يقتدوا الا بقولو الصحيح
يا من روى الأخبار كان والدي
مختص بالآداب وكان لي مفيد
مفتاح لباب الرزق للضيق فرج
وجهو سرور كعبو مبارك سعيد
مختار لفعل الخير بشير الفرح
مرشد ومحسن كل ما فيه مليح
ياقونينا الخط وبجوهراتي
فرقو صباح ظاهر ووجهو صييح
كان آخر النظام وبحر العلوم
وروض تربه زاهر بديع الصفات
وتقلدان مع راح وريحان وروح
جمع ضريحو ذى المعاني الشتات
كيف لا أحرك للضريح ساكني
وأبكي عليه طوال الحيا للممات
ومشتكى حزني وروضي الترب
والتقل والراح الذي لي يريح
والروح والريحان وما فد عدم
من الوجود موجود بذاك الصريح
بعدو على الدوم قد الفت النواح
والحزن عن يعقوب ورتت النحيب
أصبحت من ما نوح سفيني غريق
والدمع طوفان ما طفا لي لهيب
يارب هب لي صبر أيوب عليه
وارسل اليه رحمه بظه الحبيب
قلبي من أجلو صار بحزني كليم
والدمع لو في صحن خدي مسيح

ونا غريق محروق بنار الخليل
وشبه اسماعيل بحزنو ديسح
قد نظم الجواهر بتأليف كتساب
حاوي لموم الفقه سهل البيان
وقد شرح لو شرح واضح مفيد
وصار لو يبه تذكرا بطول الزمان
وقال دخيرة لي ليوم النشور
أسكنه ربي في فسيح الجنان
دار النعيم فيها مقيم لم يزل
ما بين أشجار وكونر بسيح
والحور والولدان وما يستهيه
من الفواكه مع مصام فسيح
ونا ابن ريسوي عريق النسب
يا رب الارباب يا لطيف نا حير
اجبر بلطفك كسر قلبى الحزين
يا جابر العظم الرميم الكسير
واعطف على بحننو الوري
وما نعر فاجعدولي يسير
مدح المجد للحلائق شما
به يهتدى قلبى وبو أسريح
ونا أريد أمدح محمد عسى
يطمى لهيبى واهتدى بالمديح
صلوا على المختار حبيب الاله
من أرسلو الله للحلائق شفيع
يوم القيامة والخلائق زمر
ياتوا لآدم يقول ما أستطيع
اشفع تشفع في أمتك يسمع ال
مولى ويغفر كل ذنب قبيح
ويدخلوا الجنة كذا قد ورد
عن النبي مسند حديث صحيح

وفي هذا الشهر توقف النيل وسلسل في
الزيادة ، وصار يزيد في كل يوم أصبعا ، وتارة
أصبعين وقد مضى من مسرى شتره أيام ولم يصل
النيل الى عشر أذرع . فاضطربت احوال الناس في
تلك الأيام ، وتشحطت الغلال . وبلغ سعر البطة
الديق اثني عشر نصفا ... فعند ذلك رسم ملك
الأمراء بأن ينزل الوالى ويلبس الروضة ، فنزل
هو وجماعه من الأمراء العثمانيه وكبس الروضة ،
وفك الحيام التي كانت به ، واشهر لمناداة
هاك بأن لا أحد يتجاهر بالمعاصي ولا يجمع
جموعا ولا ينصب حيمه على شاطئ البحر ،
ومن يفعل ذلك ينس على باب داره من غير معاودة
في ذلك فانكف الناس عن التجاهر بالمعاصي
بالروضة ، فنزل في ذلك اليوم غالب الناس من
الروضة .

وفي شهر شعبان - وكان مستهله يوم الأحد -
طلع القضاة الأربعة ، وهننوا ملك الامراء بالسهل ،
ثم عادوا الى دورهم

وفي يوم الاثنين تاسع الشهر كانت وفاة
الشيخ الصالح القطب العارف بالله تعالى ، الورع
الزاهد الناسخ الشيخ محيي الدين عبد القادر ،
ابن الشيخ الصالح العارف بالله تعالى حسن ،
ابن الشيخ الصالح العارف بالله تعالى بدر الدين ،
المدعو شرف الدين موسى الدشظوطي ، رحمه الله
عليهم أجمعين وكان الشيخ عبد القادر شافعي
المذهب مجذوبا واعيا . وكان مكتنوف الرأس ،
وكان دائما شعره في رأسه وعلى جسده حبة خشنة
دائما . وكان سواحا لا يتخذ له سكنا ولا زوجة
ولا ولدا ولا عيالا وكان تتعدى بالقرايش
والزعر دائما . وكان لا يأكل طعام اللحم الا قليلا .
وكان مهيبا معظما عند الملوك والسلاطين وأعيان

الناس ، وكانت رسالته عندهم لا ترد . وكان في
أواخر عمره حصل له كفاف في عينيه واستمر على
ذلك حتى مات وقد عاش من العمر نحو ثمان
وثمانين سنة أو فوق ذلك .

وكان محببا للناس ، وكانت الذور التي تدخل
عليه من عند الأكابر تنتهي بها جوامع بخطيب
ومساجد . وله عدة جوامع ومساجد في أماكن
تنتي . ولما توفي ارجب له القاهرة ، ونزل ملك
الأمراء والعثمانية والأمير فايتباي الدوادار والقضاة
الأربعة وأعيان الناس وأرباب الدولة ، وخرج نعشه
من بيت المعلم حسن الصياد المهندس خارج باب
الشعرية ، ورفعت له الأعلام على نعشه ، وحضر
أطلقال المكاتب وعلى رؤوسهم المصاحف ، ومشوا
حول نعشه ، واستمر على ذلك حتى وصل الى
مدرسته التي أنشأها تجاه سيدي يحيى البلخي
فدفن بها . وكانت جنازته حافلة ، رحمة الله عليه ،
وكان بفيه السلف من الأولياء .

وفي هذا الشهر قبض ملك الأمراء على يوسف
البدرى الوزير ، ورسم عليه وعلى زوجته وعلى
عياله وعلمانه وحاشيته ، وقرر على يوسف البدرى
ملا له صورة ، وعلى زوجته وجماعته . وتمادى
أمره في المصادرة حتى ذهب ما يملكه جميعا من
صامت وناطق ، حتى باع أثاث البيت من قطارميز
وزلع ، حتى الحصر وغير ذلك ... واستمر في
المصادرة نحو شهرين هو وزوجته وهما في الترسيم
وعياله ، وآخر الأمر أرسلوه الى اسطنبول .
وسياتى الكلام على ذلك في موضعه .

وفيه نادى ملك الأمراء في القاهرة للمباشرين
والعمال بأنهم لا يستخرجون من بلاد الشرقية
والغربية عن سنة أربع وعشرين وتسعمائة شيئا الا
بمرسوم من عند ملك الأمراء ، فاضطربت أحوال

المسلمين والمباشرين . وكثر بينهم القليل والقال بسبب ذلك .

وفي يوم الجمعة ثالث عشره ، الموافق لسابع عشرى مسرى ، وفى النيل المبارك السب عشره ذراعاً ولم يزد من الدراع السابعة عشره شيئاً ، فلم يفتح السد فى ذلك اليوم .

وفى يوم السبت رابع عشره ، وفى النيل المبارك وزاد اصبعاً من السابع عشر ففتح السد فى ذلك اليوم . فلما وفى نزل ملك الامراء وتوجه الى المقياس وخلق العمود ، ومد هنالك مده حافله . وحضر الامراء العثمانية ، ثم نزل فى الحراقة وصحبته الامراء العثمانية ، وتوجه الى السد وفتحه ، وكان يوماً مشهوداً ، واوكب وهو طالع الى القلعة موكباً حافلاً . وكان وفاء النيل فى هذه السنة على غير القياس ، لأنه كان نيلاً شحيحاً ، وسلسل فى الزيادة وتوقف أياماً وتشحطت أسعار الغلال جميعها ، ثم وفى بعد ذلك فرح به كل أحد من الناس ، وكان الأمر كما قاله المعمار :

النيل وانى وزال الهم وانمرجت

عنا الهموم وهان القبح ثم رمى

وراح خزانة للنيل ننظره

فاستكثر الماء فى عينيه ثم عمى

ومن الحواث فى يوم وفاء النيل أن شحصاً من العثمانية غرق فى البحر ، فتأكد ملك الامراء والعثمانية بسببه .

وفى يوم الثلاثاء سابع عشره حضر قاصد من البحر من عند الخنكار ابن عثمان ، ولم يعلم ما قد جاء فيه ، وما سبب مجيئه . وكثر القيل والقال فى ذلك ، ثم ظهر من بعد ذلك ما جاء بسببه ، وسنذكر ذلك فى موضعه ان شاء الله تعالى .

ولما فتح السد وجرى الماء فى الخليجان ، لم

تسكن اليسوت فى الجسر ولا التى فى المصطاحى ولا حكر الشامى فشكا أصحاب الأملاك من ذلك الى والى القاهرة ، فنادى للناس فى الجسر بأن يسكنوا وعليهم أمان الله تعالى ، والذى لا يسكن فى بيته ولا نعمه يضرب عليه ملك الأمراء رنكه ويصير ملكه ، فصار يكرر تلك المناداة للناس ثلاثة أيام متواليه . فسكن فى الجسر بعض بيوت ، ودخل بركة الرطلى بعض مراك البياعين .

وأما الجزيرة الوسطى فانها خربت عن آخرها ولم يبق منها غير الجدر ورسوم البيوت لا غير ، وابناح أصحاب الأملاك بيوتهم انقاصاً . وكان السلطان الغورى سد خليج الزريه بجسر عند قنطرة موردة الجبس ، فتلاشى أمر الجزيرة الوسطى من يومئذ ، وخلت بيوتها من السكان ، وكانت من أجل متفرجات الديار المصرية . وكان مبتدأ منشئها فى دولة الأشرف اينال سنة اثنتين وستين وثمانمائة ، ولا زالت الناس تنشى فيها الأملاك الجليلة الى سنة احدى وعشرين وتسعمائة ، فتلاشى أمرها وخربت جملة واحدة لما دخل ابن عثمان الى القاهرة وجرى منه ما جرى ، ونزل فى بر الجزيرة على رهلة البحر ، فصار عسكره بحرب بيوت الجزيرة وبأخذ سقوفها وأبوابها وطمقانها ، فخربت بالكلية من يومئذ ، وانقطع الرجاء من عمارتها ثانياً . والأصل فى ذلك أنها أسست على غير تفوى ، وكانت بقعة فسق وزنا ، فآل أمرها الى الحراب سريعاً .

وفى يوم الاثنين ثالث عشرى هذا الشهر وافق ذلك اليوم يوم النوروز - والنيل فى ست عشرة ذراعاً ، ولم يدخل فى الدراع السابعة عشرة وكان من مبتداه الى منتهاه نيلاً شحيحاً .

وفي يوم الثلاثاء رابع عشره توفى سودون نائب
دمياط ، وهو أحد الأمراء العشراوات ، مات بطالا .

وفي شهر رمضان ، وكان مستهله يوم الاثنين ،
طلع القضاة الأربعة وهنئوا ملك الأمراء بالصوم ،
ثم عادوا الى دورهم . ولما دخل شهر رمضان كانت
الأسعار مشحطة في سائر البضائع ، وقد تناهى
سعر القمح الى أشرفيين كل أردب ، والبطة الدقيق
الى أربعة عشر نصفاً ، والسكر تناهى سعره الى
أربعة وعشرين أشرفياً كل قنطار ، والقنطر النبات
بخمسة أنصاف كل رطل ، والقنطر المكرر بأربعة
أنصاف كل رطل ، والعسل النحل بثلاثة أنصاف
كل رطل ، والعسل الأسود بنصفين كل رطل ،
والسمن بثلاثة أنصاف كل رطل ، والجبن المقلّى
بثلاثة أنصاف كل رطل ، والجبن الحالوم بنصفين
كل رطل ، والجبن الأزرار الذى فى مائه بنصف فضة
كل رطل . وتشحط اللحم الضانى واللحم البقرى
حتى صار لا يوجد الا قليلا . فابتاع اللحم الضانى
بثمانية عشر كل رطل ، والبقرى بثمانية كل رطل ،
وابتعت الحلوى المشبك من القادري بخمسة
أنصاف كل رطل ، والمنفوش بستة كل رطل ،
وعمت هذه التشحيطة سائر البضائع وسائر
العجوبات حتى الخضر . وسبب ذلك أن الزينى
بركات بن موسى كان مشغولاً بعمل برق الحجاز ،
وقد أهمل أمور الحسبة ، ولم يلتفت لها ، فجارت
السوقة على الناس وهم فى أمر مريب بسبب هذه
التشحيطة التى وقعت فى تلك الأيام ، وكادت
الناس أن يأكل بعضها بعضاً .

وفي يوم السبت ثالث عشره جلس ملك الأمراء
فى المقعد الذى بالحوش ، فتكاثرت عليه المماليك
الجراكسة فى المقعد فحنق منهم ، فقال للانكشارية
الذين حوله : اضربوهم واطردوهم من المقعد . فلما

سمعوا منه ذلك ضربوا المماليك الجراكسة بالعصى
على وجوههم ضرباً فاحشاً ، فجهزت ضربه على
أكتاف جنائى بك دوادار الأمير قايتباى الدوادار
فانزعج كنفه . فحصل للمماليك الجراكسة فى ذلك
اليوم كسر خاطر ، ونزلوا من القلعة على أنجح
وجه .

ثم فى عقيب ذلك اليوم طلع المماليك الجراكسة
الى الميدان بسبب تفرقة الأطلاق ، فحضر العاصى
شرف الدين الصغير كاتب الممانات وفرق الأطلاق ،
فأعطى لجماعة من المماليك فداد طين ونصف ،
وبعض فदानا ، وبعض نصف فدان ، فنضرو المماليك
من ذلك ، وقالوا : ايش يكفيننا النصف فدان ؟
وشكوا من ذلك فسبهم القاضى شرف الدين سبا
قبيحا ، وقال لهم : « يا كلاب يازرايين أتمم بفى
لكم باب والا راس حتى تتكلموا ، ييضتم
وجوهكم فى اش حتى تستحقوا اطلاقاً » ؟
وبهدلهم غاية البهدلة ، فنزلوا من الميدان على أقبح
وجه . وقد قلت آياتاً فى هذا المعنى :

لما تكبرت الجراكسة التى

كانت بمصر أذلهم رب الورى

وأذاقهم ذل السؤال وفاقة ا

أبدى وأدبهم بما لهمو جرى

وفى هذا الشهر وقعت بين ملك الأمراء وبين
الأمير قايتباى الدوادار فتنة ، وصار كلما طلع
اليه يسقته . وسبب ذلك أن شحصاً من عربان
السوالم كان عند قايتباى ، فأرسل خاير بك اله
انكشاريا أخذه من عنده ، ووضع فى الحديد ،
فصار بينهما حظ نفس فى الباطن .

وفيه قدمت الأخبار من اسطنبول على يد
شخص من العثمانية ، وصار يفرق مراسيل على
عيال من توجه الى اسطنبول ، فذكروا فى كتبهم

حكّموا بأن سليم شاه ابن عثمان ما بقي يدخل الى بلده اسطنبول ، فكذبهم الله تعالى فيما قالوه ، ودخلها وأقام بها أياما ، وبطلت آفواهم الكاذبة ، كما يقال في المعنى :

لا ترقب النجم في أمر تحاوله

فأله يفعل .. لا حدى ولا حمل

مع السعادة ما للنجم من أثر

فلا يضرك مريخ ولا زحل

وفيل بلغ الخنكار أن شاه اسماعيل الصفوى طرد عسكر ابن عثمان عن البلاد التي كان ملكها ، واستناب بها جساعة من العثمانية ، فطردهم الصفوى عن بلادهم واستخلصها من أيديهم . فلما بلغ ابن عثمان ذلك حرج من اسطنبول مسرعا ، وأقام بأدرنة حتى يرى ما يكون من أمر شاه اسماعيل الصفوى . هكذا أشيع بين الناس والله أعلم بحصيه ذلك .

وفي يوم الخميس مع ليلة الجمعة تاسع عشر شهر رمضان ، صنع الزيسى بركات بن موسى مسيرة حافلة ، وركب معه جماعة من المباشرين ، فشق من القاهرة بعد صلاة العشاء بأربعين درجة ، وقدامه انكشارية وفواسة ومشاة بقوايس ومشاعل كثيرة . فانطلقت له النساء بالزغاريت من الطيفان ، وارتفعت له الأصوات من العوام بالدعاء . وكانت من الليالي المشهورة . وارتجت له القاهرة في تلك الليلة ، وكان محببا للناس قاطبة .

وفيه وقع من الحوادث أن شخصا من العثمانية كان في خان الخليلي قد قبض على شخص من العوام زعم أنه سرق من جيبه أربعة أنصاف ، فلما قبض عليه طلع به الى ملك الأمراء ، فلما أوقفه بين يديه قص عليه قصته وما فعله به في خان الخليلي ، وأنه قبض على يده وهى في جيبه ، وأخذ من جيبه

وقاة جماعة كثيرة من أهل مصر ممن توجه الى اسطنبول لهم تحضرنى أسماؤهم الآن .

وأشيع أن الخنكار لما رحل عن حلب الى بلاد على دولات ، نزل بمرعش وأقام بها مدة ، ثم رحل من هناك وتوجه الى اسطنبول ، وهى القسطنطينية العظمى محل كرسى مملكة ابن عثمان ، فقيل ان أمير المؤمنين محمد المتوكل على الله لما بلغه مجيء الخنكار ، خرج من اسطنبول ولاقاه هو وأولاد عه ، والعلائى على ابن الملك المؤيد وأولاد الأمراء الذين هناك ، والمباشرون وأولاد الجيعان الذين هناك ، وأولاد الناس من أهل مصر الذين توجهوا الى اسطنبول ... فلما وقعت عين الخليفة على ابن عثمان أراد أن ينزل له عن فرسه ، فحلف عليه الخنكار ومنعه من النزول اليه ، وقيل انه عظمه غاية التعظيم .

وأما بقية أعيان أهل مصر الذين هناك فلم يلتفت اليهم لما خرجوا اليه ولاقوه ، هكذا أشيع بين الناس ، وكانوا يظنون أن الخنكار اذا دخل الى اسطنبول يفرج عنهم ويرسم لهم بالعود الى مصر ، فلم يخاطب منهم أحدا ولم يلتفت اليهم .

وأشيع أنه لما دخل الى اسطنبول دخل في موكب حافل فأقام نحو ستة أيام ، ورحل عنها وتوجه الى بلد من أعمال مملكته يقال لها أدرنة فأقام بها . وسبب ذلك أنه لما دخل الى اسطنبول وجد بها قناء عظيما ، وقد فتك بها الطاعون فتكا عظيما ، ومات به من عسكره ما لا يحصى . وقيل مات من أهل مصر ممن توجه الى اسطنبول نحو من ثمانين انسانا ، منهم أعيان وغير أعيان ، ولكن لم آقف على حقيقة أسماء من مات هناك من الأعيان . وسيظهر فيما بعد من توفي هناك من الأعيان .

ومن العجائب أن الفلكية وأرباب النجوم

وهو ماش أربعة أنصاف . فلما سمع ملك الأمراء ذلك رسم للموالى أن يقطع يده ، فقطع يده وعلقها في رقبته وأشهره في القاهرة . فتأسف الناس عليه كيف قطعت يده على أربعة أنصاف ، وقد راحت ظلما !

وقد تقدم القول أن ملك الأمراء شنق رجلا على عيدان خيار شسبر ، وكان ملك الأمراء يصيح وهو مخمور يحكم بين الناس بالعسف والظلم ، مما لا يسوع الشرع الحكم به ، وكان الغالب عليه الجهل وقلة الدين في أفعاله كلها

وفي يوم الخميس خامس عشره ، حصر شيخ العرب عبد الدائم بن بقر ، وكان ملك الأمراء أرسل اليه مندبل الأمان ، وخلعه بأن يستقر في شياخة الشرقية . فلما حضر وقابل ملك الأمراء تقدم اليه والده شيخ العرب الأمير أحمد بن بقر وبمسك ابنه عبد الدائم من طوقه بين يدي ملك الأمراء ، ثم التفت الى ملك الأمراء وقال له : يا ملك الأمراء متى أطلقت هذا صار في ذمتك الى يوم القيامة ، وخرب الشرقية عن آخرها . فتعصب للأمير أحمد حير الدين بك نائب القلعة ، وقال لملك الأمراء : « اذا كان أبوه يشكو منه فكيف تطلقه أنت ؟ » فساعده على ذلك سنان باشا ، فما وسع ملك الأمراء الا أنه وسعه في الحديد ، وسنمه الى خير الدين نائب القلعة .

ثم ان ملك الأمراء قبض على جماعة عبد الدائم الذين كانوا حضروا صحبته قاطبة ، وكانوا نحو ثلاثين نفرا من أعيان العربان ، ووضعهم في الحديد ، وأرسلهم الى السجن ، ثم أحضر ققطان حرير أخضر وخلعه على الأمير بيبرس ابن الأمير أحمد بن بقر ، وقرره في مشيخة الشرقية عوضا عن عبد الدائم وقد سر بمسك عبد الدائم كل أحد من الناس ،

فانه كان من المفسدين في الأرض ، ووقع منه أمور شنيعة من حين دخل ابن عثمان الى مصر ، وفتح الطريق على القوافل التي تأتي من الشام ، وقتل التجار وأخذ أموالهم ، وقتل جماعة كثيرة من المماليك الجراكسة الذين كانوا قد طفشوا في البلاد ، وأخذ سلاحهم وخيولهم . وقد فعل من هذه الأفعال القبيحة ما لا يحصى ، ووسع يده على خراج بلاد الأوقاف واستخرجها ، وفعل من هذا النمط أشياء كثيرة .

ثم ان ملك الأمراء أرسل صرب الحوطة على موجود عبد الدائم من صامت وناطق ، حتى على سواقيه وزروعه ومواشيه وثيرانه وأبقاره وغير ذلك ، والذي خبث لا يخرج الا نكدا

وفي يوم السبت سابع عشرى شهر رمضان نبت النيل المبارك على سب أصابع من سبع عشرة ذراعا ، وهبط سريعا ولم يزد في بابة غير خمسة أيام ونقص . وكان نيلا شحيحا من مبداه الى منتهاه .

وفي ذلك اليوم نزل ملك الأمراء وشق من القاهرة ، وقد بلغه أن قاصدا حضر من عند الخنكار ابن عثمان فنزل الى ملاقاته . فلما شق من القاهرة ضجت اليه العوام من قلة الخبز في الأسواق ، وانطلقت الألسن في حق ملك الأمراء بالكلام الفج ، وقالوا له انظر في أحوال المسلمين بنور الله تعالى والا يصير ذلك في ذمتك . فتتكده ملك الأمراء في ذلك اليوم الى الغابة .. وكان صحبته الزينى بركات ابن موسى المحتسب ، فقاسى في ذلك اليوم من ملك الأمراء ما لا خير فيه . وقال له : « قد غفلت عن الناس حتى صارت غلوة بمصر » .

ثم ان ملك الأمراء لما طلع الى القلعة ، رسم نفتح شوتتين وأن تفرق على الطحانيين ، ففعل ذلك .

لهفى على أعياد مصر كيف قد
أفنت تشاريفاً بها ومتمرا
وكذا الكنايتس التي فد زخرفت
كانت تشد خيولها عند السرى
وكذا السروج المفرقات بلسمها
كانت كبرق أو كليسل أقسرا
زالت محاسن مصر من أشياء قد
كانت بها تزهو على كل القسرى

ثم نزل الزينى بركات بن موسى من القلعة فى
موكب حافل ، ومدامه الملاية والمشاعل بالقوط
الزركش عليها ، والانكشارية بالنقوط قدامه ،
والفواصة قدامه متناه . فشق من القاهرة فى ذلك
الموكب .

وفى يوم الخميس ثانى شوال طلع جماعة من
أعيان المباشرين الى القلعة على جارى العادة ، فلما
تكاملوا أخرج اليهم ملك الأمراء مرسوم الخنكار
ابن عثمان الذى أرسله على يد صوباشى من
العشانية ، السدى تقدم ذكر حضوره من البحر
المالح . وكان من مرسوم ذلك المرسوم أنه أرسل
يطلب خمسة من المباشرين يتوجهون الى اسطنبول
وهم : العلاتى على ناظر الخواص الشريفة ،
والشرفى يوس النابلسى ، والقاضى بركات أخو
القاضى شرف الدين الصغير كاتب الرجى ، والقاضى
فجر الدين بن عوض ، والقاضى أبو البقاء ناظر
الاسطبل . وأرسل يطلب الأمير يوسف البدرى
الوزير الذى كان كاشف العربية . وأرسل يطلب
الشرفى يونس نقيب الجيش ... فلما تحققوا ذلك
اضطربت أحوالهم ، ورسوا عليهم بالقلعة ، وقالوا
لهم اكتبوا وصاياكم ، ويوم الجمعة تسافرون من
البحر .

ثم فى ذلك اليوم خلع ملك الأمراء على القاضى
شهاب الدين بن الجيعان ، واستقر به فى كتابة السر

وفى يوم الثلاثاء سلخ شهر رمضان ، أرسل ملك
الأمراء أمير علم الى بيت الأمير قايتباى ، وقال له
قد رسم لك ملك الأمراء أن تدق على بابك فى هذه
الليلة طبلخانات وكتوسات . فلما سمع ذلك الأمير
قايتباى أرسل يقول لملك الأمراء : « أدق الطبلخانات
على بابى دائما ، والا فى هذه الليلة فقط » ؟ فلما
عاد الجواب الى ملك الأمراء قال : قل له فى هذه
الليلة فقط . فلما بلغ الأمير قايتباى ذلك لم يوافق
على دق الطبلخانات على بابه فى هذه الليلة فقط ،
وقال : « أدق الطبلخانات على بابى ليلة واحدة
حتى تضحك على الناس ؟ » . وامتنع من ذلك
ولم يدق الطبلخانات على بابه فى تلك الليلة .
وقد بطل أمر دق الطبلخانات على أبواب الأمراء
من حين دخل ابن عثمان الى مصر وقد قلت فى
ذلك :

لهفى على الكاسات قد دقت على

باب بسعد اميره قد بشرا

وفى شهر شوال كان عيد الفطر يوم الأربعاء ،
فخرج ملك الامراء وصلى صلاة العيد فى جامع
القلعة وخطبه فاضى الفضاة كمال الدين الشافعى ،
وانفض موكب العيد كأنه لم يكن ، ولم يحلم فيه
ملك الأمراء على أحد من أرباب الوظائف ،
ولا على قضاة القضاة ، ولا على أحد من المباشرين
ولا على الأمير قايتباى الدوادار . وبطل ما كان
يعمل فى يوم العيد من تلك المواكب الجليلة
والخلع المنترات ، والتشاريف السنية . وبطلت
تلك الطرز اليلبغاوية العراض ، والقوقانيات
الحرير الأخضر ، وبطلت أشياء كثيرة كانت من
شعار الملكة . ووقع لى فى المرثية التى قتلها فى
مصر آيات فى معنى ذلك وهى :

عوضا عن علاء الدين ناظر الخاص . وخلع على
القاضي شرف الدين بن عوض أخى فخر الدين ،
واستقر به فى كتابة الخزانة ومتحدثا فى جهات
الشرقية . وخلع على القاضي بركات بن موسى
وقرره فى الحسبة على عادته ، وجعله متحدثا على
الاستادارية عوضا عن يونس النابلسى ، وأشرك
معه الشرفى يونس النابلسى استادار ملك الأمراء ،
وخلع على القاضي أبى بكر بن الملكى وقرره على
عادته مستوفى ديوان الجيش ، وخلع على يوسف
ابن قتيب الجيش واستقر به فى نيابة الجيش عوضا
عن أبىه . فخلع على هؤلاء الجماعة فى يوم واحد
ونزلوا من القلعة وعليهم القفاطين الحرير .

وفى يوم السبت رابع شوال نزل ملك الأمراء
من القلعة وسار نحو بركة الحاج وصحبته الأمير
قايتباى الدوادار ، والأمير سنان باشا وفائق بك ،
وجماعة من الأمراء العثمانية ، وجماعة من المماليك
الجراسية . ولما وصل إلى سبيل علان ساق قدامه
الركاب بالخيول الجنائب ، وسأقت معهم خيول
الأمراء ، فسبق فرس الأمير قايتباى الدوادار فرس
سنان باشا .

وفى يوم الأحد ثانى عشره أشيع أن ملك
الأمراء أفرج عن القاضي نور الدين على الفيومى
الحنفى ، وكان له مدة وهو فى الترسيم بالقلعة ،
بسبب مكتوب ثبت عليه ، وكان غير محمود السيرة
فى أفعاله ، وجرت له وقائع كثيرة .

وفى يوم الاثنين ثالث عشره أنفق ملك الأمراء
على العساكر الذين تعينوا للعقبة والأزم ، فأعطى
لكل واحد منهم جامكية ثلاثة أشهر معجلا ، وهى
عبارة عن ستة آلاف درهم . وقيل رتب لكل واحد
منهم فى كل يوم رطلين بقسماطا تصرف لهم فى
العقبة ، ورسم لهم بأن يعيّنوا مسع الحجاج اذا
حضروا الى القاهرة . وتوجه هذا العسكر الى
هناك لأجل حفظ ودائع الحجاج ، وملاقاتهم التى
تتوجه لهم من مصر . فان العربان تزايد فسادهم
فى حق الحجاج ، وأرسلوا يطلبون لهم نجدة عند
عودهم الى مصر .

قيل ان هذه عادة عند العثمانية أنه فى أيام العيد
يخرج الخنكار ويسير فى الفضاء ، ويسوقون
قدامه بالخيول ، فمن سبق فرسه ينعم عليه الخنكار
بمائة دينار ، والذى تقصر فرسه عن السباق ينعم
عليه بيطيخة ، وهذا من أنواع المماجنة . فانشرح
ملك الأمراء فى ذلك اليوم الى الغاية .

وفيه قبض ملك الأمراء على الخوارج شهاب
الدين أحمد بن أبى بكر السكندرى ، ووضع فى
الحديد ، وقرر عليه مالا له صورة . وأشيع أن
الخنكار أرسل بطلبه الى اسطنبول ، فاضطربت
أحواله بسبب ذلك الى الغاية .

وفي يوم الأربعاء خامس عشره رسم ملك
الأمراء بشنق عشرة أنفار من جماعة عبد الدائم بن
بقر ، فانهم كانوا من المفسدين ، فشنقوا وعلقوا في
أماكن شتى من القاهرة ، فشيء في قنطرة الحاجب ،
وشيء في رأس الخمينية ، و شيء في باب النصر .
وقد وسطوا منهم جماعة ، وشنقوا منهم جماعة ،
وشيء خوزقوهم .

وفي يوم الجمعة سابع عشر شوال أنزلوا من
القلعة جماعة من المباشرين ممن كانوا في الترسيم .
وفد تقدم التول أنهم يتوجهون بهم الى اسطنبول ،
فأنزلوهم من القلعة بعد صلاة الصبح : منهم من
هو راكب على بغلة ، ومنهم من هو راكب على
حصار . فشنقوا بهم من الصليبه ووجهوا بهم الى
بولاق ، وحولهم جماعة من الانكشارية مشاة
بالسيوف في أوساطهم . والصوباني الذي هو
متسفر عليهم راكب قدامهم . فكثر عليهم الأسف
والحزن والبكاء من الناس ... فكانت عندهم سبع
أنفس ، وهم : القاضي علاء الدين بن الامام ناظر
الخاص ، والشرفي يونس النابلسي الاستادار ،
والقاضي بركات أخو شرف الدين الصغير كاتب
المماليك ، والقاضي فخر الدين بن عوض ، والقاضي
أبو البقاء ناظر الخاص والأسطبل ، والشرفي يونس
نقيب الجيش ، والأمير يوسف البدرى وزير الديار
المصرية ، وأصله من مماليك الأمير يشبك بن مهدي
الدوادار ، كان قدمه للأشرف قايتباي ، ولا زال
يترقى حتى رأى من العز والعظمة غابة العلاء ،
وجرت عليه بعد ذلك شدائد ومحن ، وآخر الأمر
نفي الى اسطنبول .

فلما وصل هؤلاء الى بولاق نزلوا بقصر ناظر
الخاص الذي هناك حتى تنتهى أشغالهم ، فحصل
لنساء القاضي أبي البقاء والقاضي أبي البركات
كاتب الرجس على أزواجهن غاية الحزن ، فقمنا

لنعيهم ودققن عليهم بالطارات ، وكذلك زوجة
يوسف البدرى وبغية المباشرين . وكانت هذه
الحادثة من أشنع الحوادث التي لم يقع قط مثلها
فيما مضى من الزمان . فاستمروا بقصر ناظر الخاص
بيولاق الى يوم الاثنين عشرى شوال ، فنزلوا
وتوجهوا الى ثغر الاسكندرية .

وكان هؤلاء المباشرى لما صفا لهم الوقت
طاشوا وصاروا كأنهم هم الملوك بمصر ، يتصرفون
في أمور السلطنة بما يختارونه ليس على يدهم يد
واستغرقوا في اللذات ، وعكفوا على شرب
الخمور ، وسماع الزمور ، ولم يتفكروا في
عواقب الأمور ، فاستمروا على ذلك حتى طرقتهم
الأخبار الردية ، وأحاطت بهم كل رزية ، فكانوا
كما قيل في المعنى :

من يرتشف صفو الزمان

ن بغص يوما بالكدر

ثم في عقب ذلك سافر الى اسطنبول الناصرى
محمد بن الورد لاعب الشطرنج ، ورفيقه الشهابى
أحمد الاسكندراني . وقيل ان الخنكار سليم شاه
أرسل يطلبهما الى اسطنبول على لسان الخواجا
يونس العادلى ، وأرسل لهما مبلغا له صورة بسبب
كلفة السفر ، وعمل الزوادة .

ويقال ان جماعة من المباشرين الذين توجهوا الى
اسطنبول سألوا ملك الأمراء بأن يعطوه مالا له
صورة ويعفيهم من السفر الى اسطنبول ، فما قدر
على ذلك .

وفي يوم السبت ثامن عشر شوال خرج المحبل
الشريف من القاهرة في تجمل عظيم ، وكان امير
الركب الزينى بركات بن موسى المحتسب ، فخرج
بطلب حافل ، فكان ما اشتتل عليه الطلب خمس
عشرة نوبة من الهجن ، عليها أكوار ، ما بين مخمل

وفي شهر ذي القعدة وكان مستوله يوم الجمعة ،
 طلع القضاة الأربعة للتهنئة بالسهرة ، فلما تكامل
 المجلس وقع تشاجر بين قاضي القضاة المالكي
 محيي الدين يحيى الدميري ، وبين قاضي القضاة
 نور الدين على الطرابلسي الحنفي ، فتفاوضا
 الكلام في ذلك حتى خرجا عن الحد بسبب وقفة
 الأمير يشبك بن بهدي الدوادار الكبير ، فانه شرط
 في وقفه النظر والتكلم للأمير تغري بردى
 الاستادار ، وانه يدخل من شاء ويخرج من شاء
 من المستحقين ، ويستمر ذلك حتى يتسوف الأمير
 تغري بردى . فسعت ابنة الأمير يشبك عند قاضي
 القضاة عبد البر بن الشحنة في ابطال ما كان شرطه
 والدها للأمير تغري بردى ، ويجعل لها النظر على
 ذلك والتحدث على وقف والدها ، فتحكم بنفسه
 في ذلك ، وقد ساعدها على ذلك السلطان الغوري .
 فلما ثبت ذلك على يد القاضي عبد البر وحكم بما
 فيه ، أبطل ما كان اشترطه الأمير يشبك لتغري
 بردى .

فلما توفي قاضي القضاة عبد البر ، وتوفيت ابنة
 يشبك ، سعى جماعة من معاتيق يشبك الدوادار
 لتغري بردى ، فتحكم بصحته وتبع في ذلك شرط
 الواقف . فلما جرى ذلك عز على بقية القضاة ذلك
 لكونه نقض حكم قاضي القضاة عبد البر . فحضر
 في ذلك اليوم شخص من أولاد عبد البر ، وقال
 لقاضي القضاة نور الدين الطرابلسي : « أتتقض
 حكم شيخ الاسلام عبد البر وأنت من بعض
 طلبته » ؟ وساعده قاضي القضاة على ذلك ، وحط
 عليه ملك الأمراء خاير بك ، وكان المجلس كله
 عليه ، فما وسعه في ذلك المجلس الا أنه قال :
 « رجعت عن حكمي ، وأبقت حكم قاضي القضاة
 عبد البر على ما كان عليه » . فشهدوا عليه في ذلك
 المجلس بابطال ما كان حكم به ، فعد ذلك منقصة

ملون وجوخ أصمقر ، وبعض جنائب بيركستوانات
 فولاذ ، وطبول ومحفتين جوح لنسائه ، وثلاث
 خزائن على العادة ، وكاسات على العادة وطيلين
 وزمرين ، وعلى رأسه صنجق عشائني حرير أحمر .
 وركب صحبته جماعة من المباشرين الذين تأخروا
 بمصر ، وهم : الشهابي أحمد بن الجيعان ،
 والقاضي شرف الدين الصغير كاتب المماليك ،
 والقاضي تقي الدين أبو بكر بن الملكى ، والقاضي
 عبد العظيم الصيرفي ، وآخرون من المباشرين .
 وكان قدامه انكشارية ورماة وقواسم نحو مائتي
 انسان ... فلما شق من القاهرة دعا له العسوام ،
 وانطلقت له النساء بالزغاريت من الطيقان ، وكان
 ذلك اليوم مشهودا ، فلهج الناس بأن ذلك سيكون
 آخر سعده . وخرج في هذه المنة حجاج كثيرة
 وغالبهم فلاحون وريافة .

وأشيع أن العربان وقت لهم في الطريق ، وأن
 الغلاء موجود معهم من حين خرجوا من مصر ،
 وكذلك العليق كان مشحوتا . فلما خرج الحجاج
 وقف جماعه من أولاد الناس ، والمماليك الذين
 عينوا الى العقبة الى ملك الأمراء ، وشكوا له من
 عدم الجمال وأنها لم توجد . فرسم بابطال جماعة
 منهم نحو ثلاثين انسانا . وكان الذين تعينوا في
 الأول نحو ستين انسانا أو فوق ذلك

وأشيع أن أرباب الأدراك من العربان وققوا
 الى القاضي بركات بن موسى بسبب عاداتهم من
 الصرر ، فنفر فيهم ونهرهم وسبهم ، فخرجوا من
 عنده على غير رضا ، وقيل ان نافلر الخاص لما حج
 في السنة الخالية أنعم على العربان وأرباب الأدراك
 بألف جوخة حتى رجع بالحاج وهو سالم وييض
 وجهه عند الناس .

في حق قاضي القضاة نور الدين الطرابلسي ، ولامه الناس على سرعة تقضه لحكمه في الحال ... فعد ذلك من النوادر الغريبة . وصارت الوحشة عمالة بين قاضي القضاة المالكي والحنفي في الباطن ، فنزل قاضي القضاة الحنفي من القلعة في ذلك اليوم وهو في غاية التعس

وفي عقيب ذلك عزل قاضي القضاة الشافعي كمال الدين الطويل نوابه أجمعين ، ولم يبق منهم سوى أربع أنفس لا غير ... فاستمروا على ذلك مدة . ثم انه فوض لجماعة من أعيان نوابه ممن اختاره .

وفي مستهل هذا الشهر خلع ملك الأمراء على القاضي عبد العظيم الصيرفي وقرره في نظر الحسبة عوضا عن الزينى بركات بن موسى الى أن يحضر من الحجاز . فلما ولي القاضي عبد العظيم أمر الحسبة أظهر النتيجة العظمى في انحطاط سائر أسعار البضائع بعدما كانت تشحطت الأسعار في تلك الأيام ... وصارت غلوة كبيرة ببصر ، واضطربت أحوال الناس ، وارتفع الخبز من الأسواق ، وغلقت الطواحين ، وارتجت القاهرة بسبب ذلك .

وكان عقيب ذلك خروج الحجاج ، وسافر المختسب ، فجارت السوق على الناس في سائر البضائع . فلما ولي القاضي عبد العظيم صار يطوف القاهرة كل يوم ثلاث مرات ، وشرع يضرب الطحانيين والخبازين ضربا مبرحا ، ويشهرهم في القاهرة ، وصار يوعدهم والزياتين بالشنق والخوزفة ، حتى انحطت أسعار البضائع قليلا ، وسكن ذلك الاضطراب الذي كان بمصر .

ثم رسم للجبانين والسماكين بأن يلقوا بالسيرج الطرى دائما ، وكتب قسائم على المعصرانيين ألا

يصنعوا الزيت الحلو أبدا . ثم نادى في القاهرة بتسعير اللحم الضاني والبقرى والجبين وسائر البضائع ، ثم سعر الدقيق وجعل كل بطة بثلاثة عشر نصفًا ، وكانت البطة الدقيق وصلت الى ستة عشر نصفًا ، فنفع الناس غاية النفع بعد ما صار بمصر غلوة شديدة . فارتفعت له الأصوات بالدعاء من الناس قاطبة . ثم أحضر القزازين والتجار وعمل معدلهم في بيع الغزل والمقاطع الخام وسائر القماش الأبيض قاطبة . فهابته التجار والسوق ، ودخل في الحسبة دخولا مهولا ، وصار له حرمة وافرة وكلمة نافذة .

وفيه توفي الأمير ماماي أمير آخور ثاني كان . وكان من الأمراء الطبلحانات ، وأصله من مماليك الأمير تاني باي أمير آخور كبير . وكان موته فجأة على حين غفلة ، وقيل انه كان صحبه جماعة من العثمانية فوقع بينهما تشاجر ، فضربه ، أحدهم فمات في ليلته .

وفيه ثارت العثمانية على ملك الأمراء وقالوا له : « زد في جوامكنا والا أعطنا دستورا نرجع الى بلادنا ، فاننا اشتقنا الى بلادنا وعباننا ، وان في مصر غلاء ، وكل شيء غال ، وهذه الجوامك ما تكفيينا » . فوعدهم أنه يرسل يشاور الخنكار ، وأمهلهم الى شهرين . وكان القائم في هذه الحركة جماعة الأصباهية .

وفيه قدمت الأخبار من بلاد الصعيد بأنه قد فشا الموت هناك في الأبقار والأغنام ، فمات منها ما لا يحصى عدده ، ووقع مثل ذلك بالشام ونواحيها ، ووقع مثل ذلك بجهات الشرقية والغربية ... وزيادة على ذلك ان الدودة رعت البرسيم من أرض الجيزة وغيرها من الأراضي التي زرعت يدريا . ووقع في أواخر هذه السنة تشحيطة عظيمة في سائر الغلال .

وفي يوم الأربعاء سادسه رسم ملك الأمراء
بشنق ستة أنفار من جماعة عبد الدائم بن بفر ،
فشنقوا في عدة أماكن .

وفي يوم السبت تاسعه يودى في الصاهرة بأن
لا أحد من الناس يصنع خيال الظل ، ولا مغاني
عرب ، ولا غير ذلك ، ولا ييطيء بزفة عريس الى
بعد العشاء ، ولا يمشى في الأسواق من بعد
العشاء ، وأن الأسواق تغلق من بعد المغرب
وسبب ذلك أن العثمانية صاروا يشوشون على
الناس في الليل ، ويخطفون العمائم والتدود ،
ويخطفون النساء والمردان من الطرقات ليلا
ونهارا ، وحصل للناس منهم غاية الضرر الشامل ،
وصارت المماليك العثمانية تؤدى الناس ، وصارت
الطرقات من بعد المغرب مقفرة من فلة السالك بها ،
وصار على الوجود خدمة

وفيه قدمت الأخبار من نجر الاسكندرية بأن
الجماعة الذين توجهوا هناك من المباشرين ، لما
نزلوا في المراكب وسافروا في البحر المالح ، غابوا
فيه ثلاثة أيام ، ثم عادوا الى نجر رشيد . وسبب
ذلك أنه في تلك الأيام ثار ريح عظيم فرد المراكب
من حيث جاءت ، فأقاموا في رشيد أياما حتى طاب
الريح ، ثم سافروا وقصدوا التوجه الى اسطنبول

وفيه أرسل القاضى بركات بن موسى المحتسب
يطلب من ملك الأمراء تجريدة تلاميذه من الأزلم
عند عود الحجاج ، فان العربان شوشوا على
الحجاج وأخذوا منهم جمالا محملة بما عليها من
الأحمال ، وحصل منهم عاية الفساد في حق الحجاج .

فلما بلغ ملك الأمراء ذلك نزل الى الميدان
وعرض جماعة من العساكر . وعين تجريدة تلاميذ
الحجاج من الأزلم ، فكتب الى جماعة من المماليك

الجراكسة وجماعة من العسكر وجماعة من أولاد
الناس ، واستحثهم في سرعة الخروج الى الأزلم .

وفي يوم الاثنين خامس عشره نزل ملك الأمراء
من القلعة بعد صلاة الصبح ، وعدى الى بر الجيزة ،
وتوجه الى نحو شبرامنت وقناطر العشرة ، وذلك
على سبيل التنزه ، فصنع له الشهابى احمد بن
الجبعاى هناك مدة حافلة ، وكذلك القاضى شرف
الدين الصغير كاتب المماليك . وكان صحبتة الأمير
فايتباى الدوادار ، والأمير أرزملك الناشف ،
وسنان باشا ، وفائق بك ، وجماعة من الأمراء
العثمانية ، وجماعة كثيرة من المماليك الجراكسة
فاستمر هناك الى ما بعد العصر ، وركب وعدى
من بر الجيزة ، وطلع الى القلعة . وأشيع أنه كان
بين ملك الأمراء وبين الأمير فايتباى الدوادار حظ
نفس في الباطن ، فعزم عليه هناك وزال ما كان
بينهما من تلك الوحشة ، وطامت الحواطر منهما .

وفي يوم الجمعة سلخ الشهر خرج الأمير فايتباى
الدوادار ، وسافر الى نحو العباسية ، وسبب ذلك
أنه تعيب من المماليك الجراكسة من خشداشينه
لأجل تفرقة الأضحية ، فانها كانت غالية ومشحونة
ولا توجد .

وفي شهر ذى الحجة ، وكان مسنهه يوم السبت ،
طلع القضاة الأربعة الى القلعة ، وهنئوا ملك
الأمراء بالشهر ، وعادوا الى دورهم .

وفي يوم الخميس سادسه خرج العسكر المعين
الى الأزلم . وكان باش هذه التجريدة شحص
يسمى ياس ، فخرج مع العسكر

وفيه قدمت الأخبار من الصعيد بأن الأمير على
ابن عمر ، خرج يغزو صاحب النوبة ، وأن الصعيد
حواله مضطربة .

عثمان في سائر أفعاله . . وقطع الأضحية التي كانت تفرق في الأعياد .

وفي أواخر عمدا السهر وقع بين ملك الأمراء وبين الإصباهييه من عسدر ابن عثمان ، وقالوا له اعطنا دستوراً لنسافر الى بلادنا فانا اشتقنا الى بلادنا وعيالنا . فقال لهم حتى أرسل آشاور الحنكار . فقالوا نحن ما نصبر حتى تشاور . وأغلظوا على سنان باشا في القول ، وقالوا له هذا كله شغلك ، فانفق معهم ملك الأمراء أنه بعد مضي الشتاء يأذن لهم بالسفر والعودة الى بلادهم .



اتتهى ما أوردناه من أخبار سنة أربع وعشرين وتسعمائة وخرجت عن الناس على خير ، وكانت سنة كثيرة الحوادث ، منها خسة النيل ، ووقوع الغلاء في سائر البضائع والغلال ، واستمرت هذه التشحيطة تتزايد الى اواخر السنة ، ووقع من الحوادث نفى المباشرين الى اسطنبول ، وغير ذلك حوادث كثيرة تقدم ذكرها .

سنة خمس وعشرين وتسعمائة هجرية (١٥١٩ م) : كان مستهل الشهر يوم الاثنين ، فطلع القضاة الأربعة الى القلعة ، وهنئوا ملك الأمراء بالعام الجديد تم عادوا الى دورهم .

وفي يوم مستهل الشهر أمطرت السماء مطراً غزيراً ، فتفعل الناس بأن ذلك العام يكود مباركاً خصياً .

وفي يوم الخميس رابع المحرم ، وصلت من ملك الأمراء نائب الشام جان يردي الغزالي الى ملك الأمراء خاير بك مقدمة ليست بعظيمة أمر ، وهي أربعة أرؤس خيل ، وثمانية شقادات تشتمل على بطارمير ، ضمنها مخلل ، وفي بعض الشقادات

وفي يوم الجمعة ما بعه خرج الأمير جانم الحمزاوي دودار ملك الأمراء وقصد التوجه الى نحو البلاد الشامية ، وسبب ذلك أن ملك الأمراء أرسل على يده مقدمة حافلة الى شحص من أمراء ابن عثمان يقال له برى باشا ، وكان من أعيان أمراء ابن عثمان ، وكان مقيماً على البيرة ، وقيل يحلب . فلما خرج الأمير جانم الحمزاوي ووصل الى العكرشا ، وردت عليه الأخبار من هناك بأن الأمير برى باشا الذي خرج بسببه قد توجه الى نحو اسطنبول ، وقد تغلب عليه العسكر الدين كانوا على البيرة من الغلاء وشدة البرد ، فرجع الى اسطنبول الى أن يذهب الشتاء . فلما تحقق الأمير جانم الحمزاوي رجوع الأمير برى باشا الى اسطنبول ، أرسل يشاور ملك الأمراء في أن يرجع الى مصر أو يسافر الى حلب ، فرسم له ملك الأمراء بالعود الى مصر ، فرجع من العكرشا ، وصحبه المقدمة التي عينت لبرى باشا .

ومن الحوادث أن ملك الأمراء رسم للوالي بأن ينادي في القاهرة بسد قناطر الحروبى الثلاث ، فورعوا سده هذه القناطر على السكان الذين يبوهم فوق السور . فحصل للسكان الذين يبوهم فوق السور غاية الضرر من مصروف العمارة على ذلك . وأشيع سد قناطر السباع أيضاً ، وقنطرة الموسيقى ، ولم يعلم ما القصد من ذلك . فسدوا قناطر الحروبى الثلاث بالحجارة ، بعد ذلك من النواذر العرييه ، وكثر القيل والقال في ذلك .

وفي يوم الاثنين عاشره كان عيد النحر ، فلم يفرق ملك الأمراء على أحد أضحية ، لا على الأمراء ولا على العسكر ، وقطع ضحايا الفقهاء والمباشرين ، حتى ضحايا الزوايا والمزارات التي في القرافة وغيرها ، وقال : « أنا ما أمشى الا على طريقة ابن

أرباب الدكاكين من السوقه يبيضون دكاكينهم
ويزخرفونها بالدهان ، ويبيضون آلات النحاس
التي عندهم في الدكاكين لأجل مجيء القاضي بركات
ابن موسى المحتسب من الحجاز .

وفي يوم الأربعاء المقدم ذكره وقعت حادثة
مهولة ، وهى أن ملك الأمراء نزل من القلعة وتوجه
الى نحو بركة الحبش ، وعزم على وردبش دوادار
نائب الشام الذى حضر بالتقدمة ، فصنع له هناك
مدة حافلة ، ونصب سييى له هناك سحابة عظيمة ،
وحضر عنده الأمير قايتباى الدوادار ، وجماعة من
الأمراء الجراكسة ، وحضر جماعة من الأمراء
العثمانية منهم سنان باشا وفائق بك ، وحضر الأمير
كمشبغا والى القاهرة ، وجماعة من الجراكسة .

فلما انقضى أمر المدة أحضر ملك الأمراء سفرة
الشراب ، فلما دارت عليهم الكاسات وطلع الحمر
فى رعوسهم ، طفح ما كان فى قلوبهم من الغدر .
فقال فائق بك لكمشبغا الوالى : الجراكسة خائنون .
وأجرى ذكر جان بردى الغزالى بما لا يلىق فقال
له كمشبغا الله يعلم من هو الذى خان منا نحن أو
أنتم ، وقد كنتم أمانكم فى أوراق وفرقتوها على
الأمراء ووضعوها على رعوسهم ، وطلعوا اليكم
بالأمان . فغدرتم بهم وقتلتموهم فمن خان منا نحن
أو أنتم . ثم تزايد بينهما الكلام الفج حتى حرجا
فى ذلك عن الحد ، فوثب فائق بك على كمشبغا
الوالى بخنجر ليقتله فجاءت الضربة فى قفطانه
فانخرق ، فوثب كمشبغا على فائق بك ليقتله فحال
بينهما الحاضرون .

ثم ركب كمشبغا ، وركب جماعة من المماليك
الجراكسة ، وسلوا سيوفهم ، وركب جماعة من
العثمانية وسلوا سيوفهم ، وقصدوا الوثوب على
بعضهم ، وكادت أن تكون فتنة عظيمة تذهب فيها

كمشرى وتفاح وسواقه ، وأرسل ملك الأمراء جان
بردى الى الامير قايتباى الدوادار فرسا وأربع
شقادف ، ومثل ذلك للأمير أرزمك الناشف ،
ومثل ذلك الى جماعة من الأمراء العثمانية ،
فشكروا له ذلك .

وفى يوم الجمعة خامس المحرم ، حضر مبشر
الحجاج وأخبر بالأمن والسلامة لهم ، غير أن
معهم العلاء الشديد ، وموت الجمال ، فوصل كراء
الجل الى مائة وعشرين دينارا ، وأن مكة فيها غلاء
شديد ، ونزل غالب من بها من المجاورين بسبب
العلاء ، وان العربان جائرة فى الطرقات ، وكانت
سنة صعبة شديدة على الحجاج .

وفى يوم الأحد سابع المحرم قدمت الأخبار من
قطيا بأن والى قطيا وهو شحص من الأتراك يقال
له قان بردى ، وأصله من مماليك الظاهر برقوق ،
وفيل من مماليك الغورى قانصوه ، أرسل اليه
ملك الأمراء انكشاريين يطالبانه بمال قطيا ، فلم
يعطهما شيئا ، فأغلظا عليه فى القول وقالوا له نأخذك
معنا فى الحديد الى ملك الأمراء ، فبطحهما على
الأرض وضربهما بالمقارع حتى أشرفا على الموت
وقيل مات أحدهما من الضرب . وقال لهما امضيا
الى أستاذ كما وقولا له ايش ما طلع من يدك افعله ،
فحضر أحدهما وأخبر ملك الأمراء بذلك ، فلما
سافرا من قطيا ، أخذ والى قطيا ماله وغلمانه وتوجه
الى جان بردى الغزالى فى غزة بسبب ملاقة الحاج ،
وقيل كان عند والى قطيا جماعة كثيرة من المماليك
الجراكسة ، فلما توجه الى الغزالى توجهوا معه
اليه ، فلما بلغ ملك الأمراء ذلك خلع على شخص
من الأتراك وقرره فى ولاية قطيا عوضا عن قان
بردى بحكم عيبته كما تقدم .

وفى يوم الأربعاء سابع عشره ركب عبد العظيم
الصيرفى نائب المحتسب ، ونادى فى القاهرة بأن

وصول القاصد الى سرياقوس نزل من القلعة وتلقاه من تربة العادلى التى بالمطرية . وخرج صحبه الأمراء العثمانية ، والأمراء الجراكسة ، وأعيان المباشرين ، والعسكر العثماني ، والانكشارية قدامه مشاة يرمون بالنفوس . فلما وصل الى تربة العادل نزل وجلس على المصطبة التى هناك . ثم حضر القاصد وأخرج قفطانا مخملا بتماسيح على أحمر أرسله اليه الخنكار ابن عثمان بالاستمرار على نيابة مصر ، فلبسه ملك الأمراء وقبل الأرض مرارا . وأرسل قفطانات تماسيح الى فائق بك ، وسنان باشا ، وخير الدين بك نائب القلعة ، وأرسل قفطان تماسيح الى الأمير قايتباى الدوادر باستمراره فى الدوادرية فلبسه .

ثم ركب ملك الأمراء من هناك ودخل من باب النصر ، ونسق القاهرة فى موكب حافل ، ولاقاه قضاة القضاة الأربعة من باب النصر ، ثم مشيت طائفة النصارى قدامه بالشموع . وكان ذلك يوم السبت فلم تحضر طائفة اليهود فى ذلك اليوم ، واستتر فى ذلك الموكب الى أن طلع القلعة وكان ذلك اليوم مشهودا .

فلما أقام القاصد أياما أشيع بين الناس أنه حضر يطلب طائفة الاصباهية التى بمصر ، وأشيع أن الخنكار ابن عثمان أرسل تقدمة حافلة الى الأمير على بن عمر شيخ عربان الصعيد ، وأرسل اليه قفطان تماسيح باستمراره على عادته ، وورسم بأن التقدمة والقفطان تتوجه اليه صحبة قاصده الى الصعيد ، فتضاعفت عظمة الأمير على بن عمر بسبب ذلك .

وفى يوم الأحد ثامن عشره نزل الحاج بالبركة ، وحضر المحمل الشريف صحبة القاضى بركات بن موسى المحتسب أمير الججاج ، فتغدى فى بركة

الأرواح ، فتنكده ملك الأمراء لذلك وركب على الفور ، وحال بين الفريقين ، وخدمت هذه الفتنة قليلا ، ورسم للعثمانية أن يمضوا على طريق مصر العتيقة ، ومضى هو والأمراء الجراكسة على طريق القرافة ، واستمر على ذلك حتى طلع الى القلعة من الميدان ، فما رأى نفسه فى القلعة وفى عينه فطرة . وقد اضطربت أحواله وخاف أن هذه الفتنة تتسع . فقبل انه حلف لا يشرب خمرا فى هذه السنة ، واستمرت النفوس معمرة بالعداوة بين فائق بك وبين كمشباغ الوالى ، وهذه الحادثة أول حوادث سنة خمس وعشرين وتسعمائة .

ثم ان ملك الأمراء بعد وقوع هذه الحركة انحبج عن الناس ثلاثة أيام ، لم يظهر لأحد من شدة تكده مما قاساه فى ذلك اليوم .

وفى يوم الاثنين ثانى عشره خرجت المدورة الى بركة الحاج بسبب الملاقاة ، فلما أقامت المدورة هناك يوما وليلة أشيع أنها رجعت الى القاهرة ، وسبب ذلك أن الزينى بركات بن موسى أرسل هجانا الى ملك الأمراء وأخبره أن الحجاج وصلوا الى عيون القصب ، وأنهم فى غاية ما يكون من الأنكداد بسبب موت الجمال والغلاء وموافقة فتنة العربان مع ذلك ، فتنكده الناس لذلك ، ورجع من كان طلع الى بركة الحاج من الملافين .

وفى يوم السبت سابع عشره حضر قاصد من عند السلطان سليم شاه بن عثمان ، وحضر صحبته الناصرى محمد الجلبى ، مهمندار ملك الأمراء ، الذى كان توجه صحبة التقدمة المتقدم ذكرها ، وهى التى أرسلها ملك الأمراء الى ابن عثمان .

وحضر قاصد الأمير على بن عمر شيخ عربان بجهات الصعيد ، وكان قد توجه صحبة التقدمة التى أرسلها الى ابن عثمان ، فلما بلغ ملك الأمراء

الحاج ، وتوجه الى مدرسة السلطان الغورى ، فلما طلع النهار من يوم الاثنين تاسع عشره ، ركب من هناك وطلع الى مالك الأمراء وقابله فخلع عليه ففطانا محملا احمر مدهبا ، ونزل من عنده وشق القاهرة فى موكب حافل ، وقدامه جماعة من الانكشارية مشاة يرمون بالنفوط ، فكانوا نحو مائتى انسان ، فشق الزينى بركات من القاهرة وهو لابس عمامة هوارية على زنط ، وهو ضارب لثاما .

ثم أشيع بين الناس أن الحجاج قاسوا فى هذه السنة مشقة زائدة من الغلاء وموت الجمال وقلة العليق ، وكانت سنة صعبة شديدة بفساد العربان والغلاء ، وقد منعوا مبشر الحاج من الدخول الى القاهرة .

ثم أشيع وفاة الطواشى الأمير بشير رأس نوبة السقاة ، وكان قد توجه الى المدينة الشريفة من حين دخل ابن عثمان الى القاهرة ، فتوجه صحبة قاضى القضاة الشرفى يحيى بن البردينى شيخ الحرم النبوى ، فأقام هناك الى أن مات ودفن بالمدينة وأشيع موت آخرين من الأعيان .

وكان غالب الناس قطع وجزم بعدم عود الزينى بركات بن موسى الى القاهرة . فانه حمل ما لا يطيق ، حيث طلع الى الحجاز أمير حاج ، وكانت هذه الوظيفة للأمراء المقدمين ، وكانت هذه السنة شديدة صعبة من فساد العربان فى طريق الحجاز وشدة الغلاء وموت الجمال ، فأعانه الله على ذلك ، ورجع مع السلامة

وفيه وقعت حادثة غريبة ، وهى أن جماعة من الاصباهية غاروا على صبية ، فلما توجهت الى غيرهم كبسوها بالوالى فى ذلك المكان الذى كانت فيه وزعموا أنها كانت عند شخص نصرانى ،

فتقبضوا عليها وعلى ذلك النصرانى ، فلما عرضوا على ملك الأمراء رسم بأن تعرى المرأة من أنوابها ، وتكتف أيديها وأرجلها ، وأن تربط من رجليها فى ذنب اكديش ، وتسحب على وجهها من الكداسين الى باب زويلة ، ففعلوا بها ذلك وشقوا بها من القاهرة ، وفصدوا شنقها على باب زويلة ، فقيل انها ماتت فى أثناء الطريق ، وقيل بل غرقوها فى البحر عند الجزيرة الوسطى ، وقد مضى أمرها ، وقد قاست ما لا خير فيه حتى ماتت .

واستهل شهر صفر يوم الثلاثاء ، فطلع القضاة الأربعة الى القلعة وهنأوا ملك الأمراء بالشهر تم عادوا الى دورهم .

وفى أوائل هذا الشهر قدمت الأخبار من ثغر الاسكندرية مع بعض تجار البنادقة ، أن جماعة من المباشرين الذين خرجوا من مصر وتوجهوا الى اسطنبول فى البحر المالح ، لما وصلوا الى قرب جزيرة اقريطش خرجت عليهم طائفة من الفرنج الروادسة الذين هم أشد طوائف الفرنج ، فتحاربوا مع الجماعة العشائية الذين خرجوا صحبة المباشرين ، فقتلوا منهم جماعة ومن جملتهم الخواجا هاشم ، وكان من أبناء العجم ، وكان من أخصاء ملك الأمراء خير بك ، وكان قرره فى نظر المارستان ونظر جهات الجوالى ، فقتل فى هذه المعركة . وكان قصده أن يتوجه الى الخنكار صحبة المباشرين .

فلما خرجت عليهم الفرنج تحارب معهم حتى قتل فى المركب التى كان فيها الشرفى يونس النابلسى الاستادار ، والقاضى بركات كاتب الرجوع أخو القاضى شرف الدين الصغير كاتب الممالك ، وكان يهذه المركب يوسف البدرى الوزير ، والناصرى

الدعاء من الناس ، وسيعلم الدين ظلموا أى منقلب
ينقلبون ، وكان كما يقال في المصنئ :
فاستغن بالسمع عن مرآهمو عقلة

فأصبخوا لا ترى الا مساكنهم

وصاروا يفتحنون على الناس أبوابا من المظالم
شيئا بعد شيء ، ووضعوا أيديهم على البلاد قاطبة ،
حتى على الأوقاف التي على الجوامع والمساجد
والزوايا ، وضاع على الناس حراجهم وحصل لهم
الضرر الشامل ، تم انهم أبطلوا الاقطاعات التي
بالمناشير ، وأدخلوها في ديوان السلطان ، تم في
السنة الثانية أوقفوا الرزق التي بالمربعات الجيشية
التي بيد أولاد الناس والنساء وغير ذلك ، وصاروا
يضعون أيديهم على بلاد الأوقاف ، ويستخرجون
منها الأموال ولا يفرجون عنها الا بعد جهد كبير
لمن يأخذون برطيلة .

وكانوا اذا قرروا مع ملك الأمراء شيئا من أمر
البلاد يطاوعهم على الفساد ، ويقول لهم افعلوا
ذلك ، وهو في أيديهم مثل اللولب يدورونه كيف
شاعوا ، وكان الوقت قد صفا لهم ، وصاروا
يتصرفون في أحوال المملكة بما يختارونه ، فأخذهم
الله أخذا وبيلا ، ولم يجدوا لهم من الله سبيلا ،
وتكدرت معاشهم بعد الصفا ، وخابهم الدهر بعد
الوفا ، وقد قلت :

اذا صفا الدهر يوما الى التكدر يرجع

هل من لبيب تراه بأيسر الرزق يقنع

فليغيب من يشاهد لمصرع بعد مصرع

وفيه قدمت الأخبار من دمشق بأن الحاج
الشامى قد استولت عليه الأعراب وعوقوهم عن
الدحول الى البلاد الشامية ، ونهبوا أموالهم
وجمالهم ، وغنموا منهم أموالا لها صورة ، فلما بلغ

محمد بن الورد لاعب الشطرنج أيضا ، فلما خرج
عليهم الفرنج رموا على مركبتهم بالمدافع فانخرقت
وغرقت ، وغرق كل من كان فيها من المباشرين ،
وغيرهم ، فغرقوهم وأموالهم التي كانت معهم
جميعا ، فغرق الشرفى يونس النابلسى الاستادار ،
وبركات كاتب الرجع ، ويوسف البدرى الوزير ،
ومحمد بن الورد لاعب الشطرنج ، وقيل سلم من
الغرق مع رفيقه أحمد الاسكندراني .

ثم أشيع بأن المركب التي كان بها علاء الدين
ناظر الخاض ، وفخر الدين بن عوض ، والقاضى
أبو البقاء ناظر الاسطبل ، والشرفى يونس نقيب
الجيش ، وأحمد الاسكندراني لاعب الشطرنج ،
سلمت من الغرق ، فسار بها الهواء الى نحو جزيرة
اقريطش ، فخرجوا وهم عراة حفاة مكشوفو
الرءوس ، ومشوا نحو سبعة أيام حتى أعيوا من
المشى وتورمت أقدامهم ، وأشرفوا على الموت
مرارا . وأما الشرفى يونس نقيب الجيش فانه مرض
هناك ومات ودفن بجزيرة اقريطش ، وأما علاء الدين
ناظر الخاض ، فانه مرض وعجز عن المشى حتى
حمله بعض الفرنج على أكتافه . وكذلك أبو البقاء
ناظر الاسطبل ، وفخر الدين بن عوض فاستمروا
على ذلك سبعة أيام حتى وصلوا الى صاحب جزيرة
اقريطش ، فلما رأهم أحسن اليهم وكساهم ،
وأقاموا عنده مدة طويلة ، ثم جهزهم وأرسلهم الى
اسطنبول ، هكذا أشيع والعلم لله تعالى .

فلما ثبت موت هؤلاء المباشرين خرج نعيمهم
وطيف بالقاهرة ، ودقوا عليهم بالطارات ، وكان
هؤلاء المباشرون تزايد ظلمهم على أولاد الناس ،
وضيقوا عليهم بسبب أرزاقهم ، وأوقفهم
واقطاعاتهم . ولا سيما ما فعله فخر الدين بن عوض
في جهات الغربية من وجوه الظلم ، فكثرت عليهم

مثل قوله ، فكثرت بينهما القبيل والقتال بسبب ذلك ، وقد دبت عقارب الفتن بين الاصباهية وبين سنان باشا وفائق بك ، وأعدوا سنان باشا بالقتل غير ما مرة .

وفي شهر ربيع الأول - وكان مستهل الشهر يوم الخميس - طلع القضاة الأربعة الى القلعة وهنئوا ملك الأمراء بالشهر ثم عادوا الى دورهم . وفي يوم الاثنين خامس الشهر . نزل ملك الأمراء الى الميدان وعرض الاصباهية وعلم من فقد منهم ومن بقي ، ثم ظهر له ما كان يأخذه سنان باشا وفائق بك من جوامك الاصباهية وليس لهم وجود ، فظهر زيفه في هذه الحركة .

وفي يوم الخميس ثامن الشهر قبض ملك الأمراء على طيلان رأس نوبة ، وضربه بين يديه بالمقارع في الحوش ضربا مبرحا ، وكان سبب ذلك أن أخت السلطان طومان باي رافعته ، وذكرت أن السلطان طومان باي أودع عنده ثمانية آلاف دينار ، فأفكر طيلان ، وحلف أنه ما أودع عنده شيئا من ذلك ، فلما تزايد الأمر من أفواه الناس بسبب هذه الوديسة ، وصار طيلان ينكر ذلك ، حنق منه ملك الأمراء وأمر بضربه بالمقارع ، وهو لم يفر بشيء . فنزل من القلعة وهو في الترسيم حتى يحقق ذلك .

وفي يوم الأحد حادى عشره مع ليلة الاثنين ، كان المولد الشريف النبوى ، فجلس ملك الأمراء في المقعد الذى فى الحوش السلطاني ، واجتمع عنده بعض المباشرين ، وخير الدين نائب القلعة ، وبعض أمراء عثمانية ، واجتمع عنده من القراء والوعاظ ثلاث عشرة جوقة ، ثم فى أواخر النهار مد سباطا لا يسمن ولا يغنى من جوع ، وأين هذا

الأمير جان بردى الغزالي ذلك ، خرج الى العربان من يومه ، وخرج صحبته نائب غزة بعساكر غزة ، ونائب الكرك ، فاقتتل مع العربان وانتصر عليهم ، وقتل منهم جماعة كثيرة ، وغنم أموالهم وما كانوا غنموه من الحاج الشامى ، وهو شيء لا ينحصر ، فاحتاط على جميع ما معهم ، وهربوا من وجهه الى الجبال ، وخلص ما كانوا أسروه من رجال ونساء وصبيان وغلمان ، فكان له الشكر على ذلك .

وفيه تزايد الضرر من الاصباهية فى حق الناس ، وصاروا يخطفون النساء من الطرقات ، وكذلك الصبيان المرد ، حتى قيل انهم خطفوا امرأة عند سلم المدرسة المؤيدية تحت دكان الذى يبيع الكعك ، والناس ينظرون اليهم وهم يفسفون بها ، فلم يجسر أحد من الناس أن يخلصها منهم ، ثم صاروا يقطعون الطرقات على نساء المسلمين ، وعلى البياعين ، وصار أهل مصر منهم فى غاية الضنك والامر لله تعالى .

وفي يوم الاثنين ثامن عشره نزل ملك الأمراء الى الميدان ، وأحضر سنان باشا أغات الاصباهية وقد صار بينه وبينهم وحشة بسبب جوامكهم ، فكان يأخذ من ملك الأمراء المال ولا يصرف لهم شيئا ، فلما وقع الحساب وجد فى جهته لهم أحدا وثمانين ألف دينار ، فاعترف أنها فى جهته وسيوصلها الى الخنكار ، فحصل بينه وبين الاصباهية فى ذلك اليوم تشاجر بسبب ذلك ، فقالت الاصباهية لاتعطوا سنان باشا من جوامكنا شيئا من الآن ، واصرفوا لنا مثل جوامك المماليك فى كل شهر على البساط .

ثم فى يوم الثلاثاء ويوم الأربعاء سلخ الشهر عرض ملك الأمراء الاصباهية ، فمثل ما وجد عند سنان باشا وجد فى جهة فائق بك من المال ، وقال

وشكرا بالحسام قبل الكلام ، فقطعوا رؤوسهما ، واشتقوا منهما ، حتى قيل ان بعض المسالك الجراكسة شرب من دمهما ، وبعضهم جزل لحومهما بالسيف ، والمجازاة من جنس العمل ، وكما تدين تدان .

وفي يوم الأربعاء حادى عشره حضر الى القاهرة رأس حسن ابن مرعى ورأس شكر ، فرسم ملك الأمراء للوالى أن يعلقوهما على باب النصر ، وقيل ان رأس حسن بن مرعى لما دخلوا بها وبرأس شكر ، علقوهما فى رقبة فرس السلطان طومان باى الذى كان راكبا عليها لما قبضوا عليه فى تروجه ، فصودف أن هذا الفرس كان تحت حسن بن مرعى لما أتى الى اينال ، فعد ذلك من النوادر الغريبة ، وقيل ان عيال السلطان طومان باى لما علق رأس حسن وشكر على باب النصر ، أظهروا فى ذلك اليوم الفرح والسرور ، وأطلقوا الزغاريت ، وتخلقوا بالزعران . وأشيع أن أخا حسن بن مرعى كان مختفيا بالقاهرة لما قتل أخواه ، فغمز عليه ، فقبضوا عليه من بيت بعض أصحابه .

وفي يوم الجمعة ثالث عشره قدمت الأخبار من نجر دمياط ، بأنه قد وصل الى النجر قاصد من البحر أرسله الخنكار ابن عثمان يطلب سنان باشا وفائق بك ، فلما سعا ذلك تنكدا لهذا الخبر ، وقالوا لملك الأمراء خاير بك هذا كله شغلك أنت ، تكاتب فينا الخنكار فى الدس وترافع فينا عنده .

فلما وردت الأخبار بمجيء القاصد من دمياط ، رسم ملك الأمراء خاير بك للقاضي بركات بن موسى بالتوجه الى ملاقاته ، فحسرج الى قلوب ورمى على البلاد من الشرقية والغربية أبقارا وأغناما وأوزا ودجاجا ، فجمع فى هذه الحركة فوق ألف

مما كان يعمل فى مولد من تقدم من السلاطين ، ثم انه خلع على الوعاظ قفطانات واستردها بقدر هين .

وفي يوم الاثنين ثانى عشره خلع ملك الأمراء على مملوكه برسباى ، واستقر به أمير ركب الحاج الشريف ، فنزل من القلعة فى موكب حافل .

وفي يوم الخميس خامس عشره ، حضر قاصد من عند نائب حماه وصحبته مقدمة حافلة الى ملك الأمراء ، وأشيع أن الأمير جان بردى الغزالى نائب الشام قد قبض على أربعة من مشايخ عربان جبل نابلس ، منهم قراجا بن طراباى ، فلما قبض عليهم حزر رؤوسهم وأرسلها الى الخنكار بأدرنة ، فلما فعل ذلك اضطربت أحوال جبل نابلس ، وصارت العربان ينهبون الضياع التى حول جبل نابلس ، ويقتلون أهلها ، وتزايد الغلاء بالشام من فلة الجبال اليها .

وفي يوم الثلاثاء عشره قدمت الأخبار من الغربية بأن اينال السيفى طراباى كاشف الغربية — قد احتال على حسن بن مرعى وأخيه شكر شيخى عربان الغربية ، وهما اللذان كانا سببا لمسك السلطان طومان باى — وقد تقدم ذكر ذلك — فعزم اينال على حسن ابن مرعى وأخيه شكر فى مكان بالقرب من سنهور ، فأتيا اليه وأمناه وظنا أن ذنبهما قد نسي مما قد فعلاه ، فكان كما يقال فى المعنى :

قالت ترقب عيون الحى ان لها

عينا عليك اذا ما نمت لم تتم

فلما أقاما عنده ذلك اليوم مد لهما مدة حافلة ، ثم بعد ذلك أحضر لهما سفرة الشراب ، فلما شربا ودخلا فى السكر ، هجم عليهما جماعة من المماليك الجراكسة ممن كانوا عند اينال ، فعاجلوا حسنا

وغير الدين فأبى القلعة ، وأرسل يقول لملك الأمراء
خاير بك بأن يتوصى بالجراسية ، وأن يصرف لهم
جوامسكهم على العادة ، ولحومهم وعليتهم ، وأن
ينظر في أحوال المعاملة ، ويزيل عنها الغش من
الذهب والفضة ، وأن يحفظ الشعوب .

فلما تحقق سنان باشا وفائق بك أن السلطان
أرسل يطلبهما ، اضطربت أحوالهما وهما يقتل
ملك الأمراء خاير بك ، وعلموا أن هذا كله مما
كان يرسل به الخنكار يشكو له منهما فاختفى
ملك الأمراء في الحريم ثلاثة أيام لم يظهر لأحد
من الناس ، حتى أشيع أنه هرب من القلعة ،
فاضطربت أحوال القاهرة ، ووزع الناس أمتعتهم
في الحواصل ، ولهجوا بوقوع فتنة عظيمة تخرب
فيها القاهرة ، وتنهب عن آخرها من الاصباهية
والكسبية ، فأقامت الناس على وجل ثلاثة أيام .

ثم طلع القاضي بركات بن موسى الى ملك الأمراء
وقال له : ارسم للوالى بأن ينادى في القاهرة للناس
بالأمان والاطمئنان ، والبيع والشراء ، وأن الأسواق
والدكاكين تفتح وأن لا أحد يكسر كلامه ولا يتحدث
في شيء لا يعنيه ، ومن تكلم في شيء لا يعنيه يشنق
من غير معاودة ، فطاف الوالى في القاهرة وأشهر
النداء بذلك .

وصار ملك الأمراء على رأسه طيرة من الاصباهية
فبنى حائطاً تجاه باب الستارة وصارت الاشاعات
قائمة بوقوع فتنة عظيمة من الاصباهية ، وكانت
عدتهم نحو ألفى انسان غير الكسبية ، وصاروا
يركبون في كل يوم ويقفون في الرميطة ، ويسبون
ملك الأمراء سبا قبيحا ويهمون بالهجوم عليه .

وفيه قدمت الأخبار من الشرقية بقتل شيخ
العرب على الأسمر ابن آوى الشوارب ، وقد احتال
عليه كاشف المنوفية وعزم عليه ، وأسكره وهجم

رأس من الغنم ، غير البقر والاوز والدجاج ، فمد
القاضي بركات بن موسى للقاصد في قلوب مسدة
حافلة ، فأشيع أنه صنع له في تلك المدة أربعمائة
رأس غنم ، ومثلها أوز ، ومثلها دجاج ، وخمسمائة
مجمع حلوى وقيل ألف مجمع .

ثم مد له في أبى الفيث مدة ثانية مثل الأولى ،
فلما وصل القاصد الى هناك فإذا هم أميران أحدهما
يسمى اسكندر باشا ، والآخر يسمى فرحات بك ،
وصحبتهم من الغلمان نحو مائة انسان ، فلما انتهى
أمر المدة أحضرا القاضي بركات بن موسى بين
أيديهما ، وقال له الخنكار يسلم عليك ، ويقول لك
ببعض الله وجهك ، حيث رجعت بالحجاج سالمين
بخلاف ما جرى على الحاج الشامى ، فقام وقبل
الأرض عدة مرات ، وكشف رأسه ، فلما وصل
القصاص الى شبرا خراج الأمير قايتباى الدوادار
الى ملاقاتهم ، وجماعته من الأمراء الجراسية ،
فسلموا عليهم ورجعوا الى دورهم .

وفي يوم الثلاثاء سابع عشره دخل القصاص الى
القاهرة وقت صلاة الصبح ، فطلعوا على الجزيرة
الوسطى ، وأتوا من باب الخرق ، وأتوا الى تحت
الربيع ، وتوجهوا على القرييين ، فأنزلوهم في بيت
الأتابكى قرقماس بن ولى الدين الذى عند حوض
العظام ، فأنزلوا به اسكندر باشا ، وأنزلوا فرحات
بك في بيت الأمير كسباى المحتسب الذى عند
مدرسة سودون بن زادة ، فمد لهما القاضي بركات
ابن موسى هناك مدة ثلاثة لكل واحد منهما على
انفراد ، واستمروا هناك يوم الثلاثاء سابع
عشره .

وطلع القضاة الأربعة الى القلعة ، واجتمعوا
بملك الأمراء ، وقرءوا مطالعة الخنكار ، فكان من
مضمون تلك المطالعة ، طلب سنان باشا وفائق بك

في موكب حافل ، وقدامهما الاصباهية قاطبة
والانكشارية ، وألبس كل منهما ققطانا مخملا ،
وقيل أنعم على كل واحد منهما بألف دينار ،
فاستمر معهما العسكر العثماني حتى أنزلوهما في
المراكب من بولاق ، وساروا في البحر الى ثغر
دمياط ، ومن هناك نزلوا في الأغرية .

وفي يوم الجمعة خامس عشره ، انتهى العمل من
الجامع الذي أنشأه المقر الشهابي أحمد بن الجيعان
الذي عند بركة الرطلی ، بالقرب من حدرة الفول ،
وخطب به في ذلك اليوم ، وكان مسجدا قديما بنى
في دولة الناصر محمد بن قلاوون سنة أربع وأربعين
وسبعمائة ، ودفن به الشيخ خليل الرطلی ، وهو
الذي تنسب اليه بركة الرطلی ، فاستمر على ذلك
حتى خرب فجدده صاحب سعد الدين بن ابراهيم
البشيرى في دولة الملك المؤيد شيخ ، فأقام مدة
طويلة وجعل به خطبة لكونه كان بجوار بيته الذي
بالبركة ، فاستمر على ذلك الى أن خرب ، وأقام
مدة طويلة وهو خراب ، فجدد بناءه القاضي شهاب
الدين أحمد بن الجيعان نائب كاتب السر في هذه
السنة ، فاجتمع به في ذلك اليوم القضاة الأربعة ،
وأعيان الناس من المباشرين ، وغيرهم ، وخطب به
ذلك اليوم قاضى القضاة الشافعى كمال الدين
الطويل ، فخطب به خطبة بليغة في معنى انشاء
الجوامع .

فلما انقضى أمر الصلاة أحضر الشهابي أحمد بن
الجيعان زبادى صينى فيها سكر نحو عشرين زبديّة
فظاف بها على الناس . ثم قامت جماعة من المنشدين
وأشدوا قصائد في انشاء هذا الجامع ، من نظم
جمال الدين السلمونى الشاعر ، وعبد اللطيف
الدنجيى ، وغيرهما من الشعراء .

ثم ان الشهابي أحمد بن الجيعان قرر بهذا
الجامع حضورا من بعد العصر ، وصوفية ، وجعل

عليه دواداره فقتله بغتة ولعب فيه بالسيف ، فلما
جرى ذلك خاف شيخ العرب حسام الدين ابن
بغداد على نفسه ، فاختمى مدة أيام ، وقد قوى
عزم المماليك الجراكسة من حين قتل الأمير أينال
كاشف الغريبة حسن بن مرعى وشكرا أخاه .

وفيه تغير خاطر ملك الأمراء على يونس الجلبى ،
قيل ان أصله فلاح من الشرقية ، فبقى استادا
وكان له مقدار عند ملك الأمراء بسبب انسحاب
المال على الجامكية ، فبطحه في الحوش وضربه
ضربا مبرحا نحو ستمائة عصا ، فنزل الى بيته وهو
مسطوح على حمار ، فأقام أياما ومات من الضرب .

* * *

وفي شهر ربيع الآخر ، في يوم الاثنين رابعه ،
وقعت فتنة عظيمة بالقلعة بين الاصباهية
والانكشارية من عسكر ابن عثمان ، قتل فيها من
الاصباهية شخص ، وقيل اثنان ، فرسم ملك
الأمراء للانكشارية بأن يقيمون بالقلعة دائما ،
ولا ينزلوا الى المدينة ، فبطل أمر الانكشارية الذين
كانوا يجلسون على أبواب المدينة ، وتشتكى الناس
في خلاص الحقوق منهم ، فرسم لهم ملك الأمراء
بأن يسكنوا باطباق المماليك التى بالقلعة ، ولا ينزلوا
الى المدينة أبدا ، وكان يحصل منهم غاية الفساد
في حق الناس ، من خطف النساء والصبيان ،
والضيافات والبضائع من أيدي المتسبيين ، وضح
الناس من ذلك .

وفيه أشيع ان سنان باشا وفائق بك قد برزا
خيامهما في الريدانية بسبب السفر الى اسطنبول ،
وأشيع ان سنان وفائق يتوجهان من البحر وبركهم
يتوجه من البر .

وفي يوم الاثنين حادى عشره خرج سنان باشا
وفائق بك وتوجها الى بولاق ، وشقا من الصليبة

النهار ، ثم توجه في المركب الى قصر ابن العيني الذي بمنشية المبراني ، ثم توجه من هناك الى بولاق وأقام بالسبتية . ثم طلع الى القلعة في أواخر النهار وانشرح في ذلك اليوم الى الغاية .

وفيه خلع على القاضي شرف الدين الصغير ، والقاضي شرف الدين بن عوض ، واستقر في التحدث في جهات الشرقية ، عوضا عن يونس الذي كان استنادارا ومات تحت العقوبة .

وفي يوم الأحد تاسعه خرج القاضي بركات بن موسى المحتسب ، الى مساحة بلاد الصعيد واستخراج المغل الذي بها ، وكانت هذه وظيفته الأمير يشبك الدوادار ، والأمير أقبردى الدوادار ، وغيرهما من الدوادارية ، فخرج في موكب حافل وقدمه الانكشارية يرمون بالنفوط ، وسافر معه جماعة من المماليك الجراكسة ، وفعل في أمر السنيح والخيام والبرك ما عجز عنه الأمراء المقدمون ، وقد ساعدته الأقدار على بلوغ الأوطان ورأى من العز والعظمة في دولة ابن عثمان ما لم يره في دولة السلطان الغوري .

وفي يوم الخميس ثالث عشره توفي الشيخ صالح المعتقد عبد الرحمن البهنساوي ، الذي كان مفيما بالمدرسة البرقوقية ، وكان للناس فيه اعتقاد .

وفيه عرض ملك الأمراء خاير بك طيلان رأس نوبة ، وضربه بين يديه بالمقارع ثانيا ، وسبب ذلك أنه تأخر عليه ألفا دينار مما كان تقرر عليه من المال الذي يورده ، ثم بعد الضرب أرسله الى سجن الديلم فأقام به .

وفيه قبض ملك الأمراء على جماعة من اليهود من معلمى دار الضرب ، ومن الصيارف ، وسبب ذلك أن معاملة السلطان ابن عثمان في الذهب والفضة قد ذهبت وفسدت وصارت كلها غشا وزغلا . فقبض على معلم دار الضرب وألزمته بأن يورد الى الخزائن الشريفة مائة ألف دينار ، وأن

شيخ الحضور الشيخ نور الدين على بن ناصر شيخ حضور الشافعية ، وشيخ الحنفية هو شهاب الدين أحمد بن الصائغ ، وقرر شيخ الحديث الشريف الشيخ شمس الدين الضيروطي .

وفي يوم الأحد سابع عشره أشيع أن المملوك الذي قتل على الأسمر ابن أبي الشوارب ، قد قبض عليه الكاشف ، وأحضره الى ملك الأمراء ، فرسم بشنقه فشنق على باب زويلة ، وقيل ان أصله من مماليك الاتابكي سودون الدوادار ، فأرضى ملك الأمراء مشايخ العربان بشنق هذا المملوك . وفي يوم السبت ثالث عشره وقعت فتنة كبيرة بين الاصباهية والانكشارية ، فأغلقتوا باب السلسلة وباب الميدان في ذلك اليوم ، واستمر الشر عمالا بين الفريقين الى ما بعد الظهر ، فنزل الكيخية الكبير ليصلح بين الفريقين فضربوه فولى هاربا . وفي يوم الاثنين خامس عشره ، كان يوم فطر النصارى وهو أول الخماسين .

واستهل شهر جمادى الأولى بيوم السبت ، فطلع قضاة القضاة الى القلعة وهنئوا ملك الأمراء بالشهر ثم عادوا الى دورهم .

ومن الحوادث في ذلك اليوم ، أن ملك الأمراء أحضر طائفة الانكشارية الى القلعة ، ورسم لهم أن يحضروا بمكاحلهم والبندق الرصاص الذي عندهم ، فلما أحضروا ذلك رسم ملك الأمراء بادخال تلك المكاحل والبندق الرصاص في الزردخاناه ، ورسم للانكشارية بأن يقيموا في الأطباق التي بالقلعة ولا ينزلون الى المدينة أبدا ، فشق ذلك عليهم الى الغاية ، وانتصفت عليهم طائفة الاصباهية .

وفي يوم الأربعاء خامسه نزل ملك الأمراء في مركب وعدى الى المقياس ، فأقام به الى آخر

الاثنين ، طلع القضاة الأربعة وهنئوا ملك الأمراء
بالشهر ثم عادوا الى دورهم

وفي يوم الثلاثاء تأسعه توفي طيلان رأس نوبة
وقد نال من الضرب بالمقارع كما تقدم ، فاستمر
عليلا حتى مات ، وكان من وسائله سوء ، ظالما
عسوقا من جملة أعوان الظلمة

وفي يوم الثلاثاء سادس عشره حصر قاصد أيضا
من عند الخنكار وأخبر أن الفرنج قد تحركت على
الخنكار ، وأرسل يقول لملك الأمراء بأن يحفظ
الثغور ، ويحصن ثغر الاسكندرية وثر دمياط
بالمكاحل وآلة السلاح وغير ذلك

وفي يوم السبت عشره طلع ابن أبي الرداد
بشارة النيل ، وأخذ القاع فجاءت القاعدة ستة
أذرع وعشرين أصبعا أرجح من العام الماضي بعشرة
أصابع ، وكانت الزيادة أول يوم خمسة أصابع ،
فتفاهل الناس بذلك .

وفي يوم الاثنين ثاني عشره حضر شخص شريف
من عند ابن عثمان ، وزعم أنه قد قرره في نقابة
الأشراف ، وأظهر مرسوم الخنكار بذلك . وأشيع
أن الخنكار أرسل يطلب الاصباهية بأن يتوجهوا
الى أسطنبول فأخذوا في أسباب عمل برقهم .

وفي يوم السبت سبع عشره ، خلع ملك الأمراء
على القاضي عبد العظيم ، واستنفره في التحدث
في نظر الحسبة الشريفة ، عوضا عن الزيني بركات
ابن موسى ، وكان مسافرا نحو الصعيد كما تقدم ،
وكان سبب ذلك أن ابن موسى لما سافر الى الصعيد
جعل شخصا من العثمانية متحدثا عنه في الحسبة
الى أن يحضر من السفر ، فضاعت أحوال المسلمين
في هذه الأيام ، ووقع الغلاء بالديار المصرية ،
وتشحطت الغلال ، وعز وجود الخبز في الأسواق ،
وتناهى سعر الأردب القمح الى ألف درهم ،

المعلمين بدار الضرب قاطبة يتوجهون الى نحو
اسطنبول أو يلتزمون باصلاح المعاملة ، فلما جرى
ذلك أغلظ عايه جماعة من اليهود ، وقالوا له أرنا
مرسوم الخنكار ان كان أرسل يطلبنا الى اسطنبول
وأقاموا أياما بالسجن حتى يكسون من امرهم
ما يكون .

وفيه تغير خاطر ملك الأمراء على الأمير كمشبغا
والى القاهرة فحنق كمشبغا من ملك الأمراء ، فلما
نزل الى بيته أغلق الباب وطرد النقباء عن بابه ،
ورفع دكنه وأقام أياما لم يخرج من بيته ، فنزل
اليه الأمير جانم الحمزاوى ، وطلع به الى ملك
الأمراء وقابله به ، فخلع عليه قفطانا مخملا ، ونزل
الى داره على عادته بعد ما كان أشبع وقوع فتنة
عظيمة ، وقيل انه أورد الى ملك الأمراء ستة آلاف
دينار .

وفيه أشيع أن ملك الأمراء خاير بك قد ضرب
زوجته خوند مصرباى الجركسية ، ضربا مبرحا
حتى كادت أن تموت ، ولم يعلم ما سبب ذلك ،
وكرر في ذلك القال والقيل .

وفي يوم الاثنين سادس عشره حضر من عند
الخنكار أولاق يبشر بمجىء عسكر عوضا عن
الاصباهية الذين بمصر ، وقد عين الخنكار عسكرا
وهو في أدرنه بأن يحضروا الى مصر ، وزعم هذا
القاصد أنه أتى من أدرنة الى مصر فى أحد وعشرين
يوما ، وكانت الاصباهية قد تقلقوا من الاقامة
بمصر ، فجاء هذا الاولاق يبشر بمجىء العسكر
حتى تطئن الاصباهية بذلك .

وفي شهر جمادى الآخرة وكان مستهل الشهر يوم

وفي شهر رجب ، وكان مستهله يوم الثلاثاء ، طلع القضاة الأربعة وهنثوا ملك الأمراء بالشهر وعادوا الى دورهم ، وقد قاتق الناس من أمر الاصباهية ، ثم ان النيل استمر في التوقف لم يزد شيئا ، فأمر ملك الأمراء بإبطال المحرمات من النيذ والحشيش والبوزة ، ومنع بنات الخطا من عمل الفواحش .

ثم ان الوالى قبض على امرأة يقال لها أنس وكانت ساكنة في الأزيكية تجمع عندها بنات الخطا اللاتي يعملن الفاحشة ، وكان عليها مبلغ مقرر تورده كل شهر للوالى ، وكان أمرها مشهورا ، فرسم ملك الأمراء بتغريقها هي وامرأة أخرى يقال لها بدرية ، زوجة أحد من الناس يقال له البغضى ، كانت ماشية على طريقة أنس هذه في جمعها البنات الخطا ، فلما قبض الوالى على أنس توجه بها الى قصر ابن العيني الذى فى المنشية ، وغرفها هناك بعد العصر ، فاجتمع الجهم الكثير من الناس بسبب الفرجة عليها ، وكان يوما مشهودا ، ففرقت على النداء والاجهار ، وأراح الله تعالى المسلمين وطهرت الأرض منها .

وفي يوم الجمعة رابع الشهر صلى ملك الأمراء صلاة الجمعة بالقلعة ، ثم نزل منها وتوجه الى المقياس وقرأ هناك ختمة ومد مدة حافلة للقراء ، واستمر النيل سبعة أيام لم يزد فيها شيئا وأشيع أنه نقص أربعة أصابع ، فقلق الناس لذلك ووقع الغلاء فى سائر البضائع والاصناف .

وفي يوم السبت خامس رجب زاد الله فى النيل المبارك أصبعا واحدا بعد أن وفى النقص ، وفرح الناس بذلك وسكن الاضطراب الذى كان بمصر قليلا ، وفى ذلك يقول الناصرى محمد بن قانصوه :

وتناهى سعر البطة الدقيق الى عشرين نصفا ، وعز وجود الشعير والفول والنبين ، فضج الناس من ذلك ، وعز وجود الأجبان والسمن والشيرج وغير ذلك ، فتوجه طائفة من التركمان الى بيت ابن موسى . وضربوا المباشرين والرسلى الدين على الباب ، وهرب التركمانى الذى كان يتحدث فى الحسبة .

ثم ان التركمان توجهوا الى بيت القاضى عبد العظيم ، وهجموا عليه فى حريمه ، وأخذوه وأركبوه غصبا وطلعوا به الى ملك الأمراء ، وقالوا له ان لم تول هذا الحسبة والا تحرب مصر على أيامك وتتهب المدينة عن آخرها ، فما وسع ملك الأمراء الا أن أحضر له قفطانا وأفاضه عليه ، واستقر به ناظر الحسبة عوضا عن ابن موسى ، فنزل من القلعة بعد العصر ، وشق من القاهرة ، وارتفعت له الأصوات بالدعاء من الناس ، وكان محببا لأهل مصر قاطبة ، وفرح كل أحد من الناس بولايته ، وظهر الخبز فى ذلك اليوم على الدكاكين وقد تفاعل الناس بكعبه بالرخاء ، وسكن ذلك الاضطراب الذى كان فيه الناس قليلا .

وفي هذه الأيام توقف النيل عن الزيادة أياما فقلق الناس لذلك .

وفي يوم الاثنين سلخ الشهر ثارت طائفة من الأصباهية على الأمير جام الحمزاوى وهو نازل من القلعة ، وعينوا له الضرب ، وقالوا له قل لملك الأمراء قد متنا من الجوع نحن وخيلنا من قلة الموجود ، فلا فلتقى فى الأسواق حبرا ولا شعيرا فاما يأذن لنا بالسفر أو يكفيننا من القوت ، فما خلع منهم الأمير جانم الحمزاوى الا بعد جهد كبير ، وذكروا أن لهم ثلاثة أشهر جامكية مكسورة فى الديوان .

قد أصبح الخزان مذ زاد
هذا النيل بعد النقص في بوسى

وقد عدا يهرا على قمحه
قراءة تنسب للـسوسى

فلما زاد النيل هذا الأصعب وسكن الاضطراب
شرع القاضى عبد العظيم المحتسب فى تسعير
البضائع قاطبة ، فانصلحت أحوال الديار المصرية
قليلا ، ووقع الرخاء وتفاءل الناس كعبه بالحير ،
وقد قلت فى المعنى :

يا قاضيا قد عدا بالله محتسبا
على الأعادى ولا يخشى من الباس

رخصت أسعارنا من بعد ما عليب
وحزت حسن الثنا من ألسن الناس

لما توليت زاد النيل وانفرت
وقد حزى لى خزان ودراسى

ان زال هذا الغلا من مصر لا عجب
فكعبكم أخضر يزهو على الآس

ومن الحوادث أنه فى يوم الخميس عاشر
رجب ، وقعت واقعة شنيعة ، وهى أن اسكندر
بك أحد أمراء ابن عثمان الذى كان حضر الى مصر
عوصا عن سنان باشا ، لما أقام بمصر صار يعارض
قضاة القضاة فى الأحكام الشرعية ، فوقع بينه
ويين نور الدين على الميمونى قبيب قاضى القضاة
الشافعى .

ثم انه فى يوم الخميس رسم بعزل على الميمونى
من النقابة ، ولم يكتف بذلك حتى أنه تكلم مع
ملك الأمراء فى نفيه فنفاه الى دمنهور ، وأخرجه
من يومه .

ثم ان ملك الأمراء رسم بابطال نقباء قضاة
القضاة الأربعة ، فعزل من النقابة شهاب الدين

أحمد بن سيرين قبيب قاضى القضاة الحنفى ،
وعزل نصيب قاصى القضاة المالكى تسمى الدين
الدميرى ، وعزل من النقابة ابن قاضى القضاة
الحنبلى ، ومنع جماعة من الوكلاء ومن الرسل
أيضا ، وحصل لفضاة القضاة منه غايه الضنك
يسبب نقباتهم

وفد تقدم القول ان ملك الأمراء لما توقف النيل
سبعة ايام امر بابطال بيوت الحتيس ريبوب
الخمرة وبيوت البوزة وعرق انس النى كانت
تجمع عندها بنات الخطا اللاتى كن يعملن الفاحشة
من امر الزنا ، فلما راد النيل رجوع لى سىء على
حاله ، وسبب ذلك أن العثمانيه تعصبوا فى اعادة
ذلك ، فان أكثرهم كان يبيع البوزة فى الدكاكين
ورسم ملك الأمراء بأن أولاد أنس لا يعارضون
فيما يفعلون من جمع بنات الخطا ، كما كانت
تفعل أمهم أنس .

وفى هذا اليوم قدمت الأخبار من حلب بأن
الخنكار أرسل عسكريا يقيمون بمصر عوضا عن
الأصباهية الذين كانوا بها .

وفى يوم السبت ثانى عشره رسم ملك الأمراء
بشنق شحص سروجى فشنق عند باب خان الخليلى
وسبب ذلك انه كان له عبد فباعه لبعض المماليك
الجراكسه ، فهرب وخدم عند بعض التركمان ،
ثم ان السروجى توجه الى سيدى أحمد البدوى ،
فصادف ذلك العبد هناك فقبض عليه وأحضره الى
القاهرة ، فهرب ذلك العبد من بيت السروجى
وأثنى الى التركمانى ، وادعى أنه لم يكن فى ملك
السروجى وأنه معتوق ، فطلع التركمانى وقص
خبر العبد على ملك الأمراء ، فاحضر ذلك السروجى
وأخبر أنه قد باعه لمملوك جركسى ، وقتل فى
الواقعة ومضى أمره ، فلم يثبت للسروجى عليه

كتابة السر بالديار المصرية ، وأقام في هذه الولاية ست عشرة سنة ، وهو عزيز في مصر نافذ الكلمة وافر الحرمة ، وهو آخر كتاب السر بالديار المصرية ولم يوجد بعده من يناظره في الرياسة والتعظيم والنظام ، ومثى مثى الرؤساء المتقدمين في كتابة السر ، وكان مولده سنة اثنتين وخمسين وثمانمائة ، ومات وهو في ست وأربعين سنة ، وكان كثير الأمراض في جسده ، وأكثر اقامته في داره ، والناس تسعى اليه في أشغالها ، ولما مات رثاه الأديب ناصر الدين محمد بن فانصوه بهذه المرثية :

ألا في سبيل الله نجل أجا الذي
يكل اذا عدت فضائله الفكر

فضائله كالزهر والزهر ذكرها
ومنظرها اذ فيهما النثر والبشر

كنجم بأفق الملك كان كم اهتدى
به من بليل الهم ضل به الحجر

كتابة سر الملك ماتت لكونها
به ختمت والسر من بعده جهن

لذا كان محمودا وبالقلب ذكره
رعى الله محمودا له الحمد والشكر

فمن مثل محمود ومن مثل قلبه
وذا القلب ممدوح يلذ به الذكر

لقد كان كالنعمان في العلم والسخا
وفي الفجر نعم العلم والجود والفض

له فكرة كانت تمد يراعه
بدائع لفظ نظم ابداعها الدن

لعمر ك ما في الفصل والوصل مثلها
بيان معانيها لرب الحجا سحر

حق فأغلق السروجي على ملك الأمراء في القول فحلق منه ملك الأمراء ورسم بشنقه فشنق عند خان الخليلي ، فقيل ان السروجي سأل ملك الأمراء أن يفدى نفسه من الشنق بحمسائة دينار ، فأبى ملك الأمراء من ذلك ، وشنق فراح ظلما .

وفي يوم الاثنين رابع عشره وقعت حادثة مهولة وهي : ان جماعة من الكملية والاصباية وقفوا الى ملك الأمراء يطلبون منه جوامكهم عن ثلاثة أشهر ، ويأذن لهم بالسفر الى بلادهم ، فلم يلتفت اليهم ، فنزلوا من عنده ووقفوا بالرميلة ، فلما طلع الأمير جانم الحمزاوي أحاطوا به وضربوه وأنزلوه عن فرسه ، وأرادوا قطع رأسه ، فهرب ودخل الى الميدان وهو مكشوف الرأس ، فوقف في وجوههم شخص من أمراء الجراكسة يقال له الأمير بخشباي — الذي كان كاشف البهنسا — فرموا غبنهم فيه فضربوه بالسبيوت حتى أشبع موته ، فحملوه وأدخلوه الى باب السلسلة وفيه بعض نفس .

ثم ان الكملية استمروا بالرميلة طالين شرا مع الجراكسة ، وانفتح بينهم باب الشر بسبب جانم الحمزاوي ، ثم أنزلوا الأمير بخشباي الى بيته فأقام الى يوم الأحد عشريه ومات ، وقد جرح في رأسه جرحا بالغا ومات به ، وأشيع أن ملك الأمراء كتب محضرا بأن الكملية قتلوه وأرسل ذلك المحضر الى الخنكار بأدونه ، ثم حضر جماعة من الأمراء الجراكسة وصلوا على الأمير بخشباي ، وكانت له جنازة حافلة وصنعوا قدامه كفارة .

وفيه قدمت الأخبار من حلب بوفاة القاضي محب الدين محمود ابن القاضي شمس الدين محمد بن أجا الحلبي ، وكان رئيسا حشما أصيلا عريقا فاضلا ، ولى قضاء الحنفية بحلب ، ثم ولى

الجيش بن أبي الفرج وشخص من أقارب ابن الطولوني ، وقد أقاموا لهم ضمانا باسطنبول بأن يتوجهوا الى مصر ، ويقضوا أشغالهم ، ثم يعودوا الى اسطنبول ، وأخبر الجمالي يوسف بوفاة جماعة كثيرة من الأعيان الذين توجهوا من مصر الى اسطنبول ، ولم تحضرني أسماؤهم .



واستهل شهر شعبان يوم الخميس فطلع القضاة الأربعة وهنئوا ملك الأمراء بالشهر ، ثم عادوا الى دورهم .

وفي يوم الثلاثاء سادس الشهر حضر الفاسد الذي أرسله الخنكار بطلب الاصباهية ، وقد أرسل عسكريا صحبة ذلك القاصد عوضا عن الاصباهية ، فلما وصلوا الى الريدانية ، رسم لهم ملك الأمراء بأن يطلعوا من بين التراب ، ولا يشقوا من القاهرة ، قيل ان عدتهم دون ألف نفس ، والباشا الذي عليهم يقال له قراموسى . فلما وصل تحت القلعة أنزله ملك الأمراء بالميدان الذى تحت القلعة ، فنصب خيامه به ، وصارت التركمان الذين حضروا صحبته يهجمون على الناس فى بيوتهم ويسكنون بها .

فلما كان يوم الاثنين ثانى عشره خرج اسكندر بك وخرج صحبته الاصباهية الذين كانوا بسمر قاطبة ، فكان هو الباشا عليهم ، فشق عليه خروجه من مصر ، وكان هو المشار اليه فى أمور الديار المصرية ، وصار يعارض قضاة القضاة فى الأحكام الشرعية ، فقلق الناس منه الى الغاية حتى بعث الله تعالى بالفرج وأخرجه من مصر عاجلا . فلما خرج اسكندر ، نزل اليه ملك الأمراء وودعه وأنعم عليه بأشياء كثيرة من مال وخيول وزوادة وغير ذلك ، ولما دخلت هذه الطائفة من التركمان الى مصر

أرى الله منه الروح روحا تفضلا
عليه ويريحانا وزيد له الأجر

وصير قبرا ضمه خير روضة
لطيب بها فيه له اللف والنشر

وفى يوم الخميس رابع عشره ثارت الاصباهية على ملك الأمراء وطلعوا الى الرميطة ، ووقفوا بها فأغلقوا فى وجوههم باب السلسلة ، وباب الميدان ، فصاروا يسبون ملك الأمراء سبا فاحشا ، وكان سبب ذلك أنه كان لهم ثلاثة أشهر جامكية منكسرة فأنفق عليهم شهرين وتأخر شهر واحد ، فقالوا ما نسافر حتى تنفق علينا الشهر المنكسر ، والا نزلنا فنهينا المدينة وشوشنا على الناس ، فوقع الاضطراب بالقاهرة ، وغلقت الأسواق والدكاكين فى ذلك اليوم .

ثم ان الاصباهية توجهوا الى بيت الأمير قايتباى الدوادار ، وأركبوه من بيته عصبا وطلعوا به الى ملك الأمراء ، وطلعوا أيضا بالأمير كمشبا الوالى فاجتمعا بملك الأمراء وحدثاه فى أمر الاصباهية بأن ينفق عليهم ذلك الشهر الذى تأخر لهم ، فتوقف فى ذلك . ثم رسم لهم بأن ينفق عليهم ذلك الشهر فيما بعد ، وأخذوا فى أسباب عمل برفقهم والتوجه الى اسطنبول .

وفيه أشيع انه حضر من اسطنبول جماعة ممن كان بها من السيوفية والحدادين والبنائين والنجارين والمرخمين وغير ذلك من الصناعات ، وأشيع أن الخنكار أنشأ له هناك جامعا وحماما ، فلما انتهى العمل منهما وقفوا له وقالوا له ان خلفنا أولادا وعيالا وقد أنهينا العمل الذى رسم به الخنكار وما بقى لنا شغل ، فرسم لهم بالعود الى بلادهم ، وكتب لكل واحد منهم ورقة بعدم المعارضة ، وحضر صحبتهم أيضا الجمالي يوسف ابن قبيب

صارت الناس تضيق أبوابها حتى لا يدخل منها ركب لاجل التركمان .

وفي يوم الأربعاء رابع عشره رسم ملك الأمراء يشنق سبعة أنفار من طائفة الكسلية ، فيسل هم الذين قتلوا الأمير بختسباى كما تقدم ، فشنق منهم ستة أنفار على شجرة النبق التى عند مدرسة السلطان حسن ، والآخر تنق عند باب النصر ، فشق ذلك على الكسلية ، ولم يطلع من أيديهم شئ

وفي يوم الجمعة سادس عشر شعبان كان وفاء النيل المبارك ، ووافق ذلك تاسع عشر مسرى ، ففتح السد يوم السبت سابع عشر شعبان الموافق لعشرى مسرى ، فأوفى الله الستة عشر ذراعا ، وزاد من الذراع السابع عشر أصعين . وفتح السد فى العام الماضى ليلة النصف من شعبان ، فكان التفاوت بينهما يومين ، وقد قال الناصرى محمد بن قانصوه :

شاهدت عند النيل يوم الوفا

حرزا عظيما جانب الشط

للعين والنظرة فيه غدت

كتابة بالكسر والبسط

قلما طلع ابن الرداد ، وأخبر ملك الأمراء بوفاء النيل المبارك ، نزل من القلعة ونوجه الى المقياس ، وخلق العمود ومد هناك مدة حاقله ، ثم قدموا له المركب الغراب الذى كان عمره السلطان الغورى ، فنزل فيه وتوجه الى نحو السد الذى عند رأس المنشية ، ففتحه وأظهر التعاضم فى ذلك اليوم ، وفرق المجامع الحلوى ، والمشنات الفاكحة ، وكان ذلك اليوم مشهودا من كثرة المراكب والنفوط والطبول والزموور . ثم ركب ملك الأمراء من هناك ونوجه

الى القلعة ، ثم توجه الأمير كمشبقا الوالى ففتح السد الذى عند قنطرة السد ، وفتح سد قنطرة قديدار ، ورجع الى داره ، وكان يوما مشهودا ، وقد عمت هذه الفرجة كل الناس .

وفيه أنفق ملك الأمراء الجامكية على الممالك الجراكسة ، فأنفق لهم شهرين ، وكان لهم جامكبة أربعة أشهر مكسورة . ثم ان القاضى شرف الدين الصغير ، عوق جوامك جماعة من أولاد الناس بسبب ذلك .

وفيه تعير خاطر ملك الأمراء على جان بك كاشف الشرقية ، فأرسل بالقبض عليه واحضاره فى الحديد وقد كثرت فيه الشكاوى من الناس ، واستغاثوا من ظلمه ، فلما حضر بين يدى ملك الأمراء وبجه بالكلام ، ثم وضع جنزيرا فى عنقه ، وقيدا فى رجليه ، وأرسله صحبة جماعة من الانكشارية الى الشرقية ، ورسم باشهار المنادة فى الشرقية بأن من ظلمه جان بك كاشف الشرقية ، عليه بملك الأمراء يخلص حقه ، ثم عزل جان بك من كشف جهات الشرقية ، وقرر شخصا من الأتراك يقال له اياس ، وكان دوادارا بخدمة خاير بك المعمار قدما ، وقد تعين باش العسكر الذى كان قد تعين الى جدة ولم يتم له ذلك .

ثم ان ملك الأمراء فى عقيب ذلك ، أرسل بالقبض على اينال السيفى طراباى كاشف الغربية ، وأحضره فى الترسيم ، واستمر على ذلك الى الآن لم يخلص من الترسيم .

وفى أواخر هذا الشهر قدمت الأخبار من مكة المشرفة بوفاة ابنة العلالئى على بن خاص بك ، وهى أخت خوند زوجه الأشرف قايتباى ، وكانت رئيسة حشمة فى سعة من المال ، وقد تزوجت بعدة أمراء

مقدمي ألوف ، وهي حماة الأشرف طومان باي ،
جاءت بكفة وتوفيت هناك .

وفي يوم الخميس آخر الشهر ، كانت ليلة رؤية
هلال رمضان ، فتوجه قضاة القضاة الى المدرسة
المنصورية التي بين القصرين ، وحضر القاضي
عبد العظيم المحتسب ، فلما روى الهلال وانفض
المجلس ، قام القاضي عبد العظيم وركب من
المدرسة المنصورية ، فلاقته الفوانيس والمشاعل
من هناك ، وعلقت له التناديل على الدكاكين ،
ومشت قدماه الشموع والسقاهون بالقرب كما كان
يصنع القاضي بركات بن موسى المحتسب ، فاستمر
في هذا الموكب الحافل من بين القصرين الى بيته
الذي في باب النصر ، والرسل قدماه بالشموع
الموقودة ، وكانت تلك الليلة من الليالي المشهودة
في الفرجة والتصف ، وفيه يقول الأديب ناصر الدين
محمد ابن قانصوه :

كعب عبد العظيم كعب رخاء

ريح تسعيره الرخاء رخاء

باشر الحسبة الشريفة في المح

سل فراح الغلا وجاء الرخاء

من كذا كعبه لدى المحل خصب

فهو طب للداء فيه دواء

دام فيها مدير الحكم بالحك

سمة ما قابل الصباح المساء

واستهل شهر رمضان بيوم الجمعة ، فطلع
القضاة الأربعة وهنأوا ملك الأمراء بالشهر ، ومما
وقع في ذلك اليوم أن قاضي القضاة الشافعي كمال
الدين الطويل تكلم مع ملك الأمراء في ذلك المجلس

بسبب تقيبه نور الدين على الميموني ، وقد تقدم
القول أن ملك الأمراء نفاه الى دمنهور ، فلما كلمه
القاضي كمال الدين بسبب ذلك رسم باعادته الى
مصر ، بشرط أن يكون بطالا ، ولا يتكلم في النقابة
يباب القاضي أبدا ، ومنع بقية القضاة أن يجعلوا
لهم تقباء على أبوابهم ، ثم انفض المجلس على ذلك
وقامت القضاة .

وفي يوم الثلاثاء خامس رمضان كان يوم
النوروز ، وهو أول السنة القبطية سنة خمس
وعشرين وتسعمائة الخراجية .

وفيه قدمت الأخبار من مكة بأن في البحر المالح
قبالة جدة نحو أربعين مركبا من مراكب الفرنج
يعبثون بالتجار ويقطعون عليهم الطرقات ، فلما بلغ
ملك الأمراء ذلك عرض جماعة من المماليك
الچراكية وغيرهم ، وعين منهم نحو ثلثمائة مملوك
وكلمية يتوجهون صحبة الحجاج ، وقيمون بجدة
خوفا من أن يطرقها بعض الفرنج على حين غفلة .

وفيه أشيع بين الناس أن قاسم الشرواني الذي
كان استقر في نيابة جدة ، جمع المال الذي تحصل
من جدة فوضع بده عليه ، وأخذ المكاحل التي
كانت هناك والسلاح ، ونزل في مراكب وتوجه
نحو بلاد هرمز ، فتأكد ملك الأمراء لهذه الأخبار
الردية .

وفيه حضر شخص يقال له كيخيه أرسله ابن
عثمان يقيم بمصر عوضا عن أغات الانكشارية الذي
كان بمصر ، فانه أراد الحج في هذه السنة الى بيت
الله الحرام .

وفي يوم الثلاثاء تاسع عشر رمضان قبض على
شخص من تجار الوراقين يقال له المحلاوي ، وكان
قيح السيرة مشهورا بأكل الربا ، وقد أنهوا في

حقه أنه يبيع الخمر والمعجون للتركمان في شهر رمضان ، وقد شهد عليه جماعة من الوراقين بذلك . فلما عرض على ملك الأمراء بالمبدان رسم بسليمه الى الوالى حتى يحرر ما يكون من أمره ، فتسلمه الوالى ونزل به الى داره ليعاقبه حتى يفر بما قيل عنه من بيع الخمر والمعجون ، وقد أوعده ملك الأمراء بالشنق بعد العيد ، فلما نزل به الوالى الى بيته قصد أن يكتب محضرا بسيرته ، فجاء اليه جماعة من الانكشارية من أصحاب المحلاوى الذين كان يبيع لهم المعجون ، فمنعوا الوالى من ذلك وأغلظوا عليه في القول ، ثم توجهوا الى سوق الوراقين وضربوا التجار الذين تعصبوا على المحلاوى ، وقصدوا نهب التجار ، فأغلقوا الدكاكين قاطبة .

فلما كان يوم الأربعاء عشرى رمضان طلع التجار الى ملك الأمراء وأخبروه بما جرى من الانكشارية فحرق منهم ورسم للوالى بأن يوسط المحلاوى على باب الميدان ، فوسطه هناك مسرعا ، ولم تنتطح في ذلك شاتان .

ثم قبضوا على عبد المحلاوى فادعى أنه قد اعتقه أستاذه قبل أن يتوسط ، فقطع الوالى أذنه وأطلقه الى حال سبيله ، فعهد ذلك من الحوادث المهولة . وما كان يجب على المحلاوى توسط فراح ظلما .

وفي يوم الجمعة ثمانى عشرية وقع من الحوادث أن ملك الأمراء كان وضع في الرميلى — عند القماحين تجاه سبيل المؤمنين — فلقين حشب بحل كهيئة المشنقة ، ووضع فيهما حبالا وكلايب حديد كبارا . وأشيع بين الناس أن ملك الأمراء يقصد بعد العيد أن يشنق جماعة من مشايخ العربان .

ويشمنق جانى بك كاشف الشرقية ، واينال كاشف الغربية ، ويتسنق جماعة من الكلمبه والانكشاريه ، فجاءوا الى تلك المشنقة ورموا الأخشاب التي هناك ، وقطعوا الكلايب والحبال ، ثم توجهوا الى بيت كمشبع الوالى وقصدوا أن يهجموا عليه ، ثم ضربوا النقباء الذين على بابه ، ثم توجهوا الى الوراقين وقصدوا أن يقتلوا الجماعة الذين كانوا تعصبوا على المحلاوى حتى وسطوه ، وكادت أن تكون فتنه عظيمة ، وباتوا على ما كانوا عليه من طلب الشر مع ملك الأمراء .

وفي يوم السبت ثالث عشرية ثارت الكملية والانكشارية ، وطلعوا الى الرميلى ، وقصدوا نحو الممالك الجراكسة ، وكان الأمير قايتباى الدوادار واقفا قدام باب السلسلة ، فلما رأى التركمان وتزايد الأمر منهم ، سل السيف هو ومن معه من الأمراء الجراكسة ، وفصدوا مقاتلتهم ، وأغلظ التركمان على الممالك الجراكسة ، وقالوا لهم ايش أتم واقفون تنفرجوا علينا ، نحن فى بعضنا نفتتن ، ايش أدخلكم بيننا ، ثم انفض ذلك الجمع على غير رضا ، ونزل كل أحد الى داره ، ثم ان التجار قتلوا أمتعتهم من الدكاكين خوفا من النهب ، واختفى غالب تجار سوق الوراقين المعينين الذين كانوا تعصبوا على المحلاوى .

وفي يوم السبت المذكور توجه جماعة من الانكشارية والاصباهية الى بيت شحص من تجار الوراقين يقال له كريم الدين البلدى ، فنهبوا كل ما فيه ، وقبضوا على أولاده ونسائه وعبيده وجواريه ولم يظفروا به . ثم أشيع أنهم قبضوا على جماعة من الوراقين ووضعوهم فى الحديد ، وقيل انهم من تعصبوا وشهدوا على المحلاوى بما قيل عنه . فتشكد جميع التجار لهذه الواقعة ، وصار على رؤسهم الطيرة من التركمان ،

وجولوا أمتعتهم من الدكاكين ، وصارت الناس
حاي وجل ، خوفا مما يأتي منهم ، واستمر التركمان
عابى ما هم عليه من اقامة دننة عظيمة والأمر لله
تعالى .

وفي يوم الاثنين خامس عشره نادى ملك
الأمراء بالناهرة بأن القلعى شيخ سوق الوراقين
يظهر وعليه أمان الله تعالى ، وان لم يظهر بعد ثلاثة
أيام وغمز عليه يحرق المكان الذى هو فيه والحارة
أيضا ، واستمر كمشبغا الوالى مختفيا لم يظهر .
وقد عين التركمان القتل لحمسة من تجار الوراقين
وشخص من تجار الجملون يقال نه ابن ظلام ، وهم
الذين شهدوا على المحلاوى بما تقدم ، وتعصبوا
عليه . واستمر الاضطراب عمالا بسبب ذلك .

وفي يوم الثلاثاء سادس عشره ، حضر القاضى
بركات بن موسى المحتسب ، وكان مسافرا نحو
الصعيد بسبب صم الغلال وغير ذلك ، وكان له
نحو خمسة أشهر وهو مسافر ، فلما طلع وقابل
ملك الأمراء خلع عليه ققطانا مخملا ونزل الى داره ،
فزيت له سويقه اللبن ودكاكين الحشاشين .

وفي يوم الأربعاء سابع عشره ، خلع ملك الأمراء
على الأمير كمشبغا الوالى وأعيد الى الولاية ، وكان
له عدة أيام وهو مختف لم يظهر بسبب واقعة
المحلاوى ، وقد وقع بينه وبين الكملىة فتنة ، وعينوا
له القتل فاختنفى وأغلق عليه أبوابه أياما ، فلما تلافى
ملك الأمراء خواطر التركمان وأرضاهم ، وزاد في
جوامسكهم ، وخمدت تلك الفتنة ، ظهر كمشبغا ،
وخلع عليه واستقر على عادته ، فعز ذلك على
التركمان .

ولما حضر القاضى بركات بن موسى المحتسب
ضمن ابن ظلام شيخ سوق الجملون ، وخلصه من

الحديد ، وألبسه ققطانا مخملا ، وأقره شيخ
الجملون كما كان ، وضمنه فى مال له صورة يورده
الى ملك الأمراء ، وكان ابن ظلام صهر القاضى
بركات بن موسى ، فبدل معه المجهود حتى خلصه .

وفي يوم الخميس ثامن عشرى رمضان خرج
العسكر المعين الى بندر جدة ، فخرجت تلك
التجريدة فى ذلك اليوم وهم ما بين ممالك جراكسة
وتركمان ، وكانت عدتهم نحو ثلثمائة انسان من
الفريقين ، وكان الياشا عليهم شخصا من العثمانية
يقال له أعات الكملىة ، وقيل انهم يتوجهون الى
السويس ، وينزلون من هناك فى المراكب الى البحر
المالح ، حتى يصلوا الى جدة ، وقد كثرت الاشاعات
بسبب فساد الفرنج وعبثهم فى البحر على التجار ،
وقد جاءوا نحو بندر جدة .

وفي شهر شوال وكان مستهله يوم الأحد ، طلع
القضاة الأربعة الى القلعة ، وصلوا مع ملك الأمراء
صلاة العيد ، ثم نزلوا الى دورهم ، وبطل ما كان
يخلع فى ذلك اليوم من الخلع على قضاة القضاة
والأمراء والمباشرين وأرباب الوظائف قاطبة ، وزال
ذلك النظام العظيم من مصر كأنه لم يكن أبدا

وفي يوم الخميس خامس شوال ، وافق ذلك
اليوم أول يوم من يابه ، فيه ثبت النيل المبارك على
ثنانى أصابع من عشرين ذراعا ، وكان أرجح من
نيل العام الماضى بذراعين وأصبعين ، فانه ثبت فى
العام الماضى على ستة أصابع من سبعة عشر ذراعا ،
وهبط سريعا فشرق غالب البلاد

وفي يوم الاثنين تاسع شوال جلس ملك الأمراء
بالميدان ، وعرض عليه كسوة الكعبة الشريفة
والمحمل الشريف وكان يوما مشهودا .

وفي يوم الجمعة ثالث عشر شوال انتهى العمل من مدرسة الشيخ الدشطوطي رحمه الله تعالى عليه . التي بالقرب من حدره القبول تجاه زاوية الشيخ يحيى البلخي ، وخطب في ذلك اليوم بها ، فاجتمع هناك الأمراء العثمانية ، والأمير جام الحمزاوي ، وقضاة القضاة الأربعة ، وأعيان المباشرين . ومشاهير الناس ، فلما كان وقت الصلاة سعد المنير قاضي القضاة الشافعي كمال الدين الطويل ، وخطب خطبة بليغة في المعنى ، فلما انقضى أمر الصلاة أحصر الأمير جام الحمزاوي زبادي صيني ضمنها سكر ، وشي أقسمه ، فطاف بها على الحاضرين ، وكان يوما مشهودا ، وجاءت هذه المدرسة في غاية الظرف ، وذلك ببركة الشيخ عبد القادر الدشطوطي رحمة الله عليه .

وفي يوم الخميس تاسع عشره ، خرج المحمل الشريف من القاهرة في تجمل عظيم ، وكان ذلك اليوم مشهودا . وكان أمير ركب المحمل في هذه السنة الأمير برسباي دوادار ملك الأمراء ، فطلب طلبا حافلا يشتمل على محاسن كثيرة ، كما هي عادة الأطلاب القديمة ، وشق من القاهرة في موكب حفل ، وقدامه جماعه من الأمراء الجراكسة والعثمانية وأعيان المباشرين ، والجهم الكثير من العثمانية والانكشارية يرمون بالنفوط ، وجماعة من القواسمة ، وخرج صحته سنيح عظيم من الزاد والماء ، وكانت الحجاج قليلة لأجل غلو العليق ، والكرء تشحط في هذه السنة الى الغاية .

وفي شهر ذي القعدة — وكان مستهله يوم الثلاثاء — طلع التصاد الأربعة الى القلعة وهنئوا ملك الأمراء بالشهر ، ثم رجعوا الى دورهم . وفيه حضر قاصد من عند ابن عثمان ، وأشيع بين الناس أن سبب حضور هذا القاصد أن

الخليفة محمد المتوكل علي الله ، لما توجه الى اسطنبول ، توجه سحبة أولاده ابن عمه خليل ، وهما أبو بكر وأحمد ، فوقع بينهما وبينه هناك فتنه ، فترافعوا الى الخنكار ، وقالوا انه لما كان بمصر فعد على ودائع كثيرة ما بين مال وقداش أودعه عنده الأمراء الذين قتلوا ، وأخذ من خوند زوجته السلطان طومان باي وأمها مالا كثيرا ، وكذا أخذ من نساء الأمراء المقدمين الذين قتلوا من الأموال ما لا يحصى ، ولم يطالع الخنكار على شيء ، وتكلما في حقه بالباع والذراع ، وما أبقوا في ذلك ممكنا . فاعتدى الخنكار على الخليفة المتوكل علي الله ، وانحط قدره عنده ، وساعدت الوزراء أولاد خليل عند الخنكار .

وكان الخليفة لما أقام باسطنبول أظهر فتكا زائدا ، واشترى له جواري يضرين بالجنوك ، ثم انه قطع معلوم أولاد ابن عمه فشكوه الى الخنكار ، فحنق على الخليفة وأمر بأن جهاتهم تقسم ثلاثة أثلاث بين الجميع بالسوية ، فأرسل هذا القاصد يحاسب لهم على ذلك ، فلما حضر القاصد رسم على مباشري الخليفة ، وعلى دواداره برد بك ، وقال لهم أقيموا لنا حساب معلوم أولاد خليل بغاية الانصاف

وفي يوم السبت خامسه جلس الأمراء بالمقعد الذي بالحوش السلطاني ، وحضر قدامه مصارعان ، وهما شخص يقال له الشاطر أبو الغيث الزريكشي ، وخصمه شخص أعجمي شنيع المنظر في خلقته ، فتصارع مع الزريكشي فغلب الزريكشي ورماه الى الأرض ، وركب فوقه وعصره في الأرض حتى كاد يموت ، فانتصر عليه وغلب أبو الغيث ، وألبس ملك الأمراء الأعجمي قفطان حرير ، ونزل من القلعة وقدامه طبلان وزمران ، وجماعة من العثمانية وشق من القاهرة ، وكان له يوم مشهود .

في طريقه انكشاريا يأخذ عصاه ويكسرهما ، ويقول له اطلع الى القلعة واقعد في الطبقة ولا تنزل الى المدينة أبدا . وقيل انه منع الناس ألا يشتركوا أحدا من الانكشارية مطلقا ، واستمرت الفتنة نائرة بين الاصباهية والانكشارية الى الآن ، وكل مهما على حذر من رقيقه

ومما وقع في الشهر من الحوادث أن جماعة من المماليك الجراكسة ، نحو عشرة ممالك ، فيل فيهم سحس من فرابه الأمير قانصوه ابن الامير چركس ، وشحص آخر كان والى قلوب ، حرجوا على حين غفله وصدوا أن سوجهوا الى الأمير جان بردى الغزالي نائب الشام ، فلما وصلوا الى قطيا قبض عليهم نائب قطيا ، ووضعهم في الحديد ، وأرسل كاتب ملك الأمراء فيهم ، فأرسل اليه ملك الأمراء جماعة من اتركمان ليحضروهم ، فلما ، وصلوا الى قطيا أظهروا مرسوما من عند ملك الأمراء الى نائب قطيا بأن يضرب رقابهم أجمعين ، فامتثل ذلك وضرب رقاب العشرة ممالك ، وكان فيهم شحص من العريان يرشدهم الى الطريق ، فضرب عنقه أيضا وكان قتلهم في مكان بين الصالحة وفتيا يسمى حيرة والعافولة . فلما أشيع هذا الخبر شق ذلك على جماعة من المماليك الجراكسة ، وشق ذلك على نائب الشام أيضا ، ووفعت الوحشة بينه وبين ملك الأمراء خاير بك من يومئذ ، ودبت بينهما عقارب الفتنة .

وفي يوم الاثنين ثامن عشره ، كانت وفاة الكاتب المجيد أبى الفضل محمد السنباطى ، المعروف بالأعرج ، فيل انه مات فجأة على حين غفلة وكان له حظ .

ومن الحوادث العجيبة الغريبة التي لم يسمع بمثلها ما وقع في أواخر هذا الشهر ، وأشيع

وفي يوم الأحد مع ليلة الاثنين رابع عشره ، خسف جرم القمر حسوفا فاحشنا حتى أظلم منه الجو ، وأقام في الخسوف فوق أربعين درجة ، وقد خسف أول ما أشرق عند طلوعه ، واستمر يتزايد في الخسوف حتى مضى من الليل جانب كبير ووقع مثل هذا الخسوف في السنة التي مات فيها السلطان العورى ، وكان بين موته وبين الخسوف نحو شهرين ، وجرى ما جرى من الأهوال عقيب ذلك . ونسأل الله اللطف في هذا الخسوف الثانى .

وفي يوم الأربعاء سادس عشره نزل ملك الأمراء من القلعة ، وتوجه الى خليج الزعفران ، وسبب ذلك أن الأمير كمشبغا الوالى صنع له هناك مدة حافلة ، وأضافه فنزل اليه ، وأقام هناك الى آخر النهار ، ثم عاد الى القلعة ، وكان قبل ذلك بيوم توجه الى قصر ابن العينى الذى بالمنشبة ، وقيل انه أقام هناك الى ما بعد العصر ، وعاد الى القلعة من يومه المذكور .

وفي يوم الاثنين حادى عشره ، وقع بين خبر الدين نائب القلعة وبين فرا موسى أغات الاصباهية بحضرة ملك الأمراء بالقلعة فتنة ، وسبب ذلك انه وقعت فتنة كبيرة بين الانكشاريه وبين الاصباهية ، وصار في كل ليلة يوجد في الأزقة والطرفات جماعة مقتولون بالسيوف ، فعز ذلك على فرا موسى ، وقال لنائب القلعة خير الدين . هذا كله في ذمتك أنت الذى أطمعت الانكشاريه في حق الناس ، حتى صاروا يحفظون النساء والصبيان ، ويحفظون عمائم الناس بأيديهم ، ويعروههم وقتلوهم ، ويخطفون بضائع السوق ، والخنكار ما يدري بشيء من ذلك ، وان بلعه ذلك فما يحصل لك خير . ثم في عقيب ذلك صار الكيخية أغات الانكشارية يركب في كل يوم ويشق من القاهرة ، فان وجد

رأسه . فقال ملك الأمراء للحاضرين من مساليك الأشرف، قايتباي : أهذا قانصوه خمسمائة الذى لنتم تعهدونه ؟ فقال العسكر فاطبه . ليس هذا قانصوه خمسمائة ، وبعدا فصير القامه أحمر اللون ثم أن ملك الأمراء ضيق على ذلك الشخص الذى رسم أنه قانصوه خمسمائة ، فقال له ملك الأمراء : ما حملك على ذلك ؟ قال . الفقر والغناة وفله ما فى اليد . فلما اعترف بدينه رسم ملك الأمراء بتوسيطه ، ثم بدا له أن يضرب عنقه بين يديه فى الميدان ، فضرب عنقه ومضى أمره ، ثم أحضروا له تابوتا فحلوه فيه ليعسلوه ويكفونوه ويدفونوه ، فخدمت هذه الاشاعة التى أشبعت بسبب قانصوه خمسمائة . وكان غالب الناس الذين ليس لهم غنول صدقوا بذلك ، وقد تبين أن ذلك الرجل نصاب شيطان ، أخذ من ابنة قانصوه خمسمائة ، خمسمائة دينار . ويقول لها أنا أبوك . وكان ينصب على الناس ويقول لهم أنا قانصوه خمسمائة ، ويبلصهم غير ما مره ، فأراح الله الناس منه .

وفى يوم الخميس ثامنه ، خرجت تجريدة الى الأزلم تلاقى الحجاج ، وكان بها نحو مائة مملوك ، وكان الباشا عليهم كاشف الشرقية وصحبته جماعة من الانكشارية يرمون بالبندق الرصاص وكان الباشا عليهم شخص من العثمانية . وفى يوم السبت عاشره ، كان عيد النحر ، وكانت الأضحية فى غاية الغلو ، وقد لا توجد ، فلم يضح من الناس الا القليل . وكان اللحم البقرى يباع فى تلك الأيام بنصف فضة كل رطل ، فلم يفرق ملك الأمراء على أحد من الناس أضحية فى هذه السنة ، وقطع أضحية الزوايا قاطبة ، وعادة الفقهاء والأتراك قاطبة ، كما فعل فى السنة الماضية . وفى يوم الأحد ثامن عشره ، نزل ملك الأمراء من القلعة وعدى بر الجيزة ، وتوجه الى نحو

واستفاض بين الناس ، أن قانصوه خمسمائة الذى تسلطن قد ظهر بعد مضي هذه المدة الطويلة ، وأنه باق فى قيد الحياة ، وقد تغيرت هيئته وصار له ذؤابة شعر فى رأسه ، وقد ابيضت لحيته . فكان من ملخص هذه الواقعة أن شخصا من أبناء العجم كان يرسل الى ابنة قانصوه خمسمائة — التى كانت زوجة انسباى حاجب الحجاب — ويقول لها انا أبوك ، فترسل اليه ما ينفقه ، فأقام على ذلك مدة طويلة ، ثم أنه حضر اليها تحت الليل صحبة طواشى ، فطلع الى باب السلسلة ، وكانت تزوجت بأمير أخور كبير مملوك ملك الأمراء ، فلما فشا أمره ، ولم يعرفه أحد من حاشية ابنة قانصوه خمسمائة ، بلغ ذلك زوج ابنة قانصوه خمسمائة ، فقبض عليه ووضع فى الحديد ، وسجنه فى البرج الذى يباب السلسلة ، حتى يعرضه على ملك الأمراء ، ويتبين ما يكون من أمره ، وقد أنكر ذلك الناس قاطبة ، فان قانصوه خمسمائة له نحو ثلاث وعشرين سنة من حين قتل عند خان يونس الذى بالقرب من غزة ، وكان من أمره ما كان مع الأمير اقبردى الدوادار ، وقطع رأسه هناك وأرسلها الى الناصر محمد بن الأشرف قايتباي ، وعلقت على باب زويلة ، فكان أمر وجوده من الأمور المستحيلة التى لا تقبلها العقول السليمة بعد هذه المدة الطويلة .

وفى شهر ذى الحجة ، وكان مستهله يوم الخميس ، طلع القضاة الأربعة وهنوا ملك الأمراء بالشهر ثم عادوا الى دورهم . فلما كان يوم السبت ثالثه ، نزل ملك الأمراء الى الميدان وجلس به ، وأحضر مساليك الأشرف قايتباي ، ثم أحضر ذلك الشخص الذى زعم أنه قانصوه خمسمائة ، فاذا هو شخص أعجمى مربع القامة ، أبيض اللحية ، وله ذؤابة شعر فى

الدين قاسم المالكي ، وكان عالماً فاضلاً ، علامة في مذهبه ، ولي قضاء المالكية في أيام السلطان الغوري ، أخذها عن قاضي القضاة برهان الدين ابراهيم بن أبي شريف .

وفي ذلك اليوم وقع بالقلعة خطاب هين ، وهو أن ملك الأمراء وقف له طائفة من المماليك الجراكسة بسبب أن لهم جامكية شهرين مكسورة ، فلما وقفوا اليه وبضهم بالكلام ، وطفش فيهم ، وقال لهم لا زلتهم حتى أوقفتم بيني وبين نائب الشام ، وأنتم تفتدون وتروحون وتشكوتني عنده . فقام الأمير قايتباي الدوادار وجعل يرقع للمماليك ويقول له هؤلاء مماليكك وعبيدك ، وإنما يفعلون ذلك من الجوع والقلّة . فقال ملك الأمراء والله والله لولا أنا ما خلى الخنكار مملوكا يلوح على وجه الأرض ، فاني شفعت فيكم من القتل . فقال له الأمير قايتباي : الكل صاروا رعيتك ، ولهم أولاد وعيال ، وقد مسهم الفقر والفاقة ، والآن يطلبون صدقة الخنكار وصدقك ، فرسم بشهر واحد يصرف لهم من جامكيتهم ، وكان لهم شهران مكسوران في الديوان .

وقد خرجت هذه السنة عن الناس على خير ، وهم مرتابون من الغلاء وقلّة الأمن وجور التركمان عليهم ، وتناهى سعر الأردب القمح الى ثلاثة أشرفية واثني عشر نصفاً كل أردب ، والبطة الدقيق بأشرفي وخمسة أنصاف ، وقد تشحطت الأسعار في سائر البضائع من المأكّل والمشرب ، وصارت التركمان يخطفون عمائم الناس من فوق رؤسهم جهارا ، ولم يجدوا من سنعهم من ذلك ، ويقطعون الطريق على المتسبين والضيافات التي تطلع من البلاد ، وصاروا يخطفون النساء والمرد من الطرقات كل يوم من بين الناس ، ولم يجدوا

شبرامنت على سبيل التنزه ، فأقام هنالك من يوم الأحد الى يوم الثلاثاء ، وأخذ معه خياما كثيرة وسنيحا ، وصنع له هناك القماضي شرف الدين الصغير مدة حافلة ، وكان صحبته جماعة من الأمراء العثمانية وغير ذلك من المماليك الجراكسة ، فلما رجع من شبرامنت أقام بالقلعة ثلاثة أيام ، ثم عزم عليه الأمير كمشيغا الوالي في خليج الزعفران ، ومد له هناك مدة حافلة ، وأقام عنده الى ما بعد العصر ، ثم عاد الى التلعة في يومه ، وكان نهار شعت وغبار وهواء مريسي ، فلم يتهنأ بالفرجة في ذلك اليوم . وفيه حضر قاسم الشرواني الذي كان نائب جدة ، وجرى منه ما جرى كما تقدم ذكره ، فأرسل ملك الأمراء خلفه ، وأحضره في الحديد ، فأحضره الشريف بركات أمير مكة في البحر المالح ، فلما حضر سجنه ملك الأمراء بالعرقانة التي هي داخل الحوش السلطاني الى أن يكون من أمره ما يكون .

وفيه حضر مبشر الحاج وأخبر بالأمن والسلامة ، وأن الوقفة كانت عندهم بالجمعة ، وأن الأسعار انحطت عما كانت عليه قليلا ، وأخبر المبشر أيضا أنه لما دخل الحاج الى مكة ثارت فتنة عظيمة بين عبيد أمير مكة بركات ، وبين جماعة من العثمانية ، وقتل من الفريقين نحو عشرة أنفار ، ثم خمدت تلك الفتنة وزال الشر قليلا بعد ما كاد أن يتسع . وفيه توفي صاحبنا الشرفي يحيى بن الناصري محمد الأزبكي ، الذي كان أغات الغوري ، فأشيع بعد موته أنه وجد له من الذهب العين عشرة آلاف دينار ، فعد ذلك من النوادر ، فان أباه محمد الأزبكي لم يكن في سعة من المال ، ولا أجداده ولا أقاربه .

وفي يوم الخميس سلخ هذا الشهر ، توفي الشيخ جلال الدين عبد الرحمن ، ابن الشيخ زين

من يخلصهم من أيديهم ، وحصل للناس من أيديهم
غاية الضرر .

ووقف الحال بسبب المعاملة من الفضة ، فأنها
كلها غش ونحاس وزغل ، وصار الأشرى القاتنباي
يصرف بحمسة وستين نصف فصة ، والسوق
لا تقبل من الفضة الا القليل ، وكذلك الفلوس
الجدد . وقاسى أهل مصر فى هذه السنة شدة
عظيمة ما قاساها قط أحد من الناس ، والأمر لله
تعالى من قبل ومن بعد .

سنة ست وعشرين وتسعمائة (١٥٢٠ م) :

فيها فى المحرم — وكان مستهل الشهر يوم
السبت — طلع القضاة الأربعة الى القلعة ، وهنوا
ملك الأمراء بالعام الجديد ، ثم رجعوا الى
دورهم .

وفى يوم الثلاثاء رابعه ، كان ختان ولد قاضى
القضاة المالكى يحيى ، بن قاضى القضاة برهان
الدين ابراهيم الدميرى رحمة الله عليه ، فكان له
فى ذلك اليوم زفة حافلة رجت لها القاهرة ، فمشت
من الجامع المؤيدى الى المدرسة الصالحية ، ومشى
فيها أعيان الرؤساء من المباشرين والتجار ،
ومشاهير الناس ، وغيرهم من الأعيان ، وأوقدت له
الشموع على الدكاكين ، وكان بوما مشهودا . وفى
أوائل ذلك اليوم مدت مدة حافلة حضرها الأمير
جانم الحمزاوى وجماعة من الأمراء العثمانية ومن
الأمراء الجراكسة وغير ذلك .

وفى يوم الاثنين رابع عشره ، دخل الحاج الى
القاهرة صحبة المحمل الشريف ، وأمير الحاج
الأمير برسباي ، وقد أثنى عليه الحجاج خيرا بما
فعله فى طريق الحج ، وكان معهم الأمن والرخاء
بطول الطريق .

واستهل شهر صفر يوم الأحد فطلع القضاة
الثلاثة الى القلعة ، وهنوا ملك الأمراء بالشهر ،
ولم يطلع قاضى القضاة الشافعى وكان مريضا
منقطعا بداره له مدة طويلة لم يركب .

وفيه وقع من الحوادث أن ملك الأمراء عزل
الشرفى يحيى بن التاج عن مشيخة الحضور
بالجامع المؤيدى ، واستقر بشخص من أبناء
العجم ، وقيل من العثمانية ، عوضا عن يحيى بن
التاج ، وكان ذلك الشخص عاريا عن العلم
والفضيلة ، ليس له شهرة بين الناس ، فقامت
الأشلاء على ملك الأمراء من العلماء والفقهاء ،
وأنكروا عليه أنه عزل يحيى بن التاج عن مشيخة
الحضور بالجامع المؤيدى من غير جنحة ولا
سبب ، وقرر بها من هو من غير أهلها ، ولم يكن
يستحق ذلك ، وهذا من البدع المنكرة .

وفى يوم الخميس خامسه ، نزل ملك الأمراء
من القلعة ، وصحبته الأمير قايتباي الدوادار
وجماعة من الأمراء الجراكسة ومن الأمراء
العثمانية ، وجماعة كثيرة من المماليك الجراكسة
نحو خمسمائة مملوك ، وقيل أكثر من ذلك ،
ومن الاصباهية والكميلية والانكشارية الجم
الكثير ، وعدة رماة بالبندق الرصاص ، وأشيع
عنه أنه يقصد التوجه نحو البلاد الشرفية ، فصى
صلاة الصبح ، ونزل وشق من القاهرة ، وشق من
بين الترب ، واستمر سائرا والأمراء والعسكر
حوله حتى نزل بالعكرشا ، ثم توجه الى شبين ،
ثم توجه منها الى مرصفة ، وقد اختلفت الأقوال
فى ذلك ، فمن الناس من يقول انه خرج يسرح فى
الشرقية على سبيل التنزه والفرجة ، ومن الناس

من يقول انه خرج بسبب محاربة عربان السوالم ،
والأول أصح ، فخرج صحبته سائر المباشرين قاطبة .

فلما كان يوم الثلاثاء عاشره . حضر القاضي
بركات بن موسى من عند ملك الأمراء وعليه عمامة
هوارية ، وقد خلع عليه قفطانا محملا مذهبا ،
وحضر صحبته ستة أنفار بو وقد سلخوا وحشوا
تبنا ، فقبل انهم من عربان السوالم فأركبهم على
خيول ، وعليها بركستوانات محمل ، والبسوهم
جوحا وشاشات على زنوط فوق رءوسهم ،
وفدامهم اثنا عشر رأسا مقطوعة ، وهى على رماح ،
قبل انهم من أعيان عربان السوالم ، فشقوا بهم
من القاهرة ، وكان ذلك اليوم مشهودا ، فعلقوا
جماعة من المسلوخين ومن الرءوس على باب
ثوبيلة ، علقوا الباقي على باب النصر

وكان من ملخص هذه الواقعة ما أشيع
واستفاض بين الناس ، أن اياس كاشف الشرقية
تحيل على مشايخ عربان السوالم ، وأرسل لهم
بالأمان ، فركنوا له وحضروا اليه ، فصنع لهم
ضيافة ، فلما استقروا عنده أرسل يعلم ملك
الأمراء بذلك ، فأرسل اليه القاضي بركات بن
موسى ومعه جماعة من المماليك الجراكسة ،
فتوجهوا نحو عربان السوالم ، وخرج صحبتهم
عربان البلاد المجاورة من منية حمل والجوسق
المحروقة وغير ذلك ، فوقعوا مع السوالم ، وكان
بينهم واقعة مهولة ، فانكسرت السوالم وقبضوا
على بقية مشايخهم .

ثم ان العسكر والعربان نهبو نجع السوالم عن
آخره ، وغنموا منه ما لا يحصى من جمال وخيول
وسلاح وقماش ونحاس ومصاغ وغير ذلك من
عييد وجوار ، حتى أخذوا نساءهم وأولادهم ،
فلما وقعت هذه الكسرة على السوالم هرب من

بقى منهم الى الأودية والجبال ، فلما جرى ذلك
سلخ الكاشف مشايخهم وأرسلهم الى القاهرة كما
تقدم ذكر ذلك ، قيل كان فيهم من هو من أولاد
قراجا بن طراباى شيخ جبل نابلس .

وأشيع أن ملك الأمراء رحل من جهة مرصفة
وتوجه الى بناها العسل وأرسل سنيحه ومطبخه الى
القلعة وأشيع عوده الى القاهرة .

وفي يوم الأربعاء حادى عشره رجع ملك الأمراء
الى القاهرة ، فأتى من جهة قنطرة الحاجب ودخل
من باب الشعرية ، وخرج من باب القنطرة ، وطلع
على سوق مرجوش . وشق من القاهرة فى موكب
حافل ، وقدامه جماعة من الانكشارية الرماة ،
وقدامه بعض جنائب ، ولاقاه الشعراء والشبابة
السلطانية من باب الشعرية ، وكان عليه قعطان
جوخ أحمر ، وكان قدامه ما اصطاده من الكراكي
والأوز العراقي ، فاستمر فى ذلك الموكب حتى طلع
الى القلعة ، وكان يوما مشهودا ، وكانت مدة
غيبته فى هذه السرحة سبعة أيام بلياليها .

ثم دخل بعده شيخ العرب نجم شيخ العائد ،
وهو فى الحديد ، وقد نسبوا اليه انه كان متواطئا
مع عربان السوالم وهو من أغراضهم ، فقبض عليه
ملك الأمراء ووضع فى الحديد حتى يكون من
أمره ما يكون . ولم يكن فى نزول ملك الأمراء
الى الشرقية خير للناس ، فرعى العسكر زرع البلاد
وقدمت له مشايخ العربان نحو ألفى رأس غنم ،
فوزعوا ذلك على بلاد الشرقية ، وأحضروا له من
شيبين ستمائة أردب شعير ، وذلك غير التقادم من
خيول وجمال وغير ذلك من ذهب عين فوق العشرة
آلاف دينار .

وقيل ان ملك الأمراء كان فى هذه السرحة
لا يصحو من السكر ليلا ولا نهارا ، حتى أشيع
عنه انه أخذ معه أربعين بغلا وهى محملة بيذا

اقربطشى ، فكان في نزوله هناك غادة الضرر في حق الناس ، ولولا أنهم أخذوا عرب السوالم بحيله لما قدروا عليهم أبدا .

وفي يوم تاريخه عين مؤلف هذه الوفايح بالمشاهدة ، حضور الفاضل بركاب بن موسى المحتسب ، وطلوع ملك الأمراء في ذلك الموكب المتقدم ذكره ، فلما طلع ملك الأمراء الى التلعة قدمت الأخبار من الشرفيه بأن عربان السوالم لما حصلت لهم تلك الكسرة توجهوا الى الصالحية ونهبوا ما فيها فأحرفوها بما حولها من الضياع وحصل منهم عايه الضرر الشامل ، وهذا كله من سوء تدبير اياس كاشف الترقية ، فانه استعجل يقتل مشايخ عربان السوالم وكانوا من بوابع اعيان السوالم ، فسلب الجميع . ومنها أنه نهب نجعهم ، وأخذ أموالهم ومواشيهم ، واسر حريصم حتى فيل انه أسر ستين امرأة من اعيان نسائهم ، واسر اولادهم . فلما طفشوا في البلاد أرسل ملك الأمراء يهول للكاشف أطلق ساء السوالم وأولادهم الذين عندك من كل بد ، وقد استدرك ملك الأمراء ما وقع منه في حق مشايخ عربان السوالم

وقد أشيع امر هذه الفتنة من كل جانب ، واستمرت أرباب هذه الدولة في آراء معكوسة ، ليس لأحد منهم رأى سديد ، ولا له مستشار يرجع اليه ، وصار كل منهم يشير برأى غير صواب ، ويتكلم بكلام غير مفيد ، وقد صاعت الكلمة بينهم وآل أمر مملكة مصر الى الحراب ، وكل هذا من سوء تدبيرهم ، وقله معرفتهم ، وعدم بجوابهم للأمر ، وقله نظرهم في العواقب ، مما يؤول أمره الى خير أو شر ، فسنأل الله تعالى اصلاح الحال ، وحسن الخاتمة ، واخماد هذه الفتنة عن قريب

وفي يوم الجمعة ثالث عشره خلع ملك الأمراء على احي نجم ، واستقر به شيخ العايد ، عوضا عن

أخيه نجم ، وقد بانضه أن أحوال الشرقية قسده اضطربت الى الظاية ، وثاربت بها العربان للفساد ، فلما خلع عليه خرج من يومه الى الشرقية بسبب هذا الفساد .

وفي يوم السبت رابع عشره ، أرسل ملك الأمراء تجريدة الى الشرقية ، وعين بها نحو مائة مملوك من الجراكسة وغيرهم ، وعين جماعة من الكمليسة والاصباهية ، وجماعة من الرماة الانكشارية ، وجهاز عجالات تخرج صحبتهم اذا خرجوا ، وقيل ان اياس كاشف الشرقية محاصر مع العربان في بلييس ، وقد أرسل يطلب نجدة بسرعة ، وأشيع أن عربان نجم شيخ العايد لما أمسك صاروا يعرفون الناس في رأس المطرية ، وعند قرية العادلي .

وفيه أشيع أن جماعة من الانكشارية هجموا على سوق النحاسين وأخذوا ما فيه من النحاس لأجل أن يسبكوه مكاحل للبنسديق الرصاص ، فحصل للتجار الضرر الشامل من ذلك ، وكانت حركة هؤلاء الجماعة الذين قتلوا من عرب السوالم من أكبر أسباب الفساد في أحوال المملكة ، وأنهم لو أبفوهم في قيد الحياة وسجنوهم لكان ذلك عين الصواب ، وأرجى لخمود هذه الفتنة ، ولكن عطلوا قتلهم حيث ظفروا بهم . فكان كما بهال في المعنى :

أمور نضحك السفهاء منها

ويبكي من حواقبها الليب

وفي يوم الثلاثاء سابع عشره خرجت التجريدة التي عيها ملك الأمراء الى السوالم ، وكان الباشا عليها تحصا من أمراء العشراوات فقال له جان برذى الأتسر - الذي كان كاشف البحيرة اخوتهم الذي كان حازيدار الملك الناصر محمد ابن الأشرف

ثم أشهروا المناداة في القاهرة على لسان الخنكار
حسبما رسم بأن لا أحد من الانكشارية ولا من
الأصباهيه يشوش على أحد من الناس ، ومن فعل
ذلك بأحد بمسكه من طوقه ويتوجه به الى
خير الدين نائب القلعة ، فأشهر المناداة بذلك أربعة
مشاعليه ، اثنان يناديان بالتركي ، واثنان يناديان
بالعربي ، وهم قدام الأمير كمشجعا والى القاهرة ،
وأظفروا العدل في ذلك اليوم ، وليته دام .

تم اتسيع بين الناس أن الخنكار لما أرسل الى
ملك الأمراء بطلب سنان باشا وفائق بك بأن
بمنصرا هما والأصباهيه الى اسطنبول سافروا ، فلما
وصلوا هناك أحصر الخنكار سنان باشا بين يديه
وأمر بتسنفه ، فاقام مصلوبا ثلاثة ايام لم يدفن .

وأشيع أن طائفه من الاصباهيه الدين كانوا
بمصر وأرسل طلبهم ، لما دخلوا مدينة اسطنبول
سرب رقاب اربعمائة اصباهى منهم ، ممن اتسيع
خنه السواد بمصر من جماعه سنان باشا .

وأشيع أن الخنكار أرسل يحط على ملك
الأمراء خاير بك بسبب تراخيه في حق طائفه
الانكشاريه والأصباهيه حتى جاروا على الناس ،
وساروا يتشوشون على الرعيه ، وقد بلغ الخنكار
ما يصنعونه بمصر من خطف النساء والمرد وبضائع
المتسبيين وخطف سيافات الناس ، فلما حضر
القاصد في ذلك اليوم وفرءوا مرسوم الخنكار
يحضرة قضاة القضاة ، شهدوا بأن ملك الأمراء
ناظر في مصالح الرعيه ، والناس عنه راضيه ،
وكانت هذه الشهادة عين الرياء ، واتباع الجاه
لأجل المناصب .

قانتاي ، ه كان بها من الممالك الجراكسة وغيرهم
مائة سلو . وتوجه قبل ذلك الى كاشف الشرقية
ستون سلو كما تضمون عنده ، فخرجت التجريده
في ذلك اليوم ، وتوجه من بها من المسالك الى
خانقاه سرياقوس

وفي يوم السبت حادى عشره ، حضر اياض
كاشف الشرقية وصحبته جماعة ممن بقى من أعيان
عربان السوالم ، وقد أتوا الى اياض طائعين بعد
آن رأوا عين الغلب ، فأحضرهم الى ملك الأمراء ،
فلما قابلوه خلع عايهم ، وأقرهم في مشيخة عربان
السوالم عوضا عن قتل منهم ، وخمدت فتنة
السوالم ، وكان ذلك على غير القياس من أمر هذه
الفتنة .

وفي شهر ربيع الأول وكان مستهله يوم الاثنين
طلع القضاة الأربعة الى القلعة ، وهنأوا ملك الأمراء
بالتسهر ، ثم رجعوا الى دورهم .

وفي ذلك اليوم قدم قاصد من عند الخنكار
سليم شاه ابن عثمان ، وقد حضر من البحر المالح
الى ثغر الاسكندرية ، فلما طلع الى القلعة قرأ
مراسيم الخنكار على ملك الأمراء .

وأشيع بين الناس أن الخنكار أرسل يقول الملك
الأمراء أن يتوصى بالممالك الجراكسة ، ويصرف
لهم جوامكهم ولحومهم وعلقتهم والأضحية
والكسوة على العادة .

وأشيع أنه أرسل يقول لملك الأمراء كل من
شوش من التركمان على أحد من الرعايا يشنقه من
غير معاودة ، وأرسل يأمر ملك الأمراء بأن ينادى
للناس بقطع الطرقات والشوارع والأسواق قاطبة
فأخذ الناس في أسباب ذلك ، وشرعوا في قطع
الطرقات .

الفحص على كل من كان سببا لقتله ، وألزم الوالى
باحضار نمر الذى ذتل فى بيته

وفيه أخرج ملك الأمراء نجريدة الى ثغور
الاسكندرية بسبب عبت القربج هناك بالمسافرين
وكان بها من العسكر نحو مائة انسان ، ما بين
مساليك جراكسه وأولاد ناس وعثمانية وغير ذلك .

وفى شهر ربيع الآخر - - وكان مستهل الشهر
يوم الثلاثاء - طلع فضاة القضاة الى التلعة وهنوا
ملك الأمراء بالشهر تم عادوا الى دورهم .

وفى يوم الخميس ثالثه خرج الأمير جانم
الحمزاوى الى السفر ، وصد النوجه الى اسطنبول
فخرج فى موكب وصحبه الامراء الجراكسة
والمباشرون وأرباب الدولة من الأمراء العشائية ،
وقد أرسل ملك الامراء صحبته نفدمة حافلة الى
السلطان الملك المظفر سليم خان ، وكان ما اشتملت
عليه تلك التقدمة على ما قيل : من الحيول الخاص
خمسین فرسا ، وفيها بغلة قيل منسراها خمسمائة
دينار ، ومن الفماش الحرير والنفاصيل السكندرية
أشياء كثيرة ، ومن الشاشات الماينى أشياء كثيرة
منها ما طوله مائة وعشرون ذراعا ، وأرسل اليه
ملك الأمراء من جملة هذه التقدمة خمسمائة
قنطار سكر معمولة بمسك ، ومن الأشربة والمربات
أشياء كثيرة ، وأرسل اليه من الفصوص والمعادن
واللؤلؤ أشياء كثيرة ، ومن الصينى اللازوردى
والشفاق أشياء كثيرة ، وغير ذلك من التحف
الغريبة مما يهدى للملوك .

وفيه قدمت الأخبار من تونس ببلاد الغرب بأنه
قد وقع بها فتنة عظيمة بين صاحب تونس وبين
الشيخ محمد بن تليس صاحب بصرت ، وكانت
بينهما واقعة عظيمة فى أوائل صفر ، وقتل فى هذه

ثم ان ملك الأمراء قصد أن يكتب محضرا
ويأخذ عليه خط القضاة الأربعة بأن مصر فى غاية
العدل والرخاء والأمن ، فلم يوافقوه القضاة على
ذلك ، وقالوا نكتب خطوط أيدينا على شئء باطل
ويبلغ الخنكار بخلاف ذلك ، فنحنتى على أنفسنا
منه أن نذكر أن مصر فى غاية العدل والأمن
والرخاء ، وأن التركمان لم يتوشموا على أحد من
الرية ، وهذا باطل لا يجوز ، فرجع عن ذلك .

وفى يوم الخميس حادى عشره ، عمل ملك
الأمراء المولد الشريف النبوى بالقلعة ، وجلس
فى المقعد الذى بالحوش السلطانى ، وحضر
القضاة الأربعة على حكم السنة الماضية .

وفيه قدمت الأخبار من مكة المشرفة بأنه وقع
بين الشريف بركات أمير مكة وبين نائب جدة أغات
الكلمية الذى يسمى الكيخية ، واضطربت أحوال
مكة الى الغاية .

وفى يوم الأحد رابع عشره ، خلع ملك الأمراء
على الأمير جانم الحمزاوى كاشف البهسا والفيوم
وقرره أمير الحج بركب المحمل ، فنزل من القلعة
موكب حافل

وفيه كانت كائنة الأمير جان بردى الأشقر ،
أحد الأمراء العشراوات ، وهو أخو تتم الذى
كان نائب الاسكندرية ، قيل انه عزم عليه شحص
يسمى نمر الظاهرى ، فلما دخل عليها الليل وقع
بينهما تشاجر ، فثارت فى ذلك المجلس فتنة كبيرة
فقتل فيها جان بردى الأشقر ، ولا يعلم من قتله
من الحاضرين ، وقبضوا على من كان حاضرا ،
واختفى نمر صاحب البيت ، وكانت واقعة مهولة
فلما بلغ ملك الأمراء ذلك شق عليه قتل جان
بردى الأشقر ، فانه كان صاحبه ، فأخذ فى

فحصل بينهما واقعة مهولة ، فقتل بها جماعة كثيرة من التركمان ، وأشيع قتل سوار في المعركة ، وفد ملك عبد الرزاق من سوار الأبلستين والمرعش وغير ذلك من البلاد ، واستمرت الحرب نائرة بين الفريقين ثمانية أيام ، وانتصر عبد الرزاق على سوار ، ثم خمدت هذه الأشاعات من بعد ذلك كأنها لم تكن .



واستهل شهر جمادى الأولى بيوم الخميس ، فطلع القضاة الأربعة الى القلعة ، وهنئوا ملك الأمراء بالشهر ثم عادوا الى دورهم وفي هذا الشهر تزايد أمر الغلاء بالديار المصرية ، وبلغ سعر القمح ثلاث أشرفيات كل أردب ، وبلغ سعر الأردب الشعير أربعمئة درهم ، والفول ستمائة درهم كل أردب ، وشطح السعر في سائر الحبوب ، وبلغ كل رطل سمن أربعة أنصاف ، والشيرج ثلاثة أنصاف كل رطل ، والأجبان قاطبة في غابة الغلو ، واللحم الضأنى كل رطل بثمانية عشر درهما ، واللحم البقرى كل رطل بستة عشر نقرة ، وبلغ سعر السكر ثمانية أنصاف كل رطل ، وبلغ سعر العسل الأسود كل رطل ثلاثة أنصاف ، وبلغ سعر الصابون كل رطل خمسة أنصاف ، وعلى هذا فقس سائر البضائع والغلال وغير ذلك ، حتى بلغ سعر الراوية من الماء أربعة أنصاف ، وعم هذا الغلاء أنواع القماش قاطبة ، البيضاء والملون والحري والصوف والجوخ ، وغير ذلك من القماش . وسبب ذلك الغش في المعاملة من الذهب والفضة ، وصار الأشراف البرسيهي يصرّف بثلاث أشرفيات فضة ، والأشراف القايتباهي يصرّف بأشرفيين وثمانية أنصاف ، والأشراف الغوري يصرّف بأشرفيين وأربعة أنصاف ، وكذلك الأشراف العثماني ضرب الخنكار . وأما الفضة فجميعها في غاية الغش والفساد ، وصار

المعركة نحو أربعين ألف انسان ، وآخر الأمر انتصر السلطان حسن بن محمد صاحب نوس على ابن تليس ، وغنم منه غنائم جزيلة ، ما بين مال وقماش وسلاح وخيول وجمال وغير ذلك .

وفيه نزل ملك الأمراء الى بولاق ، واقام بها الى قريب الظهر ، فأحضر اليه القاضي بركات بن موسى المحتسب هنالك مدة حافلة ، ما بين خرفان شوى ، وقصور هريسنة ، وماموية ، وفاكة وحلواء ، ومشموم .

ثم ان ملك الأمراء عرض المراكب الأخرية التي أنشأها ، ولعبت فداهه في البحر ، وانشرح في ذلك اليوم الى العاينه ، ونصب له سحابة في الجزيرة التي تجاه انبابة ، وكان يوما مشهودا . وفي يوم الاثنين حادى عشريه ، كان عيد النصرى . وهو اول يوم الحماسين ، وكانت خماسين مباركة ، ثم يظهر فيها الطاعون بمصر ، ولا في غيرها من الشعوب .

وفيه توفي شرف الدين الجوينى الذى كان مباشر ديوان الأمير ازدمر الدوادار ، وباشر أيضا ديوان الأمير كسبى المحتسب ، وكان لا بأس به . ومما وقع من الحوادث التسعة ، أن امرأة مسلمة تبست مع شخص يهودى ، فلما شاع أمرهما قبض على اليهودى وعلى المرأة ، وعلى المتكاري الذى أركب المرأة ، وقبض على شخص اسكافى كان واسطة بين المرأة واليهودى ، فلما عرض أمرهم على ملك الأمراء ، أمر بضربهم بالمقارع ، وسجن المرأة بالحجرة ، وسجن اليهودى بالدلم ، حتى يكون من أمرهم ما يكون .

وفيه قدمت الأخبار من حلب : أن عبد الرزاق أخا على دولات ، وث على ابن أخيه سوار ، وقد التفت عليه جماعة من التركمان البيضاء والأكراد .

مثل بين يدي ملك الأمراء أمر بتوسيطه فوسطوه
في باب زويلة .

وفي ذلك اليوم رسم ملك الأمراء بشتق اثنين
من الكمالية لأمر أوجب ذلك .

ومن الحوادث أنه في يوم الثلاثاء سادسه ، وقع
للأمير قايتباي الدوادار واقعة مهولة ، وهى أنه
سار الى نحو المطرية وعاد ، فلما دخل من باب
النصر ، وجد عند وكالة الصابون بعض الانكشارية
قد أخذ من شخص يبيع الصابون خمسة أرطال ،
ودفع اليه ثمانية أنصاف ، وكان الصابون قيمته
أشرفيا ، فلما رأى صاحب الصابون الأمير قايتباي
الدوادار تعلق بلجام فرسه ، وقص عليه قصته ،
وكان الانكشارى ضرب صاحب الصابون حتى
أدمى وجهه ، فأرسل الأمير قايتباي مع صاحب
انصابون بعض مماليكه الى الانكشارى لعله يعطى
صاحب الصابون شيئا فوق ذلك القدر ، فلما قابل
ذلك المملوك الانكشارى أغلظ عليه المملوك فى
القول ، فحنق منه الانكشارى فضرب المملوك على
وجهه فأدماه . ثم ان المملوك ضربه على وجهه
بدبوس فأدماه ، فانسعت الفتنة بينهما ، فمضى
الانكشارى الى أصحابه وأعلمهم بما جرى له مع
مملوك الدوادار ، فاجتمع الجسم الكثير من
الانكشارية وتوجهوا الى بيت الأمير قايتباي
الدوادار ، وهجموا عليه ، وبأيديهم سيوف
مسلولة ، وقصدوا أن يحرقوا بيته وينهبوه فاختمى
منهم . فلما بلغ الكيخية أعات الانكشارية ركب
ورد الانكشارية ، وخمدت تلك الفتنة . فلما بلغ
ذلك ملك الأمراء شق عليه ذلك ولام الأمير قايتباي
الدوادار على ما فعله .

ثم ان ملك الأمراء أرسل طلب المملوك الذى
ضرب الانكشارى وأثار هذه الفتنة ، فلما مثل

الناس فى أمر مرىب بسبب ذلك . وقد تغيرت
أحوال الديار المصرية تغيرا فاحشا الى الغاية ،
وفوق ذلك جور التركمان فى حق أهل مصر من
الخطف والنهب ، وأخذ أموال الناس بغير حق ،
وخطف النساء والمرد من الطرقات .

ومن الوقائع الغربية ، كائنة الشيخ محمد
الرشيدى الذى كان ناظر الكسوة ، وناظر
الجوالى وغير ذلك من النظارات ، وكان الخنكار
قرره فى ذلك ، وقد سعى له حليم جلبى فى ذلك ،
وكان من جماعة الخنكار ، فاستمر على ذلك . ثم
سعوا فى الرشيدى من عند ملك الأمراء ، فأخرج
عنه ما كان بيده من النظارات ، فحصل له غاية
القهر ، فاختمى وخرج فى الدس صحبة بعض
الهجانة على أنه يتوجه الى الخنكار بشكو له ملك
الأمراء الذى أخرج عنه النظارات التى كان الخنكار
قرره فيها ، فلما وصل الى قطبا قبض عليه نائب
قطيا ، وعلى الهجان الذى كان صحبتته ، وقال له
أمعك مرسوم ملك الأمراء ، فقال انما رسم لى
مشافهة ، فضيق عليه نائب قطيا ، فاعترف الرشيدى
أنه خرج هاربا من ملك الأمراء . فقبض عليه نائب
قطيا ووضع فى الحديد ، وأشيع أنه شق الهجان
هناك ، وأرسل الرشيدى فى الحديد الى ملك
الأمراء . فلما وقف بين يديه وبخه بالكلام ، وقال
له أنت تتوجه الى الخنكار وتشكونى له . ثم ان
ملك الأمراء رسم بسجن الرشيدى فى العرفانة
التى هى داخل الحوش السلطانى .

وفيه أرسل ملك الأمراء بالقبض على شخص
يسمى محرات مقدم ، كاشف الغربية ، وقد كثرت
فيه الشكاوى من الفلاحين ، وأشيع عنه أنه ضرب
شخصاً من الفلاحين حتى مات تحت الضرب ، فلما

بين يديه أمر بضربه فضربوه ضربا مبرحا ، وسجن بالعرقانة ، فسكن ذلك الاضطراب قليلا ، وصار الأمير قايتباى على رأسه طيرة من الانكشارية ، وهو مهدد بالقتل منهم فى كل يوم ، وزعم الانكشارى الذى ضرب أنه سقط منه خنجر مفضض وسيف ، وادعى أنه كان معه ثلاثون دينارا فسقطت منه ، فدفع اليه الأمير قايتباى الدوادار عشرين دينارا على ما أشيع . هكذا قيل . وصار الأمير قايتباى لا يأمن على نفسه أن يطاع القلعة وحده ، وكان يركب فى كل يوم ومعه جماعة كثيرة من المماليك الجراكسة ، ويتوجه الى قبة يشبك التى بالمطرية ، ويقيم بها الى آخر النهار ، ثم يعود الى داره ومعه المماليك الجراكسة ، فاستمر على ذلك أياما ، ثم خمدت تلك الفتنة والله الحمد .

ومن الحوادث الشنيعة أن ملك الأمراء كان سعر الذهب العثماني أن يصرف بأشرفيين ، وكان قبل ذلك يصرف بأشرفيين وخمسة أنصاف ، وصار البيع يبعين بيع بالذهب ، ويبيع بالفضة ، فوقعت أحوال الناس بسبب ذلك .

تم ان ملك الأمراء نادى فى القاهرة بأن لا أحد من الناس يرد معاملة الفضة ، وكل من ردها تنق من غير معاودة ، وكانت الفضة يومئذ فى غاية الغش كلها نحاس ، اذا باتت ليلة واحدة تنكشف كلها ، وكانت الانكشارية تدخل الأسواق وترمى تلك الفضة النحاس على التجار ، فكل من رد منها شيئا تنهب دكانه ، ويضرب ذلك التاجر حتى يأخذها غصبا على رغبم أنفه ، فيأخذون منه أشرفيا ذهبيا ويعطونه أشرفيين من تلك الفضة النحاس ، فحصل للناس فى ذلك غاية الضرر الشامل .

وفى يوم الجمعة سادس عشره خطب فى مدرسة الست خديجة ابنة درهم ونصف ، التى بالقرب من جامع التركمانى عند طاحون السدر ، فاجتمع هناك قضاة القضاة الأربعة ، وأعيان المباشرين ، وأعيان الناس ، وخطب بها فى ذلك اليوم قاصى القضاة الشافعى كمال الدين الطويل ، وكان ذلك اليوم مشهودا .

وكان أصل هذه المدرسة قاعة أنشأها الدرهم ونصف ، ثم بدا لابنته خديجة أن يجعلها مدرسة ،

وفى يوم الجمعة تاسعه ، قدمت الأخبار من حلب بأن خارجيا من التركمان يقال له جلال المهتدى ، قد تصدى لمحاربة الأمير على بن شاه سوار ، والتفت عليه جماعة كثيرة من التركمان . وكان جلال هذا من قرية بالروم يقال لها اعلاق شرى بوز ، فكان بينه وبين الأمير على بن سوار واقعة مهولة ، وقتل من التركمان بها نحو ثلاثة آلاف انسان ، وأشيع أن الأمير ابن سوار قد جرح فى وجهه بطبر ، وانتصر ابن سوار على ذلك الخارجى الذى يقال له جلال المهتدى ، وفر منه الى بلاده ، فخلع ملك الأمراء على الهجان الذى أتى بهذا الخبر ، ثم خمدت هذه الاشاعة كأنها لم تكن .

وفى ليلة الخميس خامس عشره ، خسف القمر ، وأظلمت الدنيا ، فأقام فى الخسوف نحو ساعة ثم انجلى عنه ذلك الخسوف .

وفى ذلك اليوم قبض القاضى بركات بن موسى المحتسب على أخى محمد بن خير ، وضربه ضربا

فضربه بالمقارع ثم قطع يده وعلقها في عنقه ،
وأشهره في القاهرة ... وكان سبب ذلك ما أتت
عنه أنه يشتري الفضة النحاس المنقوشة ، ويضعه
في الجامكية ، وقد قلق العسكر من ذلك

وفي يوم الخميس تانى عشره ، كان دخول
الشرفى يحيى ابن الأمير طراباى رأس نوبة النوب
على ابنه الأمير بيبرس ابن بنت سيرين ، ولسب
أعلم اسم أبيه ولا جده ، وهو يزعم أنه ينتسب الى
الملك الظاهر برفوق بقوله ، فكان كما يقال في
المعنى .

شبهته مثل العقاب فأمه

معلومة وله أب مجهول

فكان له مهم حافل من المهمات المشهورة ،
فصرف على المحبوز في السماط ألف دينار ، ودبح
فيه اثنتى عشرة بقرة ، ومن الحيل ثلاثة أرؤس ،
ومن العنم مائة رأس . ومن الدجاج ألف طير ، ومن
الأوز مائتى زوج ، وصراف على الشمع المزهر مائة
دينار ، وصراف على الخيام والتعليق أربعين ديناراً ،
وعلى السقائين عشر أشرفيات ، وكان له زفة حافلة
مشى فيها جماعة من الأمراء الجركسة والأمراء
العثمانية ، فمشوا فيها من بيت الأمير قاتباى
الدوادار الى بيت القاضى عبد العظيم الذى عمل
فيه العرس وكانت ليلة حافلة . وفيه رسم ملك
الأمراء بشنق شحص من عمال البلاد ، فشنق على
قنطرة الحاجب بعد العصر ، وكان سبب ذلك
ما أشيع عنه أنه زور مراسيم على لسان بعض
المباشرين باستخراج الرزق التى بالغربية ، فلما بلغ
ملك الأمراء ذلك أرسل أحضره ، فلما حضر أمر
بشنقه من يومه ، فشنق بعد العصر وأراح الله الناس
منه .

فأنشأت بها المحراب وجعلت بها منبراً ومثدنة ،
وجعلت فيها خلاوى لنصوفيه ، ثم أنها وقفت
عليها جبيع جهاتها المختلفة عن والدها ، فجاءت من
محاسن الزمان ، وكان ذلك عين الصواب ،
وفصدت بذلك الأجر والثواب

وفي هذا الشهر قدم جماعة كثيره من اسطنبول
ممن كان نفى اليها من الأعيان بالديار المصرية ،
منهم كمال الدين بن معين الدين الموفق ، وابن
نصر الله ، ومرعى الذى كان من جماعة الأتابكى
سودون العجمى ، وأحمد الضيروطى ، ومحمد بن
فروشيخ جهات الأميرية ، وحضر محمد بن ابراهيم
الذى كان متحدثاً على الزمامية ، وحضر محمد ابن
القاضى فخر الدين بن العفيف الذى كان كاتب
المماليك ، وحضر محمد بن على كاتب الحزانة ،
وحضر ابن العريطى ، وحسام الدين بواب
الدهيشة ، وآخرون منهم لم يحضرنى أساؤهم
الآن ، والكل فروا من اسطنبول من غير اذن من
الخنكار ابن عثمان .

وحضر جماعة من السيوفيه والحدادين
والنجارين والبنايين والمرحمين وغير ذلك ممن كان
توجه الى اسطنبول ، فلما حصر الكل هاريين من غير
علم السلطان ، فلما حصروا أشيع موت ابن سقيره
التاجر الذى من سوق مرجوش ، وأشيع موت
جماعة كثيرة هناك من اعيان اهل مصر قبل ذلك .
وقدمت الأخبار بوفاة جاز بك دوادار الأمير
طراباى ، وكان من وسائط السوء . وتوفى محمد
ابن يوسف الذى كان ناظر الأوقاف ، وكان من
وسائط السوء أيضاً . وتوفى محمد المسكى الذى
كان من سوق الوراقين ، وتوفى هناك جماعه كثيرة
لم يحضرنى أساؤهم الآن .

وفيه قبض ملك الأمراء على شخص من اليهود
الصيارفة ، من جماعة المعلم يعقوب اليهودى .

وآل أمر هذه الكائنة التي مال له صورة غرمة
الشيخ عبد المجيد الطرني .

وفيه قدمت الأخبار من دمشق بأن نائب الشام
الأمير جان بردى الغزالي تضرير مخالفة على قاضي
القضاة الشافعي ، والدين محمد ابن قاضي
القضاة شهاب الدين أمية بن فرفور الدمشقي .
فهم يقتل القاضي ولي الدين غير ما مرة ، ففر منه
واختفى مدة طويلة ، ثم ظهر بعد ذلك بمدينة
حلب ، قيل انه كاتب ابن عثمان بما وقع له مع
الغزالي ، فأرسل اليه مرسومه بأن يلي قضاء
الشافعية بحلب ، فاستقر بها وأرسل لأحضار عياله
وأولاده من دمشق ، وتزوج بالست حلية زوجة
القاضي محمود كاتب السر بن أجا ، وصار صاحب
الحل والعقد بمدينة حلب ، فشق ذلك على جان
بردى الغزالي نائب الشام ، ولولا أن تدارك
القاضي ولي الدين وفعل ذلك لقتله الغزالي
لا معاملة .

وكان سبب الوحشة بينه وبين الغزالي ، أن
الغزالي قبض على شخص من المباشرين ، فوجد
معه ثلاث مطالعات متوجها بها الى الخنكار :
احداها بخط القاضي ولي الدين الشافعي ،
والأخرى من عند شخص يسمى المظفرى شيخ
المدرسة التي أنشأها الخنكار بدمشق ، والثالثة
من عند نائب دمشق ، فكان من مضمون تلك
المطالعات عدة شكاوى الى الخنكار فى الغزالي
نائب الشام ، بأنه قد أظهر العصيان وهو يعمل
فى برق عظيم ، وقد التفت عليه جماعة كثيرة من
المماليك الجراكسة . فلما بلغ ذلك القاضي ولي
الدين ، فر من الشام واختفى ، حتى ولي قضاء
حلب ، وأمره مشهور ، وصار الغزالي فى قهر من
القاضي ولي الدين ، وقيل انه شنق المظفرى ،

واستهل شهر جمادى الآخرة بيوم الجمعة ،
فقطع القضاة الأربعة الى التابعة وهنئوا ملك الأمراء
بالشهر ، ثم عادوا الى دورهم .

وفى يوم الاثنين رايه قدم قاصد من البحر
المالح وعلى يده مراسيم من عند السلطان سليم
خان ابن عثمان ، فكان من مضمونها : انه أرسل
يطلب الأمير كمشيغا والى القاهرة ، وقد بلنسه
ما فتحه من أبواب المظالم بمصر ، وقد كثرت فيه
الشكاوى من الناس عند الخنكار ، فطلبه من
ملك الأمراء عدة مرار ، وهو يتناسى عليه ، فلما
رأى الطلب حثيثا فى أمره ، فما وسعه الا أن
أرسله ، فخرج على وجهه فى أثناء هذا الشهر ،
وسافر الى اسطنبول من البر دون البحر . وكان
من وسائل سوء ظالما غشوما ، عسوقا سفاكا
للدماء ، استباح أموال المسلمين ودماءهم ، فلم
يتأسف لخروجه أحد من الناس ، وفرح غالب
الناس لخروجه من مصر . وكان أصل كمشيغا
هذا من مماليك ملك الأمراء رومى الجنس ، سبىء
الخلق شديد البأس ، فلهج الناس بعدم عوده
الى مصر .

وفى يوم الثلاثاء خامسه توفيت الست فضل
العزیز ، وكانت يومئذ متزوجة بالشيخ عبد المجيد
الطرني ، فكانت لها جنازة مشهورة

ومن الحوادث الشنيعة ما وقع للشيخ عبد المجيد
الطرني بسبب القتل الذى قتل ، واتهموا
به جماعته ، واتسعت هذه الكائنة حتى كاد أن
تخرب دياره فى هذه الحركة ، وأمرها مشهور بين
الناس بما وقع له بالمحلة ، واتصل خبرها بملك
الأمراء ، وكان من أمرها ما بطول شرحه ، وتعصب
لأبى الصبى الذى قتل الشيخ عبد الله بن الغمرى ،

وشنتق الهجان الذي وجدت معه تلك المطالعات ،
ولو ظفر بالقاصي ولي الدين لتسقه أيضا

وفي يوم الجمعة خامس عشره توفي محيي الدين
البليسي احد نواب الشافعية وكان لا بأس به .

وفي يوم الاثنين ثامن عشره توفيت زوجة المقر
الشهابي أحمد بن الجيعان ، وكانت چركسية
الجنس تدعى شهددار ، وكانت بديعة في الحسن
والجمال من أجل النساء حسنا ، فافتتن بها المقر
الشهابي أحمد ابن الجيعان حتى شغلته عن أحوال
المملكة ، قيل انها كانت تحسن الضرب بالسبع
آلات المدربة ، وهى الجنك والعود والصنطير
والقانون والدربج والكنجا والصينى . وكان
أصل شهددار هذه من جوارى ابنة الأمير شبك
بن مهدي الدوادار الكبير ، فادعت انها معتوقة
فتزوجها الشهابي أحمد بن الجيعان ، وأمهرها
مائتى دينار ، ودخل عليها فأحبها حبا شديدا دون
سائه ، وافتتن بها الى الغاية ، وأقامت عنده مدة
طويلة ، ثم بين بعد ذلك انها في روى ابنه الأمير
شبك الدوادار ولم يعنى ، وصار العنى فيها الى
بنت الأمير شبك الدوادار ، فاشراها المقر الشهابي
أحمد بن الجيعان من الورثة بحمسائة دينار ،
وقاسى بسببها مشقة عظيمة زائدة ، فأقامت عنده
مدة ، ثم انها مرضت وتزايد بها المرض حتى
ماتت ، فحصل له عليها حزن شديد وتأسف عليها
حتى كاد أن يموت من الحزن ، واستمر مغبما
بالتربة أباما ، وبادر اليه الناس بالتعزية والسلام
عليه ، وصنع عدة ماتم ، واجتمع هناك القراء
والوعاظ ، وعمل فيها الشعراء عدة مرات بديعة ،
قيل لما توفيت زوجها زين الدين عمر بن الوردى
أنشأ يقول :

إذا ما زوجة الانسان ماتت

فما بقيت لمسكنه مسكينه

وكيف يطيعه نظم ونثر

ولا بيت لسديه ولا قرينه

ويضرب من هذه الواقعة التي وقعت للشهابي
أحمد بن الجيعان ، ما وقع ليزيد بن عبد الملك بن
مروان ، وذلك أن أحد الخلفاء الأموية قد اشترى
جارية مولدة من مولدات البصرة ، وكانت تسمى
حباية ، اشترها بألف دينار ، وكانت تشتغل على
جملة من المحاسن ، منها أنها كانت تضرب بالعود
والجنك والقانون وسائر آلات الطرب ، وتحسن
الغناء الجيد وتنظم الشعر ، وتحسن العربية ، ولها
خط جيد ، وتلعب بالنرد والشطرنج ، وكانت
بديعة الجمال ، فافتتن بها يزيد بن عبد الملك وأحبها
حبا شديدا حتى أنها شغلته عن أمور الخلافة
والنظر في أحوال الرعية ، فاتفق له في بعض الأيام
أنه توجه الى بستان في دمشق ، وصحبته تلك
الجارية ، وقال لوزرائه وحجابه اذا كان الغد فلا
يخبرنى أحد منكم بشيء من أمور المملكة ، ولا
بكتاب يرد من سائر الجهات قاطلة

فلما استقر بالبستان أحضر سفرة الشراب ،
ودارت بينهما الكاسات ، ولم يكن في المجلس غير
يزيد وحظته حباية ، فبينما هما في أرغد عيش ،
اذ تناوت حباية رمانة لتأكلها فشرقت بحبة من
الرمان ، فوقفت في حلقها فانحنقت واضطربت
اضطرابا شديدا ، فخرجت روحها في الوقت
والساعة فلما عاين يزيد ذلك كادت روحه أن
تزهق من جسده ، وتأسف على حباية غاة الأسف .

قيل لما ماتت أقامت سبعة أيام لم تدفن وهى بين
يدبه وشاهدها ويقبلها ويقول ما نظرتها في عيني
أحسن من اليوم ، فلما جافت وتغيرت هيئتها ، ركب

تليه أناربه وأورج من وشمس ، شرب ما قبله ، وأخذوا تلك البقرة والبردا ، فلبح ودفنوها ، واسير يولد في الأمانف والحرين متى مات بعدها بسنة بميرة .

وفي هذا السير أنارجت أحوال التافسة ، منازت الأروان بسير المناملة في الذهب والفضة ، ويعمل ملك الأمراء على الأشراف انكشارية بسبب صرفه للذئاب الذهب بأكثر من أشرفين فضة ، وأشيع أن شخصا حجزيا من الصيارفة صرفه أشرافيا ذهبيا بأشرفين فضة وخمسة أنصاف ، فرسم ملك الأمراء بأشرافة في القاهرة وخزم أنه ، وعلق حيا الميزان ثم شنته فراح فلما

وفيه توفي محمد الرئيس فتات العنبر رئيس المحبطين ، وكان أستاذًا في صنعة الحبال ، وكان تفاق على بريوه في هذا الفن .

وفي يوم الاثنين الخامس عشرية قدم ابن الشريف بركات أمير مكة وهو الذي يسمى تنية وصحته صهره عرار ، فلما حضر حجج امراء الجراسمه والأمراء العثمانية الى سارقاته ، فدخل القاهرة في بوك حافل ، وقدمه الانكشارية يرمون بالنفوط ، فلما سعد الى القلعة تلقاه ملك الأمراء من وسط الحوش السلطاني ، وبالغ في اكرامه الى الغاية ، وخلع عليه ققطانا ، وخلع على من معه من العريان وأنزلهم في مكان أعده لهم .

وفيه توفي الأمير طقطباى استادار الصحبة ، أحد الأمراء العشراوات ، فلما مات دفنه ملك الأمراء في مدرسته التي بباب الوزير .

واستهل شهر رجب بيوم السبت ، فطلع القضاة الأربعة الى القلعة ، وهنؤا ملك الأمراء بالشهر ، ثم عادوا الى دورهم . وفي ذلك اليوم قرىء كتاب

الشريف بركات أمير مكة بعضرة القضاة ، فكان من مضمونه أنه أرسل يطلب من ملك الأمراء استقرار قاضي القضاة الشافعية بمكة صلاح الدين ابن ظهيرة على عادته فأجيب الى ذلك . ثم عين في ذلك اليوم فاض مالكي وفاض حنيلي الى المدينة الشريفة ، واتخذ المجلس على ذلك .

وفي يوم الأربعاء خامس رجب ، طاح ابن أبي الرداد بيشارة النيل المبارك ، وجاءت القاعدة ستة أذرع وعشرة أصابع ، وكانت في العام الماضي أروجج من ذلك بعشرة أصابع .

وفي يوم الخميس سادسه ، رسم ملك الأمراء بنسق شخص من اعيان الاصباهيه وكان من أكبر المفسدين ، يحطف النساء والمرد والعمائم القلبي الاحمر ولا يبجد من يرده عن ذلك ، فلما كثرت فيه الشكاوى نهض على شنته ملك الأمراء ، فمرا موسى احمد أمراء ابن عثمان ، ونظام في ذلك تايه القيام ، وأغلظ على ملك الأمراء في التبول ، وقال له الخنكار مايدري بشيء من ذلك ، فلما شفق ذلك الشخص عز على الاصباهيه وتأسفوا عليه ، وأنزلوه عن المشنفة وغساوه وكنهوه ودفنوه وفيل شفق معه في ذلك اليوم اثنان من الاصباهيه ، وكانا من كبار المفسدين ، وهما اللذان توجهتا الى بيت شاد البرلس ، ونهبا ما فيه وسبيا حريمه ، ولم يكن له ذنب يوجب ذلك ، وتقدم القول على هذه الواقعة .

وفي يوم الثلاثاء حادى عشره ، خرج قاسم الشرواني الذي كان نائب جدة وعزل عنها وجرت عليه شذائد ومحن ، وسجنه ملك الأمراء بالعرقاة وقيده ، ثم ان الخنكار ابن عثمان أرسل طلبه فتوجه الى اسطنبول وسافر اليها في ذلك اليوم .

الواقف أن تكون مشيخة الجمالية لأعلم علماء الشافعية ، وأنت شخص عار عن العلم ، فأخرجه ملك الأمراء ، وقرر بها شيخ الاسلام زين الدين زكريا الشافعي ، فشق ذلك على محب الدين بن أصيل ، وحصل له غاية البهدة من ملك الأمراء وقصته مشهورة بما جرى له

وفيه وقعت كائنة عظيمة للأمير الماس أخى أمير آخور كبير قرقماس ابن ولى الدين ، وكان من ملخص هذه الواقعة أنه كان عند الأمير الماس مملوك عايق يتزيا بزى العثمانية ، ويخرج باللذ يقطع الطريق ويخطف العمائم ، وقد وجدنا هذا المملوك يقطع الطريق فى بولاق وغيرها من الأماكن فقال ملك الأمراء هذا مملوك من ؟ فقيل له مملوك الأمير الماس ، فقال له ملك الأمراء ليش ما كنت ترجع مملوكك عن الفساد ؟ فقال الماس ما كان يسمع لى . فقال ملك الأمراء ليش ما كنت شكوته لى وأنا كنت أنصفك منه . فطال بينهما الكلام . ثم ان الأمير الماس أغلظ على ملك الأمراء فى القول فحنق منه فيطحه على الأرض ، وضربه ضربا مبرحا حتى عاين الموت ، قيل ضربه عشر نوب . ثم رسم بنفيه الى منفلوط ، وقيل الى قوص ، ثم رسم بتسليم ذلك المملوك الى الوالى ليعاقبه ، وخرج الأمير الماس متفيا من يومه

وفيه قبض ملك الأمراء على شخص من الصيارف الحجازيين ، وكان يجلس عند شخص بسوق الباسطيين ، فلمسا قبض عليه رسم بشنقه فشنع فيه خير الدين نائب القلعة ، وغرم مبلغا له صورة ، حتى سلم من الشنق ، ولا ذنب عليه يوجب ذلك سوى انه خالف المناداة وصرف أشرفيا ذهبيا بحمسة وخمسين نصفا بزيادة خمسة أنصاف فكاد أن يشنق ظلما .

وفيه رسم ملك الأمراء بشنق خمسة أنفار مسكهم شيخ العرب ابن أبى الشوارب ، زعم أنهم

ومن الحوادث فى هذا الشهر أن ملك الأمراء تكلم مع القضاة الأربعة بأن يحلفوا من نوابهم ، وأغلظ عليهم فى التسول ، فاقترصر قاضى القضاة الشافعي على خمسة عشر نائبا ، وأما القاضى الحنفى فانه عزل نوابه كلهم واقتصر على اثنين ، وهما شهاب الدين بن شيرين ، وابن بنت البدرى محمد ابن الدهان ، الذى كان شيخ الجامع المؤيدى . فاما القاضى المالكي فاقترصر على سبعة من النواب ، وأما القاضى الحنبلى فاقترصر على سبعة من النواب أيضا ، ولم يتم ذلك فيما بعد ، وحصل للنواب فى هذه الحركة غاية الضرر . وكان سبب ذلك أن نائبا من نواب القاضى الحنفى طلب امرأة الى الشرع فامتعت من الحضور ، فقيض عليها القاضى ، وضربها نحو تمانين عصا ، وقع له مثل ذلك مرتين . ثم ان امرأة طلعت وشكته الى ملك الأمراء فدمت القضاة بسبب نوابهم وما يفعلونه ، وقال لهم اعزلوا جماعة من نوابكم المناجيس .

وفيه توفى الأمير ماماي الساقى أحد الأمراء العسراوات الطبلخانات ، وكان أصله من مساليك السلطان الغورى ، وكان رئيسا جنسا لايأس به فنزل ملك الأمراء وصلى عليه وكانت جنازته حافلة . وفى يوم الثلاثاء ثامن عشره ، كان ختان ولد القاضى شهاب الدين أحمد بن شيرين أحد نواب الحنفية ، فكان له زفة حافلة ، مشى فيها أعيان الناس من المباشرين وغير ذلك .

واستهل شهر شعبان يوم الاثنين ، فصعد القضاة الأربعة وهنؤا ملك الأمراء بالشهر ، ثم عادوا الى دورهم . وفيه كانت كائنة محب الدين ابن أصيل الكفيف . فكان من ملخص واقعته أنه كان بيده متهيخة المدرسة الشيخونية والجمالية ، أخذها بنزول شخص من القضاة عنها فأقامت بيده مدة ، ثم اتدب له من رافعه ، وقال له شرط

يحيى بن قاضي القضاة برهان الدين الدميري تتكلم مع ملك الأمراء بأن يشفع في الفاصي نور الدين على الفيومي ، وقد تقدم القول أن ملك الأمراء تغير خاطره عليه فنفاه الى دمنهور ، وأقام بها مدة طويلة . فلما شفع فيه القاضي المالكي رسم باحضاره من دمنهور ، وكان أحد بواب الحنفية فكثرت فيه الشكاوى ، وكان غير محمود السيرة

تم في ذلك المجلس شفع فاضي القضاة المالكي أيضا في شمس الدين محمد السراجي ، فتوقف ملك الأمراء في أمره قليلا ، وعد له جملة مساوى ، فلا زال قاضي القضاة يتلطف به حتى رضى عليه ، وكان منعه أن يعمل قاضيا أو شاهدا ويلزم بيته دائما ، فكتب عليه قسامة بذلك فرضى .

تم ان قاضي القضاة شفع في نور الدين على الحسنى المعروف برصاص المؤذن بأن تعاد له وظائفه التي كانت في المدرسة العورية ، وكانت خرجت عنه لما توجه الى اسطنبول وأقام بها ، فلما شفع فيه رسم له باعادة وظائفه التي كانت بالعورية ، وكان قاضي القضاة المالكي عند ملك الأمراء من المقربين ، وكان يحضر مجلس محاكماته في كل يوم سبت ، ويفصل المحاكمات بحضرة ملك الأمراء ، ورأى في أيامه غاية العز والعظمة فوق ما رآه قاضي القضاة الحنفى عبد البر بن الشحنة في أيام الملك الأشرف قانصوه الغورى ، فعد من النوادر اطاعة ملك الأمراء لقاضي القضاة المالكي في جميع ما كلمه فيه في ذلك المجلس بالاجابة ، ولم يرد له شفاعة في ذلك المجلس في أمر من الأمور وفيه قدمت الأخبار من اسطنبول بأن الأمير جانم الحمزاوى ، لما وصل الى اسطنبول ، قابل الخنكار وقبل منه الهدية التي أرسلها معه ملك الأمراء ، وأكرمه الى العابة ، وأذن له بالعود الى مصر ، وهو واصل عن قريب .

كانوا من أكابر المنسر وأعيان المفسدين . فلما قبض عليهم ابن أبى الشوارب ، أرسله كان ملك الأمراء بذلك ، فأرسل اليه القاضي بركات بن موسى المحتسب . فأحضرهم الى القاهرة ، فرسم ملك الأمراء بشنقهم ، فشنقوا . وشنق في ذلك اليوم شخص من الناس زعموا أنه سرق ازارا وتقابا وشعرية فراح ظلما . وكان ملك الأمراء عجولا في أمر القتل .

وفيه نزل ملك الأمراء وسار الى نحو بلقيس ، ثم رجع من هناك ودخل من باب النصر وشنق القاهرة ، فلما شق منها لم يدع له أحد من الناس بالنصر ، ولا زغرتت له النساء من الطيقان ، بل أغلظ عليه بعض العوام ، وقال له انظر في أحوال المسلمين بالشفقة بسبب الخبز والدفبق ، وسائر الأسعار ، فان البضائع متشحطة .

وفي يوم الثلاثاء تاسعه توفي القاضي شمس الدين محمد بن عبد الكافي ، أحد بواب الشافعية ، وكان من أعيان النواب ، وكان ضخم الحسد مثقلا بالشحم جدا .

وفي يوم الأربعاء عاشره كان أول مسرى من الشهور القبطية ، ففيه زاد الله في النيل المسارك عشر أصابع ، فسر الناس بذلك ، وكان في أول الزيادة صار يسلسل في الزيادة أصبعا أصبعا على عشرة أيام متوالية ، ثم في اليوم الثانى من مسرى زاد الله في النيل المبارك خمس عشرة أصبعا في دفعة واحدة فسر الناس بذلك الى الغاية

وفي يوم الثلاثاء ثالث عشره كان ختان أولاد النصف من شعبان ، فأقرأ ملك الأمراء في تلك الليلة ختمة بالقلعة ، واستدعى القضاة الأربعة . فلما تكامل المجلس شرع قاضي القضاة محيي الدين

أولاد قاضي القضاة محيي الدين الدميري المالكي ،
وابن الحسام المنجلى .

ومن الحوادث الشيعة ، أن شخصا يقال له
محيي الدين بن مشرى البزدار . له ابنة صغيرة لها
سن العمر نحو سبع سنين ، وكان أبوها ساكنا في
المرأة بالقرب من مزار السيدة نفيسة رضي الله
عنها ، وكان على رأس تلك البنت كوفية ذهب ،
فوقفت تلعب مع الصغار في الحارة ، وكان لهم
جار صبي أمرد يعمل صنعة القمريات ، فلعبت عينه
على الكوفية الذهب التي على رأس البنت ، فلعب
بعقلها وقال لها أمك في السيدة نفيسة وأرسلت
تطلبك هناك ، فدخلت معه وأخذ معه عبدا أسود ،
فلما مضوا توجهوا بتلك البنت الى تربة خراب
خلف مزار السيدة نفيسة ، فذبحوها هناك وحملوها
وألقوها في فسقية موتى هناك ، وأخذوا الكوفية
التي على رأسها ، وتركوها تتلعب في دمها ،
فأقامت هناك يوما وليلة ، فكشفتفتيش عليها من
أمها وأبيها ، فنزل أبوها الى السوق وأوصى التجار
على الكوفية الذهب التي كانت على رأس ابنته ،
فإذا رأوها فليأتوه بها .

فبينما هو في الصاغة واذا بالصبي الأمرد الذي
أخذ الكوفية وذبح البنت في الصاغة ومعه
الكوفية ، فأشهرها في المناداة ، فتناهى سعرها الى
أربعين أشرفيا ، فقال له بعتك فقال له الدلال أحضر
لك ضامنا ثقة فلم يجد من يضمنه ، فقبضوا عليه ،
وأحضروا أبا البنت فقبض عليه ، وتوجهوا الى
باب الأمير كمشيفا ، فلما عرضوه على الوالي
ضربه بعض عصي فأقر أنه أخذ الكوفية عن رأس
البنت وذبحها ورمها في فسقية موتى خلف مزار
السيدة نفيسة رضي الله عنها ، فقالوا له امض معنا
وأرنا ذلك المكان الذي رميتها فيه ، فخرج معهم
وهو في الحديد ، وأتى بهم الى تلك الفسقية التي

وأشيع في الأخبار الواردة من اسطنبول ، أن
جماعة من الأعيان تسحبوا من اسطنبول ، منهم
القاضي علاء الدين ناظر الخاص على ابن الامام ،
وأخوه محمد ، والقاضي أبو البقاء ناظر الاسطبل ،
وأخوه يحيى أولاد ابراهيم المستوفى . وبهاء الدين
ابن البارزي وجلال الدين بن الشيراوي وآخرون
من المباشرين الذين هناك . فلما بلغ الخنكار
تسحبهم من اسطنبول ، شق عليه ذلك وأرسل
خلفهم ستين شوايشا ، فقبضوا عليهم من أثناء
الطريق ، ووضعوهم في الحديد ، وقاسموا من
البهدلة والاخراق بهم ما لا يمكن شرحه ، ودخلوا
بهم الى اسطنبول ، وهم مشاة في الحديد ثم
سجنوهم ولا يعلم ما جرى لهم بعد ذلك .

وفيه قدمت الأخبار من بلاد المغرب بأن الفرنج
توجهوا الى مدينة جربة --- وهي من أجل المدن ---
ثم ان جماعة من ملوك الفرنج حاربوا من بها من
ملوك الغرب ، فكان بين الفريقين واقعة مهولة ،
قتل بها من الفريقين نحو ثلاثين ألفا ، وكانت
النصرة لصاحب جربة على ملوك الفرنج ، وغنموا
منهم أشياء كثيرة .

وفي يوم السبت عشريه ، خلع ملك الأمراء على
ابن الشريف بركات أمير مكة ، وخلع على صهره
عرار وأذن لهما بالعود الى بلادهما ، فكان لهما
موكب حافل . فلما شقوا من القاهرة كان صحبتهما
الأمراء الجراكسة والأمراء العثمانية والجيم الكثير
من الانكشارية يرمون بالنفوط ، وكان يوما
مشهودا .

وفي يوم الثلاثاء ثالث عشريه كان ختان أولاد
قاضي القضاة الحنبلي شهاب الدين الفتوحى
المعروف بابن النجار ، فكان له زفة حافلة ، مشى
فيها جماعة من الأعيان ، لكن فصر وصفها عن زفة

وماها بها ، فنزل أبو البنت إليها فرجدها راقدة
وهي مذبوحة وفيها بض روح ، ولم يقطع
وربدها من الذبح ، فحملها وطلع بها من تلك
الفسقية .

فلما بلغ ملك الأمراء ذلك أرسل فأحضر الجميع
بين يديه ، وقصوا عليه قصة الصبي ، وما جرى
له مع البنت ، فحزن عليها ملك الأمراء وقال لها
من فعل بك هكذا فأشارت الى الصبي والجد
الأسود الذى على باب البيت الذى منه البنت ،
وأحضروا للبنت من قطب لها مكان الذبح الذى
برقتها ، وعاشت بعد ذلك وبرئت من الذبح ،
فعد ذلك من العجائب والنوادر الغريبة .

قيل ان البنت لما رماها الصبي فى الفسقية وهي
مذبوحة ، حكى لأمرها وقالت لما تم فى الفسقية
دخلت على امرأة وعلى وجهها برقع ، وقالت لا تخافى
أنا السيدة نفيسة ، وغدا أخلصك من هذا المكان ،
ثم مسحت الدم من رقبتى فانقطع فى الحال ، وسكن
روعى مما كنت فيه . وهذه الواقعة قد اشتهرت
فى القاهرة .

وفى شهر رمضان وكان مستهله يوم الثلاثاء ،
طلع القضاة الأربعة وهنئوا ملك الأمراء بالشهر
ثم رجعوا الى دورهم . وفى ليلة الرؤيا توجه
القاضى بركات بن موسى المحتسب الى المدرسة
المنصورية التى بين القصرين واجتمع القضاة الأربعة
هناك ، فلم تثبت رؤيا الهلال الا بعد المشاء ،
فلما رجع القاضى المحتسب الى داره ، لاقاه ابن
عوض بالفوائس ، وعدة مشاعل كثيرة ، وكانت
له ليلة حافلة .

ومن العجائب أن النيل المبارك كان على وفاء ،
ولم يتأخر عليه غير أربع اصابع ، فأشيع بعد العصر

أن النيل نقص فى تلك الليلة أصعبين ، فاضطربت
أحوال الناس بسبب ذلك ، وكان قد مضى من
مسرى أحد وعشرون يوما ، ولم يف النيل ، وكانت
أسعار الخلال والبضائع كلها فى غاية الارتفاع ،
فكان كما يقال فى المعنى :

رب وف النيل انا منه فى كرب وبلوه
ما بقى للناس صبر يحملون اليوم غلوه

فاستمر النيل فى هذا التوقف على أربع أصابع ،
وفيل نقص بعد ذلك أربع أصابع ، فاستمر على
ذلك خمسة أيام لم يزد فيها شيئا ، فرسم ملك
الأمراء لقضاة القضاة ومشايخ العلم ومشايخ
الصوفية بأن يتوجهوا الى المقياس ، ويتهلوا الى
الله تعالى بالدعاء فى وفاء النيل ، فتوجه قاضى
القضاة الشافعى كمال الدين الطويل ، والقاضى
الحنفى الطرابلسى ، والقاضى المالكى محيى الدين
الدميرى ، والقاضى الحنبلى شهاب الدين الفتوحى ،
ومن مشايخ الصوفية الشيخ محمد المنير وغير
هؤلاء من مشايخ الصوفية ، فلما توجهوا هناك
وباتوا بالمقياس نقص النيل فى تلك الليلة أصعبين
فصار النقص ستة أصابع ، ثم نقص عشرة أصابع ،
وكان تأخر عن الوفاء على أربع أصابع ، ونقص
من بعد ذلك عشر أصابع فصار النقص أربع عشرة
أصبا عن الوفاء .

فلما كان يوم الأحد سادس رمضان ، نزل ملك
الأمراء وتوجه الى المقياس ، وكان قد مضى من
مسرى ستة وعشرون يوما ، فأقام ملك الأمراء فى
المقياس ذلك اليوم ، وفرقوا أجزاء الربعة على
الحاضرين من الفقهاء فتمروا فيها عشرين دورا ،
ثم قرءوا صحيح البخارى هناك .

وأشيع أن ملك الأمراء فرق هناك على الفقهاء
مالا له صورة ، وأحضر الأطفال الأيتام وفرق عليهم

وبنا الطف بالخلق في النيل واطلق
بزياداته من النقص أسسره
واشرح الصدر بالوفامتك واسبل
ياسمیع الدعا بفضلک سستره
واجعل الأرض منه فی خیر خصب
ورخاء واجبر بلطفک کسره

فلما كان يوم الأربعاء تاسع عشرى مسرى ، طلع
ابن أبى الرداد الى ملك الأمراء بعد الظهر وبشره
بأن النيل قد زاد من النقص ثلاث أصابع ، فسر
ملك الأمراء بذلك . وقيل أنهم عليه بمائة دينار
وفرس وألبسه قفطانا مخملا مذهبا ، وأنعم على
الصبي الصياح الذى ينادى على البحر بجوخة
حمرآة . فلما أشيع ذلك سر به الناس قاطبة ،
وانطلقت النساء بالزنازير من الطيقان ، وكانت
فرحة عامة لجميع الناس قاطبة .

فلما كان يوم الجمعة حادى عشر رمضان الموافق
لأول أيام النسيء زاد الله فى النيل المبارك خمس
أصابع ، فسر الناس بهذه الزيادة ، وقد تأخر عن
الوفاء ست أصابع ، فكانت مدة توقفه عن الزيادة
ثمانية أيام متوالية ، حتى يؤس الناس من طلوعه
فى هذه السنة .

ثم فى ليلة السبت وفى الله الستة عشر ذراعاً
وفتح السد فى يوم السبت ثانى عشر شهر رمضان
الموافق للثانى من أيام النسيء ، فأوفى الله الستة
عشر ذراعاً وأصبغ من السابع عشر ، وقد فات
الوفاء عن ميعاده حتى مضت مسرى ، ودخلت
أيام النسيء ... ولكن تقدم أن النيل تأخر عن
الوفاء الى سادس أيام النسيء ، وذلك فى سنة
أربع وتسعين وستمائة ، وبلغت الزيادة فى تلك
السنة ستة عشر ذراعاً ثم هبط سريعاً ولم يثبت ،

مبلغاً له صورة ، وأحضر من الآثار الشريفة القميص
من المدرسة الغورية ووضع فى فسقة المقياس ،
وغسلوه فى الماء الذى بها ، وكثر هناك الضجيج
والبكاء والتفرع الى الله تعالى بالزيادة ، فأقام
ملك الأمراء فى المقياس الى قريب الظهر ، ثم طلع
الى القلعة ، فلما طلع أمر باطلاق من فى السجن
من الرجال والنساء والأطفال ، فأطلق منهم نحو
ثمانين انساناً ، ونزل الى القرافة وزار من بها من
الصالحين ، وفرق على الزوايا التى هناك مالا له
صورة ، وفعل من وجوه البر والصدقات أشياء
كثيرة ، وما أبقي فى ذلك ممكناً .

فلما كان يوم الأربعاء ، الموافق لتاسع عشرى
مسرى ، عول ملك الأمراء على أن يخرج الى
الاستسقاء وصحبه الناس قاطبة يوم الخميس ،
وقد تزايد قلق الناس الى الغاية ، واشتد الأمر
عليهم بسبب نقص النيل عند ليلالى الوفاء وقد
قال القائل فى المعنى :

بمسرى النيل ما أوفى فضجوا

ودب القحط فينا من أبيب

ولم أضرع لمخلوق لأنى

وجدت الله أشفق من أبى بى

وفى هذه الواقعة يقول الأديب البارع الناصرى
محمد بن قانصوه بن صادق وقد أجاد حيث قال :

أسبل النيل من عيولى عبره

مذ أرانى من التنقص عبره

يا لها عبرة ثوت بفؤادى

ورمت بالهموم فى القلب جمره

شهر مسرى تسع وعشرون يوماً

فيه فات الوفا فأين المسره

وفي يوم السبت سادس عشره قدمت الأخبار بأن الأمير جانم الحمزاوى قد وصل الى قطيا ، وقد تقدم القول أنه كان توجه الى السلطان سليم خان ابن عثمان ، وصحبته مقدمة حافلة من عند ملك الأمراء الى الخنكار ابن عثمان ، فلما قابله أكرمه وخلع عليه ، وقبل منه تلك التقدمة فأقام هناك مدة . ثم ان ابن عثمان رسم للأمير جانم بعوده الى مصر ، وكان أكثر الناس جزموا بعدم عوده الى مصر ، فجاء الأمر بخلاف ذلك . فلما أشيع وصوله الى قطيا خرج أعيان الناس الى ملاقاته ، وخرج الأمير ناصر الدين محمد المهندار والأمير برسباى الدوادار وسائر المباشرين قاطبة .

فلما كان يوم الأحد سابع عشرى رمضان ختم صحيح البخارى بالقلعة على العادة ، وفرقت الصرر على الفقهاء ، ومن له عادة ، وخلع على قضاة القضاة .

وفي يوم الاثنين ثامن عشره ، دخل الأمير جانم الحمزاوى الى القاهرة ونزل بتربة العادلى .

وفي يوم الثلاثاء تاسع عشره نزل ملك الأمراء من القلعة ، وتوجه الى تربة العادلى ، ونزل على المصطبة التى هناك ، ولبس خلعة الخنكار التى أرسلها له على يد الأمير جانم الحمزاوى باستمراره فى النيابة بمصر ، وهى ققطان بتماسيح على مخمل أحمر ، فركب من هناك ودخل من باب النصر ، وشق من القاهرة فى موكب حافل ، وقدامه جماعة من الأمراء الجراكسة ، ومن الأمراء العثمانية ، والعساكر الاصباهية والانكشارية مشاة يرمون بالنفوط ، ولاقاه طائفة من النصارى وبأيديهم الشموع موقدة ، ولاقاه الشعراء والشبابة السلطانية .

فشرقت البلاد ، ووقع الغلاء . واتفق مثل ذلك أن النيل وفى فى آخر أيام النسيء ، فى سنة ثلاث عشرة وسبعائة ، وكان نيلاً شحيحاً لهم يشبت ، وشرقت البلاد ، ووقع الغلاء . نزل ذلك الشيخ جلال الدين السيوطى رحمة الله عليه .

فلما وفى النيل نزل ملك الأمراء من القلعة وتوجه الى المقياس ، وخلق العمود ، ونزل فى الحرافة وفتح السد ، وكان يوماً مشهوداً ، كما وقع له فى السنة الخالية . وكان الوفاء على غير القياس مما جرى على النيل فى هذه السنة ، وقد قال الناصرى محمد بن قانصوه بن صادق وأجاد حيث قال فى المعنى :

الحمد لله زاد النيل واتسرحت

سدورنا وأرانا بشره فرحا

والقلب أصبح بعد الكسر منجبرا

والأمر أمسى عقيب الضيق منفسحا

وقال آخر :

تهتك الخلق بالتخليق قلت لهم

مأحسن الستر قالوا العفو مأمول

ستر الآله علينا لا يزال فما

أحلى تهتكنا والستر مسبول

وفي يوم الأربعاء سادس عشر رمضان كان أول النوروز ، وهو أول يوم من السنة القبطية ، وهى سنة ست وعشرين وتسعمائة خراجية ، ففى ذلك اليوم زاد الله النيل المبارك سبع أصابع ، فأوفى الله السبعة عشر ذراعاً وأصعباً من الذراع الثامن عشر ، فسر الناس بذلك .

والانشراف غاية الفتك ، فبلغ ذلك الخنكار فنعين
خاطره عليه ، وكان الوزراء مساعدين أولاد عمه
خليل ، ومحطين على الخليفة . الثالث أن جماعة
كبيرة من أهل مصر من كان باسطنبول ، تسحبوا
من هناك ، منهم بدر الدين ابن القاضي كمال الدين
ناظر الجيش ، وتسحب آخرون من الأعيان ،
فخشيت الوزراء أن الخليفة يتسحب من هناك
فضيقوا عليه والله أعلم .



وفي شهر شوال كان عيد الفطر يوم الخميس ،
فقطع القضاة الأربعة وصلوا مع ملك الأمراء صلاة
العيد ، وخطب بهم قاضي القضاة الشافعي خطبة
بليغة ، وكان موكب العيد موكبا حافلا .

وفي يوم الأحد رابع شوال ، جلس ملك الأمراء
بالدهيشة ، وأرسل خلف القضاة الأربعة ، وأرسل
خلف أعيان التجار ومشايخ الأسواق بسبب أمر
المعاملة في الذهب والفضة ، فلما تكامل المجلس قام
ملك الأمراء ودخل الأشرافية التي بجوار الدهيشة ،
ودخل معه القضاة الأربعة ، وأرسل خلف الأمراء
العثمانية ، وهم قرا موسى ، وفرحات ، وخير الدين
نائب القلعة ، والقاصد الذي حضر صحبة الأمير
جانم الحمزاوي ، فلما دخلوا إلى الأشرافية لم
يدخلها غير هؤلاء ، ولم يأذن للأمراء الجراكسة
بالدخول معهم .

ثم إن القاصد أخرج مرسوم الخنكار الذي
أرسله صحبة الأمير جانم الحمزاوي ، فجلس
القضاة الأربعة على أربعة كراسي ، وأجلس الأمراء
العثمانية على أربعة كراسي ، وقرئ عليهم مرسوم
الخنكار ، وذلك على طريقة النسق العثماني ،
وكانت ألفاظ ذلك المرسوم باللغة التركية . فكان
من مضمونه ما أشيع بين الناس أنه قد أرسل
بأمر ملك الأمراء بالتوصية بالرعية غاية الوصية ،

ولما وصل إلى قبة الأمير يشبك التي في رأس
الحسييه لاقاه القضاة الأربعة ، فكان القاضي
الشافعي عن يمينه ، والحنفي عن يساره ، والمالكي
والحنبلي قدامه ، والأمير جانم الحمزاوي قدامه ،
وعليه فمطمان مخمل مذهب كان ألبسه له الخنكار
فاستمر في ذلك الموكب إلى أن طلع إلى القلعة
وكان يوما مشهودا . فكانت مدة عيبة الأمير
جانم الحمزاوي في اسطنبول عند الخنكار ستة
أشهر ، وقيل أنه قابل الخنكار فيها مرة واحدة .

وأما ترجمه الأمير جانم الحمزاوي فهو جانم بن
يوسف بن أركساس السيفي قاني باي الحمزاوي
نائب الشام ، كان من أعيان أبناء الناس ، وقد رعى
في دولة ملك الأمراء خاير بك حتى صار صاحب
الحل والعقد بمصر ، وصار في مقام أمير كبير
بمصر .

ولما استقر الأمير جانم الحمزاوي في داره أشيع
بين الناس أنه أخبر أن الخنكار ابن عثمان تغير
خاطره على الخليفة محمد بن يعقوب المتوكل على
الله الذي توجه إلى اسطنبول ، فلما تغير خاطره
عليه أخرجه من اسطنبول على غير صورة مرصية
وهو في غاية ما يكون من البهذلة ، ونفاه إلى مكان
عسر يسمى السمع قلبات ، قيل إن بينه وبين
اسطنبول سبعة أيام ، وهو المكان الذي يضع فيه
الخنكار أمواله وتحفه لكونه في غاية التحصين .

وقد اختلف في سبب تغير خاطره عليه ... فنسب
جملة الأقوال أن أولاد ابن عمه خليل رافعوه بسبب
اقتطاع الخلافة أن يعطيهم منها الثلث ويأخذ هو
الثلثين فأبى من ذلك . الثاني أن الخليفة طاش
هناك وصار ينهم العيش جهارا ، واشترى له
جوارى يضربن له بالجنوك ، وفتك في البسط

وشكوا الى الوزراء بأن وظائفهم التي بسببها خرجت عنهم ، وتذللوا بغيرتهم ، وأخذ الناس أمورهم بسوجب غيابهم في استنبول ، فقال لهم الوزراء : « أقيسوا لكم مساقا وتوجهوا الى مدرس صحة جماعة من الانكسارية ، واكتشفوا على جهاتكم ووظائفكم ، وارجعوا الى استنبول على وجه الصيغ » . فصاروا ذلك وحضروا الى مدرس وصحبهم الانكسارية ، وفيهم من ترك اولاده وعماله باستنبول الى ان يرجع اليها .

ثم في عقيب ذلك اذسيح انه حضر ايضا من استنبول جماعة ، منهم شمس الدين بن المرقوق المباشر ، وخرج بن البريدي ، والطواشي مسك ، وقيل ان الطواشي اقام بالشام عند الغزالي نائب الشام ، ورتب له ما يكفيه كل شهر ، وسجد بن علي كاتب الخزائن ، وآخرون حضروا في الحنفية وصراروا ينسحبون من استنبول شيئا بئس تروء ويحضرون ، وكل ذلك من غير علم الخشكار ، فالد يلفظ بهم .

وفي يوم الجمعة سادس عشره ، الموافق لأول يوم من بابه ، ثبت النيل المبارك على خمس أسابيع من تسعة عشر ذراعا ، وكان في العام الماضي تسب على ثمانى أسابيع من عشرين ذراعا ، فكان هاتما النيل أقص من النيل الماضي بأذراع وثلاث أسابيع ، وكان فيلا شحيحا من بسندأ زيادته الى حين هبوطه . وقد شرف غالب البلاد ، واشتد أمر العلاء بالديار المصرية ، وتكالمت الناس على مشتري التسيح ، وارتفع التسيح من السواحل ، وصرار اذا وصفت مركب قسح لاتباع ولا تشتري الا باقراج من عند المحتسب ، ولو كان ضيافة أو من الخراج ، فحصل للناس الضرر الشامل ، وارتفعت القاهرة بسبب مع القسح ، ووقع الاضطراب الشديد فكادت أن تكود غلوة كبيرة .

وأن يعرف للساليك الجراكسة جوامكم ونحوهم ، سابتهم على العادة القديمة . وأرسل يقول ملك الأمراء أن يتوسى بأولاد الناس فاطبة ، وكل من كان له جاسكية وتطعت يرداها اليه . وأرسل يقول له في اصلاح المعاملة من الذهب والفضة ، فأحضروا من على تلك الألفاظ التركية التي في الموسوم ، فكان هذا معناها .

ثم نرى مشورة في أمر المعاملة فأشار الحاضرون على ملك الأمراء أن يبنى كل شيء على حاله من أمر المعاملة حتى يراجع الخشكار في ذلك مرة أخرى ، بأن الذهب والفضة ينقص في معده الحركة الثلث ، فخرج ملك الأمراء ورسم بأشهار المناذرة في القاهرة بأن كل شيء على حاله ، وان الإشراف العثماني والغوري لا ينصرف بأكثر من حسين صفا فضة من غير زيادة على ذلك ، وأن النصف الفضة النحاس يرمى ، وما عدا ذلك يستى . ثم انقض المجلس على ذلك ، ونزل القضاة الى دورهم ، وسكن الاضطراب قليلا في أمر المعاملة .

وفي يوم الجمعة تاسع شوال ، قدم من البحر المالح الى نهر الاسكندرية جماعة نحو تسعة انفار ممن كان أسر وتوجه الى استنبول ، فحضر في ذلك اليوم الشيخ بدر الدين محمد السعوى المعروف بابن الوقاد أحد نواب الحنفية كان ، وحضر الشيخ كمال الدين الذي كان بزدار الامير طومان باي ، وحضر كمال الدين العائق مباشر أمير أخور كبير ، وحضر زين الدين حامل المزة ، وحضر القاضي كريم الدين المجولى أحد نواب الشافعية كان ، وحضر الخوجا عمر بن معزوز المغربي ، وحضر المهتار بدر العادلى ، والحوجا زين الدين العجسى ، ويوسف مناخير ، والمعلم حسين معلم المحك بدار الضرب . وكان هؤلاء باستنبول

وفي يوم الأحد ثامن عشره توفي شخص من
الأمرء الطليخانات يقال له ماماي الصغير ، ودفن
في المدروسة النورية .

وفي يوم الاثنين تاسع عشره خرج المحمل
التشريف من القاهرة في تجرل عظيم ، وكان أمير
المحمل الأمير جانم كاشف دنفلوط والبهنسا ،
فطلب طلبا حافلا على المادة التديمة كعادة الأمرء
المقدمين ، وخلق على الأمير باباي أحد الأمرء
العشراوات ، واستقر به في مشيخة الحرم النبوي
عوضا عن الشرفي يحيى بن البرديني بحكم انفصال
عنها ، وكان قاضي المحمل في تلك السنة الشيخ
فتح الدين أبو الفتح الوفاي المالكي أحد النواب
بل من أعيانهم ، فحصل للحاج به غاية النفع .
ولم يحج في هذه السنة من الأعيان إلا القليل ،
وكان أكثر الحجاج فلاحين ، وريافة من البلاد .

وفي شهر ذي القعدة ، وكان مستهله يوم
السبت ، طلع القضاة الأربعة ودينوا ملك الأمرء
بالشهر تم عادوا إلى نورهم . وفي يوم مستهله
وقع لقاضي القضاة الحنفى الطرابلسي بين يدي
ملك الأمرء بعض توبيخ بسبب نائبه كمال الدين
ابن زريق ، وقد انكشف رده في مكتوب ظهر أنه
زوره ويجري بذلك أمر يلول شرحيا ، فحصل
للقاضي بعض هتت من ملك الأمرء ، فما وسعه
إلا أنه عزل كمال الدين بن زريق بعضرة ملك
الأمرء عزلا مؤيدا ما دام حيا ، وانقض المجلس
على ذلك .

وفي ذلك اليوم رسم ملك الأمرء بأشهار المنادة
في القاهرة بسبب الماملة في الذهب والفضة فأطلق
أربعة مشاعلية ، في القاهرة ومصر العتيقة ، أن
الأمرء في الذهب العشاني والنورين بتصرف بحمسين
صفا من غير زيادة على ذلك ، وأن الأمرء الذي

هو ضرب جمال الدين بصرفه بأثنين وأربعين نصفا ،
وأن الفضه على الأرا لا يرد منها إلا النصفه
المكشوف ، وكل من سالت في ذلك شئ من غير
سواده ، فسكن الأندلس فليان بسده المنادة
بعد ما كان أشيخ بإبلال هذه الماملة لها ، وتخصر
الناس من أموالها الثلث ، فتسال الناس من البيع
والشراء أياما ، وغلقت الأسواق . فلما نادوا بإتقاء
كل شئ على حاله سكن الرهيم الذي كان فيه
الناس .

فيل أن ملك الأمرء أرسل يشاور الخشكار
ابن عثمان في أمر الماملة إذا بلفت يتغر الناس
من أموالهم الثلث ، والأمر في ذلك مسؤل على
الجواب .

وفي يوم الأحد ، ثاني الشهر ، خلق ملك الأمرء
على شخص من الشمانيه يقال له الأمير على الكيحيه
أغات الأنكشارية ، واسفر به في ولاية القاهرة ،
عوضا عن كشيغا الذي كان والي القاهرة وتوجه
إلى اسطنبول كما تقدم .

وفي يوم الخميس سادسه ، نزل ملك الأمرء
من القلعة وتوجه إلى الروضة ونصب له خياما في
حروط الروضة تجاه قصر ابن السيني ، فنزل هناك
وكان صحبته جماعة من الأراء العشانية والقاصد
الذي حضر مع الأمير جانم الحمزاوي ، والأمير
قايتباي الدوادار ، وبعض أمرء من الجراكسة ،
والجهم الكثير من الاصباعية والآنكشارية ، فلما
استقر هناك حضر إليه القاضي بركات بن موسى
المحتسب مدة حافلة ، فيسل ضرف عليها نحو
خسمائة دينار . فمن جملة ذلك أربعون خروفا
شوي ، وأربعمائة مجصع حلوي وعدة مطابق
ضمنها مأمونية سكب ، ومأمونية حوية محشوة
بسكر ، وسنبوسك بسكر ، ورخامية بسكر ،
وسمك على أنواع مختلفة ، وأشياء غير ذلك

موتقة ، وأحمال بطيخ صيفي وعبيدي ، وأطنان
قصب ، وأحمال تشطلة وبطلد جلاب ، وأحمال
موز وغير ذلك ، وما أبتى ممكنا فيما صنعه في
هذه المدة من الأشياء التي تصلح للسلوك ، فشكره
ملك الأمراء على ذلك ، وأثنى عليه بحضرة
لأمراء .

وكان القاضي يركات المختسب ، عالي الهمة ،
نافذ الكلمة ، مسعود الحركات في سائر أفعاله ،
وقد وقع له أشياء غريبة لم تقع لأحد قبله من
المباشرين ، ولا غيرهم ، ولا سيما ما كان يصنعه
للسلطان . فأتاه ملك الأمراء الى ما بعد العشاء ،
بم عدى من هناك وطلع الى القلعة ، وانقضى ذلك
اليوم السلطاني .

وفي يوم السبت ثامن ، وقعت كائنة مهولة ...
وسبب ذلك أن ملك الأمراء جلس للمحاكمات على
العادة ، فعرض عليه ثلاث محاكمات في ذلك اليوم :
الأولى أن شخصا من اليهود يقال له شمس
الدين محمد البساطي ، كان يجلس على رأس حارة
زويلة ، وكان يخطب في جامع ابن قريسيط الذي
في حارة زويلة ، فجاءت اليه مبايعة جارية حبشية
كانت على ملك شخص من النصراني ، فابتاعها
لشخص من الفرنج ، فهربت وأتت الى بيت
الوالي وقالت له : « أذا جارية مسلمة ، كنت عند
شخص نصراني ، فباعني لشخص افرنجي ، وقصد
أن يسافر بي الى بلاد الفرنج ، فهربت من عنده
وأيتت اليكم » . فعرض الوالي هذه الواقعة على
ملك الأمراء خاير بك فطلب النصراني البائع
فهرب ، وهرب الفرنجي المشتري ، فقبض على
شخص كان واسطة ، وعلى شمس الدين البساطي ،
وقبض على النصراني والأفرنجي فيما بعد ، وعوقبا
وقرر عليهما مال له صورة . فلما وقف شمس الدين
البساطي بين يدي ملك الأمراء قال له : ليش ماسألت

الجارية ان كانت مسلمة أو غير مسلمة ؟ فاختلط
في الكلام وتلجلج لسانه عن الجسواب . فاشتد
غيظ ملك الأمراء عليه ، فرسم بقطع يده البسني
فقطعت ، وأن يشهر في القاهرة ففعل به ذلك .
وكان حاضرا في المجلس قاضي القضاة المالكي
محيي الدين الدميري ، والقاضي شهاب الدين بن
شيرين أحد نواب الخنفة ، والقاضي شمس الدين
العبادي ، والأمير أرزمك الناشف ، وجماعة من
الأمراء العثمانية ، فلم يجسر أحد منهم أن يشفع
فيه لشدة غضب ملك الأمراء عليه ، وكان يوما
مهولا .

والمحاكمة الثانية ، عرض عليه شخص يقال له
محمد بن عز الدين ، كان أبوه من جملة رسل
الصالحية ، وكان يعرف بابن يابه ، وكان ابه فييح
الصورة والسيرة ، مشهورا بنزوير المراسيم عن
لسان المباشرين ، وسببت له وفائع كثيرة عن لسان
الأكابر ، ففيل انه زور مرسوما على لسان القاضي
شرف الدين بن عوص ، فقبض عليه ابن العيائي
وأحضره بين يدي ملك الأمراء ، فكثرت فيه من
الناس الشكاوى ، فرسم بأن يشنق فشنق ، وشهر
في القاهرة وهو مخزوم الأنف ومقطع الآدان ،
فأراح الله تعالى العباد منه ، فانه كان كثير النصب
والحيل ، وتحكى عنه الغرائب والعجائب في أمر
الحيل والنصب والسرقة .

والمحاكمة الثالثة ، عرض عليه شخص من
الفلاحين سرق ثورا ، فرسم بأن يخوزق وتقطع أنفه
وآذانه وأن يركب على الثور ، ويشهر في القاهرة
ثم يخوزق . وكان ملك الأمراء عجولا في أمر
القتل ، وقد شنق وخوزق ووسط في أيام ولايته
على مصر ما لا يحصى من الناس ، والغالب راح
ظلمنا من غير ذنب ، وكان ملك الأمراء شديدا

التسوية صلبا في الأمور جدا ، وكان الأمر كما قيل في المتن :

احذر تعاشر من يكن طبيعهم

فلم الررى دأبا وان أحسنوا

لقول رب العرش سبحانه

في محكم الذكر ولا تركنوا

وفي يوم الخميس ثالث عشره ، رسم ملك الأمراء بشنق ثلاثة أنفار من القواسة كانوا حراسا على قصب ، فأتى اليهم بعض التركمان ليسرق من القصب ، فضربه أحد القواسة فبجعت الضربة صائبة فمات ذلك التركماني . فلما بلغ خشمداشيينه ذلك توجهوا الى قسرى ونهبوا ما فيها ، ثم قبضوا على القواسة وعرضوه على ملك الأمراء ، فرسم بشنقهم فشنقوا في ذلك اليوم ومضى أمرهم . ويقال انهم أخذوا ظلمة فليسوا هم الذين قتلوا التركماني ، والذين قتلوه هربوا ولم يحصلوهم ، وراحوا ظلمنا وراحت في كيسهم .

وقد وقع لملك الأمراء أنه قتل ثمانى أنفس في هذه الجمعة ، فشنق منهم جماعة ، وغوزق منهم جماعة ، واقترحوا لبس العدا ب حتى صاروا يخوزقونهم من أضلاعهم ، وراح غالبهم ظلمنا ، والأمر لله تعالى .

وفي يوم الجمعة رابع عشره أرسل كاشف الشرقية اثنين من العربان المفسدين قطاع الطريق ، فرسم ملك الأمراء بشنقهما فشنقا . وقد وقع لملك الأمراء أنه شنق وخوزق في هذا النهر جماعة كثيرة بخلاف العادة .

وفيه أشيع أن صبيانا صغارا قعدوا يلعبون في بعض الطارات ، فعمل واحد منهم ملك الأمراء ، وآخر والى القاهرة ، ونادوا أن لا أحد يخرج من

بعد العشاء ، فقام بعض الصغار وخطف عمامة آخري بعيت عليه ، فقبضوا عليه وأحضره بين يدي الذي جعلوه ملك الأمراء ، فرسم للذي أقاموه واليا بأن يقبض عليه ويخوزقه ، فدقوا له عصا في الأرض وأقدموه عليها غضبا ، فبنهم من قال أن الصبى مات من وقته ، ومنهم من قال لم يم ، فلما جرى ذلك تباربت الصغار الى حال سيلهم ، وقد هان القتل في هذه الأيام حتى عند الصغار . وهذه الواقعة لم تثبت الا اشاعات .

وفي يوم الثلاثاء ثامن عشره ، قدمت الأخبار بأن الفرنج قد أتوا الى ساحل بيروت وحاصروا من بها ، كسروهم وملكوا مدينة بيروت ، وأقامت معهم ثلاثة أيام . فلما بلغ ملك الأمراء نائب الشام جان بردى الغزالي ذلك عين دوا داره ومعه الجم الكثير من العساكر ، فتوجهوا الى بيروت واقتتلوا مع الفرنج ، وكان بين الفريقين واقعة مهولة ، قتل فيها ما لا يحصى من الفرنج ، وأسر منهم ثلثمائة انسان ، وغنموا منهم أشياء كثيرة من سلاح وقماش وغير ذلك . وقيل أسروا جماعة من أولاد ملوك الفرنج ، وملكوا ثلاث برشات من كبار مراكبهم ، وكانت النصرة عليهم للغزالي نائب الشام ، بعد ما ملك الفرنج بيروت ، فطردهم عنها بعون الله تعالى .

ومن الحوادث العظيمة الغربية ما وقع يوم الأربعاء تاسع عشر ذى القعدة من سنة ست وعشرين وتسعمائة ، أنه قدم قاصد من البحر المالح وعلى يده مرسوم من عند السلطان سليمان ابن السلطان سليم شاه بن عثمان ، بأن السلطان سليم شاه قد توفي الى رحمة الله تعالى . وحضر صعبة القاصد مطالعة من عند الرئيس شمس الدين محمد القوصوني الى صهره قاضى القضاة محيي الدين الدميرى ، تتضمن أخبار موت السلطان سليم شاه

بسلطان مصر ، ولا زال بخادعه ويظهر أنه تحت طاعته حتى خرج اليه وغدر به وحاربه وانكسر منه وفقد ، وقد طرقه على حين غفلة ، وجرى عليه منه ماجرى كما تقدم ذكر ذلك ، فملك مدينة حلب وقلعتها في خمس درج ، واحتوى على أموال السلطان الغورى التي كانت نقلعة حلب من غير مانع ، ثم توجه الى دمشق فملكها وملك قلعتها من غير مانع في أسرع من طرفة عين ، ثم توجه الى الديار المصرية ، وحارب السلطان طومان باى فكسره ، وقتل غالب عسكر مصر من المماليك الجراكسة ، وقتل من الأمراء ما تقدم ذكره ، وملك الديار المصرية في نحو عشر درج .

وكانت مدة استيلائه على حلب والشام ومصر أربع سنين وخمسة أشهر ، وهو يحطب باسمه على منابر حلب وأعمالها ، ودمشق وأعمالها ، ثم خطب باسمه في الديار المصرية وأعمالها وثغورها ، وضربت السكة باسمه في هذه المدة .

وكان استيلاؤه على مدينة حلب في أواخر رجب سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة ، واستولى على دمشق في سلخ رمضان ، واستولى على الديار المصرية في المحرم سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة ، فكانت مدة اقامته في القاهرة نحو ثمانية شهور من مستهل المحرم الى أواخر شعبان ، واستقر بخاير بك نائبا عنه بمصر

وأما مدة استيلائه على مملكة الروم من حين توفى والده السلطان أبو يزيد الى الآن ، فنحو تسع سنين الا شهرا ، فان والده أبا يزيد توفى في ثانى جمادى الأولى سنة ثمان عشرة وتسعمائة ،

ابن عثمان ، وهى الأخبار الصحيحة ، فأخبر أن لسلطان سليم شاه خرج يتصيد ، فرجع من الصيد وهو متوعك في جسده ، وقد طلعت له فرخة جمر ، نتألم بها ولزم الفراش أياما ، وثقل في المرض واتتد عليه الأمر جدا ، فمات في يوم الخميس تاسع شوال سنة ست وعشرين وتسعمائة . فلما مات كتم موته عن العسكر ثلاثة أيام ولم يدفن . وكان ولده سليمان غائبا عن اسطنبول ، فلما حضر وقد جد في السير حتى دخل الى اسطنبول وجلس على سرير الملك ، أنشيع موت أبيه سليم شاه ، فأحضره في سحلية وهو مصبر ، وصلوا عليه ، ومنست الوزراء والعسكر قاطبة قدامه ، وكان دفنه يوم الأحد ثانى عشر شوال أو يوم الاثنين كما قيل ، ودفن على جده السلطان محمد ابن عثمان في مدرسته باسطنبول ، ومضى الى رحمة الله تعالى كأنه لم يكن ، وزال عنه الملك في طرفة عين ، فسبحان من لا يزول ملكه ولا بتغير . وفي ذلك بقول ناصر الدين محمد بن قانصوه بن صادق في المعنى :

عظم الله أجركم في ملك الورى سليم
عنه فد زال ملكه وغدا في الثرى رميم
وتوفى لملك المظفر سليم شاه وله من العمر
نحو سبع وأربعين سنة علو ما أشيع ذلك ، ووقع
له من الأمور الغريبة ما لم يقع لأحد من آبائه ولا
أجداده ، بل ولا لأحد من ملوك الشرق ، ولا
ملوك الغرب ، ولا غيرهم ، فانه زحف على شاه
اسماعيل الصفوى ملك العراقين ، وحاربه فكسره
وقتل من عساكره ما لا يحصى حتى قيل : قتل فوق
الخمسين ألفا ، وملك بلاده وطرده عنها . ثم تحرش

و كان استيلاؤه على مملكة الروم في حياة والده
بأشهر ، فان والده أقام مريضا ملازما الفراش مدة
طويلة ، فيقال انه عجل على أبيه وقتله لأجل الملك ،
ثم انه خنق أخاه فرقط ، وقتل أخاه أحمد ،
وظن أن الوقت قد صفا له ، فتلاعبت به الدنيا كما
تلاعبت بعيره من الملوك ، ودهس الموت الذي
لا يدفع بقوة ولا حياة ، وقد صار في رسمه رهين
الذنوب ، لا يعلم أهو في نعيم أو في عذاب ، وقد
رثيته بهذه الأبيات :

لابن عثمان قصة فاسمعوها

واعجبوا من صنع ربي تعالى

ملك الشام للفرات وأضحى

فاتكا في الأنام روحا ومالا

وأراد الدخول في كل مصر

قلت هيئات رمت هذا محالا

طردته عنها سهام الدياجي

بدعاء فيها نفوق النبلا

بعد ما جار في الأنام بقتل

من جيوش يدك منها الجبالا

منذ جاروا وبالغوا في آذاهم

قد سألنا الاله نكشف حالا

فاستجاب الدعاء ومن علينا

بانفراج الهموم جل تعالى

وأنتنا أخباره بزوال

صيرت رشده حقيقا محالا

كم ملوك أذلها بعد عز

وسطا فيهمسو وأفنى الرجالا

لهف قابي على ملوك تفتانوا

من سطا سيفه وطلال اشتعالا

ذلت الروم بعد ما قد دهاهم

موت أستاذهم وشاعوا المقالا

زال عنا بموته دون حرب

وكفى الله المؤمنين القتالا

وفي ذلك اليوم أشيع موت ابن ملك الأمراء
الذي كان مقيما باسطنبول ، وكان رهينا عند ابن
عثمان من حين استولى أبوه على نيابة السلطنة
بمصر ، ولما تحقق ملك الأمراء موت السلطان سليم
شاه أظهر الحزن والأسف وشنق أثوابه ولبس
السواد . وكذلك الأمير قرا موسى ، وخير الدين
نائب القلعة وفرحات ، وسائر الأمراء العثمانية
لبسوا السواد ، حتى الأمير قايتباي الدوادار لبس
السواد ، ووضع على رأسه شدا أزرق وأظهر
الحزن .

وفي يوم الخميس عشريه رسم ملك الأمراء
بأربعة مشاعلية تنادي في القاهرة : اثنان يناديان
بالتركي ، واثنان يناديان بالعربي ... ترحموا على
الملك المظفر سليم شاه ، وادعوا بالنصر للملك
المظفر سليمان شاه . فارتجت القاهرة في ذلك
اليوم ، وتحققوا موت سليم شاه من غير شك ،
وقالوا سبحان من هذ الجبابرة ... وأما المماليك
الچراكسة فتزايد عندهم الفرح والسرور ،
واستبشروا بالفرح كما يقال : « مصائب قوم عند
قوم فوائد » .

فاستمر الأمراء وهم لابسون السواد ثلاثة أيام
متوالية وهم يظهرون الحزن على سليم شاه ابن
عثمان ، وكان مونه من الغرائب على حين غفلة ،
ولو عاش وصفا له الوقت ما حصل لأحد منه
خير ، فكفى الله الناس شره .

الملك سليمان بن سليم

هو التاسع من ملوك الترك وأولادهم بالديار الرومية من بنى عثمان ، استولى على الروم بأيدى ستمنطينية العنقلى يوم الأحد تانى عشر شوال سنة ست وعشرين وتمسائة وجلس على سرير الملك بعد وفاة أبيه سليم شاه . وصار متسلطاً على المملكة الرومية والديار المصرية ، وما مع ذلك من ألماتك ، قبل استولى على الملك وله من العمر نحو ثمان وعشرين سنة ، وله أولاد ذكور وإناث ، وقيل عنه انه من ذوى العنقولى ، وفيه أقول :

سرنا لما ولى سلطاننا

ابن عثمان وصارنا فى أمان

وارثاً للملك عن أجداده

فهو فى الملك سليمان الزمان

وأما ترجمته ، فهو سليمان بن سليم شاه الذى أخذ مصر عنوة بالسيف ، ثم والده سليم أبو يزيد . ولد سنة احدى وخمسين وثمانائة ، وولى على مملكة الروم ، وجلس على سرير الملك يوم السبت تاسع عشر ربيع الأول سنة ست وثمانين وثمانائة ، وتوفى سنة ثمانى عشرة وتسعمائة ، وكانت مدة سلطنته ببلاد الروم نحو ثلاث وثلاثين سنة .

ثم والده السلطان محمد وهو أول ملك لقب بالسلطان من ملوك الروم ، ولد سنة خمس وستين وسبعمائة ، وكانت مدة حياته نحو ستين سنة .

ثم والده مراد خان ويدعى غازى أيضا ، ولد سنة عشر وسبعمائة . وكانت مدة سلطنته بمملكة الروم احدى وثلاثين سنة ، وعاش من العمر نحو ثمان وستين سنة .

(١) هذه العبارة من أولها الى آخرها فيها مخالقات كثيرة لا ذكره المؤرخون . فليكن ذلك معلوماً .

ثم والده أبو يزيد المسروق بيلدرم ، ويملك الروم باللغة التركية اسم البرق ، وهو الذى أسره تملك ووضع فى قفص من حديد ، وطاف به فى البلاد بعجب عليه ، وكانت وفاته فى القفص الحديد سنة خمس وثمانمائة ، وكانت مدة مملكته على بلاد الروم تسع سنين أو نحو ذلك .

ثم أبوه أورخان عاش نحو ثمان وستين سنة .

ثم أبوه على أردن ، ثم أبوه عثمان الثانى ، ثم أبوه سليمان ولد فى بلاد الروم ، وكانت مدة استيلائه هو وعثمان الثانى على مملكة الروم من سنة سبع وثمانين وستمائة ، واستمر على ذلك حتى قتل فى الغزاة ببلاد الفرنج ، وخلف ابنه سليمان . فهؤلاء كلهم من نسل عثمان الثانى ، فأطلق عليهم ملوك الروم من بنى عثمان ، وهم تسعة بالعدد .

وأما جددهم الكبير عثمان ، فقال بعض المؤرخين انه ولد سنة ثمان وخمسين وستمائة ، وعاش تسعا وستين سنة ، وأن أصله من عرب الحجاز من وادى الصفراء بالقرب من المدينة النبوية . فلما وقع الغلاء بالمدينة خرج منها عثمان فارا الى بلاد قرمان فنزل هناك ، وكان شجاعاً بطلاً فتزياً بزى أهل قونيا ، وكان ملك الروم يومئذ بيد طائفة يقال لهم السلجوقية ، فصار عثمان فى خدمة الأمير على بن فرمان ، فعظم أمر عثمان عنده ، ومشى على طريقتهم ، وتكلم باللغة التركية ، وصار له أتباع كثيرة وأعوان ، وعدة عساكر نحو عشرين ألفاً . فعند ذلك خرج عن طاعة السلجوقية والقرمانية ، وصار له عدة بلاد افتتحها ، وصار يغزو بلاد الفرنج فى كل سنة ، ويغنم أموالهم ، ففتح عدة حصون تلى خليج القسطنطينية ، ولا زال ملك بنى عثمان يكثر وجنودهم تكثر ، وأظهروا العدل فى الرعية ، وعمروا التكايا والزوايا والخوانق .

وكان عثمان يحب العلماء ويقرب الصالحاء ، وكان طويل القامة أسمر اللون أقنى الأنف . وقيل عاش عثمان هذا نحو سبعين سنة ، ومات شهيدا في بعض غزوات الفرس ، وهو جد بني عثمان قاطبة . قال الشيخ تقي الدين أحمد المقرئ . لم يكن في أبناء عثمان من يلقب بملك ولا بسطان ، بل كانوا اذا كاتبهم أحد من ملوك مصر وعظمتهم يقول لهم الخنكار أو الأمير فلان . وقال المقرئ انهم سبوا الى أبي مسلم الحراساني ، صاحب دعوة خلفاء بني العباس ، الذي تعصب لهم ونزع الخلافة من يد الأموية ، وجعلها الى العباسية . انتهى ما أوردناه من سب ابن عثمان ، وهذا هو النسب الصحيح عنهم ، والله أعلم بحقيقة ذلك

ومن هنا نرجع الى خبر الملك المظفر سليمان بن سليم شاه ابن عثمان ، فالذي أخبر به القوصوني في كتابه ان السلطان سليمان لما جلس على سرير الملك ، أظهر العدل في الرعية ، فأرسل أحضر الخليفة من المكار الذي كان سجنه فيه والده سليم شاه ، فأحضره الى اسطنبول كما كان ، ورتب له في كل يوم ستين درهما .

وأفرج عن علاء الدين ناظر الخاص ، وعن جماعة كثيرة من المباشرين الذين كاد سجنهم والده ، وأفرج عن جماعة من التجار الأعجم الذين كان والده سجنهم وزعم أنهم من عند الصفوي وأخذ منهم حريرا بنحو اثني عشر ألفا ، دينار . فلما آل اليه الملك أفرج عنهم ، وأعاد لهم الحرير الذي كان أخذه والده منهم ورسم لهم بالعود الى بلادهم وذكر عنه أشياء كثيرة من العدل من هذا النمط . وفي يوم الجمعة حادي عشره رسم ملك الأمراء بأن يصلى على السلطان سليم شاه ابن عثمان صلاة الغيبة بجامع القلعة ، وسائر جوامع القاهرة ، وأن يدعى للسلطان سليمان على المنابر ومضى أمر السلطان سليم شاه كأنه لم يكن .

وفي يوم السبت ثاني عشره ، نودي في القاهرة بالزينة ثلاثة أيام متوالية بسبب سلطنة الملك المظفر سليمان ، فزينت مصر والقاهرة زينة حافلة حتى داخل الأسواق وغالب الحارات ، ولا سيما خان الخليلى ، فان تجاره زينوا زينة عظيمة ، وصار الأمير على الكيخية والى القاهرة يطوف في كل يوم عدة مرار ، وقدامه جماعة من الانكشارية ، وهو ينادى بالأمان والاطمئنان والبيع والشراء ، وأن لا أحد يشوش على أحد من الرعية . وصار يأمر بتقوية الزينة ، ويضرب أصحاب الدكاكين بسببها ، وفي ذلك يقول الناصري محمد بن قانصوه ابن صادق .

مذ غدت بعد سليم بعد حزن في تهاني زينب مصر وأضحت لسليمان الزمان ومن الحوادث أن طائفة من الانكشارية قصدوا أن يتهبوا حارة زويلة . وقيل جرت العادة عندهم اذا مات السلطان ينهب العسكر حارة اليهود ، فقصد طائفة الانكشارية أن يفعلوا ذلك فمعهم حير الدين نائب القلعة ، وقرا موسى وفرحات من ذلك ، فعصبوا منهم وبوجهوا الى بركة الحبش على أنهم يدخلون على حميمه ، وينهبون القاهرة عن أحرها ، فترددت الرسل بينهم وبين ملك الأمراء على أنه ينفق على طائفة الانكشارية لكل واحد منهم مائة دينار ، فتراضوا على ذلك ، وعلى أنه لا ينفق على طائفة الاصباهية ولا الكمليية شيئا ، فتقرر الحال على ذلك .

تم في يوم السبت المقدم ذكره أرسل ملك الأمراء الى الأمير فايتباى الدوادار فقطان حريير صارى وشاش خمسينى ، تم ان ملك الأمراء صار بنراضى حواطر المماليك الجراكسة ، فاتفق عليهم جامكية شهرين دفعة واحدة ، وصار القاضى شرف الدين الصغير يأخذ بخواطر المماليك الجراكسة

أيضا ، ويخاطبهم يا أغاوات ، بعد ما كان يقول
يا كلاب يا زرايين . وقد أقامت الممالك الجراكسة
صدورها من حين سمعوا بموت سليم شاه ابن
عثمان .

وفي يوم الاثنين رابع عشره أشيع أن طائفة
الاصباهية وقفوا الى ملك الأمراء ، وقالوا مثل
ما أنفقت على الانكشارية أنفق علينا أيضا ، فقال
لهم الانكشارية ممالك الخنكار وأتم خدامه ،
وما عندي ما أنفقه عليكم ، فنزلوا من عنده على
غير رضا ، وأشيع أنهم يقصدون نهب الزينة ، فبادر
الناس بفك الزينة ، ووقع الاضطراب في ذلك
اليوم .

وفي يوم الثلاثاء خامس عشره ، أنفق ملك
الأمراء على الانكشارية فقط ، فأعطى لكل واحد
منهم أربعين أشرافيا ذهبيا تصرف بثمانين أشرافيا
فضة ، وأعطى الصوباشية أغوات الانكشارية لكل
واحد منهم مائة دينار ، فشق ذلك على الاصباهية
والكلمية ، وأشيع اقامة فتنه

وفي يوم الأربعاء سادس عشره ، حضر قاصد
من عند نائب الشام الأمير جان بردى الغزالي ،
يقال له خشقدم اليحياوى ، وهو أحد الأمراء
العشراوات بدمشق ، وكان أمير جكار عند
قانسوه اليحياوى ، فلما حضر بين يدي
ملك الأمراء دفع اليه مطالعة نائب الشام جان بردى
الغزالي ، ومطالعة الى الأمراء ، فلما قرئت اضطربت
أحواله ، ولم يعلم ما في تلك المطالعات ، فأنزلوا
القاصد في بيت الأمير جانم الحمزاوى ، فأقام عنده
في الترسيم وهو محتفظ به .

ثم أشيع أن ملك الأمراء من حين حضر قاصد
نائب الشام الغزالي وهو منكده ، وشرع في تحصين
قلعة الجبل ، وركب على أيراجها المكاحل ، ووزعت
أعيان الناس أمتعتهم في حواصل ، وتزايد القيل

والقال بين الناس في أمر جان بردى الغزالي نائب
الشام ، وأشيع عصيانه بالشام ، وقد جمع من
العساكر ما لا يحصى .

ثم في يوم الخميس سابع عشره رسم ملك
الأمراء أن طائفة الانكشارية يقيمون في القلعة في
الطابق ولا ينزلون الى المدينة ، وأن طائفة الاصباهية
يسكنون حول القلعة بالقرب من بيت قرا موسى
ف فعلوا ذلك .

وفي يوم الجمعة ثامن عشره خرج قاصد من
عند ملك الأمراء يقال له أمير شيخ ، فأرسل على
يديه مطالعات الى السلطان سليمان بن عثمان
يعززه في والده السلطان سليم شاه ، ويهنيه
باستقراره في الملك عوضا عن أبيه .

ثم أشيع أن ملك الأمراء أرسل قاصد نائب
الشام وهو خشقدم اليحياوى الذي حضر وعلى
يديه المطالعات ، فأرسله الى السلطان سليمان
وصحبه تلك المطالعات الواردة من عند نائب
الشام ، فقيل أرسله في الحديد ، وتوجه أمير
شيخ الى البحر الى ثغر الاسكندرية ، ومن هناك
توجه من البحر المالح الى اسطنبول .

ثم أشيع بعد ذلك أن القاصد قد أغرقوه تحت
الليل ، وكان آخر العهد به والله أعلم بحقيقة الحال .

ومما استفاض بين الناس من أمر واقعة نائب
الشام جان بردى الغزالي ، أنه تسلطن بالشام .

وقبل له العسكر الأرض وخطب باسمه على منابر
دمشق ، وضربت السكة باسمه على الذهب والفضة

فلما تحقق ملك الأمراء ذلك ، أرسل يعلم

السلطان سليمان ابن عثمان بما وقع من نائب

الشام من سلطنته بالشام ، وأرسل اليه المطالعات

التي وردت عليه بما جرى منه ، وصار الأمر

موقوفا على الجواب عن ذلك ، وقد تحقق عصيان

نائب الشام وخروجه عن الطاعة .

شبابك المدرسة الصالحة ، ثم ان العوام أحرقوه
بالتواصى صارت حنته رمادا

ومن الحوادث الغريبة والنوادر العجيبة أنه
أشيع أن بحر النيل زاد في هذه الأيام بعد ما قد
مضى من هاتور نصفه نحو ثلاثة أذرع ، حتى قيل
بشي على علام الوفا ست عشرة أصبعا ، فهد ذلك
من النوادر الغريبة التي لم يقع مثلها فيما مضى من
الزمان ، ولم يحصل بهذه الزيادة نفع للناس . بل
أغرقت الزروع التي زرعت على التطوط ،
والأمتعة ، وهذا من جملة عجائب صنع الله تعالى
فكأن كما يقال في المعنى :

النيل أفرط فيضا فيضه المتتابع
ففسار مساهانا حديثنا بالأصابع

ثم أشيع من بعد ذلك أن النيل قد دخل الى
خليج الزيرية من عند قصر ابن العيني ، فتغير
الناس من ذلك ، تم أشيع أن الماء دخل الى الخليج
الناصرى وفاض حتى دخل الى بركة الرطلى ،
وغرق الزرع الذى كان بها ، فعد ذلك من النوادر
الغريبة .

وأشيع ان جهات المنوية عرق ما كان زرع بها ،
وهى عدة أفدنة كثيرة ، وكذلك غرق غالب البراسيم
التي بالجيزة وما حصل بهذه الزيادة للناس خير .

وهي أفرج ملك الأمراء عن بجم شيخ العابد ،
وخلع عليه وأعادته في مشيخة العابد ، كما كان
أرلا . وخلع على أربعة أنفار من عربان السوام ،
وقرر معهم أن يجمعوا من العريان ما يقدرون
عليه ، بسبب ملاقة نائب الشام جان بردي الغزالي ،
فانه تزايدت الأخبار بسلطنته بالشام ، وقد تلقب
بالمملك الأشرف صاحب الفتوحات ، وزينت له
دمشق ثلاثة أيام ، وأوقدت له الشموع على

وفي شهر دى العجبة وكان سميته يوم الاثنين
طلع البصاه الأربعة الى القلعة وبصوا ملك الأمراء
بالتنوير ، فلما تكامل المنبسط ، استمر ملك الأمراء
مصحفا تشرينا ووضعه على كرسي ، وبحضرت
الأمراء الجراكية والأمراء العثمانية ، تشهدم الأبير
أرومات التانسان وخطب أنه يكون دعوت طاعة
السلطان سليمان لما كان تحت طاعة والده سليم
شاه ، وأنه لا يحون ولا يهون ولا يخامر عليه .
فحلف على ذلك بجمعة الأربعة ، ثم تقدم
الأمير قايتباي الدوادار فخطب ، بمعنى ما حلف به
الأمير أوزمك التانسان ، ثم سمرت الأمراء
الجراكية يحضر منهم اتان انكاد ويحلفون على
المصحف بمعنى ذلك . ثم قام شخص ينال له
قراجا الطويل ، وقال : يا ملك الأمراء مثلما حلفنا
للأمراء العثمانية بحلفون لنا فم أيضا . فقال ملك
الأمراء : واجب علينا ذلك . فتقدم ملك الأمراء
وحلف على المصحف ، وأوسع في الفوائد الحلف
وأكاد في ذلك . ثم تقدم هرا موسى وحلف على
المصحف ، وكذلك فرحات وحير الدين نائب القلعة
والكيخية الكبير آتات الانكشارية فلما تكامل
الحلف رسم ملك الأمراء أن ضادى في القاهرة
بالعربى والتركى بالأمان والاطمئنان والبيع
والشراء ، وأن التجار تفتح دكاكينها وأن لا أحد
يكثر كلاما ولا يدخل بيتا لا بعينه ، ولا تنقل له
قماش الى داره ، والدعاء بالنصر للسلطان سليمان
ابن عثمان ، فلما نودى بذلك سكن الاضطراب
الذى كان بين الناس قليلا .

وفي ذلك اليوم عرض على ملك الأمراء شخص
من النصارى قيل عنه انه وقع في حق النبي صلى
الله عليه وسلم بكلام فاحش ، وشهد عليه بذلك ،
فحكيم القاضى الحنفى بمثله ، فضرب عنقه تحت

في جنازته قضاة القضاة وأعيان الناس ، وصلوا عليه في سبيل المؤمنين ، ونزل ملك الأمراء وصلى عليه ، وحمل بعشه من سبيل المؤمنين أول ما طلغوا وكانت جنازته حافلة ، فلما صلوا عليه توجهوا به انى مقام الامام الشافعى رحمة الله عليه ، ودفن عند الشيخ محمد الخبشاني تجاه قبر الامام الشافعى رضى الله عنه ، فكان أحق بقول القائل حيث قال :

لقد عظمت رزيتنا فنبه
لها عمرا وبم جناح الليالى
فلا زالت ذوو الأقدار تلقى
من الأيام أنواع النكال
وكم جنت المنون على رجال
وجندلت الحكمة بلا قتال
ودائى ليس بشفيه دواء
وجرحى لا شول الى اندمال
به الأيام قد كانت قصارا
فويلى من لياليها الطوال
وكان ذخيرى فيها وكنزى
وكان هدايتى عند الضلال
لقد درست دروس العلم حزنا
وقد صل الجواب عن السؤال
ودق الناس أبواب الفتاوى
وقد وصلوا الى باب الصيال
بكلك العلم حنى النحو أضحى
مع التصريف بعدك فى جدال
بكت أوراقه بيض المواصي
دما ويراعه سمر العوالى
وعين دواته عمشت وآلت
يمينا لا تداوى باكتحال

الدكاكين ، وقبل له الأمراء الأرض . وقد جمع العسكر الكثير وهو حاصد نجر الدبار المصرية . وفى يوم الاربعاء ثالث تسير سى الصججه بوى الامام العام العامل شيخ الاسلام والمسلمين ، مفتى الأنام فى العالمين ، ببيبة السلف ، وعمدة الخلف ، عالم الوجود على الاطلاق ، ومن ذكره قد شاع فى الأناق . فهو آخر علماء الشافعية بالديار المصرية ، وانتبت اليه رياسة الشافعية ، فهو شيخ الاسلام زين الدين زكريا بن محمد ابن محمد الأنصارى السنيكى الشافعى رحمة الله عليه .

كان مولده فى سنة أربع وعشرين وثمانمائة ، ومات وله من العمر مائة سنة وستنان بعدها . وكان رئيسا حثما فى سعة سن المال ، وولى قضاء الشافعية فى دولة الأشرف قايتباى ، وأقام بها نحو عشرين سنة ، ومات وهو معزول من القضاء ، وقد كف بصره قبل وفاته بمدة طويلة .

وحضر مبايعة خمسة من السلاطين ، وهم الناصر محمد بن قايتباى ، وخاله الظاهر قابصوه ، والأشرف جان بلاط ، والعاذل طومان باى ، والأشرف الغورى .

وولى تدريس قبة الامام الشافعى رحمة الله عليه ، وولى فى أواخر عمره مشيحه مدرسه الجمالية ، وكان يده غدة تداريس ، وألف الكتب الجليله فى العلوم المفيدة ، وأفتى ودرس بالقاهرة نحو ثمانين سنة ، وانتفع منه غالب الناس وخلف ولدا ذكرا من جارية سوداء .

فلما بلغ ملك الأمراء وفاته أرسل اليه ثوبا بعلبكييا وخمسين دينارا على يد الأمير جام الحزراوى ، وحضر غسله وتكفينه والصلاة عليه ، وأخرجت جنازته من عند المدرسه السابقيه ، ومشى

تنكرت المعارف في عياني

وتميزى غدا في سوء حال

وما عوضت من بدل وعطف

سوى توكيد سقمى واعتلالى

فيا قبرا ثوى فيه تهى

فقد حزت الجميل مع الجمال

سقاها الله عينا سلسيلا

وأسبغ ما عليه من الظلال

وبوآه من الفردوس فضلا

ورقاه الى الغرف العوالى

وفى يوم الأربعاء المقدم ذكره ، توفى الشيخ
شمس الدين محمد البساطى ، الشاهد الذى قطع
ملك الأمراء يده ، فراح ظلما بلا ذنب أوجب ذلك
وأشيع أن ملك الأمراء أرسل اليه مائة دينار على
أنه يحالله على ما وقع منه ، فأبى من أخذ المائة
دينار ، وقال حتى أقف أنا وإياه بين يدي الله
تعالى . وقيل أن يده التى قطعت استمرت عنده
الى أن مات فدفنت معه فمات شهيدا

وفى يوم الثلاثاء تاسع ذى الحجة ، قدمت على
ملك الأمراء أخبار رديئة بأن العربان نزلوا على
قطيا ونهبوا ما فيها ، واستمر النهب عمالا من قطيا
الى الخطارة ، وطفشت العربان فى الشرقية ،
واضطربت أحوالها ، وأشيع أن شيخ العرب أحمد
ابن بقر أرسل حريمه وأدخلهم الى القاهرة ، ووزع
أمواله وقماشه ومواشيه خوفا من النهب فى البلاد .

وقد وردت عليه أخبار غير صالحة ، وصار
القييل والقال فى كل يوم عمالا بين الناس ، والأخبار
الكذب أكثر من الصدق .

وفى يوم الأربعاء عاشره كان عيد النحر ، فوقع
فى هذا العيد أمور غريبة بسبب الأضحية ، فبلغ

سعر كل بقرة فوق الثلاثين دينارا ، وشيء منها
يبيع بأربعين دينارا ، ولم يسمع بمثل ذلك فيما يمدم
من الزمان ، ويبيع الخروف الكبير بعشر أشرفيات ،
وشيء بائنتى عشرة أشرفية ، وشيء بائنتى عشر ، فعد
ذلك من النوادر الغريبة ، وسبب هذا أن الأشرفى
الذهب العثمانى صار يصرف بخمسين نصفا من
الفضة ، وأما المعاملة من الفضة فان غالبها نحاس ،
وأكثرها غش ، فوقف حال الناس بسبب ذلك ،
وصار الشيء يباع بمثلين ، وصار كل من البضائع
وغيرها يباع بأعلى الأثمان ، وموجب ذلك قلة البهر
والأغنام فى هذه الأيام ، وصارت الأبقار تجلب الى
دمشق وتباع هناك بأعلى الأثمان ، فان الأبقار التى
بدمشق دخل فيها الفناء وقل نسلها هناك جدا .

وفى يوم الاثنين خامس عشره خرج الأمير ناصر
الدين محمد الجلبى المهندار ، وتوجه الى نحو
نهر الاسكندرية بسبب تفقد الأبراج التى هناك
خوفا من الفرنج أن يطرقوا الثغر على حين غفلة .
وقد تزايد عبث الفرنج فى البحر المالح ، وقد
طمعوا فى أخذ البلاد من حين مات السلطان سليم
شاه ابن عثمان .

وفيه أشيع أنه حضر ساع من البلاد الشاميه
وعلى يده مطالعة الى ملك الأمراء ، فقال له ان
كان معك مطالعات الأمراء فأظهرها علينا ، فأنكر
الساعى ذلك ، فحنق منه ملك الأمراء وضربه ضربا
مبرحا وسجنه وهو لم يقر بشيء من المطالعات .

وفى يوم الجمعة تاسع عشره أشيع أن أمير شيخ —
الذى أرسله ملك الأمراء الى السلطان سليمان
ابن عثمان يهنيه بالملك ويعزيه فى أيه السلطان
سليم شاه — قد رجع الى نهر الاسكندرية وأنه
وجد البحر المالح قد امتلأ بمراكب الفرنج ، فلم

رسم للأمير قايتباي الدوادار بأن يدعو حان قلج عنده في الترسيم حتى يعرضه عليه ، ويحقق ما قاله عنه فاستمر في الترسيم عند الأمير قايتباي .

وفيه أشيع أن ملك الأمراء ملأ الصهاريج الكبار التي بباب السلسلة ، وملأ عدة صهاريج بقلعة الجبل ، وأخذ في تحصين القلعة بكل ما يمكن ، وطلع إلى القلعة بأعمال بقسماط وأرز وقمح وشعير ودقيق وغير ذلك ، وأرسل طالب من ابن قريسيط المتحدث على شبري خمسين ثورا من الثيران الكبار بسبب سحب المكاحل التي على العجل والعربات .

وأشيع أن ملك الأمراء طلب شيخ المغاربة وقال له أحضر لي ألفي مغربي من شجعان المغاربة ، وهذه الواقعة تقرب من واقعة السلطان جاز بلال لما تسلطن العادل طومان باي بالشام . ودخل هو وقصروه نائب الشام إلى القاهرة — وقد تقدم ذلك — وكان الأشرف جان بلال حصن القلعة أعظم من هذا التحصين ، ولم يمهده منه شيء وانكسر ، وأخذت منه قلعة الجبل في خمسة أيام ، ثم قبض عليه ونفى إلى نجر الاسكندرية .

وفي يوم الثلاثاء ثالث عشره ، بودى في القاهرة بأن أولاد الناس ومن بمصر من الأروام يطلعون إلى القلعة للعرض بين يدي ملك الأمراء ، فصار جماعة من خان الخليلي من الطبائخين ، ومن يعمل السراميج ، ومن يعمل السنوسك ، يطلعون إلى القلعة ويكتبون أسماءهم في الديوان ، ويسون أنفسهم الكملية ويتزيون بزيتهم ، وصار العسكر ملفقا من سائر الطوائف والأجناس ففي سبيل الله خيار السبيل .

ثم إن طائفة الإصباهية والكملية تغلبوا على ملك الأمراء ، وقالوا : نحن ما نخرج إلى قتال نائب

يستدفع التوجه منه إلى استنبول ، ورجع إلى نجر الاسكندرية ، وأرسل يعلم ملك الأمراء بما وقع له .

وفي يوم الأحد حادي عشره نزل ملك الأمراء إلى الميدان الذي تحت القلعة ، وعرض سنيجه وعرض العربات وهي العجلات التي صنعها ، وفرق على المساليك سلاحا ورماحا وغير ذلك ، ورسم لهم بأن يعملوا برقتهم بسبب ملاقاته نائب الشام الأمير جان بودى الغزالي ، ورسم للعسكر العشاني أن يعملوا برقتهم أيضا .

وفي يوم الاثنين ثاني عشره رسم ملك الأمراء للمساليك الجراكسة بأن يعملوا برقتهم أيضا ، ويجهزوا أمورهم بسبب السفر ، فتوجهوا إلى سوق القبو وجامع قوصون ، واشتروا ما يحتاجون إليه بسبب السفر .

وأشيع أن ملك الأمراء أمر طائفة الإصباهية والكملية بأن يخرجوا إلى الصالحية ، وقيموا بها إلى أن يخرج العسكر ، فامتنعوا من ذلك وقالوا نحن لا نخرج إلا في ركاب ملك الأمراء إذا خرج وإن لم يخرج ما نخرج . فوقع الخلاف بينهما في هذا الأمر ، وكثر القتال والقتيل بين الناس ، وأن ملك الأمراء أئنفق على الانكشارية وأعوانهم ، ولم يتفق على الإصباهية ولا على الكملية شيئا فاحتقوا منه .

وفيه أشيع أن اليهود حولوا جميع قماشهم من حارة زويلة وبنوا على أزقتها خوفا قصارا ، وقد أخذوا حذرهم من النهب ، وكذلك اعيان المباشرين ، وأن شحوا من الأمراء العشراوات يقال له جان قلج — وهو الذي كان نائب قطيا — حضر في مجلس لهو ، فلما سكر نقل عن ملك الأمراء كلاما لم يقله ، فلما بلغ ملك الأمراء ما قاله جان قلج ،

الشام الا بمرسوم من عند السلطان سليمان ابن عثمان ، ونحن ما علينا الا حفظ. درك القاعة والمدينة ، فان دخل الينا نائب الشام حاربناه فوقع الخلف بين العسكر العثماني وبين ملك الأمرء بسبب ذلك .

وكان من حين تولي السلطان سليمان مملكة الروم لم يرسل الى ملك الأمرء خلعة الاستمرار ، فطمع فيه كل أحد بسبب ذلك ، وصارت الأخبار في كل يوم ترد على ملك الأمرء بأن جان بردى الغزالي نائب الشام قد زحف وخرج من الشام في عسكر كثيف ، وقصد نحو الديار المصرية ، ومعه طائفة كثيرة من الأكراد ومن عربان جبل نابلس ، ومن عربان بنى عطاء ، وبنى عطية ، وغير ذلك من طوائف العربان ، وغيرهم من عساكر دمشق .

وفيه قدمت الأخبار بأن عربان بنى عطاء وبنى عطية اتفقوا مع عربان طائفة السواهم وكسروا طراباي بن قراجا شيخ عربان جبل نابلس ، وكان ملك الأمرء خلع عليه وعلى جماعة من مشايخ عربان جبل نابلس ، وأنعم عليهم بمال له صورة على أنهم بلاقون جان بردى الغزالي ، ويحاربونه قبل أن يدخل الى القاهرة .

وفيه قدمت الأخبار بأن جماعة من عربان الغربية ثاروا على كاشف الغربية ، فهرب منهم وأرسل يعلم ملك الأمرء بذلك ، ليعين لهم تجريدة .

وفيه حصر شيخ العرب بيبرس بن بفر وقاتل ملك الأمرء ، فخلع عليه ، وكان أشيع عصيانه . وفيه عرض ملك الأمرء من بالسجون فأطلق منهم عشرين انسانا ، وقيل صالح جماعة منهم ممن عليهم الديون وقام بذلك من ماله .

وفيه قبض ملك الأمرء على شخص من الغلمان كان عند جان بردى نائب فطيا الذي تسحب منها ، فلما قبض عليه ومثل بين يديه قال له : أخبرني عن أحوال الغزالي ، كيف تسلطن ، فقال ما عندي منه علم . وكان أشيع عن ذلك الغلام انه أتى من عند الغزالي بطالعات الى الأمرء الذين بالقاهرة ، فلما انكر الغلام ذلك حنق منه ملك الأمرء ، ورسم بتوسيطه فوسطه عند باب السلسلة قريب المغرب ، ومضى أمره .

وفي يوم الخميس خامس عشره ، حضر مبشر الحاج ، وأخبر انه حصل للحجاج مشقة عظيمة بسبب الغلاء في سائر الأصناف والبضائع ، ومات من الحجاج جماعة كثيرة ، وأشيع الثناء الجليل على أمير الحاج جانم الكاشف .

وفيه قدم الخبر بأن نائب الشام جان بردى الغزالي توجه الى حلب بمن معه من العساكر ، وحاصر المدينة أشد المحاصرة ، وقد حاربه أهل حلب ونعصبوا عليه ، ولم يمكنوه من أخذ المدينة .

وقد انفصلت هذه السنة عن الناس وهم في أمر مريب ، من استمرار الغلاء مع فلة الأمن ، والفتن القائمة في البلاد الشامية والحنية ، وكثر القتل والقتل بين الناس بسبب جاذ بردى الغزالي ، فانه أشيع عنه أنه تسلطن بالشام وتلقب بالملك الأشرف .

ومن أعظم حوادث هذه السنة ، موت الخنكار سليم شاه ابن عثمان ، فان موته كان من العجائب والغرائب ... ولا سيما ما جرى منه في حق أهل مصر من الفعائل الشبعة مما تقدم ذكره .

ومن لطائف صنائع الله تعالى أنه لم يقع في هذه السنة طاعون ولا غيره في البلاد الشامية ، ولا أعمال الديار المصرية .

سنة سبع وعشرين وتسعمائة (١٥٢١ م) :

استهل المحرم يوم الأربعاء ، فطلع القضاة الأربعة الى التلعة ، وهنئوا ملك الأمراء بالشهر والعام الجديد ، ثم عادوا الى دورهم .

وفي ذلك اليوم حضر قاصد من عند السلطان سليمان نصره الله تعالى ، وعلى يده مراسيم شريفة ، فكان من مضمونها أن ملك الأمراء خاير بك على عادته في النيابة بالديار المصرية . ثم انه أشيع أن السلطان سليمان أرسل بقول لملك الأمراء : انه عين تجريدة عظيمة الى نائب الشام جان بردى الغزالي ، وأرسل يقول : لا تخرج تجريدة نحن نكتبك أمره .

وفيه قدمت الأخبار بأن چاليش عسكر نائب الشام لما توجه الى حلب ، وحاصر المدنة ، انكسر ذلك الچاليش

ثم أشيع أن عربان الكرك قد استولوا على مدينة الكرك ، ورفعوا بد جماعة نائب الشام ، وقد اتدب الى محاربة جان بردى الغزالي شخص من عربان جبل نابلس يقال له جعيما شيخ عربان الكرك .

وفي رابع الشهر وقعت كائنة عظيمة لشخص من الأتراك يقال له اياس ، قيل انه من مماليك الأمير يشبك الدوادار : رسم ملك الأمراء بتوسطه فوسط في الرميلة وكان سبب ذلك أنه كان في مجلس لهو ، وحصر في ذلك المجلس جماعة من الاصباهية ، فخلط اياس في الكلام مع الأصباهية في ذلك المجلس ، فقال بلغنى عن ملك الأمراء أنه يقصد أن يتسلطن بمصر كما تسلطن الغزالي بالشام . فلما حضر جماعة من الأمراء العثمانية عند

ملك الأمراء ، قالوا له : بلغنا أنك تقصد أن تتسلطن بمصر كما تسلطن الغزالي بالشام . فقال لهم ومن نقل عنى ذلك ، قالوا شخص من الأتراك يقال له اياس ، فأمر باحضاره ، فلما حضر قال له : من قال لك عنى انى أقصد أن أتسلطن ؟ فقال له اياس : أنا سمعت ذلك من العوام ، فقال له ملك الأمراء : أحضر لى من نقل عنى ذلك ، فانعقد لسان اياس وتوهم من ذلك ، واضطربت أحواله ، وصار لا يدري ما يقول ، فأخذ الأمير قايتباى الدوادار يرقع له خلله ، فطفش فيه ملك الأمراء وكاد أن يفتك به .

ثم ان ملك الأمراء رسم للوالى بأن يقبض على اياس المذكور ، فقبض عليه ونزل به من القلعة الى الرميلة ، فوسطه بسوق الخيل ، وراح ظلما من غير دنب يوجب عليه ذلك ، فان أكثر الناس كانوا يحلطون في ذلك من حين أشيع سلطنة جان بردى الغزالي بالشام ، واسمر اياس مرميا فى الرميلة والكلاب تنهش جثته فى الليل ، ورسم أن لا أحد يدفنه . وكان اياس شيحا مسنا ، وله أولاد وعيال ، ولكن اشتد غضب ملك الأمراء عليه فى ذلك اليوم ، فعد ذلك من مساوى ملك الأمراء .

وفى يوم الثلاثاء سابعه وقع من ملك الأمراء ما هو أشنع من ذلك ، وهو أنه رسم بتوسط محمد ابن شمس الدين محمد الفرنوى . وسبب ذلك أن ابن الفرنوى قبض على فلاح وسجنه ، فانه كان مباشر وقف السلطان حسن ، فلما سجن ذلك الفلاح حمل بعض أقارب الفلاح على الفرنوى شخصا من العثمانية ، فكلم الفرنوى فى خلاص ذلك الفلاح ، فلم يوافق ابن الفرنوى على اطلاقه فأغلظ عليه العثماني فى القول وسبه ، فقال ابن

الأمير جانم أمير ركب المحمل ، ودخل قاضي المحمل النسيح أبو الفتح فتح الدين الوناني المالكي ، ودخل سجنه النسيح شرف الدين يحيى ابن البرديني شيوخ الحرم النبوي ، وكان السلطان سليم شاه فرره في مشيخة الحرم النبوي ، فسعوا عليه فعزل واستقر بها الأمير بكباي ، كما تقدم ذكر ذلك . فلما عزل الشرفي يحيى بن البرديني عن مشيخة الحرم ، حضر صحبة الحاج .

وأشيع أن الحجاج قاسى في الرجعة غاية المشقة من الفلاء وموت الجمال ، وتعرضت لهم جماعة من العربان ، فتقاتلوا مع الأمير جانم أمير الحجاج ، فانتصر عليهم وقتل منهم جماعة ، فرجع الحجاج وهم راضون عن أمير الحجاج جانم ، وأثنوا عليه بكل جميل ، وشالوا له الراية البيضاء في بركة الحجاج .



وفي شهر صفر ، وكان مستهله يوم الجمعة ، صعد القضاة الأربعة الى القلعة وهنئوا ملك الأمراء بالشهر ، ثم عادوا الى دورهم ... وفيه جاءت الأخبار بأن الاصباهة والكملة الذين توجهوا الى الصالحية بسبب محاربة العربان ، ظهر منهم غاية الفساد ، وصاروا ينهبون الضياع التي حول بليس والصالحية ، يأخذون ما فيها من الاجاج والأوز والشعير والتبن ، فضح أهل الضياع من ذلك ، فأتى الفلاحون وشكوا الى ملك الأمراء ، أن التركمان بهبوا معهم ، وفسفوا بنسائهم وبناتهم ، فلما بلغ ملك الأمراء ذلك أرسل خلف الاصباهة والكملة فحصروا ابي القاهرة ولم يحصل بهم نفع .

وفيه رسم ملك الامراء بشنق شخص يقال له الحاج ياقوت ، وكان من جملة تجار الوراقين ، وله

الفروى : عن قريب يحضر جان بردي الغزالي نائب الشام وتخرجون على ايشمه . فطلع العثماني وشكا الى ملك الأمراء ما قاله ، فاحضر ابن الفروى وقال له : كيف تقسول عن قريب يحضر الغزالي ويتسلطن بمصر ؟ فأنكر ابن الفروى ذلك ، فأحضر العثماني جماعة ممن كانوا حاضرين فشهدوا على ابن الفروى بأنه قال ذلك ، فحرق منه ملك الأمراء ورسم بتوسيطه فوسط في الرمي له ، وراح ظلما كما وقع لانس . وكان ابن الفروى هدا من أعيان الناس ، أمام الأمير أفيردى الدوادار والأمير يشبك الدوادار .

وفيه صار ملك الأمراء يتصدق على الأطفال بالمكاتب قاطبه لكل طفل أربعة أنصاف ، ففرق مالا له صورة وصارت الأطفال يقرءون له الفاتحة ويهدونها في صحيفة ملك الأمراء . وصار يتصدق على الزوابة والمزارات التي بالقرافة ، ويتصدق على المجاورين بالجامع الأزهر ، فقيل انه صرف من ماله في هذه السنة نحو خمسمائة دينار .

وفيه عزل كاشف الشرفية اناس واستقر عوضه شخص من الأتراك يقال له جاني بك ، وقد تقدم أنه ولى كشف الشرقية قبل ذلك

وفي يوم الخميس ثالث عشره ، طرق ملك الأمراء أخبار رديئة بأن العربان قد زحفوا على فطيا ، وقد وصلوا الى الصالحية ، فتتكد ملك الأمراء لذلك ، وعين لهم تجريدة ، فحرج اليهم طائفة من الاصباهة وطائفة من الكملة ، فتوجهوا اليهم على الفور من يومهم وكثر القتل والقتيل بسبب العربان ، وغيرهم .

وفي يوم الأحد سادس عشرى الحرم ، دخل الحجاج الى القاهرة مع الأمن والسلامة صحبة

شهره ، وهو في سعة من المال فقتل من غير ذنب
بوجب ذلك

وفيه نزل ملك الأمراء من القلعة وتوجه الى
بولاق ، وكشف على المراكب التي عمرها هناك ،
فأنزلوها الى البحر قدامه ، ثم رجح وشق من
القاهرة وارتفعت له الأصوات بالدعاء ، وكان
يوما مشهودا .

وفيه خرج الأمير جان بك آخو الأمير قايتباي
الدوادر ، فتوجه من البحر وسافر نحو البلاد
الشامية ليكشف أخبار نائب الشام جان بردي
الغزالي ، وغير ذلك من الأشغال السلطانية .

وفيه انقطعت الأخبار من البلاد الشامية ،
وامتنعت القوافل والمسافرون من الدرب
السلطاني ، وانكثمت أخبار نائب الشام جان بردي
الغزالي ، واستمر على ذلك ثلاثة أشهر ، وحصل
للناس الضرر الشامل بسبب ذلك ، ومنع القوافل
وجلب البضائع من البلاد الشامية .

واستهل شهر ربيع الأول يوم السبت فطلع
القضاة الأربعة الى القلعة ، وهنئوا ملك الأمراء
بالشهر ، ثم عادوا الى دورهم

وفي يوم الثلاثاء رابعه ، نزل ملك الأمراء من
القلعة وبوجه الى بركة الحبش والبريم ، فأقام
هناك الى ما بعد الظهر ، فأرسل القاضي بركات بن
موسى المحتسب خمسة جمال ، ما بين خرفان
شوى ، وحلوى وفاكهة ، وغير ذلك من مجامع ،
ضمنها مأمونية ، وسنبوسك بسكر ، وغير ذلك
أشياء فاخرة .

ثم ان ملك الأمراء نزل من هناك في الحراقة ،
وتوجه الى الروضة ، وكشف على المراكب التي
عمرها هناك ، ثم شق من البحر وطلع من عند

قصر ابن العيني ، وتوجه من هناك الى القلعة
فانطلقت له النساء بالزغاريت من الطلقان ، وانشرح
في ذلك اليوم الى الغاية

ومن الوقائع اللطيفة ما وقع في يوم الأحد تاسع
الشهر ، وذلك انه وقع بين شخص من أرباب الفن
قال له محمد الأوجاقي ، ويعرف أيضا بالشرابي ،
وشخص يقال له محمد بن سرية ، فوقع بينهما
رهان في فن الموسيقى ، فقال محمد بن سرية : أنا
أعرف قطعة من الفن ما سمعها أحد من أهل مصر
قط . فقال محمد الأوجاقي : ان كان حقا ما تدعيه ،
فنجتمع مشايخ أرباب الفن ، ونجمع مغاني البلد
قاطبة ، ويكون ذلك يوم الأحد في وسط بركة
الرطلي ، وكان ذلك في زمن الربيع فلما كان
يوم الأحد يوم الميعاد ، حضر جماعة من أرباب
الفن ، وحضر مغاني البلد قاطبة ، وآتوا الى بركة
الرطلي ، فجلسوا في وسطها ، واجتمع هناك الجهم
الكثير من المتفرجين ، وكان ذلك اليوم مشهودا ،
فغنى كل واحد من المغنين في ذلك اليوم نوبة من
أحسن ما عنده من الغناء ، وابتهج الناس في ذلك
اليوم غاية المهجة . وأما محمد بن سرية فانه
احتج بأنه ضعيف ، ولم يحضر ، وقال الرهان باق
الى يوم الأحد الثاني فظهر عليه العجز ، ولم يف
بما ادعاه مما تقدم ، فكان كما قيل :

كل من يدعى بما ليس فيه

كذبتة شواهد الامتحان

فانقض ذلك الجسم ، وعند ذلك اليوم من
النوادر في الفرجة والقصف

وفي يوم الاثنين عاشره ، أشيع أن قاصدا حضر
من عند السلطان سليمان ، وعلى يده خلة
الاستمرار الى ملك الأمراء ، فحضر القاصد
وصحبه الأمير شيخ والأمير علي المحضر ،

وفيه قدمت الأخبار من الشام ، بأن السلطان سليمان بن عثمان ، أرسل إلى نائب الشام جان بردى الغزالي بمساكر عظيمة ، وصحبتهم ابن سوار ، فأوقعوا مع الغزالي في ثاني عشرى صفر ، وكان بين الفريقين واقعة مهولة عنى حباب ، فانكسر منهم وهرب إلى حماة ، فتبعوه واقتتلوا معه ، ففر منهم وهرب ، وقصد التوجه إلى الشام ، وقطع قناطر الرستني ، فتبعوه فكان بين الفريقين واقعة عظيمة خارج مدينة دمشق ، فقتل في تلك المعركة نحو عشرة آلاف انسان ، وقيل أكثر من ذلك ، ما بين عربان ومساليك ، وجماعة من عوام الشام ، وفيهم أطفال وصغار من أهل ضياع الشام ، وغير ذلك ممن حضر تلك الواقعة ، فكانت هذه الواقعة تقرب من واقعة تمرلنك لما ملك الشام ، وجرى منه ما جرى من قتل ونهب وسبي وحرق ضياع ، وما أبقوا في ذلك مكاننا ، وليس الخبر كالعيان . والذي قتل تحت أرجل الخيل لا ينحصر ، وآخر الأمر انكسر نائب الشام والغزالي كسرة مهولة ، وقبض عليه وقتل ، وحزت رأسه ، وأرسلت إلى اسطنبول مع رأس جماعة من أصحاب الغزالي ممن كان من عصبته ، ونهب وطاقه وبركه عن آخره ، وكانت من الوقائع العظيمة التي لم يسمع بمثلها .

وكانت مدة ولايته على نيابة الشام ثلاث سنين وأربعة أشهر الا أياما ، وزال كأنه لم يكن . وكان الغزالي عنده رهج وخفة زائدة ، أهوج الطبع ، ليس له رأى سديد ، رهاج في الأمور ليس له تأمل ، وكان ولي نيابة الشام وهو في غاية العظمة والحرمة الوافرة ، والكلمة النافذة ، وقد أصلح الجهات الشامية في أيامه حتى مشى الذئب والشاة سواء ، كما يقال في المعنى :

وبرمسباى استادار الصحبة مملوك ملك الأمراء الذي كان أرسله إلى السلطان سليمان بن عثمان يهنيه بالملك ويعزیه في موت أبيه السلطان سليم شاه ، فلما حضر طلغوا إلى القلعة ، وسعهم مرسوم محتوم من عند السلطان سليمان بن عثمان ، فاجتمع بالقلعة الأمراء العثمانية والأمراء الجراكسة وقرىء عليهم مرسوم السلطان سليمان وهو مكتوب باللغة التركية ، فكان من مضمونه أن السلطان أرسل يقول لملك الأمراء انه فوض إليه نيابة مصر وما معها من الثغور والأعمال ، يعزل من يعزل ، ويولى من يولى ، ولم يرسل إليه خلعة الاستمرار ، فعز ذلك على ملك الأمراء ، وكثر بسبب ذلك القيل والقال بين الناس .

وفي يوم الثلاثاء حادى عشره كان المولد الشريف النبوى بالقلعة على حكم ما ذكرناه في السنة الماضية .

وفي يوم الخميس ثالث عشره بودى في القاهرة عن لسان ملك الأمراء خاير بك بأن من كان له حاجة إلى الشام أو غزة يتوجه إلى هناك ، فان الدرب السلطاني قد انفتح ، وكان الدرب السلطاني له نحو أربعة أشهر لم يسلك ، ولم تجى منه القوافل ، حتى عزت البضائع التي كانت تجلب من هناك ، وذلك بسبب عصيان نائب الشام جان بردى الغزالي .

وأشيع أن جماعة من العربان أوقعوا مع جان بردى الغزالي ، وانكسر منهم وهرب ، فقصد ملك الأمراء أن يعلم الناس بأن الدرب قد انفتح وسلك .

وفيه خلع ملك الأمراء على قرا موسى أحد أمراء ابن عثمان وقرره في نيابة غزة ، فخرج إليها في يوم الخميس وسافر .

يا أيها الملك الذي سطواته

في اليبس بعشي دنيا من شاتها

وما كان باسم النفس عليه الجيم الكثير من
العساكر ما بين سربان جبل نابلس والكرك وغير
ذلك ، والنفس عليه جماعة كثيرة من المماليك
الچراکسة ، وساروا يخرجون من مصر في الحفية
ويتوجهون إليه . والنفس عليه طائفة من الأكراد
والترکمان ، حتى اجتمع عليه اثنا عشر ألف مقاتل ،
وفيهم رماة بالبندق الرصاص نحو خمسمائة رام ،
وفيل أكثر من ذلك ، فعند ذلك حدثته نفسه
بالسلطنة ، وثورته الجهلة فتسلطن وتلقب بالملك
الأشرف ، وقبلوا له الأرض هناك ، وخطب باسمه
على المنابر في جصتين بدمشق ، وكل ذلك عين
الغلط منه ، وكم من عجلة أعنت ندامة ، فكان
كما قيل في المعنى :

والنفس لا تنتهي عن نيل مرتبة

حتى تروم التي من دونها العطب

ولما تحقق ملك الأمراء أن انغزالي قد تسلطن
بالشام ، وقبلوا له الأرض هناك ، اضطربت
أحواله ، وسرت المماليك الجراکسة بذلك ،
واستبشروا بالفرج ، وبأفرحة ما تمت .

وكان أصل جان بردی الغزالي من مماليك
الأشرف قايتباي ، اشتراه وأعتقه ، وأخرج له
خيلا وفماشا ، وصار من جملة المماليك السلطانية .

ثم ان الأمير تعری بردی الأستاذار ، فرره شادا
في ضيعة بالشرقية قال لها منية غزال فنسب اليها ،
وقيل له الغزالي مضافا لاسم تلك الضيعة . ثم ان
الأشرف قايتباي جعله جمدارا وفرره في كشف
الشرقية ، ثم بقى أمير عشرة في أواخر دولة الناصر
محمد بن قايتباي ، ثم بقى محتسب القاهرة في دولة
السلطان الغوري ، ثم قرره في حجويصة الحجاب

بحلب ، فخرج اليها من يومه ، وذلك بعد واقعة
مصر باي لما انكسر . ثم ان الغوري نقله من
حجويصة الحجاب بحلب الى بيابه صفد ، وذلك
في سنة سبع عشرة وتسعمائة . ثم نقله من نيابة
صفد الى نيابة حماه ، الى أن توجه السلطان
الغوري الى حلب ، وانكسر وجرى له ما جرى ،
فرجع الغزالي صحبة العسكر الى مصر ، فوجد
الأشرف طومان باي قد تسلطن عوصا عن
الغوري ، فاستقر بالغزالي نائب الشام وقد تقدم
القول على ذلك .

فلما ملك السلطان سليم شاه ابن عثمان مصر
أقره على عادته في نيابة الشام ، وجعل له التحدث
على الشام وحماه وحمص وصيدا وبيروت وبيت
المقدس والرملة والكرك وغير ذلك من الأعمال
الشامية والطرابلسية ، فلو فنع بذلك لكان خيرا
له ، فكان كما يقال في الامثال السائرة : « من
شرب بكأس الطمع ترقق به » .

وفي يوم الأحد ثالث عشره قدمت الأخبار بأنه
وصل فاصد من عند السلطان سليمان ابن عثمان ،
فلما تحقق ملك الأمراء ذلك ، نزل من القلعة
وتوجه الى تربه العادلي ، وبأت بها لأجل ملاقة
القاصد الذي حضر . وكان ملك الأمراء أرسل
القاضي بركات بن موسى المحتسب الى الحانكاه ،
ليمد له مدة هناك .

فلما كان يوم الاثنين رابع عشره ، نادى ملك
الأمراء في القاهرة بالزينة بسبب دخول القاصد ،
فزينت زينة حافلة ، فلما دخل القاصد لاقاه ملك
الأمراء من هناك ، ودخل هو واتبائه من باب النصر ،
وشق من القاهرة في موكب حافل ، وقدمه
العسكر قاطبة من الجراکسة والعثمانية ، وقدمه
جماعة كثيرة من الانكشارية وهم يرمون بالنفوط
ودخل قدمه عشرة رءوس على رماح ، زعموا انها

رهوس مشايخ عربان ممن كان من عصبة نائب الشام جان بردى الغزالي ، فشق من القاهرة هو والقاصد ، وكان يوما مشهودا

وفي يوم السبت سلخ الشهر قدم قاصد آخر من عند السلطان سليمان ابن عثمان ، وأشيع أنه أتى الى ملك الأمراء بخلعة الاستمرار ، فلما وصل الى تربة العادلي نزل اليه ملك الأمراء ولاقاه من هناك ، فجلس على المصطبة التي هناك ، فألبسه القاصد الخلعة وهي قفطان مخمل أحمر بتناسيح مذهب ، ثم قام من هناك هو والقاصد ودخل من باب النصر ، وشق من القاهرة في موكب حافل أعظم من الموكب المقدم ذكره ، وركب قدامه قضاة القضاة الأربعة ، وهم : كمال الدين الطويل الشافعي ، وعلاء الدين على الطرابلسي الحنفي ، ومجيب الدين يحيى الدميري المالكي ، والشهابي أحمد الفتوحى الحنبلي . وركب قدامه الأمراء الجراكسة قاطبة ، والأمراء العشائية ، ومشت قدامه الانكشارية والكمالية وهم يرمون بالنفوط ، ومشت قدامه طائفة النصارى بالشموع الموقدة ، واصطف الناس له على الدكاكين بسبب الفرجة ، وكانت القاهرة مزينة في قوة الزينة ، وعلقوا له أحمالا وثريات معمرة بالقناديل الموقدة بطول المدينة ، وأوقدوا له الشموع على الدكاكين ، ولا سيما ما فعله تجار الوراقين من الشموع الموكيات الكبار ، وأطلقوا له الجامر بالعود القمارى ، ومرشات الماورد المسك .

ثم ان جماعة من التجار ثروا على رأسه الفضة في عدة أماكن من المدينة ، وارتفعت له الأصوات من الناس بالدعاء ، وانطلقت له النساء بالزغاريت من كل جانب من البيوت والدكاكين ، وفرشت له الشقق الحرير تحت حافر فرسه من عند خان

مسرور ، واستمر في هذا الموكب الحفل ، حتى طلع الى القلعة وعليه خلعة الاستمرار من عند السلطان سليمان بن عثمان ، وهي بتناسيح مذهب على مخمل أحمر ، وكان ذلك اليوم مشهودا في الفرجة والقصف .

فلما طلع الى القلعة ، خلع على الأمير قايتباي الدوادر قفطانا مخملا ، ونزل الى منزله ، ثم نادى للناس بفك الزينة .

وقد آقامت الناس مزينة نحو عشرة أيام ، وتكلف الناس بسبب ذلك كلفة عظيمة ، من وقيد وقناديل ، ومشتري زيت ، وحصل في هذه الزينة من التركمان غاية الفساد من خطف النساء والصبيان المرد ، والتجاهر بالمعاصي ليلا ونهارا ، حتى خرجوا في ذلك عن الحد ، ولا سيما ما كان يفعل في خان الخليلي من الفسق .

وقد ابتهج الناس بهذه الزينة غاية البهجة ، وفي هذه الواقعة يقول صاحبنا الناصري محمد بن قانصوه بن صادق يمدح السلطان سليمان بن سليم شاه بن عثمان عز نصره وأجاد حيث قال :

الحمد لله أضحى الملك مبتسما

من بعد ما كان أبدى وجهه كظما

وكيف لا يك ييدى وجهه كظما

على سليم وقد أضحى يرى ربما

وصار بعد سليم لابنه ، وغدا

من السرور به بالبشر مبتسما

وافتر عن شنب الفتح المبين فم الـ

نصر العزيز له بالسعد فيه لما

قد قطعت رؤوس الأعداء مخزية

وسيفه ملئت منه البطاح دما

وكيف لا وسليمان مدبره
بخاتم الملك منه مذ به اختتما

وصار من كعبه فينا الغلاء رخا
والخوف أمتا بنا والنور زال عمى

والنيل قد زاد في هاتور من فرح
به وروى أراضى مصر بعد ظما

وكان أبطا لتوت بالوفا حزنا

على سليم وما روى البلاد بما

ومصر من فرح في زينة رقصت

لما رأت لرخاها كعبه علما

وأصبحت جنة من سعد خير بك

بعد الجحيم ونادى العدل من ظلما

وكيف لا وهو خير قد أحل بها

لو لم يكن هو خير قط ما حكما

يا أيها الملك المدوح دم فرحا

وانظر لقصد عبيد يشتكى ألما

فأنت بالطب أدري من سواك به

ومن سواك يرى في حكمه حكما

لازلت من ابن قانصوه الوفي ترى

مشنفا بمديح مبدع حكما

والجود كالجود يهيم منك من خلع

نيابة عن سليمان له حكما

وموكب الملك يسيده وأنت بها

كما رأينا بمصر والسرور بما

وأنت في فرج تبدو وفي فرح

والملك مبتسم منه ترى نعمما

وكوكب السعد يسرى في سما شرف

عليك في سائر الأوقات محتكما

وقائلا حامدا مذ صار مبتسما

الحمد لله أضحى الملك مبتسما

وقد مضى هذا الشهر عن الناس على خير ، وكان
كثير الحوادث ، ووقع فيه أمور غريبة ، وأحوال
عجيبة ، ولا سيما ما وقع بالبلاد الشامية من الفتن
العظيمة ، من القتل والنهب وحرق الضياع ، وذهاب
الغلال ، وسبب ذلك عصيان نائب الشام جان بردى
الغزالي ، واطهاره للسلطنة . ووقع مثل ذلك بحماه
وحمص وغير ذلك من البلاد الشامية .

واستهل شهر ربيع الآخر بيوم الأحد ، ففي ذلك
اليوم بلغ ملك الأمراء قدوم قاصد ، وهو الثاني
من عند السلطان سليمان ابن عثمان ، قد وصل
وعلى يده خلعة ثانية لملك الأمراء ، وهذا القاصد
يقال له الأمير على ، فلما تحقق ملك الأمراء
وصوله ، نزل اليه من القلعة ولاقاه من عند تربة
العادلي ، ولبس الخلعة هناك ، ودخل من باب
النصر ، وشق من القاهرة في موكب حافل ،
وصحبه الأمير على الذي حضر ، ولم يكن
صحبه من القضاة سوى قاضي القضاة المالكي
محيى الدين يحيى بن الدميري . وكان هذا الموكب
على حكم الموكب الذي تقدم ذكره .

ومن العجائب أن ملك الأمراء أوكب ثلاثة
مواكب حافلة ، وشق من القاهرة ثلاث مرات ، في
مدة سبعة أيام ، فعد ذلك من النوادر الغريبة .

وفي يوم الاثنين ثنى هذا الشهر ، حرج الأمير
قرا موسى العثماني الذي قرر في نيابة غزة ، فخرج
من بين الترب ، ولم يشق من القاهرة ، وخرج
صحبه الجهم الكثير من الاصباهيه ، ومن التجار
فان الدرب السلطاني كان له مدة طويلة وهو
منقطع من السالك ، من حين جرى من الغزالي
ما جرى ، الى أن أشيع قتله .

وفي يوم الاثنين تاسعه ، كانت وفاة صاحبنا
القاضي محب الدين بن أسيل ، وكان رئيسا حشما

من ذوى البيوت ، وكان قد كف بصره قبل وفاته
بمدة طويلة ، وحصل له شدائد ومحن ، ومات
وهو فى غاية القهر بسبب خروج مشيخة المدرسة
الجمالية عنه الى الشيخ زكريا ، وقد تقدم القول
على ذلك .

وفى يوم الأربعاء حادى عشره ، توجه ملك
الأمرء الى قبة الأمير يشبك الدوادر التى بالمطرية
على سبيل التنزه ، فصنع له المقر الشهابى أحمد بن
الجيغان هناك مدة حافلة ، وكذلك الخواجا هاشم
ناظر المارستان ، وما أبقي فى ذلك ممكنا .

ومن الحوادث الشيعة أن ملك الأمرء فى يوم
السبت رابع عشره ، رسم بقطع ثلاث رءوس من
أعيان المماليك الجراكسة ، فقطع رءوسهم فى ذلك
اليوم تحت شباك الدهيشة ، وأشهر تلك الرءوس
على الرماح ، ثم علقها على باب زويلة ، فمنهم
شخص يسمى مامى الساقى ، وشخص يسمى قان
بك الأشقر ، وهم من مماليك السلطان العورى .

وكان سبب ذلك أن هؤلاء المماليك كانوا
بالقاهرة ، وكان ملك الأمرء يحسن اليهم غاية
الاحسان ، فلما أشيع عن جان بردى الغزالى نائب
الشام أنه تسلطن هناك ، وتلقب بالملك الأشرف ،
تسحب هؤلاء المماليك من مصر ، وتوجهوا الى
الشام ، ودخلوا تحت طاعة النزالى ، فلما أنكر
الغزالى وقتل وجرى له ما جرى ، حصر هؤلاء
المماليك واختفوا فى القاهرة ، فعجز عليهم .

فلما بلغ ملك الأمرء بذلك أرسل الوالى فقبض
عليهم ، وأحضرهم بين يديه ، فلما مثلوا بين يديه ،
وبخهم بالكلام ، فأغلظ عليه فى القول مامى
الساقى ، فحقت منه فرسم بقطع رفاهم بين يديه ،
ورسم للوالى بأن كل من كان عند الغزالى من
المماليك وحضر الى مصر ، يوسطه من غير اذن ، ولو
كان من الأمرء . واشتد نصب ملك الأمرء فى

ذلك اليوم بحيث انه حم جسده فى ذلك اليوم ولزم
الفراس ، وانقطع عن المحاكمات ثلاثة أيام ، وأشيع
أنه قد طلع له تساليك فى مشعره ، واشتد الألم
عليه ، وانقطع عن الخروج ، وصار يتصدق على
الزوايا والمزارات بسال له صورة ، وصار يذبح
الدبائح من الأبقار على ابواب الجوامع الكبار ،
ويتصدق بلحومها على المجاورين بالجوامع
والزوايا .

وفى يوم الثلاثاء سابع عشره ، نهى بالقاهرة عن
لسان ملك الأمرء : « معاشر كافة الناس ، ان كل
من كان عنده مملوك من المماليك الجراكسة ، ممن
كان عند الغزالى نائب الشام ، وأخضاه ولم يقر به ،
يشنق على باب داره من غير معاودة » . وصارت
هذه المناداة تتكرر فى كل يوم ثلاث مرات ، نحو
ثلاثة أيام على لسان أربعة مشاعلية ، اثنان بالتركى
واثنان بالعربى .

وقد اضطرت الأحوال فى هذه الأيام الى الغاية
بسبب جان بردى الغزالى نائب الشام . فمن الناس
من يقول انه باق فى قيد الحياة ، وأن الرأس التى
قطعت غير رأسه ، ومن الناس من يقول انه قتل فى
الواقعة التى كانت على القابون ، وحزت رأسه
وأرسلت الى اسطنبول ، والأصح أنه قتل على
القابون ، وهى ضيعة من الشام . وهذه الواقعة
تقرب من واقعة قانصوه خمسمائة لما شك الناس فى
قتله .

وفى يوم الخميس تاسع عشر ربيع الآخر ، كانت
 وفاة أمير المؤمنين المستمسك بالله يعقوب ، ابن أمير
المؤمنين عبد العزيز المتوكل على الله ، وكان مولده
سنة احدى وخمسين وثمانمائة ، وأمه تسمى آمنة ،
وهى ابنة أمير المؤمنين أبى الربيع سليمان بن محمد
المتوكل على الله فهو هاشمى الأيوين . وكان
رئيسا حشما دينا خيرا صالحا لين الجانب متواضعا ،
ولى الخلافة فى دولة الملك الناصر محمد بن قايتباى

الأشرف ، وأقام فيها إحدى عشرة سنة ونصفاً ،
وبايغ أربعة من السلاطين ثم صرف عن الخلافة في
دولة الأشرف الغوري ، وعهد إلى ولده محمد
المتوكل على الله ، وقاسى شدائد ومحن ، وقد تقدم
ذكر ذلك . وحصل له ضعف في بصره ، وكان لا
يقراً ولا يكتب ، وكان رجلاً مباركاً لم تعهد له
صبوة قط ، ومات وله من العمر نحو ثمانين سنة
أو دون ذلك ، وكان ولده غانماً باسطنبول من حين
نفاه السلطان سليم شاه ابن عثمان ، ولما مات رثاه
الأديب البارع ناصر الدين محمد بن قانصوه بن
صادق بهذه المرتبة فقال :

رشق الموت في مرامي القلوب
من قسى التجوى سهام الكروب
يا لها من سهام كرب عظيم
في مرامي الحشا برمي مصيب
صيرت دورنا خراباً وصرفنا
بعبد عز أذلة للخطوب
يا لها من مدله يعبد عز
صيرتنا من عظمها في لغوب
أين خير الأنام والآل والصح
ب وأين الملوك أهل الحروب
قد قضى الله بالممات عليهم
مثل ما قد قضى على يعقوب
الذى كف عن فسراق مناه
وتلقى البلاء عن أيوب
غاب عنه ابنه سمات بحزن
كسدا.. من يطيق فقد الحبيب ؟
ابن عبد العزيز أعنى أمير ال
مؤمنين النجيب وابن النجيب
صاحب العهد والخلافة والعق
د مع العزل واللوا. والقضيب

قلت صبرا على الذى حل لما
قد أشان في ذا الزمان العجيب
هاشمى أبا وأما وهذا
غاية المجد للحبيب النسيب
الذى كان للأرامل والأيد
تام كفراً وكان مأوى الغريب
يا يتسامى ويا أرامل ضجوا
واهطلوا عينكم بدمع سكوب
واسألوا الله أن يسكنه الفر
دوس فضلاً فالله خير مجيب
والى مصر أن يجيء قريباً
ابنه فى هنا وعيش خصيب
صير الله روح والده فى
خير روح بنشر بشر وطيب
وكذا روح من رثاه بهذا
ان يمت مثله بأوفى نصيب
وكذا قانصوه أبوه امتناناً
منه ما صاح ذو بكاء ونحيب
قائلاً والعيون تجرى عيوناً
رشق الموت فى مرامى القلوب

ولما توفى الخليفة يعقوب لم يستطع ملك الأمراء
أن ينزل من القلعة ويصلى عليه ، فانه كان فى غاية
الضرر من تلك التساليك التى طلعت له فى مشعره ،
فحضر مشهد الخليفة يعقوب قضاة القضاة ، وبعض
الأمراء فصلوا عليه ودفن عند أقاربه بالمشهد
النفيسى رحمة الله عليه ، ودفن يوم الجمعة عشريه .
وتوفى بزدداره الحاج على فى ذلك اليوم ، ودفن
عقبه دفن أستاذه يعقوب .

وفى يوم السبت حادى عشره خرج الأمير قاسم
العثمانى كرك بك الذى حضر صحبة الاصباهيه ،

وأخرجهم من مصر على أقبح وجه ، وسافروا من البحر الى اسطنبول ، وقاسوا شدائد ومحنا وفيه توفي المعلم عبد الرحمن بن طيبله المعامل في الدجاج والأوز ، وكان علامة عصره في هذا الفن ، وكان في سعة من المال لا بأس به ، وله ير ومعروف .

وفي يوم الاثنين ثالث عشره ، كان عيد النصارى وهو أول يوم من الحماسين ، وكان ذلك اليوم رطباً وفي السماء عيم ، وهذا قائل للتيل بأن يكون في تلك السنة عالياً جداً في الزيادة .

وفي يوم الثلاثاء رابع عشره ، حضر أولاً قى من عند السلطان سليمان بن عثمان ، وعلى يده مراسيم تتضمن أن كرك بك قاسم الذي حضر وعلى يده خلعه الاستمرار لملك الأمراء ، يستقر في نيابة حلب ، عوضاً عن كان بها . وقيل ان كرك بك هذا رضع مع السلطان سيم شاه .

وقد صارت النيابات كلها بيد جماعة ابن عثمان ، فكرك هذا قرر في نيابة حلب ، وشخص آخر يقال له اياس في نيابة الشام عوضاً عن الغزالي ، وقرر فرحات بك في نيابة طرابلس ، وفرر قراموسى في نيابة غزة . وقد افتسم العثمانية النيابات التي كانت بيد أعيان المماليك المصرية .

وفيه توفي الشيخ شهاب الدين أحمد بن ثابتة الحنفى ، وكان لا بأس به . ولم يظهر القاضى بدر الدين بن الوقاد ، ولا كريم الدين المجولى ، فلما طال الأمر على الشاويش الذى كان توكل بهما ، تعلق وخرج وسافر من البحر وصحبته كمال الدين بزردار الأمير طراباى ، وكمال الدين العائق مباشر أمير اخور ، والحواجا عمر بن معروز العربى ، وزين العابدين حامل المزرة ، وبدر العادلى ، وحسين ويوسف مناخير ، فخرجوا من القاهرة

فرجع الى اسطنبول وصحبته جماعة من العساكر العثمانية الذين كانوا بصر ، فاخاروا عودهم الى بلادهم باسطنبول هم وهؤلاء الذين حضروا صحبة الخلعة التي جاءت الى ملك الأمراء من عند السلطان سليمان بن عثمان .

وفيه حضر الى الديار المصرية القاضى بدر الدين محمد المسعودى ابن الوقاد ، وكان توجه الى اسطنبول مع جملة من توجه من الأسارى ، فأقام في اسطنبول مدة طويلة الى أن مات السلطان سليم شاه وولى ابنه سليمان ، فاستأذن الوزراء في الحضور الى مصر لتتقد احواله ، ثم يعود الى اسطنبول ، فأذنوا له في ذلك ، فحضر الى مصر وهو في الترسيم بشاويش مرسم عليه ، وحضر صحبته كمال الدين بزردار الأمير طراباى ، وكمال الدين العائق ، وكريم الدين المجولى ، ويوسف مناخير ، وبدر العادلى وهو معتوق الناصرى ، ومحمد بن فارس ، فلما حضروا الى مصر أقاموا بها مدة .

فلما اقتضى الميعاد الذى قرره معهم الشاويش ، استحثهم على الخروج والسفر الى اسطنبول . فلما كانت ليلة الرحيل ، اختفى القاضى بدر الدين بن الوقاد ولم يظهر ، فشق ذلك على الشاويش الذى كان مرسماً عليهم .

وكان ابن الوقاد اختفى باذن ملك الأمراء ، حتى قيل ان ابن الوقاد قدم لملك الأمراء في هذه الحركة ألف دينار في الخفية ، وصار ملك الأمراء يظهر الغيظ على ابن الوقاد ويشدد في طلبه ، ورسم على أصحابه وجيرانه ، وأظهر للشاويش الذى حضر صحبته أنه محث في طلبه والأمر بخلاف ذلك ، ثم ان ذلك الشاويش قبض على كمال الدين بزردار طراباى ، وعلى كمال الدين العائق ، ويوسف مناخير ، وبدر العادلى ، ووضعهم في الحديد

الذي كان قد اعتراه . فلما نزل من القلعة توجه الى بيت الأمير فرحات بك الذي قرر في نيابة طرابلس ، فنزل اليه وودعه ، وأقام عنده الى قرييب الظهر ، ثم عاد الى القلعة وشق من الصليبية وقدامه جماعة من الانكشارية مشاة يرمون بالنفوط ، وقد هناه بالشفاء الأديب البارع محمد بن قانصوه بقوله :

الحمد لله زال الهم والألم
عنا لبرئك والأعدا لها سقم

وقلعة الملك أضحي وجهها طلقا
من بعد ما كان فيه قد بدا الكظم

وأصبحت مصر يعد الحزن في فرح
بكم وأمست يشق البشر تبتسم
وقد غدت بلسان الحال قائلة

الحمد لله زال الهم والألم
وفي يوم الجمعة حادي عشره ، قدم الأمير جاني بك وهو أخو الأمير قايتباي الدوادار ، وقد تقدم القول بأنه توجه الى كشف البلاد الشاميه ، وأرسل ملك الأمراء على يده تقديما حافلة الي الأمير اياس العثماني ، الذي استقر في نيابة الشام عوضا عن جان بردى الغزالي ، فلما قابل ملك الأمراء خلع عليه ، ونزل الى منزله ، وهو في غاية التعظيم .

وفي يوم الجمعة المقدم ذكره ، خرج ملك الأمراء وصلى صلاة الجمعة ، وكان له مده وهو منقطع لم يسئل الجمعة في جامع القلعة . فلما خرج من الصلاة خلع على المزينين والحكماء ، وقيل دخلا على المزينين والحكماء ألف وخمسة دینار ، من نساء ملك الأمراء ، ومن سراريه ، ومن الأمير جانم الحمزاوي ، ومن الأمير برسباي الخازندار والمهندار ، والمباشرين وأرباب الدولة قاطبة ، ومن الأمراء العثمانية وغير ذلك من اعيان الناس .

على آقبح وجه من الشاويش الذي رسم عليهم فوضعهم في الحديد ، وكتف بعضهم بالحبال ، وساقهم مشاة قدامه حتى وصلوا الى بولاق فأزلهم في المراكب ، وسافروا نحو اسطنبول ، وحصل لهم الضرر الشامل من الشاويش . وقد حنق من ابن الوقاد والمجولي ، وحط غبه في هؤلاء ، ولم يتأخر بمصر ممن حضر صحبتته سوى بدر الدين بن الوقاد والمجولي وزين الدين العجسي شفع فيه ملك الأمراء من التوجه الى اسطنبول

وفيه أرسل الأمير على بن عمر شيخ جهات الصعيد ، تقديما حافلة للسلطان سليمان بن عثمان قيل انها قومت بستين ألف دينار ، وكان السلطان سليمان بن عثمان أرسل الي الأمير على بن عمر خلعة الاستمرار على حاله بمشيخة الصعيد ، وقد رأى الأمير على بن عمر في دولة ابن عثمان ما لم يره أحد من أجداده ولا من أقاربه ، من العز والعظمة والمال والجاه .

واستهل شهر جمادى الأولى بيوم الثلاثاء ، فطلع القضاة الأربعة وهنأوا ملك الأمراء بالشهر ، ثم رجعوا الي دورهم . ولما طلغوا الي ملك الأمراء وجدوه بالأشرفية التي بجوار الدهيشة ، فقام اليهم وكان له مدة وهو متوعك في جسده بسبب طلوع التساليك التي في مشمره ، وقد أشرف على الشفاء وبريء من ذلك العارض ، وفي ذلك يقول ابن قانصوه :

الحمد لله ثغور الهنا

سرورنا منها أرتنا شفاه

لما الي نأبنا شاهدت

فابتسمت من فرح عن شفاه

وفي يوم الثلاثاء ثامنه ، ركب ملك الأمراء ، ونزل من القلعة ، وقد شفى من ذلك العارض

وفي يوم السبت ثاني عشره ، خلق ملك الأمراء
عمر الأمير بجانب الحمزاوي ، وخلق الملك الأصغر
جانب كاتمة الفيوم ، ودره في اسمه التاج عار
سادس . وخلق علي الأمير راضل بن الأشم ، فخرج
جناب التسمية . وحرره علي ثالثة في شريخته

وفيه هدمت الأعيان بأن الأمير درخاند الذي
بين في بيابه طرابلس ، لما واصل إلى الصحية ،
وجه العريان هناك مفتتته ، فأرسل يطلبه من ملك
الأمراء فبدا ، فان العريان قد قاروا عليه في
الطريق ، وكادوا يسلبوه ، فأرسل إليه جندساعة
من الكملية والاصباوية بمرقة على الورق ، حتى
أدركوه واستمروا معه إلى طرابلس ، وكانت
العريان في هذه الأيام في غاية الاساءة في السلاد
الشامية ، من عريان في عداة وزنى عطية .

وفي يوم الأحد عشره توفي القاضي بدر الدين
محمد المعروف بابن العيسى فاذل ديوان الأعباس ،
وكان رئيسا حثما حسن السيرة ، وكان لا بأس به .

وفي يوم الخميس رابع عشره ، وقع أن ملك
الأمراء تغير خاطره على شخص من العظام يقال
له متقال ، فقطع أنفه وأذنيه . وروى بنفيه إلى
مكة ، فنزل من القاعة والدم يظفر من أنفه وأذنيه ،
ولم يكن له ذنب كبير يوجب ذلك .

وفيه حضر جماعة كثيرة من اسلمبول من كان
السلطان سليم شاه أسرهم وأبائهم من مصر ،
فلما مات السلطان سليم شاه بن عثمان ، واستقر
سليمان ولده بعده ، رسم بعود الأسرى قاطبة إلى
بلادهم ، ورأف بهم ، وأظهر العدل فيهم . فحضر
منهم جماعة في هذا الشهر ، منهم شهاب الدين
أحمد بن قريبيط ، ومحمي الدين وزين الدين بن
بهاء الدين أحمد كتاب المسالك ، والخواججا أبو
الطيب بن الرئيس يحيى المزين ، وعيسد الحفيظ .

وفي ثلثاء ثلثه بالهرامزة ، وأبو الفضل بن يوكات
البحار في الإطليكي ، وتاج الدين بن إبراهيم
ابن القاضي ، والم ، وبدر الدين دهمه مباشر الأمير
أقر باي ، والنجاد ، والآخر في لم تقصير في
اساؤشم الآن .

وفي يوم الاثنين ثاني عشره ، ظهر كريم الدين
المجبرلي ، وبدر الدين السجودي بن الرقاد ، وقد
تقدم القول في سبب اختتامهما من الشاويش الذي
كان مقرضا عليهما ، وحثيما على الصروج التي
الاسطبول .



وفي شهر جمادى الآخرة ، وكان بمنزله يوم
الأربعاء ، طلع القضاة الأربعة إلى القاعة ، وبعثوا
ملك الأمراء بالثغر ، تم عادوا إلى دورهم .

وفي يوم الخميس ثاني الشهر خرج الأمير جانم
الحمزاوي وقصده اتوجه إلى اسطبول ، وكان
ملك الأمراء عينه إلى السفر إلى السلطان سليمان
بشده ، كما كان يرسله إلى والده سليم شاه ،
وقيل أن هذه القدمة التي أرسلت على يد الأمير
جانم الحمزاوي ، قومت بمائتي ألف دينار أو فوق
ذلك ، فخرج الأمير جانم الحمزاوي في موكب
حافل ، ولم يشق من القاهرة ، بل خرج من التراب .
وكان الأمير جانم الحمزاوي يومئذ من أرباب
العمل والقد بالدبار المصرية ، واجتمعت فيه
الكلمة ، ورأى من السز والظنمة في دولة ملك
الأمراء خاير بك ما لم يره غيره من الأمراء .

وأشيع أن ملك الأمراء رسم لكريم الدين
المجبرلي بأن يسافر إلى اسلمبول صحبة الأمير جانم
الحمزاوي ، وأما القاضي بدر الدين السجودي بن
الوقاد فأشيع أنه قدم لملك الأمراء ألف دينار حتى

آدام بيسر . و كاتب عنه ملك الأمراء بأنه لا يستطيع

سفر الى اسطنبول

وفيه قدم الشيخ شمس الدين نخذ السمديسي

الحمي ، الذي كان ولي فضاء الحنفية في دولة

العورى بحلب . وكان السلطان سليم شاه بن

عثمان لما انكسر العورى ومات بحلب ، وملك سليم

شاه حلب ، فبص على السمديسي وأرسله من هناك

الى اسطنبول ، فأقام بها حتى رسم السلطان سليمان

بعود الأسرى الى بلادهم ، فحضر السمديسي مع

جملة من حضر الى مصر ، وحضر صحبته محب

الدين الحنبلي الذي كان مفيما بالحانقاه

الشيخوية ، وحضر أبو الفوز بن الحمصاني ،

وأفضل الدين موفع السلطان طومان باي ، وحضر

شمس الدين محمد المقسمي أحد نواب الشافعية ،

فحضر هؤلاء كلهم من البحر المالح من دمياط .

وفيه دخل الأمير جانم الحمزاوي من الخانكاه

وسافر .

وفيه حضر من اسطنبول المهتار محمد الخولي

مهتار السلطان العورى ، وحضر من التجار ابن

أبي عوانة البرلسي ، وآخرون

وفيه استقر في نيابة جدة شخصر من تجار الأروام

يقال له عيسى قرا قرر في نيابة جدة عوضا عن

حسين الذي كان بها .

وفي هذا الشهر ظهر شمس الدين محمد بن

ابراهيم الشرايشي الذي كان متحدثا في أوقاف

الزمامية ، وكان له مدة من حين حضر من اسطنبول

في الخفية ، فظهر لما أفرج السلطان سليمان بن

عثمان عن الأسرى الذين كانوا باسطنبول .

وفي يوم الأربعاء خامس عشره ، توفي القاضي

محيى الدين النبراوي أحد نواب الحنابلة ، وكان

عالما فاضلا ، علامة في مذهبه ، مات وله من العمر

مائة سنة وستان بعدها ، وهو آخر نواب الحنابلة

من ولي عن قاضي الفصاة عز الدين العسقلاني ،

وكان لا بأس به .

وفيه توفي التسبح بدر الدين محسد المنوفي ،

صاحب ملك الأمراء ، وكان لا بأس به ، وكان

له فيه اعتقاد عظيم بالصلاح .

وفي توفى الشيخ عبد الصمد حطيب المدرسة

الجيكانية وكان لا بأس به

ومن الحوادث أنه في يوم الجمعة سابع عشره

تارت فتنة عظيمة بين الاصباهية والانكشارية ،

وغلغوا باب القلعة ، ومسعوا القاضي الشافعي أن

يطلع القلعة ويصلى بملك الأمراء صلاة الجمعة

واستمرت هذه الفتنة عمالة بين الفريقين يومين ،

وصارت الانكشارية ينزلون من القلعة مشاة

ويقتتلون مع الاصباهية في الرميعة ، ويطردونهم

الى الصليبة ، فقتل من الاصباهية شحص من

أعيانهم ، فلما تزايد الأمر دخل بينهم أغواتهم

والكيخة الكبير ، فأصلحوا بينهما ، فاصطلحا على

فساد ، وخمدت هذه الفتنة والله الحمد .

وفيه قدمت الأخبار بأن عربان الشرقية قد

خرجوا عن الطاعة ، وأظهروا العصيان ، ونهبوا

الضياع ، فعند ذلك عين ملك الأمراء قايتباي

الدوادر وصحبته جماعة من المماليك الجراكسة ،

بأن يخرجوا الى العربان ويحاربوهم ، فخرج الأمير

قايتباي من بومه على جرائد الخيل ، وتوجه الى

بليس ، وأقام بها .

ثم أشيع أن الأمير قايتباي قد وقع بينه وبين

شيخ العرب بيبرس بن بقر واقعة ، وكبس عليه

نحت الليل ، فهرب منه وأظهر العصيان ، فتوجه الى

نحو الطور وأقام به ، فلما أظهر العصيان بيبرس ابن بمر اضطربت أحوال الشرقية الى الغاية ، حتى أشيع أن ملك الأمراء قصد أن يخرج الى العربان بنفسه ، فان سبع طوائف من العربان كلهم تحالفوا على العصيان ، والخروج عن الطاعة ، منهم بنو عطية ، وبنو عطاء ، وبنو حرام ، وغير ذلك من طوائف العربان المفسدين .

ثم ان ملك الأمراء خلع على الأمير أحمد بن بقر واستقر به في مشيخة الشرقية عوضا عن أبيه بيبرس .

* * *

وفي شهر رجب - وكان مستهله يوم الخميس - اتفق أن ذلك اليوم كان عيد ميكائيل ، ونزلت النقطة بالليل مستهل الشهر ، فتفاعل الناس بأن النيل سيكون في تلك السنة عاليا مباركا ، ففي أوله طلع القضاة الأربعة الى القلعة وهنئوا ملك الأمراء بالشهر ، ثم عادوا الى دورهم ، وفي يوم الأحد رابعه قبض ملك الأمراء على شخص من الاصباهية قتل شخصا من المماليك السلطانية في محل سكر ، فغضب على قتله خير الدين بك نائب القلعة ، فربطوه في ذنب اكديش وهو على ظهره ، ثم سحبوه وطلعوا به الى القلعة ، وشنقوه ومضى أمره .

وفيه نزل ملك الأمراء من القلعة ، وتوجه الى قصر ابن العيني الذي بالمنشية ، وأقام هناك الى قريب الظهر ، ثم عاد الى القلعة ، وكان له مدة لم يتنزه في الروضة ، ولا غيرها من المنتزهات ، وسبب ذلك العارض الذي طلع له ولم يختم الى الآن .

وفيه قدم جماعة من اسطنبول ممن كانوا هناك من أهل مصر ، وأشيع أن السلطان سليمان نادى

في اسطنبول بأن الجماعة الأسرى الذين من أهل مصر يرجعون الى بلادهم ولا يتأخر منهم أحد ، وكل من تأخر منهم شتق ، فلم يتأخر باسطنبول سوى سيدي على بن الملك المؤيد أحمد بن الأشرف اينال ، وابن السلطان الغوري ، والناصري محمد بن خاص بك ، ومن المباشرين محمد بن صلاح الدين بن الجيعان ، وعبد القادر بن الملكى ، وعبد الكريم أخى الشهابى أحمد بن الجيعان ، وآخرين من أعيان الديار المصرية .

فحضر من جملة من حضر من اسطنبول ، القاضي شمس الدين محمد الجلبى أحد نواب الشافعية ، وحضر القاضي شمس الدين محمد الدمياطى أحد نواب الشافعية بالديار المصرية ، وولى أمانة الحكم أيضا .

ومن العجائب أنه لما حضر الى القاهرة ، حصل له توعك في جسده في مدة اقامته في البحر المالح ، فلما وصل الى منزله أقام به ليلة واحدة ومات رحمة الله عليه ، فكان ترابه بمصر . وحضر زين الدين المنوفى الموقع ، وابن عمه أفضل الدين . وحضر نور الدين على بن عبد الغنى مباشر الدشيشة . وحضر عبد العزيز السمسار في البهارة . وحضر عبد العظيم بن أبى غالب المباشر . وحضر القاضي شهاب الدين أحمد بن الهيثمى أحد نواب الحنابلة . وحضر شمس الدين محمد بن عبد العظيم أحد كتاب المماليك . وحضر يحيى بن يحيى مقدم الخاص . وحضر الخواجا أبو بكر الهاشمى . وحضر عبد الباسط بن تقي الدين ناظر الزردخاناة وولده زين الدين . وحضر ابن الطنساوى يحيى مباشر الديوان المفرد . وحضر ابن السيرجى وغير ذلك .

حافلة ، وأقام عنده الى قريب الظهر ، ثم عاد الى القلعة

وفيه قدم الأخبار من دمشق بأن جماعه من عربان دمشق ثاروا على نائب الشام الأمير اياس بك ، فلما خرج اليهم ووقع معهم ، انكسر وجرح ورد الى الشام وهو مكسور من العرب ، وقتل من عساكر الشام ما لا يحصى ، ومن عربان جبل نابلس أيضا ، وكانت فتنة مهولة بدمشق .

وفيه نزل ملك الأمراء من القلعة وتوجه الى تربة العادلي ، ثم دخل من باب النصر وشق من القاهرة في موكب حافل ، والأمير بصوح صحنته ، فلما شق من القاهرة ارتفعت له الأصوات من الناس بالدعاء



وفي شهر شعبان — وكان مستهله يوم الجمعة — طلع القصة الأربعة الى القلعة ، وهنوا ملك الأمراء بالشهر ، ثم عادوا الى منازلهم . وفيه قدمت الأخبار من اسطنبول ، بأن طائفة من طوائف الفرنج يفسال لها انكسر ، قد تحالفوا على قتال السلطان سليمان بن عثمان ، فلما تحقق ذلك جمع العساكر من كبير وصغير ، وخرج من اسطنبول وتوجه الى قتالهم في الجهم الكثير من العساكر والفرسان .

وفيه تغير خاطر ملك الأمراء على شخص من الأتراك يقال له جان قلعج ، فسجنه بالعرقانة وأوعده بالتوسيط ، وكان سبب ذلك أنه كان ساكنا في بيت شخص من أبناء الناس — وهو ابن الأمير شاهين الجمالي الذي كان ناظر الحرم النبوي — فانكسرت عليه أجرة المكان ، فطالبه ابن شاهين ، فلم يعطه شيئا وسبه سبا فاحشا ، فطلع ابن شاهين وشكاه الى ملك الأمراء ، فأرسل خلف

رأسه فدم شخص من الأمراء العثمانية يقال له نسرين بك . فلما بلغ ملك الأمراء قدومه نزل اليه ولأفاده من عند بره العادلي ، ودخل صحبته وشق من المساهرة وهو راكب عن يمينه ، فأنزله في بيت الأمير أزمرد الدوادار ، ورب له في كل يوم ما يكفيه من دجاج وغنم وأوز وسكر ودقيق وغير ذلك ، وأشيع أنه يقسم بمصر عوضا عن محراب الذي فرر في بيابة حماه .

وفي يوم الثلاثاء مات عنده نزل اليه ملك الأمراء وأنعم عليه بحسنة آلاف دينار برسم النفقة على جماعته

وفي يوم الخميس حامس عشره ، طلع ابن أبي الرداد ببشارة الليل المبارك ، فجاءت القاعدة ستة أدرع وثمانية أصابع

وفي يوم الجمعة سادس عشره حضر الأمير قايتباي الدوادار من الشرقية ، وقد تقدم القول على أنه توجه الى الشرقية بسبب العربان وسادهم وعصيان بيبرس بن بقر ، فلما رحلوا الى الطور رجع الأمير قايتباي الدوادار الى القاهرة ، وحضر القاضي بركات بن موسى المحتسب صحبته ، فانه كان توجه الى الشقة أيضا .

وفيه توجه ملك الأمراء الى الجزيرة الوسطى ، وسبب ذلك أن الأمير تم الناظر على وقف الدشيثة كان قد صنع هناك مركبا عظيمة بسبب حمل مغل الدشيثة ، وكان طولها مائة وعشرين ذراعا ، وبها فرن وطاحون وصهريج للماء الحلو ، ومقعد ومبيت واسطبل للحيل ، فعرضها على ملك الأمراء ، ثم فك أخشابها وأرسلها على ظهور الجمال الى الطور ، ومن هناك يرسلها الى البحر المالح . فلما نزل اليه ملك الأمراء مد له مدة

وفي هذا الشهر كانت وفاة الشيخ زين الدين المغربي ، وكان صالحا معتقدا دينا حسيبا ، وله اشتغال بالعلم ، وكان مسميا سمي الامام الشافعي رضى الله عنه ، وكان لا يس به .

وفي يوم الخميس ثامن عشرى هذا الشهر ، قدم شخص من عند السلطان سليمان بن عثمان بنال له محمد بن ادريس ، ويعرف بـ « بنفلس الدختردار » ، وصحبته شخص يقال له الأمير كمال . فلما وصل الى ربة العادلى نزل اليه ملات الأمراء والاقارب من هناك ، ثم دخل شو واباه من باب النعش . ومن من من القاهرة في موكب حافل . فخدمته الانكشارية والكسبية متماة يرمون بالدهوط . فاستمر في ذلك الموكب حتى طلع الى القلعة ، وأنزل الدختردار في بيت الأمير يسبك الدوادار الذي في حدوة البئر ، ومد له هناك مادة حافلة ، وأنزل الأمير كمال في مكان آخر ، وأتبع أن الأمير كمال حضر يروم الحج الى بيت الله الحرام ، والدختردار حضر بسبب ضبط مال الثغور من الجهات المصرية .



وفي شهر رمضان ، وكان مستهله يوم السبت ، وكان الهلال عسر الرؤية على حس درج ، وقيل على أربع درج ، فرآه بعض الناس وثبت عند القاضي زكرياء أحد نواب الشافعية ، وركب القاضي بركات بن موسى من المدرسة المنصورية بعد المغرب ، وقدمه المشاعل والقوانين وشق من القاهرة في موكب حافل على العادة .

وفي يوم السبت مستهل الشهر كان وفاة النيل المبارك ، أوفى الله تعالى الستة عشر ذراعا وست أصابع من الذراع السابع عشر ، ثم فتح السد يوم الأحد ثاني شهر رمضان — الموافق الحادى عشر مسرى — ووقع في دولة الأشرف قايتباى أن السد

جان قلع فلم يطلع في ذلك اليوم ، وأساء على قاصد ملك الأمراء ، فبلغ ملك الأمراء ذلك ثم ان جان قلع بعد ذلك الى ملك الأمراء وهابله ، فقبص عليه وسجنه بالعرقانة ، وكان تقدم له مع ملك الأمراء واقعه مهولة ، فاستمر في نفس ملك الأمراء منه أشياء كمينية ، وكان جاز قلع عنده بادرة وكلامه يابس ، كثير الفجور

ومن الحوادث المهولة أيضا واقعه سيدي عمر بن الملك المنصور عثمان بن الملك الظاهر جقمق ، وذلك أن سيدي عمر كان مزوجا بابنة الأمير جانم الأشرفى الذى كان نائب التمام — وكانت زوجة تراز التمشى — فكان له رزقة وقعهها عليها وبها فلاحون ، فلما تزوج بها سيدي عمر تكلم على جهاتها ، فقيل انه جار على فلاحى تلك الرزقة ولم يشس لهم أمر الشراقى في الحصنة ، فتضرر الفلاحون لذلك ، فوقفوا الى ملك الأمراء وشكوا له من سيدي عمر بأنه قد جار عليهم ، وأخذ منهم أزيد من الخراج عن المقطعين بالناحية . فأرسل اليه ملك الأمراء يقول له انظر في حالهم ولا تجر عليهم ، فقتل سيدي عمر : « وايش كان ملك الأمراء حتى يدخل بينى وبين فلاحينى في شىء ليس له فيه شغل ؟ » فبلغ ملك الأمراء ذلك فتغير خاطره على سيدي عمر ، فأرسل اليه قاصدا فأغلظ عليه في القول ولم يطلع ، فحنق منه ملك الأمراء وأرسل اليه جماعة من الانكشارية فقبضوا عليه غصبا وبهدلوه ، وطلعوا به الى القلعة ، فلما دخلوا الى الحوش قبضوا عليه وأدخلوه العرقانة ، فسجن بها وبات تلك الليلة وأقام بها الى ظهر اليوم الثانى حتى شفع فيه بعض الأمراء ، فمضى الى داره بعد أن قاسى غاية البهدة من الانكشارية ، فما شكر أحد من الناس ملك الأمراء على هذه الفعلة الفاحشة لأنه لا يستحق ذلك كله .

فتح في أول يوم من رمضان ، فلما أوفى النيل نزل ملك الأمراء الى المقياس ، وخلق العمود ، ونزل في الحراقة ، وتوجه الى السد ففتحه على جارى العادة ، وكان ذلك اليوم مشهودا في الفرجة والقصف ، كما يقال في المعنى :

لله يوم الوفا والناس قد جمعوا
كالروض تظفو على نهر أزاره
وللوفاء عمود من أصابعهم
مخلق تملأ الدنيا بشائره

وفي يوم الثلاثاء رابع شهر رمضان ، سعد الدفتردار محمد بن ادريس الى القلعة ، واجتمع الأمراء العثمانية بالقلعة ، وقرىء عليهم مرسوم السلطان سليمان ابن عثمان ، فكان من مضمونه التوصية بالرعية غاية الوصية ، وان ملك الأمراء ينظر في اصلاح المعاملة من الذهب والفضة . فوقع في المجلس بعض تشاجر بين الدفتردار وبين ملك الأمراء بسبب ذلك ، فقال ملك الأمراء : « أنا ما أغير معاملة السلطان سليم شاه ، ولا أخرج عما وقع في أيامه من أن الأشرفي الذهب يصرف في المعاملة بخمسين نصفا على العادة » .

ثم ان ملك الأمراء رسم باحضار التجار ، فلما طلوعوا الى القلعة تكلموا معهم في أمر صرف الأشرفي الذهب الواسع بخمسين نصف فضة ، فتضرروا من ذلك ، وقالوا ما يوافقنا أحد من الناس على ذلك ، وانفض المجلس مانعا من ذلك .

ثم ان القاضي بركات بن موسى المحتسب ، تكلم مع ملك الأمراء بأن يصرف الأشرفي الذهب بخمسة وأربعين نصفا ، وقيل بخمسة وأربعين عثمانيا ، وفي البيع والشراء بخمسة وأربعين نصفا ، فوقع الاتفاق على ذلك ، ونودى في القاهرة بذلك ، فسكن الاضطراب قليلا . ثم ان القاضي بركات جعل

القاضي حمزه العثماني متكلما على دار الضرب . ثم بعد ذلك لم يتم أمر صرف الأشرفي الذهب الواسع بخمسة وأربعين نصفا ، وصار يصرف بأربعين نصفا ، وعز وجود النضة جدا ، وصار الأشرفي الذهب يصرف بشقة زائدة من السوق ، ويعطون فيه النصف فضة والنصف فلوسا جدا ، وحصل للناس الضرر الشامل .

وفيه قدمت الأخبار من اسطنبول بأنه وقع بها طاعون عظيم ، وصار يموت بها كل يوم ما لا يحصى .

وفيه توجه الدفتردار الذي حضر الى ثغر دمياط والبرلس وثر الاسكندرية أيضا بسبب جبي الأموال التي أضيفت الى خزائن الخنكار بالروم ، فخرج الدفتردار وصحبته القاضي حمزة .

وفي أثناء هذا الشهر ، حضر جماعة من اسطنبول مع جملة من حضر منها ، فحضر القاضي علاء الدين ابن الامام ناظر الخاص وأخوه . وحضر القاضي أبو البقاء ناظر الاسطبل وأخوه يحيى . وحضر من نواب القضاة القاضي شمس الدين محمد العبادي أحد نواب الشافعية . وحضر القاضي شمس الدين بن وحيش أحد نواب الشافعية . وحضر القاضي شمس الدين محمد الابشادي أحد نواب المالكية . وحضر بدر الدين بن الرومي . وحضر القاضي ابن عرفات أحد نواب الشافعية . وحضر تقى الدين العريزي الشافعي . وحضر بدر الدين محمد بن حازوقة مباشر الأمير علان الدوادار . وحضر أحمد السكندري الشطرنجي رفيق ابن الورد . وحضر أبو البقاء بن السيرجي . وحضر بدر الدين بن الهيصم وآخرون من المباشرين والقضاة والأعيان لم تحضرني أسماؤهم الآن .

وأشيع أن السلطان سليمان - نصره الله تعالى - أعتق جميع الأسرى الذين كانوا باسطنبول من أهل مصر ، ولم يبق فيها سوى أولاد السلاطين وجماعة من المباشرين ، ومن أولاد البيعان ممن تقدم ذكرهم ، وجماعة من أعيان الديار المصرية ، وأما الأمراء الجراكسة والمماليك الجراكسة الذين كان السلطان سليم شاه نفاهم الى اسطنبول ، فلما ولي ابنه سليمان لم يأمر لهم بالعود الى مصر ، ولم يقبل فيهم شفاعة ، واستمروا في بلاد الروم الى الآن .

وأشيع أن السلطان سليم شاه بن عثمان كان أرسلهم الى مكان يحاصرون فيه الفرنج ، وقد خمدت أخبارهم ، فلما حضر هؤلاء الجماعة من اسطنبول ، أشاعوا أن السلطان سليمان شاه بن عثمان قد خرج الى القتال بسبب الفرنج ، ولم يرد من عنده خبر من حين توجه اليهم

وأخبر الجماعة الذين قدموا من اسطنبول أن القاضي شهاب الدين أحمد ناظر الجيش بن ناظر الخاص يوسف ، حصل له في عقله ذهول ، وحصل له ضيق معيشة ، وصار يشتري عشاءه وغدائه من الطباخ في زبديّة ، ويحملها بنفسه على يده ، وهو لابس كنبك لباد أبيض ، وقاسى شدائد ومحنًا .

وأخبروا عن زين العابدين ابن فاضل القضاة الشافعي كمال الدين الطويل أنه تسحب من اسطنبول ولم يعلم له خبر من حين خرج ، وكانت جماعة من الشاويشبة ينصبون على من هناك من الأسرى من أهل مصر ، ويفولون نحن نساقر بكم من اسطنبول في الخفيه وتتوجه بكم الى مصر ، فيخرجون بهم من اسطنبول ويشتلونهم في الطريق ، ويأخذون ما معهم من مال وفماش ، وقد فعلوا مثل ذلك بكثير من أهل مصر ممن كان باسطنبول ، ولم يعلم لهم خبر الى الآن .

وفي يوم السبت خامس عشر شهر رمضان ، قدمت الملكة خاتون - عمه السلطان سليمان بن عثمان - وولدها مصطفى صاحبها ، وأشيع بها قدمت الى مصر تروم حج بيت الله الحرام ، فأكرمها ملك الأمراء غاية الأكرام ، وأنزلها في مكان منزل على بركة الفيصل ، ورتب لها في كل يوم أسسطة حافلة لها ولجماعتها الذين قدموا معها من بلاد الروم .

وفي يوم الخميس عشريه ، وقع فيه كائنه يتبى ظلام ، وكان يتجر في السكر وله مطبخ يعمل فيه السكر ، فاستمر على ذلك مدة طويلة . ثم انه بعد ذلك انكسر وتجمد عليه جبلة ديون كثيرة ، بحيث أشيع عنه أنه تجمد عليه نحو أربعين ألف دينار ، فلما انكسر طالبه أصحاب الديون ، وكان المال لأقوام من تجار خان الخليلي وغيرهم ، فلما طال الأمر عليهم شكوه الى ملك الأمراء ، فرسم عليه ملك الأمراء مدة طويلة بجماعة من الانكشارية حتى يرضى أصحاب الديون ، فاستمر في الترسيم مدة طويلة ، وكان ملك الأمراء قرر عليه وألزمه بأن يرد لأصحاب الديون في كل شهر خمسة آلاف دينار ، فما قدر على ذلك وعجز عن ايراد ذلك القدر . وكان ملك الأمراء حلف بينا برأس السلطان سليمان ابن عثمان ان لم يرض أصحاب الديون في حقوقها والا يوسطه ، فلما ضاق عليه الأمر خنق نفسه تحت الليل ، وأصبح ميتا . ثم أشيع أن الانكشاري الذي كان مرسما عليه خنقه تحت الليل ، وأخذ ما كان معه من المال الذي كان يورده لأصحاب الديون على أول الشهر ، وأشاع عنه أنه قد خنق نفسه وأصبح ميتا . ومضى أمره الى حال سيئه .

وفي يوم الخميس سابع عشري شهر رمضان ، كان يوم النوروز ، وهو أول يوم من السنة

ودقت له على بابه المبلحاتات والرموز ، وهنوه
بالملاحة

وفي سلخ شهر رمضان حضر الدفتر دار محصه
ابن ادريس الذي كان توجه الي دمياط والبلس
وبقية الثغور ، بسبب جيش الأموال التي أضيفت
الي خزائن مولانا السلطان سليمان ، فلما وصل
الي بولاق نزل اليه ملك الأمراء ولاقاه من هناك ،
وامتسر معه حتى أرسله الي منزله .



وفي شهر شوال كان عيد النضر يوم الاثنين ،
وقد ثبتت رؤية الهلال بعصر ، فان هلال رمضان
ثبت على يد القاضي زكريا أحمد نواب الشافعية ،
وشك الناس في ذلك ، وقالوا ان ذلك اليوم الذي
صاموه كان آخر يوم من شعبان ، فوقع الشك
بسبب ذلك ، ومالقي القاضي زكريا خيرا من
الناس بسبب ان هلال رمضان ثبت عنده وكانت
الميقاتية حكموا بأنه لا يرى في تلك الليلة أبدا .

فلما كان هلال شوال أرسل ملك الأمراء يقول
للقاضي الشافعي ، آتتم أنبتم هلال رمضان على
أربع درج وقد شك الناس في ذلك ، فما تفعلون
في هلال شوال ؟ فأرسل يقول له قاضي القضاة
الشافعي ، هلال رمضان قد ثبت حقا ، وقامت به
البينة وزكيت ، وغدا من شوال محقق .

ثم ان قاضي القضاة الشافعي نادى في القاهرة
أن غدا من شوال ، وهذا ما اتفق قط ان ينادى قبل
رؤية الهلال أن غدا من شوال ، فعند ذلك من
النوادير ، وكان موكب العيد حافلا بالقلعة .

وفيه كان دخول المقر الشهابي أحمد بن الجيعان
على ابنة الأمير خاير بك كاشف الغيبة ، أحد
الأمراء المقدمي الألوفا ، وهي التي كانت زوجة

النبطية ، وهي سنة سبع وثمانين وستمائة قبلية
خارجية ، تفي ذلك اليوم بلغ النيل في الزيادة
سبع عشرة أصبعا من تسعة عشر ذراعا واستمر
عدالا في الزيادة .

وفي يوم السبت تاسع عشر شهر رمضان ،
وقع فيه من المرات كائنة سيدي عمر بن
الملك المنصور عثمان بن الملك الظاهر جقمق —
وذلك أن القول تقدم بما وقع لسيدي عمر مع ملك
الأمراء بسبب أمر الفلاحين ، فاستمر سيدي عمر
يتابع عائلته مع الفلاحين كما تقدم ، فوقعوا وشكوه
الي ملك الأمراء ثانيا ، فتغير خاطره على سيدي عمر
واحتد منه ، فأرسل اليه قتيب الجيش ، فقال له
رسم ملك الأمراء بأن تترجم في هذه الساعة وتتوجه
الي دمياط ، فاستمر عنده حتى كتب وصيته ، وقام
وركب من وقته وتوجه الي بولاق ، ونزل في مركب
وسارت به الي نهر دمياط ، فهذا كله بسبب
الفلاحين من صلابة سيدي عمر وقوة رأسه ، وفلة
درايته ، حتى اتسعت هذه الحادثة بينه وبين ملك
الأمراء على هذا الأمر الفشروي الذي لم يستحق
هذا كله ، ووقعت له هاتان الكائنتان في شهر واحد ،
فشق ذلك على ملك الأمراء وعلى الناس قاطبة
فوقع له البهيلة من ملك الأمراء مرتين ، الأولى
بسجنه في العرقانة ، والثانية بنفيه الي دمياط ،
وركوبه على بغلة وهو متوجه الي بولاق ، فلما
جرى ذلك توجه عيال سيدي عمر الي بيت الملكة
خاتون عمه السلطان سليمان بن عثمان ، وتراموا
عليها في أن تشفع عند ملك الأمراء في عود سيدي
عمر من النفي ، فأرسلت الي ملك الأمراء ولدها
مصطفى بك ، فشفع عنده في سيدي عمر بأن يعود
الي داره ، فقبل شفاعة الملكة خاتون ، ورسم
بعود سيدي عمر الي منزله ، فعاد بعد ما سار في
البحر يوما وليلة ، فلما عاد تخلقت عياله بالزعفران

الأمير تانفي بك الخازندار أحد الأمراء المتقدمين ،
وكانت غير معمودة السيرة في أفعالها

وفيل ذلك بمدة يسيرة تزوج القاضي أبو بكر
ابن الملكى بإبنة الأمير قانصوه المعروف بأبي سنة
أحد الأمراء المتقدمين ، ولا ينكر ذلك عليهم في
هذا الزمان .

وفيه قدمت الأخبار بأن السلطان سايمان
ابن عثمان لما توجه الى قتال الفرنج أوقع محهم ،
وكان بينهم واقعة مهولة ، وقتل من عسكره
مالا يحصى عدده ، وقتل في معركته الأمير قانصوه
العادلى ، الذى كان توجه الى اسطنبول . وقد
انتصر السلطان سليمان على الفرنج نصره
عظيمة ، ثم خمدت هذه الاشاعة من بعد ذلك ،
وكرر القال والقال بين الناس بسبب ذلك .

وفي يوم الخميس ثامن عشره ، خرج المحمل
من القاهرة في تجمل زائد ، وكان أمير ركب المحمل
الأمير جانم كاشف القيوم على العادة ، وخرجت
صحبته الملكة خاتون عمه السلطان سليمان وولدها
مستطفى بك ، فطلب الأمير جانم طلبا حاقلا ، وكان
به ست عجالات تسحبها الأكاديش ، وعليها عدة
مكاحل نحاس ومدافع حجر ، بسبب قتال العربان
الذين في طريق الحجاز ، فانه كان في السنة الماضية
في غاية الاضطراب بسبب فساد العربان .

وفي يوم الأربعاء رابع عشره ، نودى في القاهرة
عن لسان ملك الأمراء ، بأنه لا مملوك ولا عثمانى
يلبس زنطا أحمر . ولا أولاد الناس أيضا ، ومن
ليس زنطا بعد المناداة شتق من غير معاودة في ذلك .
ثم أشيع أن ملك الأمراء رأى عبيدا وغلما نا

بجمقدارية ، وهم بزنوط حمر ، فقتل امضوا بهم
الى بيت الوالى يسئفهم ، فشتق بينهم بعض
الأمراء .

ثم أشيع أن ملك الأمراء رسم للأمرء الجراكسة
بأنهم لا يلبسون سرموجة تركية ، ولا يلبعون بها
الى القاعة ، وهذا كانه عين المتت للجرأكسة وبغضا
فهم قاطبة .

وفي يوم السبت سابع عشره ، الموافق لأول يوم
من يابه من الشهور التبطينية ، ثبت النبل المبارك
على ثلاث وعشرين أصبعا من عشرين ذراعا ، فكان
منتهى الزيادة عشرين ذراعا الا أصبعا واحدة ،
وكان نيلا عظيما الى الغاية ، والناس مدد طويلة
ما رأوا نيلا مثل هذا ، ففتكت الناس في الفرجة
والقصف ، وسكن غالب بيوت الجسر ، بعد ما كان
آل الى الخراب وتهدمت بيوته ، وكاد أن يبنى
مثل الجزيرة الوسطى في خرابها .

وفي شهر ذى القعدة ، وكان مستهله يوم
الأربعاء ، طلع القضاة الأربعة الى القلعة ، وهنثوا
ملك الأمراء بالشهر ، ثم عادوا الى دورهم .

وفي يوم الجمعة ثالثه ، نودى في القاهرة عن
لسان ملك الأمراء بأن لا أمير من الجراكسة ، ولا
خاصكيا ، يركب وخلفه بغل وعليه غلام راكب ،
يل يمشى على طريقة العشانية في أفعالهم ، يأخذ
الغلام الغاشية على كتفه ويمشى قدامه .

وفي يوم الأربعاء ثامن الشهر ، أنفق ملك الأمراء
الجامكية على المماليك الجراكسة بعد ما عوق
جوامكهم وعليقهم ستة أشهر حتى عابنوا الموت
من ضيق الحال ، فصرف لهم ثلاثة أشهر ، وآخر

بلغ خراج مصر في زمن القبط عند تلاشي أحوال مصر مائة ألف ألف دينار وثمانين ألف ألف دينار وكان جملة خراجها في زمن الفراعنة ، ألف ألف دينار بالدينار الفرعوبى ، وهو ثلاثة مثاقيل من مثاقيلنا الآن ، وكان مساحة أراضى مصر في زمن الفراعنة مائة ألف ألف فدان وثمانين ألف ألف فدان تزرع غير البور

وجبى خراج مصر في زمن عمرو بن العاص ، على عبد الله بن أبى سرح ، في صدر الاسلام ، اثني عشر ألف ألف دينار ، غير الدنانير المتعامل بها الآن .

وجبى خراج مصر في أيام الأمير أحمد بن طولون . مع وجود الرخاء ، أربعة آلاف ألف ألف دينار وثلثمائة ألف دينار ، غير ما يتحصل من المكوس والغلال .

وجبى خراج مصر في أيام الأخشيديّة ، فكان ألقى ألف ألف دينار غير دنانير الآن

وجبى خراج مصر في أيام الملك الظاهر بيبرس البندقدارى ، فكان اثني عشر ألف ألف دينار ، مع تلاشي أحوال مصر وانحطاط خراجها الى ذلك . وكان موجب انشحات الديوان في أيام ملك الأمراء خيربك أن الاصباهية والانكشارية والكملية لما استقروا بمصر ، رتب ملك الأمراء جوامك في كل شهر ، فكان يعطى جماعة من الاصباهية في كل شهر ستين ديناراً ، وجماعة منهم خمسين ديناراً . وجماعة منهم أربعين ديناراً ، وجماعة منهم ثلاثين ديناراً ، وباقيهم عشرين . وأما الانكشارية فكان الغالب فيهم من كانت جامكيتته كل شهر خمسة عشر ديناراً ، وباقيهم اثني عشر ديناراً ، وأما الصوباشية فلهم في كل شهر ثلاثون ديناراً لكل واحد . وأما الكملية فكان الغالب فيهم من كانت جامكيتته في كل شهر اثني عشر ديناراً ،

لم يثلاثة أشهر ، ولم يصرف لهم العليق . فقبض ذلك اليوم كل مسلوك من الجراكسة أحد عشر شهراً ذهباً وثمانية أنصاف من الذهب العثماني ، فأدبروا عليهم كل أشرفى ذهب بأشرفيين فضة ، فحسروا في صرف كل أشرفى عشرة أنصاف فضة ، فكانت خسارهم في العشرين أشرفياً خمسة أشرفيات ويسمى فضة ، فحصل لهم الضرر الشامل بسبب ذلك بعد صبرهم ستة أشهر ، وآخر العليق عنهم . وأنسج ان الديوان مشحوت غاية الانشحات ، وان ملك الأمراء عليه ستون ألف دينار ، والمباشرون استخرجوا من البلاد القسط الأول ، أربعة أشهر معجزاً من مغل سنة سبع وعشرين وتسعمائة قبطية خراجية قبل أن يفي النيل ويزرع الفلاحون وتروى الاراضى ، فحصل للفلاحين عابة الضرر من ذلك ، ورحل بعض فلاحين بسبب ذلك الظلم والجور وقد انحط سعر الغلال عما كان أولاً من الارتفاع . وكان سبب انشحات الديوان أن المال الذى يجيء صار ينقسم على سبع طوائف من العسكر ، وهم المماليك الجراكسة وأمراؤهم الذين تأخروا بمصر ، ثم الاصباهية وأمراؤهم الذين تأخروا بمصر ، ثم الصوباشية ، والانكشارية ، والكملية ، ثم مماليك ملك الأمراء ، وذلك خارج عن كلفة من يرد من المملكة الرومية من القصاد والمترددين من اسطنبول وغيرها ، فكان ملك الأمراء ينعم عليهم بالعطايا الجزيلة .

وقد بلغنى ممن أثق به أنه كان متحصل خراج مصر في دولة ابن عثمان لما ملكوها ألف ألف دينار وثلثمائة ألف دينار ، ومن المغل ستمائة ألف أردب منها ثلثمائة ألف أردب قمح وثلثمائة ألف أردب شعير وفول وغير ذلك ، وأين هذا القدر مما كان عليه خراج مصر في الزمن القديم .

نقل الشيخ تقي الدين المقرئ في الخطط : قد

وجماعة عشرة دنانير ، وجماعة منهم ثمانية دنانير ، وهذا كله خارج عن جوامك ممالك ملك الأمراء .
وأما الممالك الجراكسة فان ملك الأمراء رتب لكل واحد منهم في كل شهر سبعة دنانير في نظير الجامكية واللحم ، وذلك خارج عما رتب للأمراء الجراكسة القاطنين بمصر . وذلك خارج عن انعام ملك الأمراء للمتردددين من المملكة الرومية وغيرها ، حتى قيل : كان يصرف ملك الأمراء على ما ذكرناه في كل سنة نحو ألف ألف دينار وستمائة ألف دينار . فبواسطة ذلك كله ضاق الحال عن صرف الجوامك في كل شهر .

وأما المال الذي كان يرد من ثغر الاسكندرية ودمياط والبرلس وجدة وغير ذلك من الثغور ، فانه كان يحمل الى خزائن السلطان سليم شاه وولده السلطان سليمان نصره الله ، فلا يتعرض ملك الأمراء لشيء من ذلك . وما كان يستخرج غير خراج الشرقية والغربية والبحيرة وجهات الصعيد فقط لا غير .

فان قال قائل ان السلطان الغوري كان يسد أمر الجوامك في كل شهر ، وكان العسكر أكثر من ذلك ، والأمراء أربعة وعشرون مقدم ألف ، غير الأمراء الطبلخانات والعشراوات والخاصكية فوق الألف خاصكى ، أقول ان السلطان الغوري ، كان يستعين على ذلك بكثرة المصادرات للمباشرين وأعيان التجار . وغير ذلك من مساتير الناس ، وكان يرد عليه أموال الثغور ، وأموال البلاد الشامية والحليية والطرابلسية وغير ذلك من الجهات ، والآن البلاد الشامية والحليية في غاية الاضطراب ، ولم يرد منها شيء من الأموال ، فموجب ذلك ضاق الأمر من المال على ملك الأمراء ، ونرجو من الله اصلاح الحال
وفي يوم الاثنين ثالث عشره ، خرج الدفتردار

محمد بن ادريس ، وتوجه صحبته ملك الأمراء الى تربة العادلي ، وكذلك الأمراء قاطبة ، وخرج صحبته جماعة كثيرة من الاصباهية والانكشارية ، فتوجه طائفة منهم في البحر ، وأشيع أنهم توجهوا الى اسطنبول بطلب من السلطان سليمان نصره الله ، وقد بلغه أنهم يشوون على أهل مصر غاية التشويش ، فأرسل أخذ منهم خمسمائة انسان من الاصباهية والانكشارية ، وأراح الله المسلمين منهم ، فانهم كانوا من كبار المفسدين ، فخرج الدفتردار في ذلك اليوم في موكب حافل كما تقدم .

وفيه كانت وفاة الناصري محمد ابن الأمير جاني بك كوهية ، وكان رئيسا حثنا دينا خيرا من أولاد الناس ، حسن السيرة لا بأس به .

وفيه قدم من اسطنبول سيدي محمد بن الكويز ، وكان توجه الى نحو اسطنبول مع جملة من أسر من أهل مصر ، فلما أفرج السلطان سليمان عنهم ، حضر الى مصر ، وكان حسن السيرة في التحدث في أمر المواريث .

وفي يوم الثلاثاء رابع عشره ، حضر أولاق من عند السلطان سليمان وعلى يديه مراسيم تتضمن أنه قد اتصر على الفرنج نصره عظيمة ، وفتح عدة مدائن من مدائن الفرنج ، وملك عدة قلاع من قلاعهم ، وصار كلما يملك مدينة من مدائنهم يجعل كنائسهم جوامع بمحاريب ومنابر ، وخطب باسمه فيها ، وكانت هذه النصره على غير القياس .

فلما تحقق ملك الأمراء ذلك رسم بدق البشائي في القلعة ، ونادى في القاهرة بالزينة ، فزينت سبعة أيام متوالية ، وفتك الناس في هذه الزينة فتكا ذريعا ، حتى خرجوا في ذلك عن الحد ، وتجاهروا بالمعاصي ليلا ونهارا .

الديون نحو سبعين ألف دينار للتجار الأروام وغيرهم

وقد تزايد غضب ملك الأمراء على الشيخ عبد المجيد بن الطرينى حتى كاد أن يوسطه من شدة غضبه عليه ، وكان الشيخ عبد المجيد من أعيان الناس وله بر ومعروف ، حتى قيل كان يصنع فى كل يوم ستة أراب دفيق يرسم الوارد عليه فى المحلة ، ويعلق فى كل يوم اثنى عشر أردبا من الشعير ، والدسوت عمالة بالطعام ليلا ونهارا للوارد عليه من سائر البلاد ، فتجمدت عليه هذه الديون العظيمة ، وسبق كما سبق غيره من الأكابر ، ولكن يلفظ الله به ، والكريم لا يضام أبدا . فكان الشيخ عبد المجيد أحق بقول القائل حيث قال :

لنا غنم تعرف وجوه اضيوفنا
تجى من مراعيها تروم الذبائح
لنا خدم ماينبت الشعر روسها
لحمل القرى من آخذات ورايح

وفيه رسم ملك الأمراء بشنق شخص من المماليك الجراكسة قيل هو من ممالك أمير أخور كبير ، وقيل هو خازن داره ، وكان شابا حسنا فشق شنقه على الأتراك قاطبة ، وشنق فى ذلك اليوم معه أربعة من الجراكسة ، وقد تزايد شره فى هذه الأيام .

وفيه أشيع بين الناس أن الانكشارية الذين كانوا بالقاهرة وتوجهوا الى اسطنبول ، لما دخلوا الى ثغر الاسكندرية وقع بينهم هناك فتنة عظيمة ، وقتل منهم جماعة ، فلما بلغ ملك الأمراء ذلك

وفى يوم الخميس ثالث عشره ، توجه ملك الأمراء الى بحر الجزيرة التى بجاه البيزة بالقرب من المتياس ، وأقام بها ذلك اليوم على سبيل التنزه ، فأرسل اليه القاصى بركات بن موسى المحتسب هناك مدة حافله ، فتعدى ملك الأمراء هناك ، ورسم بأن الذى فضل من المدة يحمل الى القلعة ، وقد فضل منها أشياء كثيرة

ثم ان ملك الأمراء خلع على القاضى بركات بن موسى المحتسب ققطانا مذهبا ، وشكر له ما صنعه من أمر تلك المدة .

وفى يوم الأحد سادس عشره ، وقعت كائنة عظيمة للشيخ عبد المجيد بن الطرينى ، وذلك أن ملك الأمراء تغير خاطره عليه بسبب أنه كان تسلط عليه الدين الذى تقدم ذكره ، فلم يعط أصحاب الديون شيئا مما قسطه عليه ، فشكوه الى ملك الأمراء ثانيا ، فأرسل خلفه ، فلما حضر بين يديه قال له : « ألم أقسط عليك ذلك الدين فى كل شهر ، وقررت معى أنك ترضى أصحاب الديون بما قسطته عليك ، فلم تفعل من ذلك شيئا » . فلم ينطق فى ذلك بحجة ، فحنق منه ملك الأمراء ، ورسم بضربه فبطح على الأرض ، وضرب ضربا مبرحا ، حتى قيل ضرب ست نوب تدلت عليه حتى كاد أن يموت . ثم وضعه فى الحديد ، وأرسله الى بيت الوالى ليعصره فى أكعابه بحضرة أصحاب الديون ، فرق له الوالى وأرسله لسجن الديلم ، فسجن به والحديد فى عنقه ، فاستمر فى السجن بالحديد حتى كاد أن يموت ، وقد عجز عن وفاء ما عليه من الديون ، حتى فيل تجمد عليه من

تسكد لهذا الخبر ، وعين لهم الكيخية الكبير
أغاتهم ، فسافر الى الاسكندرية فى ساعته ، حتى
يصلح بينهم ويكشف عن سبب هذه الفتنة ومن
أثارها من الانكشارية أو من الكمالية الذين سافروا
من القاهرة ، فتوجه الكيخية الى ثغر الاسكندرية
بسبب ذلك .



واستهل شهر دى الحجة بيوم الجمعة ، فطلع
القضاة الأربعة الى القلعة وهنئوا ملك الأمراء
بالشهر ثم عادوا الى دورهم .

وفى يوم السبت المبارك ثانيه حضر قاصد من
مكة ، وصحبته رأسان فى علبة مقفولة ، زعموا
أن الأولى رأس شخص يقال له اسكندر ، وكان
أصله من ممالك السلطان الغورى ، أرسله صحبة
التجريدة التى أرسلها الى بلاد الهند بسبب محاربة
الشيخ عامر متملك زييد وعدن وكرمان ، فلما
توجه العساكر الذين أرسلهم السلطان الغورى ،
تعاربوا معه فانكسر منهم ، وقتل فى المعركة ،
فملكوا منه البلاد وأمواله .

ثم ان اسكندر المذكور ملك بلاد الشيخ عامر
وتسلطن بها وعصى على السلطان الغورى ، وجعل
له هناك أمراء وعسكرا ، وخطب باسمه على منابر
بلاد الشيخ عامر ، واستمر على ذلك ولم يدخل
تحت طاعة الخنكار سليم شاه بن عثمان لما ملك
الديار المصرية ، ولم يخطب باسمه ، ولم يضرب
السكة باسمه هناك ، فلم يزل نائب جدة يتحيل
عليه حتى قتله وحز رأسه وأرسلها الى القاهرة ،
فعرضت على ملك الأمراء وهو بالميدان .

ثم ان ملك الأمراء أشبه تلك الرأس فى القاهرة
ومعها رأس أخرى قيسل انها رأس دواداره
أو خازندهاره أو وزيره ، ثم عاتقنا على باب النصر .
وكان اسكندر هذا شجاعا ، بهيلا ، مقداما فى
الحرب قوى القلب ، ملك البلاد واحتوى على
أموالها ، وفرتنا على عسكره ، وجعل له أمراء
وحجبا ودوادارية ، ولولا أنهم احتالوا عليه حتى
قتلوه ، لما كانوا يقدرون عليه من شجاعته وحيله .

وفيه وقعت نادرة عريبه ، وشى أنه حضر قاصد
من اسطنبول الى الشام ، تم حضر الى القاهرة ،
فلما استقر بها أنذر مراسيم من عند السلطان
سليمان ، وأحضر معه ذراعا من الحديد يزيد على
الذراع الهاشمى الذى تتعامل به أهل مصر بخمسة
قراريط ، وأحضر معه سنج نحاس وأرطالا على
طريقة اسطنبول . وأشيع أن السلطان سليمان بن
عثمان رسم بإبطال الذراع والسنج التى تتعامل
بها أهل مصر ، وأن التجار وأرباب البضائع
لا يتعاملون الا بهذا الذراع وهذه السنج ، فامتثل
ملك الأمراء ذلك ، وأجاب بالسمع والطاعة ، ورسم
للقاضى بركات بن موسى المحتسب بأن ينادى فى
القاهرة حسبما رسم الخنكار بإبطال الذراع
الهاشمى من مصر ، واستعمال الذراع الاسطنبولى
فنزله المحتسب مع الوالى ونادى فى القاهرة بذلك .

ثم ان القاضى بركات بن موسى المحتسب كتب
قسائم على التجار أنهم لا يبيعون ولا يشترون
الا بهذا الذراع الاسطنبولى ، فشنق ذلك على
التجار وأرباب البضائع . فلما أشهر المحتسب
المناداة بذلك ، وأن كل من خالف مرسوم الخنكار
شنق على ذكائه من غير معاودة ، صارت
رسل المحتسب تطلع الى دكاكين التجار الذين فى
الأسواق وتأخذ الاذرة الحديد وترميها فى
الطرقات ، فاضطربت القاهرة فى ذلك اليوم أشد

الاضطراب . ثم صاروا يكررون المناداة بذلك في أمر المعاملة بذلك الذراع الاسطنبولي ، واستمر ذلك في البيع والشراء الى الآن .

وفيه وقعت كائنة عظيمة للوكلاء الذين بالمدرسة الصالحية وكان سبب ذلك أن شخصا من الوكلاء يقال له علي الأزهرى ، توكل عن شخص يهودى فى شغل ، فأخذ منه فى ذلك الشغل أربعين دينارا وقيل خمسين دينارا ، فلما بلغ المحضر الذى فى المدرسة الصالحية ذلك ، طلب على الأزهرى وسأله عن ذلك فأنكر ، وقال ما أخذت منه هذا القدر أبدا ، وحلف وأقسم ، فحقق منه المحضر وأمر بضربه بين يديه .

ثم ان المحضر طلع الى ملك الأمراء وأخبره بأمر الوكلاء وما يصنعون ، فرسم بإحضار سائر الوكلاء فاخفى منهم جماعة ، وقبضوا على أربعة منهم ، وهم : علي الأزهرى ، وسالم ، ومسعود ، والحكرى . فطلعوا بهم الى القلعة وعرضوهم على ملك الأمراء فأوعدهم بكل سوء ، ثم أرسلهم الى بيت الوالى فأرسلهم الوالى الى سجن الديلم ، فسجنوا به الى أن تظهر البقية . وكان الذى رافع فى الوكلاء وأشلى فيهم بدر الدين بن الرومى ، وتعصب معه خير الدين نائب القلعة ، وقال لملك الأمراء هذه الأفعال التى يفعلها الوكلاء فى المدرسة الصالحية لاتحل ولا تجوز ، فاضطربت أحوال القضاة الى الغاية .

ثم ان الوكلاء الذين سجنوا بسجن الديلم شفع فيهم القاضى حمزة ، وقيل الأمير على أحد الأمراء الخنكارية ، ثم أقام الوكلاء فى السجن أياما ، ثم أخرجوا منه .

وفيه نودى بالقاهرة عن لسان ملك الأمراء بمنع الصيارف الحجازيين قاطبة ألا يصرفوا دينارا

ذهبا ، فانه قد أشيع عنهم أن جماعة منهم يصنعون الزغل فى الذهب والفضة ، ويطيرونها على الناس فى الصرف ، فسنعوا من ذلك

وفيه قدم قاصد من عند السلطان سليمان ابن عثمان يقال له قاسم بك ، وعلى يده مرسوم شريف ، فكان من مضمونه أنه انتصر على الفرنج نصره ثانيا ، وملك منهم عدة قلاع ، وقد ظفر بجماعة منهم وقتلهم .

فلما تحقق ملك الأمراء ذلك نادى فى القاهرة بالزينة ، فزينت ووافق ذلك يوم عيد النحر . فحصل للناس المتسعة الزائدة بهذه الزينة ، واشتغلوا بذلك عن الأضحى والعيد ، ووقع فى ذلك اليوم مطر غزير ، فأعدم قماش الناس الذى فى الزينة ، وصار الوالى يبطح الناس على الأرض ويضرب الذى مازين دكانه ، فما حصل لأحد من الناس خير ، واستمرت الزينة معلقة الى أن نزل ملك الأمراء وتوجه الى بولاق بسبب ملاقاته القاصد الذى حضر من البحر ، فطلع من سوق مرجوش وشق القاهرة وهى مزينة ، والقاصد صحبته ، ومشى القاضى بركات بن موسى المحتسب قدامه بعصاه الى أن طلع الى القلعة ، فأوقدوا له الشروع بالنهار على الدكاكين ، فاستمر فى ذلك الموكب الى أن طلع الى القلعة ، ثم فكت الزينة فى ذلك اليوم ، وانقضى أمرها .

وفى يوم السبت سادس عشره ، جلس ملك الأمراء بالمتعد الذى بالحوش السلطاني ، وطلب قضاة القضاة الأربعة ، فلما حضروا حضر القاضى حمزة قاضى ابن عثمان ، فلما تكامل المجلس تكلم ملك الأمراء مع القضاة فى أمر نوابهم وما يفعلون ، وفى أمر الوكلاء ، فوقع فى ذلك المجلس غاية ما يكون من اللغط ، وكان القاضى حمزة فى ذلك المجلس أشد ما يكون على القضاة ، وصار

يقول لهم : نوابكم يفعلون ما هو كيت وكيت .
فجاء ملك الأمراء على القضاة بكل ما فيه بسبب
نوابهم ، وقد كثر فسادهم .

فتكلم معهم ملك الأمراء في ذلك ، فوقع
الاتفاق في المجلس بأن كل قاض من القضاة الأربعة
يقتصر على سبعة من النواب لا غير ، على عدد أيام
الجمعة ، والقاضي من النواب يجلس في بيت قاضي
القضاة في نوبته ، ويسمع الدعوى هناك بمفرده ،
وأن القاضي اذا عقد عقد نكاح ، يأخذ على من
تزوج البكر ستين نصفا ، وعلى من تزوج الشيب
ثلاثين نصفا ، يأخذ العاقد شيئا ، والشهود شيئا ،
والباقي يحصل الى بيت الوالى ، ولا يتزوج أحد
من الناس ولا يطلق الا في بيت قاض من القضاة
الأربعة ، وأن الوكلاء تبطل قاطبة من المدرسة
الصالحية ، فانقض المجلس على ذلك : وقام القضاة
فقبل لهم امشوا على اليسق العثماني ، فاضطربت
أحوال القضاة والشهود قاطبة ، وبطلت أسبابهم
ومشوا على هذا الحكم .

وصار مقدم الوالى والجالية يأتون في كل يوم
من أيام الجمعة ، ويجلسون في بيت كل قاض من
القضاة الأربعة الى ما بعد العصر ، ويأخذون
ما يتحصل من عقود الأئكة ، ويمضون به الى
بيت الوالى ، كما تقرر الحال على ذلك اليسق
العثماني . فصار الذى يتزوج أو يطلق تقع غرامته
نحو أربعة أشرفية ، فامتنع الزواج والطلاق في تلك
الأيام ، وبطلت سنة النكاح والأمر لله تعالى .

وفيه نزل من القلعة القاضي بركات بن موسى
المحتسب ، وأشهر المنادة في القاهرة وصحبه
الوالى بأن لا قاضى ولا شاهد يحكم في المدرسة
الصالحية ، وأن لكل قاض من القضاة سبعة من
النواب لا غير ، يحكم كل نائب يوما في بيت قاض

من القضاة الأربعة ، ويسمع الدعوى في بيت
مستنبيه ، وأن لكل نائب من النواب شاهدين
لا غير ، وأن القاضي يأخذ على نكاح البنت البكر
ستين نصفا ، ويأخذ على الشيب ثلاثين نصفا ، وأن
سائر النواب والشهود بقالة من الأحكام الشرعية ،
وهذا حسبما رسم به ملك الأمراء ، والمشى على
اليسق العثماني .

فلما سمع ذلك الناس اضطربت أحوالهم غاية
الاضطراب ، ولا سيما النواب والشهود حصل لهم
الضرر الشامل ، وصارت المدرسة الصالحية ليس
يلوح بها قاض ولا شاهد ، بعد ما كانت قداسة
العلماء .

ومن الحوادث ما وقع في أواخر الشهر وهو يوم
الأحد خلع ملك الأمراء على شخص يسمى
جمال الدين يوسف بن أبى الفرج ، ويعرف بأبن
الجاكية — وهو ابن محمد الذى كان تقيب
الجيش من أولاد ابن أبى الفرج — واستقر به في
وظيفة التفتيش عن الرزق ، فلما قرر في هذه
الوظيفة أخذ حذره منه سائر الأعيان ودخلت
رأسهم منه الجراب .

فلما استقر أمر ملك الأمراء بأن ينادى له عن
لسانه حسبما رسم ملك الأمراء لا أحد من الناس
يحتذى على الأمير جمال الدين يوسف بن أبى
الفرج ولا يعارضه ، وأنه مسموع الكلمة وافر
الحرمة .

فلما جرى ذلك طغى الأمير يوسف بن أبى الفرج
وتجبر ، وصار معه نجم الكثير من الرسل
والبزددارية ، وصار يطلب أعيان الناس من رجال
ونساء بالرسل الغلاظ الشداد ، فاذا حضروا الى
بابه ومعهم مكاتيبهم ومربعاتهم ، يقرؤها ثم ينجس

فحضر علم الدين چلبى السلطان العورى ، وحضر عقيب ذلك المقر الشهابى أحمد فاخر الجيش كان « وهو ابن المقر الجمالى يوسف فاخر الخاص » وحضر كمال الدين بزددار الأمير طراباى ، وحضر الرئيس عبد الرحمن بن الشريف الكحال ، وحضر الناصرى محمد بن العلائى على بن خاص بك ، وحضر القاضى شمس الدين محمد الحجازى أحد نواب الشافعية ، وحضر آخرون من الأسرى ما تحضرنى أسماؤهم الآن .

وفى يوم الخميس ثامن عشره ، قدم مبشر الحاج من مكة وأخبر بالأمن والسلامة عن الحجاج ، وأخبر أن الغلاء معهم عمال فى سائر الغلال والمأكول قاطبة ، وأخبر بموت الجمال مع الحجاج ، فخلع عليه ملك الأمراء ، ونزل الى منزله .

وقد خرجت هذه السنة على خير وسلامة ، وكانت سنة مباركة ، وقع فيها الرخاء فى سائر الغلال قاطبة بعد ما كان تنهى سعر القمح الى أربع أنشريات ذهب كل أردب وكان النيل فيها عاليا عم سائر أراضى مصر قاطبة وثبت ثباتا جيدا الى أواخر بابه . ومن محاسن هذه السنة أنها خرجت عن الناس ولم يكن فيها الطاعون فى الديار المصرية ولا فى شىء من أعمالها قاطبة .

ولكن وقع فى أواخر السنة حوادث مهولة منها عصيان الأمير جان بردى الغزالى نائب الشام وقتله ، وما وقع بالشام من الاضطراب ، فكان من ملخص واقعة الأمير جان بردى أنه لما استقر به السلطان سليم شاه نائبا بالشام ، أقام بها مدة وهو تحت طاعة السلطان سليم شاه فى الظاهر ، ولما ولى

لهم فيها انجاشا ، ويقول لهم أرونى أصول هذا وأصول الأصول ، فاذا عجزوا عن ذلك يرسلهم الى بيت القاضى الحنفى ، ويشهد عليه أن لا حق لهم فى هذه المكاتب ولا استحقاق ، ويأخذ منهم ما معهم من المكاتب والمربعات ، ويمضوا خائبين . فيطلع بالمكاتب والمربعات الى ملك الأمراء ، ففعل من هذا النمط بجماعة كثيرة من أعيان الناس . فأخذ من الجمالى يوسف نقيب الجيش ابن الشرفى يونس نقيب الجيش سبع عشرة رزقة بمكاتب شرعية ، وحذف عليه ملك الأمراء ما عنده من المكاتب جميعها ، فطلع له بها ، وفعل بجماعة كبيرة من أعيان الناس والستات مثل ذلك ، والأمر لله تعالى .

وفيه حضرت مركب من الأخرية التى كان عمرها ملك الأمراء وأرسلها صحبة الأروام والمغاربة البحارة ، فلما دخلوا الى البحر المالح وجدوا جماعة من الفرنج يعبتون فى سواحل البحر المالح فأوقعوا معهم وقتلوهم فانكسر الفرنج ، وقبضوا عليهم وأسروهم ، واحتوا على مراكبهم ، فوجدوا فيها بضائع وجوخا وأصنافا فاخرة ، فأخذوا جميع ما كان فيها ، وقبضوا على من كان فيها من الفرنج ووضعوه فى الحديد ، وأرسلوهم الى ملك الأمراء ، فلمسا عرضوا عليه رسم بتوسطهم فوسطوا منهم تسعة عشر رجلا ، وسجنوا الباقين وأخذ ملك الأمراء جميع أموالهم ، ثم تبن بعد ذلك أن هؤلاء كانوا تجارا أتوا من بلاد الفرنج فلما رأوهم قاتلوهم فانكسروا وأسروا وأخذت جميع أموالهم . وأشيع أنهم كانوا يعيشون فى سواحل البحر المالح .

وفيه قدم جماعة من اسطنبول ممن كان أسر من أهل مصر فى أيام السلطان سليم شاه بن عثمان

وبعد ابنه سليمان على مملكة الروم ، أظهر جان
يردى الغزالي العصيان جبلة واحدة ، ولم يدخل
تحت طاعة السلطان سليمان بن عثمان ، فقام
معه أهل الشام من الأمراء والعسكر والعربان
والعشير ، وقالوا له قم وتسلطن فما بقي قدامك
أحد تخشى منه ، ونحن نقاتل معك حتى نقتل ،
فاستمال لقولهم ، وطاش وخف ، وكم عجلة أعفبت
ندامة ، فتسلطن بالشام وتلقب بالملك الأشرف أبي
الفتوحات ، وقبلوا له الأرض ، وخطب باسمه في
جامع بني أمية ، وعلى بقية منابر دمشق . فلما
تسلطن قالوا له : امض الى مصر وحارب خير بك ،
واملك منه مصر ، فقال لهم : مصر في قبضة يدي ،
ولكن أتوجه الى حلب وأخلصها من أيدي
العشمانية ، فما يبقى خلفي التفاتة ، ثم أتوجه الى
مصر . ولو أتى الى مصر لكان خيرا له ، وكان
العسكر من الجراكسة وأهل مصر والعربان قاطبة
يقبلوا على ملك الأمراء خاير بك ، ويمضوا اليه ،
فانه كان محببا للرعية .

ثم ان السلطان سليمان أرسل تجميعة الى
الغزالي نائب الشام ، فجهز له من العساكر العثمانية
نحو أربعة عشر ألف مقاتل ، فخرجوا من اسطنبول
على حمية ، وتوجهوا من اسطنبول الى حلب ،
فأوقعوا مع الغزالي على حلب ، فانكسر منهم ،
فتوجه الى دمشق ، فكان بين الفريقين واقعة مهولة
على القابون خارج مدينة دمشق ، قتل من عسكر
الغزالي هناك ما لا يحصى من عربان الكرك وأكراد
وتركان ومماليك جراكسة ، ومن أهل دمشق ،
حتى قيل : قتل في المعركة من أهل دمشق شيوخ
وشبان وأطفال ، ومن سوقة دمشق ما لا يحصى .

وكانت هذه الواقعة تقرب من واقعة تمرلك
لما دخل الى دمشق ، وقد خرب في هذه الواقعة تلك
دمشق من ضياع وحرارات وأسواق وبيوت ، وتمت
الكسرة على الغزالي واختفى ، وقيل : بل قتل على
المعركة وحزت رأسه وأرسلت الى اسطنبول ،
ومضى أمره . والى الآن تشك جماعة من الناس في
قتله ، ويقولون ما قتل وهو باق في قيد الحياة ،
وأنه هرب عنده الصفوى بعد وقوع المعركة ،
والأصح أنه قتل في الواقعة التي كانت على القابون
ووقع الشك للناس في ذلك ، كما وقع لهم في قتل
قانسوه خمسمائة من الشك .

ومما وقع في هذه السنة من الحوادث ، حرق
النصارى على باب المدرسة الصالحية ، ومنع
الشهود من الجلوس في العوائت . ومن الحوادث
ما وقع للشيخ عبد المجيد الطرنبى وقصته مشهورة .

فلما توجه الغزالي الى حلب ليملكها ، حاصر
أهلها ، وأحرق غالب الضياع التي حوالبها ، وحصل
منه الضرر الشامل لأهل حلب ، فلما حاصر مدينة
حلب لم يقدر عليها وعجز عن ذلك . وكان الأمير
جان يردي الغزالي أول ما توفي السلطان سليم شاه
وتولى بعده ابنه سليمان ، أرسل يقول لملك الأمراء
خاير بك تسلطن أنت بمصر ، وأستمر أنا بالشام
وأحكم من الفرات الى غزة ، وفطرد هذه العثمانية
عن مملكة مصر . فلما وقف خاير بك على مطالعة
الغزالي أفشى سره . وكان الغزالي أرسل يقول
لخاير بك ان لم تتسلطن فعندي من يتسلطن ،
فأراد خاير بك أن يتنصح للسلطان سليمان ، فأرسل
له مطالعة الغزالي التي أرسلها له في السر . فلما

الزنى أبى الوفا فى هذه الأيام جدا ، حتى صار فى مقام من تقدم من كتاب السر ، وصار من أعيان الرؤساء بالديار المصرية .

ثم ان الجمالى يوسف بن ابى الفرج أخذ من الناصرى محمد بن خاص بك رزقتين بمكاتيب شرعية ، فطعن فى هذه الرزق وقال له أصل هذه الرزق أقطاع سلطانية ، فأخذ منه المكاتيب وأشهد عليه بأن لا حق له فيها ، وطلع بها الى ملك الأمراء ، وصار يفعل من هذا النمط بجماعة كثيرة من رجال ونساء ، ويأخذ مكاتيبهم من أيديهم ويشهد عليهم أن لا حق لهم فيها ويطلع بالمكاتيب الى ملك الأمراء ، فأطلق فى الناس جمرة نار ، وضح منه الناس قاطبة ، حتى فيل أخذ من أيدي الناس فوق الثمانين رزقة بمكاتيب شرعية ، وطلع بها الى ملك الأمراء ، وحصل للناس منه الضرر الشامل ، ولا حول ولا قوة الا بالله العظيم

وما اكتفى ملك الأمراء بيوسف بن أبى الفرج حيث جعله مفتش الرزق الجيشية ، فجعل الأمير على العثماني مفتش الأوقاف أيضا من بلاد وبيوت وغير ذلك ، فاجتمع على بابه الرسل الغلاظ الشداد ، والبزددارية ، وصاروا يطلبون الناس أصحاب الأوقاف ، فاذا حضروا ومعهم مكاتيبهم بنجشون عليهم ويقولون لهم ايش على هذا الوقف مصاريف ، وايش متحصله فى كل شهر ، فيدعون أصحاب الأوقاف فى الترسيم ، ويقررون عليهم مبلغا ثقيلًا للأمير على هو ودواداره والبزددارية والرسل ومن عنده من المباشرين ، ويكتبون له على مكاتيبه عرض ، ثم يطلقونه بعد أن بلتهب من الغرامة فوق ما لا يطيق ، فصار الأمير على يتكلم

ومن الحوادث منع الوكلاء من باب المدرسة الصالحية وعزل نواب القضاة الأربعة واقتصارهم على سبعة نواب لكل قاض من غير زيادة على ذلك . ومنها واقعة العقود وما تقرر على تزويج البكر ستين بصفا والثيب ثلاثين نصفًا ، وقد تقدم ذلك فكان ذلك من أشد الكرب على المسلمين .

ومنها جلوس مقدم الوالى والجالية على أبواب القضاة من باكر النهار الى آخره ، ليأخذوا ما يتحصل من عقود الأكلحة ، ويمضوا به الى بيت الوالى ، ويسمون ذلك اليسق العثمانى . ولا يتزوج أحد من الناس ولا يطلق الا فى بيت قاض من القضاة ، فضيقوا على المسلمين غاية الضيق .

ومن الحوادث الشنيعة أن ملك الأمراء خلع على شخص يقال له جمال الدين يوسف ابن أبى الفرج ، ويعرف بابن الجاكية ، وقرره فى وظيفة وسماه مفتش الرزق الجيشية ، فلما استقر فى هذه الوظيفة أطلق فى الناس النار ، ورافع الشهابى أحمد بن الجيعان بأنه أخذ من ديوان الجيش أقطاع سلطانية ورزقا جيشية ، وصنع لها مكاتيب شرعية بمشترى من بيت المال ، وباعها على الناس .

ورافع أيضا الزنى أبا بكر بن أبى بكر بن الملكى بمثل ذلك ، حتى تكلم فى حق الشهابى أحمد بن الجيعان بأنه ابتاع من ديوان الجيش رزقا واقطاعا ، وصنع لها مكاتيب شرعية ، وباعها على الناس بنحو عشرين ألف دينار . وأظن هذا الكلام ليس له صحة ، وهذا باطل لا محالة ، فتغير خاطر ملك الأمراء على المقر الشهابى أحمد ابن الجيعان ، وصار اذا طلع الى القلعة لا يخاطبه أصلا ، ورسم للزنى أبى الوفاء الحلبي موقع ملك الأمراء من حين كان بحلب أن يقرأ عليه القصص ، بدلا عن الشهابى أحمد بن الجيعان ، فعظم أمر

على قرع من أبواب المظالم المهولة ، فأطلق في الناس النار الموقدة .

وأقول ان أولاد ابن أبي الفرج طول عمرهم بيت ظلم وعسف ، وطبعهم الأذى هم وأجدادهم من أيام الملك الناصر فرج بن الظاهر برقوق ، وقد تقدم القول على ذلك .

ومن الحوادث في أواخر هذه السنة أن ملك الأمراء جهز مراكب أغرية وفيها جماعة من المقاتلين ، فتوجهوا الى البحر المالح ، وقد بلغه أن جماعة من الفرنج يعشون في السواحل على المسافرين ، فلما توجهوا الى البحر المالح ، وجدوا مراكب فيها تجار من الفرنج ، ومعهم بضائع بنحو خمسين ألف دينار ، فتنقالتوا معهم فكسروا الفرنج ، وقبضوا عليهم واحتاطوا على مامعهم من البضائع ، فلما حضروا الى مصر ، وعرضوا على ملك الأمراء ، رسم بتوسيط نحو تسعة عشر نفرا من الفرنج ، فراحوا ظلما ، وأخذت أموالهم ، وربما يثور من هذه الحركة فتنة كبيرة بين الفرنج وبين أهل مصر بسبب ذلك ، ويمنعون التجار من المرور في البحر ، ويقتلونهم كما فعلوا بالفرنج المقدم ذكرهم .

وفي هذه السنة قتل ملك الأمراء من الناس مالا يحصى بتوسيط وشنق وخوزقة وأكثرهم راح ظلما ، والأمر لله تعالى .

سنة ثمان وعشرين وتسعمائة (١٥٢٢ م) :

فيها في المحرم ، وكان مستهله يوم الأحد المبارك ، طلع القضاة الأربعة وهنثوا ملك الأمراء بالعام الجديد ثم عادوا الى منازلهم .

وفي هذا الشهر تزايد ظلم الجمالي يوسف بن أبي الفرج وقتك في الناس فتكا ذريعا ، وكثر على بابه الرسل والبرددارية ، وصار يطلب أعيان الناس من كبير وصغير ، فيحضرون ومعهم مكاتيبهم ، ويأخذها من أيدي أصحابها غصبا ، ويشهد عليهم أن لا حق لهم فيها ولا استحقاق ، ويطلع بها الى ملك الأمراء ، واستمر على ذلك يتزايد ظلمه الشنيع كل يوم حتى ضج منه الناس والأمر لله تعالى .

وفيه توفي الشهابي أحمد بن التماري ، وكان من مشاهير أولاد الناس ، وكان أمير جكار ، وقد ترحل حاله في أواخر عمره ومات فقيرا .

وفي يوم الخميس خامسه حضر جماعة من اسطنبول ممن كان السلطان سليم شاه أسرهم وأرسلهم الى اسطنبول ، فحضر بهاء الدين بن البارزي ، وجلال الدين ابن الخواجا بدر الدين حسين الشيراوي ، وحضر الخواجا يحيى بن عبد الدائم اللبدي المغربي من تجار جامع طولون ، وحضر آخرون ممن كان باسطنبول .

وفي يوم السبت سابعه ، نزل ملك الأمراء من القلعة وتوجه الى تربة العادلي التي بالريديانية ، وجلس هناك على المصطبة القديمة ، وكان القاصد الذي حضر بالأمس صحبته ، فمد له هناك مدة حافلة ، وأحضر صقورا وكلابا سلوقية ، ورمى قدام القاصد رماية هناك ، وانشرح في ذلك اليوم الى الغاية .

فيينما هو على ذلك ، واذا بجماعة من الأعيان حضروا بين يديه ، منهم الشيخ شمس الدين محمد اللقاني المالكي ، والشيخ شمس الدين محمد

شمس الدين اللقاني المالكي : « ياسيدى الشيخ أنا أخاف على رقبتي أكثر من رقابكم ، امضوا باسم الله » . فقاموا من عنده وهم في غاية القهر ، يتعشرون في أذيالهم ، ولم يلتفت الى أفوالهم ، فقال له بعض الفقهاء الذين حضروا : « نحن نساغر الى السلطان سليمان نصره الله تعالى ، ونخبره بما يفعل فى مصر » . فتنكد ملك الأمراء فى ذلك اليوم بعد ما كان منشرحا ، ثم قام من هناك وطلع الى القلعة ، وخرج القاصد من هناك وتوجه من يومه وسافر الى اسطنبول .

فلما رجع الفقهاء من عند ملك الأمراء ، قامت الأشلة والنائرة على ملك الأمراء ، وكثر الدعاء عليه بسبب عقود الأنكحة ، وقصدوا يعلقون أبواب الجوامع والمساجد ، فلما جرى ذلك أرسل ملك الأمراء الزينى أبا الوفا الموقع ، يأخذ بخاطر الشيخ شمس الدين محمد اللقاني ، وقال له : لا تؤاخذ ملك الأمراء ، فانه لم يكن يعرفك . وأرسل على يد الزينى أبى الوفاء الموقع مائتى دينار وأربع بقرات ، ففرقت على مجاورى الجامع الأزهر ، وأرسل مثل ذلك الى مقام الامام الشافعى ، والامام الليث رضى الله عنهما ، وأرسل مثل ذلك الى الزوايا التى بالقرافة ، والى مشهد السيدة نفيسة رضى الله عنها ، وغير ذلك من الزوايا والمزارات والمساجد ، وقصد أن يستجلب خواطر العلماء والفقهاء مما فعله من الأفعال الشنيعة ، ليمحو ذلك بذلك ، وهذا من المحاللات ، كما يقال فى المعنى :

جفاء جرى جهرا لدى الناس وانبسط
وعسذر أنى سرا فأكد ما فرط
ومن ظن أن يمحو جلى جفائه
خفى اعتذار فهو فى غاية الفرط

المعروف بالديروطلى الشافعى ، والشيخ شمس الدين أحمد بن الجلبى وآخرون من العلماء ، فلما اجتمعوا قالوا . « يا ملك الأمراء قد أبطلتم سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصرتهم تأخذون على زواج البنت البكر ستين نصفا ، وعلى زواج المرأة ثلاثين نصفا ، ويتبع ذلك أجرة اليهود ، ومقدمى الوالى ، وغير ذلك ، وهذا يخالف الشرع الشريف ، وقد عقد رسول الله صلى الله عليه وسلم على خاتم فضة ، وعلى ستة أنصاف فضة ، وعقد على آية من كتاب الله ، وقد ضعف الاسلام فى هذه الأيام ، وتجاهر الناس بالمعاصى والمنكرات ، وتزايد الأمر فى ذلك » . ثم ذكروا له آيات من كتاب الله تعالى ، وأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يلتفت ملك الأمراء الى شىء من ذلك ، وقال للشيخ شمس الدين محمد اللقاني المالكي : « اسمع ياسيدى الشيخ ، ايش كنت أنا ؟ الخنكار رسم بيذا . وقال امشوا فى مصر على اليسق » . فقال له شحص من طلبة العلم يقال له عيسى المغربى : هذا يسق الكفر ، فحنق منه ملك الأمراء ، فرسم بتسليمه الى الرالى ليعاقبه ، فتوجهوا به الى بيت الوالى ، ثم شفع فيه بعض الأمراء .

فلما كان عقيب ذلك توجه الى ملك الأمراء جماعة من التجارين والقلافطة ، وعلى رؤوسهم مصاحف ، وهم يستغيثون (الله ينصر السلطان سليمان) . فظن ملك الأمراء أنهم من الجامع الأزهر ، ثم تبين أنهم بجارون وقلافطة ، أتوا يشتكون من الشاد على المراكب التى عمرها ملك الأمراء فى الروضة ، بأنه قد ظلمهم وجار عليهم . فلما كثر منهم الضجيج ، رسم ملك الأمراء لمن حوله من الانكشارية بضرهم ، فشتتوا أجمعين . ثم طال المجلس بين ملك الأمراء وبين مشايخ العلم الذين حضروا ، فكان من جوابه للشيخ

وفي يوم الاثنين سادس عشره ، أنفق ملك
الأمراء على المماليك الجراكسة ، وكان لهم حسنة
أشهر جامكة منكسرة ، وقد ضاع عليهم عليق
أربعة أشهر ، فأنفق ملك الأمراء عليهم في ذلك
اليوم شهرين ، وآخر لهم ثلاثة أشهر ، فأضر ذلك
بجالهم

وفيه اجتمع العسكر ليبصو الجامكية في
الميدان ، فنزل لهم المقر الشهابي احمد بن الجيعان .
والقاضي بركات بن موسى المحنّسب ، وابن أبي
أصبح ، فقالوا للمماليك الجراكسة : ملك الأمراء
يقول لكم انه مسافر بعد الربيع ، فالذى له فدرة
يعمل برقه ، والذي ما له فدرة على السفر لا يأخذ
جامكية ويقعد يستريح . فلما سمع العسكر ذلك
اضطربت أحوالهم .

ثم ان ملك الأمراء جلس في شبك الدهيشة
وأرسل خلف المماليك الجراكسة ، فلما طلّعوا
ووقفوا بين يديه ، استدعاهم واحدا بعد واحد ،
وصار يختار من كل عشرة مماليك مملوكا واحدا ،
الذى يجده شابا وله فدرة على السفر ، فيبقيه على
جامكيته ، والذي يجده من الشيوخ العواجز
يقف جامكيته ، فأبطل في ذلك اليوم ألف مملوك
من المماليك الجراكسة والناس وغير ذلك ، وفيهم
من هو من الأغوات من مماليك الأشرف قايتباي ،
فتزايدت قسوته في ذلك اليوم عليهم .

ومما وقع في ذلك اليوم من النوادر الغريبة ،
أن ملك الأمراء لما عرض المماليك صار كل من رآه
من المماليك ولحيته طويلة يقص منها نصفها ،
ويعطيها له في يده ، ويقول له امش على القانون
العثماني في قص اللحى ، وتضييق الأكام ، وكل
ما تفعله العثمانية ، فنزل المماليك الجراكسة من
القلعة في ذلك اليوم وهم في غاية النكد مما جرى
عليهم .

وكان سبب قتل جوامك جماعة من المماليك
الجراكسة ، ان الديوان كان بومستد في عانا
الانشحات ، وقد كثر العسكر وسار المال نضم على
سبع طوائف من العسكر ما بين أمراء عثمانية ،
وطائفة من الاصباهية ، وطائفة من الانكشارية .
وطائفة من الكماية ، وطائفة من الأمراء الجراكسة ،
وطائفة من المماليك الجراكسة ، ومماليك ملك
الأمراء طائفة سابعة ، فكان يصرف في كل شهر
لطائفة الاصباهية أحد عشر ألف دينار ، ويصرف
لطائفة الانكشارية في كل شهر ثلاثة عشر ألف
دينار ، ويصرف لطائفة الكماية في كل شهر أحد
عشر ألف دينار ، ويصرف لطائفة المماليك الجراكسة
وأولاد الناس أحد عشر ألف دينار . ويصرف
لمماليكه وخدامه وحاشيته وغير ذلك من الرواقب
في كل شهر ثلاثة عشر ألف دينار ، وذلك خارج
عن جامكية الأمراء الجراكسة والأمراء العثمانية
والمترددين من القصاد العثمانية ، فبموجب ذلك
وقع الانشحات في تأخير الجوامك وكسرهما الأشهر .

وكان السلطان الغورى لا يستعين على سد
الجوامك في كل شهر الا بكثرة المصادرات للتجار
وغيرهم من مساتير الناس وأعيانهم وكان يسد
من مظالم العباد ، ويصير انهم ذلك عليه .

وفيه أشيع أن ملك الأمراء قد تغير خاطره على
خوند مصرباي الجركسية ، وانزلها من القلعة ،
ورسم لها بأن تسكن بمدرسته التي بناها بباب
الوزير ، ورتب لها في كل شهر ما يكفيها من النفقة .
وكان سبب ذلك أنه بلغ ملك الأمراء قدوم زوجته
أم أولاده من اسطنبول ، وقد آتت صحبة الأمير
جانم الحمزاوى من اسطنبول ، فاختار بأن تكون
صاحبة القاعة عوضا عن خوند مصرباي ، فشق
ذلك عليها .

مالكى المذهب سيد عربان الشرق على الاطلاق ، وكان أتى الى مكة وحج في العام الماضى ، وكان يجلب الى مكة اللؤلؤ والمعادن الفاخرة ، والمسك والزعفران ، والعنبر الخام والعود والقمارى ، والحريير الملون ، وغير ذلك من الأشياء المتحفة . قيل انه لما دخل الى مكة والمدينة تصدق على أهلها بخمسين ألف دينار ، فلما حج ورجع الى بلاده لاقتنه الفرنج فى الطريق وتحاربت معه ، فانكسر الأمير مقرن منهم ، وقبضوا عليه باليد وأسروه ، فسألهم أن يشتري نفسه منهم بألف ألف دينار فأبى الفرنج من ذلك ، وقتلوه بين أيديهم ، ولم يغن عنه ماله شيئا ، وملكوا منه جزيرة بين النهرين ، وملكوا قلعتها التى هناك ، واستولوا على أموال الأمير مقرن وبلاده ، وكان ذلك أشد الحوادث فى الاسلام وأعظمها . وقد تزايد شر الفرنج على سواحل البحر الهندى ، والأمر لله تعالى .

ولما رجع الحجاج أثنوا على الأمير جانم أمير الحاج بكل جميل ، فى حفظه للحجاج ، ومنع الضرر عنهم ، وغير ذلك من أنواع البر والمعروف .

وفى شهر صفر ، وكان مستهله يوم الاثنين ، طلع القضاة الأربعة الى القلعة وهنئوا ملك الأمراء بالشهر ، ثم عادوا الى دورهم .

وفى يوم الأربعاء ثالثه ، خرج الأمير قايتباى الدوادار وجماعة من الأمراء الجراكسة الى ملاقاته الأمير جانم الحمزاوى الذى كان توجه الى اسطنبول ، وصحبته مقدمة حافلة الى السلطان سليمان بن عثمان ، أرسلها ملك الأمراء خاير بك اليه على يد الأمير جانم كما تقدم ، فأكرمه وأحسن

وفى يوم الخميس تاسع عشره ، أكمل ملك الأمراء تفرقة الجامكية على العسكر ، وأوقفه بجوامك كثير من المماليك الجراكسة ، ومن أولاد الناس ، ومن العواجز والشيوخ ، وقال للذين صرف لهم الجوامك : كونوا على يقظة واعملوا برفقكم ، فربما الخنكار يرسل يطلبكم على حين غفلة ، فقالوا كلهم : السمع والطاعة ، ونزلوا على ذلك .

وفيه أشيع أن الأمير فرحات العثمانى نائب طرابلس ، استقر فى نيابة الشام عوضا عن اياس ، الذى كان بها ، وتوجه اياس الى اسطنبول ، فصار الأمير فرحات بيده نيابة طرابلس والشام .

وفى يوم الأربعاء خامس عشره دخل الحاج الى القاهرة ، ودخل الأمير جانم أمير ركب المحمل وصحبته المحمل الشريف .

ثم أشيع أن الحاج قد قاسى فى هذه السنة مشقة زائدة من الغلاء وموت الجمال . ولما طلع الى العقبة اشتد عليه البردهناك والرياح العاصفة ، فمات من الحجاج ما لا ينحصر ، حتى قيل مات منهم من العقبة حتى دخلوا القاهرة نحو ثمانين انسانا ، ودخل الباقون مرضى من شدة البرد العاصف المضر بالأجساد .

ولما دخل الحاج أشيع موت الأمير باباى ، الذى كان ولى مشيخة الحرم النبوى ، وأشيع موت شخص من الأمراء العثمانية ، كان أعات الانكشارية ، توفى لما دخل المدينة الشريفة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ودفن بالبيق ، وكان من خيار العثمانية .

وتوفى الأمير مقرن أمير عربان بنى جبر ، متملك جزيرة بين النهرين الى بلادهمز الأعلى ، وكان أميرا عظيما جليل القدر مبجلا فى سعة من المال ، وكان

اليه ، وقبل منه تلك التقدمة ، فأقام باسطنبول مدة ثم رسم له بالعود الى مصر

فلما بلغ الأمراء قدومه الى مصر ، خرجوا اليه قاطبة ، وخرجت اليه أعيان المباشرين قاطبة ، وجميع مشايخ العربان والكشاف المدركين قاطبة .

فلما كان يوم الجمعة ثانی عشر صفر ، وصل الأمير جانم الحمزاوى الى خانقاه سرياقوس ، فمد له القاضى بركات بن موسى المحتسب مدة حافلة ، هذا بعد أن لاقاه من الصالحية .

وأشيع أنه حضر صحبة الأمير جانم الحمزاوى حريم ملك الأمراء الذى كان باسطنبول من حين ملك السلطان سليم شاه الديار المصرية ، فلما تولى السلطنة ولده سليمان ، رسم بعود حريم ملك الأمراء وأولاده اليه .

وفيه طلعت زوجة ملك الأمراء الى القلعة تحت الليل على المشاعل والفوانيس وهى فى محفة ، فلما طلع النهار طلع الها جميع المغنائى يهتئونها بالسلامة .

ثم ان الأمير جانم الحمزاوى رحل من خانقاه ، وتوجه الى تربة العادلى وبات بها

فلما كان يوم السبت ثالث عشره ، صلى ملك الأمراء صلاة الفجر ، ونزل من القلعة وتوجه الى تربة العادلى التى بالريدانية ، فجلس على المصطبة التى هناك ، وسلم على الأمير جانم الحمزاوى ، ثم أحضر الخلعة التى أرسلها له السلطان سليمان ابن عثمان باستمراره على نيابة مصر ، فقام ولبسها ، وقبل الأرض نحو القبلة ، وكانت الخلعة بتماسيح مذهب على أحمر . ثم قصد الدخول من باب النصر ، وشق من القاهرة ، فاصطفت له الناس على الدكاكين بسبب الفرجة ، وأوقدت له الشموع

على الدكاكين ، وعلقت له القناديل والثريات ، ولم تزين له القاهرة فى ذلك اليوم وكان سبب ذلك أنه بلغ ملك الأمراء أن السلطان سليمان عد مات له ولد ذكر مراهق ، فمنع الزينة بسبب ذلك .

فلما وصل الى قبة الأمير بشبك الدوادر ، لاقته الأمراء الجراكسة والعسكر من الممالك الجراكسة قاطبة ، ولاقته القضاة الأربعة ، وهم : كمال الدين الطويل الشافعى ، ونور الدين على الطرابلسى الحنفى ، ومجيبى الدين الدميرى المالكى ، وشهاب الدين أحمد الفتوحى الحنبلى . ولاقته الأمراء العثمانية . وهم . الأمير عنى ، والأمير خير الدين نائب القلعة ، والأمير نصوح ، وغير ذلك من الأمراء العثمانية . وخرج اليه طائفة الاصباهية وأمرأؤها ، والكواخى من أغوات الانكشارية ، ومشى قدامه الانكشارية قاطبة والكملية قاطبة وهم يرمون بالنفوط ، ولاقاه أعيان الشرقية وهم : الأمير أحمد بن بقر أمير طائفة جذام وأمير الرايتين ، ومشايخ عربان الغربية وهم : حسام الدين بن بغداد ، وشيخ العرب واصل بن الأحذب أمير هواة ، وشيخ العرب اسماعيل بن أخى الجويلى ، وشيخ العرب جريش ، وآخرون من عربان الشرقية والغربية . ومشى قدامه النصارى بالشموع الموقدة .

ودخل الأمير جانم الحمزاوى وعليه خلعة السلطان سليمان بن عثمان ، وهى مخمل مذهب . فلما دخل من باب النصر نزل القاضى بركات بن موسى عن فرسه ، ومشى بالعصا قدام ملك الأمراء من باب النصر الى أن طلع الى القلعة . وكذلك الجمالى يوسف تقيب الجيش ، ولاقته الشعراء بالدف والشبابة السلطانية ، فلما وصل الى مدرسة الناصر ثر عليه الحلوانى الذى هناك

واستمر ملك الزمراء في ذلك الموكب الحافل
حتى دخل الى الميدان الذي تحت القلعة ، وقد طلع
من جهة التبانة الى مدرسة السلطان حسن . وقد
شاهدت هذا الموكب بالعائنة ، وكان من المواكب
المشهورة الجليلة .

ذلما استقر ملك الزمراء بالقلعة خلع على
الأمير علي النعماني ، والأمير قنوج ، والأمير
خير الدين نائب القلعة ، والأمير شيخ . وخلع على
القاضي زين الدين بركات بن موسى المحتسب
قطانا مضملا لكونه مشى بالعصا قدامه من باب
النصر الى القلعة ، ولكونه سد للأمير جاتم
الحمزاوي عند ملاقاته مدة حافلة في بليس ، ثم
في الخانقاه ، وغير ذلك من الأماكن . وفي هذه
الواقعة يقول الأديب البارغ الفاضل ناصر الدين
محمد بن قانصوه بن صادق وأجاد حيث قال :

أهلا بمن عنه التواضع راوي
شرفا ومنه الجود وجدا راوي
شرفا تخر له الرءوس لتكوه
شرفا عار الفرقدين يساوي
يامرجا من قادم أعنى به
مولي المقر هو جاتم الحمزاوي
من جاء مصر بخلعة غرا حوت
والعز من ذي الملك فخرا حاوي
شرف من اسطنبول معه بها آتى
منه لخير يك وخيرا ناوي
لله ذاك اليوم وهو بها يرى
وسلامه داء القلوب يداوي
في موكب الملك العظيم وحوله
أسد سطاها الراسيات يقاوي
والناس في فرج وفي فرح به
والجو مثل النحل منهم داوي

شيئا من الفضة ، فقال له ملك الأمراء : كثر الله
خيرك ، فما وصل الى باب سوق الوراقين ألبامرا
له مصاجر البخور بالعود القماری وركزوا له
الطبول والزمور والمخاني من النساء والرجال في
عدة أماكن من القاهرة ، وانطلقت له النساء من
الطيفان بالزغاريت ، وأهففت له النسوة على
التمكاكين ، ولا سيما تجار الوراقين فانهم أوقفوا
له موكبات شمع كبار مذهب ، وسار ملك الأمراء
يسلم على الناس كلما مر عليهم يسينا وشمالا ،
فارتفعت له الأصوات بالدعاء من الناس قاطبة .

وكان الأمير جاتم الحمزاوي قدامه وعليه خلعة
السلطان سليمان ، وعن يمينه الأمير تاييبي
الدوادار ، وعن يساره الأمير أرزمك الناشف ،
وأعيان المباشرين قدامه .

ودخل صحبة الأمير جاتم الحمزاوي جماعة من
أعيان مصر ممن كان أسر مع السلطان سليم شاه ،
قلما مات وتولى ولده سليمان السلطنة رسم لهم
بالعود الى مصر ، فعند ذلك من جملة محاسنه
وعدله وفعله الحسن .

فحضر صحبة الأمير جاتم الحمزاوي ... الشرفي
يونس بن الأتابكي سودون العجبي ، والشسي
محمد بن القاضي صلاح الدين بن الجيعان ،
والزيني عبد القادر بن القاضي بركات بن قريميط
أحد كتاب المماليك ، والقاضي كريم الدين عبد
الكريم بن اسرايل ، والقاضي كريم الدين المجولي
وسعد الدين بن جلال الدين أحد كتاب المماليك
وأولاد المستوفي سعد الدين وأخوه بركات ،
وكمال الدين العائق مباشر أميرأخور كبير ،
وشهاب الدين أحمد بن أخي الاستادار يونس
النابلسي ، والحاج بدر العادلي المهتار ، وآخرون
ممن كان باسطنبول وأسر من أهل مصر .

وصياحهم بالنصر من عظم الدعا
وعدوه كالكلب خزيا عاوى

ولبعضهم بعضا أصابهم غدت
تبدى الاشارة والرءوس تلاوى

جانم مفدى نائب فى مصرنا
والعز فى ذى الخلفتين سماوى

لازال فى مثليهما مرقاهما
فيه على زحل بغير تهوى

يقاء ذى الملك الذى أضحى له
شرف على كسرى وقيصر حاوى

أعنى سليمان المقيم بعدله
أما اليه من تروع ياوى

والمدح ممن قانصوه له أب
بيدى على كبد العدو مكاوى

ولسانه عن حال مصر قائل
ومقاله داء الغلاء مداوى

ان فاخرت بالنيل مصر غيرها
فتواله لبلاد مصر تقاوى

ثم أشيح ان السلطان سليمان - نصره الله
تعالى - أرسل سبعة قفاطين حرير الى مشايخ
العربان الذين بالصعيد ، والذين بالغربية ، والذين
بالشرقية ، والذين بالبحيرة ، وأرسل لكل واحد
منهم مرسوما شريفا على انفراد مع القفطان

وأرسل على يد الأمير جانم الحمزاوى ، قفطانا مخملا
مذهبا للسيد الشريف بركات أمير مكة المشرفة
وأرسل قفطانا مخملا للأمير على بن عمر شيخ
عربان الصعيد . وأرسل قفطانا مخملا لشيخ
العرب واصل بن الأحذب أمير هواة . وأرسل
قفطانا مخملا الى الأمير أحمد بن بقر أمير جذام
وأمير الرايتين . وأرسل قفطانا مخملا لشيخ العرب
حسام الدين بن بغداد شيخ عربان الغربية

وأرسل قفطانا مخملا لشيخ العرب اسماعيل بن
أنشى الجوزلى شيخ عربان البحيرة ، ودرسلوا ذلك
مع المراسيم ، ومن كان منهم حصرا فى القاهرة
ليس قفطانا بخمسة ملكه الإمراء

وفى يوم الأحد رابع عشره ، خمس بين يمين
ملك الإمراء : الأمير على العثمانى . وحسب الدين
نائب القلعة ، والأمير نوح ، والأمير شيخ ،
والقاضى حسنة ، وغير هؤلاء من الكواخى . ثم
أحضر الأمير جانم الحمزاوى مرسوم السلطان
سليمان ابن عثمان - نصره الله تعالى - فقام
اليه الإمراء العثمانية قاطبة ، وملك الإمراء ، ولم
يحضر ذلك المجلس أحد من الإمراء الجزائكية .
ثم قرئ عليهم ذلك المرسوم ، فكانت انظاره باللغة
التركية ، فأحضروا من حلها بالعربية .

فكان من مضمونه أن السلطان سليمان نعت
ملك الإمراء نعتا عظيما ، وفوض له التكلم على
مصر وأعمالها ، يعزل بها من يختار ، ويولى من
يختار ، من الثغور والبلاد الشرقية والغربية وبلاد
الصعيد .

ومن مضمونه أنه اذا قدم عليه قاصد من بلاد
الروم ، لا ينعم عليه بأكثر من ألف دينار . فانه
بلغ السلطان سليمان أنه ينعم على قصاده
الواردة عليه من بلاد الروم بسال جزيل ، فمنعه
من ذلك .

ومن مضمونه أن ملك الإمراء ينظر فى أحوال
الرعية ، ويصرف للجند جوامكهم فى كل شهر
على العادة ، وأن ينظر فى أمر المعاملة فى الذهب
والفضة .

ومن مضمونه أنه أرسل يطلب جماعة من
الأصباكية يمضون الى اسطنبول ، ويحجى الى
مصر غيرهم .

وأرسل يقول لملك الأمراء أن ينظر في أمر تسعير
البيضائع بالتسح وغيره ، وأظهر غاية العدل في
مرسوم ملك الأمراء ، وأكد فيه النظر في أحوال
الرعية قاطبة . وفيه يقول الناصري محمد بن
قانسوه بن صادق :

كعب سليمان كعب خير

أعنى ابن عثمان دام ملكه

من كعبه مصر في رخاء

ومن سطاء الملوك ملكه

وفيه أشيع أن السلطان رسم للأمير جانم
الحمزاوي أنه اذا دخل الى حلب يطلع القلعة
ويأخذ المال الذي كان السلطان الفوري أودعه بها
لما خرج الى ملاقاته السلطان سليم شاه بن عثمان ،
وكان نحو ستمائة ألف دينار وكسور ، فرسم
السلطان سليمان بحمل ذلك الى ملك الأمراء خاير
بك ، وأنه يسبك الفضة ويضربها باسم السلطان
سليمان بمصر ، وتمشى في المعاملة للناس ، والله
أعلم بحقيقة ذلك هل له صحة أو لا .

وفي يوم الاثنين ثانی عشره ، نزل ملك الأمراء
من القلعة ، وعدى الى بر الجيزة ، ونزل بشبرمنت
على سبيل التنزه ، وكان صحبتته الأمير قانسوه ،
وآخرون من الأمراء الجراكسة ، والأمراء العثمانية
والقاضي شرف الدين الصغير ، والشهابي أحمد بن
الجيغان ، والقاضي يركات بن موسى المحتسب ،
وآخرون من المباشرين . وأقام بشبرمنت الى يوم
الأربعاء رابع عشرى صفر وأرسل يطلب عليقا
ودقيقا ، وغير ذلك من دجاج وأوز . وأشيع أنه
توجه من هناك الى نحو النجيلة يتصيد فتوجه
اليه الأمير جانم الحمزاوي ، وقيب الجيش
الجمالي يوسف ، والقاضي شرف الدين بن عوض
ويوسف بن أبي الفرج المفتش ، وابن أبي اصبع

وغير هؤلاء من الأعيان وأرباب الوظائف .

وفيه توفي القاضي بدر الدين محمد بن حجاج
الموقع ، وكان من الأعيان وخدم عدة أمراء
مقدمى ألوف .

واستهل شهر ربيع الأول بيوم الأربعاء ، وكان
ملك الأمراء عائبا ، فلم تطلع القضاة الى القلعة
ولم يهتئوا بالشهر .

فلما كان يوم الثلاثاء سابعه ، حضر ملك الأمراء
من تلك السرحة ، فكانت مدة غيبته في هذه
السرحة خمسة عشر يوما ، فتنزه هناك وانشرح
الى الغاية ، وتصيد عدة من الكراكي والغزلان ،
ودخل عليه جملة تقادم حافلة من مشايخ العربان
الذين بالعربية والشرقية ، والكشاف المدركين ،
ما بين ذهب وفضة وخيول وجمال وبقر وجاموس
وغنم وأوز ودجاج وقذور عسل نحل وسمن ،
وغير ذلك أشياء فاخرة تهدي للملوك .

فلما رحل من النجيلة لم يتوجه الى الاسكندرية
ولم يدخلها في هذه المرة ، بل قصد العود الى
القاهرة . فلما وصل الى قرية قليوب ، تسامع به
الناس فخرجوا اليه ، فأضافه هناك شيخ العرب
ابن أبي الشوارب ، وبات بقلوب . فلما أصبح
رحل من هناك ، وتوجه الى تربة العادلي التي
بالريدانية ، فمدت له هناك مدة حافلة ، فتعدى
هناك ورحل ، فخرجت اليه قضاة القضاة لتلقيه
فلم يجتمعوا به ، ولم يكن معه غير قاضي القضاة
محيى الدين بن الدميري فقط . ثم اصطف له
الناس على الدكاكين لأجل الفرجة ، فلم يشق من
القاهرة في ذلك اليوم ، وطلع الى القلعة من بين
الترب ، فلم يشعر به أحد .

وفي يوم السبت حادى عشره عمل ملك الأمراء
المولد النبوي ، فاجتمعت القراء والوعاظ بالدهيشة

وأرسل يقول لقضاة القضاة : لا تكلفوا حواظكم ولا تطلعوا القلعة ، فان ملك الأمراء حصل له توعدك في جسده ، فلم يحضر المولد . ثم أرسل خلف قاضي القضاة المالكي على انفراده ، وقال له : اطلع واحضر المولد . وكان قاضي القضاة المالكي من أخصاء ملك الأمراء ، وكان عنده من المقرين .

ثم ان ملك الأمراء أرسل يقول للأمراء الجراكسة والأمراء العثمانية : لا تكلفوا حواظكم ولا تطلعوا الى القلعة بسبب المولد ، فان ملك الأمراء احتجب في ذلك اليوم بالأشرافية التي بجوار الدهيشة . ولم يجلس عند المقرين ، ولا حضر السباط في ذلك اليوم ، بل قعد على رأس السباط قاضي القضاة المالكي ، والأمير برسباي ، والخازندار ، وآخرون من الأمراء العثمانية ، واقضى ذلك .

وفيه خلع ملك الأمراء على القاضي أبي السعود ابن الشحنة ، واستقر أمير جكار عوضاً عن الناصري محمد بن أحمد بن اسنبا بحكم صرفه عنها .

وفيه تغير خاطر ملك الأمراء على الطواشي مسك فرسم بتوسيطه ، ثم شفيع فيه الأمراء العثمانية فرسم بنفيه الى المدينة الشريفة ، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام . فخرج من يومه وسافر في البحر المالح ، وكان سبب ذلك أن مسك هذا لما ملك السلطان سليم شاه ابن عثمان الديار المصرية ، لم يقابله واختفى حتى رحل ابن عثمان عن مصر ، واستقر الأمير جان بردى الغزالي في نيابة الشام وسافر اليها ، فخرج مسك صجته في الخفية ، وأقام عنده بالشام ، فلما جرى للغزالي ما جرى وقتل ، حضر مسك الى القاهرة ، وقابل ملك الأمراء وصار عنده من المقرين .

وكان مسك هذا لطيف الذات ، يشتمل على

جملة من المحاسن ، منها الخط الجيد ، والقراءة الحسنة ، وغير ذلك من المحاسن ، فاتفق أن الطواشي الذي يحضر من اسطنبول رأى مسك هذا الذي كان يكره السلطان سليم شاه ، ولما دخل الى مصر هرب وتوجه الى جان بردى الغزالي فتغير خاطره عليه ، فرسم ملك الأمراء بتوسيطه ، ثم شفيع فيه من التوسيط فرسم بنفيه ، وكان مسك هذا من أعيان خدام الأشراف قايتباي

وفي يوم الجمعة السابع عشره خرجت الملكة خاتون عمه السلطان سليمان -- وقد تقدم القول أنها آتت الى مصر لتصحج -- فلما حجت قصدت العودة الى بلادها ، وعين معها ملك الأمراء جماعة من الكملية ومن الأصباهية يحفظونها في الطريق اذا سافرت . فأشيع بعد سفرها بأيام أن العربان خرجت عليها في العريش ، ونهبت أطراف بركاها من جمال وقماش وغير ذلك .

ومن النوادر الغريبة ما وقع يوم الخميس ثالث عشره ، وذلك أنه قد أشيع في القاهرة بين الناس ، أن الشهابي أحمد بن الجيعان قد شتى نفسه ، فاضطربت القاهرة في ذلك اليوم أشد الاضطراب ، ولم يشك أحد من الناس في ذلك ، لأن المقر الشهابي أحمد بن الجيعان حصل له في تلك الأيام غاية الشدائد والمحن ، وصار ممقوتا عند ملك الأمراء ، وقد تقدم القول على سبب ذلك ، فلم قويت الأشاعات بذلك ، كان الشهابي أحمد بالقاهرة ، ففسال له الأمير جانم الحمزاوي قم وانزل وشق من القاهرة حتى تخمد هذه الاشاعة ، فقام ونزل من القلعة ، وشق القاهرة . فلما رآه الناس فرحوا به وهنئوه بالسلامة ، وخمدت تلك الاشاعة الباطلة التي ليس لها صحة ، فعد ذلك من النوادر الغريبة .

وفي يوم الخميس سابعه أشيع أن شخصا منجما قال انه في يوم الجمعة ثور على الناس رياح عاصفة ، وتقع زلزلة عظيمة حتى تسقط منها البيوت ، وتقضى الناس وهم في صلاة الجمعة . فانتشرت هذه الاشاعة في القاهرة ، وانطلقت ألسنة الناس بذلك قاطبة . فاضطربت القاهرة لهذه الاشاعة ، وصار الناس يودع بعضهم بعضا ، وباتوا تلك الليلة على وجل .

فلما أصبحوا وجاء وقت صلاة الجمعة دخلوا الى الجوامع فصلوا وعلى رؤسهم طيرة . فلما قضيت الصلاة ، وخرجوا من الجوامع ، صار لهم ضجيج وهم يهتفون بعضهم بعضا بالسلامة ، ويصافحون بعضهم بعضا ، وخدمت هذه الاشاعة التي لا أصل لها .

وقد اتفق وقوع مثل هذه الواقعة في أوائل سلطنة الأشرف قايتباي . وأشيع مثل ذلك أن الناس اذا صلوا الصلاة يقبضون وهم في صلاة الجمعة ، فلما دخل الناس الى الجوامع صار على رؤسهم طيرة ، فاتفق أن خطيبا كان في الجامع الذي عند ميدان القمح ، وكان يعتره خلط مصرع ، فلما صعد المنبر عرض له ذلك الخلط المصرع ، وهو على المنبر ، فاضطرب وسقط عن المنبر ، فلما عاين الناس ذلك اضطربوا وهربوا من الجامع ، ولم يصلوا ووطنوا أن الذي أشيع حق ، فعد ذلك من اسوار واسل مصر بيس بهم عسول ... يصدقون بالمحالات الباطلة التي ليس لها صحة ا

وفي يوم الاثنين حادى عشر، نزل ملك الأمراء من القلعة وتوجه الى بولاق ، وكشف على المراكب الأخرية التي عمرها هناك ، فسيرت قدامه في البحر ذهابا وايابا ، وهو ينظر اليها والنفوط عمالة ، ثم عاد الى القلعة .

وفي شهر ربيع الآخر ، وكان مستهله يوم الجمعة ، بلع القضاة الأربعة ومنثوا ملك الأمراء بالشهر فلما تكامل المجلس حصل في ذلك اليوم تشاجر بين قاضي القضاة الحنفى على الطرابلسي ، وبين مستنبيه محب الدين سبط الشيخ بدر الدين محمد بن الدهانة ، وقد ناقضه قاضي القضاة الحنفى في القول ، وقال له حكمتك لا يجوز ، قد وليت بالرشوة . وأسعه من هذه الألفاظ المنكرة أشياء كثيرة بحضرة ملك الأمراء ، وبحضرة قضاة القضاة ومشايخ العلم ، فقال قاضي القضاة الشافعي لمحب الدين : حكمتك الذي حكمته باطل . فقال له محب الدين : ما هو صحيح منك . واستمر المجلس يتزايد في اللفظ بين الفقهاء بحضرة ملك الأمراء . وكان قاضي القضاة الحنفى أهوج رهاجا ، وعنده صعصعة وبادرة حدة مع قلة دربة .

فلما رأى ملك الأمراء المجلس قد انفض على غير طائل ، أصلح بين قاضي القضاة الحنفى وبين مستنبيه محب الدين سبط ابن الدهانة ، فاصطلحا صلحا على فساد ، وانفض ذلك المجلس .

ثم ان ملك الأمراء قال لقاضي القضاة الحنفى : لا تبقى تعارض محب الدين في أحكامه . فنزل محب الدين وهو منتصف على قاضي القضاة ، وقد بهدله في ذلك اليوم غاية البهذلة .

وفيه قدمت الأخبار من اسطنبول بأنه قد وقع بها زلزلة عظيمة ، فهدمت عدة بيوت سقطت على أهلها ، ورمت الأعمدة التي تحت الأماكن والتعب ، وكانت من الأمور المهولة . وذكروا أنه وقع مثل هذه الزلزلة في أيام الخنكار أبي يزيد جد السلطان سليمان ، فجرى عقيب ذلك ما جرى مع السلطان قايتباي ، وكسر مرتين ، وقتل من عسكره ما لا يحصى عدده .

عليهم رياح عاصفة ، فلمسا وصلت المركب الى
تسيرا دارب في البحر وغرقت هناك بكل ما فيها
من الخلائق والبضائع والأصناف . وكان فيينا
تجار معاربه وبحارة ، وكابوا قبل سفرهم صاروا
يشموشون على الناس ويسمكونهم من الطرافات
غسبا بسبب المراكب ، فكثرت الدعاء عليهم من
الناس بظلمهم ، وحصل لأهل مصر في ذلك اليوم
عايه الضرر . فلما سافرت المراكب غرق أكبرها
في يومه لما حلت من بولاق ، وذلك بدعاء الناس
عليهم .

وفيه وقعت نادرة غريبة ، وهى : أن المعلم
ابراهيم اليهودى ، معلم دار الضرب ، كان له
جاريتان احدهما حبشية والأخرى سوداء ، فوطىء
الجارية الحبشية فحبلت منه ، فوضعت بنتا ،
فعاثت تلك البنت سبعة أشهر ، ثم ان الجارية
الحبشية أظهرت أنها تريد أن تدخل الحمام ،
فلما وصلت الى الحمام هربت وتوجهت
الى بيت قاضى القضاة محبى الدين بن الدميرى ،
وقالت له : يا سيدى القاضى أنا مسلمة ، وأبديت
الشهادة بين يديه ، ثم قالت له أنا سيدى المعلم
ابراهيم اليهودى معلم دار الضرب ، وقد وطئنى
وحملت منه بهذه البنت ، وأنا صرت مسلمة ما بقيت
أقعد عنده ، فحكم قاضى القضاة باسلامها في
الحال ، وأرسل خلف اليهودى معلم دار الضرب
بسبب ابنته ، فانها صارت مسلمة تابعة لأمها ، فحكم
قاضى القضاة باسلام البنت أيضا وأمها . فقيل ان
المعلم ابراهيم دفع لقاضى القضاة خمسمائة دينار
على أن يجعل البنت تبعا لأبيها فأبى من ذلك
واستمر مصمما على حكمه ، فطلع ابراهيم
اليهودى الى ملك الأمراء وكتب قصة بشرح الحال ،
ووقف الى ملك الأمراء ، فقال له : « قاضى القضاة
حكم باسلام البنت وأمها وصارت مسلمة ، أعيدها
أنا الى دين اليهود ؟ » . فلم يطلع من يد ابراهيم

وفي يوم السبت سادس عشره ، سقطت القبة
العظيمة التى كانت على الايوان باكر النهار ،
وهذه القبة من انشاء الناصر محمد بن فلان .
فلما سقطت تفاعل الناس بزوال ملك ملك الأمراء
عن حريب ، وهذه القبة لها نحو مائتى سنة من
حين عمرت ، وكانت من خشب وفوقها رصاص ،
وكانت مغلقة بقيشاني أخضر . ولم يعمر في مصر
أكبر منها ، وكانت من نواذر الزمان .

وفي يوم الاثنين ثامن عشره توجه الأمير
شيخ العثماني الى اسطنبول ، وأرسل صحبته
تقدمه حافلة الى السلطان سليمان بن عثمان ،
وأرسل يشاور السلطان في أمور كثيرة من أحوال
المملكة ، وينتظر الجواب عن ذلك .

وأشيع أن السلطان سليمان أرسل يطلب من
ملك الأمراء نحيل بلح ليزرعها في اسطنبول ،
فشرع ملك الأمراء في تجهيز ذلك ، فقيل انه
أرسل اليه خمسمائة نخلة من البلح الحياتى ،
وهى نحيل صغار تطرح بلحا حيانيا أحمر في غاية
الحلاوة ، فأرسل تلك النخيل في صناديق خشب
وهى في طينها ، وأرسلها في مراكب الى البحر
المالح ، وتتوجه من هناك الى اسطنبول ، وأرسل
صحبتها خولة تزرعها هناك .

وفيه جهز ملك الأمراء الأخرية وبها مقاتلون
من المغاربة وغيرهم . وقد بلغه أن جماعه من
الفرنج تعبت في السواحل وتشوش على
المسافرين في البحر . ولما سافر بعض التجار من
الأروام في البحر ، وقصد يطلع من الاسكندرية
ويتوجه من هناك الى اسطنبول ، أوسق معه عدة
مراكب بضائع وأصنافا كثيرة من قماش وغير
ذلك بنحو مائة ألف دينار .

وكان في ذلك المركب رجال ونساء وصغار
وتجار من الأروام وعبيد وجوار ، فلما سافروا
من ساحل بولاق وأقلعوا ذلك اليوم ثارت

اليهودى فى هذه الواقعة شىء ، ونزل من القلعة وهو مخزى ، وعنتت الجارية وابنتها على رغب أنه .

وفيه قدمت الأخبار من الغربية أن عربان عزالة قد نزلوا على البساط بالقرب من تروجة وصاروا ينهبون الجرون ، ويرعون الزروع ، فحاربهم شيخ العرب اسماعيل ابن أخى الجويلى وكسرهم ، واحتوى على جمالهم وأغنامهم وخبولهم وغير ذلك ، ولم يترك لهم شيئا ، وهربوا ومضوا حيث شاءوا . ثم ان اسماعيل أرسل تلك الغنيمة الى ملك الأمراء ، فشكره على ذلك .

وفى شهر جمادى الأولى ، وكان مستهله يوم السبت ، طلع القضاة الأربعة وهنتوا ملك الأمراء بالشهر وعادوا الى منازلهم . وفى ذلك اليوم خلع ملك الأمراء على الأمير جانم السيفى دولات باى الأتابكى كاشف الفيوم ، وقرره أمير ركب المحمل على عادته . وهذه ثالث مرة يسافر أمير الحاج فى دولة ملك الأمراء خاير بك .

وفى ذلك اليوم نادى ملك الأمراء فى القاهرة بأن الدينار السليم شاهى يصرف بأربعين نصفا من الفضة العتيقة ، والدينار السليمانى يصرف بخمسة وستين نصفا حسابا عن كل نصف فضة من الفضة الجديدة يقع بنصفين وربيع ، عبارة عن أن الدينار السليمانى يقف فى البيع والشراء بخمسة وعشرين نصفا .

فلما نودى فى القاهرة بذلك اضطربت أحوال الناس فى تلك المعاملة ، وصارت البضائع تباع بسعرين ، سعر بالفضة الجديدة ، وسعر بالفضة العتيقة ، فضج الناس من ذلك ، وغلقت الأسواق والدكاكين ، وبطل البيع والشراء ، ووقف حال

التجار والمسيبين ، وصار النصف العتيق يصرف بستة دراهم فلوس جدد ، والفضة الجديدة تصرف بنصفين وربيع ، وقد لعب ابراهيم اليهودى فى أموال المسلمين من ذهب وفضة وفلوس جدد ، وتحكم فى أخذ ما بيد الناس من أموالهم بغير حق ، والأمر الى الله تعالى .

وفى يوم الأربعاء خامس الشهر ، اجتمع الجهم الكثير من السوقة والمسيبين وجماعة من القزازين من منية أبى عبد الله ، وجماعة من المكاسة وغير ذلك ، وحملوا على رعوسهم مصاحف وربعات وأعلاما وطلعوا الى القلعة ، وزعموا أن محبى الدين بن أبى أصبح قد ظلمهم بسبب مكس الأطرون ، وأخذ منهم على حكم المعاملة الجديدة كل نصف بنصفين وربيع ، وقد ظلمهم وصار يقيم لهم النصف من الفضة العتيقة بستة فقرة . فلما طلعوا الى القلعة لم يجتمعوا بملك الأمراء ، واحتجب عنهم ، وأرسل اليهم الأمير جانم الحمزاوى والقاضى شرف الدين الصغير كاتب المماليك . فقال لهم ملك الأمراء : يقول لكم هذا أمر السلطان فى أمر المعاملة . فكابروا ووقفوا وشكوا وتحسبوا ، فخرج اليهم جماعة من الانكشارية فضربوهم بالعصى على وجوههم ، فقتلتوا ونزلوا على أسوأ حال وهم فى غاية الذل . وفيه نزل ملك الأمراء وتوجه الى بركة الحبش على سبيل التنزه ، فجهز اليه القاضى المحتسب هناك مدة حافلة ، وأقام الى آخر النهار ، ثم عاد الى القلعة فى يومه .

وفيه نودى فى القاهرة بأن السنج والأرطال القديمة التى كانت تتعامل بها الناس من قديم الزمان تبطل جميعها من القاهرة ، وأخرجوا لهم سنج نحاس وأرطالا تسمى العثمانية ، وهى عبارة عن تسعة دراهم ، فتنقص كل مائة درهم أربعة

دراهم في سائر الأوزان قاطبة في البضائع ، حتى في المسك والعود والعنبر وغير ذلك ، فتصير كل مائة درهم ستة وتسعين درهما ، وعملوا مثل ذلك في القبان أيضا ، وخرجوا على الناس في استعمال تلك السنج والأرطال ، وأوعدوا السوق أن كل من خالف في ذلك شنىق من غير معاودة في ذلك . وقد تقدم القول أنهم أبطلوا الذراع الهاشمي ، وأخرجوا الذراع العثماني الذي يزيد على الهاشمي خمسة قراريط ونصف قيراط . وكتبوا على التجار قسائم ألا يستعملوا الا الذراع العثماني فقط فشنىق ذلك على الناس قاطبة .

وفي يوم السبت ثامن الشهر ، رسم ملك الأمراء بشنىق أنفار منهم يهودى ونصرانى ، وقد ظهر عليهم شىء من الزغل في الذهب والفضة ، وقد نم النصرانى على اليهودى ، فكبسوا على اليهودى في بيته ، فوجدوا عنده آلة الزغل ، وشخص آخر مقدم درك الأزبكية ، أشيع أنه قتل في دركه شخصا من الانكشارية ، وشخص آخر قيل هو ابن أنس التى كانت في الأزبكية وغرقوها قبل تاريخه ، فحوزقوا الأربعة في يوم واحد فأما اليهودى فحوزقوه عند باب الصاغة ، والنصرانى خوزقوه بالقرب من المارستان ، وأشيع عنه أنه لما حوزقوه أسلم وتلفظ بالشهادتين فلم يلفظوا الى اسلامه ، فحوزقوه وأقام يوما وليله وهو في قيد الحياة يتكلم حتى مات بعد ذلك ، وأما مقدم درك الأزبكية فحوزقوه في الأزبكية عند الدكة بالقرب من بركة قرموط ، عند المكان الذى قتل فيه الانكشارى ، وأما ابن أنس القوادة التى غرفوها ، فحوزقوه في الأزبكية ، قيل انه كان له جرة في الانكشارى الذى قتل .

ومن الحوادث الشنيعة في ذلك اليوم ، أن جماعة من الانكشارية مروا بذلك النصرانى الذى خوزقوه

عند باب المارستان ، فوجدوه يتلفظ بالشهادتين ، فطلب شربة ماء من الانكشارية الذين حوله ، وكان أربعة ممالك من ممالك الأمير قايتباى الدوادار واقفين مع الانكشارية ، فرفقوا بذلك النصرانى وأنزلوه الى الأرض وقلعوا الحازوق من بطنه ، وسقوه شربة ماء وأرقدوه على الأرض ، فحصل بين الانكشارية وبين ممالك الأمير قايتباى الدوادار تشاجر بسبب ذلك النصرانى ، فأتسع الشر بينهم ، فسحب بعض ممالك الأمير قايتباى خنجرا وهاش به على الانكشارية ، ففجرح منهم شخص وسأل دمه ، وانقطعت جوخته ، فتكاثرت الانكشارية على الممالك فهربوا منهم ، وتوجهوا الى بيت الدوادار الذى بين القصرين ، فتبعهم الانكشارية وهجموا عليهم في بيت الدوادار ، فأغلقوا الباب في وجوههم ، فحنقوا منهم وقصدوا أن يحرقوا الباب ، وثارت فتنة عظيمة كما يقال . « ومعظم النار من مستصغر الشرر » .

فلما بلغ الوالى ذلك أرسل دواداره فأعاد النصرانى الى الخازوق ثانيا وفيه الروح ، فلما طلع النهار بلغ ملك الأمراء أحبار هذه الواقعة فتعير خاطره على الأمير قايتباى الدوادار بسبب ممالكه ، فأرسل يطلب منه ممالكه الذين فعلوا هذه الفعلة ، فطلع اليه الأمير جاني بك أخو الدوادار ، فلما رآه ملك الأمراء طفق فيه بالكلام ، وقال له ان لم تحضر هذه الممالك الذين أثاروا هذه الفتنة ما يحصل لك خير ، فنزل من عنده وهو في غاية النكد .

ثم ان ملك الأمراء نادى في القاهرة : كل من أخفى عنده مملوكا من ممالك الدوادار شنىق على باب داره من غير معاودة ، والذى يحضر مملوكا منهم له مائة دينار وققطان مخمل .

سليمان ، فأُنعِمَ عليه ملك الأمراء بمال له صورة ، وكذلك سائر الأمراء العثمانية وأرباب الدولة ، فدخل عليه فوق العشرة آلاف دينار ، ودخل عليه مثل ذلك بالنعام وحلب وسائر التواب .

وفي يوم الجمعة رابع عشره ، أشيع فدوم شيخ العرب الأمير أحمد بن قاسم بن بقر ، ويعرف بأبي الشوارب ، وكان توجهه الى الأمير جان بردي الغزالي ، وطلب له من ملك الأمراء الأمان على نفسه ، فحضر الى القاهرة وقابل ملك الأمراء فخلع عليه ، وصار عنده من المقرين فأقام مدة على ذلك . ثم بدا لملك الأمراء قتله ، فأرسل الى جاني بك كاشف الشرقية بأن يقطع رأسه ، فتوجه اليه جاني بك وهو في منية أبي الحارث بالدقهلية ، فهجم عليه وقطع رأسه ، وقتل معه شخصا آخر من مشايخ عربان العايد ، فلما قتل الأمير أحمد بن قاسم بن بقر نهبت داره ، وسييت نساؤه وأولاده ولم يعلم أحد ما سبب ذلك .

ثم ان الأمير جاني بك الكاشف أرسل رأس الأمير أحمد بن قاسم ، ورأس شيخ العايد ، فرسم ملك الأمراء بدفن الرؤوس ، وقد أخذ ملك الأمراء بشأره من أحمد بن قاسم وكان في قلبه منه شيء من حين توجهه الى الغزالي نائب الشام فكان كَمَا يقال في المعنى :

قالت ترقب عيون الجي ان لها

عيننا عليك اذا ما نمت لم تتم

وفيه توفي الأمير تمرآز الشمسي السيفي الأتابكي الذي كان كاشف البحرية ، وكان لا بأس به .

وفي يوم الاثنين سابع عشره ، قبض ملك الأمراء على المقر الشهابي أحمد بن الجيعان ، وسجنه بالقاهرة بالعرقانة ، وكان ملك الأمراء متحملا منه

فلما كان يوم الاثنين عاشر الشهر نزل ملك الأمراء الى الميدان وأحضر بين يديه مملوكين من مماليك الأمير قايتباي الدوادار ممن فعل هذه الفعلة ، وقد قبض عليهما الوالي ورسم بتوسطيهما فوسطوهما على باب الميدان ، ووسط معهما بواب الدوادار أيضا لكونه أغلق في وجه الانكشارية الباب ، فراح البواب ظلما . وكان عند ملك الأمراء الأمير قايتباي فمقته ملك الأمراء غاية المقت .

فلما رسم ملك الأمراء بتوسط البواب ، قام الأمير خير الدين نائب القلعة ، والأمير نصوح العثماني ، وشفعا في بواب الدوادار فان له أولادا وأبا شيخا كبيرا ، فلم يلتفت الي شفاعتها ، فقاما وقبلا يدي ملك الأمراء ثاني مرة ، وهو لا يزداد الا قسوة ، وحصل للأمير قايتباي في هذه الحركة غاية البهدة ، وانحطت كلمته عند الناس قاطبة .

وقيل ان الأمير قايتباي الدوادار دفع للانكشاري الذي قالوا انه جرح مائة دينار وأعطاه جوخة كانت عليه وجبتي حرير بفرو ستجاب في نظير جوخته التي شرطت ، وأعطاه خنجرا عوضا عن خنجره الذي زعم أنه سقط منه ، وأرضاه بكل ما يمكن ، وهذه من أشنع الحوادث وأشنعها .

ومن هنا نرجع الى أخبار ذلك النصراني الذي أسلم لما خوزقوه ، فاستمر يتلفظ بالشهادتين حتى مات ، فشاوروا عليه قاضي القضاة كمال الدين الطويل الشافعي ، فرسم بأن يغسلوه ويكفنوه ويصلوا عليه ويدفنوه في مقابر المسلمين ، ففعلوا به ذلك ، وسار جماعة من العوام قدام نعشه حتى دفنوه بعد الصلاة عليه في جامع الحاكم .

وفي يوم الخميس ثالث عشره ، سافر القاصد الذي كان حضر وبشر بأن الأمير مصطفى قد تزوج ابنة السلطان سليم شاه ، وهي أخت السلطان

في الباطن غاية التحمل ، وكانت هذه أول كائنة وقعت له مع ملك الأمراء ، وأمره الى الله تعالى ، فأقام أياما وهو في الترسيم .

ثم أن ملك الأمراء خلع عليه بعد ما أورد مالاله صورة من التقسيط الذي كان عليه ، وقد نفذ منه جميع ما معه من المال ولم يبق على ملكه لا رزقة ولا اقطاع ولا بيوت ولا دكاكين ، وباع سائر قاعاته التي على بركة الرطلى فأشترها الأمير قاسم الشرواني الذي كان نائب جدة بأبخس الأثمان ، وجرى عليه شدائد ومحن دون أقاربه الذين مضوا ، وما لاقى خيرا في هذه الدولة وسيأتي الكلام على ذلك في موضعه .

وفي يوم الاثنين كان عيد الفصح عند النصارى — وهو أول يوم من الخمسين — وهو أكبر أعياد النصارى ، فحكى عن يونس النصراني مباشر ملك الأمراء أنه صنع في ذلك اليوم خمسين بطة من الدقيق برسم الكعك والخشتان ، واثني عشر قنطار شيرج ، وعشرة قناطير سكر ، وعشرين ألف بيضة برسم صباغ البيض الذي يفرق على الناس ، ودخل عليه تقادم من الأعيان وأشياء كثيرة من أغنام وأوز ودجاج وغير ذلك .

وفيه وقعت نادرة غريبة وهي : أن شخصا يقال له ابن الشاطر حسن المصارع ، خرج من بيته بعد العصر ، وركب على حماره ، ثم جلس على مصطبة تحت بيت في الجسر ليتفرج ، فاضطرب ساعة يسيرة ثم طلعت روحه في الحال ، وصار ملقى على الطريق ، فمضى الناس الى ولده وزوجته وأخبروهما بموته ، فأحضروا له نعشا وحملوه عليه بعد المغرب ، ومضوا به الى بيته ، وكان ذلك الرجل يبيع الورق ، فعوذ بالله من موت الفجأة على حين غفلة .

وفي يوم السبت ثاني عشره ، قدم أمير من أمراء السلطان سليمان ، وقد طلع من البحر من نجر الاسكندرية ، فلما بلغ ملك الأمراء قدومه رسم للأميرجانم الحمزاوي والأمير قايتباي الدوادار أن يخرجوا الى ملاقاته ، فخرجوا الى وردان ولاقوه من هناك ، ومدوا له هناك مدة حافلة ، وصارت الكشاف ومشايخ العربان تمد له المدات بطوله الطريق ، فلما وصل الى بولاق نزل اليه ملك الأمراء ولاقاه من هناك .

فلما كان يوم الأربعاء سادس عشره ، دخل الأمير سنان بك الذي أرسله السلطان سليمان الى مصر ليقوم بها عوضا عن الأمير نصوح ، ويسافر الأمير نصوح الى اسطنبول . قيل ان الأمير سنان هذا كان عند السلطان سليم شاه بن عثمان من المقربين ، وكان عنده بوابا لما دخل الى مصر ، وكان موكلا يحفظه ليلا ونهارا ، فلما رجع السلطان سليم الى اسطنبول جعله نائبا على بلد يقال لها انطاكية ، فلما تسلطن ولده سليمان أرسله الى مصر لبيكون أمينا على ملك الأمراء . فلما توجه اليه ملك الأمراء أركبه فرسا بسرج ذهب ، وعرقته زركش ، وألبسه قفطانا مذهبا ، فرك من بولاق ، وملك الأمراء صحبته ، فتوجهوا من باب البحر ، وعلى رأسه صنجق حرير أحمر ، وخلفه طبلان وزمران ، وكان معه نحو مائة مملوك مشترواته ، فلما دخل من باب البحر استمر في ذلك الموكب حتى شق من القاهرة وكان ذلك اليوم مشهودا ، فانزلوه في بيت الأتابكي قرقماس الذي عند حوض العظام ، ومدوا له هناك مدة حافلة .

ثم أشيع أنه لما دخل الأمير سنان ، أخبر أن السلطان سليمان بن عثمان جهز خمسمائة مركب ، وشحنها بالسلاح والمقاتلين ، وخرج بنفسه الى قتال أهل رودس من الفرنج ، وقد جمع من

العساكر ما لا يحصى عددهم ، وهو قاصد التوجه اليهم

قيل ان الأمير سنان لما مر على ضياع الشرقية التي على شاطئ البحر ، وقف اليه الجم الكثير من الفلاحين واستغاثوا به ، ودعوا بالنصر للسلطان سليمان ابن عثمان ، وقالوا قد خربنا من الظلم يأخذوا منا النصف من الفضة الجديدة بصمغين وربع وعند الحساب يقيمونه علينا بنصف فضه ، ما يحل من الله سبحانه وتعالى ، فوعدهم بالنظر في أحوالهم ولم يظهر لقوله نتيجة فيما بعد ، واستمر كل شيء على حاله .

وفي يوم الخميس سابع عشره طلعت مقدمة الأمير سنان بك الى ملك الأمراء ، فكان من جملتها أربعة مماليك صغار مرد چراكسه ، وحملان ما بين شربات وطاسات وغير ذلك وحملان شقق برساوى مذهب ، وأثواب محمل ملون وعليها فرو سمور ووشق وسنجاب ، وحملان أقواس وغير ذلك .

وفي يوم السبت سلخ هذا الشهر طلع الأمير سنان بك الى القلعة ، وحصر الأمراء العثمانية ، ثم ان الأمير سنان أحضر مرسوم السلطان سليمان الذى حضر على يده ، فلما قرئ عليهم ، كان من مضمونه الوصية بالرعيه ، والنظر في احوال الناس في أمر المعاملة ، وأرسل يهول لملك الأمراء انه لا يمكن أحدا من الانكشارية من النزول الى المدينة حتى لا يشتكى أحد من الناس منهم ، وان ملك الأمراء لا يصرف لهم في كل يوم أكثر من درهمين فضة ، كما كانوا في اسطنبول ، وأرسل يقول له أشياء كثيرة من تعالقات الملكة .

وفي شهر جمادى الآخرة - وكان مستهله يوم الأحد - طلع القضاة الأربعة وهنتوا ملك الأمراء

بالشهر ثم عادوا الى منازلهم . وقيل لما طلع القضاة الى القلعة للتهنئة نزل ملك الأمراء لزيارة الامام الشافعى والامام الليث فأبطأ عليهم حتى اضحى النهار وهم جلوس بجامع القلعة ، فلما عاد جلس بالدهيشة وأرسل خلفهم فهنئوه بالشهر ونزلوا

وفي ذلك اليوم حضر الشريف البردينى من اسطنبول ، وعلى يده مرسوم من عند السلطان سليمان متوج بعلامته ، بأنه استقر به ناظر المدرسة الشيخوية وشيخها ، وكذلك مشححه مدرسة الأمير قانى باى الجركسى التى في الرملة ، والنظر على جهات السادة الأشراف فاطبة ، فلم تلتفت الى ما في مراسيمه ، وعز ذلك عليه ، فانه أخذ عدة أنظار ، ونزع آبدى المتحدنين عليها

ومما وقع في ذلك اليوم أن شحصا وقف الى ملك الأمراء بنفسه واشتكى فيها المقر الشهابى أحمد بن الجيعان شكوى بالعه ، وكان ملك الأمراء متغيظا عليه ، فلما شكاه ذلك الرجل قبض عليه ملك الأمراء وسجنه في محزون عند بواب الحوش ، ورسم أن لا يدخل عليه أحد من جماعته ، ولا نفرش تحته شيء ولا حصر ثم قبض على دواذره محمد وضربه بين يديه وسجنه بالعرقانة داخل الحوش ، وقرر علسه ألف دينار بوردها على الحامكة

وفي يوم السبت سابعه ، دخل العسكر الذين أرسلهم السلطان سلمان الى مصر بقييمون بها ، والدين كانوا بها سوجهون الى اسطنبول ، فلما وصل العسكر الى الريدانية ، نزل ملك الأمراء الى تربة العادلى ، ولاقى العسكر الذين حضروا من اسطنبول ، وكان باشهم سسمى الأمير خضر ، وكان ذلك العسكر كله من الاصباغنة ، فيل اهم فوق ألف اسان ، فدحل ملك الأمراء من باب النصر

رعاة الشاة تحمى الذئب عنها

فكيف اذا الرعاة هي الذئاب ؟

وفي يوم الأحد خامس عشره ، خرج الأمير على العثماني باش العسكر الاصباهية ، وتوجه الى خيامه بالريدانية .

ثم في يوم الخميس تاسع عشره ، خرج الأمير نصوح العثماني وصحبته من كان تأخر من الاصباهية ، فلما سافروا سكن الأمير سنان في بيت الأمير أزدمر الدوادار عوضا عن الأمير نصوح ، وسكن الأمير خضر في بيت الأمير طراباي ، عوضا عن الأمير على الذي توجه الى اسطنبول .
وفي يوم الجمعة عشريه ، حضر القاضى بركات ابن موسى المحتسب ، وكان مسافرا نحو المنزلة ، فأقام بها مدة ثم رجع ، فلما طلع الى القلعة ، وقابل ملك الأمراء خلع عليه ، فنزل من القلعة وهو في موكب حافل . ففى ذلك اليوم أشهر المناداة في القاهرة بأن الفلوس الجدد كل فلسين بدرهم ، فحصل للسوقة غاية الضرر بسبب ذلك .

ثم ان القاضى بركات بن موسى المحتسب ضمن الشهابى أحمد بن الجيعان ، وأفرج عنه من الترسيم ، وكان له مدة في الترسيم كما تقدم ، ونزل الى منزله .

وفيه عزم الأمير سنان على ملك الأمراء فنزله اليه ملك الأمراء فمد له مدة حافلة ، وحضر أيضا الأمير خضر فأقام ملك الأمراء عنده الى قريب الظهر ، وركب من عنده وطلع الى القلعة .
وفيه رسم ملك الأمراء بشنق ثلاث أنفس ، وكان ذنبهم أنهم سرقوا شيئا بسيرا من الخينار الشنبر ، فشنقوا بسبب ذلك وراحوا ظلما .
وفي يوم الاثنين ثالث عشره ، أثنق ملك الأمراء على العسكر جامكية ثلاثة أشهر ، وأخر لهم ثلاثة لأنهم كان لهم ستة أشهر مكسورة لم تصرف .

وشق من القاهرة في موكب حافل ، فلما دخلت الاصباهية الى مصر طفقوا في المدينة بسبب البيوت التي ينزلون بها ، فصاروا يشوتون على الناس ويخرجونهم من بيوتهم غصبا بالضرب ويسكنون بها .

ثم أشيع أنه حضر صحبة العسكر شخص من العثمانية يزعم أنه قاض من قضاة ابن عثمان وعلى يده مراسيم من عند السلطان سليمان بأن يستقر في وظيفة يقال لها القسام ، وموضوع هذه الوظيفة أن يكون متحدثا على جميع الترك قاطبة ، الأهلية وغير الأهلية ، ولا يعارضه أحد من الناس في ذلك ، ويأخذ مما يتحصل من كل شركة العشر لبيت المال الأهلية وغير الأهلية ، فحصل للناس بسبب ذلك الضرر الشامل .

ومن مضمون مراسيمه أن لا أحد من المماليك الجراكسة وأولاد الأتراك قاطبة وأرباب الدولة والاصباهية والانكشارية يعقد عقدا على بكر أو ثيب الا عند ذلك القسام ، ويأخذ على عقد البنت ستين نصفا ، والثيب ثلاثين نصفا ، فأخذ قسائم على قضاة القضاة بذلك فاضطربت أحوال الناس لذلك ، ولم يتعصب أحد من قضاة القضاة لمنع ذلك عن المسلمين ، وقد خافوا على مناصبهم من العزل ، وتغافلوا حتى ضعفت شوكة الاسلام في أيامهم ، واستطالت قضاة الروم عليهم .

وقد ترادفت الحوادث المنكرة ، والبدع الشنيعة المخالفة للشريعة في هذه الأيام ، وسيأتى الكلام على ذلك في موضعه . فصار يوسف بن أبى الفرج مفتش الرزق والاقطاعات ، وفخر الدين بن عوض مفتش الرزق الأحباسية التى بالصعيد ، والأمير على العثماني مفتش الأوقاف قاطبة ، والقسام الذى حضر قسام الترك ، وملك الأمراء يعينهم على ذلك ، فأين المهرب ؟ كما يقال في المعنى :

النواب والشهود والقضاة قاطبة ، وضاق الأمر على الناس أجمعين .

وفي يوم الجمعة سابع عشره ، وقعت حادثة مهولة ، وهى أن ملك الأمراء أرسل حلف الشهابى أحمد بن الجيعان شاويشا ، فلما حصر بين يديه ، بطحه على الأرض وضربه ضربا مبرحا حتى قيل تبدل عليه خمسة وعشرون بوبة يضربونه بالعصى . ثم انه طلب القاضى شرف الدين الصغير كاتب المماليك — وكان مريضا ملازم الفراش وعينه موجوعة — ولما أرسل خلفه اعتذر بأنه قد شرب دواء وهو مريض . فحنق منه ملك الأمراء فأرسل اليه أربعة شاويشية ، فحملوه من فراشه وأركبوه غصبا ، فلما طلع الى القلعة ووقف بين يدي ملك الأمراء بطحه الى الأرض وضربه ضربا مبرحا حتى قيل تبدل عليه خمسة وعشرون بوبة ، وهو يقول للمماليك الذين يضربونه : « اضربوه قوى هذا عدوكم الأكبر » فضربوه حتى كاد أن يموت ويهلك .

ثم طلب القاضى شرف الدين بن عوض ، فلما حضر بطحه على الأرض وضربه ضربا مبرحا دون ضرب الشهابى أحمد بن الجيعان .

ثم طلب مجيبى الدين بن أبى أصعب وهم بضربه ، فشهد له الأمير برسباى الحنازندان أنه غلق ما عليه من التقسيط ، فأقامه ولم يضربه فى ذلك اليوم .

ثم رسم ملك الأمراء بسجن الجميع فى العرقانة فسجنوا فيها ، وقد خرب بيت أولاد الجيعان عن آخره . وقد اشتد غضب ملك الأمراء على المباشرين فى ذلك اليوم ، وكان يوما مشهودا بالنكد عليهم قاطبة ، وقيل لم يسجن بالعرقانة سوى القاضى شرف الدين الصغير ، وسجن الشهابى أحمد بن

وفى ذلك اليوم قطع ملك الأمراء جوامك كثير من الجراكسة وأولاد الناس ، وصرف لهم بحكم النصف ، فجعل لكل واحد ألف درهم ، ويصير طرخانا ، فشق ذلك على المماليك الجراكسة ، وكان فيهم من هو كفاء للأسفار والتجاريد ، وفيهم من هو شاب بطل ، وكذلك أولاد الناس .

وفى أواخر هذا الشهر حضر أولاق من اسطنبول فى البحر المالح الى الاسكندرية ، ثم قدم الى مصر وطلع الى ملك الأمراء ، وعلى يده مرسوم من عند السلطان سليمان ابن عثمان ، فكان من مضمونه أن الواصل الى الديار المصرية الذى يسمى سيدى چلبى هو أعظم قضاة السلطان سليمان وأكبرهم ، وأن السلطان سليمان رسم بإبطال القضاة الأربعة الذين بمصر ، ويصير قاضى العسكر الذى هو قادم بتصرف فى الأحكام الشرعية على المذاهب الأربعة ، وأن سائر النواب والشهود تبطل قاطبة ، ويقتصر الأمر على أربعة نواب من كل مذهب نائب لا غير ، وكل نائب يقتصر على اثنين من الشهود لا غير ، وأن النواب الأربعة يكونون فى الصالحية لا غير ، وأن لا أحد يعقد عقدا ، ولا يوقف وقفا ولا يكتب وصية ولا عتقا ولا اجارة ولا حجة ولا غير ذلك من الأمور الشرعية حتى تعرض على قاضى العسكر بالمدرسة الصالحية دائما .

فلما وقف ملك الأمراء على مرسوم السلطان سليمان ابن عثمان ، أرسل يهول للقضاة الأربعة اصرفوا الرسل عن أبوابكم ، والنواب قاطبة والوكلاء ، والزموا بيوتكم الى أن يحضر قاضى العسكر ، حسبما رسم به السلطان سليمان ابن عثمان . فامتلوا ذلك وصرفوا من كان على أبوابهم من الرسل والوكلاء ، فاضطربت أحوال

الجييعان وابن عوض عند باب الحوش الى أن يكون من أمرهما ما يكون .

أقول ان أولاد الجييعان قد خدموا سبعة عشر سلطانا وباشروا ديوان الجيش وكتابة الخزانة في أوائل دولة الأشرف برسباي ، وكان أول اشتهارهم وظهورهم في دولة الملك المؤيد شيخ ، وذلك نحو مائة وعشرين سنة ، فما أهينوا فيها قط ولا ضربوا ولا صودروا ولا جرى عليهم قط تشويش ، وهم في كل دولة معظمون مكرمون ، وما تبهدلوا قط ، وما جرى عليهم مثل ما جرى علي الشهابي أحمد هذا ، وكانت السلاطين تعظمهم غاية التعظيم الى غاية دولة الأشرف الغوري .

وفيه وقعت حادثة غريبة ، وهي أن شخصا من تجار الروم بخان الخليلي يقال له الخواجا محمود العجمي التبريزي ، وهو في سعة من المال ، وكان يقرض أعيان المباشرين المال بالفوائد الجزيلة ، ويأخذ الربا من الناس على القرض ، ولا سيما المحتاج لذلك . فاتفق أنه سكر يوما وأتى الى منزله ، فوجد جواريه واقعات في بعضهن ، وتقاتلن قتالا مهولا ، فحنق منهن ، فضرب جارية حبشية منهن على ضلعها ، فجاءت الضربة صائبة فماتت الجارية من وقتها ، وكان معه منها أولاد ، وكادت الأشلة تقوم عليه من الناس من أهل الحارة لأجل ذلك ، فطلع الى ملك الأمراء وفص عليه القصة بأمر تلك الجارية واعترف بقتلها ، فغضب عليه ملك الأمراء ورسم بمسكه ، ثم أرسله عند الوالي ، فركب الوالي وتوجه الى بيت الخواجا محمود ليكشف عن أمر تلك الجارية كيف قتلت ، فوجد الخواجا محمودا كان ظالما عليها ، وقد قتلها بغير ذنب ، وقد شهد أهل الحارة أنه يسكر كل ليلة

ويعربد في الجوارى ، فطلع الوالي الى ملك الأمراء وأخبره بسيرته القبيحة ، وأنه عاش على غير الطريق ، وأثخن جراحاته عند ملك الأمراء ، فرسم بسجن الخواجا محمود في العرانة ، وقيل انه سأل ملك الأمراء أن يدفع اليه ألف دينار فأبى من ذلك ، ولو أن الخواجا محمودا أرضى الوالي بمائة دينار ، وستر عليه هذه الكائنة ، ما وصل الأمر الى ذلك ، ولكن اتسعت هذه الواقعة الى الغاية .

وأشيع أن ملك الأمراء طلب منه عشرة آلاف دينار ، وهذا كله آفة الربا الذي كان يأخذه من الناس ، فانه كان يقرض الألف دينار بألف وخمسمائة دينار ، والذي خبث لا يخرج الا نكدا ، فختم ملك الأمراء على حواصله . ثم شفع فيه بعض الأمراء العثمانية ، فأخذ ثلاثة آلاف دينار . ثم ان ملك الأمراء تتبع أصحابه الذين كان يسكر معهم ، فأخذ من كل واحد منهم ألف دينار ، وكانت هذه السكرة سكرة الشوم على الخواجا محمود وأصحابه .

وفي يوم الأحد تاسع عشره ، عرض ملك الأمراء القضاى شرف الدين الصغير والشهابي أحمد بن الجييعان وشرف الدين بن عوض ، وقصد ضربهم ثانيا ثم وضعهم في الحديد ، ورسم للوالي أن يشنق الثلاثة على أبواب بيوتهم ، واحتاط بهم مقدمو الوالي ، فضمنهم القضاى بركات بن موسى المحتسب الى باكر النهار ، حتى يسعوا في سداد ما كان تأخر عليهم من التقاسيط التي تأخرت في البلاد ، فأخذ الشهابي أحمد بن الجييعان في أسباب بيع بيوته ورزقه وأملاكه التي كانت على بركة الرطلى ، فاشتراها الأمير قاسم الشرواني بأبخس الأثمان ، ولم يبق بيد الشهابي أحمد لا

ملك ولا رزقة ولا بيت ولا ربع ولا دكان ولا شيء
قل ولا جل .

ثم ان أخته باعت جميع ما تملكه من مصوغ
وحلي ، حتى باعت البسط من تحتها والطراريح
واللحف والمخدرات وأثاث البيت ، وفعلوا مثل
ذلك بسراريه وجواريه الموثقات ، وغير ذلك من
حاشيته ، وعبيده وغلما نه .

ثم ان القاضي عبد الجواد أخا القاضي شرف
الدين الصغير ، أخذ في أسباب ما يؤخذ على أخيه
من التقسيط ، فافترض وتداين وقد أشرف على
التخليق وكذلك القاضي شرف الدين بن عوض .

وفي يوم الاثنين سلخ هذا الشهر ، أشيع أن
ملك الأمراء يقصد أن يعرض العسكر ، فطلع
العسكر الى القلعة قاطبة ، فلم يخرج ملك الأمراء
في ذلك اليوم ، وأرسل يقول للعسكر : العرض
يوم السبت ، فانفضوا ونزلوا من القلعة ، ولم
يعرضوا في ذلك اليوم .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة الشريف على بن
هजार أمير الينبع ، توفي هو ووزيره أحمد بن زحام
في جمعة واحدة ، وكان من خيار من ولى امرية
الينبع .

وفي ذلك اليوم نودى في القاهرة بأن الغريب
يسافر لأهله وألا يقيم بمصر غريب . وكان
سبب ذلك أنه أشيع أنهم قبضوا على شخصين من
الأعجام زعموا أنهم جواسيس من عند اسمعيل
شاه الصفوى .

وفي شهر رجب ، وكان مستهله يوم الثلاثاء
أهل هذا الشهر والناس في أمر مريب ، بسبب
ما وقع من الحوادث من عزل القضاة الأربعة وسائر
نوابهم ، والشهود قاطبة ، وما وقع للمباشرين من
هذه الكائنة العظمى .

ومنها أمر المعاملة التي حصل للناس منها غاية
الضرر ، ولا سيما الفلاحين يقبضون الخراج منهم
على حكم الفضة الجديدة بنصين وربع ، وقيمو نه
عند الحساب بنصف واحد ، وفد تزايد الاضطراب
في هذه الأيام جدا من وجوه كثيرة .

وفي يوم الأربعاء ثانيه أشيع هروب شيخ العرب
بيبرس بن بقر ، وأنه توجه الى نحو الطور
وأخوه عبد الدايم بالبرج في القلعة ، وهو مقيد ،
وله نحو ثلاث سنين في البرج لم يفرج عنه ، وصار
أبوهم الأمير احمد بن بقر هو المتكلم في الشرقية قاطبة .
وفي هذا الشهر قدم الزيني عبد القادر بن الملكى
الذى كان توجه الى اسطنبول مع من توجه من
الأسرى ، فأفرج عنه السلطان سليمان ابن عثمان
مع من أفرج عنه .

وفيه نزل ملك الأمراء الى قصر ابن العيني
الذى بالمنشية على سبيل التنزه ، فأقام هناك الى
ما بعد العصر ، فأرسل اليه القاضي بركات بن
موسى المحتسب هناك مدة حافلة على حكم
ما تقدم له قبل ذلك .

وفي يوم الخميس ثالثه ، طلب ملك الأمراء
الشهابى أحمد بن الجيعان وشرف الدين بن
عوض ، فلما مثلا بين يديه رسم بضرهما ضربا
مبرحا فضربا حتى أشرفا على الموت ، وكانا في
غاية الألم مما نالهما من شدة الضرب الأول ، وجاء
هذا الضرب الثانى زيادة على ذلك ، وأمرهما
الى الله تعالى .

وفي يوم السبت خامسه ، نزل ملك الأمراء الى
الميدان ، وجلس به وعرض العسكر قاطبة ، وعين
منهم جماعة كثيرة من المماليك الجراكسة نحو ألف
وخمسمائة مملوك ، وقال لهم : كونوا على برق ان
طلبكم السلطان من البحر توجهوا اليه ، وان
طلبكم من البر توجهوا اليه .

وفي ذلك اليوم طلع ملك الأمراء وقطع جوامك
كثيره من العسكر ، وصرف لهم بحكم النصف من
الجامكية

وفي يوم الأحد سادسه بودى فى القاهرة بأن
كراء بيوت الأوقاف التى تحت نظر التضاة وغيرهم
لا يقبضوه الا على حكم المعاملة الجديدة كل
نصف بصفين وربيع ، وأن الأشرى الذهب بصرف
بسبعة عشر نصفاً من الفضة الجديدة ، فشق ذلك
على الناس قاطبة ، وحصل لهم غارة الضرر .

وفي يوم الاثنين سابعه ، عرض ملك الأمراء
جماعة من أمراء الجراكسة ، ما بين أمراء طبلخانات
وعشراوات ، فقطع رواتبهم التى كانت تصرف
لهم ؛ ثم رسم بأن يصرف لهم بحكم النصف من
ذلك ، كما فعل بالماليك الجراكسة ، فحصل لهم
فى ذلك اليوم كسر خاطر عظيم ، وكان فيهم
شيوخ من القرائصه الأعوات

وفي يوم الخميس عاشر الشهر ، قدم قاضى
العسكر الموعود به المسمى بسيدى جلى ، واستمر
ملك الأمراء بصحبته الى أن أنزله فى بيت الأمير
جام مصبغة ، الذى خلف المدرسة النورية ،
وأرسل اليه مدة حافله ، علما استقر هناك ، أتى
اليه قاضى القضاة الشافعى كمال الدين الطويل ،
وقاضى القضاة المالكى محبى الدين الدميرى ،
وقاضى القضاة شهاب الدين الفوحى الحنبلى ،
وكان قاضى القضاة الحنفى مريضا فلم يحضر اليه ،
فقبل لما دخلوا عليه لم يفهم لهم ولم بعضهم ، وكانت
صفتة أنه شيخ هرم ، أبيض اللحية ، طويل القامة ،
وعلى عينه اليمنى فص ، فلم ينظر الا بعين واحدة ،
وهو فصيح اللسان باللغة العربية ، حسن المحاضرة
ولكن قال القائل فى المعنى :

لا تشكرن امرأ حتى تحربه
ولا تدمنه من غير بجريب
فشكرك المرء ما لم تبلة خطأ
وذمه بعد شكر محض تكذيب

وفي يوم السبت ثانى عشره ، بودى فى القاهرة
بابطال الفضة العتيقة قاطبة ، وأنها تدخل الى دار
الضرب .

وفي ذلك اليوم نزل ملك الأمراء الى الميدان ،
وجلس به وأحصر الأمراء العثمانية ، والأمير
قايتباى الدوادار ، ثم حضر قاضى العسكر
وأخرج مرسوم السلطان سليمان الواصل على
يده ، فكانت ألفاظه باللغة التركية ، فأحضروا من
قرأ ذلك فكان من مصموه الوصيه بالرعية
قاطبة ، وانصاف المظلوم من ظالمه ، واصلاح المعاملة
فى الذهب والفضة بين الناس . وقد تعاطم عليهم
فاضى العسكر ، فلم يجلس بيهم ، ولا حضر قراءة
مرسوم السلطان . ومن جملة ألفاظه نعت قاضى
العسكر ، فكان من نعتة أوصاف جميله تختص
به ، وأن يكون له التكلم فى الأحكام الشرعية على
المذاهب الأربعة ، ويحكم فى المدرسة الصالحية بين
الناس .

ثم ان قاضى العسكر جعل شحصا من العثمانية
يقال له القاضى صالح أفندى نائبا عنه ، يحكم فى
المدرسة الصالحية بين الناس ، وكان حنفيا ، ثم ان
قاضى العسكر استتاب شحصا آخر قال نه فتح
الله ، وكان من العثمانية ، وكان شافعى المذهب ،
ثم ان قاضى القضاة جعل تحت يد كل قاض من
الأروام ، قاضيا من أولاد مصر ، فجعل القاضى
شهاب الدين بن شيرين الحنفى نائبا عن القاضى
صالح أفندى العثمانى ، وجعل القاضى شمس
الدين محمد الحلبي الشافعى نائبا عن القاضى فتح

وفيه منع قاضى العسكر شمس الدين الحلبى من التكلم فى المدرسة الصالحية ، وقرر عوضه القاضى شجاع العثمانى ، وجعله قاضى العسكر متحدثا على أوقاف الجوامع والمدارس ومعالم الأقطار ، فطلب الجباة وقال لهم : ارفعوا لى حساب الأوقاف ، وقدر معاليهم الأقطار ، وما قدرها فى كل شهر ، فشرعوا فى أسباب ذلك ، وفى عمل الحساب .

ثم ان قاضى العسكر رسم تأخذ الخلاوى التى فى المدرسة البرقوقية والأشرفية والغورية وغير ذلك من المدارس ، وأنزل فيها جماعة من الأروام الأفاقية .

ثم ان القاضى صالح نائب قاضى العسكر ، عرض الرسل الذين فى المدرسة الصالحية ، ورسم لهم ألا يأخذ الرسول منهم فى الشغل الذى يتوجه اليه أكثر من نصف فضة من الفضة الجديدة بنصفين وربيع ، وجعل على من يتزوج بكرا ثلاثة وأربعين نصفا ، ويتكلف للشهود والعاقدمثل هذا . هذا ما تقرر على العوام ، وأما الرؤساء فشىء غير ذلك . وقرر على كل شهادة تقع فى المدرسة الصالحية قدرا معلوما بحسب كل شغل ثقيل كان أو خفيفا .

ثم أشيع عن قاضى العسكر أنه قال : قصدى أمشى نساء مصر على قاعدة نساء اسطنبول مع أزواجهن ، فان عادتنا اذا دخل الرجل على زوجته تعطيه نصف المهر الذى أعطاه لها ، وأن الرجل لا يقرر لزوجته لا كسوة ولا نفقة بل يكسيها فى كل سنة جوخة وقميصا ويطعمها فى كل يوم على ما يختار من قليل وكثير ، وتغزل وتكسى زوجها فى كل سنة . فلما سمع العوام بذلك فرحوا ودعوا لقاضى العسكر بسبب هذه الواقعة ، واغتم النساء

الله العثمانى ، وجعل القاضى أبا الفتح الوفائى أحد نواب المالكية يحكم بين الناس على قاعدة مذهبه ، وجعل نظام الدين الحنبلى يحكم بين الناس على قاعدة مذهبه ، والمرجع فى الأحكام الشرعية الى قاضى العسكر . ثم رسم لكل نائب من النواب الأربعة أن يقتصر على شاهدين لا غير ، وسائر النواب والشهود تبطل قاطبة ، ثم رسم قاضى العسكر للرسل والوكلاء الذين بالمدرسة الصالحية اذا وقفوا قدامه يأخذون فى أيديهم العصى . فاجتمع بالصالحية من الرسل فوق الستين رسولا ، وصاروا على هذه الهيئة ، ثم ان قاضى العسكر أقام من الأروام شخصا وسماه قسام الترك ، فجعل على كل تركة الخمس لبيت المال مع وجود الورثة من الأولاد الذكور والانات ، فحصل للناس بذلك الضرر الشامل .

وفى يوم الأحد ثالث عشره ، نودى فى القاهرة عن لسان قاضى العسكر ، بأن الشهود قاطبة لا يعقد أحد منهم عقدا ، ولا يكتب وصية ولا اجارة ولا مبايعة ولا شيئا من الأمور الا فى المدرسة الصالحية عند القاضى صالح نائب قاضى العسكر ، فحصل للناس بسبب التزويج فى هذه الأيام غاية المشقة ، واختار كل منهم العزوية على التزويج .

وفيه نزل ملك الأمراء الى قاضى العسكر وسلم عليه ، وقد بلغه أنه توعدك فى جسده ، فنزل اليه وعاده ، ثم طلع الى القلعة .

وفى يوم الثلاثاء خامس عشره ، أنفق ملك الأمراء على المماليك الجراكسة جوامكهم ، وكان لهم سبعة أشهر منكسرة ، فأنفق عليهم فى ذلك اليوم أربعة أشهر ، حتى على الغلمان والمباشرين والفقهاء والمقرئين ومن له عادة .

أركب امرأة شتق من يومه من غير معاودة في ذلك .

ثم في عقيب ذلك اليوم رأوا امرأة راكبة مع مكارى في طريق الصحراء ، فأنزلوها عن الحمار ، وهرب الحمار ، فضربوها وقطعوا أزارها ، فما خلصت الا بعد جهد كبير ، وغرمت نحو أشرفيين .

فلما استمر ذلك الأمر باعت المكارية حميرها قاطبة ، واشتروا عوضها أكاديش ، وشدوها بنصف رحل ، وصارت النساء يركبن عليها بسجادة ، والمكارى قائد لجام الاكديش . واستمروا على ذلك ، وبطل أمر الحمير المكارية من القاهرة .

وركبت الخوندات والستات على الأكاديش على طريقة أهل اسطنبول ، وفيهم من ركب على بغل . ويقرب من هذه الواقعة ما وقع في أيام الأشرف برسباى ، أنه منع النساء من الخروج الى الأسواق مطلقا . وكان الطعن بمصر عمالا ، وكانت الغاسلة اذا خرجت الى ميتة لتغسلها ، تأخذ من المحتسب ورقة وتغزها في أزارها حتى يعلم أنها غاسلة ، فاستمروا على ذلك مدة يسيرة . ثم في عقيب ذلك مرض الأشرف برسباى ، ومات بعد ذلك ، وأعيد كل شيء على ما كان عليه .

وفيه نزل القاضى بركات بن موسى المحتسب من القلعة بعد العصر ، ونادى بأن الأشرفى الذهب السليمانى يصرف من الفضة الجديدة بخمسة وعشرين نصفا ، والأشرفى الذهب السليم شاهى والغورى يصرف من الفضة الجديدة بخمسة عشر نصفا ، وان الفلوس الجدد كل أربع جدد بدرهم .

ثم ان المحتسب سعر سائر البضائع على ما كانت عليه في أيام يشبك الجمالى المحتسب . فلما نودى بذلك ارتجت القاهرة بسبب أمر المعاملة في الذهب

بذلك ، وظنوا أن ذلك الشيء واقع ، وأن قاضى العسكر أبطل كسوتهن ونفقتهن ، فشق ذلك عليهن ، فعد من النوادر الغريبة .

ومن الحوادث أن شخصا يهوديا وقف الى القاضى صالح نائب قاضى العسكر وكتب قصة واشتكى فيها الأمير تتم أحد الأمراء الطبخانات ناظر الدشيشة ، فأرسل خلفه القاضى صالح رسولا وانكشاريا ، فلما حضر الى المدرسة الصالحية ادعى اليهودى على الأمير تتم ، فأنصف القاضى صالح اليهودى من الأمير تتم ، واستمر الأمير تتم في الترسيم حتى أرضى اليهودى .

ثم في عقيب ذلك اشتكت الأمير جاني بك أخت الأمير قايتباى الدوادار زوجته عند القاضى صالح ، فطلبه في المدرسة الصالحية ، ووضعها في الترسيم حتى أرضى زوجته فيما ادعته ، ولم يلتفت الى أخيه الأمير قايتباى الدوادار .

وفي يوم الخميس سابع عشره ، نودى في القاهرة عن لسان ملك الأمراء وقاضى العسكر ، بأن لا امرأة تخرج الى الأسواق الا العجائز ، وكل من خالف بعد ذلك من النساء تضرب ، وتربط من شعرها بذنب اكديش ، ويطاف بها في القاهرة ، فحصل للنساء بسبب ذلك غاية الضرر .

ثم بعد ذلك بأيام ، اتفق أن قاضى العسكر طلع الى القلعة ، فوجد نسوة يتحدثن مع جماعة من الاصباهية في وسط السوق ، فعز ذلك عليه ، فلما طلع الى القلعة قال لملك الأمراء ان نساء مصر أفسدت عسكر الخنكار ، ولا بقوا ينفعون لقتال قط . وقص عليه قصة النسوة مع الاصباهية ، فتغير خاطر ملك الأمراء على النساء قاطبة ، ورسم للوالى بأن لا امرأة تخرج من بيتها مطلقا ، ولا تركب على حمار مكارى مطلقا ، وكل مكارى

وفي يوم السبت سادس عشره ، نزل ملك
الأمراء الى الميدان ، وجلس فيه ، وعرض جماعة
من الكملية وكتب منهم أربعمائة انسان ، وعرض
طائفة الانكشارية وكتب منهم نحو مائة انسان .

وفي يوم الأحد سابع عشره ، نزل ملك الأمراء
الى الميدان وجلس به ، وعرض المماليك الجراكسة
وكتب منهم نحو خمسمائة مملوك ، وقيل ثمانمائة
وكان الأمير قايتباى الدوادار باش العسكر هو
الذى يعين ويكتب منهم من يختاره . فلما تكامل
عرض المماليك الجراكسة والاصباهية والانكشارية
والكملية كان مجموع ذلك ألفا وخمسمائة انسان .

ثم فى يوم الاثنين ثامن عشره ، أنفق ملك
الأمراء على الجراكسة جامكية أربعة أشهر ، كانت
لهم منكسرة فى الديوان ، ولم يعطهم زيادة على
ذلك .

ثم ان ملك الأمراء عين الأمير قايتباى الدوادار
باشا على الأمراء والمماليك الجراكسة فقط .

ثم ان ملك الأمراء جهز صحبة الأمير جانم
الحمزاوى بقسماطا وجبن حالوم وبصلا وعسلا
أسود . فجهز ذلك فى المراكب برسم العسكر يفرق
عليهم بطول الطريق ، وقيل أرسل صحبته أربعين
ألف دينار بسبب جوامك العسكر .

ومن الحوادث الشنيعة ، ما وقع فى أواخر هذا
الشهر ، وذلك أن ملك الأمراء رسم للوالى بأن
يقبض على جماعة من الغلمان والفلاحين والمغاربة
لأجل المراكب حتى يقدفوا فيها بالعساكر ، فنزل
الوالى وأطلق فى الناس النار وشرع يقبض على كل
من رآه فى الرميصة وفى الطريق من الغلمان
والفلاحين ، وكل من قبض عليه وضعه فى الحديد
وأرسله الى السجن ، الى أن يخرج العسكر ،
فصار يقبض على جماعة من السوفة والعييد السود

والفضة ، وحصل للناس غاية الضرر ، وخسروا
أموالهم ، ولا سيما التجار ، فغلقت أسواق البلد
والدكاكين قاطبة ، وتعطل الناس من البيع والشراء
لأجل ابطال المعاملة ، وصرف النصف الفضة
بنصفين وربح .

وفي يوم الأحد عشره ، نودى فى القاهرة : « كل
شئ على حكمه كما كان أولا فى صرف الذهب
والفضة والفلوس الجدد كل اثنين بدرهم على
ما كانت عليه أولا » فسكن الاضطراب قليلا .

وفي يوم الأربعاء ثالث عشره ، نزل ملك الأمراء
وتوجه نحو قصر ابن العينى الذى فى المنشية ،
وكشف على المراكب التى أنشأها هناك ، واسنعمل
الصناع فى سرعة العمل .

وفي يوم الجمعة خامس عشره ، طلع ابن أبى
الرداد ببشارة النيل ، وأخذ القاعدة ، فجاءت سبعة
أذرع وعشر أصابع ، وذلك أرجح من العام
الماضى .

وفي أواخر هذا الشهر ، قدم قاصد من البحر
من عند السلطان سليمان ابن عثمان ، وعلى يده
مرسوم شريف ، فكان من مضمونه أنه أرسل الى
ملك الأمراء خاير بك يطلب منه عسكرا من الأمراء
الجراكسة ، فعين الأمير قايتباى الرضائى الدوادار
الكبير بأن يكون باش العسكر ، ثم رسم له بأن
يطلب الأمراء الجراكسة الى بيته ، ويعين منهم من
يختاره ، فعرضهم عنده ، وكتب منهم جماعة نحو
ثلاثة وأربعين أميرا ، منهم أمراء طبليخانات ، وأمراء
عشراوات ، بسبب غزاة رودس ، وأن السلطان
سليمان قد جهز الى أهل رودس ستمائة مركب ،
وشحنها بالسلاح والمقاتلين ، وخرج الى الغزاة
الرومية فى البحر المالح .

أراد الإفراج عن رزقته يقف الى ملك الأمراء
ويحضر مرسومه بالإفراج عن رزقته .

ثم انه منع الفلاحين من اعطاء حراج الارز حتى
يحضروا بالإفراجات من عند ملك الأمراء .
فاضطرت أحوال الناس ، وتكدوا غايه النكد ،
وصار كل من وقف انى ملك الأمراء بسبب رزقته ،
وأحضر مكتوبه أو مربعته يأخذ منه المكتوب أو
المربعة ، ويقول له : امض الى حال سبيلك ، فان
الرزق قاطبة دخلت الذخيرة ، فيرجع وهو فى عاية
القهر .

(أقول) ان الرزق الأحباسية ما تعرض لها أحد
من سلاطين مصر ، ولا أخرج منها شيئاً عن أصحابها
ولا ضيقوا عليهم بسبب ذلك .

وقيل ان الامام الليث بن سعد رضى الله عنه ،
هو الذى دون ديوان الأحباس فى أيامه ، وأفرد
للرزق الأحباسية ديوانا يختص بها دون ديوان
الجيش ، واستمر ذلك باقيا من بعد الامام الليث
الى الآن ، حتى جاء فخر الدين بن عوض ، فنقض
ذلك الأمر الذى كان على جهات البر والصدقات ،
وأبطل أمر الرزق الأحباسية وأدخلها الذخيرة ،
وأبطل ما كان صنعه الامام الليث بن سعد رضى
الله عنه .

وفى يوم الاثنين سادس الشهر ، خرج الأمير
قايتباى الرمضانى الدوادار وتوجه الى السفر
بسبب غزاة رودس ، فخرج صحبته الأمراء
والعسكر قاطبة ، وخرج صحبته الأمير جانم
الحزواوى مشير المملكة ، وخرج الرئيس حامد
القبطان رئيس المراكب ، وصحبته العسكر العثمانى
الذى تعين من الأصباهية والانكشارية والكميلية ،
وخرج العسكر من الممالك الجراكسة ، فكان معه
من الأمراء الجراكسة نحو ثلاثة وأربعين أميراً ما بين
أمراء طبخانات وعشراوات . فلما طلع الى القلعة

ثم تدرج جماعة الوالى حتى صاروا يقبضون على
جماعة من التجار والفقهاء وغير ذلك ، فصاروا
يشترون أنفسهم من جماعة الوالى بمبلغ له صورة ،
حتى تحصل مع الجالية مال له صورة من الناس .
ثم صار الوالى يركب ويكبس على ساحل بولاق
ومصر العتيقة ، ويقبض على النواتية والفلاحين ،
فهرب الناس قاطبة من السواحل .

ثم رسم ملك الأمراء لكاشف الجيزة وغيره ، أن
يقبضوا على جماعة من الفلاحين من قفشندة
وقليوب وسبك الثلاث ، ومن شبرى والمنيه وغير
ذلك من الضياع ، فصار الفلاحون يخفون فى
المطامير ، وكادت مصر أن تحرب فى هذه الحركة
عن آخرها . فقبل مجموع الدين قبضوا عليهم نحو
ألفى انسان ، وقيل أكثر من ذلك ، وحصل للناس
غاية الضرر . وقيل مات فى سجن الديلم جماعه كثيرة
ممن قبض عليه ، ماتوا من الجوع ، وشدة الحر ،
والوخم ، ونزل على أهل مصر فازلة عظيمة بسبب
ذلك لم يسمع بمثلمها قط ، انتهى ما أوردناه من
حوادث شهر رجب . وكان كثير الحوادث . فوقع
فيه أمور غريبة ، ونوادير عجيبة ، والأمر لله .

واستهل شهر شعبان بيوم الأربعاء ، فلم يطلع
أحد من القضاة الأربعة للتهنئة بالشهر ، فانهم
استمروا فى العزل المقدم ذكره ، وصار قاضى
العسكر هو المتكلم على المذاهب الأربعة .

ووقع فى هذا الشهر من الحوادث أن الأخبار
قد قدمت من الصعيد بأن القاضى فخر الدين ابن
عوض لما توجه ليمسح جهات الصعيد دخل سائر
الرزق الأحباسية قاطبة فى المساحة التى بالمكاتب
الشرعية والمربعات والمناشير ، وقال لأصحابها من

ووقع منه أمور شنيعة ما تقع من الجهال ولا من المجانين ، وتزايد حكمه بالجور بين الناس ، وقد ضيق عليهم غاية الضيق ثم تكلم الناس مع قاضي العسكر في أمر النساء ألا يمنعا من طلوع التراب ، ودخول الحمام ، وزيارة الأقارب ، فأذن لهن في ذلك ، وأن المرأة لا تخرج الى الطريق الا مع زوجها ، وألا يدخل الأسواق غير العجائز فقط ، فسمح لهن قاضي العسكر ، وأن النساء لا يركبن الا الخيول والبغال دائما . فاستمروا على ذلك .

وقد فتك قاضي العسكر بالناس في هذه الأيام فتكا ذريعا ، وقد جمع بين فبح الشكل والفعل ، فانه كان أعور بفرد عين بلحية بيضاء ، وقد طعن في السن ، وكان قليل الرسمال في العلم ، أجهل من حمار ، لا يدرى شيئا من الأحكام الشرعية ، وقدمت اليه عدة فتاوى فلم يجب عنها بشيء ، وقد هجاه الناس هجوا فاحشا في مدة اقامته بمصر ، وقالوا فيه عدة مقاطيع . فمن جملة ذلك بعض كلام الشهود فيه وهو قوله :

رأينا شيخا أعورا قبل موتنا
أتى من بلاد الروم يقطع رزقنا
يقدم قانونا على شرع أحمد
فنسأل رب العرش يكشف كربنا
وقلت أنا :

رأيتك لا ترى الا بعين
وعينك لا ترى الا قليلا
فان تك قد أصبت بفرد عين
فخذ من عينك الأخرى كميلا
وقد أيقنت أنك عن قريب
اذن بالسكف تلتمس السبيلا

خلع عليه ملك الأمراء قفطان حرير مذهب ، وخلع على الرئيس حامد القبطان قفطانا أيضا ، فخرج الأمير قايتباي من الميدان وعلى رأسه صنجق حرير أحمر ، وخرج ملك الأمراء من الميدان صحبته ليودعه ، وخرج صحبته قاضي العسكر ، والأمراء العثمانية قاطبة ، فشق من القاهرة في موكب حافل وليس قدامه جنائب ، وخلصه طبلان ورمرا عثمانيه ونزل وشق من القاهرة الى بولاق ، وكان يوما مشهودا .

ثم عاد ملك الأمراء الى القلعة ، وحصل لأهل مصر بسبب خروج التجريده عايه الضرر .

وفي يوم الثلاثاء سابع الشهر ، أرسل ملك الأمراء يستعجل الأمير قايتباي الدوادار في سرعة التوجه الى رودس ، والنزول في المراكب ، تم بودي في القاهرة بأن العسكر المعين للسفر يخرج في بقية ذلك اليوم ، وكل من تأخر عن الخروج في بقية هذا اليوم شق من غير معاودة ، فخرج المماليك المعينون للسفر قاطبة .

ومن الحوادث أن شخصا من نواب الحنفية يقال له شمس الدين محمد المناوى الحنفى ، شهد شهادة حقا بين شخصين في تمارى بينهما بسبب دين ، فلما بلغ قاضي العسكر ذلك أرسل خلف القاضي شمس الدين محمد المناوى انكشاريين ، فلما حضر بهدله وهم يضربه ، وقال له : أنا ما منعكم أن تشهدوا على أحد من الناس الا في المدرسة الصالحية . ثم أرسله الى السجن ، فشق ذلك على القضاة والنواب ، فاضطربت القاهرة بسببه ، ثم شفع فيه عند قاضي العسكر القاضي شهاب الدين ابن شيرين الحنفى ، فأطلقه من السجن في يومه هو والعجاوي ، وقد حصل لأهل مصر من قاضي العسكر غاية الضرر للرجال والنساء .

الشرقية قاطبة ، فلا يحتسب عليه أحد من الناس ، ولا يشتكى أحد من الشرقية الا من بابه ، فتزايدت عظمة القاضي بركات بن موسى الى الغاية .

وفي يوم الأحد سادس عشره ، خرج قاضي العسكر بقصد التوجه الى مكة المشرفة من البحر المالح ، فلما خرج نزل ملك الأمراء وركب صحبته ، وكذلك خير الدين نائب القلعة ، وجماعة من الأمراء العثمانية ، فودعوه من عند تربة العادلي ورجعوا ، فلما خرج قاضي العسكر من مصر أراح الله تعالى المسلمين منه ، فما حصل منه لأهل مصر خير . فعزلت القضاة الأربعة بسببه ، وأخرج عنهم الأنظار ، ومنع الشهود من الجلوس في المجالس قاطبة ، واستمرت دكاكينهم مغلقة ، ومنع نواب القضاة الأربعة من الأحكام الشرعية ، ولم يبق منهم غير من تقدم ذكرهم ، وضيق على الناس في أمر عقود الأنكحة ، وقرر عليهم ما تقدم ذكره من المبلغ ، وصار لا يعقد عقد الا في المدرسة الصالحة ، وضيق على النساء بما تقدم ذكره من الخروج الى الأسواق ، ومن ركوب الحمير ، فلما خرج من مصر صفقت النساء ، ورقصت . وضيق على أهل مصر في أمور كثيرة بطول شرحها .

ولما خرج قاضي العسكر توجه الى نحو الطور ، فقبل ان ملك الأمراء أنهم عليه بعشرة آلاف دينار غير المغل الذي أرسله اليه لما قدم من اسطنبول .

ولما توجه قاضي العسكر الى الحجاز ، أشيع أن السلطان سليمان أرسل أربعين ألف دينار على يد شخص من العثمانية بسبب عمارة العين التي بمكة المشرفة ، لما تعطلت ، وهي التي بالحرم ، وعمارة المنارة التي بالحرم النبوي .

وفي يوم الجمعة عاشر الشهر قدم الأمير شيخ الذي كان توجه الى اسطنبول في بعض أشغال ملك الأمراء ، فلما حضر أخبر بأن السلطان سليمان جهز عدة مراكب مشحونة بالسلاح والمقاتلين ، وجهز عساكر كبيرة بسبب غزاة رودس ، وخرج بنفسه ، وذلك في خامس عشر رجب على ما أشيع بين الناس ، وأرسل على يده مراسيم شريفة ، تتضمن أن السلطان سليمان قد فوض أمر مملكة مصر الى ملك الأمراء خاير بك ، يعزل من يختار ، ويولي من يختار ، والمرجع في ذلك اليه ، فيما يراه من المصلحة .

وفي يوم السبت حادى عشره ، نودى في القاهرة بأن الأمير والى الجلبى العثماني الذي حضر من اسطنبول ، قد استقر ناظرا على سائر الأوقاف قاطبة ، فلا يعصى عليه أحد من الناس . فتجددت مظلمة أخرى .

وفي يوم الثلاثاء رابع عشره كانت ليلة النصف من شعبان ، فنزل ملك الأمراء من القلعة ، وتوجه الى المقياس ، وأقرأ هناك ختمة ، ومد هناك مدة حافلة ، ورسم بقراءة عدة ختمات في تلك الليلة : في الجامع الأزهر ، ومقام الامام الشافعي ، والامام الليث رضى الله عنهما ، وغير ذلك في أماكن متفرقة .

وفي يوم الخميس سادس عشره ، خلع ملك الأمراء على القاضي بركات بن موسى المحتسب ققطانا محملا مذهبا ، وفزره في التحديث على جهات الشرقية قاطبة ، من المطرية الى دمياط ، وقد التزم في كل سنة بأربعمائة ألف دينار يقوم بذلك على ثلاثة أقساط ، فنزل من القلعة في موكب حافل ، ومشاعلية قدامة ، تنادى أن القاضي بركات ابن موسى ناظر الذخيرة الشريفة ، متحدث على

به قاضى القضاة الحنفى باطل لا تجوز قراءته ،
فحصل لقاضى القضاة فى ذلك المجلس غاية البهذلة ،
وأسمعته الفقهاء الكلام المنكى ، وانتصف عليه
أبو الفتح فى ذلك الحكم الذى حكمه ، فقام قاضى
القضاة من ذلك المجلس وهو يتعثر فى أذياله مما
قاسى من البهذلة من ملك الأمراء ومن القضاة
صالح وغيره . وكان قاضى القضاة الحنفى غير
محب للناس ، وكان عنده صعصعة وجنون ، وسوء
تدبير وبس طباع ، مع وهج وخفة زائدة ، مع
عبوسة وجه وشناعة زائدة ، وقد قلت فيه :

رب قاض قد اعتراه جنون
شأنه الوهج ما لده سكون
لم يفده علمه اذا ضل شيئا
فهو فينا معلم مجنون
وقولى أيضا :

كم ضاع للنعمان من مذهب
فى عصرنا لما تولى فلان
تبا له من حاكم أهوج
أحكامه مشهورة بالجنان

وفى يوم الأربعاء سلخ شهر شعبان ، كانت ليلة
رؤية هلال رمضان ، فلم يخضر من قضاة القضاة
أحد الى المدرسة الصالحية على جارى العادة ،
فانهم كانوا منفصلين عن القضاة ، فحضر بعض
نواب القضاة ، منهم شمس الدين المجولى ،
وشهاب الدين أحمد بن شيرين الحنفى ، وفتح
الدين الوفاى المالكى ، ونظام الدين الحلبى
الحنبلى ، وحضر القاضى بركات بن موسى
المحتسب .

فلما رئى الهلال ركب من هناك القاضى بركات
المحتسب ، وشق من بين القصرين فى موكب حافل ،

ولما خرج قاضى العسكر خرج صحبته جماعة
كثيرة من الاصباهية ومن أهل مصر ، وخرجت
صحبته زوجة الأمير سنان فى محفة . فلما سافر
قاضى العسكر جعل القاضى صالح العثمانى الحنفى
نائباً عنه بحكم فى المدرسة الصالحية الى أن يحضر
من السفر من الحجاز .

وكان قاضى العسكر قبل أن يسافر ولى ستة
وعشرين نائباً من نواب القضاة الأربعة ، وجعل
مهم من هو فى بولاق ، وفى مصر العتيبة ، وفى
بجام طولون ، وفى الحسينية ، وغير ذلك من
الأماكن . وجعل فى كل مجلس أربعة نواب يقضون
ببر الناس بالحق . وجعل على كل مجلس شيئاً
معلوماً ، وعليهم شوايش من العثمانية يضبط
م بتحصل فى كل يوم من أجره أشغال الناس ،
فقسم للقضاة من ذلك المتحصل شيئاً وللشهود
شيئاً وله شئ ، ثم يأخذ الباقي ويضعه فى صندوق
يرسم السلطان سليمان يودع بيت المال .

ومن الحوادث الشنيعة ما وقع لقضاة القضاة
الحنفى على بن ياسين الطرابلسى بسبب وقف
الحواجا شهاب الدين أحمد بن صالح السكندرى ،
وذلك أنه طلع قاضى القضاة الحنفى الى ملك
الأمراء ، فلما رآه مقبلاً من بعد قال ابش طلع هذا
الثقل بعمل ؟ فلما جلس وأخرج مكتوب الوقف
الذى زوروه ، وثبت عليه ، اتبذ له جماعة من
القضاة ، وحضر أبو الفتح الوفاى المالكى الذى
بحكم لابن الحواجا شهاب الدين السكندرى ،
وحضر ذلك المجلس القاضى صالح العثمانى نائب
قاضى العسكر . ولما أخرج قاضى القضاة الحنفى
المكتوب الذى صنعوه ، دفعه ملك الأمراء الى
القاضى صالح العثمانى ، وقال له : انظر فى هذا
المكتوب ، فلما قرأه قال هذا الحكم الذى حكم

وقدومه عدة فوائيس ومشاعل على جارى العادة
فى كل سنة .

فلما كانت ليلة الخميس أهل شهر رمضان ، فلم
يطلع من قضاة القضاة أحد للتهنئة بالشهر ، وكان
الناس فى غاية الاضطراب بسبب المعاملة ، فان
الدينار السليماني يصرف بخمسة وأربعين نصفاً
من الفضة القديمة حساباً عن كل نصف بنصفين
وربع من الفضة الجديدة ، فوقف الحال بسبب
ذلك ، ولا سيما حال الفلاحين فى البلاد ، فان
العمال يحاسبونهم فى الدينار عند القبض بنصفين
وربع من الفضة الجديدة ، ويفيمونه عليهم وقت
الحساب بنصف واحد ، فخرّب غالب البلاد بسبب
هذه المعاملة وغير ذلك . وكانت أحوال الناس
فى غاية الاضطراب بسبب الرزق الأحماسية التى
أدخلها فخر الدين بن عوض فى ديوان السلطان ،
وصار ملك الأمراء كل من طلع له بمكتوبه أو
مربعته ، يأخذ ذلك منه ، ويقول له هذا دخل
ديوان السلطان . فحصل للناس غاية الضرر من
كل وجه .

ومن الحوادث أن ملك الأمراء طلب التجار
قاطبة ، وكتب عليهم قسائم ألا يتعاملوا إلا
بالذراع العثماني فى البيع والشراء ، وأبطل الذراع
القديم الهاشمي ، وكتب القسائم على التجار
بذلك ، وهو يزيد عن الذراع القديم نحو ربع
ذراع .

واستهل رمضان وقضاة القضاة الأربعة منفصلون
عن القضاء ، والمباشرون فى الترسيم بالقلعة من
حين جرى عليهم ما جرى .

وفى يوم الخميس ثامن مع ليلة الجمعة ، رأى
الناس كوكبا عظيما جاء من نحو الغرب ، وخلفه

شرار كمثل عمود النار ، فاستمر ماشيا فى السماء
الى نحو الشرق فاختمى ، وفهد شاع خبره بين
الناس لما طلع النهار .

وفى يوم الأربعاء رابع عشر شهر رمضان كان
وفاء النيل المبارك ، ووافق ذلك ثالث عشر مسرى .
وفتح السد فى يوم الخميس خامس عشر
رمضان ، الموافق لرباع عشر مسرى ، فأوفى الله
السنّة عشر ذراعا وزاد ثلاث أصابع من الذراع
السابع عشر . فلما أوفى نزل ملك الأمراء من
القلعة وتوجه الى المقياس ، وخاب العمود ، ونزل
فى الحراقة وصحبتة الأمراء العثمانية ، ففتح السد
الذى عند رأس المنشية ، ثم ركب من هناك وتوجه
الوالى ففتح السد الثانى الذى عند قنطرة السد ،
وكان ذلك اليوم مشهودا . وكان ذلك آخر فتح
ملك الأمراء للسد ، ومات بعد ذلك بشهرين ، وفى
ذلك يقول الناصرى محمد بن قانصوه :

خليج السد يوم الكسر جبر

بماء للعيون يرى بهيجا

وهذا اليوم يوم الجبر فاسرع

بنا قطعا نرى هذا الخليجا

وفيه قدم أولاق من البحر المالح وأخبر عن
السلطان سليمان أنه فى المحاصرة مع الفرنج ،
وكثر القال والقييل بين الناس بسبب ذلك .

وفيه جاءت الأخبار بأن ابن سوار قد قتل ،
وسبب ذلك أنه قد بلغ السلطان سليمان بن عثمان
أن ابن سوار قد التف على شاه اسماعيل الصفوى
وصار يكاتبه فى الدس ، فندب اليه الأمير فرحات
الذى كان توجه الى جان بردى الغزالى نائب
الشام ، فتوجه الى ابن سوار وأظهر أنه يقصد

ازدحم عليه الناس ليروا المهدي ، وكان ذلك اليوم مشهودا بسبب الفرجة عليه لما شق من القاهرة . فاستمر على أكتاف الشيخ حسن حتى توجه به الى المدرسة المؤيدبة ، ثم بدا لملك الأمراء أن يرسل المهدي الى بيت الوالي ، فقبضوا عليه وتوجهوا به الى بيت الوالي ، فاستمر به مدة ثم شفع فيه .

وفي يوم الأربعاء حادي عشره ، قبض ملك الأمراء على يوسف بن أبي الفرج بن الجاكية ، وسلمه الى القاضي بركات بن موسى ليقيم حسابه مما دخل عليه من المال بسبب الرزق ، ولما نزل الى بيت المحتسب هم أن يعر به ويضربه بالمقارع ، وقال له أقم حسابك من حين قررت في هذه الوظيفة ، فقيل انه أورد سبعمائة دينار ، فقال له القاضي المحتسب : جلبت الدعاء على ملك الأمراء لأجل هذا القدر الهين ... لا جزاك الله خيرا !

وفي يوم الجمعة ثالث عشره ، نزل ملك الأمراء وتوجه الى نحو الجامع الأزهر ليصلي هناك صلاة الجمعة ، وكان صحبته الأمراء العثمانية الذين بمصر ، وجماعة من الأمراء الجراكسة ، منهم الأمير أرزمك الناشف . فلما انقضى أمر صلاة الجمعة ، وفصد أن يركب ، وقف اليه رضى الدين بن الدهانة وجماعة من الفقهاء وقالوا له : يا ملك الأمراء انظر في أحوال الرعية . فقال : نعم ، وركب بسرعة ، وخرج من باب الجامع ، وتوجه الى القلعة .

وقيل ان ملك الأمراء تصدق في ذلك اليوم على مجاورى الجامع الأزهر بخمسمائة دينار ، وكان الذى تولى أمر الصدقة في ذلك اليوم شهاب الدين المحلى امام أمير آخور كبير ، فما لاقى في ذلك

التوجه الى ديار بكر بسبب عسكر الصفوى ، فأضافه ابن سوار وركن اليه ، فلما جلس معه على مجلس الشراب في نفر قليل من أصحابه ، وثب على ابن سوار جماعة من العثمانية من حاشية الأمير فرحات ، فقتلوا ابن سوار وهو على سفرة الشراب على حين غفلة ، ولم يشعر به أحد من عسكره . ولما أشيع قتله اضطربت أحوال السوارية بقتله . وقيل ان فرحات قتل بعد ذلك ثلاثة من أولاد ابن سوار ، وقتل جماعة من أمرائه ، ثم مضى عنهم ، وقد تمت حيلته على ابن سوار حتى قتله

ومن الحوادث أنه حضر الى القاهرة شخص قيل ان أصله من الشرق ، وقيل كان بككة ، وأقام بها مدة ، فلما حضر ادعى أنه المهدي ، فلما طلع الى ملك الأمراء وقال له أنا المهدي ، وكان حاضرا في ذلك المجلس القاضى شهاب الدين أحمد بن شيرين ، فسأله عن مسائل في العلم فلم يجبه بشيء . وكانت صفته أنه شيخ طاعن في السن ، قصير القامة جدا ، ولم يكن فيه من علامات المهدي شيء ، فلما أغلظ على ملك الأمراء في الكلام ، رسم بالقبض عليه ، وأن يتوجهوا به الى المارستان ، ويضعوه في الحديد ، ويسجنوه عند الجانين ، فقبضوا عليه وتوجهوا به الى نحو المارستان ، فكشفوا عن رأسه ، ووضعوه في الحديد ، فلما بلغ الشيخ ابراهيم الذى في الجامع المؤيدى ، والشيخ حسن العثماني ، طلعا الى ملك الأمراء وشفعا فيه ، فرسم ملك الأمراء باطلاقه من المارستان . فأتى اليه الشيخ حسن العثماني وحمله على أكتافه وأخرجه من المارستان ، وكان هذا الرجل معظما عند العثمانية ، وفي خدمته جماعة كثيرة من الأعجام نحو خمسين اسانا ، فلما خسر ج من المارستان

اليوم خيرا بسبب تفرقة الصدقة ، وحصل له غايه
البهدلة من الناس .

وفي يوم السبت رابع عشره ، نودى في القاهرة
عن لسان ملك الأمراء ، بأن جميع القضاة والشهود
يحضرون بدفاترهم الى المدرسة الصالحية ،
ويسلمون ذلك الى القاضى صالح نائب قاضى
العسكر ، فلم يوافق أحد من الناس على ذلك
وأبطلوا هذا الأمر .

وفيه أشيع أن العربان قطعوا جسر الحلفاية ،
فنقص البحر في تلك الليلة ثمانى أصابع ، وكان
في قوة الزيادة ، فاضطربت أحوال الناس .

ثم في يوم الخميس زاد الله في النيل المبارك
اصبعين من النقص ، فسكن ذلك الاضطراب ،
واستمرت الزيادة عمالة الى بابه .

* * *

وفي شهر شوال ، وكان مستهله يوم السبت ،
وهو عيد الفطر ، فكان أكثر العساكر مسافرا في
غزوة رودس ، وكذلك الأمير قايتباى الدوادار
وجماعة من الأمراء ، فلما صلى ملك الأمراء صلاة
العيد مد مدة حافلة ، وكانت الاصباهية
والانكشارية تتخاطفها ، وكان هذا العيد خامدا .

وفي يوم الأحد ثانيه حضر أولاق من البحر
وعلى يده كتاب من عند الأمير جانم الحمزاوى
الى ملك الأمراء ، فقرأه بحضرة القاضى شهاب
الدين بن شيرين ، فكان من مضمونه أن الأمير
قايتباى الدوادار ، ومن معه من العساكر والأمراء
والمماليك الجراكسة قد وصلوا الى رودس في
ثالث عشر رمضان ، فوجدوا السلطان سليمان في
جزيرة تجاه رودس ، فأقاموا ثلاثة أيام لم يجتمعوا
بالسلطان . ثم في اليوم الثالث أوكب السلطان

سليمان وجلس للعسكر جلوسا عاما في ذلك اليوم .
فلما نظر الأمير قايتباى الدوادار عظمه
وأكرمه ، وكذلك الأمراء الذين صحبته ، ووقفه
المماليك الجراكسة قدامه دشكرهم ، وأثنى عليهم .
وقيل ان السلطان سليمان استنزل عتلى والده سليم
شاه الذى قتل المماليك الجراكسة وقال : مثل هذه
المماليك كانت تقتل ؟ ؟

وقيل انه أنزل العسكر المصرى ومناقه عنده
الوزير الأعظم . وأخبر الأمير جانم في كتابه أنه
الى الآن لم يقع بين السلطان وبين أهل رودس
قتال ، وأنه مقيم بجزيرة تجاه رودس ، والميعاد
بعد العيد .

وفي يوم الاثنين ثالث الشهر ، قدم الخواجا ابن
عبد الله من اسطنبول ، فنزل اليه ملك الأمراء
ولاقاه من عند تربة العادلى ، وخلع عليه قنطان
حرير . فلما حضر ابن عبد الله أشيع أن السلطان
قرره ناظرا على الأوقاف قاطبة ، وأنه يكشف على
سائر الأوقاف والجوامع والمدارس قاطبة ، فيعزل
من يشاء ، ويبقى من يشاء . وأشيع عنه أنه يخرج
الوظائف عن الفقهاء ، ولا يبقى بيد فقيهه وظيفتين
في التصرف ، وأن يقرر الوظائف لجماعة آفاقية
من الأروام . فلما أشيع ذلك اضطربت أحوال
فقهاء مصر .

وفيه قدمت الأخبار من دمشق بأن الأمير
فرحات نائب الشام قبض على جماعة من التجار
أتوا من بلاد الشام اسماعيل الصفوى ، وزعم أنهم
جواسيس من عند الصفوى ، فلما قبض عليهم ،
أخذ جميع ما معهم من الأموال والبضائع
والأصناف التى أتوا بها ، ثم ضرب أعناقهم
أجمعين ، وربما يشور من هذه الواقعة فتنة عظيمة
بين العثمانية والصفوى .

السجن الى آخر شهر رمضان ، وأتلفهم في يوم واحد .

وفي ليلة السبت خامس عشره خسف جرم القمر خسوفا كاملا حتى أظلم الجو وصار القمر كالفضة السوداء ، فأقام في ذلك الحسوف نحو خمسين درجة ، وكان ذلك نصف الليل .

وفي يوم الثلاثاء ثامن عشره ، خرج المحمل من القاهرة في تجمل عظيم ، وكان يوما مشهودا ، وكان أمير ركب المحمل الشريف الأمير جانم السيفي دولات باى الأتابكي ، وهذه ثالث سفرة الى الحجاز سافرها الأمير جانم كاشف القلوب ، فشق من القاهرة في موكب حافل ، وطلب طلبا كأطلاب الأمراء المقدمى الألوفا ، وكان في موكبه ست عجلات ، وفي كل عجلة مكحلة نحاس برسم المدافع ، فان درب الحجاز كان في غابة الاضطراب بسبب فساد العربان ، ولم يركب قدام المحمل أحد من القضاة الأربعة غير قاضى المحمل شمس الدين محمد بن النقيب .

وأشيع أن كسوة الكعبة الشريفة أرسلها ملك الأمراء من البحر المالح ، وسبب ذلك فساد العربان . وكذلك المال أرسله السلطان سليمان ابن عثمان الى مكة والمدينة النبوية لأجل الصدقة على مجاورى الحرمين الشريفين صحية قاضى العسكر لما توجه من البحر المالح خوفا من العربان واضطراب درب الحجاز في هذه الأيام المشطة

وفي يوم الاثنين رابع عشره ، حضر قاصد من البحر ، وأخبر أن السلطان سليمان ابن عثمان في المحاصرة مع الفرنج الروادسة ، وأحضر كتابا من عند الأمير جانم الحمزاوى ، يذكر فيه أن العسكر في انشحات زائد من الغلاء بسبب القمح والدقيق ، وقد عزت الأقوات هناك ، فلما بلغ ملك الأمراء ذلك ، نزل الى الشون التي بمصر العتيقة ، وأخرج

ومن الحوادث الشنيعة أن جماعة من النصارى كانوا يسكرون في بيت عند جامع المقسى على الخليج ، فلما فوى عليهم السكر ، تزايد منهم الضجيج والتجهر بالسكر ، وكان في جامع المقسى ابن الشيخ محمد بن عنان مقيما به ، فثقل عليه أمرهم ، فأرسل اليهم من ينههم عن ذلك ، فأغلظ عليهم في القول ، وقال لهم : أما تستحون من الشيخ ابن عنان ؟ فسبوا الشيخ ابن عنان سبا فييحا ، فطلع الشيخ الى ملك الأمراء وشكا من النصارى ، فأرسل ملك الأمراء بالقبض على النصارى ، فهربوا وقبضوا على واحد منهم ، فرسم ملك الأمراء بحرقه ، فلما رأى النصارى عين الجدد ، سلم خوفا من الحرق ، فالبسوه عمامة بيضاء . فلما جرى ذلك خاف بقية النصارى على أنفسهم ، واختفوا عند يوس النصارى حتى تخمد هذه الواقعة عنهم

وفي يوم الجمعة قدم قاصد من عند الأمير جانم الحمزاوى ، وأخبر أن العسكر يربز للقتال مع عسكر الفرنج الدين برودس ، وأشيع انهم أشرفوا على أخذ السور الأول من مدينة رودس ، ولكن قتل في هذه المعركة من العساكر ما لا يحصى .

وفي يوم الجمعة المقدم ذكره ، كان يوم النوروز - وهو أول توت من الشهور القبطية ، وأول سنة ثمان وعشرين وتسعمائة خراجية - وكان النيل يومئذ في عشرين اصبعاً من ثمانية عشر ذراعا ، وكان سائر المغل في غاية الرخص بعد ما كان السعر قد انشط لما توقف النيل عن الزيادة كما تقدم .

ومن الحوادث الشنيعة أن والى القاهرة شنق في يوم واحد أربعة عشر انسانا ، وخوزق منهم جماعة ، وعلقهم في أماكن متفرقة ، وكان أكثرهم حرامية وزغلية ومن عليه دم ، فأخبرهم الوالى في

ثلاثين ألف أردب وخمسمائة حمل دقيق ، فاستمر
ينزل الى الشون بسبب ذلك أربعة ايام متوالية ،
حتى جهز في المراكب ثلاثين ألف أردب قمح ،
وحمسمائة حمل دقيق ، وخمسمائة أردب أرز ،
وقيل مثلها حمص وبسلة ، وقيل أرسل مع ذلك
أشياء كثيرة من البصل وغير ذلك مما استحسنته ،
فجهز ذلك بسرعة ، وأرسله من البحر الى السلطان
والعسكر الذين هناك .

وفي شهر ذى القعدة ، وكان مستهله يوم الاثنين ،
وكانت القضاة الأربعة منفصلين عن القضاء كما
تقدم ، فلم يطلع منهم أحد للتهنئة بالشهر في ذلك
اليوم .

وفي يوم الثلاثاء ثانياه عزل الأمير جان بك من
كشف الشرقية ، واستقر بالأمير اينال السيفي
طراباي .

وفي يوم الاثنين ثامنه توفت أصيل القلعية ،
وكانت من أعيان مغاني البلد ، وكان لها انشاد
لطيف ، وكانت بارعة في غناء الخفاف التي هي
من فرح الزمان ، ورأت من الأعيان وأرباب الدولة
غاية الحظ والاحسان لها .

وفيه نودى في القاهرة بإبطال الفضة العتيقة من
المعاملة قاطبة ، وأن الفضة الجديدة تصرف كل
نصف بنصفين وربيع ، فازداد وقوف الحال على
الناس ثانيا بإبطال الفضة العتيقة من المعاملة ،
والفلوس الجدد كانت كل اثنين بدرهم ، فنادوا
عليها كل واحد بدرهم ، فازداد الحال وقوفا
ثالثا .

وفيه أشيع أن ملك الأمراء خاير بك قد مرض
ولزم الفراش وتزايد به المرض من يومه وانقطع

عن المحاكمات . فلما قوى عليه المرض صار يتصدق
على الأطفال الذين بمكاتب القاهرة قاطبة لكل
صغير نصف فضة كبير ، بنصفين وربيع ، وصار
أحد الخازنارية وابن الظريف المقرئ يدفع لكل
صغير النصف في يده ، ويعطى الفقيه خمسة أنصافه
كبار ، والعريف ثلاثة أنصاف كبار ، ويقولون لهم
اقرأوا الفاتحة وادعوا بالشفاء والعافية للملك
الأمراء .

وقد تكاثرت الأقوال بأن به ثلاثة أمراض ، منها
فرخة جمرة طلعت له في مشعره ، ومنها حذار
انصب له في جميع أعضائه ، وهو من أنواع الفالج ،
ومنها كتم البول فصارت الحكماء تبيت عنده في
كل ليلة وقد أعياهم أمره في هذا العارض الذي
به ، وقيل انه مشغول من حين نزل الى الشون .

وفي هذا الشهر ثبت النيل المبارك على احدى
وعشرين اصبعا من تسعة عشر ذراعا ، وكان نيلا
متوسطا ، وكان في العام الماضي عشرين ذراعا الا
اصبعا واحدة .

وفي يوم الثلاثاء تاسعه ، أفرج ملك الأمراء عن
القاضي شرف الدين الصغير كاتب الممالك ، وأفرج
عن القاضي شرف الدين بن عوض ، وألبسهما
قفطانين حرير مذهب ، وأركبهما فرسين من
الاسطبل السلطاني ، ونزلا من القلعة في موكب
حافل ، وشقا من القاهرة ، وكان ذلك اليوم
مشهودا ، فتخلقت عيالهما بالزعفران ، فانهما خلاصا
من فم الموت ، وقد قاسيا شدايد ومحا وضربا
وبهدلة ، وسجنا في العرقانة ، وقد أقاما في هذه
السدة نحو أربعة أشهر ، وقسا قلب ملك الأمراء
عليهما . وقد قال في ذلك الناصري محمد بن
قانسوه :

الحميد لله بكم عيننا
قوت بفرحة لنا في السرور
لما خلصتم ونزلتم الى
منازل العز وزال الشرور

وفي يوم الخميس حادى عشره ، أشيع بين الناس
أن ملك الأمراء بطلت شقته ، وعجز عن القيام ،
وتزايد به ألم الفرخة الجمر ، واشتد عليه مخرج
البول والغائط من الورم من تلك الجمرة ، وهذا
العارض بعينه قد وقع للخنكار سليم شاه ابن
عثمان ومات به .

ثم ان قضاة القضاة الأربعة ركبوا وطلعوا الى
ملك الأمراء وعادوا وسلموا عليه ، فلم يع لهم ،
ولم يلتفت اليهم ، فقرعوا له الفاتحة ونزلوا الى
منازلهم .

فلما تزايد الأمر بملك الأمراء أعتق جميع
جواريه وعبيده وماليكه ، ثم انه دفع للقاضي
بركات بن موسى المحتسب ألف دينار فضة ، ورسم
بعشرة آلاف اردب قمح من الشونة ، ورسم
للمحتسب بأن يفرق ذلك كله على مجاوري الجامع
الأزهر ، والمزارات والزوايا التي بالقراطين قاطبة ،
ومجاورى مقام الامام الشافعى والامام الليث
رضى الله عنهما ، ويفرق باقى ذلك على الفقراء
والمساكين ومن عليه دين ، ففرق ذلك كما رسم
له ملك الأمراء .

ثم انه رسم باخراج مراسيم للقاضي شرف الدين
ابن عوض بأن يفرج عن أصحاب الرزق الأعباسية
التي كان أدخلها الى الديوان السلطاني ، وكان
قدرها نحو ألف وثمانمائة رزقة ، فأفرج عنها
لأصحابها ، وأعاد مكاتيب الرزق العيشية التي
كان أخرجها المفتش يوسف بن الجاكية الى

بالشرفى المقر أضحى
ديوان ذا الملك فى انضباط
لا زال فيه الى المعالى
بالسعد يرقى بلا انهباط

فلما نزل القاضي شرف الدين الصغير الى بيته
لم يقيم به الا ساعة يسيرة ثم ركب وتوجه الى تربة
الامام الشافعى رضى الله عنه ، فزاره ثم طلع الى
القلعة ثانيا هو والقاضى بركات بن موسى المحتسب ،
فاجتمعوا على ملك الأمراء وتكلما معه على المقر
الشهابى أحمد بن الجيعان ، فان ملك الأمراء
توقف فى الافراج عنه ، وقد عول على شنقه على
باب زويلة ، فنجاه الله تعالى من كيدته ، ولولا
اشتغال ملك الأمراء بنفسه لكان شنق الشهابى
أحمد بن الجيعان لا محالة .

فلما تكلم القاضي شرف الدين الصغير ، والقاضى
بركات المحتسب ، وقيل ساعدهما خير الدين فائب
القلعة ، فى أمر الشهابى أحمد بن الجيعان ، رسم
ملك الأمراء بالافراج عنه بعد جهد كبير ، وكان
ملك الأمراء على خطر ، وبانت عليه لوائح
الموت .

فلما أفرج عنه ألبسه قفطان حرير ، وأركبه على
فرس من الاصطبل السلطاني ، ونزل من القلعة ،
وشق من القاهرة فرجت له ، وانطلقت له النساء
من الطيقان بالزغاريت ، وارتفعت له الأصوات
من الناس بالدعاء . فان الشهابى أحمد كان محببا
للناس فشق من القاهرة بعد العصر ، فكان له
موكب حافل ، وكان ذلك اليوم مشهودا ، فتوجه
الى منزله بعد ما قاسى شدايد ومحن ، وأوعد
بالشنق من ملك الأمراء ، فكفاه الله تعالى شره .
وفيه يقول الأديب ناصر الدين محمد بن قانصوه :

أصحابها ، ثم صار يقول للمباشرين الذين شوش عليهم : حاللوني وأبرئوا ذمتي . فحاللوه غصبا .

وفي يوم الجمعة ثانی عشره رسم باطلاق المحاييس رجالا ونساء ، فتوحه القاضي شرف الدين الصغير والقاضي المحتسب الى بيت الوالى ، وعرضوا من فى سجن الديلم والرحبة ، فطلعوا بالمحاييس فى زناجير مشاة وتوجهوا بهم الى بيت الوالى ، فلما عرضهم هناك ، صار القاضي شرف الدين الصغير والقاضي المحتسب يصلحون أصحاب الديون الذين عليهم من أربعين أشرفيا ونازل ، فيقولون لأصحاب الديون اتركوا لأجل ملك الأمراء الباقي . فصالحوا أرباب الديون بقدر يسير ، وفعلوا ذلك بجماعة كثيرة من أرباب الديون ، وفيهم جماعة من أعيان الناس .

وأطلقوا جماعة كثيرة من الضمان ، وجماعة من الفلاحين ، فليل أطلقوا من سجن الرحبة أربعين انسانا ، وأطلقوا من سجن الديلم دون ذلك ، ولم يتركوا بالسجنين غير الحرامية ، ومن عليه دم .

ولم ير الناس فى أيام ملك الأمراء خاير بك أحسن من هذه الأيام ، فانه جاد مع الناس وبر الفقراء والمساكين ، ولم يعرف الله الا وهو تحت الحمل ، فلم يفده من ذلك شىء ، ويأبى الله الا ما أراد :

ويقرب من هذه الواقعة ما وقع للأشرف الغورى لما حصل له عارض فى عينيه ، فجاد على الناس الى الغاية ، وأفرج عمن بالسجون ، وعن جماعة من المباشرين ممن كان فى الترسيم بمال له صورة ، وكانت تلك الأيام خيار دولته على الاطلاق .

ويقرب من ذلك ما وقع للأشرف قايتباى لما وقع عن الفرس وانكسر فخذه ، وأقام منقطعا فى القاعة التى بجوار الدهيشة ، وجلس على سرير

مقور ، وصارت الناس تدخل عليه وتسلم عليه ، فجاد على الناس ، وأفرج عن جماعة كثيرة من المباشرين كانوا فى السجن ، وتصدق بمال له صورة على الفقراء والمساكين ، وفعل أشياء كثيرة من أنواع البر والصدقات ، وكانت تلك الأيام خيار دولته .

وغالب هؤلاء الملوك ما يعرفون الله الا وهم تحت الحمل ، اذا جرت عليهم مصيبة يجودون فى حق الناس ، ويفعلون الخير . .

وفي يوم السبت ثالث عشره ، أشيع أن ملك الأمراء قد نزل به النزاع ، وأنه أرسل خلف الأمير سنان بك العثمانى ، فلما طلع اليه وجده فى حال التلف ، فدفع اليه خاتم الملك الذى كان السلطان سليم شاه أعطاه له .

ثم انه قال له على قدر الأموال التى فى الخزانة ، وقال الأموال ستمائة ألف دينار ذهب عين ، هذا خارج عما كان فى بيت المال من المال ، وخلف من الخيول والجمال والبغال والحمير ما لا ينحصر ، ومن الغلال والأغنام والأبقار أشياء كثيرة ومع وجود هذه الأموال التى تركها كان يكسر جوامك المماليك الجراكسة ستة أشهر لم يعطهم شيئا ، ويشتكى أن بيت المال مشحوت من المال .

وكان أصل ملك الأمراء من مماليك الأشرف قايتباى ، وهو جركسى الجنس أباطا ، وكان أبوه اسمه بلباى الجركسى ، ولهذا كان يدعى خاير بك بلباى ، وينسب الى الأشرف قايتباى .

ومات أيضا أخوه خضر بك ، وأما أخوه جان بلاط فانه بقى مقدم ألف ومات فى دولة الملك الناصر محمد بن قايتباى ، مات بالطاعون . وأما أخوه قانصوه فانه كان يعرف بقانصوه المحمدى ، فارتقى حتى تولى نيابة الشام ، ومات فى دولة الأشرف الغورى .

وأما ما عهد من مساويه ، فانه كان جبارا عنيدا
سفاكا للدماء . قتل في مدة ولايته ما لا يحصى من
الخلائق ، وشنق رجلا على عود خيار شنبر أخذه
من جنينته ، وشنق من الناس ووسط وخوزق
جماعة كثيرة ، واقترح لهم أشياء في عذابهم ، فكان
يخوزقهم من أضلاعهم ، ويسميه شك الباذنجان ،
فقتل بمصر وحلب فوق العشرة آلاف رجل ،
وغال بهم راح ظلما .

ومنها أنه آتلف معاملة الديار المصرية من الذهب
والفضة والفلوس الجدد ، وسلط ابراهيم اليهودي
معلم دار الضرب على أخذ أموال المسلمين .

ومنها أنه قرب شخصا من النصارى يقال له
يونس ، وجعله متحدثا على الدواوين ، وصار
المسلمون يفتون في خدمته ويخضعون له .

ومنها أنه كان يكره الفقهاء وطلبة العلم والعلماء
وعزل القضاة الأربعة ونوابهم قاطبة ، ومنع الشهود
أن يجلسوا في الجوانيت ويتقاضوا أشغال
الناس .

ومنها أنه كان يكره المماليك الجراكسة ويعوق
جوامكهم ستة أشهر ، ثم يصرف لهم شهرين بألف
جهد .

ومنها أنه شوش على جماعة من أعيان المباشرين
وضربهم وبهدلهم وعوفهم في الترسيم نحو خمسة
أشهر ، ولا سيما ما جرى على الشهابى أحمد بن
الجيعلان ، فانه سلب نعمته ، وأخذ منه فوق
السبعين ألف دينار ، حتى باع جميع أملاكه
وقماشه ورزقه ، وبقي على الأرض

ومنها أنه ندب يوسف بن أبى الفرج وقرره في
وظيفة يقال لها مفتش الرزق الجيشية ، فحصل
للناس منه غاية الضرر الشامل .

ومنها أنه أرسل فخر الدين بن عوض الى بلاد
الصعيد ، ومسح الرزق الأعباسية ، وأدخلها في

وأما خاير بك فانه أقام بالطبقة وصار من جملة
المماليك السلطانية ، فأخرج له السلطان خيلا
وقماشيا وصار من جملة المماليك الجمدارية ، ثم
بهي خاصكيا دودار سكين ، ثم بقى أمير عشرة في
سنة احدى وتسعمائة في دولة الملك الناصر محمد
ابن الأشرف قايتباى ، ثم بقى أمير طبخانات في
دولته أيضا ، وأرسله قاصدا الى الخنكار أبى يزيد
ابن عثمان ملك الروم في سنة ثلاث وتسعمائة ،
ثم بقى مقدم ألف في دولة الأشرف جان بلاط ،
وأخرج صحبة العسكر الى الشام . فلما حضر العادل
الى مصر أرسله بالأفراج عنه ، فلما حضر أنعم
عليه بتقديمه ألف كما كان . فلما تسلطن الأشرف
الغورى ، جعله حاجب الحجاب ، واستمر على ذلك
حتى توفى أخوه قانصوه المحمدي نائب الشام ،
فقتل السلطان الأمير برسباى من نيابة حلب الى
الشام عوضا عن قانصوه برج ، وخلع على الأمير
خاير بك وقرره في نيابة حلب عوضا عن برسباى ،
وذلك في سنة عشر وتسعمائة ، واستمر على ذلك
حتى تحرك الخنكار سليم شاه ابن عثمان على
السلطان الغورى . وانكسر ، وكان خاير بك سببا
لكسرة الغورى .

فلما ملك سليم شاه الديار المصرية وجرى منه
ما جرى ، وأراد التوجه الى بلاده ، خلع على يونس
باشا وقرره نائبا على مصر ، ثم بدا له أن يقرر خاير
بك نائب حلب على نيابة مصر عوضا عن يونس
باشا ، فخلع عليه في يوم الثلاثاء ثالث عشر شعبان
سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة ، ودفع اليه خاتم
الملك ، فاستمر على نيابته بمصر الى أن مات في
يوم الأحد رابع عشر ذى القعدة سنة ثمان وعشرين
وتسعمائة ، فكانت مدة نيابته بمصر خمس سنين
وثلاثة أشهر وسبعة عشر يوما ، بما فيها من مدة
انقطاعه عن المحاكمات ، وتوعك جسده .

الديوان ولم يفرج عنها ، وحصل للناس بسبب ذلك غاية الضرر ، فقبل انه أخرج ألفا وثمانمائة رزقة ، منها ما كان على الزوايا والمساجد والترب وغير ذلك .

ومنها أنه كان سببا لخراب الديار المصرية ودخول سليم شاه الى مصر ، وحسن له عبارة أخذ مصر ، وضمن له أخذها من غير مانع ، وعرفه كيف يصنع حتى ملكها ، وجرى منه ما جرى ، وقتل الأمراء والمماليك الجراكسة ، وشنق السلطان طومان باى على باب زويلة ، وكل ذلك بترتيبه ودوليته .

وكان كثير الحيل والخداع والمكر ، وكان من دهاة العالم لا يعلم له حال . ولو ذكرت مساويه كلها لطال الشرح في ذلك ، وقد قلت فيه هذه الأبيات عن لسانه :

أصبحت بقاع حفرة مرتهنا

لا أملك من دنياى الا كفنا

يا من وسعت عباده رحمته

من بعض عبيدك المسيئين أنا

فلما تحقق الناس موت ملك الأمراء ارتجت القاهرة ، وأشيع أن التركمان يهبون الأسواق ، فانتقل مكان الجسر من بركة الرطلى على ملح البصر ووزع الناس أمتعتهم في الحواصل .

ثم طلع الأمير سنان بك الى القلعة ، وحضر الأمير خير الدين بك نائب القلعة ، والأمير خضر بك ، والكواخى أغوات الانكشارية ، فلما اجتمعوا ضربوا مشورة في أمر المملكة ، وما يكون من أمر العثمانية ، فالتزم الأمير خير الدين نائب القلعة والكواخى بأمر الانكشارية ، والتزم الأمير سنان بك والأمير خضر بك بأمر الاصباكية وغير ذلك من

الكمالية ، ثم حضر الأمير أوزمك الناشف ، فإزموه بأمر المماليك الجراكسة وما يحصل منهم .

ثم ختم نائب القلعة والأمير سنان بك سلبى الحواصل التى بالقلعة .

ثم ان الوالى والقاضى بركات المحتسب نزلا من القلعة وناديا فى القاهرة بالأمان والاطمئنان والبيع والشراء ، وأن لا أحد يعلق له بابا ولا دكانا ، والدعاء للسلطان سليمان بالنصر ، فارتفع به الأصوات من الناس بالدعاء قاطبة ، فكررنا هذه المناداة يوم الأحد ويوم الاثنين .

وكان عند العثمانية عادة اذا مات صاحب المدينة يهبون المدينة عن آخرها ، فمنعهم الأمراء التركمان من ذلك ، وقالوا لهم متى نهبتم المدينه تملككم عوام مصر ، ويحصل بينهم وبينكم فتنة عظيمة ، وتخرب مصر عن آخرها ، فسكن الاضطراب قليلا .

ثم فى يوم الاثنين ، لما دفن خاير بك ، تحول الأمير سنان ، وطلع الى القلعة من يومه ، وسكن بها ، فوقع بين الأمير سنان والأمير خضر تشاجر بسبب النيابة ، فأظهر الأمير سنان مرسومه وعليه علامة السلطان سليمان ، بأنه اذا تولى ملك الأمراء خاير بك يكون عوضا عنه فى نيابة مصر ، فوقع الاتفاق بينهما بأن يستقر بالقلعة ، ويكاتب السلطان بموت خاير بك ، وينتظر الجواب بما تقتضيه الآراء الشريفة فى ذلك .

ثم ان الأمير سنان عرض ما فى بيت المال من المال ، فوجد خاير بك خلف من المال على ما قيل ستمائة ألف دينار ، خارجا عما كان فى بيت المال .

ثم ان الأمير سنان بك خلع على القاضى شرف الدين الصغير واستقر به متحدئا على جهات الغربية وخلع على الشهابى أحمد بن الجيعان ، وشرف

وفي يوم الخميس ثامن عشره ، سافر الأمير اينال السيفى طراباى الذى ولى كشف الشرقية الى محل ولايته بها .

وفي يوم الجمعة تاسع عشره ، حضر شخص من مسالك الأمير قايتباى الدوادر فى بعض أشغال أستناذه وعلى يده كتب ، فكان من مضمونها أن السلطان سليمان نازل على رودس ، وأنه يباب رودس يحاصرها أشد المحاصرة ، وقد قتل من العسكر العثمانى ما لا يحصى من البندق الرصاص ومن المدافع التى عمالة نازلة فى كل يوم من قلعة رودس ، وكلما هدم من سورها شيئا تبنيه الفرنج تحت الليل بالحجر الفص ، وقد أعياهم أمر الفرنج وقوة بأسهم ، وقد كتم موت من مات من الأمراء الجراكسة والمماليك .

وفي يوم السبت عشريه ، رسم الأمير سنان لمماليك ملك الأمراء خاير بك أن ينزلوا من الطباق التى بالقلعة ، فشق ذلك عليهم ، فلما نزلوا من الطباق طلع اليها جماعة من الاصباهية ممن هم من جماعة الأمير سنان ، والانكشارية من عصبة خير الدين نائب القلعة .

ثم أشيع أنه وقع بين الأمير سنان والأمير خضر العثمانى تشاجر بسبب النيابة ، فوقع الاتفاق على ما يرد من جواب السلطان على ذلك .

وفيه أشيع أن الأمير اينال السيفى ، الذى استقر كاشف الشرقية ، تحول عنها الى كشف الغربية ، وأعيد الأمير جان بك الى كشف الشرقية كما كان أولا .

واستهل شهر ذى الحجة بيوم الثلاثاء ، فكان المتحدث على الديار المصرية يومئذ الأمير سنان بك العثمانى ، نائبا على مصر عوضا عن خاير بك بحكم وفاته ، وكان قضاة القضاة منفصلين عن القضاء كما تقدم ، فأم يطلع الى التهنئة بالشهر أحد .

الدين بن عوض ، وجعلهما متحدثين على جهات الشرقية ، فامتنع الشهابى أحمد كل الامتناع من لبس القفطان وقال : أنا أصبحت رجلا فقيرا لا أملك من الدنيا شيئا ، وأنا ما بقيت أباشر شيئا فأرسلونى الى اسطنبول أو الى مكة المشرفة . ورد على الأمير سنان ذلك القفطان .

وخلع على القاضى بركات المحتسب ، وجعله متحدثا على جميع جهات الشرقية من دمياط الى المطرية على عادته . وخلع على محيى الدين بن أبى أصعب ، وجعله متحدثا على ديوان الوزارة وديوان الخاص على عادته كما كان .

وفي ذلك اليوم نزل حريم خاير بك من القلعة على وجوههن وهن فى غاية الذل .

وفي يوم الأربعاء سابع عشره رسم الأمير سنان بتوسيط شخص من الاصباهية فوسطه فى الرميلة . وسبب ذلك أنه خطف خرقة جوخ ثمنها مائة وعشرون ديناراً ، فطلع صاحب الجوخة الى الأمير سنان وشكا له ذلك الشخص الاصباهى ، فقال له الأمير سنان : ألك عليه بينة بأنه خطف منك الخرقة الجوخ ؟ فقال له : نعم ، وأحضر له من شهد عليه بذلك ، فأرسل خلف الاصباهى وسأله عن ذلك فاعترف ، وأحضر الخرقة الجوخ ، وأعادها الى صاحبها ، ومضى بها . ثم انه رسم بتوسيط الاصباهى فوسطوه فى الرميلة عند باب الميدان ، وهذا أول حكم الأمير سنان فى القتل .

ثم ان الأمير سنان رسم بأن يعين جماعة من الانكشارية فى بيت المحتسب يضبطون ما يتحصل من أموال الحسبة فى كل يوم ، وجعل مثل ذلك فى بيت الوالى ، وبيت محيى الدين بن أبى اصعب لكونه متحدثا فى ديوان الوزارة والخاص ، وجعل مثل ذلك فى ديوان الوزراء ، يضبطون ما يتحصل فى كل يوم ، وجعل مثل ذلك على المكاساة الذين فى بولاتن ومصر العتيقة ، وغير ذلك من القباض

وفي يوم السبت خامسه ، توفي الشيخ أمين الدين بن النجار خطيب جامع العمري ، وكان ديننا خيرا من أهل العلم والدين ، من أعيان الشافعية .

وفي غيب موته توفي القاضي جلال الدين بن محمد بن بدر الدين بن محمد بن كسيل أحد نواب الشافعية ، وكان عالما فاضلا ، وله نظم جيد ، وكان من أعيان الشافعية

وفي يوم الخميس عاشره ، كان عيد النحر ، فصنع الأمير سنان مدة حافلة بالقلعة لأجل الاصباهية والانكشارية والكملية ، فتناهبوا تلك المادة على ملح البصر ، وقد ذاق الأمير سنان طعم المملكة ، ودخلت حلاوتها في أسنانه .

وفي يوم الخميس سابع عشره ، فادى الأمير سنان بعد العصر في القاهرة بأن السلطان سليمان استقر بالوزير الأعظم مصطفى باشا نائبا على مصر عوضا عن خاير بك بحكم وفاته . وقد وصل ذلك النائب الى الاسكندرية ، ثم نادى في ذلك اليوم للناس بالأمان والاطمئنان ، والبيع والشراء وأن لا أحد يكثر كلاما فيما لايعنيه .

فلما تحقق الناس ذلك ، خرج المباشرون وأعيان الناس الى ملاقة ذلك النائب ، وأشيع أن الأمير جانم الحمزاوى قادم صحبة النائب ، وأنه قد وصل الى قليوب ، فخرج غالب العسكر العثماني الى ملاقاته .

فلما كان يوم الأربعاء ثالث عشرى ذى الحجة وصل الوزير الأعظم مصطفى باشا الى ساحل بولاق . فلما أشيع ذلك نزل الأمير سنان من القلعة ، والأمير خير الدين نائب القلعة ، وآتى اليهم الأمير خضر العثماني ، وآتى اليهم الكواخي أغوات الانكشارية ، وآتى الأمير أرزمك الناشف

أغات المماليك الجراكسة ، وسائر الاصباهية والانكشارية والكملية قاطبة ، وبوجهوا الى بولاق لأجل ملاقة النائب مصطفى باشا .

فلما وصلوا الى بولاق ، احصروا للنائب فرسا من الخيول الخاص ، وليس خلعة السلطان ، وهي بتناسيح على أحمر ، واحصروا لجماعته نحو أربعمائى فرس ، فركب النائب من هناك هو وجماعته ، ومشت الانكشارية قدامه والكملية قاطبة يرمون بالنفوط ، وركب جميع الاصباهية وأمراؤهم ، وجميع الأمراء الجراكسة وأتباعهم ، وأعيان الناس قاطبة .

فدخل من باب البحر واستمر الى باب القنطرة ، فشق من سوق مرجوش ، ثم شق من القاهرة في موكب حافل مثل موكب ملك الأمراء خاير بك ، وكان الأمير سنان عن يمينه ، والأمير جانم الحمزاوى عن يساره وعليه خلعة بتناسيح ذهب ، والأمير خير الدين نائب القلعة ، والأمير خضر قدامه ، وعلى رأسه صنجق بقمع فضة ، ومن ورائه طبلان وزمران عثمانية ، وخلفه جماعة بطراير حمر بعصائب ذهب .

فلما شق من القاهرة ارتفعت له الأصوات من الناس بالدعاء ، وانطلقت له النساء بالزغاريت من الطيقان ، وكان ذلك اليوم مشهودا .

وكانت صفته أنه أبيض اللون ، عربى الوجه حليق اللحية ، ليس له غير شاربين أصفرين ، معتدل القامة ، وعليه حشمة وخضر ، وقيل هذا أعظم وزراء ابن عثمان ، حتى أطلق عليه أنه وزير الوزراء . واستمر في موكب حافل حتى شق من الرملة ، ودخل الى الميدان ، ثم صعد الى القلعة . وفيه يقول الناصرى محمد بن قانصوه بن صادق :

لأنحزلى مصر على
موت الأمير خير بك

بل افرحى بمصطفى

ستتظريه خير بك

فلما قدم النائب مصطفى باشا الى مصر ، أشيع أن الأخبار وردت على السلطان سليمان بوفاة ملك الأمراء خاير بك وهو على رودس في يوم الخميس ثالث ذى الحجة . فلما تيقن موته خلع على وزيره الأعظم مصطفى باشا وقرره في نيابة مصر عوضا عن خاير بك بحكم وفاته ، فاستقر في النيابة يوم السبت خامس ذى الحجة سنة ثمان وعشرين وتسمعاة ، وكانت ولايته في الخامس وهو يوم نحس مستمر .

وكان السلطان على رودس ، فكانت مدة ولايته من حين ولى برودس ، الى أن دخل الى نجر الاسكندرية ، تسعة عشر يوما ، وكانت مدة سفره في البحر أربعة أيام ، ودخل الى شاطيء بولاق يوم الأربعاء ثالث عشرى ذى الحجة ، فتكون مدة ولايته من حين ولى برودس الى أن دخل الى الديار المصرية ثلاثة وعشرين يوما .

فلما طلع النائب مصطفى باشا الى القلعة يوم الأربعاء مد له الأمير سنان هناك مدة حافلة بالقلعة ، ثم مد له بساط الأنس وسلمه مفاتيح بيت المال ، ودفع له خاتم الملك الذى كان السلطان سليم شاه أعطاه لملك الأمراء .

ثم تحول الأمير سنان ، ونزل الى منزله بدر بن ابن البابا ، فكانت مدة نيابته بالقاهرة الى أن حضر مصطفى باشا ثمانية وثلاثين يوما ، كأنها أضغاث أحلام .

وفي يوم الخميس رابع عشره ، نزل النائب مصطفى باشا الى الميدان ، وحضر الأمير سنان ، والأمير خضر ، والأمير خير الدين نائب القلعة ، وحضرت الأغوات المتعلقة بالانكشارية ، وقرىء عليهم مرسوم السلطان الذى حضر على يد مصطفى

باشا ، فكانت براءة استهلال ذلك المرسوم : « الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا قيما » . ثم نعمت النائب مصطفى باشا بنعوت عظيمة ، بأنه وزير الوزراء ، وأمير الأمراء ، وما أشبه ذلك من النعوت الحسنة .

ثم رسم له بأن يعطى في كل سنة من خراج أراضى مصر مائة ألف دينار له وللماليكه وحاشيته . ومن مضمون ذلك المرسوم أنه لا يصرف لطائفة الانكشارية والاصباهية أكثر من أربعة أنصاف في كل يوم ، فشق عليهم ذلك . وكان ملك الأمراء خاير بك رتب لجماعة من الاصباهية أشرفيين في كل يوم جماعة ، وأشرفى كل يوم ، وكان في طائفة الانكشارية من كان له في كل يوم عشرون تصفا ، وشيء عشرة أنصاف ، وشيء ثمانية ، فبطل ذلك جميعه ، واستقرت على أربعة أنصاف كل يوم .

ومن مضمون المرسوم ، الوصية بالرعية قاطبة ، والماليك الجراكسة ، واصلاح المعاملة ، والنظر في أحوال الرعية والمسلمين بما فيه اصلاحهم . وكان من مضمونه أشياء كثيرة يطول شرحها . وفي ذلك اليوم طلع القضاة الأربعة يسلمون عليه ، فوجدوه بالأشرفية النى بالقلعة ، فلم يمكنوهم من الدخول اليه حتى شاوروه ، فأذن لهم ، فدخلوا عليه فوجدوه ملقى على ظهره ، فلم يلتفت اليهم ، ولا قام لهم ، ولم يعدهم من البشر . ثم قال لهم على لسان الترجمان النائب : « يقول لكم لولا أنه ضعيف لقام لكم » . فقرأوا الفاتحة وانصرفوا .

وفي يوم الجمعة خامس عشره ، نزل النائب مصطفى باشا الى الميدان وجلس به ، وعرض موجود ملك الأمراء خاير بك من الجمال والخيول والبغال ، فوجد له من ذلك أشياء كثيرة لا تنحصر ، ثم طلع الى الحوش السلطاني وعرض مماليك

خاير بك ، ثم عرض الحواصل التى فيها الموجودات من قماش ونحاس وصينى وغير ذلك ، فوجد له أشياء كثيرة أعظم من موجود الأشرف قايتباى ، ووجد له من الذهب العين على ما قيل ستمائة ألف دينار . وقد حاز هذا الموجود العظيم فى هذه المدة اليسيرة .

وفى يوم السبت سادس عشره ، نزل مصطفى باشا الى الميدان وجلس به ، وحوله الأمير سنان والأمير خضر والأمير خير الدين نائب القلعة والأمير أرزمك الناشف وجماعة آخرون من الأمراء ، فأظهر التعاطف فى ذلك اليوم ، ومشى على طريقة الخنكار سليم شاه ، وصار كواحد منهم .

وكان النائب مصطفى هذا متزوجا بابنة الخنكار سليم شاه ، وهى أخت السلطان سليمان ، فوقف الوالى قدامه بالعصا ، وكذلك نقيب الجيش أيضا ، واصطفت قدامه الانكشارية والاصباهية والكلمية وبأيديهم العصى . ثم ترادفت عليه القصص بحوائج الناس ، فلم يفهم منها شيئا ، وصار الترجمان يقول له معنى ما فى القصص بالتركى ، وهو كالخشبة . ثم رسم بالناداة فى القاهرة بالأمان والاطمئنان ، والبيع والشراء ، وأن كل من ظلم من بعد ملك الأمراء خاير بك فعليه بالأبواب العالية .

ثم أشيع أنه نادى أن العمال يقبضون الخراج من الفلاحين ، النصف الفضة بنصفين ، ويقام لهم عند الحساب بنصفين وربيع ، ففرح الفلاحون بذلك . ثم من بعد ذلك تبين أن هذه الاشاعة ليس لها صحة ، وكل شئ على حكمه فى المعاملة .

ثم ان النائب قام وطلع الى القلعة ، وهذا أول ديوان فى أيامه ، وأول محاكماته بين الناس ، وأول جلوسه للناس عامة .

وفى يوم الأحد سابع عشره ، أشيع فى القاهرة أن القاضى بركات بن موسى قد انفصل عن الحسبة ،

واستقر بها شخص من العثمانية من أقارب النائب مصطفى يقال له قاسم باشا ، فاضطربت القاهرة بسبب ذلك ، وشق على الناس عزله

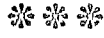
وفى ذلك اليوم أشيع أن النائب عد أخذ معاين الحواصل كلها جميعا التى فى القلعة من البوابين ، وسلمها لجماعة من الأروام من حاشيته ، وطرد البوابين والغلمان والركابة والبايسة ، وأبطل الشواش والركبدارية والفراشين وغلمان السلطان قاطبة ، حتى بطل الطباخين من المطبخ ، وأقام جماعة من الأروام عوضهم ، وأبطل المقرئين الذين كانوا يقراءون بالقلعة قاطبة ، حتى أبطل من كان بالقلعة من المؤذنين ، وجعل لجامع الحوش مؤذنا واحدا ، وأبطل جميع نظام القلعة الذى كانت عليه قديما ، ومشى على القانون العثمانى ، وهو أشام قانون .

ثم انه شرع فى بيع موجودات ملك الأمراء خاير بك ، فطلب التجار قاطبة فطلعوا الى القلعة بسبب المبيع .

وفى يوم الاثنين ثامن عشره ، طلع اعيان المباشرين الى القلعة ، وتوجهوا الى بيت الدفتردار ، فاجتمعوا هناك وشرعوا فى أمر تقسيط البلاد ، وأشيع أنهم قد أفردوا للنائب مصطفى باشا فى كل شهر ثمانية آلاف دينار ، ولما ليكه خاصة ، ولجماعته وحاشيته ومطبخه وانعاماته ، وغير ذلك مما حكم به الزمان الخيىث على الناس .

ثم ان المعلم الحلوانى العجمى الذى كان دكانه تجاه المدرسة الناصرية ، التى بين القصرين ، صار من خواص النائب مصطفى باشا ، وصار من المقربين عنده ، ويتقاضى حوائجه وحوائج الناس عنده ، واجتمعت فيه الكلمة ، وصار المرجع اليه فى الأمور فى تلك الأيام ، حتى بقى كمنزلة الدوادار الكبير . فكان كما يقال فى المعنى :

حسبما رسم الزينى بركات بن موسى كل شيء على حاله ، وأن السوقة والمتسبين يحضرون باكر النهار الى بيت القاضى بركات بن موسى ناظر الحسبة الشريفة ، وناظر الذخيرة الشريفة ، فهو على حاله فى الحسبة ، ففرح غالب الناس بذلك .



انتهى ما أوردناه فى هذا التاريخ من الأخبار العجبية ، والوقائع الغريبة ، وقد اشتمل على أخبار سبع دول كانت بالديار المصرية وقد تقدم ذكرها من الأول الى هنا . وقد وقع لى من المحاسن فى هذا التاريخ ما لم ينع لغيرى من المؤرخين فيما أوردوه من تواريخهم القديمة ، وقد أعان الله تعالى على انتهائه على خير ، والله الحمد والمنة على ذلك وفيه أقول :

عما جنى بالتهامى
يارب أحسن ختامى

اغفر لمنشيه واصفح
أحسنت لى فى ابتداء

وقولى أيضا :

يطرب من لفظه المجالس
يشرح صدرا لكل عابس

تاريخنا بهجة المجالس
سماعه للمورى سرور

وغيره أيضا :

س إذا تغيرت البش
أبدا ويقنع بالنظر

ألفته نعم الجليل
يقتى على سنن الوفا

ما كنت أحسب أن يمتد بى زمنى
حتى أرى دولة الأوغاد والسفل

وفى يوم الثلاثاء تاسع عشره ، قدم مبشر الحجاج ، وأخبر بالأمن والسلامة ، وأن الضلاء وموت الجمال موجود مع الحجاج ، ولم يكن لنا قالوه من أمر الفتن التى وقعت بمكة صحة ، والله الحمد والشكر على ذلك .

وفى ذلك اليوم ، خلع مصطفى باشا على القاضى شرف الدين الصغير ، وأقره على ما كان عليه من التحدث على جهات الغربية ، وخلع على القاضى فخر الدين بن عوض ، وأقره على ما كان عليه من التحدث على جهات الصعيد ، وخلع على القاضى بركات بن موسى ، والقاضى شرف الدين بن عوض ، واستقر بهما فى التحدث على جهات الشرقية قاطبة كما كانا فى الأول ، فنزلوا من القلعة ، وشقوا من القاهرة فى موكب حافل .

ثم أشيع أن القاضى بركات بن موسى لم يعد الى الحسبة ، فتشوش الناس لذلك .

وفى يوم الأربعاء سلى الشهر ، ترشح امر القاضى بركات بن موسى المحتسب لعوده الى الحسبة ، وقيل انه رتب لذلك الشخص العثمانى أشرفيين كل يوم ، فنادى فى القاهرة بعد العصر



